إصلاح أم تحديث؟

مصر في عصر محمد علي

تحرير: رؤوف عباس



المجلس الأعلى للثقافة

إصلاح أم تحديث ؟

مصر فى عصر محمد على

ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على رحيل
محمد على باشا الكبير

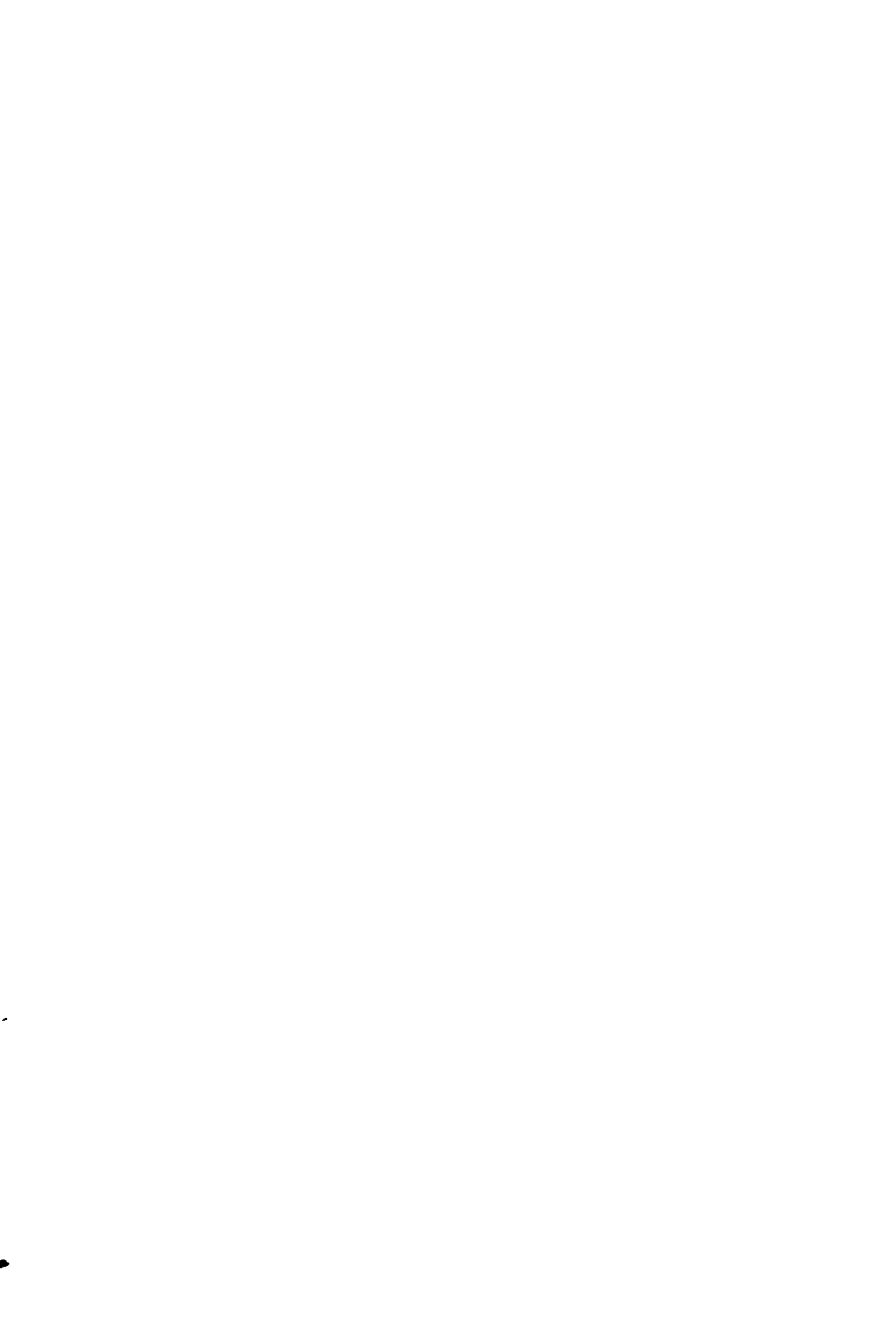
٩ - ١١ مارس ١٩٩٩

تحـــريـــر

رءوف عباس



٢٠٠٠



فهـــــــرس

تقــديم

درجت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ إنشائها عــــام ١٩٤٥م على تخصيص ندوتها السنوية لمعالج إحدى القضايا الهامة من تاريخنـــا القومـــي، حيث يلتقي المشتغلون بالبحث التاريخي على اختلاف أجيالهم، يتبادلون الخـــبرات، كما يتبادلون الرأي، وكانت ندوات الجمعية تجتذب أحيانًا المشاركين مـــن خـــارج مصر والدارسين والمهتمين بالبحث التاريخي في مصر.

ولا زال هؤلاء وأولئك يذكرون ما صدر عن الجمعية من دراسات رصينـة. نُشرت منذ عام ١٩٤٩م، في إطار احتفال مصر بالذكرى المئوية لرحيـــل محمـد علي باشا الكبير، باعتباره رأس الأسرة الحاكمة آنذاك. وباعتباره مؤسس مصـــر الحديثة وراعي نهضتها. وكان نشر تلك الدراسات المرجعية الهامة بدعـــم مـادي سخي تلقته الجمعية عندئذ من القصر الملكي. لذلك ركزت تلك الدراسات علــى الإنجازات والإيجابيات، وحجبت الأضواء عن غيرها من قسمات وملامـــح تلـك الحقبة الخصبة من تاريخ مصر. ورغم ذلك، ظلت تلك الدراسات تسد فراغًا كبـيرًا في المكتبة التاريخية لعدة عقود من السنين.

وإذا كانت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تعود اليـــوم لتملـــك زمــام المبادرة بإحياء الذكرى الخمسين بعد المائة لرحيل محمد علي باشا الكبير، فإن ذلك يتم في سياق آخر، سياق احتفال الجمعية بتاريخ هذا الوطن العزيـــز، والاهتمـــام بإخضاع الحقب الهامة بين ذلك التاريخ للفحص المجهرى الدقيق سعياً لإعادة تقويم تلك الحقب بقدر أكبر من الموضوعية ، وإلقاء المزيد من الضوء علـــى تجـارب خالدة من تاريخ هذا الوطن الذي كان التاريخ دائمًا صناعته التي كان له فيها قصب السبق. وفي دراستنا لتجربة مصر في عصر محمد علي هـــذه المــرة نضـــع الإيجابيات على أبعاد تلك التجربة الخالدة، ونسبر غورها، لنتعلـــم منـــها مـــا قـــد

يساعدنا على تحديد معالم طريقنا إلى مستقبل نأمل أن تحتل فيه مصر مكانها اللائق بها بين الأمم.

فقد حول محمد علي مصر من الهامش إلى القلب، وأثبت عمليًا أن مصر قادرة . بمواردها وأبنائها. على امتلاك مفاتيح القوة بمفهومها العصري (عندئذ)، فاستطاع جيش مصر الحديث بجنوده الفلاحين أن يعيد لمصر في سنوات قلائل دورها الإقليمي المفقود، كما حققت التنمية الاقتصادية تراكمًا ملحوظًا استثمر في تمويل المشروع الطموح بمختلف أبعاده دون الاستدانة من الخارج، بل حقق الاقتصاد المصري في نهاية عصر محمد علي فائضًا استثمر بعضه عباس الأول في بناء الخط الحديدي. وأعطى الإنجاز في حقل التعليم والثقافة لمصر دورها الريادي المتميز في العالم العربي.

غاب العدل الاجتماعي، وأثقلت تكاليف التجربة كواهل الجماهير الكادحة، أجل، ولكن رصيد مصر من حصاد التجربة كان له أثره على تطورها الحديث ، فلم تعد مصر ما بعد محمد علي هي ذاتها مصر التي كانت قبله.

تُرى .. هل كان محمد علي الكبير حقًا صاحب اليد الطولي فيما تحقق، أم أن مصر كانت قبله تمر بمرحلة مخاض تبشر بولادة مرحلة جديدة من تاريخها، فوجدت من يهيئ لها السبيل لتضع وليدها الجديد هل الفرد أو البطل يصنع تاريخ الأمة أم أن جماهيرها هي صانعة التاريخ ؟

أسئلة حسم علم التاريخ الإجابة عليها ، ولكنها لا زالت عالقة فى أذهان الكثيرين ، وكان دور هذه الندوة أن تضع النقاط على الحروف .

وهدفت هذه الندوة إلى إلقاء الضوء على التغيرات التي شهدتها مصر في نصف القرن الذي يمثل عصر محمد علي، للوقوف على الجذور التي أنبتت تلك التغيرات. وتجديد دورها في استمرارها أو تقاعسها، وبيان ما استطاعت مصر أن

تتخذ منه حجر الزاوية في إعادة هيكلة اقتصادها ومؤسساتها المختلفة فـــى الفـــترة اللاحقة على عصر محمد على ، أو – بعبارة أخرى – تقدير ما خرجت به مصـــر من محصلة تلك التجربة الخالدة.

ورغم قصور إمكانات الجمعية عن تقديم واجب الضيافة للباحثين من خـــارج مصر، كان الإقبال على المشاركة في هذه الندوة كبيرًا، فقط طلب ثلاثـــون باحثًـا المشاركة فيها جاء معظمهم من مصر، وجاء من الأخوة العرب باحث من السودان وآخر من المغرب، وجاءنا من خارج العالم العربي ثلاثة باحثين من روسيا وأربعة من الولايات المتحدة الأمريكية وباحث من هولندا، قدموا أوراقًا تعالج زوايا هامـــة من تاريخ هذا العصر بغرض إعادة تقويم حصاده.

ويسعدني أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان للزملاء الذين لبوا الدعـوة للمشاركة في أعمال الندوة، والزملاء الذين تجشموا عناء السفر من خارج مصــــر لحضور الندوة، وإلى مكتبة القاهرة الكبرى التي أكرمتنا باستضافة الندوة، وإلـــــى صندوق التنمية الثقافية بوزارة الثقافة الذي قدم لنا بعض الدعم، وإلى من تـــبرعوا بالمال والجهد لجعل الندوة أمرًا واقعًا، وإلى رجال الإعــــلام والســـادة الحضـــور للاهتمام بالمتابعة. أما الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلـــس الأعلـــى للثقافة فصاحب الفضل الذى لا ينكر فى إتاحة هذه الأعمال للقراء ، فإلى ســـيادته والمجلس الأعلى للثقافة نتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير .

والله والوطن العزيز من راء القصد.

أ.د. رءوف عباس حامد

مقرر الندوة



المشاركون

حسب الترتيب الأبجدى

أ.د. إبراهيم نصحى قاسم	رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (سابقاً)
أ.د. أحمد إبراهيم دياب	أستاذ بجامعة أم درمان
أ.د. أسحق عبيد	أستاذ بجامعة عين شمس
أ.د. جمال زكريا قاسم	أستاذ بجامعة عين شمس
د. جينادى جاريا تشكن	جامعة موسكو
د. خالد عبد المحسن بدر	آداب القاهرة
أ . خالد عزب	باحث آثار
د. خالد فهمى	جامعة برنستون
د. ديمترى جاتيئيف	جامعة موسكو
أ.د. رءوف عباس حامد	مقرر الندوة – أستاذ بآداب القاهرة
د. زكى البحيرى	كلية التربية – المنصورة
أ.د. سيد البحراوى	أستاذ بآداب القاهرة
أ . عادل السيوى	فنان تشكيلى
أ.د. عاصم أحمد الدسوقى	أستاذ بجامعة حلوان
أ.د. عبد الرحيم عبد الرحمن	جامعة الكويت
د. عبد الكريم مدون	كلية الآداب – آغادير

د. عبد اللطيف الصباغ	كلية الآداب – بنها
أ.د. عبد المنعم الجميعى	أستاذ بتربية الفيوم
أ.د. عبد الوهاب بكر	أستاذ بآداب الزقازيق
أ.د. على بركات	أستاذ بآداب حلوان
أ.د. عمر عبد العزيز عمر	أستاذ بجامعة الاسكندرية
أ . فاطمة إسماعيل	ناقدة تشكيلية
د. فطين أحمد فريد	جامعة قناة السويس
د. فلاديمير سافريونوف	جامعة موسكو
أ . كامل زهيرى	رئيس مكتبة القاهرة الكبرى
أ.د. لطيفه محمد سالم	أستاذ بآداب الزقازيق – فرع بنها
د. مجدى عبد الحافظ	كلية الآداب – حلوان
د. محمد حسام الدين اسماعيل	كلية الآداب – عين شمس
أ.د. محمد صابر عرب	أستاذ بجامعة الأزهر
د. منى محمد بدر	كلية التربية – الفيوم
د. يحيى محمد محمود	كلية التربية – كفر الشيخ
أ.د. يونان لبيب رزق	أستاذ بجامعة عين شمس

- Ali Kurhan	Maȋtre de conferénce ȃ l'universit d'Helwan
- Fred Lawson	Department of Government
- Kenneth M. Cuno	Illinois University
Peter Gran	

المحور الأول

شخصية محمد على

شخصية محمد على
رؤية تحليلية

د. خالد عبد المحسن بدر

يشكل الحديث عن محمد على – كشخصية إشكالية الوسط الذهبى للتحـــدى الذهنى – بتعبيرات أرنولد توينبى – فهو أشبه بنهر متدفق تختبـئ فـى تعرجاتـه صخور وعرة تخاف أن تصدمك فى أى لحظة ، إذا لم تكن ربانا متيقظـاً ،ولكـن الخوف من هذه الصخور لا يغريك أبداً بالتوقف حتى إذا كـانت النهايـة مفتوحـة والشاطئ لن تصله أبداً ، فمحمد على شخصية مركبة تزخر بالمتناقضات التـى لا تدرى هل هى بداخله أم فى الصورة الذهنية التى كونها عنه المؤرخون ؟ . وبغض النظر عن اتجاه الإجابة عن هذا السؤال . فإننا أمام حقيقة لا مناص من الاعـتراف بها هى أننا أمام شخصية تستحق المحاولة مهما كان حجم الأخطاء المتوقعـة فـى رؤيتنا.

وتقتضى معالجة هذا الموضوع الشائك أن نفسر عنوانه ونحدد محاوره ثـم نتقدم إلى التفاصيل .

لنبدأ أولاً بالعنوان : المقصود بتحليل شخصية محمد على تكويـن فـروض معينة عن السمات المميزة لها ، من خلال منظور علمى متعدد المداخل يسـتوعب إسهامات علم النفس الحديث ، وجدير بالذكر أننا لن نتوقف عن التحليـل النفسـى التقليدى ، كما صاغه فرويد واتباع مدرسته ، بل سنمتد إلى آفاق أكثر رحابة مـن ذلك .

خطوتنا التالية هى تحديد محاور هذا البحث إجمالاً : المحور الأول يتمثـل فى الكشف عن طبيعة العلاقة المتبادلة بين التاريخ وعلم النفس وتحديد نقاط القـوة والضعف فى تلك العلاقة ، والثانى يعالج التصورات النفسية التى شكلها محمد علـى

والمؤرخون عن محمد على مع بيان أوجه القصور التى تكتنف هذه الرؤية . أمـــا المحور الثالث فهو البنية الأساسية لهذا العرض وفيه نعرض رؤيتنا عن شـــخصية محمد على محاولين تقديم إطار عام يبرز بعض الملامح الاساسية لهذه الشـــخصية دون التطرف إلى تحولات هذه الشخصية فى ضوء ما يستجد من تغيرات سياســـية واجتماعية حيث لا يتسع المجال الآن لهذا الطرح .

لا شك أن التحليل النفسى للشخصيات التاريخية يعد مجالاً حديـــث النشـــأة ويحتاج إلى تآزر جهود المؤرخين وعلماء النفس معاً، وبصفة خاصة فى منطقتنـــا العربية . فهناك تيار متدفق من الدراسات النفسية التاريخية يفرض نفسه فى العـــالم الغربى .

وما زال الباحثون عندنا متخلفين عن ركب التخصصات البينية مما يتطلـــب تقويماً شاملاً وإعادة نظر فى هذه القضية الحيوية .

والمنطلق الأساسى فى البحث النفسى التاريخى دراسة الفـــرد باعتبـــاره – ببساطة – قادراً على الإسهام فى تشكيل الأحداث التاريخية، ولن نسير مع كـــارلايل وتوينبى إلى آخر الشوط مدعمين فكرة أن التاريخ ما هو إلا سيرة العظماء ، فـــهذه قد تكون مبالغة لا ندعى تحمل مسئوليتها ، ولكننا لا نستطيع أن نلغى هذا الـــدور ، ولا ينطوى حديثنا على إغفال لأهمية الظروف الموقفيـــة والتغـــيرات الاجتماعيـــة والاقتصادية فى صناعة التاريخ ، ولكن استثمار الظرف التـــاريخى فـــى المكـــان والوقت المناسبين يحتاج إلى فرد ذى قدرات عقلية متميزة وسمات مزاجية متفـــردة لها أساس بيولوجى ويحركها – فى اتجاه الهدف – دافع مرتفع إلى الإنجاز. ولعلنـــا نبتعد عن الواقع كثيراً إذ أطلقنا مسمى علم الدافعية التاريخى مجازاً على علم النفس التاريخى ولا شك أن علم النفس التاريخى.

يمكن أن يدرس سيكولوجية الجماعات، ولكن وفق منطق لا يختلف فى أسسه

كثيراً عن دراسة الفرد .

وينقلنا هذا إلى أن دراسة تاريخ الحياة يمكن اعتبارها جوهر دراسة علم النفس التاريخى .ويتحدد إطار البحث هنا فى هذا الميدان على أساس ثلاثة اعتبارات هى :

أولاً: أن المجال محدد بتوظيف علم النفس سواء كان تحليلياً أو غير تحليلى.

ثانياً : توظيف علم النفس فى هذا المجال علمى منظم ويعتمد على تطبيق النظريات السيكولوجية الشائعة فى الميدان ويتجاوز فى إطاره التصورات النفسية الدراجة التى يطرحها المؤرخون كثيرا سواء بشكل صريح أو ضمنى فى كتاباتهم التاريخية .

ثالثا : توظيف كل فروع علم النفس وتياراته فى هذا المضمار .

وجدير بالذكر ضرورة الاهتمام بعلم النفس الاجتماعى كمدخل للمعالجة ، ومحاولة اختراق التحليل النفسى الفرويدى كتيار مهيمن على الساحة إلى آفاق أكثر رحابة .

ومما لاشك فيه أن التوجهات الحديثة فى علم النفس التاريخى تهتم بالفرد فى ضوء منظور مضاد لنظرية الرجل العظيم فى دراسة التاريخ ، بالرغم من أن الاهتمام بالفرد قد يكون موحيا بذلك ، ولكن عنايتها الأساسية عناية هذه التوجهات يتجه إلى تحجيم الغموض الخاص بالبطل الأسطورى وكشف أوراقه ، سعيا إلى تحديد وزنه النسبى فى دفع حركة المجتمع والكشف عن جدلية التفاعل بينه وبين القوى الاجتماعية الناشئة على الساحة .

ولعل وجه الاستفادة الأساسى للمؤرخين من هذا الطرح تأكيد فكرة مؤداها أن هذا العظيم ما هو إلا إفراز للماضى فى اتصاله بالحاضر وأنه لا يعد نقطة

تحول مفاجئة ،و لكنه نقطة امتداد طبيعية لما سبقه . بمعنى آخر أن الدراسة النفسية ستجنبنا الدخول فى أحد الأخطاء التاريخية القاتلة وهى المبالغة فى قراءة الشخصية التاريخية سلباً أو إيجاباً .

ويمكن لعالم النفس أن يقدم للمؤرخ فئات ومفاهيم لتحليل الخبرة واقتراح فروض عن دلالة الظروف والأحداث بالنسبة للفرد فى ضوء تكوينه ، كما يتعرض عالم النفس لقضية تشكيل الخبرة الإنسانية فى ضوء تعددية الأدوار السياسية والاجتماعية للفرد ، كما يهتم بموضوع الذاكرة و تجلياتها التاريخية وتحليل الأنماط الرمزية فى التعبير ، وتفسير التناقضات ، وتحليل علاقات القوة والسلطة على المستوى الفردى بالإضافة إلى تقديم مناهج لتحليل الخبرة منها على سبيل المثال لا الحصر القياس التاريخى وتحليل الفنتازيا وتحليل المضمون فى شكله التقليدى...الخ.

وغنى عن البيان أن الاستفادة هنا متبادلة ، فدراسات المؤرخين تتيح لعالم النفس أن يربط بين روح العصر وبناء الشخصية ، كما تتيح الوعى بالسياق التاريخى للصراعات النفسية، كما تتيح لنا تحديد الدلالات التاريخية والاجتماعية الخاصة التى تتشكل فى ضوئها الثوابت السيكولوجية فى معايشتها للظرف التاريخى.

ننتقل الآن من هذه الصياغات التجريدية إلى محاولات للطرح أكثر نوعية تقربنا أكثر من موضوع البحث .

غنى عن البيان أن التحليل النفسى بمنظوره التقليدى وتشعباته قد سيطرا على المجال – شئنا أو لم نشأ – لفترة طويلة وما زالت أصداؤه قائمة حتى الآن . وينطوى تطبيق التحليل النفسى وحده على إشكالات منهجية متعددة بعضها متصل بتطبيق علم النفس فى مجال الدراسات التاريخية بصفة عامة ، وبعضها الآخر

متصل بالتحليل النفسى فى حد ذاته كنسق معرفى .

ونبدأ بأهم تلك الإشكالات المرتبطة بالتحليل النفسى وهى تبنى النموذج الإكلينيكى ، وحصر الخبرات النفسية فى منطقة اللاشعور ، وحتمية وجود نقطة تحول فى الشخصية مولدة للعظمة ، والاهتمام بالعلاقة بالأبوين كمحدد أساسى ، والتوقف عند مرحلة الطفولة وتثبيت المراحل الارتقائية الأخرى والإقلال من دورها بما لا يتناسب مع التنوع الذى يخلقه الظرف التاريخى ، أما عن الإشكالات الأخرى التى تخص علم النفس ككل فهى على سبيل المثال لا الحصر اختلاف الفترة التاريخية التى تطبق فيها النظريات النفسية عن الفترة التى نشأت فيها، وفى هذا الصدد واتصالا بهذه النقطة بالغة الأهمية يطرح بيتر جران التصور التالى : " وإذا أراد الباحث أن يتابع التحليل النفسى للشخصيات ، فيجب تعديل النظرية حيث تتلائم مع هذه الفترة التاريخية ، لقد كتب علم نفس الأنا فى العالم الغربى الحديث بلغة العلاقات القائمة داخل الأسرة النووية الحديثة " . إن إمكانية التمرد الكامل وإمكانية الوجود الفردى المتميز داخل الأسرة بعيد التحقيق ، فالأسرة الكبيرة تقوم فى هذه الظروف بتسوية العلاقات بين الأب والأم والطفل ، فليس من الضرورى أن تحدث بنفس طريقة العصور الحديثة ، لأن المفهوم الشامل عن الطفل والمراهقة وعملية النمو كانت غريبة عن عالم العصور الوسطى . فمراحل التطور النفسى تتأثر بطبيعة العصر." ويضاف إلى القضية السابقة ما يفرضه اختلاف المنشأ الحضارى للنظرية السيكولوجية فى العالم الغربى عن ذلك الخاص بعالم الشرق ، وما يفرضه ذلك على مستوى فهمنا للتنشئة الاجتماعية للشخصية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هاتين الإشكاليتين هما الأخطر والأكثر أهمية على الإطلاق ، وقد يمكن الحل هنا فى تحليل بنية الثقافة وما تفرضه من مواضعات اجتماعية مع التحليل الدقيق لعمليات التنشئة التى تمثل أوعية ناقلة لمعطيات هذه الثقافة ، وما تحاول أن تغرسه من توجيه للشخصية على نحو معين قد يختلف نسبيا باختلاف الثقافات ، ثم

تحليل الفروق الفردية لبناء الشخصية فى ضوء درجة انصياعها النسبى للنموذج الثقافى . ولعل عجز النموذج الفرويدى التحليلى عن الصمود إزاء التباينات الثقافية الموجودة مازال مطروحا فى دراسات الأنثربولجيين ولا شك أن علم النفس الحضارى المقارن يبذل جهودا ذات شأن فى هذا المضمار لا مجال لذكرها هنا .

وما زالت جعبتنا لم تفرغ بعد من طرح المشكلات المنهجية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر نقص البيانات المتاحة عن المراحل الارتقائية الأولى فى حياة الشخصيات التاريخية، وعجزنا عن التفاعل مع هذه الشخصيات نظرا لموتها ، والتعامل مع السمات على المستوى الفينوتيبى (الوصفى) ، دون اللجوء إلى بنية مفسرة عميقة (المستوى الجينوتيبى) ، والاعتماد على البيانات التى يذكرها الفرد عن نفسه على أنها صادقة وممثلة لعالم الداخل .

ولا شك أن هناك عددا آخر من الإشكالات متعلقة أساسا بالمؤرخين – خاصة فى منطقتنا العربية – والذين يشكلون مصدرا أساسيا للمعلومات التى يمكن معالجتها نفسيا . ولعل من أهمها ضعف الاهتمام بالجوانب النفسية والأحكام الانطباعية الجزئية ونقص مصادر المعلومات وعدم دقتها وتعمد إخفاء المهم منها أحيانا، وتدخل البنية الأيديولوجية للمؤرخ فى انتقائه للمعلومات ، وغياب الرؤية النظرية تارة ، واتخاذها طابعا توفيقيا تارة أخرى ، والتناقض فى تفسير الحدث الواحد ، والبنية السردية للنص التاريخى ، والافتقاد إلى الاستفادة من التخصصات البينية والاعتماد على الذاكرة الشفهية الانتقائية أحيانا . . . الخ .

ولنتأمل هذا النص الطريف المتصل بالموضوع ولنحاول قراءة ما بين سطوره " أن قدرا مما لوحظ فى الماضى قد تذكره أولئك الذين لاحظوه ،و أن جزءا فقط مما تذكر قد سجل وأن جزءا فقط مما قد سجل حفظه لنا التاريخ ، وأن جزءا من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه، وأن جزءا من ذلك الذى حفظ هو الصالح لأن

يكون مادة للدراسة ، وأن جزءا من هذا الصالح هو الذى فهم " !!!

لا يعنى هذا أننا بصدد محاولة منظمة لتشويه التاريخ وعلم النفس ولكن كل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد : أن حظ المؤرخين والمتخصصين فى علم النفس يتفاوت فى درجة انتباههم لهذه الإشكالات كلها أو بعضها، ووعيهم بضرورة حلها، وسعيهم إلى محاولة تحقيق ذلك ، بالإضافة إلى أن الرؤية التكاملية التى تعتمد على وجهات نظر متعددة فى تفسير الحدث الواحد قد تقربنا إلى حد كبير من الحقيقة . كما أن محاولة التحليل أكثر من مرة من قبل الباحث الواحد قد ترفع أسهمنا فى إمكانية الفهم الدقيق للحدث وملابساته .

يكفينا هذا القدر من الإبحار فى عالم العلاقات المتبادلة بين التاريخ وعلم النفس وأبعادها المنهجية حول العلاقة بين علم النفس والتاريخ .

وننتقل الآن إلى تحديد مجالى الدراسة المباشرين والمؤهلين لدراسة وتحليل شخصية محمد على ، وهما القيادة وتاريخ الحياة .

أولا : دراسات القيادة :

تقدم هذه الدراسات الإطار التنظيمى الذى يمكن أن نحدد فى ضوئه موقع الشخصية فى ممارسة السلوك وجدير بالذكر أن هذا الإطار يستوعب خمسة مدخلات الأول خصائص القائد، والثانى خصائص الأتباع ، والثالث خصائص النسق التنظيمى ، والرابع خصائص السياق الثقافى ، والخامس خصائص المهمة . وغنى عن البيان أن منطقة اهتمامنا تتركز على خصائص القائد.

ولعل الإشكال الأساسى فى هذا النوع من الدراسات أنها رغم تعددها وتنوعها فإن معظم نتائجها مستمدة من مجال الإدارة والتجارب المعملية . وفكرتها الأساسية تدور حول القيادة فى مواقف حل المشكلات ، ومن ثم فهى لا تأخذ فى اعتبارها خصوصية القيادات السياسية المتميزة ونمطها الفريد ، ولكنها فيما تقدمه

من نتائج عامة تستحق التأمل ، وتقدم لنا هذه الدراسات الفرصـــــة لتبيـــن ملامـــح عناصر الإطار التنظيمى الأخرى فى تشكيل وتعديل توجهات وســـمات الشـــخصية والعكس.

والنوع الثانى من هذه الدراسات والأكثر انطباقا علـــى حالتنـــا الدراســـات النفسية لتاريخ الحياة ، وخاصة ما اتصل منها بسير الزعماء ولعل أهم ما يمكــن أن يقدمه لنا هذا النوع من الدراسات فى بحثنا الحالى هــــو تــأثير عوامــل التنشــئة الاجتماعية على شخصية القائد بالإضافة إلى تحديد بعض المؤشرات الموضوعيـــة المرتبطة بتأثير القائد فيمن حوله . وتكتنف هذه الدراسات عددا من المشكلات منـــها التركيز على التحليل النفسى وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، واختلاف وجهات النظـــر حول الشخصية الواحدة دون وجود أساس تفسيرى واضح لهذا الاختلاف ، والافتقار إلى تراكم واضح فى المعلومات يسمح بتشكيل نظريات متماسكة فى المجال ، وجدة التخصص إلى حد كبير كما أن نتائجه لم تتخط بعد مجال الفروض التى تحتاج إلـــى مزيد من الاختبار ، بالإضافة إلى افتقاد الجدية لدى البعض ، ومن ثم العجز عـــــن تحديد الأوزان النسبية للقوى الفاعلة فى تشكيل الشخصية وفى قدرتها على تعديـــل مسار الأحداث ، بالإضافة إلى ضآلة المعلومات وقيمتها المحدودة، وانخفاض كفـاءة المناهج المتاحة للتعامل مع هذه المعلومـــات خاصـــة مـــا يتصـــل بالـــهرمنيوطيقا وإشكاليات التأويل والاندفاع فى الأحكام والتعميمات دون البحث الكافى عن شـــواهد النفى ، وصعوبات التمييز بين أن تكون السمات مميزة لروح العصــــر أو ممـــيزة للشخصية نفسها.

ومع هذا فالمجال واعد بالكثير خاصة ، وأنه يشهد اهتمامـــا مـــتزايدا فـــى العقدين الأخيرين، واللافت للنظر اقتحام الباحثين النفسيين والتاريخيين الغربيين لهذا المجال بخطى حثيثة ، بينما الباحثون العرب عازفين عن هذا المجال إلا فى أضيـــق الحدود ، وتشمل قائمة الشخصيات المدروسة فى الغرب أســـماء ذات دلالـــة فـــى

التاريخ الإنسانى (منها فى مجال القيادة السياسية والاجتماعيـــة، مـارتن لوثـر ، وإبراهام لنكولن و يوليوس قيصر ، ونابليون بونـــابرت ، والإسـكندر الأكـبر ، وجورج الثالث وبطرس الأكبر، وأدولف هتلر ، والمـهاتما غـاندى ، وريتشــارد نيكسون) هذا غير قائمة طويلة من الفلاسفة والفنانين.

ويشكل هذا حافزا للعمل فى هذا المجال مع التزام الحـذر المتناسـب مـع وضعية علم النفس التاريخى فى بلادنا !!!

نقطة الانطلاق فى هذه الدراسة أن نبدأ من محمـد علـى نفسـه ورؤيتـه السيكولوجية لذاته، وجدير بالذكر أن أحد المناحى الشيقة فى مثل هذه الدراسات هى دراسة الأقنعة بلغة يونج التى يرتديها الإنسان لكى يفلسف وجوده ويشكل صورتـه عن ذاته والمقصود بالقناع هو الشخصية العامة ، أى تلك الجوانب التـى يظـهرها الشخص للعالم ، أو التى يثبتها الرأى العام على الفرد فى مقابل الشخصية الخاصـة ، والتى توجد قابعة خلق الوجهة الاجتماعية ، وإذا توحد الأنا بالقناع ، وهـو مـا يحدث كثيرا فإن الشخص يصبح أكثر شعورا بالدور الذى يلعبـه عنـه بمشـاعره الحقيقية . قد يصبح بعيدا عن ذاته مغتربا عنها . ولا شك أن محمد على باعتبـاره سياسيا محنكا كان حريصا على رسم صورة معينة عن نفسـه تؤكـد عصاميتـه وكفاحه وقدرته على قهر المستحيل هذا إذا سلمنا أن أقواله هذه صحيحة وليست من نسج المؤرخين.

وجدير بالذكر أيضا أن هذا الطرح قد يكون صادقا وأننا لسـنا أمـام قنـاع بالمعنى السابق تعريفه ، ومع هذا فنحن هنا أمام اختيار لإبراز جزء مـن السـيرة دون آخر، وخاصة وأن محمد على كان حريصا على تجنب الحديث فيمـا يعتـبره جوانب مظلمة من حياته مما يجعلنا أمام سيرة مسيسة أكثر من كونها حقيقة واقعة.

وتقدم لنا الدراسات الحديثة فى مفهوم الذات بديلا لمفهوم القناع يتسـم بأنـه

أكثر مرونة وثراء ، حيث تنطوى ذات المرء على تعددية فى الأصوات بعضها حقيقى وبعضها يتناسب مع طبيعة الموقف الاجتماعى وما يصاحبه من دور يفترض أن يقوم به الفرد ، هذه الأصوات متداخلة وبعضها متجانس وبعضها متناقض وهى منتظمة فى بنية طبقية، فبعضها مستبد ومستحوذ وبعضها يقبع فى الخلفية ، ويمثل كل صوت من هذه الأصوات راو متخصص فى الكشف عن أبعاده وإيقاعاته . ولا مانع طبعا من وجود راو مركزى فى مرحلة تاريخية بعينها يفرض صوته على الساحة .

وجدير بالذكر أن تذكرى لخبراتى الماضية انتقائى، فالأحداث الأكثر قربا من الأصوات الأكثر مركزية التى أعبر عنها فى حاضرى هى التى تفرض نفسها على الساحة .

وسنحاول من خلال عدد من الروايات التى يخبرنا بها محمد على أن نبرز تصوره عن ذاته المطروح أمام الآخرين أو ما أسميناه الذات المسيسة ، لننتقى الآن بعض النصوص المختارة.

قال مرة لصديقه بورنج: " لا تعجب إذا رأيتنى أحيانا عجولا قليل الصبر ، فقد كنت فى حياتى كلها موفقا ميمون النقيبة ، لابد أنى ولدت والطالع سعيد والنجم مبتسم " .

" إن حَسن الطالع أشبه شئ بالعاصفة فإنها تسير السفينة نحو الميناء بسرعة ولكن إذا لم يكن الربان ماهرا تحطمت السفينة بسهولة ".

لنتأمل هذين النصين معا ، ولنركز على مفهوم حسن الطالع يتجه الإيحاء فى النص الأول إلى أن الطريق مفتوح لاستكمال إنجازاته التى هيأها له القدر على أن يتم ذلك فى أسرع وقت ممكن حتى يجنى ثمار هذه المنح القدرية، ولكن تأمل النص الثانى يضعنا أمام إيحاء آخر وهو أن هذه الأقدار قد تنقلب عليه إذا لم يحسن

استثمار الفرصة . ومن ثم فالأصل فى تحقيق الطموح هو اعتقاده فى مسئوليته عن أفعاله وتحكمه فيها وليس انتظار ما تجود به الأقدار.

لنتأمل هذين النصين أيضا .

" بعد وفاة والده : أخذت الجيرة تتحدث فى شأن الصبى وتندب حظه ، وتتداول قولا هكذا " ماذا عسى أن يكون نصيب هذا الغلام التعس من الحياة ، إذا افقده الدهر والديه فجأة ، وهو لا يملك شروى نقير، ولا علم عنده ولا صنعة لديه".

وبلغ الحديث مسامع محمد على وقال فيما بعد " أنى منذ سمعت ذلك القول ، عزمت عزما أكيدا على تغيير مابى ، وترويض نفسى على امتلاك زمام أهوائى ، فقد حدث لى بعد ذلك ، أنى استمريت ، أحيانا ، على الجرى ، يومين كاملين لا أتناول من الطعام إلا القليل ولا أنام إلا اليسير ، لأقوى عضلاتى وأتمرن على خشونة المعيشة . ولم يعد يهدأ لى بال حتى فقت جميع أقرانى فى جميع التمارين الرياضية . وإنى لأذكر سباقا بالمجداف قمنا به فى بحر عجاج متلاطم الأمواج ، كان الغرض منه البلوغ بالقوارب إلى جزيرة قريبة من الشاطئ. فإن أقرانى ما لبثوا أن كلوا ، وخارت عزائمهم . وأما أنا فأنى بالرغم من تسلخ جلد راحتى ، وقد كان لا يزال ناعما ، ما فتئت أجدف ، مقاوما الموج والريح حتى أدركت الجزيرة ؛ وهى اليوم ملكى " .

يتبنى محمد على منظورا تعويضيا فى علاقته بذاته على نحو يبدوا متسقا مع ما تطرحه نظرية أدلر فى القرن التالى ، والفكرة الأساسية فى هذه النظرية مؤداه أن السلوك تحكمه مجاهدة غير واعية عادة للتعويض عن العجز سواء الجسمى أو النفسى أو الاجتماعى وتأخذ مُجاهدة التعويض اتجاهات عدة :

١- مجاهدة الشخص لتنمية قدرة بديلة .

٢- التصميم على التغلب على العجز بجهد نشيط غير عادى.

٣- السعى إلى اكتشاف أهداف يمكن عن طريق تحقيقها تقليل مشاعره بالدونية.

ويمكن أن يجمع المرء بين أكثر من اتجاه من هذه الاتجاهات ومن المهم الإشارة إلى أن هذا الفعل التعويضى قد لا ينتهى بإنجاز مرحلى فقد تمعن الشخصية فى استخدام حيلة التعويض وتشتد فى نشاطها التعويضى فيتحول الأمر إلى ما يعرف بالتعويض الزائد، فاستحكام الإحساس بالنقص لدى الفرد يصحبه قدرا من التطرف فى ممارسة السلوك السابق الإشارة إليه، فيسعى الفرد فى هذه الحالة إلى البحث عن وسائل السيطرة على الآخرين وسبل تحقيق القوة و يسرع الأفراد الخطى فى المسيرة بشكل يحرمهم الإحساس باللحظة الحاضرة . وقد يدوسون على قيم أعلى وأعز فى سبيل الأدنى ، لأن الأخير فى رأيهم مصدر السلطة وتأكيد السيطرة.

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن التعويض ونعود إلى نص محمد على ونتأمل الدلالة الرمزية المتضمنة فيه ، لقد استمر الباشا فى تنمية قدراته وأهدافه البديلة لا يكل ولا يمل مستمرا فى الإبحار بلا هوادة ، ليس لكى يصل فقط إلى شاطئ الأمان ولكن ليصل إلى امتلاك الجزيرة نفسها.

ولسنا ندرى هل ذكاء محمد على وإطاره الثقافى الشفاهى وقراءته لسير الفاتحين كانت تسمح بأن يلتقط فكرة التعويض هذه ويتبناها كمفسر سلوكه ، وخاصة أن صنوه المفضل و قدوته - فى رأى الغربيين على الأقل - كان نابليون بونابرت، الذى رآه بعض المؤرخين معانيا من شعور دفين بالنقص مرتبط بالقصور فى بنيته الجسمية .

وختاما لهذه الجزئية نود الإشارة إلى إدعاء مؤداه أن محمد على فى النهاية يتنصل من الحديث عن بعض أحداث المرحلة التى تسبق امتلاكه زمام الأمور، تلك المرحلة التى كانت مليئة بالخداع والدسائس والعنف وهى فترة التجرد من القيم

النبيلة والتمسك بما هو أدنى سعيا إلى امتلاك السلطة ويقرر أن سيرته الذاتية تبـــدأ من استقرار حكمه فى مصر !. ولا يمنع هذا ادعاء آخر يتمثل فـــى حنينـــه إلـــى اللحظات المشرقة فى موطنه .

وختاما لمحاولتنا تبين بعض ملامح رؤية محمد على لنفسه كما يبرزها أمـلم الآخرين ننتقى هذه المنتخبات " وحيث أنى قد ربيتكم جميعـــا مـــن صغـــر ســنكم وعلمتكم القراءة والكتابة فى المكاتب وأوصلتكم إلى ما أنتم فيه من الدرجات وقبلتكم أولادا لى وصرت لكم أبا بحق وجب أنكم لا تمتعضون عن قبولى أبـــا لكـــم بـــل تقبلوننى وبقياس هذه الأمور صرت مؤملا بذل الجهد منكم."

" أن على أن أحكم شعبا أظهر صفات الكسل والجهل وسوء النية فـــإذا لـــم أحمله على العمل بقى عاطلا ".

" يجب أن نقود هذا الشعب كما يقاد الأطفال لأننا لو تركناه وشأنه ســـيعود إلى حالة الفوضى".

" إن مصر تبدوا لى دوما مثل طفل عار ، لا يجد من يساعده ويمد لـــه يـــد العون ، طفل ظل قرونا غافلا ونائما ، يجب على بمفردى أن أقوم حياله بدور الأب والأم ، والسيد والخادم والقاضى والمعلم".

" هل يستطيع محمد على بمفرده أن يطعم الطفل وأن يكسوه ، وأن يمنحـــه الفهم وأن يرعاه حتى يصل إلى سن البلوغ ،و حتى الآن لست واثقا من قدرتى على ذلك ".

تكشف هذه النصوص عن ترسيخ لنظام أبوى فى الحكم ، هذه العلاقة الأبوية تعد منحة من الحاكم لأبنائه عليهم أن يتقبلوها ليس هذا فحسب ، بل أن هذه العلاقـــة موجهة لأبناء لا يملكون من أمرهم شيئا، وليس لديهم القدرة على مواجهـــة العـــالم الخارجى ، فهم أطفال عاديون يحتاجون إلى التعلم من نقطة الصفـــر ، وعندمـــا

يكبرون فهم فى حاجة إلى دفعهم إلى العمل فأخص طباعهم الكسل والتراخى !!.

خلاصة ما تكشف عنه هذه النصوص أننا أمام رجـــل دفعتـــه ســيكولوجية التعويض وإيمانه بقدراته وتحكمه فى مصيره إلى أن يكتسب إمكانــــات الســيطرة (التى قد تصل إلى حد التسلط) والتحكم والصلابة النفسية بمرور الوقت على نحـــو أهله ليكون أبا حازما ومسئولا عن بشر عاجزين عـــن فـــهم مصلحتـــهم وتلبيـــة احتياجاتهم الضرورية ."

نكتفى بهذه الجولة السريعة فى عينة من نصوص محمد على آملين توســـيع نطاق هذا النوع من التحليل فى المستقبل القريب .

وغنى عن البيان أننا نسعى إلى استكشاف أصداء هذه الرؤية لدى تحليلنا لما قدمه المؤرخون الأجانب والعرب من تصورات عن شخصية محمد على .

ونبدأ أولا بتقديم تصور مركز عما قدمه الآخر الغربى فى هـــذا المضمـــار ساعين إلى بلورة توجهاتهم الأساسية، ثم نعطى مساحات أوسع للمؤرخين العــــرب باعتبار أننا نفترض أنهم أكثر قربا من هذا الموضوع وأننا أكثر سعيا إلـــى إبـــراز أعمالهم.

وعلينا أن نتوخى الحذر فى تعاملنا مع المؤرخين الأجانب فـــهم وإن كـــانوا يظهرون أحيانا أنه أقل تطرفا فى أحكامهم من بعض العرب ، فمحـــاولات الـــذات الأوربية للتعرف على الآخر – هذا إذا سلمنا أن هناك حدا أدنى من التجانس – فـــى هذه الرؤية – يكتنفها بعض الأمور والتى تجعل هذه الرؤية محدودة بشروط إنتـــاج معينة فيما يلى بيان بالأكثر أهمية منها :

أولا : سلطة المفكرين العظماء التى مـــن الطبيعـــى أن تمـــارس تأثيرهـــا علـــى مستشرقى النصف الأول من القرن التاسع بحيث تكاد أعينهم لا ترى إلا ما تعرفه وأهم هؤلاء المفكرين هيجـــل ومونتســـيكو ومكيـــافللى ، وســـميث

وجونز" (جهاوى، محمد ص ٦٦).

ثانيا : جهل المتلقى الأوروبى – نسبيا – بالحياة الشرقية أو معرفته السطحية بها.

ثالثا : السلطة هى المصدر الأساسى لتعرف الأنا الغربية على الآخر الشرقى ، فحرية الحركة التلقائية لم تكن متاحة بالنسبة للأجانب، ولا نعتقد أن علاقتهم بالمواطنين وحياتهم الداخلية كانت مفتوحة بما يسمح بالرؤية الدقيقة للأمور خاصة وأنهم فى النهاية غرباء.

رابعا : كانت طبيعة الدوافع الأوربية للتعرف على الشرق العربى مشروطة بأهداف متعددة منها :

أ- حاجة السلطات الأوربية لإقناع برلماناتها أو تهيئة الرأى العام فى مجتمعاتها لقبول حملة عسكرية أو عقوبات أو مساعدات اقتصادية أو سياسية كما فى حالة القناصل والمبعوثين فوق العادة فى هيئة رحالة

ب- حاجات الجمهور الأوربى للتسلية بحكايات الرفاه الشرقى وألف ليلة وليلة.

ج- تحليل بنية السلطة وعلاقتها بنمطى الإنتاج والاستهلاك فى الأقطار الشرقية.

هـ- رسم صورة للآخر الشرقى تبرز جهله وبربريته فى مقابل الآخر الأوربى المتعالى والمتميز والمسئول الأوحد عن النهضة .

و- الارتباط بمصالح شخصية مع الحاكم أو السلطة.

وغنى عن البيان أن هذا المدخل ضرورى رفضا لفكرة الموضوعية المطلقة لتعذرها ، ولكن دون الاكتفاء بأخذ دور المتفرج ووصمهم بالذاتية دون تحديد أسس البنية العقلية التى تحكم الرؤية مما يجعلنا فى موقع أفضل لفهم الذوات الراوية المنتجة لبنية الخبرة التاريخية .

وترتكز رؤيتنا للآخر الأوربى لعدد من القراءات فـــى تقــارير القنــاصل الأوربيين وأعمال عدد من الرحالة والسائحين والعاملين الأجانب ودارسى التاريخ.

وتكشف هذه الرؤية عن عدد من الملامح هى : -

أولا : لا خلاف لدى المؤرخين الأجانب على كون محمد على مستبدا مــــع اختلاف فى التبريرات المطروحة لهذا الاستبداد، ومنها خصاله البربرية التى تشـكل جزءا من طابع شخصيته الشرقية ، وانتماؤه التركى، وما يتسم به الحكام فى بلادنـــا ، والفوضى التى كانت سائدة فى مصر والمنطقة المحيطة فى تلك الفترة ، وظروف تنشئته غير المستقرة. ويتفاوت المؤرخون فى درجة احتكامهم إلى هـــذه الأســباب وفى توصيفهم لدرجة تغلغل هذا الاستبداد فى شخصيته بمعنى آخر هل هو صفــــه متأصلة فى تكوينه أم أن شخصية هذا الرجل لا تخلو من رقة ومشاعر فياضة .

وجدير بالذكر أننا لن نستطيع استخلاص إجابة قاطعة على السؤال الأخـــير فى تحليلات المؤرخين الأجانب.

وبالرغم من التباين فى توصيف أسباب الاستبداد فى حالتنـــا هـــذه، فـــهناك إجماع على أن الشعب المصرى هو المسئول الأول عن ذلك ، فهو ميال تاريخيــــا إلى التبعية والخضوع والطاعة ، كما أنه عاجز عن إدارة شئونه بكفاءة ، بالإضافــة إلى ضعف طموحه ، ونقص نخوته ، وتبلد مشاعره ، ورضاه عن حالته البائســـة، وغدره الواضح ، وعناده فى الالتزام بالانضباط أيا كان نوعه ، هذا غير مظـــاهر الكذب والنفاق والرياء ، ولا شك أن شعبا بهذه المواصفات يدفع أى حـــاكم إلـــى ممارسة استبداد قامع سواء كان محمد على أو غيره ، ويفضل بناء على ذلـــك أن تكون شخصية الحاكم غريبة عن أفراده ، وقادرة على أن تبســـط نفوذهـــا عليـــهم بالحديد والنار !!!، صحيح أن هذا الشعب معذور وذلك لتصرفه لســـنوات طويلـــة وممتدة من العبودية ، ولكن الحاكم أيضا له عذره فى أن تتشكل نفسيته علـــى هـــذا

النحو ، ورغم التسليم بإمكان تبدل الأحوال النفسية لهذا الشعب ، ولكن ذلك يحتاج إلى وقت وإلى حاكم قوى لإحداثه!

ثانيا : هناك اتفاق أيضا على طموحه الفردى الذى لا يعرف الحدود ، واتسامه بخصال التجار ، وانفتاحه على الغرب (تكنولوجيا فقط)، ولكن دون حب عميق للغربيين ، وتسامحه الدينى ، وتبنيه الإصلاح كقيمة ، وحاجته الشديدة إلى المعرفة العملية، وقدرته العقلية المتميزة ، واهتمامه بمعرفة سير القادة والفاتحين وإعجابه الخاص بنابليون وإقتدائه به ، وقراءاته البارعة لما ينتوى الآخرون عمله (من خلال وجوههم!) ، ولباقته مع الأجانب ، وحصافته فى الاعتماد على ذوى الفطانة منهم ، وأبوته للمصريين ، وانتمائه إلى مشروعه الشخصى فقط ، واحتفاظه بهويته التركية الشرقية ، ورؤيته الطبقية للمصريين ، ودافعيته المرتفعة للإنجاز ، وجاذبيته البدنية (والتى تتركز فى عينيه بصفة خاصة) ، وطاقته الجسمية الهائلة، وقلقه وتوتره الشديدين ، وإصابته بالجنون فى نهاية حياته !.

ثالثا : لا تنفى أوجه التشابه المطروحة آنفا بعض التباينات التى تستحق الذكر، ولكن دون الدخول فى تفصيلات قد تخرجنا عن إطار الموضوع ، وسنحرص على انتقاء ما يتصل بجوانب الشخصية .

أ- بالغرم من تسليمنا بأنه لا خلاف فى تقدير حدة ذكاء محمد على ، ومهارته الاجتماعية فى التواصل مع الآخرين . فإن البعض يرى أن هناك مبالغة فى ادعاء تفوقه العقلى الذى يصل إلى حد العبقرية ، والطريف أن الذين يقرون هذا التميز يعزونه إلى الشق الأوروبى (الإغريقى) فى تكوينه ، وأن هذا التفوق قد أعاقه صفاته البربرية التى أسهم فيها الجانب الآخر من تكوينه المنتمى إلى الشرق الإسلامى .

ب- النقطة الخلافية الثانية والمهمة تتجسد فى درجة وضوح الهدف السياسى

المرتسم فى مخيلة محمد على ، التوجه الأساسى فى رؤية الغربيين هو سعى محمد على إلى ملكية مصر له ولأولاده من بعده ، وتوسيع حدودها قليلاً شرقا وجنوبيا تأمينا لمركزه ، أنه الحلم السرى لمحمد على ، ويمتد هذا الحلم عند البعض إلى الإمبراطورية العثمانية نفسها ، وهناك من يرى أنه لا توجد أحلام متبلورة منذ البداية ، ولكن تزايد نفوذ محمد على وازدياد قوته تدريجيا جعله يفكر فى زيادة مكاسبه وبالتالى استمراره فى حكم مصر . . . وهكذا .

جـ- أن جاذبية محمد على التى تشع من عينيه أمر مفروغ منه فى كتابات المؤرخين فيما عدا استثناءات محدودة ترى هذه الجاذبية وهما ليس له ما يبرره ، فعيناه لا تشع منهما سحر أخاذ يميز الغزلان ، ولا تحمل وهج عيون الصقر النارية، وليس فيها ملامح العاصفة وقت هبوبها ، ولكن ما يمكن أن تعكسه عيناه إحساسا بعدم الاستقرار لصاحب متجر يحاول الانتباه لكل من يحاول أن يسرق أو يختلس بضاعة لا قيمة لها من محله ، ولا تكشف نظرة عينيه عن أى تميز عقلى أو أخلاقى . (بالإضافة إلى أن الترتيب التشريحى للجمجمة يؤكد هذا المعنى) .

رابعا : غنى عن البيان أن محاولات الوصف السيكولوجية السابقة لا تكشف عن طرح علمى بالمعنى المفهوم، ولكن لا يمنع هذا من محاولة تأسيس خلفية نظرية لهذه الصفات فى ضوء التأملات الفلسفية المطروحة وبعض التصورات الشائعة التى يظن أنها علمية فى تلك الفترة ولدينا أمثلة عدة فى هذا الصدد ، الربط بين عصبية محمد على ونظرية جالينوس فى الشخصية ، والتى يمكن فى ضوئها وصفه بأنه دموى المزاج ، ومحاولة دراسة صلابته النفسية باحتمال كونه من أصول تركية ، وربط ذكائه ودهائه باحتمال كونه من أصول فارسية ، وربط عبقريته السياسية بأصوله الإغريقية التى يحكمها المولد والمنشأ ، يضاف إلى ذلك السعى إلى نفى تميزه غير العادى بناء على علم فراسة الدماغ (الفيزنولوجيا) أو الربط بين الخصائص النفسية للإنسان والتشكل الخارجى للجمجمة (البنية التشريحية

لها) ، حيث تفترض هذه النظرية افتراضا خاطئا مؤداه تموضع دقيق للقدرات العقلية وإسقاط ظاهر لهذه التموضعات على الجمجمة .

خامسا : " الآخر الأوروبى" الوحيد الذى اهتم بوصف سمات محمد على النفسية وصفا تفصيليا تشريحيا – فى حدود معلوماتنا – هو كلوت بك ولعل ذلك مشروط جزئيا بخلفيته الطبية ، والميزة الثانية لكلوت أنه كان معاصرا لمحمد على ، والميزة الثالثة أنه يوظف نظريات ينظر إليها على أنها علمية فى ذلك الحين (نظرية جالينوس عن الأمزجة الأربعة) . والميزة الرابعة اعتماد عدد كبير من الدارسين على أوصاف محمد على ، ولكن يعيبه أنه كان أحد أعوان الحاكم المقربين ، ومن ثم هو يستحق قدرا من التأمل : يسرف كلوت بك فى وصف البنية الجسمانية لمحمد على، ويبدو أن ذلك مرتبط بفكرة شائعة فى ذلك الوقت هى دلالة هذه الأوصاف الجسمية على أبعاد نفسية معينة ويرتبط ذلك بالفراسة وهى معرفة سمات الشخصية من طريقة رؤية أو إدراك أو دراسة ملامحها الخارجية المحسوسة ، مثل تكوين الرأس أو شكلها ، وملامح الوجه وأجزائه ومكوناته المختلفة ، وشكل الجسم ونسب أجزائه ومكوناته ، وترجع نظرية الفراسة إلى الفيلسوف اليونانى أرسطو ، وخضعت لعدد من التطورات فى القرن الماضى ، ولكن لم تثبت الدراسات العلمية الجادة صواب هذه الادعاءات .

ونعود الآن إلى وصف كلوت بك بعد هذا الاستطراد المبرر ونشير إلى أنه يرى أن الخصائص البدنية لمحمد على تدفعنا إلى استنتاج اتسامه بدقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول والجاذبية والقوة والضبط والنظام العسكريين ، ويعقب هذا الوصف الجسدى الشيق ذكر عدد لا يحصى له من السمات ، اللافت للنظر فيه أنه بعيد عن الصورة الشائعة فى مواضع كثيرة خاصة ما اتصل برقة الإحساس إلى حد البكاء وحنانه الأبوى وحرصه على الصدق بعيدا عن التكتل وتعاليه على الترهات

والأباطيل الموجهة ضده .

سادسا : من نافلة القول الإشارة إلى أننا لسنا فى كل ما سبق أمام سمات شخصية بلغة علم النفس الحديث ، صحيح أن كل ما طرح له صلة بتكوين الشخصية ويمثل صفات لها ولكنه يختلط بما يمكن أن نسميه بالبنية الأخلاقية للشخصية وليس المزاجية (ويستثنى من هذا القدرات العقلية).

ننتقل الآن إلى المحور التالى وهو الخاص بالمؤرخين العرب ، سواء كانوا متخصصين أو هواة – وهنا لن نسعى إلى استخلاص صورة إجمالية بقدر سعينا إلى طرح أفكار أكثر تفصيلا مع اهتمام أكبر بأسلوب الكتابة التاريخية فى هذا المضمار ومحاولة عرض نماذج مفصلة قد توحى بفروض يمكن توظيفها فى رؤيتنا الشخصية التى ستعتمد دون شك على المادة السابقة .

ونبدأ أولا بالمعاصربن لمحمد على وننتقى نموذجين على قدر كبير من الأهمية لأنهما يسيران فى رؤيتهما لمحمد على فى اتجاهين متعارضين – وهما الجبرتى والرجبى – بالإضافة إلى كونهما معاصرين له ، أولا : نبدأ بدوافع الكتابة لدى الرجلين . يدعى الجبرتى أنه لم يقصد بجمع كتابه عجائب الآثار خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم . بينما ينص الرجبى صراحة على أنه كتب كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا بتكليف من شيخ الأزهر محمد العروسى على أن يكون الغرض منه مخبرا عن بعض آثاره مظهرا ماله من مظهر الهمم ورفعة منارة ، وذلك على طريقة الإجمال لأن تفصيلى ذلك يعجز عنه فحول الرجال.

ويصف الرجبى محمد على بأنه صاحب الأخلاق الكسورية والأخلاق الجميلة البهية وأنه المحمود صنعه لدى كل إنسان ، بادى النتائج ومظهر المراحم وهو الصدر الذى جمع البأس والندى وطلع على الأقطار بدر هدى إلى غير ذلك

من صيغ المدح والإطراء ، بينما نجد الجبرتى يصفه بأنه شـــاب مغــرور جــاهل وظالم غشوم .

ويرسم الرجبى صورة وردية لكرم محمد على ووفاءه – الذى فـــاق حـــاتم الطائى– ووفاءه بالوعد وأن من أخلاقه وصفاته المحمودة أنــــه " يعطـــى الكثــير الجزيل لمن صنع فى خدمته الشئ التافه القليل ، بينما يضعه محمد على فى موقــف لا يحسد عليه فهو من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما فى أيدى الناس ، وأنه غــدار لا يفى بعهد ولا بوعد ولا يبر فى يمين ولا يصدق فى قول ، ويحدثنا الجبرتى عــن تدين محمد على وإرجاعه الحكم فى الأمور جليلها وحقيرها إلى الشـــرع الشـــريف بينما يذكر الجبرتى أنه بعيد عن ذلك وأن دينه شكلى ، فهو من ناحية قد فتح دينــــه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلــك وعلــت أســافلهم ، بالإضافــة إلـــى أن المسئولين فى دولته يشجعون على الربا ، وهناك مناداة عليه جهاراً فى الأسواق من غير احتشام ولا مبالاة من ناحية أخرى .

ويشير الرجبى كره محبة محمد على لسفك الدماء فتلك من أخلاقه الجمليـــة التى تميز بها عن سائر الأمراء والملوك والوزراء ليس هذا فحســـب فـــهو يعفــو وصفح؛ فهو يعفو بكثرة عن المذنبين ويتجاوز عن إساءة المسيئين ولو أردت عـــدد الأشخاص ممن حصل له ذلك لأجهدت الأنفاس ، وملأت القرطاس ولا سيما مـــن كانوا متصفين بعداوته ، ومتوسمين بمخالفته، فإنهم لما التجئوا إليه ســـامحهم مــن زلاتهم ، وستر عنهم عورات جناياتهم ، وأعطاهم الأموال الجزيلـــة . . . الـــخ ، ولكن الجبرتى يشير بوضوح إلى حبه للشوكة ونفوذ أوامره فى كل مرام واصطفائه ومحبته موجهة إلى الذين لا يعارضونه ولو فى جزئية، وإلى الذيـــن يفتحـــون لـــه أبواب الدراهيم والدنانير أو يدلونه على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان.

لا شك أننا أمام صورتين متناقضتين إلى حد كبير ، ويبدو الجبرتى فى موقف أفضل لأن الرجبى لا يحيد عن الخط أبدا ، بينما الجبرتى رغم كل ذمه قد يلفت منه مضطرا قدر من الصفات الإيجابية ، فيذكر الجبرتى أنه كان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه وإن كان ذلك يوقع الجبرتى نفسه فى تناقض جزئى . وبالرغم من أن الجبرتى مؤرخ متمكن من أدواته بالمقارنة بالرجبى ، فإننا لا نقف مع وجهة النظر القائلة بأنه يرصد ويحلل وينتقد ما يراه موجبا للنقد ويؤيد ما يراه مستحقا للتأييد من وجهة نظره . وأنه يقدم صورة متوازنة لحسناته وعيوبه صحيح أنه لم يكن مؤرخا حكوميا ولكن هل يرجع ذلك إلى أنه مؤرخ الشعب أم إلى أن الحاكم لا يعجبه ![1] ، فذم محمد على يفرد له مساحات واسعة تتجاوز الحد المعقول ، فهو لم يكن بهذه الموضوعية المتجردة ، وخاصة وأنه يبالغ مثلا مبالغة ممجوجة فى مدح الألفى، ولا يعترض على استعانته بالإنجليز ولا يوجه اللوم له فى هذا العدد رغم أنه يعترض على محمد على فى نفس القضية (استعانته بالأروام والنصارى . . .) ولعل ذلك مرتبط جزئيا بتضرر الجبرتى بإلغاء الالتزام ، أو فرض الضرائب على أملاك الأوقاف ومصادرتها الأمر الذى فسر على أنه تعدى ليس فقط على الحقوق المكتسبةُ بل ربما على أحكام الشريعة وأساليب الحكم الإسلامى خاصة وأن الجبرتى كان من السراة والمساتير وبالرغم من أن الرجبى يقدم نصا مغلقا لا يطرح غير بعد واحد فإن قراءة ما بين السطور قد تسمح لنا بقراءة مختلفة فمثلا لا يشير الرجبى من قريب أو من بعيد إلى أن من صفات محمد على حب المشورة أو أنه بحاجة إليها ، كما أن عظيم الجلالة وكبير الهيبة وشديد القوة لابد أن يكون مستبدا متحكما وكل صفاته الكريمة هى فى الأساس منحة منه ، قادر على أن يهبها لمن يشاء . . . وهكذا.

---

[1] وتصريح الجبرتى نفسه المباشر بأنه ليس مؤرخ السلطة قد يؤخذ ضده .

وخلاصة القول فيما يتعلق بهاتين المحاولتين أن لهما السبق والريادة فى هذه الفترة التاريخية ولا ننسى أن ننوه أن المدخل الوحيد للشخصية مازال فى مجملـــه السمات ذات الطابع الأخلاقى فى محتواها ومبناها ، والتى تأخذ طابعاً إنشائياً أحياناً دون تحديد نظرى أو إجرائى للمفاهيم .

ننتقل الآن إلى الجهود الأكثر تطوراً فى هذا المضمار، والتى تمت بعد فـترة محمد على، والإشكالية الأساسية هنا هو أن التاريخ نتاج جزئى للسـلطة السياسـية القائمة بغض النظر عن مستوى الوعى والعقدية الممارسين فى هذا الإطار ، والأمر يبدو أحياناً أكثر فجاجة مما يطرحه الغربيون، فقبل ثورة يوليو كانت هناك خطـوط حمراء يصعب تعديها فى الحكم على محمد على، وبعد ١٩٥٢ ترك العنان للـهجوم عليه باعتباره رائد الأسرة العلوية . وغنى عن البيان أن هناك محاولات جادة لتقديم رؤى تتجاوز الانخراط فى الذاتية المفرطــة ، ليســت منفصلــة عــن تصــورات أيديولوجية تحكم تكوين المؤرخ وتنشئته ولكنه على الأقل يستطيع التعــامل معــها جزئياً وتعديل مسارها وقبل أن نتقدم إلى هذه الجزئية نود الإشارة إلـــى أن هنــاك اهتماماً أكبر بسمات الشخصية النفسية فى حدود المتاح من معلومات ، وتراجع هـذا الاهتمام فى العصر الحديث ، ولعل هذا ذا صلة بالانتقادات الموجهة إلـــى نظريــة الرجل العظيم وبالاهتمام المبالغ فيه بدور الحاكم الفرد وبما يمكن أن يحدثـــه مــن تأثير – وبالرغم من أن هذا الأمر ما زال قائماً حتى الآن فى بلادنا ولكنـــه ليــس بنفس القدر السابق.

وهنا تلفت نظرنا محاولتان مميزتان فى هذا الإطار وتميزهما كما ذكرنا نابع من عنايتهما بالملامح الشخصية وظروف التنشئة الأولى وهمــا محاولتــا جرجــى زيدان والياس الأيوبى.

نبدأ أولاً بمحاولة جرجى زيدان ولا شك أن الطرح هنا أكثر رصانـــة فــى

تحديد السمات النفسية ، وهو ينطلق أساساً من الوصف الجسدى المفصل – وقد يكون متأثراً فى ذلك بكلوت بك فمحمد يستمد منه معظم صفاته ويضيف أبعاداً أخرى ذات مغزى فهو يمشى ويجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص إذا مشى فى داره مفكراً فى أمر وكذلك كان يفعل بونابرت (إما إن هذه الصفة من صفات العظماء فى نظر زيدان أو أنه يرى اقتداءه وإعجابه بنابليون قد وصل إلى هذا الحد) ، وهو يرى كما يرى كلوت بك أن الباشا يتحرى البساطة والتواضع رغم هيبته . فلباسه واسع لا يتميز به عن بعض أتباعه، وكان يكره التفاخر الحاشية ، ولا يتقلد السلاح إذا جلس بل فى يده العطوس والمسبحة يتلاهى بهما ، وهو لا يأنف من مجالسة صغار الضباط واللعب معهم البلياردو الضامة ، وهو أب حنون وصديق مخلص ونصير مسعف ، وأثر عليه فقد عدد من أولاده حتى غلبه الخرف (محاولة لتحليل أسباب جنون محمد على فى النهاية) ، شرع يتعلم القراءة والكتابة وهو فى الخامسة والأربعين وهذا يكشف عن قدراته العقلية المتميزة بالفطرة والحذاقة والقدرة على المهام السياسة (ومع ذلك فلكاميرون رأى آخر مختلف فهو لا ينكر تمتعه بهذه القدرات ولكنه يرى أنه فى ظل استمرارها دون صقل تعليمى فهذا قد يجعل حساباته طويلة المدى مشوشة مما قد يؤدى فى النهاية إلى الخسارة بدلاً من المكسب خاصة إذا تعامل مع شعوب أكثر تعليماً وتحضراً) . كان سليم القلب (هل معنى ذلك أنه لا يعرف الحقد والحسد كما يذكر الجبرتى الذى يؤكد هاتين الصفتين) .

وكان يلقب بمبيد المماليك أو مصلح الديار المصرية (وكان الإبادة صنو للإصلاح) سريع التأثير لا يعرف الكظم، وينقاد بدسائس المفسدين (قد يكون ذلك متأثراً بمزاجه الدموى كما وصفه كلوت بك) ،يرتاح للتكلم عن سابق حياته وخاصة تلك الجوانب التى تبرز عصاميته (وليس التى تعبر عن قسوته) ، كان لديه حاجة ملحة إلى المعرفة خاصة ما يتصل بالجانب السياسى منها، وخاصة ما يرد فى

الجرائد والصحف ، كانت هواجسه السياسية تقلق راحته فلا ينـــام إلا يســيراً، ولا ينفك متقلباً من جانب إلى آخر، ويعانى من شهقة مرتجفة أثناء نموه أصيب بها فــى حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد (تسليم بوجود وساوس قهريـــة وشــعور بالغ بالتهديد) ولكن هذا النوع من النوم غير المستقر لم يضعف من طاقته (لاشـك أن النص السابق وخاصة نهايته ينطوى على استبصارات سيكولوجية بالغة الأهميـة : فيه تحليل لخصال الزعماء ومناطق التشابه بينهم – محمد على ونابليون – وفيــه محاولة للكشف عن أسباب الجنون، وينطوى أيضاً على محاولـــة لدراســة تـأثير الظروف الصادمة على الوظائف والعمليات النفسية ، كما أنه يلقى الضـــوء علــى طبيعة المزاج ويكشف علاقة إلحاح الوساوس القهرية بإمكانية النوم ، كما يطـــرح ما يقترب من النمط الوسواسى فى الشخصية بلغة علم النفس الحديث فالمشى بـــلا هوادة أثناء التفكير ودوام التفكير لدرجة العجز عن النوم مع التوتر الزائد ، كل هذا يؤكد وجود نمط شخصية يعانى من الوساوس القهرية ، ويسمح لنا هذا الحديث على الأقل بتبين ملامح إنسان مثل بقية البشر يعانى من القلق ويتأثر بـــآراء الآخريــن ويمكن أن يتفاعل بتلقائية مع الآخرين من مواطنيه (بغض النظـــر عــن مشـــاعره الداخلية) ودون أن يقلل هذا من عظمته ، ويحدد بعد ذلك زيدان الملامح الأساســية التقليدية لتنشئته الاجتماعية والتى وردت فى كثير من الكتب منها : يتمــه وتحديــه لواقعه الأليم وتربيته تربية صارمة فى بيت غريب وتعلم ألعاب القـــوة وإظــهاره مهارة فى جباية الضرائب وتحصيل الأموال واشتغاله بتجـارة الدخـان واكتســابه خبرات الحياة الناضجة على يد صديق فرنسى . . . وهكذا . ويقدم فى هذا الإطــار نصاً مطوراً لمحمد على سبق الإشارة إليه يؤكد معنى العصاميـــة أو ســيكولوجية التعويض المذكورين قبلاً .

وتبدو ظروف التنشئة أكثر وضوحاً وبتفصيلات أخرى أكثر ظـــهوراً فــى محاولة الياس الأيوبى وإن كانت تتسم بأنها أقل انضباطاً والتزاماً بكثير من طـــرح

جورجى زيدان ، فلا شك أن الأخير يعطى محمد على حقه من المدائح وخاصة فى حرصه على ذكر محبه المصريين والأجانب له بمآثره ، وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة التى تحكمها نشأة زيدان فى كنف الأسرة العلوية وباعتبار محمد على أول أمير مسلم شمل المسيحيين برعايته وحمايته ومودته ولكن هذه المبالغة تقل كثيراً عما يطرحه الياس الأيوبى !!

ولنتأمل ما يطرحه الأديب المؤرخ الياس الأيوبى والذى كلفته دار الهلال أن يجمع فى رسالة متوسطة الحجم سيرة محمد على وأعماله وآثاره لتكون لأبناء هذا الجيل هدياً ونوراً ، ثقة فيه وتقديراً له لحصوله على الجائزة الأولى التى منحها ملك مصر فؤاد الأول لأفضل كتاب يكتب عن تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل (إدارة الهلال ١٩٢٣) !!.

يستهل الكاتب رسالته ببيان عن مولد محمد على فى مقدونيا وطن الإسكندر الأكبر ، وفى مدينة قوله أولاكافالا (قبل أن يحرف اسمها) ولد الباشا فى هذه المدينة فى سنة من أخصب سنى التاريخ الحديث فذلك ولدت فيه شخصيات بارزة فى ميادين العلوم والأدب والسياسة ولعل أهمها نابليون بونابرت ، وغنى عن البيان أن هذا الميلاد يدخله مبدئياً فى مصاف العظماء ، والمصدر الثانى لعظمته حلم رأته وفسره العرافون وأكدوا من خلاله أنه يبشر بمستقبل عظيم لثمرة بطنها والمصدر الثالث عصاميته وتحميس أمه له على اجتياز الصعاب بعد وفاة والده وهنا ينعزل محمد على دون أن يدرى أحد ويدرب نفسه تدريبات قاسية على مواجهة متاعب الحياة حتى لا يشعره أحد بيتمه وعجزه ، ثم يعود مرة أخرى أقوى قادر على صياغة الحياة من حوله على نحو أفضل (لعل هذا يبدو متفقاً جزئياً مع فكرة أرنولد توينبى عن الانسحاب المؤقت من عالم الآخرين أن بالأحرى تصوراتهم ثم مفاجأتهم بالعودة فى شكل جديد أكثر قدرة على تحمل المسئولية وأكثر فاعلية فى إحداث التغيير المنشود). والمصدر الرابع لهذه العظمة وفاة أمه فى السادسة، وبالتالى

لامناص له من استكمال مواجهة الحياة بعزم لا يلين، وهنا يضعه الأيوبى فى مصاف الأنبياء لنتأمل هذا النص.

"فبات محمد على يتيماً وحيداً ، يرى الدنيا حوله كأنها قفر مقفر ، ولا يدرى ما المصير! ما كان أشبه حاله – إذ ذاك بحال فتى آخر سبقه إلى الوجود بنحو ألف ومائتى سنة ، فيتم من أبيه وهو فى بطن أمه (وهذا لم يحدث فى حالة محمد على)، ويتم من أمه وهو فى السادسة من عمره فبات والله وحده كفيله ونصيره.

والمصدر الخامس ، شخص فرنسى اسمه ليون كان على رأس محل تجارى فتعهده بالنصائح والإرشادات الثمينة وبالحب الأبوى مما دفعه فيما بعد إلى حب الفرنسيين والتعلق بهم.

والمصدر السادس نبوءة شيخ وقور جاوز السبعين بأنه سيصبح حاكماً على مصر وظلت هذه النبوءة والحلم الخاص بأمه مصدراً مستمراً لإلهامه وتشجيعه على أعمال الفروسية وقيامه بجلائل الأعمال إلى الحد الذى تبدت معه شخصية محمد على فى أتم حقيقتها ، وتظهر معدن نفسه إظهاراً جلياً : فنراها مزيجاً عجيباً من ترو سريع ، فإدراك سريع ، فعزم سريع ، فإقدام جسور ، فشجاعة نادرة .

المصدر السابع للعظمة : زوجته التى كانت طالع سعد ، كما كانت أمنا خديجة رضى الله عنها طالع سعد على نبينا (صلى الله عليه وسلم).

والمصدر الثامن : إقناع الشيخ الوقور له بالذهاب إلى مصر و مهارته فى حسم صراعه بين البقاء والاستقرار فى الوطن أو الخروج إلى مستقبل ما زال فى علم الغيب بالنسبة لمحمد على .

هذه الحكاية التى حاولنا أن نعيد تنظيم أفكارها السردية أقرب إلى قصص السندباد البحرى من أن تكون رؤية منطقية لمصادر تكوين وعظمة قائد متميز !!!

ولكننا ذكرناها لأنها تظل للأسف نوعاً من الكتابة التاريخية علينا أن نتعامل معه.

ولعل الجزء الخاص بوصف محمد على أفضل قليلاً، وفيه مساحة أكبر للتعامل معه كإنسان ويستهل هذا الجزء بالوصف الجسدى كالعادة . ولا يختلف كثيراً عما ذكر فى نص جورجى زيدان، ولكنه يضيف أبعاداً جديدة إلى ملامح شخصيه ، الجميل فيها أنه يستشهد بوقائع تثبت صحة ما يقول، منها حرصه على الطابع الشرقى فى معاملاته ، وتجنب الإخلال بالعادات الشرقية، وسرعة تأثره بالمثيرات المباغتة ، وشدة ميله إلى النساء وكبر شغفه بهن وشغفه بالمجد والمفسر لاهتمامه بما يقال عنه وتألمه من الانتقادات الموجهة ضده (ولعل كلمة الشغف بالمجد هى البديل المخفف للبارانويا أو الشعور بالعظمة) وهو يفسر اضطراب نومه بكثرة الحوادث الجسام التى مرت به، وانفتاحه على الآخرين من المقربين ، ومهارته فى الرد على التساؤلات بما يناسب الموقف ، وتساهله فى الصفح عن طيب خاطر ، على أن زمام هواه كان يفلت أحياناً من يده ، فيندفع مع تيار انفعاله اندفاع الرجل المستبد بلا تعقل (إشارة واضحة إلى التقلب الانفعالى) ، ورفضه للاعتقاد فى الخرافات والخزعبلات (ونحن نقول رداً على الأيوبى هذا صحيح إلا ما كان منها متصلاً بالأحلام والنبوءات وسنة الميلاد !!!) وبره بمواطنيه المقدونيين، وإعجابه الكبير بالإسكندر الأكبر ، وانتماءه العميق إلى مصر ومتيقظاً تيقظاً غريباً لسد كل باب قد ينشأ عنه تداخل أية دولة أوروبية فى شئون البلاد الداخلية.

ولعل أهم النصوص اللافتة لنظرنا فى أطروحة الياس الأيوبى وسنعود إليه فيما بعد " كان بطبعه ميالاً إلى الإثره والعنف ، ولكنه كان يدرى كيف يشكم ميوله، ويسير بمنتهى الفطنة والمهارة فيما يرسمه لنفسه من الشئون " ، كما أن أكثر النصوص إتزاناً بالرغم من طابعه التبريرى " ولا يسع المؤرخ المنصف ، مع التسليم بأن الله وحده المطلع على النيات إلا الاعتراف بأن أعمال محمد على إن

أفادته قبل الجميع وفوق الجميع ، فقد أفادت البلاد فائدة لا يمكن أن نجد لها مثيلاً إلا إذا حصدنا مجارى التاريخ وعدنا إلى أيام الفراعنة الكبار . ولئن اكتنفتها مظالم ومغارم كثيرة – ودخل فى القاعدة التى أقيمت عليها مزيج كبير من الإثرة والاستبداد – كاحتكار محمد على الاستغلال الزراعى والاتجار بمحصولات البلاد ، فإنما كان ذلك لأنها أعمال إنسان ، ولا يمكن ألا يمتزج الشر بالخير فى أى عمل يعمله البشر، والشر ممتزج بالخير امتزاجاً كبيراً فى طبيعة الوجود ذاتها ، على أن الشر الفردى المرافق للخير والممزوج معه لا يلبث أن يتلاشى ويزول ، وأما الخير فيبقى إلى الأبد ، وهذا هو الذى يحبب إلى الإنسان الحياة " .

<u>ونود الإشارة هنا إلى عدد من الملاحظات :</u>

١- تمدنا هاتان الدراستان بمعلومات تمثل المادة الخام لتشكيل فروض علمية منضبطة يمكن اختبارها عن شخصية محمد على .

٢- أن معظم المحاولات التى تلت ذلك وتعاملت مع سمات الشخصية ما هى إلا تنويعات متباينة على لحنى جورجى زيدان والياس الأيوبى (المتشابهين أصلاً إلى حد كبير).

٣- وهناك أيضاً عدد من الملامح المميزة لهذه المحاولات إجمالاً نستعرضها فيما يلى:

أ- أن دراسى التاريخ المتميزين والمؤرخين البارزين لم يفلتوا من براثن الرؤية المتميزة والمضخمة لأعمال محمد على ولصفاته، فشفيق غربال المقرب إلى الأسرة المصرية يرصد ما هو إيجابى بدقة ويبرزه فمحمد على – يقتبس هنا من رفاعة الطهطاوى أن محمد على مقدام ، صبور ، محب للحركة ، كاره للكسل والبطالة ، قوى الفطنة ، سريع الإدراك وليس فى هذا مشكلة فتلك صفات مميزة لمحمد على ولكن المشكلة تكمن فى تبرير ما هو سلبى فمذبحة القلعة التى تكشف

عن أعنف شكل من أشكال التسلطية يمكن توقعه، يسهل عزوها بسذاجة إلى الزعماء الألبان ، فلا يمكن للباشا أن يقوم بذلك فهو يمقت المذابح ويستنكر الوحشية فى كل مظاهرها.

ب- هناك مشكلة لدى المؤرخين العرب هو إحساسهم بالأزمة إزاء الأحداث التى يمكن اعتبارها وصمة خاصة إذا كانوا متعاطفين كلياً وجزئياً مع المسئول عنها وبالتالى لابد من تبريرها حتى لا تختل الصورة العامة فمثلاً مذبحة القلعة لابد أن تبرر فكيف يمكن أن تستوعب شخصية مصلح قدم لمصر إنجازات متميزة هذا التناقض داخله ، تتعدد المبررات والتالى فهو إما غير مسئول عنها بل ضباطه الألبانيين ، أو أن المماليك تأمروا عليه أكثر من مرة، فاضطر أن يفعل بهم ما فعله، أو أنهم كانوا الحائل بينه وبين جهوده الإصلاحية ، حتى القول السائد بأن ذلك كان سمة الحكام فى هذا العصر فإن هذا لا ينفى حدوث هذا الحدث على هذا النحو المأسوى وأنه خطأ تاريخى أضر بالبنود النفسية للشعب ، وأن ذلك فى حد ذاته مثل إعاقة لجهود محمد على الإصلاحية على أن تمضى فى خطها المرسوم حتى النهاية.

وأن درجة معاناة الحاكم من هذا الحادث على المستوى النفسى والاجتماعى لم تكن هينة، والأفضل فى نظر الباحث الدخول من هذه المنافذ بدلاً من محاولة طمس معالم الجريمة .

جـ- أن تكون صاحب رؤية متسقة حتى لو كانت تحكمها رؤية أيديولوجية أو تحيزات شخصية، فهذا أمر يمكن استيعابه عن أن تتذبذب الرؤية دون مبرر واضح ودون أن تكشف عن تطور ملموس فى التصور فحسين مؤنس فى كتابه الشرق الإسلامى فى العصر الحديث يسجل لمحمد على فطنته والتى قادته إلى أن يدبر للمماليك المذبحة المشهورة ، فقد تعذر عليه الاعتماد عليهم وشعر أنه لا يوجد

حل معقول فى شأنهم فلم يكن له بد من الخلاص منهم.

وفى رؤية أخرى لنفس الكاتب فى كتابه أحاديث منتصف الليل تتحول الفطنة إلى انتهازية الثعلب وتصبح رأس محمد على فى نفس مقام هؤلاء المماليك فهو ثعلب يراوغ ، وأصبح هذا الفعل الاضطرارى تعبيراً عن غدر وخسه.

د- هناك أزمة أيضاً لدى بعض المؤرخين المصريين المؤيدين لتوجهاته الإصلاحية فى ضرورة تبرير استبداد محمد على المفرط وبعضهم يتفق مع الأجانب فى أن الشعب المصرى يحتاج إلى الحزم والقسوة أحياناً لكى يتعلم (وهذه رؤية محمد على نفسه لتبرير استبداده).

ولعل أطرف ما ذكر من تبريرات فى هذا الصدد ما ذكره عبدالرحمن الرافعى فهو يعتقد أن إقامة محمد على فى القلعة قد ساعدت من طرف خفى على دعم هذا الاستبداد فى تكوين محمد على فالقاهرة أمامه مبسوطة لعينيه بشوارعها وميادينها وقصورها ومبانيها وأشجارها وحدائقها كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك . . .

ولدينا تعليق بسيط فى هذا الصدد هو أن الإنسان يختار منذ البداية ما يناسبه ويستريح لما يجد صدى فى نفسه !!!

ونكتفى بهذا القدر من التعليقات، فما طرحه المؤرخون سواء الأجانب والعرب فيما يتعلق بمحمد على وجوانب شخصيته يحتاج إلى دراسات موسعة، لا شك أن المعلومات الواردة فى نصوص العديد من المؤرخين وتعليقاتنا عليها تشكل جانباً من رؤيتنا لشخصية محمد على ولكننا نسعى إلى بلورة تصور أكثر وضوحاً ومدخلنا إلى هذا دراستان تبدوان مختلفتين إلى حد كبير عن الدراسات السابقة فى عدد من النقاط الهامة : فالدراستان حديثتان نسبياً ، بالإضافة إلى أن منهج الدراسة يركز على البعد الفردى فى الشخصية ، كما أن الدراسة تقدم تصوراً نفسياً أكثر

عمقاً ، ورقياً ، وفيه توظيف للمنهج العلمى فى التناول على الأقل فى مستوى استخدام المصطلحات وطرح الإشكالات والشك المنهجى .

الدراسة الأولى : هى كل رجال الباشا : محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة لخالد فهمى ، **والدراسة الثانية** : مصر إبان حكم محمد على لعفاف لطفى السيد.

تتبنى رؤية الدراسة الأولى على وجود بنية تناقض فى مشاعر محمد على إزاء كل من الأتراك العثمانيين والمصريين ، ويلون هذا التناقض أفعال الباشا وتصرفاته وقبل أن نستعرض تفاصيل هذا التناقض الوجدانى علينا أن نعرفه أولاً : بأنه ثنائية فى الميول إزاء موضوع معين حيث يتواجد حب الموضوع وتدميره (أو كرهه) فى آن وغنى عن البيان أن الباحث لا يقدم تحليلاً نفسياً تقليدياً لتفسير التناقض الوجدانى، ولكنه يبرزه على المستوى المعرفى (بمعنى أدق تحليل البنية المعرفية للانفعال)، ويعرضه من خلال تحليل الدوافع المتعارضة إزاء كل من العالمين ، ونبدأ بموقف الباشا من العالم العثمانى فمن ناحية فمحمد على ألفه بهذا العالم، ولديه معرفة واضحة ببنية الإمبراطورية العثمانية الاقتصادية والسياسية، كما أنه يعلم خيارات وبدائل اتخاذ القرار الملائمة لسياستها ،وليس هذا فحسب بل أنه يرى أن له دوراً فى صياغة مستقبلها ، بالإضافة إلى أن ثقافته وأحواله المعيشية متأثرة إلى حد كبير بالطابع العثمانى ، وفى نفس الوقت كان يزدرى ويشمئز من الطريقة التى تدار بها الإمبراطورية ونتيجة لهذا فهو لم يستطع إنقاذ السلطان من متاعبه، ورغم تسليمنا بوجاهة الفكرة والطرح المرتبط بهما، فإن التناقض لا يمكن أن يقف عند هذا الحد بل يغذيه رفض محمد على لتبعية السلطان ورغبته فى التمرد عليه خاصة، وأنه حجر عثرة ضد طموحاته.

يبرز التناقض الثانى ضد المصريين : فمصر ليست مجرد إمارة عادية من إمارات العثمانيين ولكنها إمارة غنية بالثروات الكامنة وهو يشعر أنه منتم لها بحكم

قدرته العملية على إدارة شئونها بكفاءة لصالحه ولصالح شعبه وقد عبر عن ذلك فى أكثر من موضع ، كما أنه كان يستنهض همم جنوده للقتال فى سبيل نصرة بلدهم وتحقيق المجد لها ، فى نفس الوقت كان للباشا وجهات نظر سلبية إزاء الشعب المصرى فهو يحتقر الفلاحين ويستخف بهم ولا يتقبلهم إلا على أنهم مصدر لقوة عاملة رخيصة ومنتجة ، والمصريون (أولاد العرب ، فى نظره ثلاثة أصناف الأول لا يهتم إلا بنفسه والثانى يخلو من أى إحساس بالتمييز والفهم الواعى رغم أنه يمكن أن يكون لطيفاً ومخلصاً والنوع الثالث فى وضعية مشابهة لوضعية الحيوانات.

ومرة أخرى نؤكد أن هؤلاء الحيوانات هم مصدر رخائه، ومن ثم لابد أن يحمل لهم أيضاً مشاعر إيجابية مصاحبة لمشاعره بالازدراء.

ولعل أحد المظاهر الدالة على تناقض سياسته التعليمية ، فتعليم المصريين كفكرة فى حد ذاتها يمكن أن يكشف عن حبه للمصريين – وهو يدعى ذلك – ولكن قصر التعليم على فئات محدودة يمكن أن تملك مواقع مفتاحيه يجسد نظرته السلبية إلى المجتمع المصرى ، وخاصة إذا عرفنا أنه كان يحاول استجلاب الأتراك للتعلم فى المدارس المصرية ، فهو لم يكن فى قرارة نفسه مسروراً من اقتصار المدارس على التلاميذ الناطقين بالعربية .

والطرح السابق مثير للتأمل وأهم ما فيه هذه المقدرة على الربط الدينامى بين البنية الأيديولوجية والمعرفية والبنية الشعورية وتقديم رؤية تتجاوز الخصال الثابتة للشخصية.

ونكتفى بهذا القدر من تحليل التناقض فى بحث خالد فهمى، وننتقل بإيجاز إلى إسهامه الثانى فى هذه الدراسة ، وهو أن الصراعات الدولية لا تتشكل فقط فى ضوء الظروف السياسية والاجتماعية ولكن هناك أبعاداً شخصية للصراع مثل التنافس على المستوى الفردى ويقدم الباحث فى هذا الإطار تحليلاً لعلاقة محمد على

بخسرو سعياً إلى إثبات تصوره.

والدراسة الثانية التى لفتت أنظارنا هى تلك الخاصة بعفاف لطفى السيد خاصة الفصل المتعلق بمحمد على الرجل ولعل أهم ما يميزها ما تقدمه على مستوى كل من المضمون والمنهج ، نبدأ أولاً بالمستوى المنهجى تشككنا عفاف لطفى فى معظم المعلومات المطروحة عن نشأة محمد على، وبالرغم من أننا لم نصل إلى حلول حاسمة فى كل القضايا التى طرحتها على الساحة فهى تدعونا من طرف خفى إلى مناقشة ما يطرح مناقشة نقدية ، والفكرة المحورية وراء هذا التشكك تتمثل فى أن محمد على يحاول أن يرسم صورة لنفسه لها مواصفات معينة تمنحه امتيازات أكبر فى علاقته مع ذاته والعالم الخارجى وخاصة الآخر الأوربى ، فهو يحدد تاريخ ميلاده على أساس أنه متطابق مع تاريخ ميلاد عدد من العظماء ومنهم نابليون ودوق ولنجتون بالرغم من أنه لا توجد مصادر مؤكدة تثبت هذا التاريخ غير محمد على نفسه ، والطريف أن بعض الباحثين مثل الياس الأيوبى يتشكك فى هذا التاريخ أيضاً (١٧٦٩) فلم يكن هناك سجلات للمواليد فى تلك الفترة ولكنه يضطر فى النهاية إلى قبول رأى الباشا على أنه مسلم به ، كما أنه يحاول أن يبرز يتمه سعياً إلى إثبات عصاميته تارة وابتسام الأقدار له تارة أخرى ، وتلك أمثلة فقط لما تطرحه الباحثة والإشكال الرئيسى أن هذا الإفراط فى نقد ما كان مسلماً فى كتب التاريخ التقليدية يمكن أن يحدث هزة عنيفة فى الأوساط العلمية ومن ثم يحتاج هذا المجهود إلى قراءة نقدية متعمقة من المؤرخين إلى تحقيق التوازن بين أدلة النفى والإثبات . فمحمد على على هذا النحو الذى تطرحه عفاف لطفى السيد رجل بلا تاريخ ، ومع هذا فهذا المدخل التشكيكى الذى يناقش كل شئ يشكل ميزة لا تبارى.

الإسهام المنهجى الثانى : أنها تحاول طرق مداخل ترتكز على نظريات علمية- وليس على صيغ إنشائية – فى تفسير بعض الأمور فهى لا تكتفى بالتأملات

المطروحة عن العلاقة بين البناء الجسمى والسمات النفسية، ولكنها تسعى إلى الاستعانة بالتخصصات المطروحة فى هذا الإطار وهى تستعين بأحد علماء الفرنولوجيا (أو علم فراسة الدماغ) للكشف عن العلاقة بين تركيب الجمجمة والذكاء، والعلاقة بين نظرة العينين والجاذبية ولا تعنينا نتائج هذا التحليل فى شئ، لأنه قد ثبت كذب ادعاءات هذا المنهج عموماً وأصبح مرفوضاً لدى كل المتخصصين ، ولكن المهم هنا هو توجه الباحثة إلى البحث عن علماء معاصرين فى تلك الفترة درسوا شخصية محمد على فى حدود إمكاناتهم.

أما إسهام الدراسة على مستوى المضمون فيدور حول محور مؤداه نشأة محمد على المتواضعة وجاذبيته ومهاراته الاجتماعية مع ذوى النفوذ وتهكمه وسخريته الفظة ممن هم تحت أمرته عندما تستدعى الضرورة إلى الحد الذى تتناسب معه الإهانات مع الموقع الطبقى للجماعة التى يتعامل معها ، كما تؤكد براجماتيته وميكافيليته وانفتاحه على الثقافات الأخرى وتسامحه الدينى، ولكن المبتكر حقا هى محاولتها إثبات أنه ينتمى إلى جماعة أقلية بكل المتضمنات السيكولوجية لهذا المصطلح . ويعد هذا الطرح جديداً ولم يسبق له مثيل وهى تحاول أن تثبت ذلك على النحو التالى : فمحمد على كان ألبانياً وبالتالى فهو عضو فى جماعة أقلية داخل الأسرة العثمانية ، فالألبانيون يتكلمون لغة مختلفة عن الأتراك ، ومع ذلك فهم مسلمون وهم مثلهم مثل الشركس يمثلون صفوة مقاتلى الإمبراطورية العثمانية فهم رجال جبليون ناريون ، غير منظمين وعدوانيون وشجعان ، وليس لديهم رؤية ثقافية حقيقية غير الخاصة بالأتراك. ولعل العامل الأخير هو الذى يساعدنا على فهم انصهار محمد على فى القالب العثمانى وتمسكه بهذا حتى فى تلك اللحظات التى يدعى فيها أنه يستخف ويقلل من شأن العثمانيين ، ولا شك أنه يمتلك علاقة مزدوجة مع العثمانيين تنطوى على الحب والكراهية معاً فى نفس الوقت الذى يخاف فيه من فقدان الهوية العثمانية ويفسر ما سبق تناقضه إزائهم ، وتردده

فى إجراء أى تغيير جوهرى يخرج عن النظام التقليدى العثمانى ، كما يفسر ذلـــك محاولة إحيائه للتراث الثقافى العثمانى جنباً إلى جنب مع محاولات التحديث . كمـــا يمكن تفسير فشله فى التوحد مع المصريين إلى شـــعوره بـــالتوحد مـــع النمـــوذج العثمانى. أخيراً تقدم الباحثة افتراضات مميزة عن الارتباطات بين الســـمات فـــهى تسلم بطبيعته الشكاكة فى كل شئ حتى أولاده. ولكن نظراً لارتفاع قدراتـــه علـــى الحكم الصائب، فإن شكوكه لا تتطور إلى بارانويا، ولكنها تجعله يلتزم الحذر فـــى تعامله مع الآخرين حتى أفراد أسرته .

ويتسق ذلك مع الدراسات الحديثة التى تشير إلى أن استمرار القـــدرة علـــى الاستبصار بالواقع الخارجى قد يمنع تفاقم الاضطرابات المرضية إذا نشأت ، وهـــو فى حالتنا هذه يفرغ الشكوك من شحنتها العاطفيـــة، ويجعلـــها قابلـــة لأن تخضـــع للاختبار المنطقى المتواصل ولكن تظل هناك مسافة بينى وبين الآخر لا يمكن معها الاندماج العميق معه.

وجدير بالذكر فى هذا المضمار أن هناك مقاماً مشتركاً بين البحثين يتحـــــدد فى فكرة التناقض ويتميز البحث الأخير بأنه يقدم إطاراً تفسيرياً له . فقد اســـتوعب الانتماء إلى جماعة الأقلية وعلاقته بالهوية فكرة التناقض وفســـرها، ولعـــل هـــذه المحاولة فى حدود معلوماتنا أفضل المحاولات المقدمة لفهم شخصية محمـــد علـــى على أسس علمية فى حدود ما قرأناه .

لاشك أن المعلومات والتصورات التى قدمها المؤرخون تعد حجر الزاويـــــة فى تطوير رؤيتنا بناء ما تكشف عنه من دلالات، وهى فى حد ذاتها يمكن أن تقـــدم نواة لرؤية تحليلية للشخصية داخل السياق التاريخى ، وتكشف اختيـــارات البـــاحث وتعليقاته عن تقبله لتفصيلات بعض الرؤى ولكنها تحتاج إلى إعـــادة دمـــج داخـــل السياق النفسى، ولا شك أننا نتقبل هنا فكرة الاستبداد مع بعض التحفظـــــات علـــى

التفسيرات المقدمة ، واتصاف محمد على بالقلق والوسواس القهرية ، وذكاءه الحاد ودافعيته للإنجاز وكونه مصدر جاذبية بالإضافة إلى انتمائه إلى جماعة أقلية بكل ما يترتب على ذلك من تبعات منها التناقض الوجدانى . . . ننتقل الآن إلى محاولة رسم تخطيط لشخصيته خاصة ما يتصل بالسمات ذات الصلة بأفعاله كقائد.

سبق أن ذكرنا أن عناصر القيادة خمسة هى : خصائص القائد وخصائص الإتباع وخصائص النسق التنظيمى وخصائص السياق الثقافى وخصائص المهمة .

لاشك أن ما يهمنا فى المقام الأول هو خصائص القائد : وتشمل العناصر التالية : مفهوم القائد عن ذاته وتصوراته الضمنية عن الأتباع ومستوى دافعيته للإنجاز ومستوى الخبرة ونسق القيم وسماته العقلية والمزاجية والاجتماعية، وغنى عن البيان أن العنصر الأخير هو الأكثر أهمية فى هذا الإطار المبدئى ، ولن يمنعنا هذا من الإشارة إلى بقية الأجزاء المتفاعلة فى حينه حسبما يقتضى السياق.

وسنحاول تحديد سماته فى البداية فى ضوء المستوى الوصفى ثم ننتقل إلى المستوى التفسيرى المتصل ببعض السمات المحورية . هذه السمات المحورية هى التسلطية والميكيافيلية والكارزمية.

ويمكن تعريف التسلطية على النحو التالى :

" يعرف سويف التسلط بأنه شكل من أشكال توظيف السلطة لخدمة أغواض فئوية أو شكلية أو فردية (تحقيق الإثره) ، ويعتمد هذا التوظيف أساساً على عمليات القهر (أو العنف) فى إدارة شئون الجماعة ، ومؤد هذا التوضيح أنه كلما اتجه توظيف السلطة إلى خدمة جزء محدد من المجتمع بدلاً من خدمة المجتمع ككيان متكامل ، أصبحنا بصدد شكل معين ومستوى بذاته من التسلط ، ويزيد هذا الشكل وهذا المستوى وخصوصاً كلما ضاقت حدود الهدف المخدوم. وجدير بالذكر أن علماء النفس يتحدثون عن مجموعة من الخصال المزاجية والسلوكيات والتوجهات

الفكرية التى إذا تجمعت معاً أدت إلى تخليق نموذج الشخص المتسلط أو التسلطى فى إدارة علاقته بالآخرين ، وجدير بالذكر أن النظم الاجتماعية الأقرب إلى التسلط توفر مناخاً ملائماً لازدهار الشخصية التسلطية ، كما أن شيوع هذا النموذج فى المجتمع يمثل عاملاً من العوامل التى تسهم فى بقاء النظم الاجتماعية التسلطية وترسيخ جذورها " ولنحاول الآن أن نرى بعض الخصال المميزة للمتسلط النموذجى وسنجدها مميزة لمحمد على إلى حد كبير.

١- لديه توجه عقلى للتعامل مع كل شئ وأى شخص على أنه وسيلة للحصول على الأهداف .

٢- يقمع عداءه للعناصر المتميزة فى ثقافته أو الأكثر سلطة ويحوله إلى الجماعات الأضعف التى لا تعد مصدراً للخوف.

٣- ينظر إلى العالم الخارجى على أنه عالم مُهَدِد.

٤- يهتم بالأشكال والصيغ العملية للسلوك.

٥- عاجز عن إقامة علاقات وجدانية حميمة مع الآخرين .

٦- يتجه دائماً نحو ما يعد مؤهلاً لتسلق السلم الاجتماعى.

٧- لا يتورع عن التخلص من الآخرين عندما تقتضى الظروف ذلك .

٨- هذا التمسك الصارخ والصريح بكونه على القمة يمكن أن يصونه من شعوره الصامت والضمنى بأنه ينتمى إلى القاع.

٩- تحكمه رؤية طبقية إلى أفراد المجتمع المحيطين به .

١٠- يعتقد أن ما تحتاجه البلاد هو قادة شجعان لا يتعبون ويكرسون أنفسهم للعمل ويضع الأفراد ثقتهم فيهم (مثل محمد على).

١١- المبالغة فى تأكيد دور القوة والفظاظة فى السلوك .

١٢- لا يجب التسلطى أن يخضع للمساءلة ولكنه يحب أن يخضع الآخرون لها إلى تسلطية محمد على كحاكم . إلى هذه التطبيقات علينا الإشارة إلى وجود ثلاث آفات اجتماعية تابعة لتسلطية وتغذيها هى الإفراط .

١٣- يعتقد أن المحيطين به لا يفهمون لسوء الحظ حقيقة ما يدور حولهم قدر فهمه هو .

١٤- لا يرضى بأنصاف الأشياء والحلول الوسط إلا مضطراً .

١٥- الطاعة واحترام السلطة هما أساس أى حكم من وجهة نظره.

١٦- يرى أنه لا مكان للرعاع بين أصحاب الأخلاق الرفيعة.

١٧- يعتقد أن المجتمع يحتاج إلى الصناع والزراع ورجال الأعمال أكثر من حاجته للمفكرين .

١٨- يؤمن بضرورة اتخاذ المزيد من الاحتياطات للحفاظ على النظام ومنع الفوضى.

١٩- ينظر باستعلاء لمن هم أقل منزلة .

٢٠- يعتقد أن هناك مؤامرات ضده تحاك فى الظلام.

ولا شك أن هذه التسلطية إذا امتزجت بالميكيافيلية فإنها تشكل خصالاً بالغة الخطورة لاشك أن المتتبع لتاريخ محمد على سيجدها ماثلة فى سلوكياته وخاصة فى سلوكه مع من يشعر أنه قد أصبح مناوئاً له أو لا يسير وفق خطته . ولا نستطيع أن نحدد بدقة حدود استيعابه لكتاب الأمير لميكيافيلى الذى ترجم خصيصاً له ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع تصديق بأنه لم يكترث لهذا الكتاب لأنه يعلم الكثير مما تحويه دفتاه دون قراءته !!! وفيما يلى هذه الخصال :

١- يتحول البشر إلى عرائس يتم توجيهها إلى الهدف المطلوب وفق خطط صاحبها

الذى يتسم بأنه فى غاية الدهاء.

٢- هناك افتقاد واضح للروابط الوجدانية.

٣- يتحول الانقسام بين الداخل والخارج إلى قدر من الواقعية القهرية المفرطة التى تعامل أى شئ وكل شخص على أنه يمكن توظيفه فى خدمة المتسلط ثم التخلص منه بعد ذلك.

٤- يحترم العمليين أمثاله ، ولكنه يكرههم فى قرارة نفسه.

٥- ذكاؤهم المرتفع بالإضافة إلى غياب الوجدان والمشاعر يؤدى بهم إلى سلوكيات فى منتهى القسوة.

٦- يتمنى أن يحكم سيطرته على المجال من حوله ولا يسعى للتعلم من الكتب ولكن من الخبرة .

٧- لديه نظرة طبقية حادة فى التعامل مع البشر.

٨- يغتصب القوة لكى يمارس أفعالاً لا تحتاج إلى مزيد من القوة .

٩- تحكمه رغبة عنيفة وتواقة إلى التنظيم المصحوب بوسوسة مضمونها السيطرة على العالم.

١٠- يميل إلى استمالة المؤسسات الدينية والعلماء لأغراض الاستغلال والسيطرة .

١١- يرفض الضعف رفضاً قاطعاً .

١٢- يتسم بالآلية فى إدارة مشروعاته ، ولا توجد قوة روحية مصاحبة .

١٣- تسيطر عليه الرغبة فى التعبير عن القوة أمام أقران مكافئين لهم فى القوة .

١٤- عليك أن تكرس طاقتك للوصول إلى أهداف أبعد من أهدافك الأصلية حتى

تحقق ما تريد .

وفيما يلى بعض التطبيقات التى تعكس تسلطية محمد على ونتائجها وقبلى أن نتطرق إلى هذه التطبيقات علينا الإشارة إلى وجود ثلاث آفات اجتماعية للتسلطية هى الإفراط فى المركزية وتغليب الاتباعية وتكريس المحسوبية وفيما يلى أمثلة موجزة تحدد بعض ملامح ما سبق ذكره.

١- تلاعب بالقوى السياسية المختلفة فى الفترة التى سبقت تولية الحكم وإحداثه الفرقة بين المماليك من ناحية ، وبين العلماء من ناحية أخرى حتى تضعف قواهم ويتم تنصيبه والياً .

٢- النظر إلى المصريين من أعلى وتوليهم الوظائف الروتينية فقط بينما كانت المراكز الحيوية من نصيب الأتراك.

٣- الصلاحيات الحكومية مركزة فى يد الحاكم ورؤساء الإدارات كانت صلاحياتهم بالنيابة ويحتاجون إذن الحاكم فى كل شئ وللحاكم الحق فى محاسبة موظفيه ولكن العكس غير صحيح.

٤- السياسة موجهة من البلاط وحاشية الحاكم ، استغل المسئولون عن الإدارة قربهم من الباشا لخدمة الأصدقاء وعائلاتهم.

٥- استفاد محمد على من خاصية التماسك العرقى واستعان مجموعة من مواطنيه يضمن تبعيتهم له فى ظل الحرص على إرضاء رغباتهم وأبعادهم عن الأهالى.

٦- المشروع الثقافى والتعليمى فوقى وطبقى فقد أبقى محمد على الأزهر على حاله وفصل جزءاً من المصريين ، وجعلهم صفوة منفصلة عن المجتمع خلفت متعلمين منبهرين بالنموذج الأوربى ، وخلق انفصالاً بين التعليم التقليدى والحديث.

٧- تجربة المجلس الأعلى ومجلس الشورى ليست إلا امتداداً للتسلطية فمحمد على صاحب هذه المجالس وهو خالقها وأعضاء هذه المجالس تابعون لولى الأمر ومصدر النعم وتدريب أعضاء مجلس الشورى على سبيل المثال ينبغى أن يسير فى اتجاه إلغاء كل مبررات الانقسام فى الرأى ويفترض أن تنتهى المداولات إلى رأى يقره الجميع !!

وجدير بالذكر أن مفهوم الشورى يتواجد فى حيز هيمنة مفهوم الدور المركزى للقائد فى عملية النهضة ، وهو ما كان يعنى أمرين : أن المبادرة الجمعية للأفراد تتم فى إطار المبادرة الفردية للقائد ، الثانى أن أراء المشاركين لا تمتلك تجاه الحاكم أية صفة إلزامية وإن كان الفرد نفسه ملزماً بالمشاركة(٢) .

٨- رقابة الحاكم الصارمة لكل نشاطات الدولة ومتابعته التفصيلية لها بما فى ذلك أفراد البعثات التعليمية .

٩- مركزية دور العنف فى فكر محمد على ومن أقواله " لقد أرغمت دوماً على استخدام العنف مع الشعب من أجل صالحه ومن أجل دفعه نحو أن يعمل لصالحه" ومورس العنف فى جباية الضرائب وفى تنفيذ المشروعات الزراعية وشق الترع وفى تجنيد الأهالى ودفعهم إلى التعليم.

١٠- مذبحة المماليك كنموذج لأقصى درجات التسلط واستعانة محمد على بأعوان معروف عنهم قسوتهم الشديدة وتنكيلهم بضحاياهم.

١١- الإسراع فى نقل التكنولوجيا وبناء المصانع دون أن يصحب ذلك ومناخ فكرى وثقافى يدعم هذا التوجه فى نفوس أبناء الشعب.

١٢- الإكراه الإجبارى لطوائف الشعب على خدمة الأهداف التوسعية للدولة الجديدة

---

(٢) لا يعنى هذا إنكار أهمية التجربة فى حد ذاتها وكونها دليلاً على توجه إصلاحى .

وارضاء تطلعات الحاكم ورغبته فى الدخول فى سباق القـوة والسـيطرة ، ورموز هذا السباق.

وفيما يلى عدد من الرؤى التفسيرية لهذه البنية التسلطية .

أولاً : ضعف القوى السياسية الموجودة على الساحة فقد نجح محمد على إمـا فى القضاء عليها أو فى استقطاب عناصرها.

ثانياً : البنية الجغرافية لمنطقة وادى النيل والتى تقتضى أحكـام السـيطرة والرقابة بهدف ضمان توصيل مياه الرى فى فترات التحاريق وحماية الأرض مـن غوائل الفيضان ، فتجنب المفاجآت يتطلب تنظيماً يتمتع بكفاءة عالية وقـدرة فائقـة على التحكم ومن ثم لابد وأن يكون مركزياً وتحت إشراف دائم قوى.

ثالثاً : وجود بنية فكرية سائدة فى ذلك الوقت تدعم نظرية الرجـل العظيـم والحاجة إلى الاستبداد بالإضافة إلى ما قام به أعضاء البعثات العلمية مـن دعايـة لطريقة حكم محمد على . وتصل المغالاة فى هذا الطرح إلى حد مؤداة إمكان الجمع بين الاستبداد والحرية فى توليفة عبقرية.

رابعاً : رسوخ مفهوم الأب المسئول مسئولية مطلقة عن رعاية أبنائه غـير القادرين على فعل شئ دونه فى البنية الأيديولوجية لمحمد على.

خامساً : انتماء محمد على إلى جماعة أقلية على النحو الذى وصفته عفـاف لطفى السيد وسعيه إلى التوحد بالجماعة المسيطرة عن طريق الدخول إليها فى عقر دارها كان مصدراً لشعور دائم بالتهديد لدى محمد على تحت ترجمته فى هذا الشكل التسلطى الموجه أساساً إلى جماعة الأقلية التى ينتمى إليها محمد على فى مرحلـة صراعه مع الدولة العثمانية (وهى مصر بديلاً عن ألبانيا) مبعثه كراهيـة جزئيـة لهذا المجتمع الذى يمنعه من تحقيق هذا الحلم بالرغم من أنه قد يكون أداته المساعدة على الوصول إلى الهدف ، ويؤدى الفشل اليائس من التوحد مع الهوية الأقوى إلـى

الاكتفاء بمحاولة إقناع الذات بالاندماج فى جماعة الأقلية.

سادساً : اتصاف الحكام فى الشرق كله بالتسلط والاستبداد والمسألة فقط اختلاف فى الدرجة والتوجهات.

سابعاً : السمات النفسية المميزة للقومية الألبانية ، يضاف إليها ظروف تنشئة محمد على التى مازلنا نعتبرها حتى الآن منطقة غامضة .

ثامناً : انفتاح محمد على على الخبرات الأجنبية وامتلاء مصر بجنسيات مختلفة تشير إلى جماعات متنوعة من الأقليات المعزولة نفسياً عن بعضها عن البعض الآخر بالإضافة إلى تعجل محمد على تحقيق إنجازاته دفع المجتمع فى طريق الهامشية الحضارية فالتغيرات الحضارية المفاجئة من شأنها أن تثير قدراً من الخلط والضياع والشك بالنسبة للقيم والمعايير الاجتماعية السائدة مما قد يترتب عليه انشغال الشعب بهذه القضية وتنظيم أفعاله إزائها وأحياناً يكون المخرج الارتكان إلى الحاكم القوى لتفادى الشعور بعدم الأمان .

تاسعاً : تصورات سيكولوجية تحتاج إلى اختبار علمى مدقق مؤداها أن الحاجة إلى السيطرة يقابلها حاجة إلى الخضوع وأن وجود هذه الحاجة إلى الخضوع يسمح للحاجة الأولى بالاستمرار سواء كان هذا على المستوى الشعورى أو غير الشعورى.

ولعله من المناسب أننا لا نملك الفرصة الآن لترجيح رؤية عن الأخرى مما يضعف موقفنا البحثى ولكن الباحث يبدو متحمساً مرحلياً بدرجة أكبر للفكرتين الخامسة والثامنة لارتباطهما بالتوجه الأكاديمى للباحث ليس أكثر بالإضافة إلى أن بحوث سيكولوجية الأقليات لها ثقلها ومصداقيتها على الصعيد العلمى ، ويحتاج الأمر إلى تأملات أعمق فى مرحلة لاحقة.

إذا كانت السمتان السابقتان تعكسان أسلوب الممارسة السياسية فالتأثير

الكارزمى لمحمد على ساهم إلى كبير فى الحفاظ على استمرار الحكم فى ظل اتسامه بالتسلطية .

ويمكن تعريف الكارزما ببساطة بأنها تلك المؤثرات الغامضة التى تدفع الأشخاص إلى الانجذاب إلى صاحبها ويبدو أن هذه الكاريزما ترتبط بالقدرة على التأثير فى الآخرين من خلال التفاعل وجهاً لوجه . وجدير بالذكر أن هذه الكارزما تقوم على إحساس ذاتى عميق واستثارة مباشرة للانفعالات .

ويمدنا القياس التاريخى وهو أسلوب كمى يسعى إلى البحث عن المؤشرات التى تشيع بين الشخصيات المعروف أنها تملك هذا التأثير، ولدينا هنا عدد من المؤشرات المستخلصة من أبحاث متنوعة ينطبق معظمها على محمد على :

١- الجاذبية الجسمية.
٢- الاندفاع حول نسج قصصى وحكايات حول هذه الشخصية.
٣- كثرة القيل والقال عن هذه الشخصية وتضارب وجهات النظر فيما يتعلق بتحليل هذه الشخصية.
٤- الانتصارات العسكرية المتتالية.
٥- طول مدة الحكم.
٦- القابلية لأخذ المبادرة الهجومية فى القتال.
٧- الفحولة وقوة الرغبة الجنسية.
٨- اعتبار الحاكم موحداً للدولة فى اتجاه هدف عظيم.
٩-التفتت السياسى السابق على تولى الحكم.
١٠- القيام بأفعال قد تصنف على أنها وحشية أو غير أخلاقية .
١١- مهاراته كسياسى .

ولعلنا نلاحظ جاذبية محمد على التى أجمع عليها عدد كبير من المؤرخين

والمركزة فى عينيه ، والقصص التى تجعله يقترب من مصاف الأنبياء وتضارب وجهات نظر المؤرخين السابق الإشارة إليه وانتصاراته العسكرية المتتالية فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية والأناضول ، وأخذه المبادرة الهجومية فى معظم معاركه، ولا ريب أن اعتبار الحاكم موحداً للدولة فى اتجاه هدف عظيم من أشد الوسائل تأثيراً على الرأى العام فى اتجاه دفعه نحو تأييد الحاكم . حيث يشعر الناس أُنهم يشاركونه فى كل مكاسبه. ومن نافلة القول الإشارة إلى تفتت القوى السياسية قبل فترة حكم محمد على (المماليك – السلطة العثمانية) كما أن جعبته لا تخلو من أفعال شائنة مثل مذبحة المماليك ، كما أنه معروف عنه ولعه بالنساء.

المعروف أن السياسى يحتاج إلى مهارات خاصة لتوجيه الموقف السياسى إلى بر الأمان ولكى يقوم بذلك عليه أن يكون قادراً على التصرف بما يتناسب مع هذا الموقف وليس فى ضوء ما يشعر به خاصة إذا كان يتعامل مع قوة سياسية لابد أن يحسب حسابها بالإضافة إلى صبره على مواجهة مشقة المواقف المحيطة حتى يحين الوقت المناسب الذى يمكن فى ضوئه تعديل الموقف لصالحه ويتطلب هذه المهارات ثلاثة سمات أساسية هى :

١- **مراقبة – الذات** : ويهتم الأفراد المرتفعون على هذه السمة بالملائمة الموقفية لأفعالهم كما أنهم يتسمون بالحساسية المرهفة للمنبهات والعلامات التى يعتبر الآخرون فى ضوئها الأفعال ملائمة ، كما أنهم يمتلكون القدرة على التحكم فى تعبيراتهم الجسمية والوجهية من أجل عرض ذواتهم بالطريقة المتناسبة مع الموقف، بالإضافة إلى امتلاكهم مهارات خاصة فى التمثيل.

٢- **الوعى بالذات العامة** : يشير الوعى بالذات العامة إلى حساسية الفرد نحو التعامل مع سلوك الآخرين الموجه نحو رصد وتأمل ذواتهم.

٣- **الصلابة النفسية** : وتعنى هذه السمة بأن من يمتلكونها لديهم القدرة على التأثير فى الأحداث التى يخبرونها ويشعرون بالانتماء العميق إلى النشاطات التى يقضون فيها أوقاتهم ، وينظرون إلى التغيرات فى حياتهم على أنها فرص للتحدى من أجل مستقبل أفضل.

ولا شك أن قارئ الوجوه المتميز محط إعجاب القناصل والخبراء الأجانب القادر على خلق التحديات فى كافة المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية وتحقيق الإنجازات المتميزة لابد وأن يكون ممتلكاً للسمات الثلاثة.

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن سمات الشخصية المميزة لشخصية محمد على فالسياق لن يتسع للمزيد من التأملات بالرغم من أن الجعبة تتسع لمزيد من التأملات ولعنا هنا اكتفينا بالسمات المرتبطة بممارسة نشاطه السياسى وتبقى أمور عدة لم تطرق بعد مثلاً مظاهر الإضطراب النفسى الخفيف التى رصد بعضها المؤرخون ومنها سرعة الغضب وقلقه النفسى ووساوسه القهرية وتقلباته النفسية ولعلنا نقول كلمة أخيرة فى هذه النقطة تتمثل فى أن الشعور بفقدان الأمان والتهديد ظل ملازمين لمحمد على طيلة حياته ومولدين لتوترات هائلة وبالرغم من أن صلابته النفسية أسعفته قليلاً فى تحمل الضغوط النفسية المتلاحقة فإنها لم تمنع خروج بعض مظاهر التعب النفسى على السطح ، نقطة أخرى لم نعلق عليها لأنه لا يختلف عليه اثنان هى قدراته العقلية ولا مجال لتفصيل القول فيها الآن .

بقى أن نشير إلى أننا قد تعرضنا إلى مفهومه عن ذاته وتصوراته الضمنية عن الأتباع فى موقع سابق والذى يؤكد التسلطية كسمة متطلبة لشعب يحتاج إلى التعلم ، وطموحه الذى لا يعرف حدود يجعل مستوى دافعيته للإنجاز غير قابل للمناقشة ويزعم الباحث أن هذه الدافعية لم تكن متوقفة عند حدود مصر فقط ، بل كانت مصر بوابة إلى الإمبراطورية العثمانية نفسها ، ويغذى هذه الدافعية طاقة

عقلية لا يستهان بها ، ولا شك أن مستوى خبرته السياسية كان متنامياً على نحو لم يسبق له مثيل بالرغم من أن حساباته على المدى الطويل لم تكن فى صالحه والسؤال هنا هل أسهم نقص خبرات التعلم من طرف خفى فى إجهاض تجربته ؟ سؤال معلق يحتاج إلى إجابة .

نسق القيم هو محطتنا الأخيرة ، غنى عن البيان أن تعزيز المكانة والحصول على السلطة بأى شكل كان كامناً الدافعية الموجهة لسلوك محمد على ولكن هذا لا ينفى استقرار قيم الإصلاح فى ذهن محمد على ولعلها لم تأخذ شكلاً متبلوراً فى البداية وقبل استقراره فترة حكمه ولكن مع جنى ثمار تجربته أثناء حياته بدأت النزاعات التسلطية تخف ويحل محلها شعور بالانتماء والالتزام العميقين ليس إلى المشروع الفردى فقط ولكن إلى البلد التى تحتضن هذا المشروع مع الشعور بالمسئولية عن أجيالها القادمة والحرص على توجيه النصح والإرشاد لهم لقيادة مستقبلهم ، ومن يتتبع خطبته إلى مأمورى الحكومة وهو فى سن الثمانين يلمح هذه المعانى [٣].

أخيراً وليس آخراً هناك عدد من الملاحظات المنهجية التى تستحق التأمل :

١- اعتمادنا على المؤرخين كان أكبر بكثير من اعتمادنا على نصوص محمد على نفسها وتحتاج الأخيرة إلى عناية خاصة من حيث اختيار أدوات التحليل المناسبة ولعل الأساليب المطورة فى تحليل المضمون قد تسعفنا.

٢- جزء غير يسير من المادة التاريخية عن محمد على يعتمد على أقواله

---

(٣) يمكننا أن نلاحظ أيضاً : تحول لغة الإدارة من التركية إلى العربية ، وزيادة الاعتماد على المصريين كموظفين وعسكريين، ومحاولة خلق بدايات مناخ ليبرالى (حتى لو كان على مستوى الادعاء) ويتجسد فى طبع كتاب تلخيص الإبريز فى تلخيص باريس وتجربة المجالس المعاونة فى الحكم فى نفس التوقيت تقريباً ، حيث تؤكد هذه المظاهر المعانى السابقة .

الشخصية وما سجله المؤرخون منها وهذا يدخلنا فى ضرورة العناية بدراسة هـذا النوع من التسجيل وما تحدثه آليات الذاكرة فى هذا المضمار.

٣- تحتاج جهود المؤرخين إلى تقصى وتحليل على نحو أعمق يتيحان قدرة أفضل على الربط بين المنظور التاريخى والنفسى، فالنقلة من المؤرخين إلى أطروحاتنا لم تكن بالسلاسة الكافية.

٤- هناك حاجة ملحة إلى التبحر فى ميدان علم النفس التاريخى من قبل المتخصصين فى المجالين.

٥- هناك مصادر أخرى للدراسة يمكن الاستعانة بها كوسائل معينة مثل الأمثال الشعبية والنكت السياسية والفنون الأدبية المختلفة ولكن الحذر هنا وارد لأن الدلالات المستخلصة غير مباشرة.

وختاماً نود التنويه بأنه على الرغم من المعاناة الشديدة لأخراج هذا البحث إلى النور فهى خبرة ممتعة لمن ينشد أهدافاً لها وزنها فى الحياة.

محمد على

أميّ رفيع المعرفة

بقلم الشاعر الايطالى الكبير(*)

اونجارتى

ترجمة وتقديم

عادل السيوى

فى صيف عام ١٩٣١م عاد الشاعر الإيطالى الكبير أونجارتى إلى الإسكندرية. رجع إلى مصر التى ولد فيها وعاش على أرضها حتى بلغ الرابعة والعشرين. فقد ولد بضاحية محرم بك بالإسكندرية سنة ١٨٨٨م. وكانت آنذاك قرية صغيرة بالقرب من الإسكندرية المدينة. وسافر إلى إيطاليا فى عام ١٩١٢م ليدرس القانون.

جاء اونجارتى إلى مصر مشحوناً بمشاعر متضاربة. وقد حرص على تسجيل هذه الرحلة وأصدرها فى كتاب رائع تحت عنوان "الصحراء"، دفاتر مصرية". وفيه تتقاطع ذكرياته الشخصية. بالوقائع والتاريخ فمصر هى الأرض التى شكلت تجربته. وينتمى فى أعماقه إليها. الا أن روحه القلقه وولعه بثقافة إيطاليا وأوربا بشكل عام. ووجدانه الكوزموبوليتانى(**) وضعاه فى موقف المشاهد المتأمل أيضا لواقع يعيشه وينظر إليه من مسافة ما تمنع الانصهار وتحجم الحماس، يلتقى اونجارتى فى كتابه عن مصر بشخصيات قلقه، عظيمه، وساحرة: كليوباترا ،

(*) فصل من كتاب : (Guiseppe Ungaretti , il Deserto Quaderno. Egiziano , 1931, Oscar Mondadori , 1996 .)

عنوان الفصل الخاص بمحمد على (Analfabeta che la sa lunga , pp. 47-55)

(**) كلمة يونانية تعنى مدينة مفتوحة على العالم تتعدد فيها الأجناس واللغات والثقافات .

الإسكندر، الشحاذ، الصوفى، مريض الجزام ومحمد على. يجوس فى الأماكن التى استدعتها الذاكره البعيدة. حقول القطن. شاطئ الإسكندرية الصحراء. المقهى البلدى.

يكتب اونجارتى "سأذهب إلى مصر. حيث ولدت فى ليلة عاصفة ، أعتقد أنه كان إعلان منذ البداية على أن الزمان(*) لن يكون رفيقاً بى أبداً". وعندما ترسو السفينة على شاطئ الإسكندرية يقول "كم هى فوضوية هذه المدينة. كل هذه اللغات واللهجات التى تتقاطع، العلامات والإشارات إيطاليا. فرنسا. العرب. اليونان. الأرمن. الحوانيت. الطعوم. الروائح... أى ساحر ذلك الذى كان يمرح باختراع هذا المكان...؟ لا أعرف لماذا يغامرنى ندم ما لأننى أعشق هذه المدينة".

ورغم ترحال اونجارتى عبر القارات واختلاطه بشعوب كثيرة، الا أن التجربة المصرية ظلت صاحبة البصمة الأكبر على حياته. نظراً لخصوصيتها الشديدة، فلم يكن شاعرنا محصنا داخل أسوار أسرة عريقة متميزة. أو فى إطار ثقافة كولونيالية(**) فقد مات أبوه وهو يعمل فى حفر قناة السويس وتركه صغيراً. وكانت أمه تملك مخبزاً صغيراً وعندما شب شاعرنا . كانت روحه اليقظة والقلقة تدفعه للانخراط فى حوارات مع الشعراء الثوريين اليساريين والفوضويين، فشارك معهم فى تحرير بحارة المدرعة الشهيرة "بتومكين" عند رسوها فى ميناء الإسكندرية. وأثناء ترحيل البحارة المتهمين بالعصيان. أوقف اونجارتى ورفاقه القطار وسلعدوا البحارة على الهرب من السلطات الروسية. وحوكم اونجارتى على فعلته، وكان انتحار صديقه المصرى الذى يدين له بكثير من معارفه. والذى انتقل معه إلى باريس وهو الشاب "محمد شهاب " الذى نعرف القليل عنه . كان هذا الانتحار نقطة

(*) .... تعنى فى الإيطالية الزمن والمناخ فى نفس الوقت وقد لعب اونجارتى على ازدواج المعنى .

(**) ثقافات الأقليات الأجنبية المستعمرة ، أو صاحبة الامتيازات فى المستعمرات .

تحول فى حياة أونجارتى. وفى طريقة نظره للحياة. ولا مجال لدينا للأسهاب فى سيرة هذا الشاعر العظيم . والذى ترك بصمته على كافة الشعراء المهتمين بالاقتصاد اللفظى والابتعاد عن الاستخدام الزائد للصورة الشعرية أو للموسيقى أو حتى لبلاغة الكلمة المفردة. فى هذا الكتاب يراعى اونجارتى أن القارئ ليس بالضرورة مسلحاً بمعلومات كافية عن مصر ولذا فهو حريص على تقديم معلومات أساسية واستخدام لغة صحفية فيها طابع الوصف ويعمد إلى التأكيد على الأُطُر الكبرى تاريخياً وسياسياً ويرى من ذلك المنظور أن صعود محمد على وبروز دوره كقائد محنك جاء نتيجة لقدرته الفذة على قراءة الصراعات على كافة مستوياتها سواء بين طوائف وجماعات محلية أو بين دول كبرى أو بين إمبراطورية شرقية متسعه وتحالفات غربية تحمل بدورها وبداخلها تناقضاتها الكبرى. أيضاً.

كما أنه يشير إلى قدرة محمد على الفذة أيضاً على قراءة البشر وخبرته بطبيعتهم ودواخلهم يكشف هذا النص رغم بساطته عن تقدير عميق للجوانب الفردية فى عمليات الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى. وحماس بالغ للقائد الكاريزمى وهى مناطق أثيرة لدى بعض المفكرين الغربيين تصاعدت بقوة فى النصف الأول من هذا القرن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، ومع تزايد الشكوك حول تجربة الليبرالية والمجتمعات المفتوحة. وتجسدت هذه التوجهات فى الحماس والتعاطف مع تجارب ذات طابع شمولى فى بلاد كروسيا بل وفى الغرب نفسه مع تصاعد النازية والفاشية، وكان أكثر أشكالها وضوحاً التضخيم الأسطورى لملكات القائد الفرد: ستالين. موسولينى. هتلر. سالازار ثم اتاتورك . فرانكو. وماو.. الخ. من هذا المنظور يكتب اونجارتى أيضاً، وهذه الثنائية هى الانفصامية التى شهدها الواقع الأوربى فى الجمع أحياناً ما بين توجهات فكرية وفنية ثورية بل وطليعية أحياناً : كالمستقبلية مثلا" وتبنى أشكالاً ومواقف سياسية مضادة كالفاشية والنازية، ويكفى رصد طابور طويل من الشعراء والفلاسفة والفنانين الذين لا يمكن التعامل معهم

كاستثناء. .وإنما كتناقض حقيقى داخل التجربة الغربية ذاتها، وهذا مقام آخر يكفى هنا فقط الإشارة إليه ونحن نتحدث عن اونجارتى ومحمد على معاً، يرى اونجارتى أن محمد على قد وجد مصر فى حالة من الفوضى الكاملة. وتمكن بقدراته الفذة أن يرقى بها إلى مصاف الدول الكبرى ، ولا يهتم اونجارتى بالنظر إلى عناصر إيجابية فى الواقع نفسه ولا إلى الجهد الذى بذله المصريون لتجاوز أزمتهم ولا يلتفت إلى حركة عارمة التقت طموحاتها وجهودها الحقيقين مع إمكانات هائلة فى قائد عظيم وفى لحظة التحام حقيقى .

ما يخفف من كل هذا أن اونجاتى أراد بالفعل أن يقدم لنا صورة ذلك الجانب الشخصى ، وتلك القدرة على الحركة وسط أمواج هائلة من التناقضات وفى النص أيضاً ظلال استشراقية خجولة ولكنها ممتدة داخله وفى ثناياه. ويمكن لمسها بوضوح فى التأكيد على الفروق (العرقية) فالمشرق يغير مواقفه ويحول اتجاهاته بسرعة لا منطقية. والمصريون يكرهون القانون. ولسنا هنا بصدد محاكمة الفكر الاستشراقى ولا مراجعة ملاحظات اونجارتى، ولكن القانون هنا له تصور واحد، ولا يسأل اونجارتى نفسه عن السبب الذى يؤدى إلى هذا الموقف منه. كما لو كان أحد سمات الطبيعة المصرية الثابتة، وإذا كان الأمر كذلك. فلماذا يحترم المصريون إذن القانون الذى يخصهم ومن داخل تجربتهم ومحاكمهم الشعبية والتى تصدر توصيات علنية وملزمة دون اللجوء إلى العنف. [وهو أداء أعلى من الردع] وتطل الروح الاستشراقية بعد ذلك أيضاً من خلال التبجيل العارم لتلك المؤسسات الحديثة ذات الكفاءة والتى تملك المعلومة والرسوخ، إنها فى حقيقة الأمر احتفالية الغرب بإعادة خلق حضارته على أراضى الآخرين ، كان اونجارتى لا يهتم بأى مؤسسة محلية أو شعبية ذات طبيعة مغايرة لما يعرفه .

سيقدم لنا النص محمد على كقائد استثنائى يقود مجتمع متخلف إلى الحداثة ، وعلى نفس الدرب سيسير اسماعيل ثم فؤاد . وليس صدفة التوقف فقط أمام هؤلاء .

وهو المنظور الوحيد المعتمد للنظر إلى تلك الرحلة من تأسيس الدولة والعائلة معـــاً وبالرغم من تلك الملاحظات العابرة، وبالسماح لـــه أيضـــاً بالدفـــاع عـــن نظـــام الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، الا أن قامة اونجـــارتى الشـــاعر الكبـــير تتسرب عبر تلك الجمل القصيرة وهى تحاول أن ترسم لقارئ ايطالى بسيط لوحـــة معقدة من الإحداث. وتصوراً دقيقاً لقائد ملهم صاحب رؤية نافذة مثل محمد على.

"النص"

أمى رفيع المعرفة

• اونجارتى

1931

ولد محمد على سنة ١٧٦٩ بقولة، فى بلده لا تختلف كثيراً عن تلـــك المــدن الصغيرة التى برزت على إطلال الإمبراطورية المقدونية القديمة، والتى شهدت منـذ زمان بعيد ميلاد الإسكندر المقدونى.

وعندما حل فى أرض مصر، وجد هذا الجندى المغامر شعباً مطحوناً، وبلــداً ممزقاً، تتبدد قوته على يد كبار ملاك الأراضى، وقد تمكن من النهوض بهذا البلــد والوصول به إلى منزلة من التماسك والرفاهية والنظام، مما مكنه من أن يقول بثقــة فى شيخوخته "ليس هناك بلد فى العالم أجمع، يأمن فيه الإنسان مصريــــاً كـــان أو أجنبياً على نفسه، ويحترم كإنسان. أكثر من بلدى".

لم يكن محمد على ملماً بالكتابة، ولكنه تعلم القراءة فى الأربعين بجهد شــديد. ولكن عزيمته ومنهجه فى التفكير. وصلا به إلى تحقيق أعلى درجــــات التحضــر والرهافة.

تمتع محمد على ببصيرة نافذة. وخبرات طويلــة بطبــائع الرجـــال، وقادتــه الصفقات الضخمة التى عقدها فى حياته للاقتناع بأن الجرأة والصرامـــة لا تنفيـــان التعاطف والنظر بعين الاعتبار إلى عذابات الآخرين، ولا تعنى إهـــدار حقوقـــهم. وهى القاعدة الاجتماعية التى يجب أن تتوفر لأى جماعة إنسانية قدر لها الصعـــود والرفعة.

وفد رجلنا إلى مصر فى سنة ١٨٠١م كضابط تركى ليشارك فى القتال ضـــد

الفرنسيين، وفى يونيه من نفس العام اغتيل القائد الفرنسى كليبر وفى سبتمبر ١٨٠١ كان سادة الموقف انذاك. هم الإنجليز وبعد امتلاكهم لزمام الأبيض المتوسط كـــانوا قد تمكنوا فى مالطا من أجبار الفرنسيين على الجلاء عن مصر. برز دور محمـــد على فى المعارك مما دعى والى مصر "خسرو" باشا التركى لترقيتـــه إلـــى رتبـــة بمباشى أى عقيد. رئيسا للفرقة الالبانية "الارناؤط". كما أسندت إليه مهمة تصفيـــة النزاعات التى انفجرت آنذاك بين الأتراك والمماليك.

وبدهاء نادر تمكن محمد على من استقطاب عدد كبير مـــن قـــادة الممـــاليك، وضمهم إلى قواته. بل واستطاع بالاعتماد عليهم أن يطيح "بخسرو" نفسه، مما أفسح الطريق لمبايعته والياً على مصر وحصل على موافقة البـــاب العـــالى علـــى هـــذا الاختيار ولكن الاتساع المفاجئ لسلطات محمد على أثار المماليك وأدى إلى تصاعد الغضب لدى أصحاب النفوذ القديم. فكان أن تراجع الإنجليز عـــن قرارهـــم الـــذى اتخذوه فى ١٨٠٣م لترك مصر. وقرروا العودة والاعتماد على بعض الأعوان مـــن البكوات والملاك – وهم أدنى من أى ثقة، ويدافعون عن مصالحهم بوحشية بالغة – قرر الإنجليز العودة فى ١٨٠٧م وقاد أسطولهم الادميرال فريزر. لم تـــدم الحملـــة طويلاً فقد منيت بهزيمتين سريعتين فى الإسكندرية ورشيد. مما جعل فريزر يقـــرر الفرار إلى عرض البحر.

استوعب محمد على جيداً الخطر الذى يمثله المماليك بمؤمراتهم وعصيانـــــهم وغدرهم. فدعاهم إلى حفلة ودية بالقلعة فى مارس ١٨١١م، وفى لحظـــــة حاســـمة اطبقت السيوف على الرقاب وطارت الرؤوس وفقا للمنهج الشرقى فى التخلص مـــن الأعداء والخصوم والذى جرح وعينا كغربيين بالقانون بل والذى كان يؤرق محمـــد على نفسه، وهو الرجل الذى لم يهمل يوماً واحداً فى ترقية وتطويـــر ادائـــه علـــى المستوى الإنسانى.

فى جميع الأحوال كانت تلك هى خاتمة عصر، انتهى المماليك . وبدأت رحلة تحرر مصر، لم يبك الكثيرون على المماليك. فقد ساد النزاع والفوضى آخر عهودهم وكان بؤس الناس عظيما فى ظلهم فصاروا بذلك اقرب إلى التصور الساخر لهم والذى تحمله كلمة "مملوك" فى القاموس الإيطالى كخليط من الشراسة والجمود والحماقة.

كان المماليك، لمن لا يعرف، ووفقاً لمدلول الكلمة نفسها عبيداً توافدوا على مصر من آسيا وجورجيا إلى جانب الجراكسة. وقد تم إعدادهم عسكريا ليصبحوا حرسا خاصاً لأصحاب السلطة والثروة من سلالة صلاح الدين. والذين شكلوا العمود الفقرى لجيشه وصعد المماليك إلى عرش مصر عندما صعد "عز الدين ايبك" عرش توران شاه آخر سلطان ايوبى وحكم مصر فى ١٢٥٠م وظل المماليك يتداولون عرشها حتى عام ١٥١٧م. والذى تحولت مصر فيه إلى باشلاق عثمانى. ورغم خضوع مصر لحكم الاتراك الا أن سلطات المماليك فى البلاد ظلت قائمة إلى حد بعيد فهم ولاه الأقاليم الأربعة والعشرين التى تقسم مصر. ولم يكن الباشا والى مصر كلها بقادر على اتخاذ أى قرار ما لم يحصل على موافقة أمراء هذه الأقاليم كلها. وكان خسرو باشا الذى خلعه محمد على نموذجاً لعجز صاحب القرار وتحوله إلى أداة فى يد المماليك. كان محمد على يحلم بتأسيس إمبراطورية واسعة. وادرك منذ البداية أن مصر فى حاجة ملحة لميناء حديث فشرع فى إنعاش الإسكندرية، والتى كانت قد تدهورت إلى درجة أن سكانها آنذاك لم يتعدوا خمسة أو ستة ألاف شخص، وهى الآن تستوعب مليون مواطن، وشق إليها ترعة المحمودية التى تأخذ الماء من فرع رشيد بالدلتا. وكان اتساعها ٣٠ متر وتمتد بطول ٧٨ كيلو متر، وهكذا وصلت مياه النيل إلى الإسكندرية، وبسط سيطرته فى الجنوب على كردفان والنوبة. وأسس الخرطوم عاصمة السودان المصرية فى المدة ١٨٢١م إلى ١٨٢٣م وعند هذا الحد بدأ الصراع يشتد مع الباب العالى بالاستانه، وسيراً على درب

نابوليون بدأ محمد على فى انتزاع سلطة الأتراك قطعة فقطعة، وكان لديه جنرال عبقرى لتنفيذ المهمة وهو ابنه بالتبنى إبراهيم باشا، الذى سرعان ما انتزع سوريا وجبال طوروس . ثم توغل فى آسيا الصغرى نحو الأستانة، وكان ذلك كافياً للسلطان محمود الثانى كى يمد يده إلى أوربا طالباً النجدة. لمواجهة هذا الخصم العنيد.

طلب محمد على مد سلطانه إلى سوريا وما بين النهرين وكان يريد بغداد بالتحديد ليفتح طريق التجارة مع الهند. ولما وقع صلح كوتاهيه Kutarich حصل من الباب العالى على ما أراد سوريا وطوروس ومضيق اضنه شمالاً إلى الخرطوم جنوباً. وذلك فى ٥ مايو ١٨٨٣م كانت هذه الحدود كافية لخلق امبراطورية متسقة ولكن محمد على يطمع أيضاً فى توريث سلطانه. ولكن انجلترا انزعجت كثيراً من حجم الطموحات، ورأت فى نجاحات محمد على تكراراً للخطط النابوليونية التى نجحت فى تدمير هيبتها ونفوذها من قبل. وهو ما كانت الدبلوماسية الفرنسية تعيه جيداً. فى ذلك الوقت كانت انجلترا منهمكة فى تأمين طرق الملاحة البحرية بكل الوسائل وكانت تسعى عبر اتفاق "فينا" لانتزاع اعتراف رسمى بالسيطرة على الأبيض المتوسط. وجبل طارق ومالطه. وجزر البحر الايونى، فى الوقت الذى بسطت فيه سيطرتها على رأس الرجاء الصالح واحتلت مضيق عدن ورغم أنها كانت قد احكمت بالفعل تأمين طرق التجارة وخطوط الاتصال البحرى بينها والشرق بأكمله. إلا أن هذا لم يكن كافياً لتأكيد الشعور بالاستقرار. ولذا فقد رأت أن تدفع السلطان محمود لبدء رحلة من العداء والحروب ضد الجيش المصرى. وكان إبراهيم يواصل زحفه وطرده للاتراك حتى دفعهم للهروب إلى "نزيب" Nezib واقترب بذلك من أبواب اسطنبول مات السلطان محمود . وكان خلفه جاهزاً للتصالح ومهيأ لتقديم تنازلات كبيرة. ولكن اللورد بالمرستون Palmerston. المراقب العميق للأزمة تمكن بدون علم فرنسا فى ١٥ يوليه ١٨٤٠م من توقيع

معاهدة لندن، مع ممثلى النمسا وبروسيا وروسيا، والتى تتعهد بموجبها القوى الأربع العظمى آنذاك بالحفاظ على وحدة واستقلال وسلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية. ويالها من صفقة دبلوماسية بارعة. لقد عزلت فرنسا عن مسألة الشرق. وخرجت من الاوركسترا الأوروبى وبدأ الحديث عن الحرب يعلو فى فرنسا ذاتها. ولكن محمد على كان ينوى الا يتراجع وأعلن المقاومة. وفى المقابل كانت كل المساعى تبذل لتجميع عناصر لزعزعته، وما أسهل انقلاب الروح الشرقية. استفاد أعداء محمد على من تصاعد حالات الغضب فى سوريا. وبدأ الهجوم المضاد. الذى أجبر إبراهيم على التراجع بقوته ودفع محمد على للقبول بدور "حاتى شريف" من أول يونيو ١٨٤١م. وهى منحه يسمح له بها السلطان نقل سلطاته إلى أبنائه وأحفاده. أى حق توريث عرشه مقابل خراج سنوى محدد وأن يتنازل فى المقابل عن الأسطول ويلتزم بألا يزيد عدد أفراد جيشه عن ١٨٠٠٠ مقاتل وهذا هو تاريخ البداية لأسرة محمد على التى لازالت تهيمن على مصر إلى الآن. لم يكن مؤسس الأسرة مجرد قائد عسكرى كبير. فإليه يرجع الفضل فى إنشاء مؤسسات تعليمية مختلفة المستويات والاهتمامات، وهو الذى أدخل زراعة القطن إلى مصر وبمبادره منه تم شق شبكة شديدة التعقيد من الترع والمصارف فى الدلتا والفيوم. مما أعاد ازدهار الزراعة مرة أخرى فى هذا البلد العريق. وفى عصره برز إلى النور علم المصريات. وكانت حملته العبقرية على السودان تمثل تجسيداً لأفكاره الجوهرية فاستقلال مصر بمياهها أمر جوهرى. وكان ذلك يتطلب من وجهه نظره السيطرة على مسار النيل من منابعه الافريقية حتى مصبه. وفتحت جهود محمد على لتحقيق هذا الهدف الطريق لاكتشاف ذلك الجزء المجهول من القارة الأفريقية كان محمد على راعيا للمعرفة والعلوم. ولا يقاربه فى ذلك وقد يتجاوزه أحياناً. الا "إسماعيل" الذى صعد إلى عرش مصر فى ١٨٦٣ وكان أول من ينال لقب خديوى فى العائله. وهو لقب يعنى نائب السلطان العالى فى مصر. وقد نال إسماعيل هذا اللقب فى عام

١٨٦٧م بعد ٤ سنوات من توليه السلطة، ولم يكتف برعاية الثقافة والعلوم. وإنما كان يرغب فى أن تصبح القاهرة عاصمة كبرى من عواصم الدنيا.فبنى شبكة للسكك الحديدية . والحدائق. والقصور. وبنى مسرح الأوبرا الذى كلف فيردى بتأليف رائعته عايده الافتتاحية. كان نبوغ إسماعيل وتجسد عظمته مرتبطا بحقائق سياسة استثنائية. فقد فتحت مصر قناة السويس للملاحة فى عام ١٨٦٩م وكانت أسهمها وعددها٤٠٠,٠٠٠ مملوكة للشركة الدولية صاحبة الامتياز. أما من قبل رأسماليين فرنسيين أو من قبل الخديوى نفسه نيابة عن المصريين. ومن خلال هذه السيطرة على هذا الممر أصبحت فرنسا المالك الحقيقى لطريق التجارة البحرية إلى الهند. وهنا علينا أن نتريث قليلا. لإن انفاق إسماعيل على مظاهر عظمته وضعه فى موقف مالى حرج. مما أضطره لطرح أسهم مصر ١٧٧,٠٠٠ سهم للبيع لرد الديون ولكن فرنسا رفضت العرض.

نجح أحد الصحفيين ، ويستحق أن يذكر اسمه وهو فردريك جرين وود Frederick Greenwood فى نقل اسرار الصفقة إلى اللورد دربى Derby والذى كان متردداً . أما ديزرائيلى فقد كان متحمساً لاتمام الصفقة. ولكن البرلمان كان مغلقاً وبلا اعتمادات كيف يمكن اذن سحب ٤ مليون جنيه استرلينى من الميزانية الإنجليزية لشراء حصة مصر..؟ وفى نفس الوقت كان المليونير اليهودى روتشيلد كان جاهزاً لاقراضه المبلغ كله. وهكذا عرض دزرائيلى على الملكة فيكتوريا حقيبة الأسهم. وهى الملكه التى نالت فى ١٨٨٥م لقب امبراطورة الهند. ورغم شراء حصة مصر الا أن قناة السويس ظلت شوكة مؤلمة فى عين الإنجليز ، فى ١٨٨٢م احتلت انجلترا مصر. ولم تتوقف فرنسا عن الاعتراض على هذا التدخل الا بعد عقد اتفاق فرنسى انجليزى فى ٨ ابريل ١٩٠٤م، وفى أعقاب اتفاق سيفر ومعاهدة لوزان التى حلت محله لم يعد لتركيا أى صوت مسموع فى أمور مصر.

برزت المحاكم المختلطة منذ ما يقرب على خمسين عاما وكانت مصر قد

عاصرت هذه التجربة من قبل فى عصور البطالمة. وهى نظام للقضاء يحل محل المحاكم الأجنبية التى كانت تؤكد الامتيازات. ولا يجب أن ننظر إلى النسق القانونى السابق بوصفه شكلاً يفرض قسراً واجبارياً. كمؤسسة يصنعها القوى ويفرضها على الأضعف. لأنها كانت تنطلق أساساً من مبدأ حماية حقوق الاقليات. وكان ممثل الادعاء يطلب تطبيق العدالة من كافة المحلفين والقضاه المجتمعين. كشرط لتنفيذ الحكم، والمحاكم المختلطة تضطلع بالنظر فى القضايا التى تخضع لإحكام القانون المدنى والتجارى والتى يكون طرفيها مصريين وأجانب. أو النزاعات القانونية بين أطراف من جنسيات مختلفة. فتشكل هيئة المحكمة من قضاة مصريين إلى جانب قضاة من كافة الجنسيات الأوربية والجاليات الكبيرة ذات المصالح الملموسة. فإذا لم أخطئ التقدير تستثمر إيطاليا وحدها ما يعادل ٥ مليار ليرة إيطالية فى مصر.

وللمحاكم المختلطة وظيفة أخلاقية وتربوية عظيمة الشأن. ورغم مرور نصف قرن على إنشاء هذه المحاكم الا أن تنفيذ أحكامها ليس أمراً سهلاً. فهناك بعض الاختلافات فى تسجيل الأسماء العربية تمتع أحياناً من تنفيذ الحكم فقد تجد فى قرية واحدة أكثر من عشرة أشخاص تحت اسم محمد احمد. ولازالت عمليات التوثيق فى السجل المدنى والتعداد. تتم بشكل تقريبى ولنأخذ مثالاً آخر قد يقع – وهو مثال حدث بالفعل – يحدث أن يمتثل المتهم لمصادرة أملاكه أو بضاعته. فتصادر ولكن الحافلة التى تقلها تنقلب بشكل مريب فى الطريق وتختفى هذه البضاعة. ويبدأ المتهم بعدها بمطالبة الدولة بالتعويض عنها بعد أن يكون قد استعادها بالفعل وأخفاها فى مكان آمن لازال أمام هذا البلد طريق طويل. يجب أن تقطعه لكى يستقر مفهوم "الحق" ومفهوم "القانون"، فشراهة التملك هنا تشمل كافة المستويات الاجتماعية من أبسط الناس إلى أعظمهم منزلة. ورغم ذلك فليست هناك قناعة سائدة بالاحتياج إلى قانون قوى وراسخ لتأكيد هذه الملكية. ولكى يستقر ويتزن الحد بين ما هو لى وما هو لك. ولن يتم ذلك الا باحترام القانون. يجب أن يدرك الجميع هنا أن القانون لا

يمس ولا يمكن تجاوزه وتعديله الا باتفاق جماعى علنى. عندما يصطدم أساساً بمفهوم العدالة.

فالمصريون يعتقدون بأن ما تملكه، ما هو لك، هو كل ما استطعت أن تأخذه وأن تحتفظ به سواء بالمحبة أو بالقوة. ولذا فإننا نجدهم أحياناً يتخلون بسهولة شديدة عن ما يملكون دون مراجعات كثيرة.. فالاحتراس والتخطيط للمستقبل ليس من جوانب قوة هذا الشعب. يبدو أن البرلمان الفرنسى قد اعترض على طبيعة هذه المحاكم التى نشأت وقت أن كانت مصر ملكاً مقتسماً بين الإنجليز والفرنسيين. وكان كل طرف من المالكين ينظر شزرا للطرف الآخر. كانت فرنسا ترفض منح الأجانب الآخرين نفس الفرصة للمشاركة والتأثير فى الأحكام. وهذا أمر هام إذ كان ادركنا استحالة فرض قانون أو ضريبة الا بعد موافقة الهيئة العليا لمحكمة الاستئناف المختلطة. وعند صدور الحكم من هذه الهيئة يصبح نافذاً ويجب تطبيقه سواء على المصريين أو الأجانب. ويبدو أن الخديوى قد افتتح هذه المحاكم قبل أن يتبلور الموقف الفرنسى حيالها ويتم صياغته بشكل مؤثر.*

اليوم اختفى لقب الخديوى. وأصبح على رأس مصر ملكاً. ولكنه ملك لا يحسد على موقعه. الان يحكم مصر الملك فؤاد بن اسماعيل وهو رجل مستنير. تم تربيته فى ايطاليا وبالتحديد فى المدرسة العسكرية بتورينو حيث قضى شبابه وإذا ما صادف الملك للآن من يجاذبه الحديث بلهجة أهل البيمونت الايطالية فإنه يسعد بذلك سعادة بالغة. وهو بدوره شغوف بالمعرفة . وقد افتتح وهو لا يزال أميراً الجامعة المصرية وذلك فى عام ١٩٠٨م فبدات رحلة الدراسات العليا فى هذا البلد.

ومصر بلد لا تنقصه المعاهد ومراكز البحث المتخصصة فلديه "الجمعية الجغرافية"، "المعهد المصرى" وأسسه بونابرت ليجمع أساتذة وباحثين من كافة الدول ويمتلك مكتبة بالغة الثراء. وذلك بالإضافة إلى "معهد الآثار" و"الجمعية الزراعية"،

ويرجع الفضل للملك فؤاد فى تنشيط فاعليات هذه المراكز. وهو صاحب قرار إنشاء الجمعية الاقتصادية وهى جمعية تعنى بالاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع وتصدر دورية بحثيه من أفضل الدوريات من حيث حجم المعلومات ودقتها. وإلى هذا الملك أيضاً يرجع الفضل فى إنشاء معهد الآثار الشرقية لدراسة ترميم الآثار العربية ولدراسة الموسيقى الشرقية قد أسس مدارس الفنون الجميلة. وشجع عمليات التنقيب عن الآثار. وتطوير المكتبات وبالإضافة إلى ولع هذا الملك بالبحث والعلم فإنه يعرف كيف يسيطر بحزم على الوقائع السياسية بشجاعة نادرة. فقد نادى بتطوير مستوى التعليم والثقافة للشرائح الاجتماعية المضطلعه بإدارة البلاد فى مصر. كما اهتم برفع المستوى الأخلاقى والمادى لشعبه. ويحاول الآن جاهداً أن يمنع تلك الانفجارات الشعبية التى تغذيها الديماجوجية. والتى أدت إلى وقوع الاحتلال الإنجليزي لمصر فى عام ١٨٨٢. والتى أدت أيضاً فى لحظة ليست بالبعيدة إلى ضياع السودان فعلياً من مصر وضياع السودان يعنى للمصريين أن يصبح مفتاح النيل فى يد الإنجليز ربما يعنى التخلى عن استقلال مصر الاقتصادى.

تجربة محمد على فى كتابات الجبرتى

د. محمد صابر عرب

الجبرتى بين عصرين

يمكن القول بأن الجبرتى ينتمى ثقافياً إلى القرن الثامن عشر ولعل ركاكة أسلوبه وأخطائه التعبيرية والنحوية فى أحيان كثيرة تؤكد تدهور أحوال مصر علمياً وثقافياً فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إضافة إلى أن كثيراً من الخرافات التى أبرزها الجبرتى باعتبارها من بين قناعاته قد شغلت حيزاً كبيراً فى تفكيره. واللافت للنظر أن نهاية القرن الثامن عشر وما واكبه من أحداث وما لاحقه من تحولات يعد مفترق طرق كما عبر عن ذلك المرحوم شفيق غربال(١).

لعل من الصعب أن نضع حداً فاصلاً بين الجبرتى بثقافة القرن الثامن عشر من جانب وانتماءاته الطائفية باعتباره واحداً من طبقة تميزت اقتصادياً واجتماعياً على الرغم من تجاوزات المماليك والعثمانيين إلا أن علماء الأزهر بقوا بعيداً عن التقلبات التى نالت كثيرا من طوائف المجتمع خلال تلك الفترة.

وتبدو أهمية ما كتبه الجبرتى وخصوصاً عن الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، حيث يأتى كتاب الجبرتى الشهير "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" باعتباره المصدر الوحيد الذى يتناول باستفاضة لا تخلو من روح الجبرتى وثقافته فترة تعد بحث "مفترق طرق" عن عصر كان ينذر بالانتهاء ولم يستطع الجبرتى أن يُجمل الصورة، التى كانت أشد قسوة من أى فترة تاريخية أخرى فى العصر العثمانى.

لقد كانت مصر قبيل مقدم الفرنسيين قد اصابها التدهور بسبب المظالم لدرجة كما يعبر عن ذلك الجبرتى: "تتابعت المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشلوهم بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة يبكون ويصيحون ليلاً ونهار من الجوع"(٢).

لقد أخفقت الزعامات التقليدية فى القبض على زمام الأمور وما نجم عن ذلك من ظهور عصبيات مملوكية مستغلة أحوال الجند العثمانيين، لذا فقد النظام مقوماً أساسياً من مقومات توازنته ناهيك عن فقد شرعية بقائه.

لعل الطبقة التى عبر عنها الجبرتى (علماء الأزهر) والتى كان الجبرتى واحداً منها لم يلحقها ضرر يُذكر بل كانت فى أصعب الظروف قادرة على الحفاظ على هيبتها وبينما أكل الفقراء الحيوانات الميتة، حيث راحوا يتزاحمون عليها لدرجة أكلها نيئة ووصل الأمر لدرجة أكل الموتى(٣).

ويشير الجبرتى معبراً عن معنى لا يخفى على لبيب قائلاً: "لقد شحت النفوس واحتجب المساتير" لعل هؤلاء المساتير كانوا هم الفئة الوحيدة القادرة على الحفاظ على مكاسبها من بين مخالب المماليك الذين تجاسروا مرة أخرى على النيل من حصة الشيخ الشرقاوى بناحية بلبيس وحضر الأهالى يشكون محمد بيك الألفى وذكروا أن اتباعه فرضوا على القرية ما لا طاقة لهم به واستطاع الشيخ الشرقاوى ان يجمع المشايخ، الذين أغلقوا أبواب الأزهر بعد أن خاطبوا مراد وإبراهيم بك محذرانهما من مغبة تجاوزات المماليك على حقوق علماء الأزهر وراحت العامة تلتف حول المشايخ مما أخاف المماليك لدرجة أن مراد بك اعترف بتجاوزات جنده وأعاد حقوق الشيخ الشرقاوى بعد أن تعهد بعدم العودة إلى ذلك ثانية(٥).

لقد كان الجبرتى واحدا من طبقة أتاح لها العصر العثمانى قدرا كبيرا من التميز، فلم تكن ثمة طبقة أخرى تتمتع بما يتمتع به علماء الأزهر من مميزات، حيث كان النظام يستمد مشروعيته من مساندة شيوخ الأزهر باعتبارهم علماء الإسلام مما أتاح لهم مكانة خاصة وسط عامة الناس لدرجة أن الولاة كانوا يحرصون على أخذ رأيهم فى معظم القضايا الكبيرة بما فى ذلك مشاكل الزعامات المحلية التى استقلت تماما بالأقاليم التى استحوذوا عليها واستعصوا على السلطة المركزية، التى راحت تستحث شيوخ الأزهر على مساندتها فى مهمتها ولعب

بعضهم دور الوساطة سواء فى إبرام صلح أو المساومة على زيادة المبالغ المستحقة على بعضهم[٦].

يمكن القول أن مصر فى نهاية القرن الثامن عشر قد فقدت أهم مقوم من مقومات قوتها، حيث لم تعد سلطة الوالى تتجاوز العاصمة وأصبحت الأقاليم تئن من مظالم الأمراء وشيوخ العربان الذين استقلوا بأقاليمهم وراحوا فى أحيان كثيرة يشنون حملات على القاهرة استهدفت سبى النساء وسرقة الأموال والانتقام احياناً من زعماء المماليك والعثمانيين.

لقد كان أمراء المماليك والعثمانيون وشيوخ الأزهر فى طليعة المجتمع، حيث اتخذوا لأنفسهم أعوانا ومارسوا الحبس والتعذير والضرب واستخدموا كتبة الاقباط وحازوا الأراضى الشاسعة إضافة إلى حصول المشايخ على رعاية وعطايا كبار المماليك.

بهذا الوضع أصبح كبار علماء الأزهر جزءا من السلطة المملوكية ثم أن تفتت الدولة والصراعات بين الأمراء جعلهم جميعا فى حاجة إلى دعم جماهيرى ودينى لذا فقد ضاعفوا من هداياتهم إلى العلماء، الذين تضاعفت ثرواتهم وازداد نفوذهم. لقد كان الجبرتى نفسه (عبد الرحمن) واحدا من هؤلاء مما ضاعف من ارتباطه بكبار المماليك كمحمد الألفى وإبراهيم بك، وهكذا ارتفعت مكانته الاجتماعية لتقترب من مصاف الحكام المماليك وعلى حد تعبير أحد الباحثين : "لقد تحول المشايخ إلى شريحة فاعلة فى النشاط الاقتصادى للمجتمع المملوكى[٧].

لعل من الصعب الحكم على ولاء الجبرتى إلا من خلال مكانته الاجتماعية من جانب وعلاقته بالهيئة الحاكمة وقتئذ من جانب آخر أما مفهوم الدولة وحقوق الرعية ومفهوم المواطنة الخ فهى قضايا لم تكن موضع تفكير الجبرتى الذى لم تتجاوز

نظرته للمصرى ابن البلد أكثر من كونه "جعيدية" و "ذعر" و "حرافيش" و "أوباش" لذا فهو لم ينظر لثورة الشعب المصرى ضد الفرنسسين الا من زاوية أنها "أوقعت الكروب والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار الخ(٨).

لقد كان الجبرتى منتمياً ثقافياً واجتماعياً إلى عصر يرى أن الفلاح المصرى شخصية قبيحة ، خائن، جاهل، أحمق إلخ والثورة من وجهة نظره عمل عدوانى لا يقوم بها إلا الرعاع الذين لا يملكون مسكناً أو مالاً أو أرضاً.

من الطبيعى أن يساند الرجل كل سلطة تدعم وتحافظ على حقوق طائفته، تلك المكاسب التى لم تمتد إليها أيدى المماليك، لذا فهو مع سياستهم ناقما على كل من يحاول التقليل من هيبتهم ومكانتهم حتى ولو كان ذلك على حساب المصريين الذين لم يعبر عنهم الجبرتى إلا من زاوية "الرعاع" و "الذعر" و"الحرافيش". واللافت للنظر أن الجبرتى كثيرا ما تناول المماليك باعتبارهم مواطنيين مصريين، حيث سكنوا البيوت التى تملكوها وارتبطوا بمصالح وارزاق لم تنقطع مما يؤهلهم من وجهة نظر الجبرتى لكى يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى.

لقد عبر الرجل عن عدم رضاه عن أى تغيير قد يطيح بحقوقه وحقوق طائفته، لذا فهو ضد الثورات، التى اعتبرها "فتنة" لا يقوم بها الا "الدهماء" والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ العميان) الذى تزعم ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين واعدم بسببها رجل يحب "التفاخر" لذا استحق المصير الذى آل إليه(٩).

لعل الأحداث التى عاصرها الجبرتى وخصوصا عندما أتيح له أن يقترب من الفرنسيين قد أتاحت له أن يقارن بين همجية المماليك الذين يدعون الإسلام وقتلهم الأنفس وبين الفرنسيين الذين اتاحوا لسليمان الحلبى كل ضمانات الدفاع من خلال محاكمة اعتبرها الجبرتى عادلة، لذا فقد ابدى اعجابه بالفرنسيين بينما هو كاره

للإنجليز ، لكن لا بأس من أن يبدى إعجابه بهم وخصوصا بعد أن اقترب صديقه الألفى منهم، حيث تهذبت أخلاقه بعد أن عايشهم ويرجع ذلك إلى عدلهم فى رعيتهم: يمكن القول أن الرجل قد تأثر كثيرا بسبب الأحداث الكبيرة التى واجهتها مصر مع بداية القرن التاسع عشر، حيث اتيحت له مجالات أوسع للمشاهدة والمقارنة ولعله قد وضع يده على عوامل التخلف التى آل إليها المجتمع المصرى مما جعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات، لذا راح ينتقد البدع والخرافات.

وحينما تتعارض مصالحه مع الإجراءات التى اتخذها محمد على بهدف إضعاف الفئات التى أعاقت مهمة الحكومة المركزية يواصل الجبرتى هجومه على الرجل متهما إياه بالحقد والحسد حيث اعتدى "على مساتير الناس" لذا راح يؤكد على المصير الذى آل إليه عمر مكرم معتبرا ذلك عقابا سماويا بسبب دوره فى تولية ظالم، لذا استحق ذلك العقاب.

تحمل كتابات الجبرتى كثيرا من الصور التى تبرز ملامح الحياة الاجتماعية من العصر العثمانى متضمنة قدرا من التفاخر والعظمة التى اعتبرها الجبرتى دليلا على هيبة المجتمع وقوته. من الطبيعى أن يستنكر الجبرتى اية إجراءات تتعارض مع مصالحه ومصالح طائفته التى كانت تقوم بشراء حصص الإلتزام، أقل من القيمة وفقا لرواية الجبرتى وأن الحديث عن الميرى والفائظ والمرافعات والمراسلات كان من أهم ما عنى به علماء الأزهر فى مجالسهم الخاصة(١٠). وكان والد الجبرتى نفسه يمارس التجارة والبيع والمضاربة والمقايضة وتملك العقارات ناهيك عن الالتزام والوقف.

لعل الخلل الذى آل إليه المجتمع وقتئذ قد ضاعف من مكانة علماء الأزهر، الذين التفت العامة من حولهم طامحين فى تدخلهم لمنع تجاوزات المماليك وهو ما كان يحدث فى أحيان كثيرة إلا أن محصلة هذا كله تبؤ العلماء مكانة اجتماعية يرى

الجبرتى أنها قد اهتزت كثيرا مع بداية القرن التاسع عشر ثم راحت تتدهور بشكل ملحوظ مع الإجراءات الصارمة التى اتخذها محمد على والتى استهدفت كل القوى لصالح مركزية الدولة من خلال مشروع كبير لم يقدر للجبرتى أن يرى ثماره.

تجربة محمد على فى كتابات الجبرتى...

من الصعب الفصل بين الجبرتى كأحد المنتمين إلى طبقة علماء الأزهر وبين الجبرتى المؤرخ فالرجل شديد النقمة على المماليك وعساكرهم بسبب تجاوزاتهم التى ارهقت العامة واحالت البلاد إلى حالة من حالات الفوضى بينما هو متعاطف معهم فى أحيان أخرى وهو شديد النقمة على محمد على الذى كسر شوكتهم وشتت شملهم.

واللافت للنظر أن الجبرتى كان ينظر إلى المماليك أحيانا باعتبارهم من المصريين وخصوصا فى صراعم مع محمد على، حيث سكنوا وتعايشوا وسط المصريين واكتسبوا كثيرا من عادات وثقافة المصريين. لم يكن الجبرتى أحد الذين التفوا حول محمد على ولم يكن من بين رجالاته إلا أنه راح يستقى معلوماته من مصادر عدة، حيث أخذ يسجل الواقع باحداثه المتلاحقة.

لقد شهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير، حتى مجئ الحملة الفرنسية فترة من أشد الفترات التى مرت بمصر، عبر عنها الجبرتى بقدر من السخرية، التى لا تخلو من روح الجبرتى حيث اضطرب الأمن وعمت الفوضى وراح العسكر والعربان يمارسون نشاطهم المعهود من السرقة وفرض الاتاوات ووصل الأمر لدرجة سبى النساء والاطفال.

لعل ما كتبه الجبرتى عن هذه الفترة يعد نقطة تحول لعصر كان ينذر بالانتهاء وبداية عصر جديد اعتمد فى سياساته على المركزية الشديدة وفى سبيل ذلك استباحت السلطة الجديدة كل ما من شأنه أن يدعم نفوذها ابتداء من الضرائب التى

تجاوزت الحد المعقول وانتهاء بالقسوة الشديدة التى عامل بها النظام خصومه.

لقد كان الجبرتى وهو يسجل للأحداث التى مهدت لمجئ محمد على كان موضوعيا معبرا عن الواقع بكل تناقضاته، حيث استحالت الحياة فى ظل نظام فقد كل مقومات وجوده ورعاياه.

لعل أهم ما أدركه الجبرتى بحسه التاريخى أن محمد على كان وراء كثير من الأحداث التى عجلت بوضع نهاية لخورشيد باشا وأن دهاءه ومكره ومقدرته على كسب ود علماء الأزهر كل ذلك قد أدغر صدر الوالى العثمانى الذى بذل جهدا فى إثناء العلماء عن موقفهم. إلا أن طموح محمد على ودهاءه قد افسد كل محاولات خورشيد باشا[١١].

لقد أبدى الوالى قدرا من المرونة كوسيلة لتضييع الفرصة على محمد على وفى سبيل ذلك أخذ يتودد للعلماء مؤكدا وضع حد لتجاوزات العسكر، الذين أحالوا القاهرة إلى فوضى عارمة واقتراح اشراكهم فى البحث عن حل إلا أنهم رفضوا، بإيعاز من محمد على الصعود إلى القلعة، حيث أشيع أن خورشيد يدبر لاغتيالهم وهم فى الطريق ويعلق الجبرتى بسخريته المعهودة قائلا: "ومن السهل اتهام الأوباش العسكر"[١٢].

وفى سبيل اتساع الخلاف بين الوالى والعلماء فمن الممكن أن نتصور أن محمد على وراء مثل هذه الشائعة . لقد تعرض الجبرتى لقضية اعتقد بشرعيتها لما لها من أهمية، حيث وجدت قبولا عند عامة العلماء وكثير من القناصل وكبار التجار الذين ذهبوا إلى بيت القاضى واجمعوا على أعمال شرع الله فى هذا الباشا"الظالم"[١٣] وطالبوا القاضى بعقد مجلس الشرع وكتبت وثيقة أشبه بوثيقة اتهام ضد الباشا تضمنت تعدى العسكر والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل

ومصادرة الناس بالدعاوى إلخ[١٤].

لعل الوصول بالقضية إلى هذا الحد قد أدى إلى موقف يعد جديدا، حيث تفجرت العديد من القضايا التى لا عهد للمصريين بها ولقد حاول الباشا اقناع عمر مكرم بأن عزل حاكم عينه السلطان مسألة لا تدخل فى نطاق سلطة الشعب وحقوقه، كما أنها تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف حيث جاء فى القرآن الكريم "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم". إلا أن حجة الفريق الذى تزعمه السيد عمر مكرم لم يأخذ بعموم النص مطلقا وإنما اعتبر أن المقصود بأولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل الذى يسهر على تنفيذ أحكام الشريعة وراح الشيخ عمر مكرم يقدم من الحجج ما يقيم دليلا صحيحا على موقف جماعته، حيث جرى العرف على أن يخضع لكلمة الشعب الأمراء بما فى ذلك الخلفاء والسلاطين إذا ثبت أنهم لا يستحقون شرف (الحكومة) على رعاياهم وفى استطاعة الشعب عزلهم واستبدال غيرهم. ولما كان خورشيد يعد طاغية، مستبدا، ظالما، لذا فقد وجب عزلة بمعرفة الشعب[١٥]. حقيقة لقد أبدع الجبرتى عندما تعرض للإجراءات التى أدت إلى عزل خورشيد وتنصيب محمد على ويبدو أن الرجل قد انتابه قدر من الضيق سواء بسبب زعماء المماليك أو الجند العثمانيين أو حتى الوالى نفسه، لذا فإن حرص الجبرتى على أن يقدم وثيقة ناطقة معتمدة على حجة شرعية صاغها القاضى بإجماع شيوخ الأزهر، مستمدة حكمها من القرآن والسنة كما قال بذلك عمر مكرم يعد دليلا على موافقة الجبرتى على عزل خورشيد وتنصيب محمد على ومما يلفت النظر دقة الجبرتى فى عرض تفاصيل الصراع بين أنصار خورشيد واهتمامه بتفصيلات يصعب العناية بها إلا إذا كان الجبرتى نفسه واحدا من الذين شاركوا فى كل هذه الاجتماعات والمناقشات وإن لم يشر إلى ذلك صراحة فى كل ما كتب.

إذا كان من الصعب معرفة موقف الجبرتى من تعيين محمد على واليا إلا أن تناوله للقضية برمتها وعرضه لوجهتى نظر الطرفين كل ذلك يقدم دليلا على أن

الجبرتى كان قد ضاق بحالة الفوضى التى آلت إليها البلاد والتى انعكست على كل تفاصيل الحياة، حيث أصبحت الأمور تنذر بالوصول إلى مساتير الناس، الذين لم يكن قد أصابهم ضرر يذكر حتى هذه الفترة.

اللافت للنظر أن كلا من الطرفين قد أخذ يبحث فى مصادر الشريعة ما يقيمه دليلا على صحة موقفه فالعلماء يقولون بعزل الوالى الظالم اعتمادا على رأى كثير من فقهاء المذاهب الإسلامية والوالى يعتصم بحق السلطان فى اختيار ولاته اعتمادا على الشريعة أيضا. وعلى الرغم من أن الجبرتى كواحد من علماء الأزهر فلم يحسم القضية مع بيان رأيه الشخصى إلا أنه عندما تعرض للإجراءات التى أدت إلى عزل خورشيد وتنصيب محمد على ويبدو أن الرجل قد شعر كغيره من المصريين بقدر كبير من الضيق سواء بسبب الفوضى التى أحدثها المماليك أو بسبب تجاوزات العسكر أو حتى الوالى الذى عجز عن وضع حد لحالة الفوضى التى عمت البلاد.

لقد حرص الجبرتى على أن يقدم وثيقة ناطقة معتمدة على حجة شرعية صاغها القاضى بإجماع أهل الحل والعقد، مستمدة حكمها من القرآن والسنة مما يعد دليلا على موافقة الجبرتى على عزل خورشيد وتنصيب محمد على وتبدو دقة الجبرتى فى عرض تفاصيل الصراع بين أنصار محمد على وأنصار خورشيد.

من المؤكد أن الجبرتى قد استبشر كغيره من المصريين بمجئ محمد على وتمنى لو تمكن من وضع حد لحالة الفوضى العامة، التى راحت تنذر بالنيل من كل فئات المجتمع. لقد استحالت الحياة وفقدت السلطة كل هيبتها ولم تعد سلطة الوالى تتجاوز فى أحيان كثيرة حدود القلعة التى اعتصم بها معتمدا على مجموعات من العسكر لا يقومون بدورهم فى حراسة الوالى إلا بقدر ما يستجيب لمطالبهم التى فاقت كل حد.

لقد أدرك محمد على منذ الوهلة الأولى ، عقب تنصيبه واليا أن مصر تختلف كثيرا عن بقية الولايات التابعة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من تدهور أحوالها إلا أن ذلك لا يحول دون حكمها بطريقة تختلف كثيرا عما كان عليه الحال خلال القرون الثلاثة الماضية وأن التخلص من كل القوى سواء التى ناصرته أو التى وقفت بجانب خورشيد هى البداية العملية للانفراد بالحكم بعيدا عن سلطة المماليك التقليدية أو نفوذ العلماء ومن الصعب أن يحقق طموحاته بينما هذه القوى التقليدية باقية.

لقد كان لدى محمد على الكثير من الافكار التى تنهض بمصر وتخلق منه حاكما كبيرا ولعلها كانت معادلة صعبة بحكم أن موارد الدولة وقتئذ لا تفى بطموحاته وأن أية إجراءات بالضرورة سوف تصطدم بما قطعه على نفسه من عهد أوجزه الجبرتى فى إنهاء مفاسد الجند ووضع حد للمظالم وإعادة الأمن والهدوء إلى البلاد إلا أن الفرنسيين الذين كانوا يرقبون أحداث القاهرة قد سجلوا ما قطعه محمد على على نفسه من شروط تلقاها "جون ستيوارت" من مصادرة فى القاهرة والتى جاءت على النحو التالى :

١- عدم مرابطة أية قوات فى القاهرة وانتقال الحامية إلى الجيزة.
٢- عدم السماح للجند عدا الحراس بدخول القاهرة بسلاحهم.
٣- أن يكون مكان الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجند فى جزيرة الروضة.
٤- عدم فرض ضرائب أو إتاوات.
٥- إعادة المواصلات مع الصعيد.
٦- إمداد قوافل مكة بالحراسة اللازمة [١٦].

يشير الجبرتى إلى أن محمد على قد تمكن وبمهارة من استثمار كل عوامل التنافس، إلا أنه وبمجرد أن سيطر على الموقف كان من الصعب أن يلتزم بشروط تحول دون ممارسته لكافة مسئولياته مما اعتبره الجبرتى خيانة "للعهد" حيث راح

يفرض سلفا على الملتزمين والتجار وكافة الطوائف التى أخذت تستنجد بالسيد عمر مكرم[١٧].

لقد تحدد موقف الجبرتى من محمد على وفقا لمعايير أخلاقية فهو يرى أن ما أصاب أهل مصر يرجع إلى بعدهم عن الشريعة وهو أكثر حزنا حين يرى الأجانب "الأروام العثمانيين" يكلمون الناس باسم الدين وهو يرى أن فى انتقاص الأرزاق فى معظم النواحى ما هو إلا عقابا على ما استحوذ الناس عليه من غير حق. والعدل بمعناه الإسلامى هو الذى يحدد جميع أفكار الجبرتى والقضية كما يتصورها ليست مقصورة على إعطاء كل ذى حق حقه وليست مقصورة على ولاية الكبير على الصغير والقوى على الضعيف والعالم على الجاهل، بل ليست مقصورة على المعاملات فيما يتعلق بالكيل والميزان. بل أن فكرة العدل تشمل كل ذلك فيما أطلق عليه حدود الله بالمعنى الذى يندرج تحته كل حد[١٨].

لقد كان الجبرتى أحد الذين جسدوا فى كتاباتهم ملامح الظلم بمعناه الواسع وكان فى حكمه شديد القسوة على الظالمين الذين أهدروا حقوق الشعب وخصوصا إذا ما كان هذا الظلم من أجانب "أروام" كما سماهم الجبرتى إضافة إلى ما لمسه من اتساع دائرة الظلم التى أخذت تمس الفئة التى ينتمى إليها الجبرتى نفسه والتى مستها الإجراءات الصارمة التى وضعها محمد على بهدف إضعاف كل الفئات التى تقلل من نفوذ الحكومة وهيبتها كالملتزمين وكبار ملاك الأراضى والتجار وأثرياء المشايخ والمماليك، لذا فقد راح الجبرتى يكيل الاتهامات للوالى الجديد بمجرد أن شعر بأن ما اتخذه من إجراءات سوف تنال من حقوق ما أسماهم "مساتير الناس" وأعتقد أن من أهداف محمد على غلق البيوت المفتوحة لأن فى طبعه داء الحقد والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم.

لم يقدر الجبرتى أهمية مشروعات محمد على التى اعتمدت على كثير من

الإجراءات، التى من بينها إعادة النظر فى الأراضى المعفاة من الضرائب، حيث أعيد مسحها وفرض رسوم عليها مما أثار انزعاج الجبرتى التى أعتبرها سابقة لا مثيل لها، حيث أضرت بمشايخ البلاد وضيقت عليهم معايشهم[١٩].

لقد كان محمد على فى حاجة إلى المال لتنفيذ مشروعاته الطموحة وخصوصا عقب خروج الإنجليز من الإسكندرية ورشيد، حيث راح يعيد تحصين القلاع وإعداد الجند واستصلاح الأرض وشق الترع وكانت حاجة الرجل إلى المال تتجاوز كثيرا مجرد وعد سبق وقطعه على نفسه. لقد أخذ الجبرتى يرصد إجراءات محمد على التى وصلت إلى حد الاستيلاء على خيول الطواحين لجر المدافع والعربات وفرض ضرائب شملت القبانية والحطابة وباعة السمك القديد مما اضطرهم إلى إغلاق حوانيتهم، حيث لجأوا إلى الجامع الأزهر والاستنجاد بشيوخه الذين نجحوا أحيانا فى رفع بعض هذه الغرامات[٢٠].

لم ينتظر الجبرتى كثيرا لكى يحكم على انجازات محمد على وإنما راح ينظر إلى القضية برمتها من منظور واحد شغل حيزا كبيرا من كتاباته يتعلق بما فرض الرجل من ضرائب وما قام به من احتكار لكثير من السلع وأخذ يبنى أحكامه من خلال معاناة الناس دون أن يتعرض للتجربة بمعناها الكبير ولعل المشكلات التى ألمت بالمصريين فى بداية عصر محمد على قد أرهقت الجبرتى وطبعت أحكامه بطابع ضيق دار معظمه حول المظالم. لعل الجبرتى كان لديه ما يبرر أراءه وقسوته على محمد على فالقاهرة عقب خروج الانجليز قد ضاقت بالعسكر الذين سكنوا بيوت الناس عنوة وكافأ الباشا قوادهم وخلع عليهم الهدايا وبالغوا فى التعدى على الناس واغتصاب بيوتهم وتتسع شكايات الجبرتى ، التى شغلت حيزا كبيرا من كتاباته وراح يقدم أدلة تؤكد أن طائفته قد نالها جهالة الجند: " أن كبيرا منهم دخل بطائفته إلى منزل بعض الفقهاء المعتبرين وأمره بالخروج منها ليسكنها هو فأخبره بأنه من مشايخ العلم. فلم يتلفت لقوله "فاستنجد بإخوانه المشايخ وخاطبوا كبيرهم

وعرفوه بأنه دار العالم الكبير وأن النصارى واليهود يكرمون قسيسهم ورهبانهم وانتم أولى لأنكم مسلمون فأجابوهم: أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى لبلادكم وتقولون أنهم خير منا ونحن مسلمون ومجاهدون – طردنا النصارى وأخرجناهم من بلادكم فنحن أحق بالدور منكم "[٢١]. لقد عنى الجبرتى بأحداث الحملة الإنجليزية على مصر ١٨٠٧ وأخذ يرصد كثيرا من أحداثها ويلاحظ أنه قلل من دور محمد على الذى انزعج بسبب مقدمها لدرجة أنه أرسل يصالح الإنجليز على ما يطلبونه وتلكأ فى مواجهتهم ويؤكد الجبرتى أن محمد على قد ثبت فى يقينه استيلاء الإنجليز على مصر وأن عساكره قد تراجعت وجبنت عن المواجهة بينما العادة من سكان رشيد هم الذين صنعوا الانتصار، الذى فوجئ به محمد على والذى كافأهم بمظالم لا حدود لها لدرجة أنهم قد بعثوا إلى الوالى مهددين بترك دورهم وبلدهم بسبب مطالبه التى أرهقت سكان المدينة[٢٢].

لقد كان انتصار المصريين فى رشيد وإخراج الإنجليز من مصر فى مقدمة العوامل التى وطدت من سلطة محمد على فى وقت باتت البلاد فى حالة من عدم الاستقرار حيث تفاقم نفوذ العسكر وكل طائفة متخوفة من الأخرى : "الأرناؤد فرقتان : فرقة تميل إلى الأتراك وأخرى تميل إلى جنسها. والولاة تميل إلى الأتراك وتكره الأرناؤد والناس فى تخوف من الجميع. ومنهم من يخشى قيام الرعية الخ[٢٣].

لقد اتاح إخراج الإنجليز من مصر فرصة امتداد نفوذ محمد على إلى الإسكندرية، التى لم يكن قد وصلها بعد ونظرا لحالة الفوضى التى راحت تهدد سلطة الوالى الذى أقدم على إلغاء مسموح المشايخ والفقهاء وكافة الأراضى المعفاة من الضرائب[٢٤].

لم يستطع محمد على فى بداية عصره أن يمس مكاسب علماء الأزهر، حيث

أعفوا من كافة الضرائب وكذا من ينتسب إليهم أو يحتمى فيهم وتضاعف نفوذهـــم عقب نجاحهم فى المجئ بمحمد على ويعبر الجبرتى عن الحالة التى وصلوا إليـــها قائلا: "لقد اغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابـــها المحتاجين بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلـــم إلا بمقدار حفظ الناموس وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمـــراء واتخـــذوا الخـــدم والمقدميين والأعوان وأجروا الحبـــس والتعذيـــر والضـــرب بالفلقـــة والكرابيـــج واستخدموا الكتبة من الأقباط وقطاع الجرائم... وصار ديدنهم ذكر الامور الدينويـــة والإلتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف.... وأوقع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد مع ما جبلوا عليه من الشح والاستجداء والتطلع للأكل فـــى ولائم الأغنياء والفقراء وارتكابهم الأمور المخلة بالمرؤة، المسقطة للعدالة [٢٥].

لقد أدرك محمد على أن تحقيق طموحاته نحو بناء دولة ينفرد بحكمها هــــو وابناؤه من بعده رهن بإضعاف الفئات سواء التى شاركت فى المجئ بـــه أو التـــى أضعفت من مركزية الدولة وكان علماء الأزهر فى مقدمة القوى التى شغلت تفكـــير محمد على فالإجراءات التى استهدفت كافة الطبقات وأهل الحـــرف الصغـــيرة قـــد ضاعفت من شعبية المشايخ الذين استنجد الناس بهم واعتقد المشايخ أن محمد علـــى لن يتبرم من تدخلهم، لذا راحوا يبالغون فى مطالبهم وخصوصا تدخلهم فى مســـائل تمس سلطة الدولة.

لقد أخذ الجبرتى يرقب ساسية محمد على من زواياته الخاصـــة وخصوصـــا قضايا الميرى والأطيان والالتزام، حيث أقر على كل فـــدان يـــروى بمـــاء النيـــل أربعمائة وخمسين نصفا وفرض على "مساتير الناس" سلفا وأكياسا وعينـــوا الجنـــد لطلبها وضج الناس بذوى الجاه ولازموا أعتابهم وتصدر الشيخ الشرقاوى لمواجهـــة الباشا طالبا إليه الترفق بالناس ورفع الظلم عنهم مما أغضب الباشا، الـــذى أجـــاب قائلا: "أنا لست بظالم وحدى،وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عـــن حصتكـــم الفـــرد

والمغارم إكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين"(٢٦).

لقد عنى الجبرتى بمظالم محمد على، التى ابتدع لها العديد من المسميات وكان الفلاحون فى مقدمة القوى التى أضيرت من تلك الإجراءات وخصوصا ما عرف "بمال الطين" وعجز الناس عن الوفاء للمطالب التى أرهقت كاهلهم، لذا ترك بعضهم دورهم وأراضيهم وشهدت البلاد أكبر حركة هجرة من مناطق إلى أخرى ومست تلك الإجراءات أكابر الناس، القائمين على الأوقاف الخيرية حيث فرضت مبالغ على الأحباسيات المقررة للمساجد والأسبلة والتكايا وكافة جهات البر والصدقات وأطيان الأوسية والناس يتزاحمون على بيت الشيخ عمر مكرم بينما راح بعض مشايخ الأزهر يتدارسون فيما بينهم نص وثيقة المبايعة التى قبل محمد على العمل بموجبها مما أوغر صدره ضد العلماء وخصوصا عمر مكرم الذى راح يلاحقه بمطالب تتعلق بمظالم اعتقد أنها تجاوزت الحد المعقول.

لعل محمد على أراد أن يختبر موقف العلماء حينما قرر عزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف وتعيينه الشيخ السادات بدلا منه وعدم الاكتفاء بذلك بل قرر نفيه إلى دمياط وبدلا من أن يأخذ العملاء موقفا، راحو يطعنون فى ذمة عمر مكرم من خلال وثيقة قدموها إلى محمد على تضمنت العديد من التهم التى مست شرف الرجل وأمانته ومن بينها أنه أدخل فى دفتر الأشراف أسماء بعض من أسلم من القبط واليهود ومنها أنه أخذ من الألفى مبالغ مالية ليمكنه من ملك مصر ومنها اتصاله بالعسكر لينقضوا على الباشا إلخ(٢٧). وهى تهم لو صح بعضها لكانت سببا معقولا ليس فى نفى الشيخ فقط بل فى قتله.

ويعلن الجبرتى بسخريته المعهوده قائلا: "لقد انعم الباشا على الشيخ المهدى بوظائف السيد عمر ومنها نظارة الامام الشافعى ووقف سنان باشا كل ذلك نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر(٢٨). لقد اكتشف محمد على أن العلماء لم يهبوا لنصوة

صديقهم، بل راحو يلقون عليه التهم رغبة فى إرضاء الوالى وطمعا فى عطاياه التى كانت أكثر وضوحا فى حالة الشيخ المهدى. لعلها كانت اختبارا عمليا لنفوذ العلماء الذى تبدد بشكل ملحوظ وراح محمد على يمارس سلطاته المطلقة بما فى ذلك فرض ما يشاء من ضرائب ومغارم واحتكار كل أنواع التجارة بما فى ذلك الدخان والنشوق والنطرون والشراب المسكر مثل العرقى وبيعه بالقوة إلى القرى وأعيان البلاد(٢٩).

لقد شعر محمد على أن الاستقلال الاقتصادى يعد المصدر الأساسى فى قوة العلماء وهى القضية التى عنى بها الجبرتى وعدد كثيرا من ملامحها لدرجة أن الباشا راح يتحين الفرص للانقضاض على هذه الامتيازات وإعادة النظر فيها بحجة أن البلاد فى حاجة إلى الأموال(٣٠).

لقد عبر الجبرتى عن مواجهة غير متكافئة بين العلماء ومحمد على، حيث لجأ العلماء إلى "كتخدا" الذى لم يعترف بتميز العلماء الذى لا مبرر له وفى حضور الباشا وجمع من العلماء تصاعدت حدة النقاش لدرجة أن الشيخ الشرقاوى اتهم "كتخدا" بأنه رجل سوء ويعلق الجبرتى بطريقته قائلا: "لعل كلام الكتخدا قد وافق غرض الباشا"(٣١).

لقد أعيد النظر فى أراضى الرزق الموقوفة على المساجد والتكايا والأسبلة وكانت تحت إشراف جمع من العلماء الذين شعروا بأن الدائرة تدور عليهم وعندما احتج العلماء وابدوا غضبهم للكتخدا وأعلموه بأن الضرر سيلحق بالمساجد وإقامة الشعائر، تنصل من كل ذلك وأجابهم :"هذا شيئ أمر به أفندينا".

وعندما يئس العلماء من عدم الاستجابة إلى مطالبهم ورفض تميزهم عن غيرهم يعلق الجبرتى قائلا: :أن الكلام ضائع لأنها حيل ومخادعة" (٣٢).

لقد شعر الجبرتى أن محمد على ابتعد كثيرا عن القوى التى اتت به إلى

الحكم وتنصل من كل عهد قطعه على نفسه وأصبح يمارس سلطته معتمدا على سياسة اتسمت بقدرة من القسوة التى استهدفت حلفاء الأمس لدرجة الإقدام على شنق رجل كحجاج الخضرى وتركه معلقا على أحد الأسبلة على الرغم من مواقف هذا البطل الشعبى فى تدعيم سلطة محمد على. ويقرر الجبرتى بشيئ من المرارة كيف اشتهر حجاج بالإقدام والشجاعة والهمة وكان صاحب صولة وكلمة على قدر من مكارم الأخلاق ولم يأت بجرم يوجب شنقه بل قتل مظلوما(٣٣).

وإذا كان الجبرتى قد كتب كثيرا عما أسماه بمظالم محمد على التى راح يعددها ما بين مظالم أخذت أشكالا متعددة وبين القسوة التى عامل بها خصومه إلا أنه قد لمس شيئا من إنجازاته حينما أشار إلى إخراج الجند من القاهرة وتوزيعهم ناحية البحيرة والنفور ويعلق على ذلك قائلا:" ذلك جزاء فعلتهم" أو حينما اشار إلى بعض مشروعاته فى العمران والتى اثارت اهتمام الجبرتى.

واللافت للنظر أن الجبرتى تناول محمد على من زوايته الخاصة حيث اهتم كثيرا بهزيمة طوسون أمام القوات السلفية وأخذ يفسرها تفسيرا دينيا بحتا ويتساءل قائلا: اين النصر وأكثر العساكر على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهب؟ ولا يسمع آذان ولا تقام فريضة. والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذن وينتظمون صفوفا خلف أمام واحد بخشوع وخضوع. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف. وينادون فى معسكرهم . هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون، المستبحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة وكشفوا عن كثير من القتلى فوجدوهم غلفا غير مختونين"(٢٤).

لقد قدم الجبرتى رؤية تنتقص من استعداد الجند المتأهبين لملاقاة السلفية وفسر هزائم طوسون تفسيرات تتفق وثقافته لكن حينما حقق نفس الجند انتصاراتها ضد نفس العدو امتنع عن تقديم مبررات لهذا النصر.

ووفقا لثقافة الجبرتى ورؤيته التى اتسمت بقدر من التعصب أحيانا فقد أخذ يمتدح سياسة محمد على لأنه ألزم الأقباط بارتداء زى خاص بهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال معتقدا بأن الشريعة الإسلامية بها ما يفسر هذا الإجراء(٣٥). وهى رؤية تنم عن قصور ملحوظ فى ثقافة الرجل الذى حدد موقفه من سياسة محمد على وفقا لما تصور أنه يتفق مع الشريعة الإسلامية أو تناقض معها بينما الرجل يغفل رأى الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بتميز العلماء على غيرهم وحصولهم على مكاسب وحقوق دون بقية طوائف المجتمع لدرجة أن غيرة الرجل على الانتقاص من هذه الحقوق كانت لا تقل عن غيرته على الانتقاص من الشريعة نفسها.

لقد أخذ الجبرتى يرصد كثيرا من المتغيرات التى نجمت عن إجراءات محمد على وخصوصا ما يتعلق منها بتسويق الحاصلات الزراعية التى نجح الباشا فى بيعها إلى الدول الأجنبية بسعر زاد عن المائة قرش للإردب بعد أن كان ثمنه لا يتعدى ثمانية قروش ولما كان الباشا قد احتكر كل شئ لنفسه فقد كان يشترى الإردب من الفلاحين بثمانية قروش مع إلزام الفلاحين بنقل محاصيلهم إلى أماكن حددت خصيصا(٣٦).

ويتابع الجبرتى مشروع محمد على فى ضبط الأراضى والاقطاعات الخاصة بالملتزمين والتى اعتبرها خرابا على البلاد والعباد وخصوصا فى الصعيد عقب تولية ابراهيم باشا أميرا عليه وحيث أخذ الناس يتعللون بأن هؤلاء الملتزمين يطعمون الطعام ويعمرون المساجد. ويعلق الجبرتى على هذه الإجراءات قائلا:"لقد أذل أعزة أهله وأساء أسوأ السوء معهم فسلب نعمهم وأموالهم وحاسبهم على ما كان من تصرفهم وأجرى عليهم الضرب والتعليق والكى بالنار. وأخذ الجبرتى يتهم إبراهيم باشا بأنه لم يتخلق بأخلاق ولم يرتدع بدين الخ(٣٦).

لقد ابدى الجبرتى تعاطفا كبيرا مع الملتزمين الذين اعتقد أنهم أضيروا ظلما

فى أرزاقهم بينما لم ينظر تفس النظرة إلى الفلاحين المعدمين حينما أخذوا يظهرون شيئا من الشماتة فيما آل إليه مصير هؤلاء الملتزمين بعد أن جردوا من التزاماتهم وراحوا يرددون فيما بينهم . نحن فلاحى الباشا . يضيف الجبرتى قائلا : " لقد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرار اهم لبعضهم البعض كما قال فيهم البدرى الحجازى :

سبعة بالفلح قد انزلت	لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم ، استاذهم ، والمشد	والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى كاشف الناحية	وزد عليها كدهم في اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم	مع أسوداء الوجه ... هذا النكال

وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه فى أعينهم واستهانوا به وما طلوا فى الخراج وسموه بأسماء النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين [٣٧] لم تكن نظرة الجبرتى إلى الفلاح المصرى تختلف كثيرا عن نظرة المملوكى أو الملتزم وهى لا تختلف عن نظرة صاحب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ـ لذلك تأسى لأنهم رفضوا ـ العمل لحساب الملتزمين ، وقال أن كل ملتزم كان لا يجد من يطيعه منهم وتطاول الفلاحون عليهم بالألسنة فيقول الحرفوش منهم إذا دعى للشغل : " روح انظر غيرى " انتم لم يبقى لكم فى البلد فقد انقضت أيامكم ، احنا صرنا فلاحين الباشا . ويضيف قائلا : لقد كانوا من الملتزمين أذل من العبيد " وقد سلط الله علي هؤلاء الفلاحين سوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم [٣٨] .

أما فى المدن فإن حكم الجبرتى لم يختلف كثيرا ، حيث وصف العامة بأنهم "أوباش" و زعر" و "حرافيش" لذا فإن تقييمه لتجربة محمد على تجاوز هؤلاء العامة فلا يتناولهم غالبا إلا بالسخرية باعتبارهم موطن كل شر على الرغم من أنهم

كانوا بالقوة الضاربة وراء كل عمل اقتصادى وعندما يتعرض لارتفاع الأسعار التى ارهقت "مساتير الناس" لا يقترب من أثر هذه الزيادة على العامة، التى لم تعد الأسعار تتناسب ودخولهم الحقيقية.

ويؤكد الجبرتى أن الأسعار ارتفعت بسبب سياسات محمد على وخصوصا تحديد الأسعار التى نجم عنها حجب السلع عن الأسواق وبيعها بعيدا عن أعين رجالات محمد على بأسعار تجاوزت كل حد معقول وامتدت زيادة الأسعار إلى حصص الالتزام والجمارك لدرجة أن ديوان بولاق "الجمرك" تزايد عليه المتزايدون حتى أوصله إلى خمسمائة كيس فى السنة بعد أن كان عائده ثلاثين كيسا وقدرت الجمارك بعشر القيمة وبذلك ارتفعت الأسعار وأقبل نصارى القبط والشوام على أخذ حصص الجمارك.

ويتعجب الجبرتى من أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها وبضائع الافرنج والنصارى ومن إليهم يؤخذ عليها اثنان ونصف فى المائة فقط[٣٩].

لقد أخذ الجبرتى يسئ الظن بكل انجازات محمد على الذى راح يجرى العديد من الإصلاحات التى تتعلق بمسح الأرض وتقدير عائدها وفقا لبيانات اثبتت تجاوزات الملتزمين والمشايخ مما دفع بآلاف الفلاحين إلى النزوح إلى القاهرة وتقديم شكاياتهم مما أحدث ارتباكا شديدا أسماه الجبرتى "ديوان الفتنة" ومبالغة فى سوء الظن يعتبر أن كل هذه الإجراءات لا تهدف إلا إلى الاستيلاء والاستحواذ على مال الغير وقطع المنافع وضرب هذا بذاك بهدف إنتزاع ما فى أيدى الناس[٤٠].

لعل مما يلفت النظر أن الجبرتى بعد مرور عشر سنوات من تعيين محمد على واليا قد أغفل تماما كل إصلاحاته وأخذ برصد الأحداث من وجهة نظره مؤكدا أن الناس كاوا يموتون عطشا بسبب الاستيلاء على حميرهم للسخرة والرجال لخدمة العسكر المسافرين إلى الحجاز وغلاء ثمن القرب، التى استولى عليها الباشا

وارتضى أسعارها حتى بيعت القربة الواحدة، التى كان ثمنها مائة وخمسين نصفـا بألف وخمسمائة نصف[٤١]. ووقف العسكر فى الطرق يرصدون مـرور السـقائين وامتدة قسوة الباشا لدرجة أنه أخذ القبانين والخبازين وأرباب البضائع والحرف ومن تخلف منهم أوقع نفسه هدفا للعسكر الذين قاموا بتعقبهم مما نجم عنه وقوع فوضـى عارمة[٤٢].

لقد عنى الجبرتى بكثير من السلبيات التى اعتقد أنها تجاوزت كل حد لدرجـة تدهور حالة القضاء، حيث أبطل العمل بكافة المذاهب ما عدا المذهب الحنفى، الـذى تصدر القضاء به اتراك جئ بهم من العاصمة العثمانيـة فـى قضايـا المواريـث والتركات وغير ذلك وعلى الرغم من عناية الجبرتى بكثير من السلبيات إلا أنه فـى أحيان قليلة كان يشيد بمحمد.على وخصوصا عندما أنشأ مدرسة المهندسخانة بعد أن تأكد أنه فىأولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف[٤٣].

لقد كانت عناية محمد على بإعمار مدينة الاسكندرية وثغورها ومبانيها من أهم ما لفت نظر الجبرتى لدرجة أنه تمنى لو أن الرجل قد اتسم بشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير لكان أعجوبة زمانه[٤٤].

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن أن نقرر عدة نتائج :

أولها: تتضمن كتابات الجبرتى الكثير من ملامح العصر العثمانى : الذى عصفـت به الكثير من العوامل التى تعرضت لها مصر مع نهاية القرن الثامن عشـر ومطلع القرن التاسع عشر وعلى الرغم مما يبدو من أن الجبرتى قـد تـأثر كثيرا بأحداث الحملة الفرنسية إلا أن ثقافته الدينية المحافظة قد انعكست على كثير من آرائه فى محمد على.

ثانيها : لقد حكمت رؤية الجبرتى اعتبارات شخصية حيث شغلت قضايا الضرائـب

والالتزام والمغارم التى ألمت بطبقته مساحة كبيرة فى كتاباته ومن ثم فقد تحدد موقفه ورؤيته وفقا لهذه القضايا، لذا فإن أحكامه فى كثير منها اتسمت بقدر من المحدودية والتى أخرجته عن دائرة الموضوعية، حيث لم يُعن بنفس القدْر بالمنجازات التى أخذ محمد على يوجه كل إمكانات مصر بهدف تحقيقها.

ثالثها : لقد لمس الجبرتى قضايا على درجة كبيرة من الأهمية، لعل قضية البيعة، التى أجمع عليها العلماء والتى اختاروا محمد على بموجبها تعد من أهم ما تناوله الجبرتى، حيث عادوا بعد أقل من عشر سنوات يناقشون شروط هذه البيعة وموقعها فى الفقه الإسلامى وعما إذا كان محمد على قد تجاوزها مما يوجب عزله مما كان سبباً أساسياً لاتساع دائرة الخلاف مع العلماء الذين راح ينكل بهم واحداً بعد الآخر.

رابعاً: لم تحظ شخصية العامة من أبناء البلد بالأهمية التى تتناسب ودورهم فى المجتمع المصرى، حيث لم تتعرض لهم إلا من باب السخرية والاستهزاء وقد اتسمت أحكامه على الفلاحين بقدر من القسوة تنم عن نظرة دونية لهؤلاء الفقراء الذين تحملوا العبء الأكبر دون أن تتوفر لهم أية حقوق حتى حينما اتاح لهم محمد على حق الشكوى من الملتزمين راح الجبرتى يكيل لهم الاتهامات واصفاً إياهم بالجهل والخيانة وهى أحكام افتقدت إلى معنى العدالة، التى كثيراً ما رددها الجبرتى وكانت سبباً فى أحكامه القاسية على كثير من إجراءات محمد على.

خامساً : لقد تناول الجبرتى تجربة محمد على على طريقة ولا تقربوا الصلاة دون أن يكمل بقية الآية حيث حمل على عصر محمد على على اعتبار أنه تسبب فى إرهاق "مساتير الناس" بينما لم يقيم التجربة بمعناها المتسع من خلال برنامج شمل كل مناحى الحياة ابتداء بالتعليم وانتهاء بالزراعة والصناعة

ولعل الجبرتى بحكم أنه قد توقف عن الكتابة فى بداية العقد الثالث، لذا فلم يتح له أن يعايش التجربة فى مراحل نجاحها.

سادسها: لقد فسر الجبرتى الكثير من القضايا تفسيراً دينياً، حيث أخذ يقارن بين جيش طوسون وهو يحارب فى الجزيرة العربية وبين جيش السلفيين وإرجع الهزائم التى ألمت بالجيش المصرى لأسباب دينية خالصة بينما لم تحظ الانتصارات بنفس التفسيرات التى عول عليها كثيراً لدرجة أنه راح يشيد بمحمد على حينما ألزم الأقباط بزى خاص بهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال معتقداً بأن الشريعة الإسلامية بها ما يفسر هذه الإجراءات.

إضافة إلى كل ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن الجبرتى قد أشاد بكثير من منجزات محمد على مؤكداً على شهامته وإقدامه لولا أنه به قدر من الجور والظلم وعموماً فإن تجربة محمد على فيما كتبه الجبرتى تعد على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تعد وبحق نقطة تحول أو منعطف طريق بكل ما تعنى التجربة من إنجازات وهزائم.

المصادر والمراجع

(١) محمد شفيق غربال – عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث ص٩، القاهرة ١٩٧٤.

(٢) المختار من تاريخ الجبرتى، مطابع الشعب، ص٢٣٢، القاهرة ١٩٥٨.

(٣) نفس المصدر السابق ، ص٢٣٢.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٨.

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٠.

(٧) صلاح عيسى، منهج عبد الرحمن الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية "ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتى" ص ١٤٧.

(٨) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (الجبرتى) جـ ٢ ، ص٣٤٤ دار الجيل بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨.

(٩) نفس المصدر السابق جـ٢ ، ص٢٧٩.

(١٠) نفس المصدر السابق جـ ٣ ، ص٢١٩.

(١١) المختار من تاريخ الجبرتى، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٥.

(١٢) نفس المصدر السابق ، ص٦٢٨.

(١٣) نفس المصدر السابق ، ص٦٢٨،٦٢٩.

(١٤) نفس المصدر السابق.

(١٥) د. محمد فؤاد شكرى، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١ طـ، ص٣٢١ ، القاهرة ١٩٥٨.

(١٦) نفس المرجع السابق ، ص٣١٢

(١٧) المختار من تاريخ الجبرتى ، مصدر سبق ذكره، ص٦٧٠.

(١٨) احمد خاتى، الجبرتى ومحمد على، "عبد الرحمن الجبرتى" ، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧٠.

(١٩) المختار من تاريخ الجبرتى ، ص٧٣٣.

(٢٠) نفس المصدر السابق ، ص٧٥٣.

(٢١) نفس المصدر السابق ، ص٧٤١.

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص٧٢٣.

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص٧٤٤.

(٢٤) نفس المصدر السابق ، ص٧٤١،٧٤٢.

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ص٧٤٢.

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ص٧٨٢.

(٢٧) نفس المصدر السابق ، ص٧٧٨.

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص٧٧٧.

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص٤٠٨.

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص٩٢٥.

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص٩٨٢.

(٣٢) نفس المصدر السابق ، ص٩٩٣.

(٣٣) نفس المصدر السابق ، ص٨٠٥.

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص٨٤١.

(٣٥) نفس المصدر السابق ، ص٦٤٦، ٩٤٧.

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص٨٢٣.

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ص٨٧٤.

(٣٨) نفس المصدر السابق ، ص٩٠١.

(٣٩) صلاح عيسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩٠.

(٤٠) المختار من تاريخ الجبرتى ، ص ٩٤٦.

(٤١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٨٣.

(٤٢) نفس المصدر السابق ، ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٤٣) نفس المصدر السابق ، ص٥٢٣، ص٥٢٤.

(٤٤) نفس المصدر السابق ، ص٥٢٨.

أواخـــــــــــــر ايام محمد على باشا الكبيــــــــــر

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى

تناول العديد من الكتاب مؤرخين وغيرهم عصر محمد على بالدراسة فكتبـــوا عن تأسيسه لمصر الحديثة وتكوينه للحكومة المدنية فيها ودعم اركانها وعن فتوحاتــه وأمجاده، ولكن أحدا منهم لم يتعرض لسنوات حكمه الأخيرة إلا لماما، مما يجعل هـذه الدراسة ضرورية خاصة وانها تبين مدى مرارة المعاناة السياسية التى قـــدر لمحمــد على أن يعيشها فى أعقاب تدخل القوى الأوربية ومساندتها للسلطان العثمانى ضـــــده بهدف المحافظة على مصالحها[١]

لقد كانت المحنة التى تعرض لها محمد على عنيفة فقد وقـــف منفـــردا أمـــام القوى الكبرى التى حاصرت بأساطيلها سواحل الشام والاســـكندرية لـــترغم جيشـــه المنتصر على قبول شروطها المجحفة التى استهدفت القضاء على كل منجزاته. وقـــد اضطر إلى قبول المفاوضات مع الحلفاء الذين فرضوا عليه تسوية ١٨٤٠-١٨٤١[٢] وبمقتضاها ضاعت كل فتوحاته فى بلاد العرب والشام وكريت بعد أن كـــان محمــد على قد اخضعها لسيطرته. وهكذا تقلص نفوذه لاسيما بعد ان فرض عليـــه الحلفـــاء تحديد عدد قواته المسلحة بما لايسمح له باستئناف الفتوحات. وادى ذلك إلـــى توقعـــه داخل حدود مصر فقط، وانهيار احلامه وتطلعاته التوسعية. وكان طبيعيا ان يـــترتب على ذلك تدهور مشروعاته الصناعية والزراعية[٣] وتوقف مسيرته فى البناء.

وتطرق اليأس إلى نفس الباشا الذى ناهز السبعين فى عمره فى ذلك الوقـــت، وأحس بالأسى والمرارة والقنوط وفقد القدرة على القيام بمسئوليات الحكم، واضطربت افكاره وضعفت قواه الجسمية والعقلية فلم يستطع التحكم فى اعصابه، وفقد الســـيطرة على تصرفاته، وانتابته نوبات هستيرية فشل الاطباء فى علاجها ولـــم ينجـــع فيـــها دواء.[٤]

ومن أكبر المشاكل التى واجهت محمد على وهو فى هذه الحالة السيئة فقدانـــه

الثقة فى معظم افراد اسرته خاصة وانه لم يجد من يتحمل المسئولية من بعده سـوى ابنه ابراهيم الذى تكاثرت عليه الأمراض هو الآخر، وأوشكت على الفتك به[٥] وإلـى جانب ذلك فان محمد على اكتشف قيام بعض افراد اسرته بالاختلاسات والتصرفـات المريبة فى الادارات الحكومية[٦] والتراخى فى تنفيذ أوامره فلم تعد تنفذ بدقه وحـزم كما كان يحدث من قبل[٧]

ونتيجة لكل ذلك، ورغبة من محمد على فى اصلاح احوال ما أعوج من أمور اجتمع بأفراد أسرته وكبار رجال دولته لتوجيه النصح لهم وارشادهم. وكان من أبـرز ما أوضحه لهم وطلبه منهم هو ضرورة اتفاقهم واتحادهم فى الآراء، والثبـات فـى العمل والاستقامة فى الأفكار حتى يمكنهم العمل على تقدم مصر التى تمتلـك تربـة خصبة وصالحة للعمار فقال "ان من حسن الطالع ان نعم بأرض كأرضينا لامثيل لـها بين أراضى العالم، وعندى أن التقاعس عن بذل كل ما يمكن بذله من الجـهود فـى سبيل مضاعفة يسرها ورخائها لدليل العقوق التى لايمكن ان يرضاه قلبى، ويسـتحيل أن أقره فلا محيص لى من أن أناشدكم فى كل حين بأن تسهروا على أداء واجبـاتكم لكى تصل إلى الغاية التى جعلناها نصب اعيننا وحذار مـن التكاسـل والاهمـال... فلايفوتنكم إننى سأواصل السهر على سعادة هذه البلاد ورخائها ولو ضحيت فى هـذا السبيل بحياتى وحياة اقاربى".[٨]

وبين محمد على لهم أن اختلاف الآراء يمكن ان يحـول دون تحقيـق تلـك الأهداف، وحذرهم من العاقبة بقوله " إن كل من حولى يعرفون تمام المعرفـة أننـى لارغب فى ايذاء أحد، وقد حكمت اربعين عاما لم تمتد فيها يدى بمعاقبة أحد عقابـا شديدا. فاذا ما ارغمت على الخروج عن هذه القاعدة فلن يكون الذنب ذنبى بل ذنـب غيرى".[٩]

كما أوضح لهم أنه استنتج أن خططه وآراءه تسير فـى واد وخطـط وآراء أعضاء اسرته الذين يتولون الأمور العامة تسير فى واد آخر، وأنهم يتنصلـون مـن

المسئوليات بما لا يتفق ومصالح البلاد. وضرب مثالين على ذلك:

الأول: أنه على الرغم من أوامره الصادرة إليهم باجراء تعداد النفوس لأهالى مصر وتوخيهم الدقة فى ذلك، فانهم تركوا ذلك الأمر للعمد والمشايخ الذين لم يصدقوا فى أعمالهم وأقوالهم.

والثانى:إنه رغم مناشدتهم الاهتمام والعناية بتربية وتهذيب الطلاب الدارسين بمدرسة الخانكة حتى يتخرجوا بالشكل اللازم فان احدا منهم لم يعر ذلك اهتماما.

وإلى جانب ذلك فقد ذكر محمد على أنه ليس بالرجل الذى يتشبث برأيه، كما أنه لايتخذ قرارا فى مسألة الا بعد أن يسمع آراء المجلس المختص بها لأن كل أمله هو خير هذا الوطن وصالح البلاد وإن خطته تنحصر فى البحث عن كل مامن شأنه ان يؤدى إلى غنى هذا الوطن وعمرانه وان الواجب يقتضى التكاتف والتعاون والتضامن لأن الخلاف فى الآراء لا يتفق مع المصلحة كما أن اساس الحق والعدل واساس الواجب والاخلاص يكمن فى اتحاد الافكار والمبادىء.(١٠)

وعلى الرغم من نصائح محمد على لأفراد اسرته، والمناقشات الحادة التى كانت تدور بينه وبينهم فانه لم يجد الاستجابة الكاملة منهم وعقب احدى هذه المناقشات آوى إلى مخدعه فاصابه القلق والأرق لدرجة أن جفنه لم يغمضه حتى الصباح. فغادر فراشه مبكرا وتوجه إلى قاعة الاستقبال التى كانت خالية من حاشيته فى مثل تلك الساعة، واستلقى على الكنبة، واجهش فى البكاء والعويل بحالة هستيرية مسموعة، ورفض طعام الأفطار كما رفض تناول القهوة وتدخين "الشبك"(١١) الذى اعتادها من قبل. وبعد فترة قصيرة طلب الباشا اعداد مركبته فحضر رجال الحاشية جميعا مسرعين، وظلوا واقفين امامه دون أن يجرأ أحد منهم على الاقتراب منه، فما كاد بصره يقع عليهم حتى صاح فيهم جميعا متهما اياهم بالخيانة وانه قد عقد العزم على أن يغسل يديه من كل شىء، وان يغادر البلاد إلى مكة المكرمة للحج. وخرج الباشا قاصدا بيته الخلوى بقرب ترعة المحمودية الذى تعود الذهاب إليه كلما اراد

الاستجمام والراحة قبل السفر بالباخرة إلى القاهرة. ولما لم تكن الباخرة قد تم اعدادها لسفره المفاجئ اغلق البيت وبقى فيه وحيدا. وعندما حضر القنصل الفرنســـى إليــه للاستفسار عن أحواله حتى يمكنه أن يبعث بذلك إلى حكومته رد عليه قائلا " ما فــات فات والمقدر لابد من نفاذه"

وفى اليوم التالى استقل الباخرة إلى القاهرة ثم حبس نفسه فى قصره بشــــبرا وهو فى حالة هيجان وثورة شديدة حتى حضر إليه طبيبه الخاص كلوت بك[١٢] للسهر على راحته والعناية بصحته والتخفيف من همومه. وبعد فترة وجيزة اســتعاد محمــد على وعيه، وعادت إليه ذاكرته، كما فارقه الوسواس، ومن ثم عـــدل عــن زيــارة المسجد الحرام، وأمر بفرض غرامة على كل من يثير حفيظته أو غضبه من رجــال حاشيته.[١٣]

وأخذ محمد على يدير شئون مصر الخارجية من جديد بعد أن تحسنت احوالــه الصحية فعمل على تسوية علاقاته مع انجلترا وفرنسا والدولة العثمانية فعلى الرغـــم من موقف الانجليز والفرنسيين غير المؤيد لمحمد على خلال تسـوية ١٨٤٠- ١٨٤١ وفرضهم شروطا غير عادلة عليه فقد حاول الباشا اصطناع المجاملة فى صلاته بكـل من هاتين الدولتين وبما لايتعارض مع مصالح مصر، كما حاول الاستفادة من منافسة كل منهما للآخر حول انشاء خطوط مواصلات فى مصر تســـهل حركــة التجــارة العالمية وتربط البحرين المتوسط بالأحمر.[١٤]

وعلى الرغم من اقتناع محمد على بعدم جدوى الاعتماد على فرنســا خــلال مواجهاته مع الانجليز او غيرهم فقد حاول اقامة نوع من التوازن بينهم وبين الانجليز ففى حين تعاون مع الحكومة الفرنسية فى مشروع تحصين السواحل المصرية[١٥] فقـد سعى إلى تحسين علاقاته مع انجلترا خاصة بعد سقوط وزارة الأحــرار فــى عــام ١٨٤١، ونجاح المستر "باورنج" الذى اوفدته الحكومة الانجليزية إلى القاهرة لكســب ود الباشا. وكان محمد على يستقبله يوميا، ويستمع إلى آرائه ونصائحه وعلى الرغــم

من ذلك فقد كان محمد على يخشى من نفوذ كلا الدولتين على بلاده بعد أن اقنعته تجاربه الطويلة بأنه لاجدوى من الاعتماد عليهما، لذلك كان حريصا مع التعامل معهما كما كان يخشى من تزايد نفوذهما فى بلاده، لذلك وضع يده على اختصاصات الشركة الانجليزية التى كانت تدير المواصلات النيلية والبرية فى مصر، فاشتراها فى يونيو ١٨٤٢ ونقل اختصاصاتها إليه[١٦]، كما ارغم القوارب والسفن الاجنبية التى تمر فى النيل وفى ترعة المحمودية على أن ترفع العلم المصرى منذ سبتمبر ١٨٤١.[١٧]

ولاظهار رغبة الحكومة البريطانية فى تحسن العلاقات مع مصر أهدت محمد على سفينة بخارية تعبيرا عن تقدير الشعب الانجليزى له، واهدته شركة الهند الشرقية نافورة من الفضة المصقولة[١٨] اعترافا منها بمعاونته وتشجيعه لمشروع الطريق البرى، كما اطلقت اسمه فى عام ١٨٤٢ على احدى بواخرها[١٩] يضاف إلى ذلك أن الملكة فيكتوريا بعثت إليه بصورتها فى إطار مرصع بالاحجار الكريمة[٢٠]

ولم يقتصر امر تقديم الهدايا إلى محمد علي على بريطانيا بل أنعم عليه لويس فيليب ملك فرنسا بالوشاح الأكبر من وسام جوقة الشرف (الليجون دونير).

وذهب ابراهيم باشا فى زيارة إلى فرنسا وانجلترا حيث استقبل فيهما استقبالا حافلا وكان ذلك تعبيرا عن تقدير الغرب لبراعة وعبقرية ابراهيم العسكرية كما فكر محمد على فى زيارة انجلترا بعد أن أكد له وزير خارجيتها اللورد " بالمرستون" بأن ملكة انجلترا ستستقبله الاستقبال الذى يليق بمكانته ولكن هذه الزيارة لم تحدث خاصة وأن الباشا قد هداه تفكيره إلى القيام برحلة بحرية إلى الآستانه فى عام ١٨٤٦ للترويح عن نفسه من ناحية ولاعتقاده بأن النفوذ العثمانى أقل اذلالا وأسهل مقاومة من نفوذ انجلترا وفرنسا[٢١] ، هذا بالاضافة إلى رغبته فى أن يظهر لأوربا حسن نيته واخلاصه للخلافة.[٢٢]

وقد استقبل محمد على فى الآستانه استقبالا حسنا من قبل السلطان عبد المجيد

الذى بالغ فى الترحيب به[٢٣] حيث تلقاه واقفا عند مدخل البهو السلطانى، وأهداه اجود ثمار حديقته[٢٤] وانزله فى أحد قصوره، وتناول الغذاء معه بمفرده، وقدمه بنفسه إلـــى السلطانه الوالده، وأهدى إليه صورته، كما أهداه رصيعه ماسية زين بها صـــــدره[٢٥] وخلال تلك الزيارة لم ينس محمد على زيارة مسقط رأسه فى مدينة " قولــــه" حيـــث وزع الكثير من الأموال على الفقراء هناك، وامر ببناء بعض الأبنية الخيرية لـــهم[٢٦] كما امر ببناء مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص.[٢٧]

وعلى الرغم من تحسن صحة محمد على خلال هذه الزيارة، وعودتـــه إلـــى القاهرة وهو فى صحة جيدة [٢٨] وحضوره الحفل الذى اقيم لوضع حجر الأساس فـــى بناء القناطر الخيرية فى التاسع من ابريل ١٨٤٧ فقد ساءت حالتـــه الصحيـــة مـــرة أخرى، وتغلبت عليه الشيخوخة الحقيقية مما جعله يتخفف من أعبائه السياسية ويفكـــر فى اعتزال امور الحكم فأنشأ مجلسا أسماه المجلس الخصوصى بغرض ادارة شـــئون البلاد، وعين على رأسه ابنه ابراهيم باشا وجعل من اختصاص هذا المجلس النظـــر فى شئون الحكومة، وسن القوانين واللوائح.[٢٩]

وفى هذا المجلس احتفظ ابراهيم بجميع التقاليد التى رسمها والده، وكان نعـــم العضو فى تصريف الشئون الادارية والسياسية للدولة[٣٠]

ونتيجة لاشتداد وطأة المرض على محمد على، قام برحلة بحرية فى فـــبراير ١٨٤٨ قاصدا اوربا بناء على مشورة الأطباء بقصد بتديل الهواء، والـــترويح عـــن النفس والابتعاد عن متاعب الادارة وشئون الحكم، فابحر إلى مالطة بعد أن عهد إلـــى حفيده عباس بادارة شئون القاهرة، وإلى ابنه سعيد باشا بإدارة شئون الاسـكندرية وأن يقوما بتصريف شئون البلاد فى أثناء غيابه.

وبعد أن مكث يومين بمالطة قصد نابلى حيث كان ابنه ابراهيم يعالج هناك[٣١] واجتمع الأب والابن فى نابلى، وتوجه الاثنان معا إلى مرسيليا ومن هناك ذهب محمد على إلى نيس ليستكمل علاجه فى حين عاد إبراهيم باشا إلى مصر. ولم تسر الأمـــور

حسب رغبة الباشا فقد وصل إلى مسامعه ابناء الثورة التى قامت فى باريس عام ١٨٤٨ وأطاحت بعرش صديقه "لوى فليب"[٣٢] وعندئذ فكر محمد على تفكيرا عميقا فى أولاده واحفاده الموجودين فى مدرسة باريس[٣٣] "وخدشت أفكاره المخاوف التى ستصيب الكسب التجارى والصعوبة التى ستنشأ عن ادارة المملكة"[٣٤] مما جعله يختصر رحلته ويعود مسرعا إلى الاسكندرية، فوصلها فى الحادى والعشرين من مارس ١٨٤٨.[٣٥] واقام فى قصر رأس التين بناء على طلب الأطباء المرافقين له. وخلال ذلك ساءت حالته الصحية[٣٦] وازدادت عليه العلة وقيل أنه اصيب بضعف شديد فى الدماغ [٣٧] مما أدى إلى تشكيل مجلس من اثنى عشر عضوا لتصريف شئون البلاد وقد تألف من ابراهيم باشا رئيسا وعباس باشا وسعيد باشا وآخرين [٣٨]

ولم يحل صيف عام ١٨٤٨ حتى انتشرت الكوليرا فى القاهرة والاسكندرية مما جعل ابراهيم باشا يبحر إلى رودس فى يوليو اتقاء لخطرها.وفى نهاية اغسطس عاد ابراهيم إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث اشتد عليه المرض[٣٩]، ومع ذلك فقد اضطلع باعباء الحكم مكان والده وارسل السلطان خطا هما يونيا فى الرابع من يوليو ١٨٤٨ بتقلد ابراهيم باشا ولاية مصر ابتداء من الثاني من سبتمبر ١٨٤٨، واحتفل بالقاهرة بتلاوة الفرمان السلطانى فى منتصف سبتمبر غير أن صحة ابراهيم اخذت فى التدهور يوما بعد يوم، وفى العاشر من نوفمبر ١٨٤٨ توفى ابراهيم باشا بعد أن تزايدت عليه علته الصدرية[٤٠] ونظرا لفقدان محمد على القدرة على الاضطلاع بشئون الدولة[٤١] ، وللألم الجسدى والضعف العقلى الذى ازداد عليه بعد وفاه ابنه البكر انتقلت مسئولية ادارة البلاد إلى عباس باشا حفيد محمد على، والذى كان اقل افراد الاسرة استعدادا للسير على منوال جده فى ادارة شئون البلاد[٤٢] مما أدى إلى تعرض مشروعات محمد على لهزة عنيفة ولم يكن محمد على فى حالة صحية تسمح له بمعرفة ما صنعه حفيده بانجازاته، وكان ذلك من لطف الله به.

وفى ظهر الثاني من اغسطس ١٨٤٩ (١٣ رمضان ١٢٦٦هـ) انتقل محمد

على إلى جوار ربه وهو فى قصره بسراى رأس التين بالاسكندرية[٤٣] عـــن عمــر يناهز الثمانين عاما فنقل جثمانه إلى العاصمة بطريق النيل إذ لم تكن السكك الحديديــة قد انشئت فى مصر بعد وقد ووري جسده فى المكان الذى كان قد اختاره ليقـــام فيـــه قبره فى رابيه المقطم فى قلب القلعة[٤٤] حيث يرقد رقدته الابدية، وكانما أراد ان يظل مطلا من ضريحه على القاهرة التى شهد فيها ايام عزه ومجده.

لقد توفى محمد على ذلك العبقرى الذى أنشأ امة وبذل جـــهودا مضنيـــة دون كلل او ملل، وترك بصمات واضحة فى تاريخ مصر بعد أن جمع بين يديه الســـيف والآلة معا، وبدأ عملية تحويل ملامح مصر ذات قسمات العصور الوسطى إلى عـــالم التحديث الذى دخلته مصر اولا من باب الجيش الذى كان آله للفتح والنصر. وكـــان وسيلة لنشر العلم والمعرفة والحضارة فى ربوع البلاد كما حفـــل حكمـــه بـــالاحداث الجسام التى لم يتحقق عن طريقها ما كانت تنطوى عليه نفسه من واسع الأمل وعظيم الرجاء.

ملحق رقم (١)

رسالة من الفيلسوف الانجليزى بنتهام[٤٥] إلى محمد على باشا فى ابريل ١٨٢٨ بشأن كيفية المحافظة على اصلاحاته وتشجيعه على اعلان استقلاله عن الدولة العثمانية

مصدرها: المتحف البريطانى بلندن وقام بترجمتها ونشرها الاستاذ محمد رفعت[٤٦]

تاريخهـــا: ٢٨ ابريل ١٨٢٨

يا حاكم مصر.......

عرفك الناس منذ زمن انك اكثر الحكام المسلمين تنورا واشدهم رغبة فى الاصلاح ولم يبق الا ان تعمل على ابقاء هذه الاصلاحات وهذه الشهرة الذائعة كانت فى الحقيقة احد النجوم السواطع التى ظهرت فى هذا القرن وما عليك الا ان تزين بجلال اسمك صفحات القرون المقبلة.

وانى سأنبئك بالوسائل اللازمة التى تخلد بها اسمك واصلاحاتك. لقد تحدثت مع ثلاثة من الذين عرفوك وخدموك مدة طويلة وهم بكنجهام الانجليزى وبرادش وتوماس جاللواى[٤٧] مهندسك الامين ومنهم وقفت على دقائق نفسيتك وسمو اخلاقك. لقد قال لى جاللواى انك تدين مثلى بالمذهب النفعى أدبيا وسياسيا وان ما ترمى إليه من كل اصلاحاتك انما هو ترقية جميع الذين يعملون تحت سلطانك وابلاغهم اقصى درجات السعادة وقد ذكر لى انه جاءك وهو لابس رداء العمل فلما علمت بوصوله لم تستنكف من مقابلته بل تقدمت إليه، وامسكت بيده. وهذا يا حاكم مصر منتهى مكارم الاخلاق ودليل على انك بعيد عن صفات التعاظم والكبرياء وانى مثلك امقت الكبر وازدريه.

تلك الوسائل التى اشرت إليها هى الدستور والاستقلال وحفيدك عباس الذى تعده ليكون ولى عهدك كما يعتقد الجميع. والمسائل الثلاث مرتبطة بعضها ببعض

ارتباطا متينا فمن غير دستور بسيط قوى الدعائم يستحيل ان تضمن بقاء اصلاحـــاتك التى قمت بها. ومن غير الاستقلال لايمكن ان يولد الدستور. ومن غير ولـــى عـــهد يخلفك على العرش ويحترم الدستور ويحرص على التمسك به ايا كان نوعه يستهدف الدستور وكل ما قمت به من الاعمال للزوال.

تربية ولى العهد: لأجل ان يتهيأ حفيدكم للحكم الدستورى، ويصبـــح شـــغوفا على الدوام بالدستور عاملا على استكماله يجب ان يتربى التربية التى تؤهله لذلـــك. وانى لهذا السبب الح بضرورة وجوده فى لندرة سنتين او ثلاثا يكـــون فيـــها تحـــت اشرافى مباشرة او اشراف صديق أثق به تمام الثقة. وهنا يمكننـــى تعليمـــه التعليـــم الموافق. وسيخبركم جاللواى مهندسكم الامين عنى وعن كفاءتى لتولى هـــذه المهمـــة العالية.

ومتى شيدتم استقلال بلادكم واقمتم الدستور فيها فقد يـــروق لكـــم إذ ذاك ان تزوروا هذه البلاد لتعودوا مع حفيدكم وعند ذلك تزورون مليكنا كمـــا زاره قيصـــر الروسيا حديثا، وكما زاره آخرون من ذوى الرؤوس المتوجه فى ازمنة مختلفة.

وهذه هى الطرق التى اتبعها مع عباس حتى ينشأ على محبتى:

أولا: الطريقة الايجابية وذلك بان اضع حوله كل ما ينقل إليه السرور من غير ألـــم فلايلبث ان يعتبر وجودى مصدر سروره واستمتاعه ويصبح شخصى فى نظره رمزا لكل شيء سار وأنيس.

ثانيا: الطريقة السلبية ولا ارى ضرورة استخدامها الا نادرا وبمقتضى هذه الطريقة تصبح ارادتى فى نظره مصدر آلامه والعقبة الكؤرد التى قـــد تقـــف فـــى طريـــق استمتاعه.

وإذا ما طرأت ظروف تتطلب توقيع العقاب عليه فانى افضل ان اتبع الطريقة الاتية دون سواها وهى ان احرمه من الاستمتاع بشئ منتظر اما العقابات الجثمانيـــة

فلا ارى امكان الالتجاء اليها.

أما عن الكتب فأشير عليه بقراءة مقالات فولتير وتاريخ الهند للاستاذ مل، وتاريخ انجلترا لهيوم، والتاريخ العام، وتاريخ الثورة الفرنسية والثورة الامريكية، وتاريخ الاسلام والروسيا وتاريخ الحروب الدينية.

أما عن الجامعة التى يجب أن يلحق بها فأشير بجامعة لندرة وأما اكسفورد وكمبردج فهما معاهد التعصب، والكذب، الرياء، والتقاليد الرثه.

الاستقلال: اما عن الاستقلال فمما يدعو إلى استغرابى واستغراب العالم أجمع هو استمرار تبعيتك للسلطان الفعلية او الظاهرة. ولابد أن يكون ذلك راجعا إلى بعض اسباب خاصة ليس فى طاقة الاجانب ادراكها فان مركز مصر إذا تم وصل البحرين ببعضهما سيمكنك من ان تقف حكما بين انجلترا وفرنسا متى كنت مستقلا اما وانت تابع فلا يمكنك عقد اية معاهدة مع اية دولة اجنبية. حقا قد يكون فى وسعكم ان تعقدوا هدنه. وفى استطاعه اى قائد ان يعقد هدنه، ولكنه لا يستطيع ابرام معاهدة تبقى نافذة المفعول طويلا. اما اذا اعلنتم استقلالكم فلن تكون هناك دولة اجنبية لا تستطيعون ان تبرموا معها فى الحال المعاهدات التى توافقكم وعند ذلك سرعان ما تأخذون مكانكم بين ملوك اوربا.[٤٨] وليت شعرى لماذا لاتكونون مثلهم قارنوا بينكم وبينهم من حيث عدد السكان والايراد فاذا وجدتم من يمتاز عليكم فانكم ستجدون من بينهم كثيرين ممن هم اقل منكم مالا ونفرا. فهذه المانيا فيها من الممالك المستقلة سكسونيا وورتمبورج وهانوفر وفى اوربا الدانمارك والبرتغال والسويد.

بقى تعيين اللقب الذى يوافقكم متى اصبحتم مستقلين. ان لقب الباشا يدل على التبعية فلايمكن اتخاذه. ولاشك انكم تعرفون اللقب الذى يقلب به صاحب الامر فى مراكش. انه يلقب بما يعبر عنه الافرنج بكلمة " امبراطور" هذا هو اللقب الذى يجب ان تتخذوه وهو لقب يعد اعظم من لقب ملك.[٤٩]

وأما بشان علاقتكم مع السلطان فاما ان تكونوا على وفاق معه او على خلاف

فاذا كنتم على خلاف فليس هناك مصاعب تعترض سبيلكم اذا اعلنتم الاســتقلال مــا دمتم واثقين من شعبكم ومن ضباط جيوشكم على الاخص.

ولكن إذا فرضنا وجود الوفاق بينكم وانكم راغبون فى استمرار هذه المـــودة فيلوح لى انكم تستطيعون متى كنتم مستقلين وعلى اتفاق مع السلطان ان تقدمــوا لـــه خدمات اجل وانفع مما تقدمون وانتم فى حالة التبعية على انكم تعلمون حاجة السلطان للمال فارسلوا إليه القدر الذى تريدون ارساله وانتم فى حالة الاستقلال كما لو كنتم فى حالة التبعية.

وقد تحصلون بواسطة المعاهدات على موافقة الدول المعادية للسلطان مـــادام الامر الذى يهم الدول هو استطاعتكم ان تنفذوا فى الخفاء ضد رغبة الدول ما يمكنكـم تنفيذه بموافقتهم . اما إذا لم يصغ السلطان إلى مطلبكم وترفع عن اجابتكم فما عليكـــم الا ان تصارحوه القول بعبارات لائقة كما هو شأنكم. قولوا به " إذا اعترفتم باستقلالى منحتكم مقدار كذا من المال فىميعاد محدد واما إذا رفضتم فانى انضم إلـــى الحلفـــاء ضدكم"[٥٠]

الدستور: اما عن الدستور فاقترح ان تكون حكومتكم ملكيـــــة فـــى مســتوى الحكومات الملكية وضمن دائرتها الودية، وان تقسم المملكة إلى خمسين دائرة انتخابية ينتخب عن كل دائرة عضو، ومن الاعضاء الخمسين يتكون مجلسكم او ديوانكـــم[٥١] ويكون حق الانتخاب لكل فرد اقام مدة معينة فى الدائرة، ويكـــون عارفــا بـــالقراءة والكتابة ويجب ان تكون طريقة الانتخاب بالتصويت السرى العام.

ايها الرجل العظيم:

إن العالم لم يعرفك للان حق المعرفة، وكلما ازدادت معلومات النــاس عنك استفاد العالم واستفاد الوطن الذى اوجدته بل استفاد النوع الانسانى باكمله.[٥٢]

أنتهى،،،

ملحق رقم (٢)

تعليمات محمد على إلى نجله إبراهيم بمناسبة سفره[٥٣]

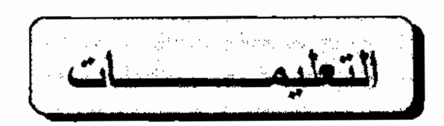
فى خلال سفر إبراهيم إلى أوربا، وقبيل مغادرته توسكانيا للذهاب إلى فرنسا وانجلترا، تلقى من والده، الوالى، التعليمات الآتية، وقد نقلها المسيو جاستون فييت عن " محفوظات قصر عابدين العامر – سجل ٢١٥، رقم ٢٥٣ –٤" ونشرها مترجمة إلى اللغة الفرنسية فى " مجلة القاهرة".

إرادة إلى السر عسكر فى السابع عشر من ذى القعدة سنة ١٢٦١

(الموافق السابع عشر من نوفمبر سنة ١٨٤٥) بعابدين

بلغنى كتاب دولتكم المرقوم فى سلخ شوال سنة ١٢٦١ (الثلاثين من اكتوبر سنة ١٨٤٥) الذى جاءت فيه بشرى اكتسابكم الصحة والعافية يوما فيوم، واخبرتم انكم ستذهبون بعد مرور خمسة وأربعين يوما إلى الحمامات الكبريتية، الواقعة بين فرنسا واسبانيا، فأوجب خبر عافيتكم زيادة سرورى الأبوى.

وبما أن دولتكم ستسافرون بعد انقضاء مدة إقامتكم فى تلك الحمامات إلى باريس وانجلترا، فقد وضعنا وصايا (تعليمات) مكونة من ستة بنود، وأرسلناها إليكم طى كتابنا، لتكونوا على خبرة وبصيرة بأصل المحادثات التى تتصل بالمصلحة، فتجيدوا الاجابة عنها. والمأمول أن تقرأوه، فتجيبوا عند اللزوم، طبق ما تقتضيه تلك البنود. وتسرونا بعد ذلك ببشائر صحتكم.



١) إذا سافرتم إلى فرنسا، والتقيتم بمليكها ووزرائها وسائر كبرائها، ودار الحديث حول أحوال مصر السياسية، فينبغى أن تقولوا: " إن والدى قد أيقن منذ أن ولى الحكم، درجة محبة الفرنسيين واحترامهم لشخصه وأسرته، وأنهم لم يضنوا عليه

بتقديم المساعدات اللازمة فى سبيل تقدم البلاد، فأدى واجب الشكر فى كل مناسبة، ولم يأل جهداً فى توصية اسرته واتباعه وقرابته، واسداء النصح لهم، بأن يقـــدروا قيمة حسن معاملة الفرنسيين لمصر. ولا ريب أننا سنظل عاملين بوصية والـــدى ونصحه، فنفوز بمحبة الفرنسيين ومودتهم.

٢) ولكم بعد سرد هذه المقدمة، أن تبسطوا أحوال مصر السابقة، وتدخلوا فى تفصيل المساعى والجهود، التى بذلت فى توطيد الأمن والطمأنينة فيها، وتأسيس عمرانها.

٣)وإذا فاتحوكم فى مسألة قناة السويس، فقولوا لهم إن حقيقة الحال أنه ليـــس هنـــاك صعوبة مافى حسن حصول تحقيق هذا الأمل. إلا أن حفر هذه القناة قد يصـــــادف أثناء الاشغال الجسيمة، الدائرة فى إنشاء القناطر الخيرية. وقـــد اضطررنـــا إلـــى تأجيل حفرها، إلى الوقت المرهون. ومع ذلك، فإننا نرمى راغبين فى حفر هـــــذه القناة من كل جانب، حتى إذا تم إنشاء القناطر، فلا صعوبة على مصر أن تقـــــوم بحفرها.

٤) وإذا تكلموا عن ترتيبات الأسطول، فعليكم أن تردوا عليهم بالجواب التالى:

" كانت الحاجة قد دعت من قبل إلى اقتناء طائفة من السفن، ولم يبق لها ضـــرورة فى الزمن الحاضر. غير أنه من الأسف أن تترك، فتكون عرضة للتلف بأســـرها. من أجل ذلك، رأينا من المناسب أن تبذل الجهود فى إصلاحها ومرمتـــــها. وإنـــى لأعلم ان والدى مصمم على إنشاء عدد من البواخر، كلما سمحت الحالـــــة بذلـــك، لشدة الحاجة إلى البواخر فى هذه الآونـــــــة".

٥) وإذا قدمتم إنجلترا، فقولوا للإنجليز، كلما وقعت مناسبة: " إن والدى قد علم وقدر مدى أهمية صداقة إنجلترا لمصر، وأيقن ذلك، نظرا لموقع مصر الجغرافى. ويعلم بذلك من الكتاب الذى كتبه الدوق ولنكتون حوالـــى ســـنة ١٨٣٠ ميلاديـــة، إلـــى المسترباكر، قنصل إنجلترا بمصر فى ذلك العهد، بأن الدولة الإنجليزية اعتــــبرت

الأجوبة الصائبة التى أجاب بها على إفادات واشارات الدولة المشار إليها، بشان موضوع الجزائر مقبولة. وبناء على ذلك ، لم يخل والدى من تلقينى، أنا وجميع أفراد العائلة، وملء آذاننا بأن صداقة دولة انجلترا لمصر، وخدمة مصر فى مقابل صداقتها، هما من قبيل اللازم والملزوم. كما أنه، بصفة خاصة، لم ينقطع ابدا عن التنبيه علىّ ، المرة بعد الأخرى، قائلا: " اسع جهدك فى تلقين هذه الفكرة إلى اسماع افراد عائلتنا، وأملأ أذهانهم بها" وأنا بفضل الله وكرمه، ولم اخرج عن نصيحته، كما اننا نعتبر صداقة دولة عظيمة كانجلترا، نعمة عظمى لنا على الدوام.

) وإذا سألوكم عن مسألة المواصلات (الامرارية) فى الوقت الحاضر، فأجيبوهم بأن الصعوبات التى كانت قائمة فى سبيلها قد أزيلت، وتقرر أن تتولى الحكومة اعمال المواصلات. وسينفذ هذا القرار. غير انه قد نيط بتنفيذ هذا القرار التماس تفويض أمر البريد إلى الحكومة المصرية، ذهاباً وأياباً، اسوة بغيرها من الحكومات فى سائر البلاد، ونحن نرجو أن تنتهى هذه المسألة ايضا إلى نتيجة حسنة.

ملحق رقم (٣)

انتقال المرحوم محمد على باشا الكبير إلى دار الخلد والبقاء[٥٤]

فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ انتقل إلى رحمة الله تعالى محمد على باشا الـذى كان واليا على مصر ابتداء من ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ واعتزل الولاية لمرضـــه فـــى ٢٣ شوال سنة ١٢٦٤ وفى مدة ولايته على مصر احياها بعد سقوطها، وانتشلها مـــن وهدتها هذا الرجل المتمحض فى الوطنية والاخلاص فى كل عمله والذى جعل مصــر ترتقى إلى اوجه السؤدد والفلاح حتى اصبحت فى عصره فى مقدمة الدول صاحبـــة الشأن لانه بارتقائه اريكة الحكم جلس معه على تلك الاريكة يشاركه فى حكمه العـدل والدين الصحيح ولقد خدم الملأ باسره بتقديمه له صورة عقلية تشخص للناس حقيقـــة الجمع بين الروحانية والشجاعة. ولقد تذكرنا بذلك حوادثه الشهيرة العظيمة الشأن التى تقدم للمطلعين فوائد غراء تنطبع فى مخيلاتهم منقوشة على احجار لاتقـــوى معـــاول الدهر على محوها فلقد كان رجوع العمل إلى ربوعه معقودا بنواصى محمـــد علـــى باشا، والتأسيسات التى كانت وسيلة للنتجية الميمونة الطالع لانشاء الجيش المصـــرى بالنسبة للتمدين لان الحرب وان كانت مجلبة للمصائب التى تتبعها فانها كـــانت مـــن اقوى البواعث على ايجاد التمدين.

فإنه مامن انقلاب ميمون الا كان ناشئا عن حرب متوجه باسم فاتح وان اعظم الرجال الذين تركوا من بعدهم جميل الذكر مما بهر العقول مثل الاســـكندر وقيصـــر وشرلمان ونابليون كانوا قبل كل شئ محاربين وكان حضرة صاحب النبوه والرســـالة صلوات الله عليه وخليفتاه ابوبكر وعمر رضوان الله عليهما، وساكن الجنـــان محمـــد على باشا كانوا قبل كل شئ مجاهدين، ولايوجد برهان على تأثير الحرب مباشرة فـــى جميع فروع التمدين أحسن مما جاء به فى حالة مصر.

وذلك أن كل شئ فيها كان على قدم الاجراء والعمل وكل شئ بدأ فى عـــــالم الوجود عقب الترتيبات العسكرية فمحمد على باشا هو الذى ادرك مزايا فـــن تعبئـــة

الجيوش، ولزمه قبل كل شئ أن يجد فى البحث عن تقويه نفسه، ورأى انه لاينال ذلك الا بقوة السلاح، وكان شغله الشاغل تشكيل جيش، فكان جيشه فى الحقيقة جالبا لاستتباب الأمن داخل البلاد ناشرا لواء سطوته فى الخارج. فتشكيل جيش منظم انتج النتائج العمومية الجزيلة الفائدة العائدة لمصر...

فأوجد النظام المحكم فى قطر كان لايعرف الا الفوضى والهمجية وكان معرضا لسلب ونهب وايذاء العساكر الاشرار الظلمه الذين كانوا بمصر من قبل وامرائهم.

وبذلك انتظمت الأمور، ووجدت القوة، وحل ذلك محل الضعف والاضمحلال ، ورفع شأن الامة العربية واهلها لسريان الروح الملية فيها، واباء الضيم والتعويل على نفسها وهى الصفات اللازمة لامة مستقلة، ومن سعد طالع مصر أن النتائج العلمية التى بدأت فى الحال كثيرة متعددة فى لفت الانظار. ويمكن ان يقال أنها كانت السبب فى جميع انواع التقدم والرقى الذى تكامل فى مصر فى عصر حكمه السعيد.

وقصارى القول ان تلك المصالح والدواوين ونظارات حكومة محمد على باشا تولى ادارتها رجال ممن تربوا فى مدارسه او فى البعوث فاداروا دواليب حركتها على منهج لم يكن له مثيل بمصر من قبل.

ملحق رقم (٤)

نبذة تاريخية عن وفاة محمد على وابنه ابراهيم[٥٥]

توفى محمد علٰى فى اليوم الثاني من شهر اغسطس ١٨٤٩، وقد ناهز عمـــره الحادية والثمانين، ولكنه كان منذ اوائل السنة السابقة لوفاته قد فقد كـــل قـــدرة علـــى الاضطلاع بشئون الدولة إذ خبا عقله الجبار، ولم يكن ذلك راجعا إلى التقدم فى الســـن ولا للجهود المستمرة التى بذلها بقدر ما كان راجعا إلــــى الأســـى ومـــرارة الخيبـــة السياسية التى قدر له ان يصاب بها.

تولى ابراهيم باشا وصاية العرش سنة ١٨٤٧م ولم يكن ابراهيم حتـــى هـــذا العهد المنفذ الجرىء لخطط ابيه الحربية فحسب بل كان له ايضـــا وبخاصـــة خـــلال السنوات الاخيرة من حكمه نعم العضد فى تصريف الشئون السياسية والادارية للدولة. على ان ابراهيم باشا لم يتحمل مسئولية الحكم كاملا الا بعد ان تلقى ولايـــة الســـلطة رسميا (يوليو ١٨٤٨) ولم يشأ ان يقبل هذه السلطة الا بعد ان اصبحت حالة الباشـــا الهرم لا يرجى منها شفاء.

ولم يكن تبديل شخصية الوالى ليدخل شيئا من التغيير على وسائل الحكم فقـــد ساس ابراهيم باشا شئون الدولة على النسق الذى رسمه ابوه وبالروح التـــى اتخذهـــا لنفسه إذ لم تكن وشيجة الدم هى وحدها التى تجمع بين الوالد وولده بل كـــان بينـــهما ايضا توافق فى التفكير، وفى الشعور فقد كان كل منهما يرمى إلى اغـــراض ســـامية واحدة، وتحركه نفس الارادة التى لاتقهر.

لم يكن اذن من بين افراد اسرة محمد على رجل أجدر مـــن ابراهيـــم باشـــا بمواصلة ذلك العمل العظيم. وكانت وفاة ابراهيم باشا المبكرة (١٠ نوفمـــبر ١٨٤٨) التى دهمت البلاد واشاعت فيها قلقا خسارة فادحة لمصر. مما زاد من كبر الطامة ان عباس الاول اكبر افراد الاسرة سنا، وصاحب الحق تبعا لذلك فى ان يخلف ابراهيـــم كان من بين افراد الاسرة اقلهم استعدادا للسير فى هذا السبيل.

ملحق رقم (٥)

نسب الاسرة الحاكمة فى مصر منذ ١٨٠٥ وحتى ١٩٥٢

(١) محمد على باشا
الوالى ١٨٠٥ / ١٨٤٨

(٤) محمد سعيد باشا
الوالى ١٨٥٤/١٨٦٣

احمد طوسون

(٢) ابراهيم باشا
الوالى ١٨٤٨

(٣) عباس الأول
الوالى ١٨٤٩/١٨٥٤

(٩) فؤاد الأول
سلطان/ ملك
١٩١٧/١٩٣٦
- الاميرة شويكار
- الملكة نازلى

(٨) حسين كامل
السلطان ١٩١٤/١٩١٧

(٥) الخديوى اسماعيل
١٨٦٣/١٨٧٩

(٦) الخديوى محمد توفيق
١٨٧٩/١٨٩٢

الأمير محمد على باشا
١٨٧٩

(٧) عباس حلمى الثاني
الخديوى ١٨٩٢/١٩١٤

فتحية — فايقة — فايزة — فوزية — (١٠) فاروق

(تزوجت امبرطور ايران) **ملك ١٩٣٦/١٩٥٢**
١- الملكة فريدة الزوجة الأولى

فادية — فوزية — فريال

ناريمان = الزوجة الثانية

الصادر والمراجع

أولا: الـــــوثائـــــــــق:

- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
- محافظ الابحاث ، محفظة ١٣٠ تراجم، ومحفظة ١٣٥ ملف الوثـــائق والمكاتبـــات الواردة للترجمة من الديوان.
- ومحفظة ١٤٩: المذكرات الخاصة بتحقيق تثبيت محمد علـــــى وانســـاب الاســـرة المالكه.

ثانيا: المخطوطـــــــــــــــــــــات:

- محمد عارف باشا عضو مجلس الاحكام بمصر: عبر البشر فى القرن الثالث عشر، مخطوط بدار الوثائق ضمن محفظة ١٤٩ ابحاث.

ثالثا: المؤلفات العربية:

- احمد عبد الرحيم مصطفى: علاقة مصر بتركيا فى عهد الخديـــــو اســـماعيل، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٧.
- ادوارد جوان: مصر فى القرن التاسع عشر: ترجمة محمد مســــعود، القـــاهرة ١٩٢١.
- اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، جــــ٢ القـــاهرة، المطبعـــة الاميرية ١٨٩٦.
- الياس زاخوره: مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصـــــر، جــــ١ القاهرة، المطبعة العمومية، ١٨٩٧.
- بيير كرابيتيس: ابراهيم باشا – ترجمة محمد بدران– القـــاهرة لجنـــة التـــأليف والنشر، ١٩٣٧.

- رينيه وجورج قطاوى: محمد على وأوربا، القاهرة، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ١٩٤٩.
- شيوه كار (الأميرة): بلادى – احياء مجد – محمد على باشا – ترجمة اميل مراد، القاهرة، مطبعة المعارف ، د.ت.
- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فى مصر، جـ٣، عصر محمد على ، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٣٠.
- كريم ثابت: محمد على، القاهرة، مكتبة المعارف، د.ت
- محمد طلعت عيسى: اتباع سان سيمون فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقاتها فى مصر، القاهرة ١٩٦٣.
- محمد فريد: البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية. القاهرة، مطبعة المعارف د.ت.
- محمد فؤاد شكرى: بناء دولة مصر محمد على – السياسة الداخلية، القاهرة، دار الفكر العربى ١٩٤٨.
- هنرى دودول: محمد على مؤسس مصر الحديثة– تعريب احمد عبد الخالق وعلى شكرى ، القاهرة، مكتبة الاداب، د.ت

رابعا: المراجع الأجنبية:

- **Farnie, D.A: East and West of the Suez, : The suez canal in History 1854 - 1856, Oxford, 1969.**
- **Hallberg, C.W: The suez canal : Its History and Diplomatic importance, London 1931.**

خامسا: الدوريـــــــــــــــــــــات

الهلال المجلد ٥٥ الجزء السابع، ص ١٠٥ دراسة لمحمد رفعت بك بعنـــوان عندما اهدت الملكة فيكتوريا صورتها إلى محمد على.

الهوامش

(١) دار الوثائق القومية: محافظ ابحاث، محفظة ١٣٠ تراجم.

(٢) عن نص معاهدة لندن ١٨٤٠، والخط الهمايونى المانح محمد على ولاية مصر بطريق التوارث تحت شروط معلومة والمؤرخ ١٣ فبراير ١٨٤١.
أنظر: احمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل، القاهرة، دار المعارف،١٩٦٧، ص ٢١٣-٢٤٤.

(٣) بمرور الوقت تضاءل انتاج هذه المصانع وأغلق معظمها، واضطر محمد على إلى التخلى عن نظام الاحتكار فى ميدانى الزراعة والصناعة والتجارة. والأخذ بمبدأ الحرية التجارية تطبيقا للفرمانات السلطانية وعملا باتفاقات بلطه ليمان وبعد أن اقر معاهدة لندن ١٨٤٠ ورضى بشروطها.

(٤) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، جـ٢، عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٣٠، ص ٦٣١.

(٥) يذكر كرابيتيس ان ابراهيم باشا كانت تنتابه اضطرابات عقلية وانه كان مصابا بالارق لدرجة انه كان لايستطيع النوم خاصة وانه كان يرى فى احلامه اشباح القتلى الذين ازهق ارواحهم.
أنظر: ابراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ، ص ٢٨٢.

(٦) رينيه وجورج قطاوى: محمد على وأوربا، القاهرة، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ص ١٩٩.

(٧) من أبرز الامثلة على ذلك ان أوامره بشأن احصاء سكان مصر لم تنفذ بدقة.
أنظر: كريم ثابت: محمد على ، القاهرة، مكتبة المعارف، ص ٢٩٤.

(٨) محافظ عابدين: كتاب دورى فى ٢ جمادى الثانية ١٢٥٩هـ.

(٩) نفسه.

(١٠) دار الوثائق: محافظ ابحاث، محفظة ١٣٥ ملف الوثائق والمكاتبـــات الـــواردة للترجمة من الديوان. صورة التقرير الذى طلب محمد على باشا وضعه متضمنـــا اسداء النصح لاعضاء اسرته والمقدمين من رجاله فـــى ١١ محـــرم ١٢٦٣هـــ/ ١٨٤٦م.

(١١) الشبك أو الشبق تعنى النارجيلة، والشبوق جى تعنى مسئول الشيشة.

(١٢) طبيب فرنسى جاء إلى مصر فى عام ١٨٢٥، وعين طبيبا خاصا لمحمد على، كما انشأ مستشفى، ومدرسة للطب فى ابى زعبل ثم نقلهما إلى القصـــر العينـــى، وتولى ادارتهما حتى عام ١٨٥٨.

(١٣) هنرى دودويل: محمد على مؤسس مصر الحديثة – تعريب أحمد عبد الخـــالق وعلى شكرى– القاهرة، مكتبة الآداب، د.ت ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

(١٤) رغبت بريطانيا الاتجاه نحو طريق السويس بانشاء طريق برى فعرضت اقامـة مشروع للسكك الحديدية بدلا من مشروع انشاء القناة التى كانت تفضلـــه فرنســا، بينما نظرت فرنسا إلى هذا المشروع على انه مؤامره بريطانية يقصد بها القضـــاء على نفوذها فى الشرق. ولما كانت موافقة محمد علـــى ضروريـــة فقـد حـــاولت الحكومة البريطانية اقناعه بمشروع السكة الحديد بدلا من مشروع القناة كما حـــاول القنصل الفرنسى اقناعه بعكس ذلك وإزاء هذه المنافسة عارض محمد على اقامـــة كلا المشروعين وفضل تنفيذ مشروع قناطر الدلتا.

- Hallbery, C.W: The suez canal its History and Diplomatic importance, London 1931.

وعلى الرغم من محاولات اتباع سان سيمون من اقناع محمد على بفكرة وصـــل البحرين المتوسط بالأحمر، فانه عارض هذه الفكرة للتفاصيل انظـــر. د./ محمـد طلعت عيسى: اتباع سان سيمون فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقاتها فى مصر، مطبعـة جامعة القاهرة، ١٩٦٣.

(١٥) احمد عبدالرحيـــم مصطفـــى:علاقـــة مصـــر بتركيـــا فـــى عـــهد الخديـــو

اسماعيل،القاهرة،دار المعارف،١٩٦٧،ص ٧.

(١٦) ارادت الحكومة الانجليزية ان تقيم نظام نقل البريد على اساس ثابت بينها وبين مصر حتى لايتعرض فى المستقبل لأى خطر بعد وفاه محمد على، وكانت هذه الحكومة تشعر فى الوقت نفسه بجرح إذا عقدت الاتفاق مع محمد على رأسا دون الرجوع إلى الآستانه مما اغضب محمد على وجعله يصدر قراره بتأليف شركة حكومية اسماها شركة الترانسيت (تجارة المرور الاميرية) وتم الاتفاق مع الانجليز على ان تقوم مصر بنقل البريد الانجليزى مقابل ٤٠ قرشا عن كل رطل وخمس بارات(٤٠ بارة توازى قرشا)عن كل ورقة او جريدة مطبوعة.

أنظر: الهلال المجلد ٥٥ الجزء السابع دراسة للاستاذ محمد رفعت بعنوان عندما اهدت الملكة فيكتوريا صورتها إلى محمد على.

(١٧) Farnie, D.A: East and West of the Suez. The Suer canal in History 1854-1956 oxford P. 19-21

(١٨) بلغ ارتفاعها عشرة اقدام، وقطرها اربعة اقدم،وكانت تزن حوالى عشر اوقيات ونصف الهلال المجلد ٥٥ الجزء السابع دراسة للاستاذ محمد رفعت بعنوان عندما اهدت الملكة فيكتوريا صورتها إلى محمد على.

(١٩) Farnie : Op, cit , P.P 19-21

(٢٠) رينيه وجورج قطاوى: المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢١) احمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨.

(٢٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، جـ٢، القاهرة، المطبعة الاميرية، ١٨٩٦، ص ٢٥٧.

(٢٣) كريم ثابت: المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٢٤) ادوارد جوان: مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة محمد مسعود ، القاهرة، ١٩٢١، ص ٨٢٨.

(٢٥) الهلال، المجلد ٥٥ الجزء السابع، ص ١٠٥ دراسة الاستاذ محمد رفعت سابقة

الذكر.

(٢٦) الياس زاخورة: مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر، جـــــ١، القاهرة، المطبعة العمومية، ١٨٩٧، ص ٢٤.

(٢٧) كريم ثابت: المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٢٨) كتب توسيجه قنصل اليونان فى مصر إلى حكومته يقول: "إن الباشــا يســتمتع بصحة جيدة للغاية" وذكر دودويل المؤرخ الانجليزى المعروف ان صحـــة محمـد على تحسنت خلال هذه الزيارة وانشرح صدره انشراحا لم يتمتع بـــه منــذ عــام ١٨٤٠.

أنظر: محمد فؤاد شكرى: بناء دولة محمد على – السياسة الداخلية – القــاهرة، دار الفكر العربى ١٩٤٨، ص ٢٠٥، وهنرى دودويل: المرجــع الســابق، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٢٩) انشئ هذا المجلس بالقاهرة فى يناير ١٨٤٧ وكان اعضاؤه عباس باشا حفيــد محمد على، وأحمد باشا يكن، وحسن بك رئيس جمعية الحقانيــــة، وبرهــان بــك الرافعى: مرجع سابق، ص ٦١٦ – ٦١٧.

(٣٠) الأميرة شيوه كار: بلادى-احياء مجد-محمد على باشا، ترجمة اميــل مــراد، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٨١.

(٣١) سافر إبراهيم باشا إلى اوربا فى أواخر اغسطس ١٨٤٥ للاستشفاء من مــرض الدوزنتريا المزمنة التى كان يشكو منها ومن نزلة معوية حادة اصابته وقد تسـابقت الدول الاوربية فى الحفاوة به والمبالغة فى استقباله.

(٣٢) تولى حكم فرنسا بعد اقصاء شارل العاشر عن العرش، وقبل الانضواء تحــت علم الثورة الفرنسية والسير على النظم الديمقراطية، ولكــن تســاهله الزائــد مــع بريطانيا، وعدم اهتمامه بامر رجال الدين واصطدامــــه مــع التيــار الجمــهورى الاشتراكى الذى كان ينادى به اتباع سان سيمون ويدعو إلى ضرورة تنظيم العمــل

والغاء مبدأ التوريث واصلاح احوال الطبقات أدى كل ذلك إلى قيام الثورة ضده والهرب إلى بريطانيا.

* للتفاصيل أنظر: عبد المنعم الجميعى: العالم الأوربى فى التاريخ الحديث والمعاصر منذ عصر النهضة إلى عصر البيروسترويكا، القاهرة ١٩٩١، ص ١٣٠.

(٣٣) يقصد بها المدرسة المصرية فى باريس والتى انشئت فى عام ١٨٤٤ وتولى ادارتها اسطفان بك، واستمرت تؤدى عملها حتى عام ١٨٤٨ وكان بهذه المدرسة اربعة من الامراء منهم اثنان من ابناء محمد على وهما الأمير عبد الحليم والأمير حسين، واثنان من ابناء ابراهيم باشا وهما الامير اسماعيل (الخديو) والامير احمد.

* للتفاصيل أنظر: عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٤٧٨.

(٣٤) محمد عارف باشا: عبر البشر فى القرن الثالث عشر. مخطوط ضمن محفظة ١٤٩ ابحاث.

(٣٥) محمد فريد: البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، القاهرة، المطبعة الاميرية ، ص ١٨١.

(٣٦) ذكر القنصل الانجليزى شارلز مرى Charles Murray ان الباشا بعد عودته كان فى حالة محزنه من الضعف الجسمانى والفكرى. انظر فؤاد شكرى: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٣٧) محمد عارف باشا: المخطوط سابق الذكر، ٥١.

(٣٨) هم كامل باشا، وشريف باشا، وسامى باشا، واحمد يكن باشا وصبحى بك، وحسن بك، وأرتين بك، وراتب بك وزكى افندى.

أنظر: كريم ثابت: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣٩) يذكر احد شهود العيان ان إبراهيم باشا كان لايستقر له قرار من شدة المرض الذى كان يعانيه.
أنظر: محمد عارف باشا: المخطوط سابق الذكر، ص ٥٢.

(٤٠) كرابيتس: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٤١) دار الوثائق محافظ ابحاث محفظة ١٣٠ تراجم.

(٤٢) عمد محمد على إلى تدريب حفيده عباس على تولى شئون البلاد المختلفة فعينه مديرا للغربية ولم يتعد عمره الحادية والعشرين الا انه ابدى تراخيا ملحوظـــا فـــى القيام بمهام عمله الامر الذى دعا جده لارسال خطاب إليه يحثه فيه على العمـــــل، ويطالبه بالالتفات لاشغاله وترك الراحة، والا فانه سيعزله من وظيفته، وإلى جانب ذلك فقد أضيفت إلى عباس فى حياة جده مهمة التفتيش على الأقاليم البحرية كمـــا تولى رئاسة دواوين الحكومة وحصل ايضا على لقب كتخدا.

(٤٣) اسماعيل سرهنك: المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٢٦٠.

(٤٤) قطاوى: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٤٥) جيريمى بنتهام الفيلسوف والمتشرع الانجليزى الشهير والذى عـــاصر فـــترة طويلة من حكم محمد على لمصر.

(٤٦) انظر: المتقطف فى يونيو ١٩٢٢ تحت عنوان ذكرى محمد على الاكـــبر، ص ٦٤-٦٦.

(٤٧) كان جاللواى Gallaway مهندسا فى خدمة محمد على.

(٤٨) تشجيع بنتهام لمحمد على على اعلان استقلاله عن الدولة العثمانية لما فيه مـــن الفوائد له وحتى يستطيع ان يأخذ مكانه بين حكام اوربا.

(٤٩) اغراء محمد على بالمناداة بنفسه امبرآطورا.

(٥٠) كانت الدولة العثمانية فى حالة حرب مع روسيا فى ذلك الوقت، وفى خلاف مع انجلترا وفرنسا بسبب حرب المورة، وكان محمد على قد آثر الانسحاب بما تبقـــى

من قواته فى بلاد اليونان والاتفاق مع انجلترا وحلفائها على خروجه من هذه الحرب مما ضايق السلطان، وجعل محمد على يراجع خطته تجاه الباب العالى الذى لم يكافئه على خدماته رغم تحطيم اسطوله.

للتفاصيل انظر بحثنا معركة نفارين البحرية ١٨٢٧ - دراسة فى وثائق المعية السنية.

(٥١) كان عدد سكان مصر فى ذلك الوقت يتراوح بين ثلاثة ملايين ومليونين ونصف نسمة ومعنى ذلك ان نسبة التمثيل ستكون واحد لكل ما بين ٥٠ الف وستين الف نسمة.

(٥٢) يدل هذا الخطاب فى مجمله على اهمية محمد على ودوره فى المنطقة، وفيه يبسط بنتهام آراءه بشأن ولى العهد والاستقلال والدستور.

(٥٣) رينيه وجورج قطاوى: محمد على وأوربا - ترجمة الفريد يلوز، القاهرة، دار المعارف، ص ٢٦٢-٢٦٥.

(٥٤) المصدر: امين سامى باشا: تقويم النيل، المجلد الأول من الجزء الثالث، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٦ ، ص ٢٣-٢٤.

(٥٥) دار الوثائق: محافظ ابحاث، محفظة ١٣٠ تراجم.



المحور الثانى

السياسة الاقليمية

سياسة محمد على فى الشام

١٨٣٣ - ١٨٤٠

ديمترى جاتيئيف

جامعة موسكو

دخل الجيش المصرى – بقيادة إبراهيم باشا – الشام عام ١٨٣١، وضرب الحصار على عكا، وبذلك بدأت الحرب بين محمد على والدولة العثمانية، رغم أن الصراع اتخذ صورة نزاع بين محمد على باشا وعبدالله باشا والى صيدا.

فقد ظلت بلاد الشام خارج إطار السلطة العثمانية طوال الفترة ١٨٣١–١٨٤٠، ونظراً للأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لبلاد الشام بالنسبة لمصر منذ القدم، كان استيلاء محمد على على بلاد الشام شرطاً هاماً لبناء دولته المستقلة.

ومن المعروف تاريخياً أن اتجاه حكام مصر إلى تعزيز قوتهم السياسية، كان يقودهم دائماً إلى احتلال الشام، مثلما فعل المماليك وخاصة علىّ بك الكبير. ولذلك نجد تشابها بين سياسته تجاه الشام، وسياسة محمد على التى أدت إلى بسط يده على تلك البلاد، فقد رأى كل منهم أن مد سلطته إلى الشام شرط أساسي لتعزيز حكمه فى مصر، وسعى كل منهما إلى عقد تحالف مع أحد قادة العصبيات المحلية، فتحالف على بك الكبير مع الشيخ ظاهر العمر، كما تحالف محمد على مع الأمير بشير الشهابى الثانى. وبذلك يمكن القول أن ضم محمد على للشام جاء نتيجة لطموحه السياسى إلى تحقيق الاستقلال الفعلى عن الدولة العثمانية. وساعده على ذلك أن السلطان محمود الثانى لم ينجح فى تعزيز حكمه فى ولايات بلاد الشام، كما أن الإدارة المحلية فى تلك الولايات كانت تعمل دون رقابة فعلية من جانب الدولة العلية.

وكما تشير المصادر التاريخية، ساد الخوف بين أهالى الشام بعد دخول الجيش المصرى الشام، واستقبل أهل دمشق وحلب والقدس ذلك الجيش بارتياب وخوف[١].

ويذكر المؤرخ ميخائيل الدمشقى أن خوف الأهالى زاده إعلان السلطان عصيان محمد على باشا وأن صلح كوتاهيه عام ١٨٣٣ الذى اعترف بمحمد على باشا واليا على الشام، لم يؤد إلى تبدد ذلك الخوف(٢).

وأصبح واضحاً – منذ البداية – أن محمد على يهدف إلى إقامة حكم مستقر فى جميع أرجاء البلاد، مما أدى إلى اصطدام الإدارة المصرية بالأعيان الشوام. وكان الجيش عماد الإدارة وسندها، إذ بلغ عدد أفراد الجيش المصرى بالشام أربعين ألفا. وكان إلغاء تقسيم الشام إلى عدة ولايات من أهم الإجراءات الإدارية التى اتخذها إبراهيم باشا الذى أقام إدارة مركزية واحدة، فأصبحت مصر والشام كياناً واحداً يحكمه محمد على باشا وإن ظل ذلك الكيان –نظرياً– تابعاً للدولة العثمانية.

وتم الفصل – لأول مرة – بين السلطتين المدنية والعسكرية، فتولى السلطة المدنية حاكم مدنى أو "حكمدار" وقد اختار محمد على شريف باشا "حكمداراً " لبلاد الشام، وصدقت الدولة العثمانية على هذا التعيين، وعين على كل وحدة إدارية مفوضاً إدارياً عرف باسم "المتسلم"، واختير المتسلمون من أبناء الشام(٣). وأدخل محمد على نظام مجالس الشورى، فيذكر القنصل الروسى قنسطنطين بازلى أنه قد "أسست فى كل مدينة مجالس من أعيان المسلمين والمسيحيين تحت رئاسة المتسلم، الذى كان عليه مشورتهم فى كل أمر من الأمور الإدارية، ولم يكن من حقه إصدار أى قرار اقتصادى دون موافقة المجلس"(٤). ويشير ميخائيل مشاقة إلى أن أعمال المجالس – وخاصة مجلس دمشق – كانت مؤثرة وفعالة(٥).

أما من الناحية الفعلية، فقد كانت السلطة العسكرية بقيادة إبراهيم باشا السر عسكر تملك زمام المور كلها فى بلاد الشام، وكان إبراهيم باشا منفذاً أميناً لأوامر والده، ولا يستطيع أن يصدر أمرٌ دون الرجوع إليه.

ورغم ذلك، يمكن القول أن تأسيس مجالس الشورى كان خطوة هامة على

طريق الإصلاح الإدارى، ولم يقتصر نشاط المجالس على النواحى الإدارية والاقتصادية، ولكن امتد إلى الأمور القضائية حتى لم يبق للمحاكم الا قضايا الأحوال الشخصية(٦).

وإلى جانب ذلك، قامت الإدارة المصرية بالشام بإصلاح نظام الضرائب، فمنعت الملتزمين من فرض الضرائب وحدت من سلطتهم، وتحول الملتزمون إلى جباة يعملون لحساب الحكومة لقاء الحصول على عُشر ما يتم جمعه من الضرائب. وبذلك قلصت الإدارة الحقوق التقليدية لأعيان الشام، ففقد الملتزمون جانباً كبيراً مما كانوا يحصلون عليه من قبل، وفقد الكثير من العلماء دخولهم من الأوقاف بعد أن أصبحت تخضع للإدارة المصرية، وفقد الأغوات تنظيمهم العسكرى التقليدى لصالح الجيش المصرى. وبذلك فقد الأعيان سلطتهم بما فيهم الأمير بشير الشهابى الثانى الذى أصبح تابعاً لمحمد على وإبراهيم باشا.

ولا يعنى ذلك أن الالتزامات قد ألغيت تماماً، ولكنها جددت وأخضع الجميع للإدارة المركزية، وتم تنظيم فرض وتحصيل الضرائب، غير أن الأهالى لم يشعروا بتخفيف عبء الضرائب، إذ فرضت عليهم ضريبة جديدة سميت "الفردة" كانت ضريبة رأس على كل رجل بلغ عمره ما بين ١٥-٦٠ عاماً(٧)، مما أثار حنق الشوام الذين رأوا فى هذه الضريبة تعميماً لفرض الجزية التى كان لا يخضع لها سوى المسيحيين.

ويجب أن نضيف لذلك الآثار السلبية لتطبيق نظام الاحتكار على الأوضاع الاقتصادية، وخاصة ما ترتب عليه من معاناة للفلاحين وأرباب الحرف، على نحو ما ذكر الضابط الروسى العقيد "لفوف" الذى زار بلاد الشام زمن الحكم المصرى: "يعطى الفلاح السورى جزءاً كبيراً من محصوله للحكومة، ولا يستطيع أن يبيع شيئاً إلا بسعر زهيد تحدده الحكومة، وعليه أن يدفع للحكومة رسوماً نظير ممارسته

للتجارة نفسها... إن سياسات الإدارة المصرية استبدادية تؤدى إلى خراب البلاد"[٨]. ويرى بعض الباحثين أن النظام الجديد كان شديد الوطأة بالنسبة للأهالى لأنه كان أكثر مركزية وتحديداً من نظام الالتزام التقليدى[٩].

ومن أهم التغيرات التى أدخلتها الإدارة المصرية، اشتراك بعض المسيحيين فى مجالس الشورى، ولم يسبق وجود ذلك قبل عام ١٨٣٣، كذلك اتجه إبراهيم باشا إلى تعيين المسيحيين فى الوظائف الإدارية الكبرى، مثل بحرى بك الذى كان مسئولاً عن الإدارة المالية ببلاد الشام. ويمكننا القول أن الإدارة المصرية فضلت تعيين المسيحيين (وليس المسلمون) بالوظائف الكبرى، فَعدَّ المسلمون ذلك بدعة لا مبرر لها.

وقد رفعت الإدارة المصرية عن كاهل غير المسلمين القيود التقليدية التى فرضت عليهم من قبل، فسمحت لهم بإقامة الاحتفالات الدينية وبناء الكنائس الجديدة، والشهادة فى القضايا التى تنظرها المجالس ولم تفرض على المسيحيين واليهود ارتداء ملابس ذات ألوان معينة كما كانت الحال فى الماضى. ويمكن القول أن الإدارة المصرية رفعت عن كاهل غير المسلمين كل القيود ماعدا ضريبة "الجزية" وألغت الضرائب التى كانت تفرض على الحجاج المسيحيين. مما أثار مخاوف المسلمين من الأهالى الذين رأوا أن سياسة الإدارة المصرية تتنافى مع الإسلام، وكان بعضهم يقول : "يا أخى، انتهت دولة الإسلام،وصارت الدولة مسيحية"[١٠]. وازداد المسلمون سخطاً عندما جند إبراهيم باشا بعض موارنة جبل لبنان فى الجيش، وأسكن الجنود بعض البنايات الإسلامية. فكانت سياسة الإدارة المصرية تجاه الطوائف الدينية من العوامل التى أثارت الأهالى المسلمين ضد حكم محمد على باشا.

ولابد أن نشير إلى نجاح الإدارة المصرية فى نشر الأمن فى ربوع بلاد الشام، واستصلاح الأراضى، ومواجهة غزوات البدو. وقد أبدى الأهالى سخطهم على نظام

التجنيد الإجباري فى الجيش الذى فرض على المسلمين، وكان ذلك جديداً عليهم، فعدوا التجنيد فاجعة كبيرة، لأن مدة الخدمة العسكرية لم تكن محددة، ولم يكن للجندى أمل فى العودة إلى وطنه. لذلك كان التجنيد – على نحو ما تشير المصادر – إضافة إلى الضرائب ونزع سلاح الأهالى من الأسباب الأساسية للثورات ضد الإدارة المصرية فى الكثير من مناطق بلاد الشام[١١].

لقد لعبت الإصلاحات التى قام بها محمد على باشا فى الشام دوراً هاماً فى تاريخ تلك البلاد، فقد هيأتها لتقبل الإصلاحات التى أدخلتها الدولة العثمانية فى عصر التنظيمات الخيرية.

المراجع

١. Rustum Asad. Rhe Roual Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria, 1831-1840, Beirut, 1936, p.45.

٢. الدمشقي ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان ١٧٨٣-١٨٤١. دمشق، ١٩٨١، ص ١٠.

٣. (Ed. Barker.) Syria and Egypt under the Last five Sultans. L., 1876, vol.2, p.288-289.

٤. K.M. Bazili. Syriya I Palestina pod turetskim pravitelstvom. Spb, 1875, t.1., s.126.

٥. مشاقة ميخائيل. كتاب مشهى العيان بحوادث سوريا ولبنان، مصر ١٩٠٨، ص ١٠٩-١١٠.

٦. J. Bowring. Report on the Commercial Statistics of Syria. N.Y., 1919, p.133.

٧. حروب إبراهيم باشا فى سوريا والاناضول. مصر ١٩٢٧. ص٣٦

٨. Syriya, Livan I Palestina v pervoy polovine XIX veka. Moskva, 1991, s.215

٩. M. Moaz Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861. Oxf., 1968, p.17

١٠. Ibid, p.18.

١١. حروب إبراهيم باشا فى سوريا والاناضول ، ص٣٩.

محمد علي في السودان

امتداد وفتح عثماني أم حكم استعماري مصري ؟ !

د. أحمد إبراهيم دياب[*]

كثر في الفترة الأخيرة استعمال كثير من المصطلحات الحديثة بقصد من كثير من المؤرخين الأوربيين الإنجليز والألمان والفرنسيين خاصة ومن شايعهم من المؤرخين العرب والأفارقة فساروا على نهج أساتذتهم الجدد مستعمريهم السابقين. وبالنسبة للسودان من أشهر هؤلاء ونجنت وهل وهولت وقلما يكل ودنكان وهللسون وروبرتسون وجاكسون وجراي فكل هؤلاء موظفين في الإدارة البريطانية أي حكامًا على السودان ومن الجدد بيتر ودورود وأوفاهي ونبلوك. وسار على مسارهم وتبع هواهم إبراهيم فوزي، أحمد فؤاد شكري، محمد صبري، محمود القباني، عمر طوسون، نعوم شقير، زاهر رياض، وعبدالعظيم رمضان وتليمذه عز الدين إسماعيل[1] وغيرهم من فتات موائد التاريخ وفي السودان حسن أحمد إبراهيم وحسن مكي وغيرهم.

هذه المصطلحات هي : الاستعمار العثماني – الغزو التركي – الاحتلال المصري الحكم المصري – النفوذ العربي – تحرير الخرطوم – الصحوة الإسلامية...الخ.

هذه مصطلحات أوروبية لم يعرفها تاريخ المنطقة ولا الفكر العربي ولا الإسلامي ولا الأفريقي فالإسلام عندما انتشر حتى بحد السيف كانت حروبه فتوحات واستعمل مصطلح الفتح في كتب التاريخ التي كتبها العرب أو المسلمين أو المسيحيين أو الصهاينة ولم يستعملوا مصطلح غزو أو احتلال أو استعمار فلم يقال

(*) مركز بحوث ودراسات حوض النيل والبحر الأحمر – مؤسسة بحثية أكاديمية غير حكومية – السودان – أم درمان – ص.ب. ١٩٦٥ (نبراسك).

أو يكتب استعمار أموي أو عباسي أو فاطمي أو عثماني ولم يقال غزو أموي أو عباسي أو عثماني أو احتلال أو حكم أجنبي حتى عندما وصل محمود الغزنوي إلى كشمير والهند فلم يكتب الفردوسي في الشهنامة التي هي عبارة عن تسجيل لتاريخ فارس وتمجيد للوطنية والهوية الفارسية إنه محتمل واستعماري.

أننا إذ انجررنا وسرنا على عولمة المصطلحات وعوربتها سنصل إنشاء الله إلى قول الاستعمار الإسلامي أو الأموي أو العباسي لمصر والشام والعراق والأندلس وهلم جر.

أما إذا نزلنا من عورية المصطلحات وزحفنا للواقع في طوال عهود الخلافة سواء أكانت أموية أو عباسية أو عثمانية (وليست تركية) فالانتماء كان عثمانيًا إسلاميًا ولم تكن هناك جنسية غير العثمانية وكان الانتماء للسكن إقليمًا وليس جنسًا فيقال أهل الشام أهل مصر وأهل اليمن وأهل الحجاز وأهل كذا وكذا وكان جواز السفر العثمانية ولم تكن هناك نقاط جوازات وإقامة وتأشيرة خروج ودخول.

وكان الانتماء في الإقليم الذي يختاره العثماني ليسكن فيه للوظيفة أو العمل الذي يؤديه الشخص فكم من خريج من الأزهر انتموا إليه وأصبحت أسر في كل أنحاء العالم الإسلامي تسمى بالأزهرية، وقبله جامع القيروان لأنه عالم ودارس في القيروان فيكنى به ويسمى بالقيرواني مثل الأزهري أو الملكي أو المدني أو النجفي وكذلك كان الانتماء للمدن مثل البغدادي والبصري والدمشقي والحلبي والدمنهوري والطنطاوي والأسيوطي والطرابلسي والتونسي والجزائري والسلاوي والفاس وطبعيًا إلى القبائل. ولم يظهر الانتماء إلى إقليم والتجنس به إلا بعد دخول الحملة الفرنسية إلى مصر، وبداية الاستعمار الحديث، وبداية ظهور الفكر القومي العربي الذي لم نبتل بأسوأ منه والذي تولدت منه البعثية والناصرية وغيرهما من شواذ الفكر.

الخلافة العثمانية وممالك بلاد السودان :

سؤال يتبادر إلى الذهن : هل كانت مصر تابعة للخلافة العثمانية ؟ أي ولاية من ولايات الدولة الإسلامية أم دولة قائمة بذاتها ؟ هل كانت هناك جنسية مصرية تنتسب لها مصر وينتسب لها سكان مصر من الفلاحين والصعايدة وعرب غرب وشرق النيل فهل كان محمد علي مصريًا أم تركيًا أو جركسيًا أو بلقانياً عثمانيًا ؟ هذه بعض من كثير ولنطرح بعض الإجابات لبعضها.

أولاً : مصر كانت إقليمًا من أقاليم الخلافة العثمانية ومرجعي في ذلك تقويم النيل كتب في القرن التاسع عشر (تحت عنوان مصر في عهد الدولة العثمانية) وفي عهد محمد علي وأحفاده ومعنى ذلك إقرار محمد على أسرته من الحكام بأنهم تابعين للخلافة أو الدولة العثمانية. وفي داخل الكتاب العنوان الرئيسي " أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة ". وواضح هنا أن جزية مصر من الكل وهذا يوضح وفي عهد محمد علي وفي قمة قوته وسلطانه وحروب ابنه إبراهيم في الشام وحروبه ضد الوهابيين في نجد وتدميره لعاصمتهم الدرعية.

ثانياً : لم يكن هناك انتماء لأرض أو مقر سكن أو مكان مولد منذ قيام الدولة الإسلامية في المدينة وطوال امتداد التاريخ فالانتماء للخلافة أو الدولة سواء أكانت أموية أو عباسية أو عثمانية وحتى العثمانية لم تسمى تركية لقبيلة الأتراك كما لم تسم السابقات نسبة للعروبة بل نسبت (أمية أو العباس أو عثمان أو فاطمة أو طولون أو أخشيد أو الفونج أو الفور).

ثالثاً : لم يكن محمد علي من الذين ولدوا في مصر سواء من الأعراب أو الفلاحين أو الصعايدة بل كان مسلمًا عثمانيًا أرسلته دولة الخلافة ليعمل في جزء من أرض الخلافة وأسباب مجيئه معروفة لدى مؤرخي مصر ومتخصصي تاريخ عهد محمد علي فهو عسكري حاكم عثماني، أهل مصر وسكانها عنده رعيه

رعاع لم يتحرروا من حكم أسرته إلا في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

رابعاً : هل كانت حروب محمد علي في الشام حروبًا استعمارية أو حكم مصـري أو إدارة مصرية أم كانت من أجل إعادة سلطة الدولة والخلافـة العثمانيـة فـي مناطق متمردة أو خارجة عن سلطانها وهي أرض إسلامية وسـكانها مـن المسلمين.

خامساً : نفس الشئ ينطبق على حروب إبراهيم باشا في بلاد نجد ضـد الوهـابيين وتدميره لعاصمتهم الدرعية فقد كانت حروب من أجل وحـدة وتوحيـد أرض الخلافة وضرب المنشقين عنها والخارجين عليها.

محمد علي وبلاد السودان :

استمرت أخر الدول أو الممالك المسيحية في السـودان وهـي ممكلـة علـوة وعاصمتها سوبا (قرب الخرطوم الحالية) حتى ١٥٠٤حين سقطت على يد الحلـف الذي قام بين قبيلة العبدلاب وهم من عرب القواسمة وقبيلة الفونـج الذيـن كـانوا يحكمون في منطقة جنوب النيل الأزرق على حدود الحبشة (الكرمك وقيسان) وهـي قبيلة خليط من العرب والعنج (النوبة السود) والشلك. ومن ثم قامت سلطنة الفونـج في نفس المنطقة ولكن عاصمتها سنار على أرض الفونج في النيل الأزرق وكـانت سلطنة تدين بالإسلام البسيط الهادي وامتدت في حدودها إلى شمال وشرق السـودان الحالي وفي فترتها الزمنية حتى سقطت على يد قـوات محمـد علـي فـي ١٨٢١ وجاورتها مملكة المسبعات في كردفان وتقلى في جبال النوبة وسلطنة الفـور فـي دارفور وعاصمتها الفاشر وكانت سلطنات إسلامية أي أن سلاطينها مسلمين علـى نفس النهج الإسلامي الهادي لدى سلاطين الفونج.

وكانت العلاقات والروابط الثقافية والتجارية بين الفونج والفور ومصر مزدهرة من حيث التجارة وقيام أروقة في الجامع الأزهـر (الـرواق السـناري والـرواق

الفوراوي) كما كانت للسلطانين علاقتهم الدينية مع الأراضي المقدسة وكان الحجاج منهما يسافرون للحج ومعهم محملهم (المحمل الفوراوي والمحمل السناري) المحمل بالمنتوجات المحلية للمساكين في أرض الحجاز والمجاورين من العلماء وطلاب العلم .

من هنا يتضح أن الممالك السودانية كانت ممالك إسلامية مثلها في ذلك مثل الدول السعودية أو الوهابية في نجد.

فهل كانت حروب محمد علي هناك غزو مصري ؟ أو استعمار مصري أو حكم مصري؟ أو مد لنفوذ دولة الخلافة العثمانية أو فتح عثماني ؟

لقد كانت لسلطنة دارفور علاقات قوية بولاة مصر من المماليك وكذلك بالسلطنة العثمانية والسلطان عبدالرحمن الرشيد، والرشيد لقب أعطاه له السلطان العثماني بعد أن أرسل للسلطان هدية من العاج وريش النعام فأرسل له السلطان العثماني خطابًا يشكر له هديته ويلقبه بالرشيد (حكم من ١٧٨٥ – ١٨٠١م) (١٢٠١ – ١٢١٥هـ) وابنه محمد الفضل أمه جارية من قبيلة من الفرتيين بين الكنغو وجنوب السودان وهي قبيلة البيقو اسمها أم بوسة وهي جدة نورين والد مقبولة أم السيد عبدالرحمن المهدي (نورين بن زكريا بن السلطان محمد الفضل).

وقد نال شهرة واسعة وكانت له علاقة حميمة بمصر وفي أيامه انتشر العلم في دارفور واستع نطاق التجارة وفي عهده زار الرحالة الإنجليزي Brown براون دارفور عن طريق درب الأربعين. وقد ضيق الحكام المماليك في أواخر أيامهم على القوافل التي كانت تأتي من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر فلما دخل نابليون بونابرت مصر ونكل بالمماليك كتب إليه السلطان عبدالرحمن يهنئه بفوزه عليهم قائلاً (شقير ط١ ج٢ ص١٢٨) :

" بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين، من سلطان دارفور السلطان

عبدالرحمن الرشيد، إلى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام.

أما بعد فنعلمكم أن خبر انتصاركم على المماليك وصل إلينا فتلقيناه بغاية السرور، وقد أخبرنا أحد الإفرنج الذين اعتنقوا الإسلام بحسن معاملاتكم للأجانب فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلابي وكلفناه أن يؤكد صدق مودتنا التي نسأل الله تعالى دوامها ونحن نوصيكم بالخبير خيرًا لتحموه هو واتباعه وعبيده ولكم منا ألف مليون تحية وسلام.

فكتب إليه نابليون بونابرت جوابًا فيه :

" ١٢ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة ١٧٩٩م "

" بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله، إلى السلطان عبدالرحمن سلطان دارفور تناولت كتابكم وفهمت فحواه واعلموا أن قافلتكم قد وصلت في حين كنت متغيبًا في بلاد الشام أعاقب أعدائنا وأدمرهم، والآن طلبي إليكم أن ترسلوا لي مع أول قافلة ألفي عبد من العبيد الأشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر إذ مرادي أنَ أبتاعهم لنفسي والأمل أن توعزوا إلى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها أنا أمرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون.

الإمضاء / بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي

ولما كانت سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠م أرسل محمد على باشا كتابًا إلى محمد الفضل يدعوه فيه إلى التسليم فأجابه محمد الفضل بكتاب نصه صورته عن نسخة بين الزبير باشا وهذا نص الكتاب (نقوم شفير ط (١) جز ء ص ١٣٠) :

" الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعًا، سبحانه يجزي كل نفس بما تسعى وإليه المعاد والرجعى وهو حسبي وكفى.

من حضرة من أمن بالله به البلاد وجعل ملكه مسموعًا من كل أحد وحيرة في

قلوب الأعداء نارًا تستعر وجمرًا يتوقد وجعل الله على يد ضَرب من طغى وتمرد ومن ضل وتعند وهو شاب صغير السن ولو صار كهلاً لخضعت له الأنس والجن. وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضه أنجم السعود وأن قامت الهيجاء بنفسه، يجود ويصل إلى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود .. وهو مولانا السلطان محمد الفاضل بن عبدالرحمن الرشيد أعزه الله .. إلى حضرة الكوكب العالي والمنير المتلألئ بهجة الأنام وقدوة الليالي صاحب العز والافتخار أخينا العزيز محمد علي باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنه وكرمه.

أما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله إلى رضوانه وفهمنا خطابكم ومقتعنى جوابكم كل كلمة من المرموق يستحق جوابها المفهوم، ولكن يكفي من ذلك كله كلام الحي القيوم حيث قال " له دعوة الحق والذي يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " ... " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا " .. أنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم، هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية. أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك، أم ورد لك حديث من رسول الله تجد في تمليكك، أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك ربًا قويًا ولنا رب ضعيف الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون، ندين بكتاب الله تعالي وسنة رسول الله (صلعم) ونؤدي الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، والذي لم يصل نأمره بالصلاة، والذي لم يزك نأخذ منه الزكاة، ونضعها في بيت المال ولا ندخرها، ونرد الأمانات إلى أهلها ونعطي كل ذي حق حقه، حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرمًا بأذن الله تعالى ولا اشتدت به الريح في يوم عاصف، ألم ترى قوله (صلعم) " لو

بغى جبل على جبل لدك الباغي "

أما علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون الهجاء بكرة وعشية.

أما علمت أن عندنا العباد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع الملك إلى أهله، ويكفي من بعد ذلك، والله يكفي شر الظالمين.

كتبه الفقيه محمد ودعماري من متخرجي الأزهر وكان مدرسًا للسلطان محمد الفضل وأولاده بالفاشر". توفى السلطان محمد الفضل سنة ١٨٣٨م.

الحملة العثمانية لفتح السودان :

في أواخر سلاطين الفونج عمت الفوضى مملكة سنار بالشقاق بين سلاطينها واستفحل وزراء الهمج الذين استأثروا بالسلطة الفعلية وخلعوا سلطة الفونج وكانت مصر في أوائل القرن قد آل حكمها إلى محمد علي باشا فبلغه أخبار الفوضى في سنار من التجار المصريين الذين يقومون بالتجارة بين سنار ومصر كما جاء الملك نصر الدين ملك الميرفاب في بربر فشرح لمحمد علي باشا حال سنار وما صارت له من الضعف والانحلال وإمكانية دخول الجيش إليها والأخذ بثأرهم منها، وقابل محمد علي وفدًا من منطقة أرقو من عائلة الملك الزبير وشرح له عبث المماليك الذي هربوا من مصر بالأموال هناك.

ومن أسباب محمد علي باشا التركي لمد نفوذه للسودان :

١- الاستيلاء على مناجم الذهب السودانية.

٢- مد جيشه برجال من السودانين الذي اشتهروا بصلاحيتهم للفروسية وشدة بأسهم في الحروب – (خطاب بونابرت للسلطان عبدالرحمن الرشيد)

٣- القضاء على المماليك لخوفه منهم.

٤- توسيع دولته وفتح أبواب الرزق لأهله الأتراك والارناؤط والمغاربة الذي قهر بهم المماليك وأصبحو (مصدر تعب له) كما أنهم في الجندية القديمة التي يريد التخلص منها ويستريح من مشاكلهم.

٥- اكتشاف منابع النيل.

٦- توسيع نطاق التجارة البحرية والانتفاع بالموارد السودانية.

٧- حب محمد علي للحروب والفتوح والرغبة في توسيع نطاق ولايته العثمانية.

<u>الحملة :</u>

- ١٢٠٠ فارس من الأتراك والارناؤط والمغاربة بقيادة عبادين بك والحاج عمر وعمر كاشف (هل بينهم مصري؟)
- ٦٠٠ راجل من الأتراك. (هل بينهم مصريين؟!)
- ٣٠٠ راجل من الطوبجية ومعهم ٢٤ مدفع عيار ٤ بقيادة محمد أغا
- ٧٠٠ من العبابدة بقيادة خليل وداد كاشف.
- ٢٠٠٠ نفر من التبع
- ٣٠٠٠ جمل
- ٣٠٠٠ مركب لحمل الزاد والمؤن والذخائر كما جاء في نعوم شقير.

وبدأت الحملة في يوم ٢٠ يوليو ١٨٢٠م ووصلت الخرطوم في مايو ١٨٢١م وقام من الخرطوم قاصدًا سنار في ١ يونيو ١٨٢١م وكان سلطانها بادي ووزيره محمد ود عدلان وأرسل إسماعيل من المتمة في يوليو ١٨٢١م خطابًا إلى السلطان بادي يدعوه إلى الطاعة فكتب له الوزير محمد ود عدلان خطابًا جاءت فيه الجملة التي كتبها السلطان محمد الفضل فيما بعد إلى محمد على وهي :

" لا يغرنك انتصارك على الجعلبين والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية، أما بلغك أن سنار محروسة محمية بصوارم وقواطع هندية وطبول جرد ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية .."

ويورد تقويم النيل، الجزء الثاني (مصر في عهد الدولة العثمانية) ص٢٨٣ ملاحظات تاريخية سنة ١٢٣٥هـ أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة الآتي:

" واستهل شهر رمضان والاهتمام حاصل بتجريدة فتح السودان ووقع الاختيار على ثلاثة من العلماء يكونون بصحبة التجريدة وهم : محمد أفندي الأسيوطي قاضي أسيوط والسيد أحمد البقلي الشافعيين والشيخ أحمد السلاوي المغربي المالكي واقبضوا الأول عشرين كيسًا وكسوة ....".

وفي ١٣ جمادى الأول سنة ١٢٣٥هـ صدر أمر من محمد علي باشا إلى كتخدا ديوان مصر بإبلاغ جيش إسماعيل باشا سر عسكر السودان إلى ١٠,٠٠٠ وتعين محمد بك ناظرًا لتسهيل ذلك " مترجم من التركية ".

ويلاحظ أن الأوامر التي تصدر من محمد علي إلى قواده كانت بالتركية أو العثمانية وليست بالعربية أو لنقل بلغة أهل البلد المصريين. فهل هذا حاكم مصري ؟ وهل هذا حكم مصري أم حسب لغته حديثًا وكتابة ومعاملة تركي ؟.

ولاة السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٨٥م :

طوال هذه الفترة الزمنية التي امتدت إلى أربعة وستين عامًا كم من المصريين كانوا حكامًا أو ولاة أو حكمداريين على السودان من بين هؤلاء ؟ وكم من الأوربيين خدموا في السودان ولهم الأسبقية والباشوية والبكوية ؟

١- إسماعيل باشا بن محمد علي	١٨٢٠ – ١٨٢٥
٢- عثمان بك	١٨٢٥ – ١٨٢٦
٣- محو بك	١٨٢٦ – ١٨٢٦
(سميت شجرة جنوب الخرطوم باسمه شجرة محو بك)	
٤- خورشيد باشا	١٨٢٦ – ١٨٣٩

٥- أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٩ – ١٨٤٤

(مات ودفن في الخرطوم – زيارة محمد علي باشا في عهده)

٦- أحمد باشا المنكلي ١٨٤٤ – ١٨٤٥

٧- خالد باشا ١٨٤٥ – ١٨٥٠

٨- عبداللطيف باشا ١٨٥٠ – ١٨٥١

٩- رستم باشا ١٨٥١ – ١٨٥٢

(مات ودفن في الخرطوم وجاءت في عهده لجنة برئاسة ميري بك للنظــر في أحوال السودان).

١٠- إسماعيل باشا أبوجبل ١٨٥٢ – ١٨٥٣

١١- سليم باشا ١٨٥٣ – ١٨٥٤

١٢- علي باشا سري الارناؤطي ١٨٥٤ – ١٨٥٥

١٣- علي باشا شركسي ١٨٥٥ – ١٨٥٧

(زيارة سعيد باشا للسودان)

١٤- أراكيل باشا ١٨٥٧ – ١٨٥٩

(أرمني – توفى بالخرطوم – جاء كسواح سبيك وجرانت في عهده)

١٥- حسن بك سلامة الشركسي ١٨٥٩ – ١٨٦٢

١٦- محمد بك راسخ ١٨٦٢ – ١٨٦٣

١٧- موسى باشا حمدي ١٨٦٣ – ١٨٦٥

(جاء للسودان في عهده سير صمويل بيكر – مات بالخرطوم ودفن بها).

١٨- جعفر باشا صادق ١٨٦٥ – ١٨٦٦

١٩- جعفر باشا مظهر ١٨٦٦ – ١٨٧١

(في عهده تنازلت تركيا عن سواكن ومصوع إلى مصر علــى جزيــة سنوية. وفي عهده أصبح صمويل بيكر مدير لخط الاستواء)

٢٠- ممتاز باشا ١٨٧١ – ١٨٧٣
(سجن بالخرطوم – مات فيها ودفن).

٢١- إسماعيل باشا أيوب ١٨٧٣ – ١٨٧٧
(في عهده سمى غردون حاكمًا على خط الاستواء وفي عهده ضمت دارفور).

٢٢- غردون باشا ١٨٧٧ – ١٨٧٩

٢٣- رؤوف باشا ١٨٧٩ – ١٨٨٢

٢٤- عبد القادر حلمي ١٨٨٢ – ١٨٨٣

٢٥- علاء الدين باشا ١٨٨٣ – ١٨٨٤

٢٦- غردون باشا ١٨٨٤ – ١٨٨٥

كم مصري من بين هؤلاء يا ترى !.

أما المرتزقة الأجانب الذين أرسلتهم دولهم للتجسس على الدولة العثمانية وولايتها سواء في المشرق أو المغرب فقد كان نصيب السودان من هؤلاء الذين عملوا كموظفين في جهاز الدولة وفي أعلى المراتب ونالوا درجتي البكوية والباشوية معظمهم ضباطًا كبار في الجيش ومنهم :

١- غردون باشا الإنجليزي.
٢- مساراليه بك الإيطالي.
٣- سلاطين باشا النمساوي.
٤- الكولونيل لونج الأمريكي.
٥- روميلوجسي باشا الإيطالي.
٦- جيكلر باشا.
٧- صموئيل بيكر باشا الإنجليزي.
٨- أدورد شيترز البروسي – أمين باشا.

٩- الكولونيل بروت.
١٠- الكولونيل بردي.
١١- الكولونيل كولستن.
١٢- الكولونيل ارندروب.
١٣- مونسنجر.
١٤- الكونت كلينجن.
١٥- هكس باشا.

هذا بخلاف الرحالة الذين جابوا السودان شرقًا وغربًا وجنوبًا وجمعوا ما
دوا من المعلومات التي ساعدت دولهم بعد ذلك في دخول القارة الأفريقية مثل :

- د. بونسيه الفرنسي	Poncet	١٦٩٨
- جميس بروس الاسكتلندي	James Bruse	١٧٦٩ – ١٧٧٢
- وليم جورج برون الإنجليزي	W.J Broune	١٧٩٦ – ١٧٩٣
- لويس بوركهارد السويسري	L. Buchard	١٨١٤ – ١٨١٣
- جورج وادنجتون الإنجليزي	G. Waddington	١٨٢١ – ١٨٢٠
- الأمير بكلر مكاو الألماني	Puckler Ruskau	١٨٣٧
- فرديناند فرن الألماني	F. Wevne	١٨٤١ – ١٨٤٠
- جورج ميللي الإنجليزي	G. Melly	١٨٥١ – ١٨٥٠

رطوم – تحرير – سقوط أم فتح :

عندما حاصر المسلمون مكة وهم في قوة وجيش جرار وكانوا يريدون دخولها
وة ولكن أهل مكة خافوا على أنفسهم فدخلها النبيﷺ وصحبه صلحا. وسمى
ول المسلون (فتح مكة) ولم يقل القرآن تحرير مكة إنما كان المصطلح الذي

استعمل (فتح) وكذلك كتبت كتب السيرة والتاريخ بينما إذا نظرنا لها بمنظور اليوم وبمصطلح القرن العشرين فهي تحرير لأنه تم تحريرها من الأوثان وتحرير أهلها من الشرك بالله. وهكذا سارت قافلة الإسلام مستعملة مصطلح الفتح ولم يقولوا غيره عندما دخلوا بيت المقدس ودمشق والإسكندرية وبلاط كسرى والقسطنطينية وسمى محمد الفاتح لأنه فتح القسطنطينية ولم يسمى محمد المحرر. فمن أين جاءت كلمة تحرير لتطبق على عمل تم في أواخر القرن التاسع عشر ؟

هل كانت الثورة المهدية ثورة تحررية ؟

هل كانت الدولة المهدية دولة تحررية ؟

أم يريد البعض لحاجة في نفسه أن يفرض على التاريخ ومصطلحاته مصطلحات جديدة في غير محلها ومن ثم نقول ثورة البلورتاريا بقيادة سيدنا محمد ﷺ ؟ ونقول الثورة التحريرية الإسلامية ضد البرجوازية المكية ؟ ونقول غضب الجماهير المسحوقة.

لا يا هؤلاء يجب على المؤرخ أن يسقط وراء أهواء الساسة وتجار السياسة والمتلاعبين بالمصطلحات والألفاظ فالخرطوم سقطت في يوم الاثنين ٢٦ يناير ١٨٨٥م على يد قوات محمد احمد المهدي وتم فتح الخرطوم إذا كانت الخرطوم مدينة غير إسلامية من حيث السكان وبما أن ٩٠% من السكان المسلمين فهي لم تحرر ولم تفتح إنما سقطت. وهذه هي الحالة فيها قبل سقوطها :

<u>نصيحة العوام :</u>

يقول نعوم شقير في تاريخه الجزء الثالث ص٢٦٥ طبعة ١٩٠٣ " كان في الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية يقال له أحمد العوام وهو مصري الجنسية حسيني الانتساب وقد نفي إلى الخرطوم بسبب الثورة العرابية فرأى الثورة المهدية في وجهه فتشيع لها وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٣٠١هـ

١١ يوليو سنة ١٨٨٤م سماها "تصيحة العوام " فإذا هي ثورة محضة وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية وكرهه للحكومة الخديوية[١] ومما قاله فيها مشيرًا إلى موظفي حكومة الخرطوم :

" ... وقد طالما جادلتهم بالحق سرًا ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرًا على مرآي ومسمع وكيلها النصراني[٢] ومن حضر من كتبه الديوان في ليلة النصف من شعبان هذه السنة (١٣٠١هـ) ٩ يناير يونيو ١٨٨٤م أن يسعوا في الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملاً بأمر الله فلم أجد فيما بينهم محقًا كلا ولا ساعيًا بكلمة حق لإخماد هذه الحرب بين المسلمين وعباد الله المؤمنين مع تطلع الحاكم غردون باشا وهو نصراني لإطفاء لهيب هذه الحرب الموقدة. ولذلك اعتزلتهم وجميع المحصورين إلا من جاءني يسعى وهو يخشى فأني أبذل له محض النصح حتى يفتح الله بيننا وهو خير الفاتحين ... ".

وقد أثرت اقواله تأثيرًا سيئًا في نفوس أهل الخرطوم فسجنه غردون وكبله بالحديد ... فعفا عني .... ولكن ما لبث أن عاد إلى سابق عادته من انتقاد أعمال الحكومة وتهييج أهل البلاد ضدهما. ولما جاء خبر زحف المهدي على الخرطوم وأعلن غردون خبر قدوم الجيش الإنجليزي جاهر في تكذيب غردون وتصديق المهدي ولم يقتصر على ذلك بل أغرى إحدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك بقصد إحراق الجنجانة كلها فسقطت الجمرة على بعض الأوراق فأحرقتها فشعر بها الديدبان فأطفأها واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذي أغراها بذلك فأمر غردون بقتله فقتل في سراي الشرق ".

٢- خيانة بعض أعيان الخرطوم :

ولما حل المهدي بأبي سعد زاد قلق أهل الخرطوم فاتفق جماعة من أعيانها وكبار موظفيها وجمعوا مبلغًا من النقود لفقراء جيش المهدي وكتبوا إليه كتابًا

يصرحون فيه بتسليمهم بمهديته وأنهم ساعون في إضعاف الحكومة بكـــل جــهدهم وينتظرون الفرصة للخروج إليه. وقد أرسلوا الكتاب والنقود مع عبــد لأحمــد بــك جلاب مدير الخرطوم فصادفته دورية أم درمان وأرسلته إلى غــوردون فاســتنطقه فكان من جملة المشتركين في هذه الجناية :

١- أحمد بك جلاب – مدير الخرطوم وأخوه تميمي.

٢- الشيخ محمد خوجلي – قاضي عموم السودان.

٣- الفضل إبراهيم – باشكاتب مجلس الاستئناف.

٤- أبوبكر الجركوك عضو بمجلس الاستئناف. (ووالد آمنة التي تزوجها المــــهدي بعد ذلك).

٥- الخليفة ود ارباب.

٦- الفكر الأمين الضرير شيخ الإسلام.

٧- محمد عبدالرحمن البشير تاجر.

٨- أدريس بك النور – عضو بمجلس الاستئناف.

فأمر غوردن مأمور الضابطة فأحضرهم من منازلهم ليلاً وحبسهم فـــي ثكنـــة العساكر ما عدا المدير وأخوه والقاضي وشيخ الإسلام وإدريس بك فإنه حبسهم فـــي منازلهم ومنع الناس من الدخول إليهم وسمى موسى بك شوقي مديرًا للخرطوم بـــدلاً من أحمد بك جلاب وأعاد المحافظة فجعل إبراهيم باشـــا فـــوزي محافظًـــا وأمـــره بمساعدة الضابطة في معرفة المؤتمرين وقطع دابر المفسدين.

هوامش

(١) **الحكومة الخديوية** : لم يقل العوام المصري الحكومة المصرية وسماها باسمها الخديوية ومعروف تبعية الخديوي إلى السلطان.

(٢) **النصراني** : وكلمة النصراني والنصارى يقصد بها في مصر والسودان المسيحيين الأجانب أو الأوروبيين الكاثوليك والبروتستانت أما مسيحي مصر فيعرفون حتى اليوم باسم الأقباط أو القبط ولا يصفهم العامة بأنهم نصارى وقد جاءوا مع حملة محمد علي كمحاسبين وعاشوا مع السودانيين مثل المعلم ميخائيل والمعلم خليل وغيرهم. وكان معظم التجار في الخرطوم منهم وهم من أهل الصعيد من أسنا وقنا ونقاده والمنيا وغيرهم.

(٣) **اجتياح القوات** : ويقول نعوم شقير في ص٢٩٤ جزء ٣ واصفاً قوات المهدي وانتظارهم لمهاجمة الخرطوم دون رؤية قال : " ... وفيما هم كذلك إذ فر إليهم من الخرطوم يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥م سنجق من الباشبوزق يقال له عمر بك ود الفقيه إبراهيم الملقب بقرة العينين من أهل الخرطوم وقد أخذ معه راتبه ورواتب عساكر الوردية التي نقدها أياها غوردون وكان المهدي لا يعلم حقيقة الحالة في الخرطوم إذ جميع الذين فروا إليه قبل هذا الرجل كانوا من ضعفاء الناس وليس لهم إطلاع على ماجريات الأحوال فأخبره عمر المذكور بحال الخرطوم التمام ودله على مواطن الضعف فيها.

وفي ص ٣٠٠ يقول " واستمر القتل في أهل الخرطوم من لدن طلوع الفجر إلى قرب الضحى حتى امتلأت الطرق من جثث القتلى وكان جملة من قتل من أهل الخرطوم نحو ٣٥ ألف نسمة ... "؟

أسر سودانية ذات أصول مصرية :

لا أريد أن أرجع في تاريخ الروابط السودانية المصرية إلى الوحدة التاريخية على ضفاف النيل من الخرطوم " الشهينات " إلى الدلتا منذ عصور ما قبل التاريخ ولا إلى الرابطة المسيحية التي ربطت بين أقباط الشمال وأقباط ممالك المريس والمقرة وعلوة ولا إلى حملة عبدالله بن سعد بن أبي السرح قائد القوات الإسلامية الذي هزم في دنقلا ورجع باتفاقية النصر فيها لأهل الأرض ولا إلى الهجرات والانسياب البشري من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال عهود الأزملت والقهر والتعمير السياسي حتى يومنا هذا.

لا أريد أن أعدد الأقباط السودانيين الذين ينتمون إلى أسنا وقنا والمنيا ونقادة وغيرها من مدن وقرى صعيد مصر ولكنني أود أن أشير إلى بعض الأسر ذات الأصول المصرية في المجتمع العاصمي (الخرطوم / أم درمان / الخرطوم بحري) والتي لعبت ومازالت تلعب دوراً أساسيًا وفعالاً في كل مناشط ومناحي الحياة السودانية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بجوانبها المختلفة وفي كل الأحزاب وألوان الطيف السودانية معارضة أو حكومة، حركة وطنية أو مشايعة للإدارة البريطانية. وهذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر :

آل أبو العلا / آل عبدالمنعم / آل القباني / آل أبو رجيلة / آل أبو سمرة / آل النداف / آل الضوي / آل البريقدار / آل حميده / آل السليني / آل هلال / آل أبو سبعة / آل هيبة / آل جبوره / آل أبو عطية / آل الكنزي / آل العقاد / آل زمراوي / آل بركة / آل أبو قصيصة ، آل ثابت / آل طنطاوي / آل السراج / آل أبو حطيبه / آل الطرابيشي / آل أبو مرين / آل المطبعجي / آل الروبي / آل سعد البخشونجي (حلويات سعد) / آل السروجي / آل الإسكندراني / آل الخراساني / آل الحلاب ، آل المحلاوي ، آل النمسى ، آل الجندي / آل الجزلي ، آل الهواري / آل الصراف ، آل المنشاوي / آل الحناوي / آل الحجاز / آل الجاز / آل الشناوي / آل الداروتي /

آل الكردي / آل العرمني / آل الشلالي / آل المحلاوي / آل الربعة / آل النجار / آل النحاس / آل لطفي / آل كاشف / آل الأشقر / آل البارودي / آل الباروني / آل المغربي / آل السلاوي / آل شدو / آل خاطر / آل وصفي / آل شانتير / آل مشعال / آل أبو غالب / آل القزاز / آل العتباني / آل العجباني / آل قناوي / آل المنياوي / آل الدمياطي / آل إمبابي / آل سليم / آل هريدي / آل بني القندلابي / آل قنديل / آل الحجاري / آل شتوي / آل أبو سعدة / آل أبو طبلية / آل شلقامي / آل الليثي / آل عزوز / آل رمضان / آل باشات / آل الطوبجي / آل أبو عموري / آل البصيلي / آل الجلاب / آل الخطاب / آل رضوان.

وغيرهم بالإضافة إلى الأسر القبطية.

هذه الأسر معظمها إن لم تكن كلها موجودة منذ دخول محمد علي للسودان أي في الفترة من بعد ١٨٢١م وقليل جدًا الذي جاء بعد ١٨٩٩م. وقد تزوج المهدي من بين زوجاته الـ ٦٢ زوجة (حسب تعداد حفيدته نوار أبنه أنعام عبدالرحمن المهدي في رسالتها لجامعة بيرجن النرويجية عن " النساء السودانيات في المهدية " إحدى عشر مصريات هن :

فاطمة عبدالرحمن حجازه من قرية حجازة قرب أسنا وزنوبة خورشيد كاشف وبتول يوسف كراده وآمنة محمود أبو السعود وآمنة أبوبكر الجركوك وفاطمة حسن السمار وزينب البهنساوي يتول القباني وزينب يوسف باشا الشلال، حرم بدران وزنوبة الميناوية وهي تاجرة مصرية وتزوج الخليفة عبدالله وبقية خلفائه وأصحابه عدد من المصريات واختلطت هذه الأسر بالتزاوج مع الأسر السودانية أخذًا وعطاء فحدث تمازج وامتزاج.

خاتمة

أن تستعمل الصحافة ألفاظًا أو كلمات أو حتى اصطلاحات تنم عن عدم الفهم والإدراك فهذه سمة أهل الصحافة .. وأن يقوم أو يكتب أو يستعمل الساسة والمنتسبين والملاعبين من السياسيين مصطلحات تاريخية في غير مكانها بقصد أو بعدم فهم أو بتلاعب بالألفاظ أو بجهل وجهالة فهذا كله مقدور عليه ولكن ما هو مؤلم ولا يغفر أو يغتفر أن يجيء الجهل من مؤرخ أو باحث في التاريخ لا يصححه أستاذه أو من مدرس أو معلم للتاريخ يحمل الدكتوراه ويجهل الطلاب من جيل الغد بأفكاره الجاهلية العمياء فهذا ما لا نقبله ونرفضه ونـدينه رضي من رضـى وغضب من غضب فتاريخ شعب وادي النيل ملكًا لشعبه ولمؤرخيه الشرفاء لا للمرتزقة الفكر وغوغائية المقال والجربندية والكمسنجية (الجربندية والكمنجية كلمات تركية تعني الأولى الجاهل الفهلوي والثانية السمسار في كل شيء استعملناهم لزوم المكان والزمان في التاريخ).

* * *

(١) كتابه : الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري الذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب تحت إشراف عبدالعظيم رمضان والذي قدم الكتاب.

"مركزية محمد علي الإدارية
وأثرها على وضعية نفوذه في شبة الجزيرة العربية
كجزء من مشروعه السياسي "

د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم

كان إرسال محمد علي جيوشه إلى شبه الجزيرة العربية، بناء على تكليف الدولة العثمانية له باسترداد الحرمين الشريفين من يد آل سعود، وكان نجاح محمد علي في تحقيق هذا الهدف عاملاً أساسيًا من عوامل تفكيره في ضم شبه الجزيرة العربية إلى دولته، ولذا كان توسعه في حروبه في قلب الجزيرة وشرقها وشمالها، بل وقد مد نفوذه إلى اليمن، واستطاع بعد سقوط الدرعية أن يضم معظم أجزاء شبة الجزيرة العربية إلى نفوذه[١] وعمد إلى ربط هذه المناطق بإدارته في القاهرة واتبع أسلوب المركزية الإدارية الشديدة في حكمها، وإن كان نظام الحكم الذي وضعه لمناطق شبه الجزيرة العربية، يستكمل أجهزته الإدارية والمالية والقضائية ظاهريًا، فإن هذه الأجهزة كانت عبارة عن أدوات تابعة له في القاهرة، لتنفيذ أوامره وقراراته التي تقوم طبقًا لفلسفته في الحكم على إظهار سطوة الحكومة.

مظاهرة مركزية محمد علي الإدارية في شبة الجزيرة العربية :

أولاً : تقيد حكومة الحجاز بأوامر محمد علي وقراراته واقتصار مهامها على تنفيذ هذه الأوامر والقرارات :

عمل محمد علي تعيين حاكم على الحجاز، وهو في نفس الوقت قائد عام القوات المتواجدة في شبة الجزيرة العربية، وكان لهذا الحاكم حق الإشراف على المحافظين الآخرين، وحكام المناطق، والإشراف على قادة القوات المتواجدة في شبه الجزيرة العربية، إلى جانب إشرافه على الجهاز الإداري والشئون المالية[٢]، وكان الذي يشغل هذا المنصب في الغالب، أحد أقرباء محمد علي، أو أحد الأشخاص الذين يثق فيهم

ثقة كاملة، ومع كل هذه الصلاحيات الظاهرية، الممنوحة لحاكم عام الحجاز، فإنه كان عبارة عن منفذ للخطط والأوامر التي تصله من محمد علي في القاهرة، ليس إلا، دون أن يكون له حق الاعتراض على أي منها، بل إن محمد علي كان يرسم لحاكم عام الحجاز الأسلوب الذي يجب أن يسير عليه في إدارته وأنه يجب أن يعرف معرفة تامة " سبل الحكومة، وأصول الرياسة والسياسة(٣)، وأن يدقق النظر تدقيقا تاما في معرفة الأمور، والوقوف على دخائلها، وأن يستعمل الشدة في المواقف التي تستوجب معالجتها استعمال الشدة، وكان يأمره بأنه يجب عليه " التنقل من مكان إلى مكان، ورؤية ما تجب رؤيته، والتفرس فيما تجب فيه الفراسة"(٤).

ويذكره دائما بأن يسير في إدارته على النظرية القائلة : " كما أن الشد والجذب من أحوال المصلحة، وكذلك القلع من مقتضياتها، وهذا مطلوبنا منكم"(٥) وكان يحرص دائما على أن يسلم لحاكم عام الحجاز عند تعيينه القواعد العامة التي يجب أن تسير عليها إدارته للأمور، ولا يخالفها، وكان يطلق علي هذه القواعد اسم " القانون " الذي يلتزم به ويظل بعد تسلمه عمله على إتباعه في " أداء واجباته في زمني القتال والسلام متبعا القانون الذي سلم إليه "(٦). وكانت أوامره تصل إلى حاكم عام الحجاز متتابعة تنبهه بأن من مهامه الأساسية إظهار سطوة الحكومة وقوتها، وأن ذلك لا يتأتى إلا عن طريق الشدة في المواضع التي يجب فيها استعمال الشدة، لأن القبائل العربية البدوية، لا تخشى شيئا سوى القوة وتستهين فيما عدا ذلك، ويقول ذلك وكأنه مدرك لطبيعة هذه القبائل العربية، قائلا : " إن طوائف العربان، لا تخضع لغير الحاكم القوي، وليس للمرونة (المسكنة)، أي تأثير عليهم "(٧). ونجده في موقف من المواقف، يأمر أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز بأن يقوم من طرفه : " بطواف تلك الحوالي، والمرور فيها، بضم عربانها إليكم، لأنكم إذا سرتم على هذا النهج، وبذلتم المستطاع، في إدارة تلك الأنحاء، والتصرف فيها فإن العربان يدخلون في حوزتنا على الصورة المبتغاة، وبذلك يكون فهمنا واكتسابنا كثيرا من الأشياء أمرا بديهيا،

فإياكم وأن تدعوا في هذا الصدد أمرًا مساغًا للتهاون ولا جوازًا للتراخي"[٨]. وهكـــذا نراه يحرك حاكم عام الحجاز حسب أهوائه وإرادته وكما يريد، ويرسم لـــه الخطـــط التي يجب عليه أن ينفذها ويسير عليها، وليس كما يريد حاكم عام الحجاز كما يـــرى على أرض الواقع أمامه.

كان محمد علي يرى أن جمع الضرائب – والتي أطلق عليها اسم الزكاة حتى لا تنفر القبائل العربية منها – أحد الركائز الأساسية لسطوة الحكومة وازدهار قوتـــها، ولما عجزت بعض القبائل عن الوفاء عما يطلب منها، فإن محمد على تمسك بجمـــع الضرائب كاملة، وأصر على أن يستعمل عماله الشدة في جمعها، لإظـــهار ســـطوة الحكومة، حتى لا تنظر القبائل إليها نظرة ضعف ولم يضع اعتبارًا لســـوء أحـــوال بعض القبائل الاقتصادية، وكان موقفه المتشدد هذا، واستعماله القسوة[٩] في جمعـــها، أحد الأسباب الرئيسية وراء تمرد عربان المدينة، ومع كل ذلك فـــإن محمـــد علـــي، ومركزيته الشديدة في الإدارة لم يترك لحاكم عام الحجاز ومحافظ المدينة الحرية فـــي معالجة أمر هذه التمردات بأسلوبهما، وهما في ميدان التمرد، وإنما كان يرسم هو من القاهرة الخطة، ويأمرهما بالسير عليها، ويتابع تنفيذها بدقة تامة، ويقوم هـــو بتنفيـــذ جزء من الخطة التي يراها، فنراه يرسل بنفسه مباشرة إلى شيوخ عربان : عـــنزة، وحرب، ومطير، وجهينة، القاطنين حول المدينة مراسيم يرغبهم وعربانهم فيها فـــي الأنطواء تحت لواء الطاعة، وأن الذين يفعلون ذلك منهم، سوف يعود عليهم الخـــير العميم ويتوعد المعاندين والمكابرين بأنهم سوف يصابون بالندم والخذلان، " فـــالذي يخدم بابنا بالصداقة وحسن الاستقامة، لا يضيع سعيه، ويرى مكافأته "[١٠]. وفي نفس الوقت نراه يرسل إلى حاكم عام الحجاز، يطلب منه أن يغض الطرف، بعض الوقـــت عن تمردات عربان المدينة وأن يعطيهم الأمان، استجلابًا لقلوبهم قائلاً : فـــإن مـــن لوازم إدارة الممالك والعناية بالرعية، أن يغمض الطرف عن تأديبهم وتربيتهم، وبناء على هذا أخر الآن تربيتهم، وأعلم محافظ المدينة المومي إليه أيضًا بهذا القرار، على

هذه الصورة[١١] وذلك ليرى ثمرة تعامله وديًا مع شيوخ القبائل المتمردة، ولكن أسلوبه القائم على الترغيب فشل، ولم يستطيع حاكم عام الحجاز أن يتصرف حسب رؤيته للواقع، لارتباطه بالمركز في القاهرة، فهو ينفذ ما يأمره محمد علي بتنفيذه، وإزاء هذا الموقف استغل خطر تمردات العربان، فأرسل يبلغ القاهرة، بما وصل إليه الأمر، فأرسل إليه محمد علي يأمره أن يقوم بإبراز " الحكمة وسطوة الحكومة، وإلى السير والنظر إلى كل محل والطواف والإشراف على كل ناحية، كما نطلب أن تأخذوا على عاتقكم وأن تلينوا مع الذين يؤدون زكاتهم المقررة وتستميلوهم، وأن تربوا من يعاندون، بأن تأدبوهم، وتجبون منهم بضعة أضعاف زكاتهم، وأن لا تنظروا في هذا الصدد إلى ما يقوله زيد وعمرو، بل قصوا – كما يفعل الحكام – طيلسان الحكومة بنفشكم، خيطوه بنفسكم[١٢]، وبدأت أوامره تصل متتابعة إلى حاكم الحجاز، تحثه على اتباع أسلوب الشدة والقسوة مع العربان "باسم سطوة الحكومة"[١٣] على حد تعبيره، دون أن يترك له حرية التصرف، لأنه كان يعتقد أن العربان لا يخضعون لغير الحاكم القوي، وليس للمرونة عليهم أي تأثير.

هكذا كان حاكم عام الحجاز وكل الأجهزة التابعة له، مرتبطًا ارتباطًا جذريًا بمحمد علي في القاهرة، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بأمر القاهرة. ولا يضع تخطيطًا مغايرًا لما يأتي من القاهرة، وهذا ما كان يريده محمد علي، ويعمل عليه لإحكام مركزيته على كل ما يتبع إدارة الدولة العليا.

ونتيجة لهذه المركزية استغل خطر تمردات العربان، وانفجرت الثورة العسكرية ضد محمد علي، وهنا نجده يرسل إلى حاكم عام الحجاز يأمره أن يتحرك على رأس قوة للقضاء على فتنة هؤلاء الثوار، وأن يؤمن تلك الجبهات، وأن يعالج الموقف : " بحكمة، كما يجدر بالحاكم، حتى لا يفلت زمام الأمور، في السيطرة على الموقف سيطرة كاملة "[١٤].

ازداد تمرد عربان الحجاز واتسعت دائرته، فيرسل محمد علي إلى أحمد باشا

يكن، حاكم عام الحجاز، يأمره أن يخرج بنفسه : " وأن تكسروا من يلزم كسرهم، وأن تنظموا شغلكم، وتضعوا مصلحتكم في أصولها، وأن تخلصوا الحوالي المذكورة، من أهل الفتنة والفساد، وأن تطالعوا مكاتبتنا الأخرى المرسلة في طي هذه المكاتبة، وأن تفكروا فيها جيدًا، وتطبقوا عملكم على مقتضى ذلك، وعندما يكون معلومًا لكم أن ذلك مطلوبنا، يلزم صرف المقدور على الوجه المحرر"[١٥]، ومع ذلك لما ازداد تمرد العربان اتساعًا بسبب انشقاق الشريفين : يحي بن سرور، وعبدالمطلب بن غالب، ألقى مسئولية ذلك على حاكم عام الحجاز، وأرجعه إلى تهاونه، وبدأ يتبع معه أسلوب التهديد، إذا لم ينجح في القضاء على هذه الفتنة، فإنه سوف يرسل ابنه إبراهيم للقضاء عليها، وفي هذه الحالة سيكون جزاؤه، إما بالقتل، أو بالسجن في قلعة أبي قير، حيث أن ألقضاء على هذه الفتنة أمر لا بد منه، حتى ولو أدى ذلك إلى حضوره هو بنفسه إلى الحجاز لإنهائها " ولا ندع هذا الأمر، ولا نتخلى عنه إلى حد تنظيمه، وحتى إذا لزم أذهب أنا أيضًا بالنفس "[١٦]، وأمره أن يخاطب الشريفين المنشقين في أمر إعلان طاعتهما وسفرهما إلى مصر سلمًا، فإذا رفضا فيجب أن يعمل في : " القبض عليهما جبرًا وترسلهما، وإذا قلتم إني لا أقدر أن أقوم بذلك نحوهما فأقيدوا الكيفية إلى طرفنا بسرعة، لأجل إرسال من يقدر أن يقوم بذلك "[١٧].

هكذا كان أسلوب محمد علي مع قمة نظامه في شبه الجزيرة العربية، حاكم عام الحجاز، الذي كان عليه أن ينفذ ما يؤمر به من القاهرة، ولا يخالف ذلك مهما كانت الأحوال، بل وكان يهدده في أحيان كثيرة إذا ما ظهر منه أي عجز في تنفيذ هذه الأوامر، وظل هذا حال الإدارة في شبة الجزيرة العربية، تنفذ أوامر محمد علي دون مخالفة حتى انسحاب قواته من تلك الأنحاء سنة ١٨٤٠م.

فماذا كان أسلوب محمد علي مع القوى المحلية التي استعملها كأدوات له ؟

ثانيا : جعل القوى المحلية مرتبطة بفلك مركزيته :

كانت القوى المحلية التي استعملها محمد علي كأدوات لحكمه ومركزيته منحصرة في شريف مكة وبعض الأشراف الموالين، وبعض مشايخ القبائل، وبعض أفراد أسرة بني خالد، وسنناقش تعامله مع هذه الفئات.

أما بالنسبة للأشراف : فإن محمد علي نجح في جعلهم يدورون في فلك مركزيته، فقد كان شريف مكة عند وصول قواته إلى أرض الحجاز، الشريف غالب ابن مساعد، وكان محمد علي قد وقف على أسلوب الشريف غالب الذي سار عليه في تعامله مع القوى المتصارعة، كما أدرك أن أسلوب الشريف غالب هذا : " كان من أسباب استعمال الدعوة الوهابية، وأن بقاءه في مركزه، قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها إلى غايتها، فأمر بالقبض عليه"، أثناء وجوده بمكة في ذي الحجة ١٢٢٨هـ/ديسمبر ١٨١٣م، وصادر أمواله، وأرسله هو وشريف جدة إلى القاهرة، ومنها أرسل إلى إستا نبول حيث أرسلا إلى سلانيك، وبقيا فيها حتى توفى الشريف غالب سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م[١٨] وعين بدلا منه في شرافة مكة الشريف راجح، لكن هذا الشريف خشي أن يكون مصيره كمصير سلفه، فهر في غفلة محمد علي ومعه أتباعه، وانظم إلى جانب القوات السعودية، وتأثر الكثير من القبائل بموقف الشريف راجح، مما أحرج قوات محمد علي[١٩] مما جعل محمد علي يلجأ إلى إذكاء روح الصراع بين الأشراف بعضهم بعضا، فقد عين الشريف يحي بن سرور شريفا لمكة ولكنه في نفس الوقت أعطى للشريف شنبر بن مبارك المنعمي بعض اختصاصات شريف مكة، فقد فوضه في شئون البادية لأنه كان : " مشهورا بالعقل والديانة وحسن التدبير، فصارت تلك الأمور كلها بيده"[٢٠] وكان هذا التفويض بإيحاء من الشيخ أحمد تركي، الذي كانت تربطه بمحمد علي صداقة قوية، كما فوض بعض الأشراف الآخرين، شئون الحكم على بعض المناطق الحجازية، واليمنية الأخرى، أي سلب شريف مكة الكثير من اختصاصاته، ورأى الشريف يحيى بن سرور شريف مكة

أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز قرب إليه الشريف شنبر بن مبارك المنعمي، وفوض : " إليه أكثر من أحكام الأشراف والعرب، وما يتعلق بهم، فاستحكمت العداوة بين الشريف يحي بن سرور، والشريف شنبر بن مبارك، وحصل بينهما معارضات ومناقشات في قضايا كثير "[٢١] فقام الشريف يحي بن سرور بقتل الشريف شنبر بن مبارك، عند باب الصفا بالحرم المكي، فقام محمد علي بعزل الشريف يحي بن سرور وعين بدلا منه الشريف محمد بن عون[٢٢]، مما أثار تمرد الأشراف ضد حكم محمد علي، حيث وحد الشريفان يحي بن سرور وعبدالمطلب بن غالب جهودهما ضد حكم محمد علي، لمهاجمة مكة وطرد قوات محمد علي منها واستجاب لتمردهما عدد كبير من القبائل العربية[٢٣]، على إثر نشوب هذا التحرر أدرك محمد علي أن الأمر يحتاج إلى إتباع أسلوب الحزم والشدة، فسارع بإرسال الأوامر المشددة إلى أحمد يكن، حاكم عام الحجاز، بأنه يجب عليه أن يواجه الموقف بالأسلوب الحازم الجاد،دون تهاون أو تراخي، مبديا استعداده إلى المجيء بنفسه لمواجهة هذا الموقف، طالبا منه أن يتبع مع الشريفين أسلوب اللين أولا، في أمر تأديبهما، فإذا استمر في عصيانهما وتمردهما ورفضا السفر إلى مصر، فيجب عليه أن يعمل في : " القبض عليهما جبرا وترسلهما، إذا قلتم إني لا أقدر أن أقوم بذلك العمل نحوهما، فأفيدوا الكيفية إلى طرفنا بسرعة، لأجل إرسال من يقدر أن يقوم بذلك "[٢٤]، وكان محمد علي يقدر خطورة تمرد هذين الشريفين، لما لهما من مكانة كبيرة بين الكثير من القبائل العربية، لذا أزعجه تمردهما وقرر القضاء عليهما حتى لا يؤدي تمردهما إلى نتائج قد لا تحمد عقباها، وواضح تماما أن محمد علي كان يخطط للقضاء على تمرد الشريفين من القاهرة، ولم يترك لحاكم عام الحجاز، وقائد القوات في الجزيرة العربية، ثمة حرية في التصرف لمعالجة هذا التمرد، وواضح من رسائله إلى حاكم عام الحجاز أنه يطلب منه طبقا لأوامره التي يرسلها له، وهذا منتهى المركزية الشديدة. وفي نفس الوقت عمل أن أمر الأشراف بيده، دون غيره، حتى يظلون يدورون في فلك سياسته،

فطلب من السلطان العثماني أن يمنحه فرمانا يعطيه الحق في اختيار الشريف الذي يريده، ويتعاون معه، وأن يصدر الفرمان السلطانى الخاص بتعيين الشريف الجديد، خاليا من اسم الشريف الجديد الذي يقوم محمد علي بوضع اسم الشريف الذي يدرك أنه سيكون تابعا له فيه، وإن كان ذلك يخالف نظام الشرافة، وقانون الأشراف، ولكن محمد علي عمل على أن يكون له نفوذ كبير على الأشراف، وبهذا الفرمان الذي أعطى لمحمد علي حق اختيار الشريف أصبحت إمارة مكة إمارة وهمية في عهده، ذات فاعليات محدودة، وأصبح شريف مكة الذي يعينه محمد علي من التابعين له، بعد أن كان له نفوذه المؤثر(٢٥). ومن هنا عمل محمد علي جادا في القضاء على تمرد الشريفين يحي بن سرور، وعبدالمطلب بن غالب، وطلب من حاكم عام الحجاز أن يطبق أوامره بدقة قائلا له : " أن تخرج بالنفس بالاتحاد مع الشريف المشار إليه (الشريف محمد بن عون)، وأن تكسروا من يلزم كسرهم، وأن تنظموا شغلكم، وتضعوا مصلحتكم في أصولها، وأن تخلصوا الحوالي المذكورة من أهل الفتنة والفساد، وأن تطالعوا مكاتبتنا الأخرى المرسلة في طي هذه المكاتبة، وأن تفكروا فيها جيدا، وتطبقوا عملكم على مقتضى ذلك، إن ذلك مطلوبنا، يلزم صرف المقدور على الوجه المحرر (٢٦)، أي أنه يطلب منه أن يتعاون مع الشريف محمد بن عون، وأن يفهم تعليماته جيدا، وأن ينفذه ما جاء فيها على الطريقة التي رسمها له وحررها إليه، دون تغيير، وهذه منتهى المركزية.

ثم تواصلت متابعة الوضع في الحجاز، ووصل به الأمر إلى تهديد حاكم عام الحجاز، ونسب إليه تهاونه سبب استفحال الفتنة، وألقى عليه مسئولية ذلك الحدث لإهماله، وزاد في تهديده، بأنه إذا لم ينجح في القضاء على هذه الفتنة، فسوف يرسل ابنه إبراهيم للقضاء عليها، وفي هذه الحالة سيكون جزاؤه إما القتل، وإما السجن في قلعة أبي قير، فالقضاء على هذه الفتنة أمر لا بد منه، حتى إذا أدى الأمر إلى حضوره بنفسه لإنهائها : " ولا ندع هذا الأمر، ولا نتخلى عنه إلى حد تنظيمه، حتى

إذا لزم أذهب أيضا بالنفس " وعليه أن يعمل في: "القبض عليها جبرا وترسلها"[٢٧] وفي نفس الوقت الذي كان يتشدد فيه مع أحمد باشا يكن في أمر معالجة تمرد الشريفين، فإنه خاطب كلا من الشريف عبدالمطلب بن غالب، والشريف يحي بن سرور، وطلب منهما أن يستسلما ويأتيان إلى القاهرة، وألا ينصاعا إلى أقوال الذين يغرونها حتى لا تقفل في وجهيها سبل العفو والزحمة، بناء على أوامر السلطان العثماني، وحذرهما أن عدم إطاعتهما الأوامر سيكون سببا في مجابتهما والقضاء عليهما وعلى اتباعها، فإذا عجزت قواته عن القيام بهذا العمل، فسوف يتولى مسئولية ذلك بنفسه، حيث لا يصعب عليه شئ "[٢٨]، ولما فشل أسلوبه هذا مع الشريفين طلب من أحمد باشا يكن التصدي لهما، والقضاء على حركتهما بأي سبيل، وأمره أن يتخذ الإجراءات الصارمة، لصد هذه الحركة، وألا يخيفه التفاف العربان : " حول الشريف عبدالمطلب لأن طبيعة العربان سريعة التغير، فقد، جرب مزاج طائفة العربان، تلتهب بشدة النار هياجهم، في ابتداء الأمر، ولأول وهلة، ثم تنطفئ عقب ذلك كنار التين "، لأن العربان إذا : " خوفت عيونهم مرة واحدة، لا يتمكنون من الاجتماع مرة أخرى، في محل واحد فإذ ذاك، لا يفرج عنهم، ويقضى عليهم في المحل الذي يكونون فيه "[٢٩] وعليه أن يتبع الأمور بدقة : " كلما سنحت فرصة، من غير تسوع ولا استعجال"، وحتى يضمن لعمله هذا النجاح، لا بد من أن يتشاور مع أمراء الألاليات، وسائر الرؤساء وأن يدرس معهم الطريق الأفضل لإخماد فتن الشريفين والعربان الذين يتبعونهما، كما يجب عليه أن يتشدد في معاملة المعلمين والمدربين، وأن يجبرهم أن يكونوا دائما مع الجنود "[٣٠].

ثم أرسل إلى أحمد باشا يكن بأن يقوم هو ومعه الشريف محمد بن عون، بتعقب الشريف عبدالمطلب بن غالب، والشريف يحي بن سرور، وعقب وألا يمكناهما من الثبات في الطائف، وسائر المحلات التي يحاولان الاستقرار فيها، وأن يعملوا السيف فمن يظفرون بهم من العصاة وإبادتهم، وقام أحمد باشا يكن بتنفيذ هذه الخطة،

وتمكنت القوات المتعاونة فعلا من حصار الطائف التى وقعت فى أيديها، وأجبرت العربان الذين كانوا يوجدون بجوار الطائف وترتب على إعلان طاعتهم أن أعطى احمد باشا يكن الأمان للشريف يحي بن سرور، ولكنه تمكن من الهرب، فاستطاعت القوات أن تلقي القبض عليه ومعه ابنه الصغير وأبناء أخيه ووضعوا تحت الحراسة في قصرهم الكائن بمكة، واستمروا في مكة فترة[٣١]، ثم رؤى أن بقاءهم في مكة، سوف يكون سببا في : " اختلال أمور الأقطار الحجازية " فأرسوا إلى مصر عن طريق البحر، حيث سافروا في سفينة من جدة إلى القصير، بعد أن وفرت لهم كل مستلزمات الحياة الكافية لهم حتى وصولهم إلى مصر، وكان ذلك بناء على طلب محمد علي الذي أرسل إلى أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز، قائلا له : " نطلب منكم أن ترسلوا الشريف يحي بن سرور وأبناء أخيه إلى مصر فمأمولنا لدى إحاطة علم حميتكم بذلك، بمنه تعالي، أن تهتموا بإنجاز أمر إرساله إلى هذا الطرف"[٣٢] فنفذ ما أمر به.

ثم بدأ يتابع أمر الشريف عبدالمطلب بن غالب الذي هرب إلى جهة عسير ملتجأ إلى "علي بن مجثل " قائلا : " ما هي الفائدة التي تنوبه من فراره، وتسرده على هذا الوجه، هب أنه التحق " بعلي بن بمثل " أليس هذا الرجل من جملة العربان الذي تغلبوا على الشرفاء، وأذلوهم ونزلوهم منزلة والعبيد، ألست أنا الذي أذللت هؤلاء العربان، وقضيت على نفوذهم"، ثم كتب إلى أحمد باشا يكن بأمره بشأن الشريف عبدالمطلب بأنه يجب عليه : " ان يصادر كافة أملاكه وإيراده، وانه ينفذ أمري حالا فمن الظاهر أن عمل عبدالمطلب، لا يعود بفائدة على أقربائه وتعلقاته، بل يورثهم ضررا، أما إذا قدم الطاعة، وجاء إلى هذا الجانب، فلا ينال إلا التجلة والاحترام وحسن الاستقبال"، ثم أبدى استخفافه بعلي بن مجثل، بأنه " ليس رجلا، ذا بطش وقوة لدرجة أن يحتمي به عبدالمطلب"[٣٣]، ولكن الشريف عبدالمطلب، حاول أن يحرز الإمارة على قبائل بني سعد، الموجودين في جهة الطائف بالحجاز، والإقامة في تلك

الجهة بمعرفة على بن مجثل شيخ عسير، فأزعجت المحاولة محمد علي الذي أمر أن تتحرك القوات من مكة والطائف، والقضاء على المحاولة في مهدها، وقبل أن تخـوج إلى حيز الوجود، وفي نفس الوقت طلب من الشريف يحي بن غالب، المقيم بالقاهرة، أن يرسل إلى أخيه عبدالمطلب يحثه على الرضوخ إلى الطاعة، ويطلب منه المجـيء إلى مصر " للمحافظة على كرامته وشرافته"[٣٤] وأبدى محمد علي استعداده أن يرسل له كتاب الأمان، أما في حالة عناده، فإنه سوف يستمر في مقاومته حتى يقضي علـى فتنته، واستمر محمد علي يرسم الخطط للقضاء على فتنة الشريف عبدالمطلـب بـن غالب، حتى تمكن من إنهائها.

أما بالنسبة لتعامله مع بعض مشايخ العربان، فإنـه قـد أدرك بعـد سـقوط الدرعية، أن الزعامات القبلية، تعمل على إعادة نفوذها، وبدأ كل منها يثأر لما كان قد حل به في السابق، ولذا عمل جادا على أن يجذب شيوخ القبائل إلى حكمه، واستمرار ولائهم له، فطلب من ا حمد باشا يكن أن يتفرغ لتنظيم " أمور العربـان الآخريـن، والنظر في شئونهم "، وإمعانا في استمالتهم، قام بمراسلة كل من المشايخ: مشعان بن هزال شيخ عربان عنزة، وواصل بن غانم شيخ عربان حرب فـي أرض الجديـدة، فيصل المطير شيخ عربان مطير، وحمد بن سبيع شيخ عربان جهينة في الجديدة [٣٥]، وخصص لهؤلاء المشايخ وأخوتهم " رواتب عينية شهرية، ومرتبات نقدية سـنوية، وكساوي، وكانت أوامره بأن تصرف لهم تعييناتهم.

وتقيد أسماءهم في دفتر الشونة، كما أصدر أمره إلى ناظر الخزينة بأن يصرف لهم مرتباتهم النقديةالمعينة [٣٦] . " ومع كل هذه الوسائل فإن مشايخ هذه القبائل كثيرا ما كانوا يضيقون ذرعا بمركزية محمد علي الشديدة، ويعلنون تمردهم، ثم يعـودون إلى الولاء، ثم يعودون إلى التمرد، وظلوا على هذا الوضع غير المستقر إلى حيـن انسحاب قواته من شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠م.

أما تعامله مع بني خالد، الذين استردوا نفوذهم على إقليم الاحسـاء بزعامـة

محمد بن عريعر وأخيه ماجد، وبدأ بنو خالد يتدخلون في شئون إقليم نجد، وتم الاتصال بين بنو خالد ومحمد علي، واعتبرهم أتباعه[٣٧]، ولكن نجاح الإمام تركي ابن عبدالله في إقامة الدولة السعودية الثانية، وتوحيد إقليم نجد، أفشل خطة محمد علي هذه، حتى تمكن قائده خورشيد باشا من فرض سيطرته على الاحساء ١٨٣٩م. وأعاد شيوخ الاحساء والقطيف إلى بلادهم التي أصبحت تحت حكم قوات محمد علي المباشر، وتبع الإقليم إلى حكم محمد علي المركزي.

*** أثر مركزية محمد علي على وضعية نفوذه في شبة الجزيرة العربية كجزء من مشروعه السياسي :**

كان للمركزية الشديدة التي أتبعها محمد علي في حكمه لمناطق شبة الجزيرة العربية، أثر سيئ على حكمه في هذه المناطق، وكان من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل استمرار سيطرته على هذه المناطق، فمنذ بداية حكمه المركزي، وهو يواجه تمردات القبائل العربية المختلفة، وفي أكثر منطقة في آن واحد، ففي الوقت الذي كانت فيه تمردات عربان الحجاز على أشدها، كانت عسير تشهد ثورة ضاربة مضادة لحكم محمد علي هناك، مما أربك حكومة الحجاز، والقوات التابعة لها، والتي كانت مقيدة في تحركاتها بخطط وأوامر محمد علي، هذا بالإضافة إلى خروج إقليم نجد وشرقي الجزيرة العربية من حوزة محمد علي، ومع كل هذه التمردات فإن محمد علي ظل مصرا على مركزيته في إدارة أمور هذه الحركات الخارجة عن الطاعة، مما شل حركة وتصرف حكومة الحجاز، وجعلها عاجزة عن مواجهة هذه الحركات المضادة[٣٨]، ولم تكن تمردات عربان الحجاز وعسير، هي العقبة الوحيدة التي واجهت حكومة الحجاز، وإنما واجهت هذه الحكومة عقبات عديدة، كان من أبرزها، ثورة بعض جنود قوات محمد علي ذاتها، والذين كانت حكومة الحجاز تعتبرهم الأداه المنفذة لأوامرها، فقد قام جماعة من رؤساء الجنود غير النظاميين، بإعلان تمردهم، وعدم رضاهم عن سيرة الحكومة فيهم، وتبعهم الجنود غير النظاميين الذين كانوا في

معيتهم، مستغلين الظروف التي كانت تمر بها حكومة الحجاز آنذاك، بل والظـــروف التي كان يمر بها حكم محمد علي في المنطقة العربية بأجمعها، واتسع نطـــاق هــذه الثورة، وازداد خطرها، وقد تمكنت الدولة العثمانية التي كان محمد علــــي يخــوض الحروب ضدها في بلاد الشام وأسيا الصغرى، أن تتصل عن طريق واليها في بغداد، بأحد زعماء الجند غير النظاميين وهو محمد أغا، الذي عرف باسم تركجـــه بيلمـــز Turki Bilmaz، الذي عرفت الثورة باسمه، أن يوسع نطاق الثورة ضــــد حكومـــة الحجاز، والقضاء على حكم محمد علي في شبه الجزيرة العربية[٣٩]، وهكــذا واجـــه حكم محمد علي المركزي التمرد حتى من جنوده الذين أرسلهم إلى شـــبه الجزيـــرة العربية، وكل هذه التمردات شكلت عقبات أمام حكم محمد علي في شـــبة الجزيـــرة العربية، مما أدى إلى فشله في السيطرة التامة على شبة الجزيرة العربية، حتى انــــه حينما تم التآمر الدولي ضد دولته، وأجبر على سحب قواته من هناك، وكانت أوامره، أن يتبع القادة الحرص في سحب القوات ومعداتها، حتى لا تتعرض للأذى من جـانب العربان الذين يكنون لها العداء[٤٠]. وما ذلك إلا نتيجـــة لممارســـات محمـــد علـــي المركزية التي أورثت في نفوس هؤلاء العربان البغضاء، وأدت إلي فشل حكمه.

الهوامش

(١) مما لا ريب فيه أن وصول قوات محمد علي إلى شبه الجزيرة العربية، ثم ذهابه هو بنفسه إلى الحجاز، كان العامل الأساسي الذي فتح فى ذهنه فكرة مشـــروعه السياسي، وإقامة دولة تضم المشرق العربي، وتحت سيادته وسيادة أســرته مــن بعده، ومن هنا كان ربط شبة الجزيرة العربية بإدارته في القاهرة.

(٢) عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشبه الجزيرة العربيـــة، ط٢ دار الكتــاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٦م، ص٦٧-٩٨.

(٣) دار الوثائق القومية. دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة تاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـــ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٤) دار الوثائق القومية. دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة تاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـــ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقـــة (٥٠٧)، أمــر إلـــى محافظ مكة، بتاريخ ٥ جمادى الثانية ١٢٣٨هـــ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٨٤) من محمد علـــي إلى محافظ مكة، بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـــ / ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ ٩ ذو القعدة ١٢٣٧هـــ / ٢٨ يوليه ١٨٢٢م.

(٨) دار الوثائق القومية : نفس الوثيقة.

(٩) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦)، من محمد على إلى محافظ مكة بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٢٣٧هـــ / ٢٨ يوليه ١٨٢٢م.

(١٠) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثائق أرقام : ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧، مراسيم باللغة العربية، أرسلت إلى شيوخ عنزة، ومطير، وحـــرب، وجهينة.

(١١) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقتان برقم (٣٥،٣٨) من محمد علي إلى محافظي مكة والمدينة، بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٣٧ هـ / نوفمبر ١٨٢١م. ووثيقة (٧٨) من محمد علي إلى محافظ ينبع، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/٢٤ ديسمبر ١٨٢١م.

(١٢) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة رقم(٧٩) من محمد علي إلى محافظ مكة بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٨٢١م.

(١٣) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٣٢٦). سبق ذكرها.

(١٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٤) معية تركي، وثيقة (١٥٣)، من محمد علي إلى محمد بن عقيل بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٢٣٨هـ/١٣ أغسطس ١٨٢٣م.

(١٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٢١) معية تركي، وثيقة رقم (٥) من محمد علي إلى أحمد باشا يكن، بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٤٣هـ/٢٧ أكتوبر ١٨٢٧م.

(١٦) دار الوثائق القومية : دفتر قم (٣١) معية تركي، ص٥٢، وثيقة (٤٠) من محمد علي إلى أحمد باشا يكن، بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٢٤٣هـ/٢٠ نوفمبر١٨٢٧م.

(١٧) نفس الوثيقة.

(١٨) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥ – ١٨١٨م ط٦ دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ص٣٢٤.

(١٩) نفس المرجع، ص٣٢٥.

(٢٠) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٧٥) من محمد علي إلى محافظ مكة بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/٢٤ ديسمبر ١٨٢١م.

(٢١) نفس الوثيقة.

(٢٢) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشبة الجزيرة العربية، ط٢، مرجع سبق ذكره، ص١١٢.

(٢٣) نفس المرجع، ص١١٢.
(٢٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم(٢١) ص٥٢، وثيقة (٤٠) سبق ذكرها.
(٢٥) دار الوثائق القومية : محفظة (١١) بجربرا، وثيقة (٧٨) من محمد نجيب إلى محمد علي، بتاريخ ٥ ذي القعدة ١٢٤٢هـ/ ٣١ مايو ١٨٢٧م.
(٢٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، وثيقة (٥) سبق ذكرها
(٢٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٢١) ص٥٢، وثيقة (٤٠) سبق ذكرها.
(٢٨) نفس الوثيقة السابق.
(٢٩) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، ص٤٥، وثيقة (٦٣) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٤٣هـ/٢٠ ديسمبر ١٨٢٧م.
(٣٠) نفس الوثيقة.
(٣١) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، ص ٧٦، وثيقة (١١٧) من محمد علي إلى صالح باشا إلى الشام، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٤٣هـ/ ٩ مارس ١٨٢٨م.
(٣٢) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣١) معية تركي، وثيقة (١٨٥) من محمد علي إلى محافظ مكة، بتاريخ ٢٠ شوال ١٢٤٣هـ/٥ مايو ١٨٢٨م.
(٣٣) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣٥) معية تركي، وثيقة (٢٤٣)، من محمد علي إلى حبيب أفندي، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٤٣هـ/٢٦ مايو ١٨٢٨م.
(٣٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٣٥) معية تركي، ص٩٠ وثيقة (٢٦٦) من محمد علي إلى حبيب أفندي، بتاريخ ٢٢ ذي القعدة ١٢٤٣هـ، / ٥ يونيه ١٨٢٨م.
(٣٥) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثائق أرقام (٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧) مراسيم باللغة العربية، مرسلة من محمد علي إلى مشايخ القبائل.

(٣٦) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (١٠) معية تركي، وثيقة (٧٨) سبق الإشـــارة إليها.

(٣٧) دار الوثائق القومية : دفتر رقم (٤) معية تركي، وثيقة (١٥٤) من محمد علي إلى الصدر الأعظم، بتاريخ ٩ محرم ١٢٣٦هـ/١٧ أكتوبر ١٨٢٠م.

(٣٨) عبدالرحيم ، عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشـبة الجزيـرة العربيـة، مرجع سبق ذكره، ص٥ – ٥٣.

(٣٩) نفسه، ص١٧١ – ١٩١.

(٤٠) نفسه، ص١٢٧ – ١٢٩.



موقف محمد على من أهل الذمة فى الشام
(١٨٣١- ١٨٤٠)

د. لطيفة محمد سالم

جمعت بلاد الشام على أرضها التنوع العنصرى واللغوى والعقائدى، واحتلت الديانة مركز الصدارة، وربط الحقد والتنافس والنزاع بين طوائف السكان، وانطبع ذلك على أهل الذمة، الذين لاقوا بدورهم أنواعا من الاضطهاد على يد الولاة العثمانيين، فلم يتمكن المسيحيون من الحصول على مناصب مهمة أو وظائف عالية، ومنعوا من شرب الخمر، ومن الدخول للحمامات إلاَّ يومين فى الأسبوع، ومن ركوب المطايا إلاّ بطريركهم، كما فرض عليهم ارتداء الزى الأسود الطويل[١]. وبطبيعة الحال فإن اليهود بدورهم لم يسلموا من المعاملة السيئة.

ومع دخول الشام فى حوزة حكم محمد على عام ١٨٣١، تغيرت أحوال أهل الذمة هناك، إذ أُعلنت المساواة بين الأجناس والديانات، واستبعدت الفوارق القائمة، ومنحت الحرية الدينية، ونشر ذلك على الجميع وأُذيع، ونودى به فى الشوارع والأزقة[٢]. وترددت كلمات العدل والحق والتسامح فى مناخ مفعم بالفتن والتعصب، فأعطت الراحة والطمأنينة للشوام عامة ولأهل الذمة خاصة.

وكانت أولى خطوات التنفيذ إقصاء الأعباء المالية المفروضة على مرتادى القدس من المسيحيين، فصدر أمر إبراهيم "برفع وإبطال سائر العوائد المرتبة على ثلاث كنائس بالقدس الشريف وبدير الناصرة"، وتبعه أمر آخر "برفع العوائد المرتبة على الطرق الموصلة إلى القدس الشريف الجارى أخذها من الزوار من باب الشفقة والرحمة"[٣] . وأعقب هذا إعفاءات باقى الكنائس والأديرة لجميع الطوائف، فعلى سبيل المثال كان دير الفرنسسكان فى الناصرة يدفع عشرة آلاف قرش سنوياً لوالى عكا[٤]، وتلا ذلك تعليمات مشددة بشأن حماية المسيحيين وأمنهم وراحتهم[٥].

ومن الجدير بالذكر أن تلك العلاقة التى ربطت بين والى مصر والفرنسيين كان لها أثرها فى هذا الأمر، ففرنسا تعتبر نفسها حامية للكاثوليك، وبالتالى فهى مسئولة عن أمانهم، ولم تكن تستطيع أن تُقدم على ذلك قبل الحكم المصرى، ولكن معه وجدت فيه نوال مقاصدها حتى إنه فى الأمرين السابقين هناك إشارة إلى مساعى قنصل فرنسا فى بيروت تجاه "حفظ وصيانة الأديرة الموجودة بنواحى القدس والناصرة والكرمل التى هى تحت حماية الفرنساويين"[٦]، هذا من ناحية، والرغبة التى حملها الحكم الجديد لتنفيذ المبادئ التى وضعها حتمت عليه اتباع تلك السياسة "لراحة البلاد والعباد وأمينتهم وصيانتهم"[٧] من ناحية أخرى، هذا ويجب ألا ننسى العوامل النفسية التى حركت القيادة المصرية خاصة بعد أن أصبحت حامية للحرمين الشريفين فى الحجاز، إذن فلا بد من تكملة الدائرة بحماية بيت المقدس ومن يقصده.

وكانت هذه الضرائب المفروضة تذهب إلى خزائن الولاة السابقين وقاضى القدس والأعيان، لذا عند إبطالها كان على الدولة أن تتحمل ما يخص القاضى وتسدده، فدفعت خزينة القدس سنويا المبلغ من الأموال الأميرية[٨] . ووضعت الأوامر المشددة من أجل التحقيق، فعندما أخذ خفيرا طريق الناقورة بعض النقود من زائرى القدس أمر إبراهيم "باستخدامهما فى الليمان لمدة سنة" كما أجرى التحقيق مع مأمور جمرك صيدا لنفس السبب، فحاول التخلص بنسب تبعيته لقنصل النمسا، وجرى البحث، وحين التأكد من القول "يعرض أمره على دولته للتصرف فيه وإلا فيرسل إلى الليمان أيضا"[٩]. وصدرت التعليمات ضد الاغتصاب، ونبه أن من يجد بالطريق أشياء بدون صاحب لا يقربها ويتركها فى مكانها، وهدد المخالف بقطع اليد[١٠].

وازداد الأمان على الطريق إلى القدس، وفرضت العقوبات على قاطعى السبيل، فعندما تعرض بعض من الروم للأذى فى "أباطيا" بين القدس والناصرة، إذ رجموا بالحجارة من صبية، ووصل الخبر لإبراهيم "أرسل ثمانية أنفار من أباطيا

ووضعوا الخشب فى أيديهم وبعثوهم إلى عكا يشتغلوا بالورشة"[١١]. وبناء على تلك التسهيلات وذلك الأمان زاد أعداد الوافدين على القدس، فبلغوا عشرين ألفاً، وسمح إبراهيم بفتح الشق الثانى من باب كنيسة القيامة، ولم يكن فتح منذ عهد عمر بن الخطاب، وكان مفتاح الكنيسة بيد بعض المسلمين كما جرت العادة، وعند فتحهم شقة الباب لدخول الزائرين يتقاضون مبلغاً من المال، فألغى إبراهيم ذلك[١٢].

ومن المعروف أن المنازعات والمشاكل بين الطوائف المسيحية فى القدس وخاصة فى كنيسة القيامة كانت تكثر أيام الأعياد، ولم يستطع أحد أن ينهى تلك الخلافات خاصة بين رهبان دير الإفرنج وطائفة الروم والأرمن، وبناء على شكاوى القناصل بضرورة حسم الأمر[١٣]، تحرر إلى متسلم القدس لعمل الترتيبات الخاصة بمنع حدوث أية احتكاكات بين الأطراف "فينبغى منكم ملاحظة هذا الأمر بغاية التدقيق بوجه مستحسن بشرط أن لا تدعو أحدا يتعدى على أحد ويمتنع من بينهم القيل والقال"[١٤]. ويبدو أن طائفة الروم هى صاحبة العدوان إذ انصبت الشكاوى عليها حتى إنها رخصت مبيع الخمر وسط الكنيسة وذلك شىء جديد استحدثته، وعلى هذا أحكمت الرقابة عليها ومنعت من الإقدام على هذا الفعل، وصدرت التوصيات الرسمية للمتسلم "لا تدعو أحدا من الطوايف يجرى شيئا مستجدا يكون ما سبقت عليه العادة"[١٥]، وترقبهم إبراهيم بنفسه وأبطل ادعاءاتهم، فحين رددوا أنه فى يوم معين يخرج من قبر المسيح نور يضيئ ولا يحرق، قدم إلى المكان "وجلس عند باب القبر فجاء بطرك الروم وأخرج الضوء فلمسه إبراهيم باشا بيده فرآه نارا حقيقة"[١٦]، وكذبهم فى الحال وأخرج الزائرين. وعندما اشتد النزاع حول "قبة المصعد"- حيث أثر قدم المسيح- بين الطوائف المسيحية أحيلت المسألة على مركز قضاء القدس ليحكم فيها طبقا للقواعد الشرعية، ونجح فى فصل الخلاف حيث شاركت فى تعميرها كل الطوائف[١٧]، وحتى المشاحنات التى تجرى بين العنصر الواحد انتهى أمرها مثلما حدث بين السريان الكاثوليك والسريان اليعاقبة بشأن

الصلاة فى الكنيسة، فسوى ما بينهما ونبه بشدة على الفريقين بالتزام الحق والعادة[١٨].

أما عن ترميم الكنائس والأديرة، فمثل مظهرا واضحا فى سياسة الحكم المصرى الدينية، وأعلن للطوائف المسيحية القاطنة فى القدس "إذا أرادوا ترميم كنائسهم مستصدرين الإذن من قبل الشرع يقدر رسم المراسلة ويدفع للقاضى من الخزينة"[١٩]، وعلى ذلك أسهمت الحكومة مساهمة جدية فى هذا الأمر وقامت بالإصلاحات بينما كان فيما سبق لو سقط حائط أو تهدم وأصلح فالمقابل مبالغ كبيرة[٢٠]. وعند تنفيذ ترميم كنسية القيامة تجدد النزاع بين الطوائف، وأرسلت الأوراق المحتوية على الخلافات إلى مصر وحولها محمد على لبوغوص للدراسة[٢١]. وكالعادة أنهيت الخلافات، وفى مكاتبة من قاضى القدس لإبراهيم يبين أنه "حصل التفضل بالترخيص بمرسوم عال بتعمير كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم، وكتب إعلامان شرعيان من جراء التعمير المقتضى بسبب الخلاف الحاصل بين طائفتى الروم والأرمن"[٢٢].

وبدأت كل طائفة تسعى لنيل مطالبها فى ظل الحكم المصرى، فالروم حضر عنهم مندوبون من المطارنة يعرضون ما فقد منهم فى العهد الماضى ويطالبون بإعادته "لهم بيوت تخص وقف كنيستهم بعكا ضبطوا بمدة الجزار ومنهم ضبطوا بمدة عبد الله باشا ويلتمسوا ترجيعهم"[٢٣]، كما أقدم وكلاء دير الروم بالقدس على الشكوى وطلبوا الإنصاف، فلهم كنيسة تتبع الدير بجبل الكرمل وهدمها عبد الله باشا " وعمر مكانها منتزه لنفسه" فأرادوا ردها إليهم، ونظر فى الأمر[٢٤]. ومضت المعاينات لما يخص الروم فى القدس ويافا، وصدر تصريح قاضى القدس بأنه ليس هناك مانع من إجراء الترميمات التى تلتمسها الطائفة وإنشاء حجرات فى بعض الكنائس للسكنى[٢٥]، أيضا وجه الاهتمام لطلب رهبان الروم فى القدس بترميم دير بيت لحم وتعبيد الطريق الموصل إليه[٢٦]، ثم جددت كنيستان لتلك الطائفة بعد أن

أصيبتا بزلزال، ولكن جاء فى شرط التجديد ألا يتعدوا حدود طولـــهما وعرضـــهما القديم[٢٧] .

وأجيب لطائفة الأرمن سؤالها، فعندمـــا كســر زائــرو الــروم "الرخامــة الموضوعة بالمحل المختص بهم فى كنيسة القيامة" صدر الإذن بوضع غيرهـــا،[٢٨] وحينما تعرض دير الأرمن بيافا إلى بعض المضايقات لنزول المسافرين فيه، تحــور على الفور لمتسلم يافا بمنع هذا الأمر[٢٩]، وكان ذلك الدير يمتلك محلات ويجـــرى تأجيرها، فلما عصى بعض المستأجرين فى دفع الإيجار ورفضوا تركها كتب إلـــى المتسلم لمساعدة رئيس الدير فى إنهاء الدفع بما يرضيه أو الخروج من المحـــلات، ومما يذكر أن من بينها ما هو مؤجر لميرى مثل ديوان المتســلم ومخــازن غــلال الأنبار، فتمت محاسبة رئيس الدير عن إيجارهما[٣٠].

وبالنسبة للإفرنج الكاثوليك، فنالوا الاهتمام نظرا لسياسة الحكم من ناحيـــة، ولوقوف القناصل بجوارهم من ناحية أخرى، فحين سكنت القوات العســكرية ديــر رهبان الإفرنج، أمر محافظ عكا بإخراجهم وتسليم الدير للرهبان "وأن يكـــون لــهم الحماية والصيانة من كل وجه"[٣١]، أيضا أرجع إلى كنائس عكـــا "كافــة الأوانــى والأمتعة المنهوبة"[٣٢] والتى استولى عليها عقــب ضمــها. كذلــك أبطــل نــزول المسافرين والمارين فى دير الراهبات الكائن بقرب دمشق[٣٣]، ولبيت الطلبات فـــى الحال، فلما أقدم رهبان دير الكرمل على الشكوى من أن "الفعالة المستأجرين عندهـم فى بناء ديرهم أخذ منهم ثمانية إلى ورشة بناء عكة" أعيدوا إليهم، بالإضافـــة إلـــى استردادهم للدواب التى سبق الاستيلاء عليها، كما أعطاهم إبراهيم السراى المواجهـة للدير ليسكنوا بها على شريطة إذا احتاج الجيش لها تسلم له[٣٤] . هذا فـــى الوقــت الذى كانت الحكومة فى حاجة إلى ما تنازلت عنه.

ومما زاد من العناية بأمر الكاثوليك العلاقة مع فرنسا وتدخلها فى كـــل مـــا

يخصهم حتى ولو كان غير ذى أهمية، فيشكو قنصل فرنسا العام لمحمد على من "استحقار العساكر الجهادية لرهبان ورؤساء الكاثوليك المقيمين فى حلب"[٣٥]، وقد سعى هذا القنصل للحصول على امتيازات للطائفة، فيرسل محمد على إلى شريف حاكم عام الشام يبلغه بأنه ليس لدية مانع من "زيادة عدد حجرات مستشفى دير الإفرنج بالقدس"[٣٦]، وبذلك يتضح الضغط الفرنسى، ويبين المبعوث الفرنسى إلى محمد على أهمية دور دولته، فيبلغ حكومته "لقد أفهمت إبراهيم بأن مصالح فرنسا تتمثل فى حماية الكاثوليك والموارنة"[٣٧]، جاء هذا عقب زيارته للشام ودراسة الأحوال على طبيعتها. واعترف حاكم مصر بالوجود الفرنسى فى المجال الدينى، ولكنه فى الوقت نفسه بين أنه لن يقبل أن تتخذ فرنسا الدين وسيلة لإثارة الأهالى ضد الحكومة[٣٨]. هذا وقد أعطت تلك الحماية التشجيع للكاثوليك، فنرى أن الممتلكات التى كانت لهم واستولى عليها قبل الحكم المصرى يطالبون بها، ومن بينها مكان بالقدس كانوا يقيمون فيه شعائرهم اتخذ ليكون اسطبلا للخيل، وبالتحقيق ثبت صحة القول[٣٩].

ولم يقتصر الأمر على الاهتمام بالقدس، فاتخذت السياسة نفسها سبيلها على باقى أرض الشام، فلما أعرض وكيل البطريرك بدمشق بأن لطائفته "مقام برا البلد هدم من خمس سنوات" أحال شريف الموضوع على مجلس شورى دمشق للإثبات، وأجرى التعمير "كى يداوم خير الأدعية السنية بتأييد عز وسطوة هذه الدولة البهية"[٤٠]. ومضت طلبات ترميم كنائس القرى تأخذ طريقها، ففى قرية "يبرود" بدمشق طلب البطريرك إصلاح سقف وجدران كنيستها، وانطبق الحال على كنيسة قسطنطين إذ رغبت فى نفس الطلب[٤١]. وصرح إبراهيم بتوسعة كنيسة حماة [٤٢]، وتم إصلاح خمس عشرة غرفة فى دير السيدة بصيدنايا بناء على مقابلة رئيسة الدير لإبراهيم وطلبها منه ذلك[٤٣] . أضف إلى ذلك فى هذا المجال، الإعفاءات التى حصلت عليها الأديرة المتعلقة بعدم تحصيل رسوم الأغذية والمؤن الخاصة بها، أو

تحصيل رسوم جمركية على ما يصحبه زائر القدس تكون مماثلة لما يؤخذ على بضائع التجار(٤٤) .

وفى إطار الامتيازات الدينية، رأت بريطانيا الخوض فى غمارها، فطلبت إنشاء كنيسة بروتستانتينية فى القدس، وكتب كامبل القنصل الإنجليزي العام فى مصر إلى بوغوص بهذا الشأن، ولكن رد على طلبه بأن القدس مدينة مقدسة ولا يمكن أن تأخذ مصر على عاتقها إعطاء التصريح بهذا الأمر الذى هو من اختصاص الباب العالى، وله أن يصدر فرمانا إذا شاء. وعليه يرسل القنصل الإنجليزي حكومته للاتصال بالسفير الإنجليزي فى الآستانة لبذل المساعى للحصول على هذا الامتياز(٤٥) . كذلك لم تكن الإدارة المصرية تستطيع منح أية امتيازات إلا بعد سؤال وموافقة أهل الشرع، فحينما طلب القنصل الأمريكى إقامة مدفن على أرض بجوار النبى داود ملك لأحد الرهبان بحجة شرعية، أمر شريف بالتحرى ومدى جواز الأمر شرعيا(٤٦) .

وبالإضافة إلى تسهيل السبل للأماكن المقدسة والمحافظة عليها، وذلك العطاء الفياض للحرية الدينية، وتلك الحماية التى كللت بالأمان حتى إن أحد المعاصرين المسيحيين والمسجلين لأحداث الفترة يبين أن ما حدث فى هذا الصدد لم يحصل منذ الأيام الأولى للإسلام "والغاية أن هذه الحرية لم صار مثلها من زمان الفتوح إلى الآن"(٤٧)، اتجهت السياسة المصرية لرفع الحيف والظلم عن المسيحيين فى إطار الحياة العامة بعد أن أغدقت عليهم فى مؤسساتهم الدينية، فأصبحوا ذوى كيان فى المجتمع، فلا ينزل المسيحى من على دابته إذا قابله مسلم، ولبس الحذاء الأحمر ولم يكره على ارتداء الملابس السوداء والزرقاء، وتعمم باللون الأبيض، وسمح له ركوب الخيل والسير فى الطرقات دون أن يتعرض لأى سوء أو أذى(٤٨).

ومع إحساس المسيحيين بانقضاء عهد الظلم رفعوا أصواتهم وعرضوا

شكواهم طالبين الخلاص مما كانوا يرزحون تحته، فنرى فلاحين من الناصرة يبينون أنه فرض عليهم فيما سبق الأموال والغلال رغم أنهم لم يزرعوا بل مشتتين فى البلاد، فيصدر الأمر بإجراء "حكم الحق فيهم"[٤٩] • وعم العدل والإنصاف، فإذا تطلب الأمر تقسيمات يكون المسيحيون طرفا فيها، فعقب عزل شيخ إحدى القرى التى جمعت العنصرين الدرزى والمسيحى، أنتخب كل منهما رئيسا له، وقسمت الأراضى بينهما ولكن اتضح أن التقسيم كان مجحفا بحق فلاحي المسيحيين، ولما عرضت الحالة على مجلس شورى دمشق تقرر معاينة الأرض مرة أخرى، وما تبقى بعد تقسيم الحق يعطى لفلاحين جدد[٥٠]، وبذلك أسهم المجلس فى تحقيق السياسة المرسومة•

وحتى تكون الصورة متكاملة، كان هناك مفتشون من قبل ديوان إبراهيم يقومون بعمل تحقيقات سرية عن قرى القدس ويزورون الكنائس ليلموا بمعيشة المسيحيين ويضعوا التقارير[٥١]، هذا فى الوقت الذى نشطت فيه الإدارة المصرية من أجل إقامة حياة هادئة بعيدة عن الاضطهاد أو التعصب، فأحكمت الرقابة لتضمن الأمان الكامل، وقد حدث أنه فى أثناء تغيير آلايات الحراسة صحب العملية نوع من التأخير، فانتهز بعض الأهالى الفرصة وهجموا على قهوة فى "حى النصارى" واعتدوا على المسيحيين فيها، وفى الحال ألقى القبض عليهم "وضرب كل واحد خمسين عصا ثم سجنوا"[٥٢]، وأخذ مجرى الحق وواصلت العقوبات طريقها، فعندما قتل مسيحى على يد غبد مسلم أعدم فى الحال[٥٣] وروعيت المشاعر وضمن الأمان، فبمجرد التفوه بالشكوى يتم الفصل فيها، مثلما أعرب فلاحون مسيحيون من قرية "يبرود" بدمشق عن مضايقة المسلمين لهم فيحرر "قايمقام للقرية بأن هؤلاء الذميين رعية سعادة أفندينا ولى النعم واجب لهم الصيانة والحماية والرعاية وأن يرفع عنهم التعدى، ومن يعتدى عليهم لا يقدر على الجواب"[٥٤]، كذلك عاقب محافظ بيروت "بعض المسلمين علنا لأنهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق

النصارى"[٥٥]. ومن هنا يتبين أن الحكم المصرى بذل كل الجهود لتحقيق الوحدة الوطنية.

وانفتح باب الوظائف بأنواعها المختلفة أمام المسيحيين، ولم يكن ذلك متاحا من قبل، وتشاء الإرادة أن يكون على رأس أهم المراكز الحساسة حنا بحرى، فأمسك بزمام الإدارة المالية، وإطلع على كل صغيرة وكبيرة فيها، وساس الأمور وفق المصلحة، وحاز الرضا من الرئاسة المصرية، فالصلات بينهما لها تاريخ، هذا بالإضافة إلى قدرته الفائقة التى أفادت الحكم المصرى -الذى أغدق عليه السلطة ومنحه حرية التصرف- من ناحية، وأعطت الحيوية والتقدم للمجتمع الشامى من ناحية أخرى. وأجمعت الآراء المعاصرة على مزايا تلك الشخصية فيما يختص بالذكاء والعدل، ولكن هناك القليل الذى يلقى اللوم على حنا بحرى لأنه كان المنفذ لسياسة الاحتكار، وجاهد من أجل زيادة الإيرادات والميرى بكل الطرق حتى يكسب المزيد من حب الرئاسة وما يترتب عليها من المصلحة التى ينالها، وأن السياسة نفسها نفذها أخوه جرمانوس فى حلب[٥٦] . وعلى أية حال فإن ذلك لم يقلل من قيمة الشخصية وقوتها. وقد مثل هذا الوضع أصدق صورة للتسامح الدينى القائم، وأصبح لحنا بحرى الخدم "شي (أناس) بشالات كشمير، وشي بلفات بيض، وشي لا بسين نظام"[٥٧]، وبالطبع فهذا الوضع كان محرما على المسيحيين، ونال الاحترام الكامل "ينهضوا له جميع أرباب الديوان من المفتى حتى النقيب"[٥٨]، ومنح لقب بك وهو أول مسيحى يلقب به، ويعلق شاهد عيان "وصاروا الناس يقولون بحرى بك عوض الخواجة حنا بحرى"[٥٩]، ورغم أنه غير منتم إلى العسكرية، فأنه حظى برتبة "أمير لواء" مع نيشان "مرصع بالجواهر"[٦٠].

ومثل المسيحيون فى مجالس الشورى، وسمع رأيهم وحصلوا فيها على نفس الحقوق الممنوحة للمسلمين، واتضح ذلك من خلال محاضر الجلسات. ومما لا شك فيه أنهم كانوا على درجة من الثقافة، لذا رئى الاستفادة بهم، فيرسل إبراهيم إلى أبيه

ليبين له أن مسيحيى جبل الدروز متعلمون، وشئون البلطجية تحتاج للعلم، إذ لا بد من معرفة فنون حفر اللغم وإنشاء الحصون وفتح طرق الغاز وعمل الكبارى وأنه يود تكوين "أربع أورط منهم"[٦١]، ومع أن الفرصة لم تتح للإتمام، إلا أن هذا ينم عن اتجاه إبراهيم. ومن المعروف أن المسيحيين كانوا يشغلون الوظائف الحسابية قبل الحكم المصرى، ومن ثم استمروا فيها، ولو أنه أحيانا لم تكن بعض الطوائف المسيحية راضية عن الأخرى وخاصة فى القدس ويافا، فيشكو الروم الكاتب الكاثوليكى "قسط سراقم" لأنه يصدر القرارات الخاصة بالضرائب ويظلم فيها فلاحى القرى الخمسة بالقدس وسكانها من الروم[٦٢]، وكالعادة تجرى المحاولات لإنهاء النزاع. وأسهم المسيحيون فى تنشيط الاقتصاد، فنزلوا الأسواق وعملوا فى التجارة والنقد[٦٣].

وجاهد الحكم المصرى لتنفيذ مبادئه فى هذا النطاق، وردد إبراهيم "الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا، وأمر المذهب ما له دخل بحكم السياسة"[٦٤]، ويسجل معاصر قوله "ومشى الرعايا جميعهم بالسوية النصرانى واليهودى والمسلم حكم واحد"[٦٥] . وعلى ذلك ساد الوفاق الدينى وأزيلت الحوائل بين المسيحيين والمسلمين، وطبقت المساواة أمام القانون الذى خضع له الجميع، وازداد التمتع بالحرية الدينية خاصة فى ممارسة الطقوس، وتم التغاضى عن الذين تحولوا عن مسيحيتهم إلى الإسلام ثم رجعوا إليها، ولكن فى الوقت نفسه لم تقر السلطات المصرية بتنصر بعض الدروز، يقول شريف "أظهرنا التنبيه والتشديد الكلى وأبدينا كمال التهديد بالسطوة الخديوية العلية، فانقطع هذا المبدى وخمدت نار هذه الشهوة"[٦٦] وعلى كل فإن ما تمتع به المسيحيون فى تلك الفترة لم ينالوه قبل الحكم المصرى ولا بعده.

ولكن هل حققت هذه السياسة كامل نجاحها، لقد تحملت الإدارة المصرية الكثير من أجل تطبيق سياستها الدينية العادلة، حقيقة كانت لها أهدافها الخاصة، إذ

أرادت أن تكسب الدول المسيحية إلى جانبها لعلها تحظى بالمساندة ضد الدولة العثمانية، كما رأت أن ترضى حليفها وتابعها الأمير بشير، ثم رغبت أن تظهر بمظهر حامية الأديان، لكنها دفعت الثمن وأثارت المسلمين حيث إن كثيرا من تصرفاتها تجاه المسيحيين قد قوبلت بالرفض، فانتشرت الإشاعات وتناقلتها الألسن وتجسمت القضايا البسيطة إذ أتيحت لها فرصة السريان، والنتيجة عدم الرضا والضيق والتبرم والهجوم على تصرفات الإدارة المصرية وإلقاء الاتهامات على إبراهيم(٦٧)، ويجب أن نضع فى الاعتبار أن الباب العالى وجد الظروف المواتية فضغط على هذه النغمة، وكان لذلك أثره فى الثورات التى قامت ضد الحكم المصرى.

وأحس المسيحيون بقوتهم فى ظل النظام الجديد بل وتميزهم على المسلمين فى الإبقاء على سلاحهم، وساعدوا الإدارة المصرية فى القضاء على العقبات التى واجهتها حيث كانت تتفق مع مصلحتهم، ولكن حينما سحبت منهم امتيازاتهم فى هذا الشأن تغير موقفهم، ووضح ذلك أثناء ثورة لبنان ١٨٤٠، حتى إن الرهبان أنفسهم انحازوا إلى الجبهة المضادة(٦٨)، تلك التى انتهزت جميع الفرص واستغلتها من أجل تحطيم الحكم المصرى، وبعد أن تحقق ما سعى إليه، لم ينعم المسيحيون بما رغدوا تحته وعاشوا فى ظله.

وفى إطار سياسة رفع الأعباء عن أهل الذمة، صدرت الأوامر بإلغاء "الأموال المقررة والعبودية والعوائد القديمة"(٦٩) على طائفة اليهود أثناء زياراتهم للأماكن المقدسة وعلى ما كان مفروضا على معابدهم، وبناء على ذلك كثر عدد الوافدين اليهود من أوربا، وأعلن أن هذه الوفود حضرت لبيت المقدس بعد أن رفعت المظالم وأبطلت المغارم، وحينما نزلوا حيفا أرسلت التوصيات لمتسلمها بشأنهم فيقول كاتب الديوان إلى إبراهيم "إكراما لهم وترحيبا بهم لكونهم ضيوفا أرسلناهم معززين مكرمين"(٧٠)، وتتابعت الأوامر وأرسلت التصريحات إلى "محافظى

الطرقات" على طول الطريق للقدس بأن "يعاملوا اليهود بالحماية والصيانة والراحة، ولا أحد يقارشهم بأدنى شيء من أنواع التكاليف، وتشهلوا أمر سيرهم ولا يحصل لهم تعطيل"(٧١) . واستمر الاهتمام بأمر اليهود لدرجة أنه عندما حصل من الزائرين اليهود "عوايد خفر" طلب مقدار ما دفع ليرد إليهم وشدد بعدم التكرار "من الآن فصاعدا لا يتعرض لزوارهم ولا يؤخذ منهم ولا نصف فضة واحد غفر"(٧٢).

وبدأ تحقيق رغبات اليهود يسلك طريقة، فلما طلبوا إبقاء وكلائهم عليهم، تمت الموافقة(٧٣)، ويتزعم حاخامهم فى القدس المطالب الخاصة بعباداتهم، فيعرض ما أصاب معبدهم من خراب بعد أن تسوست أخشابه وتقوست أحجاره وتساقطت، ويطالب بالإصلاح فيجاب(٧٤)، ويذكر كامبل لحكومته أن المعبد كان مهدما فيما قبل الحكم المصرى وكيف سمح إبراهيم بإعادة بنائه(٧٥). ومن الملاحظ أنه قبل عرض الحاخام لطلبه يهنئ بالفتح والنصر(٧٦)، ووصل الأمر إلى أن اليهود أصبحوا يرممون معابدهم بدون الحصول على الإذن، كما أنه ما سرى على المسيحيين بالنسبة لما تدفعه الحكومة لقاضى القدس انطبق على الهيود(٧٧).

أما عن بناء الجديد من المعابد، فكان لليهود بالقدس قطعة أرض يمتلكونها، فطلبوا بناء معبد وبعض المنازل عليها لاستقبال فقراء قومهم، ووافق إبراهيم وأرسل إلى محمد على فى شأن ذلك، ولكنه أرجأ الموضوع فى الوقت الذى راح فيه القنصل الروسى بالشام يلح فى هذا الأمر ويستعجله ويكتب لجميع الأطراف المعنية(٧٨) . وعلى هذا يتبين أن لإبراهيم الرغبة فى إعطاء التسهيلات ولكن عند تعدى الحدود يكون التوقف، فقد تسلم متسلم القدس أمرا منه جاء بناء على قرار مجلس شورى القدس برفض طلب اليهود بشأن تبليط المكان الملاصق لحائط المسجد الأقصى وموضع البراق، "حيث لم يكن سبق وقاموا بذلك، بالإضافة إلى أن هذا الأمر غير جائز شرعا"(٧٩).

ومع هذا لنا أن نسجل أن اليهود قد تمتعوا بحرية دينية كاملة لم يعهدوها من قبل، إذ كانوا محرومين من التردد على كل مقدساتهم، فزيارة ضريح النبى يعقــوب لــم يقوموا بها منذ عهد سليمان باشا، وعندما كان كاتب ديوان إبراهيم باشا يزوره شكا اليهود إليه من منعهم الزيارة، وبينوا أنهم أصبحــوا فى مأمن من الظلم والاعتداءات ويتمتعون بالعدل فى ظل الحكم الجديد، فيعرض الكاتب الأمر علــى إبراهيــم[٨٠]، وباعتراف اليهود أنفسهم فى اللقاء مع كامبل بأن عباداتهم تجرى بطريقة علنية، وأنه أجيبت لهم طلباتهم وتحققت لهم أمانيهم[٨١]، ويعلق هو على تلك الحرية ويشبهها بمــا يجده الأفراد المختلفو العقائد على الأرض الأوربية[٨٢] . وبذلك تعددت الامتيــازات الدينية التى منحها الحكم المصرى لليهود.

ولم يقتصر الأمر على الحيز الدينى، فأســبغت الإدارة المصريـــة الحمايــة عليهم فى ميدان حياتهم العملية، خاصة وأنهم عانوا كالمسيحيين فيما ســبق الحكــم المصرى، ومما زاد فى أمرهم أنهم كانوا موضع كراهية من جميع الطوائف، وقــد تمتع أغنياؤهم بثروة كبيرة نظرا لممارستهم الأعمال المالية وإقراضهم النقود بالربا، مما جعل رؤوس أموالهم ترتفع وممتلكاتهم تتسع، وعملوا بالتجارة ومارسوا نشاطهم فى مدن الشام المختلفة خاصة فى دمشق وحلب[٨٣].

وخرج اليهود مع المسيحيين للحياة الاجتماعية ومارسوها على نفس طريقــة المسلمين، وأقصيت الممنوعات والمحظورات التى كانت مفروضة عليهم، وطبقــت سياسة المساواة بين الرعية، فأصبح منهم من يمثل فى مجالس الشورى ليساهم فــى حل قضايا المجتمع، وأعطتهم الإدارة المصرية الأمان، فعندما أعرض "الخواجة مــا ير الإسرائيلي" المقيم بصفد أنه استأجر منزلا لسكنه ومعه السند الشرعى وتعــرض له أحد الأهالى، يتحرر إلى متسلم صفد ليجرى التحقيق "فإذا كان أعراضه صحيحــا يمنع المذكور عنه"[٨٤]، والأمثلة على ذلك كثيرة. وأبعد عنهم استغلال المســئولين، فلما أقدم متسلم صفد على الضغط عليهم منع فى الحال، فقد حدث أنه استخدم بعــض

اليهود فى مبان له وجعلهم يعملون بالنهار ولا يوافق على رجوعهم فى آخره بل يبقيهم لديه طوال الليل، فبلغ من الرئاسة أن "هذه أشياء مخالفة للإدارة، لأن أقصى مرام سعادة أفندينا ولى النعم راحة الرعايا وتحصيل أسباب راحتهم"[٨٥].

وحين اعتدى أهالى طبريا على اليهود المقيمين فيها، يصدر الأمر إلى متسلمها بالردع الفورى ويبين إبراهيم أن الإرادة السنية براغبة راحة ساير بنى آدم وعدم حصول أدنى تعد على أحد من الرعايا ... ولا أحد له أن يتطاول على أحد ولا يتعدى الكبير على الصغير ولا الصغير على الكبير بل الجميع يمشوا فى أدبهم... ومن الآن وصاعدا تعتنوا فى إعطاء راحة اليهود الإشكنازية من سائر الوجوه ... وإن بلغ المسامع الشريفة أن حصل عليهم أدنى تعد من أحد فيحصل الانتقام البليغ من المعتدى"[٨٦] .

وقدمت التسهيلات لليهود، فلما اشتكى يهود صفد من متسلمهم لتحصيل ما عليهم من المال للميرى والخاص ببيوتهم "الحكر والسكاكر" قبل ميعاد استحقاقه، إذ طلب فى ذى الحجة، يتحرر له بأن يمهلهم "لحين حلول الميعاد بشهر محرم"[٨٧]، كما تمت مساعدتهم فى تحصيل حقوقهم، فمن كان لديه من التجار اليهود ديون عند الأهالى والأديرة عادت إليهم بالأمر[٨٨] . ومن المعروف أن ما حدث فى هذا الشأن يدخل فى برنامج السياسة العامة للحكم المصرى، ولكنه فى الوقت نفسه حمل بين طياته ضغط القناصل لحماية اليهود، فيسجل أحدهم فى إحدى مكاتباته- عقب ضم مصر للشام وقلق يهود صفد وطبريا من بداية عهد جديد- يقول "لقد فزت ببيورلدى شديد اللهجة فى سبيل حمايتهم، وبعث إبراهيم باشا بطابور من جنوده إلى صفد وطبريا لإعادة الأمن والطمأنينة إليهما"[٨٩]، ويرسل آخر ليبين أن فى الشام ثلاثة آلف أسرة يهودية فى حماية النمسا، ويطلب تقديم العون لها ورفع الظلم عنها وعدم إرهاقها بالضرائب ووضع نظام خديوى خاص لحمايتها فى الحاضر والمستقبل[٩٠]، وهناك من ضغط بكل قواه من أجل إسقاط ما يدفعه اليهود سنويا من المال المعتاد

الخاص ببيوتهم التى تملكوها فى صفد، ولكن جاء الرفض من حنا بحرى[٩١]. ومن الملاحظ أن هؤلاء القناصل كان منهم اليهود وبالتالى سعوا عن طريق التأثير بنفوذهم فى هذا النطاق.

وبذلك سارت السياسة المصرية والمساعى القنصلية فى طريق واحد هدف أمن اليهود وحمايتهم لدرجة أنهم عقدوا اجتماعا فى القدس برئاسة حاخامهم عبروا فيه عن سعادتهم بالحكم المصرى وكيف أنهم يعيشون ويتمتعون فى كنفه بالهدوء والاستقرار، وأكثر حاخامهم من دعواته لإبراهيم، وأمن الحاضرون[٩٢].

ولكن رغم اتخاذ احتياطات الأمن المشددة، فإنه وقعت حادثة صفد أثناء الثورة الفلسطينية على الحكم المصرى عام ١٨٣٤م، وفيها اعتدى الأهالى على اليهود، وسلبوا ممتلكاتهم وقتلوا البعض منهم، وبعث شريف بالقوات لوقف هذه الحركة المضادة فأوقفت، بعد أن قتل أحد قوادها، وأرسل المعتدون إلى سجن عكا وشددت الحراسة على المنطقة[٩٣] . ولجأ اليهود من أصحاب الحمايات لقناصلهم الذين تدخلوا فى الأمر فكتبوا التقارير، وكل يطلب التعويض ورد الاعتبار لرعاياه، ويشرح الحالة البائسة التى وصلوا إليها[٩٤]، وأجمع تصميمهم على مصادرة "أملاك أناس فقراء مسلمى تلك الجهة الغير مجنوحين فيها"، واعترض محمد على هذا الأسلوب وقال "إن رغائب المومى إليهم هذه أمر لا يتصور ولم يسبق تنفيذ أغراض مثل هذه فى مملكة ما كما هو فى إحاطة علمهم"[٩٥]. ولكن أمام ضغط القناصل عليه، وحتى لا يخلق العقبات فى طريقه أصدر أمره إلى سليمان باشا "بمبيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسيم أثمانها على المدعين كذبا"[٩٦]. فكان ذلك انتصارا للسياسة الأوربية وتحقيقا لمطامعها.

وأرسل كامبل لحكومته بحصر كامل لما قدر من مبالغ لليهود، وهى على التوالى بالقروش ١,٥٣٦,٩٣٦ للألمان، ١,٣٩٠,١٥٧ للفرنسيين، ٩٨٠,١٠١

للبروسيين، ٧٣٣,٧٣٠ للتوسكانيين، ٤٢٥,٦٥١ للنمساويين، ٣٤٤,١٦٠ للروس، ٣٤٤,٠٨٤ لليونانيين، ٤٠,٩٥١ من مختلفى الجنسيات، فيكون المجموع ٥,٧٩٥,٧٧٠ قرشا وهو مبلغ كبير[٩٧] • ومن الجدير بالذكر أن القوائم التى قدمت تضمنت أشياء لا وجود لها، والثمن الذى قدر بها مضاعف "وذلك لأنهم (اليهود) زعموا بإغواء بعض وكلاء القناصل أن بدل منهوباتهم سيصرف لهم من الخزينة"[٩٨] • وعلى هذا كانت التعويضات التى طلبت مبالغا فيها، وأقدم الأمير بشير على استخلاص مطالب اليهود من أهالى صفد، وكان من الصعب جمع هذا المبلغ، فأمكن إعادة ٨٦٤.٤٩٤ قرشا وزعت بالنسب بين اليهود بمعرفة رؤسائهم[٩٩] • ومن المؤكد أن هذه الحادثة كانت بإيعاز من أعداء الحكم المصرى، فأقْدموا عليها ليثيروا الفتن ويجددوا دنس التعصب، كما أظهرت مثار اهتمام الدول واحتضانهم لليهود منذ هذه الفترة المبكرة•

ومما يسجل أن بعض اليهود لم يكونوا فوق مستوى الشبهات، فالثابت أن لهم أدوارا مماثلة، فعقب الاستيلاء على عكا، ومع حوادث النهب التى تعرضت لها، وحينما حصرت المنهوبات، أثبتت التحريات وجود بعض منها لدى يهود فى صفد "فحص عن البغل الذى تقرر أنه عند اليهود من منهوبات عكة فوجد عند يوسف العيسى من اليهود الرعايا وباعة إلى وكيل قنصل الإنكليز بصور، وأن المشترى كواه على دمغته ليجهل أمره، وأنه مسك يوسف المذكور مع ثمانية أنفار من اليهود ليقررهم عن المنهوبات ••• وأن رجلا يهوديا وجد كيسا بالأردو فيه مشمع وصنوبرية ذهب وساعة وخاتمان ومائتا قرش عملة بياض وأن الذى قرر عنه يهودى من جنسة"[١٠٠] • وأرسل ما ضبط لدى يهود صفد إلى "إسماعيل أغا ناظر الاسبتالية ليحفظهم عنده لظهور أصحابهم يثبتوهم ويتسلموهم"[١٠١]• ومعنى هذا أنهم شاركوا فى مثل تلك الأمور التى تعرضوا لها فى حادثة صفد التى وقعت إبان الثورة الفلسطينية، كما يتضح ذلك التعاون الوثيق الذى جمعهم مع السلك القنصلى•

وجاءت الخطوة التالية لتثير الأجواء مرة أخرى، ففى أوائل عام ١٨٣٨ وفى أثناء مرور الراهب الكبوشى بحارة اليهود بدمشق تمكن أهلها من اقتناصه مع خادمه والفتك به، وألقى القبض على عدد كبير منهم وأقر أحد المتهمين بقتل الراهب لأخذ دمه، وأثبت ذلك وفحصت الجثة، وتحرى شريف بنفسه المكان وأراد أن يتخذ الإجراءات الصارمة، ولكن عولج الموقف واعتنق الجانى الإسلام حتى ينال العفو، وتدخل "أحد يهود الإنكليز واشترى حرية المتهمين من محمد على باشا بستين ألف كيس"[١٠٢]، كما كانت للمساعى البريطانية فضل فى إنقاذ المتهمين[١٠٣]، هذا بالرغم من موقف فرنسا الذى شابه العطف تجاه المسيحيين. وبذلك ينجلى كيف وجد اليهود المساندة والتأييد.

ولما أراد اليهود أن يحصلوا على أكثر من حقوقهم معتمدين على الظروف المحيطة بهم لم يمكنوا. حقيقة أن الحكم المصرى لم يقف أمام وفودهم التى تلاحقت على فلسطين من الدولة العثمانية، وذلك تطبيقا لسياسة الباب المفتوح فى ظل الأمان الموجود والتسهيلات الخاصة بالأماكن المقدسة، أيضا فقد فكر المسئولون فى امكانية الاستفادة من اليهود القادمين من الآستانة عن الحالة هناك، ولكن لم يتحقق هذا الأمر، وتؤكد مكاتبة رسمية هذا الاتجاه "أن الواجب كان يقضى استجوابهم عن أحوال العثمانيين وإرسال ما يبوحون به"[١٠٤]، وعندما رئى السماح لليهود الإشنكازية أصحاب الحماية "بمشترى الأملاك وأراضى للزراعة وتعاطى الحرث والزرع وتعاطى البيع والشرا وبيع الأغنام والأبقار وتعاطى مصابن ومعاصر بناء، ويدفعوا المرتب للميرى مثل الرعايا"[١٠٥]، لم يوافق مجلس شورى القدس الذى عرض عليه الأمر، ولم يقر إلا "تعاطى البيع والشرا بالتجارة"، وتمت موافقة الجهات المسئولة على قرار المجلس واستصوبته[١٠٦]، وكان قد سبق أن طلب القنصل الروسى من عبد الله باشا رفع المقرر المالى المفروض على اليهود وإعطاءهم حق امتلاك الأراضى فاعترض الوالى[١٠٧]، وحين تنبه محمد على لخطرهم، رفض فى

عام ١٨٤٠ ما عرض عليه بشأن "فتح أبواب فلسطين لليهود"(١٠٨) وعليه يتضح أن تلك العطاءات التى أغدقها الحكم المصرى على اليهود لم تواصل طريقها إذا صادفت ما يكون له مساس بالوضع العام.

وبذلك يتبين موقف محمد على من أهل الذمة فى الشام إبان الحكم المصرى، وكيف أنهم تمتعوا بامتيازات لم يعهدوها من قبله ولا من بعده، فقد أُسبغت عليهم سياسة التسامح، حيث خرجوا من دوائر الاضطهاد وتمتعوا بالحرية والمساواة.

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة ٠

١- الوثائق العربية :

أ- محافظ الأبحاث، أرقـام ٥٦،٥٨،٥٩،٦٠،٦١،٦٢،٦٣،٦٤،٦٥،٦٦،٦٨،٧٠،٧١ وهى الخاصة بمحافظ الشام٠

ب- معية تركى ، محافظ ٢١،٢٣،٢٤ ٠

ج- محافظ الجهادية، محفظة ١ ٠

د- محافظ بحر برا، محفظة ١٨ ٠

هـ- الأوامر والبيورلديات الصادرة من ولى النعم محمد على باشا٠

٢- الوثائق الأجنبية :

F.O. 78, Turkey (Egypt, Syria) : Vols, 257, 283, 319, 320,380

ثانيا : الوثائق المنشورة ٠

١- الوثائق العربية :

أ- الأوارق السياسية التى تحمل عنوان "الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا" جمعها وضبط قراءتها ووضع فهارسها أسد رسم فى خمسة مجلدات، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت (١٩٣٠ - ١٩٣٣)٠

ب- فتوحات إبراهيم باشا فى فلسطين ولبنان وسوريا نقلا عن تقارير أنطون كتافاكو قنصل النمسا فى عكا وصيدا، جمعها الخورى بولس قرالى، ونشرت عام ١٩٣٧ ٠

جـ- وثائق أساسية فى تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ - ١٩٢٠، جمعها عبدالعزيز نوار، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤ ٠

٢- الوثائق الأجنبية :

A-Cattaui, R. La Règne de Mohamed Aly d'Apres les Archives Russes en Egypte, Societe de Geographie d'Egypte, Roma, MCNXXXIV.

B-Douin, G., La Mission du Baron de Boilecomte, L'Egypte et la Syrie en 1833, Societe de Geographie d'Egypte, MDCCCCXXVII .

ثالثا : المذكرات المنشورة .

مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، نشرها وعلق عليها قسطنطين الباشا، لبنان، د.ت .

رابعا : المراجع

١-المراجع العربية :

- أسد رستم، إدارة الشام، دراسة فى كتاب ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٤٨ .
- حبيب جامانى، إبراهيم فى الميدان، دار الهلال، مصر ، ١٩٣٤ .
- عبد الكريم غرايبة، سورية فى القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٢ .
- مؤرخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول، المطبعة السورية، القاهرة، د.ت .
- ميخائيل الدمشقى، تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧هـ إلى سنة ١٢٥٧ هـ (١٧٨٢ – ١٨٤١)، بيروت، ١٩١٢ .
- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، مصر، ١٩٠٨ .

١-المراجع الأجنبية :

- Dodwell, H. The Founder of Modern Egypt, A study of Muhmed Ali, Cambridge, 1931.
- Farren, La Syrie Sous L'Administration de Mehémet Ali, W.D.
- Perrier, F., La Syria Sous le Governement de Méhémet Ali Jusqu'en 1840, paris, 1842 0
- Sabry, M., L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, Paris, 1930 .

الهوامش

١) ميخائيل الدمشقى، تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧هـ إلى سنة ١٢٥٧ هـ، ص ص ١٥-٢١ .

٢) F.O. 78, vol. 283, Mr Farren's Answers, No15, Douin, G. La Mission du Baron de Boilecomte, PP. 201- 205.

٣) محافظ الأبحاث، محفظة ١:٥٦ الشام، المكاتبة ٥١، ٦ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م).

٤) الخورى بولس قرالى، فتوحات إبراهيم باشا فى فلسطين ولبنان وسوريا، ص٢١، مكاتبة من كتافاكو إلى البارون دو تنفيل فى ٢٢ ديسمبر ١٨٣١

٥) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٤، ٩ الشام، تلخيص القسم الأخير من الوثيقة رقم ١٣٩، ذو الحجة ١٢٤٨ (١٨٣٣م).

٦) المصدر نفسه.

٧) المصدر نفسه.

٨) المصدر نفسه، محفظة ٦٠، ٥ الشام، تلخيص الوثيقة ٤٣، ٦ ربيع الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)، صورة الوثيقة العربية ٥٠، ٧ ربيع أول ١٢٤٨، محفظة ٦٤، ٩ الشام، تلخيص القسم الأخير من الوثيقة رقم ١٣٩، ذو الحجة ١٢٤٨ (١٨٣٣م).

٩) المصدر نفسه، محفظة ٦٤، ٩ الشام، تلخيص التقرير ٨٧، ١٢ شوال ١٢٤٨ (١٨٣٣م).

١٠) Cattaui, R., La Régne de Mohamed Aly d'Aprés les Archives Russes en Egypte, P. 74.

١١) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، مذكرات تاريخية، ص ٩٦ .

١٢) المصدر نفسه، ص ص ٩٥، ٩٦ .

١٣) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية، غرة ذو العقدة ١٢٤٧، (١٨٣٢م).

١٤) المصدر نفسه، صورة الوثيقة ٤، ٢ذو العقدة ١٢٤٧ (١٨٣٢م).

١٥) المصدر نفسه.

١٦) مؤرخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول،ص ٣٨.

١٧) محافظ الأبحاث، محفظة ٧٠، ١٥ الشام، ترجمة الوثيقة التركية ١٨١-١،٩رجب ١٢٥٤ (١٨٣٨م)، أسد رستم: الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الثانى، ص ١٤١، وثيقة رقم ١٤٨، ١٧ جماد الآخر ١٢٥٠ (١٨٣٤م).

١٨) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٢، ٧ الشام، وثيقة رقم ١٠٠، ١١ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

١٩) المصدر نفسه، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٤، ٢٨ جماد الأول ١٢٤٩ (١٨٣٣م).

٢٠) Cattaui, op. cit, p.74 .

٢١) معية تركى، محفظة ٢٤، دفتر ٥٣، وثيقة رقم ٤٩٣، ٢٤ جماد الآخر ١٢٤٩ (١٨٣٣م).

٢٢) محافظ بحر برا، محفظة ١٨، وثيقة رقم ٤٦، ٥ شوال ١٢٥٢ (١٨٣٧م).

٢٣) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٩، ٤ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٣٢، ٢٠ محرم ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٢٤) المصدر نفسه، صورة الوثيقة العربية رقم ٨٥، ١٥ صفر ١٢٤٨(١٨٣٢م).

٢٥) المصدر نفسه، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، تلخيص الوثيقة رقم ٢٢٢، آخر ربيع آخر ١٢٤٩ (١٨٣٣م).

٢٦) المصدر نفسه، محفظة ٥٩، ٤ الشام، وثيقة رقم ٢، ٤ صفر ١٢٤٩ (١٨٣٤م).

٢٧) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الثانى، وثيقة رقم ١٢٧، ٩رمضان ١٢٤٩ (١٨٣٤م).

٢٨) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٤، ٢ ذو القعدة ١٢٤٧ (١٨٣٢م).

٢٩) المصدر نفسه، محفظة ٥٩، ٤ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٥١، ٢٤ صفر ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٣٠) المصدر نفسه، محفظة ٦٠، ٥ الشام، صورة الوثيقة العربية ٤٤، ٦ ربيع الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٣١) المصدر نفسه، محفظة ٥٩، ٤ الشام، الوثيقة نفسها.

٣٢) المصدر نفسه، صورة الوثيقة العربية ٣٧، ٦ محرم ١٢٤٨ (١٨٣٢).

٣٣) المصدر نفسه، محفظة ٦١، ١٦ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣٦، ٢٣ ربيع الآخر ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٣٤) المصدر نفسه، محفظة ٦٢، ٧ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٤٢، ٣٠ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)، أسدر رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الأول، ص ٦٧ وثيقة رقم ٢٤، ٥ جماد الأول ١٢٤٧ (١٨٣١م)، المجلد الثانى، ص ١٢٨، وثيقة رقم ١٤٣، ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٠ (١٨٣٤م).

٣٥) محافظ الأبحاث، محفظة ٧٠، ١٥ الشام، وثيقة رقم ١٤٣، ٢٢ جماد الآخر ١٢٥٤ (١٨٣٨م).

٣٦) معية تركى، محفظة ٢٣، دفتر ٥٢، وثيقة رقم ٨، ٢٨ ذو الحجة ١٢٤٨ (١٨٣٣م).

٣٧) Douin, op. cit., Le Baron de Boilecomte au Ministre, 31 Août, 1833.

٣٨) Ibid. 6 Mai, 1833

٣٩) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٨، ١٣ الشام، ترجمة الوثيقة رقم ٤٢، ٢٦ محرم ١٢٥٢ (١٨٣٦م).

٤٠) المصدر نفسه، محفظة ٦٣، ٨ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٩٠، ١١ شعبان ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٤١) محافظ بحر برا، محفظة ١٨، رقم ٢٢/١٨، ١٢ ذو العقدة ١٢٥٠ (١٨٣٥م).

٤٢) محافظ الأبحاث، محفظة ٧١، ١٦ الشام، صورة المرفق العربى رقم ٢ للوثيقة التركية المترجمة رقم ٨، ١٠ محرم ١٢٥٥ (١٨٣٩م).

٤٣) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، المصدر المذكور، ص ١٦٤ .

٤٤) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الأول، ص ٨٦، وثيقة رقم ٣٥، ٧ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م)، وثيقة رقم ٥٠، ١١

٤٤) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الأول، ص ٨٦، وثيقة رقم ٣٥، ٧ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م)، وثيقة رقم ٥٠، ١١ شوال ١٢٤٧ (١٨٣٢م).

٤٥) F.O. 78, vol. 319, Campbell- Palmerston, May 18, 1837.

٤٦) الاوامر والبيورلديات الصادرة من ولى النعم محمد على باشا، المجلد الثانى، أمر منه إلى شريف باشا حكمدار إيالات الشام.

٤٧) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، المصدر المذكور، ص ٦٩ .

٤٨) F.O. 78, Vol, 283, Mr Moore 's Answers, Douin, op. Cit, PP. 200, 201, Sabry, L'Empire Egyptien Sous Mohamed Aly et La Question d'Orient, P. 344.

٤٩) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية ٥٣، ١٢ ذو الحجة ١٢٤٧ (١٨٣٢م).

٥٠) المصدر نفسه، محفظة ٦٤، ٩ الشام، ترجمة المضبطة التركية ٣٨، ١٠ ذوالقعدة ١٢٤٨ (١٨٣٣م).

٥١) المصدر نفسه، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٠٥، ١٥ صفر ١٢٤٩ (١٨٣٣م).

٥٢) المصدر نفسه، محفظة ٦٢، ٧ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٠٠، ٢٣ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٥٣) Perrier, F., La Syria Sous Le Government de Mèhèmet Ali Jusqu'en 1840, P.66.

٥٤) محافظ الأبحاث، محفظة ٦١، ٦ الشام، صورة الوثيقة العربية، رقم ٢٢١، ٢٢ ربيع الآخر ١٢٤٨ (١٨٣٢م).

٥٥) أسد رستم، إدارة الشام، ص ١١٤ .

٥٦) Perrier, op, cit, PP. 54- 56.

٥٧) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، المصدر المذكور، ص ٧٦ .

٥٨) المصدر نفسه، ص ٨١ .

٥٩) المصدر نفسه، ص ص ٨٠، ٨١ .

٦٠) معية تركى، محفظة ٢١، ملخص الوثيقة التركية ٥٥٥، ذو العقدة ١٢٤٩ (١٨٣٤م).

٦١) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، ترجمة الوثيقة التركية ٧٨، ٢٢ جماد الثانى ١٢٤٩ (١٨٣٣م)٠

٦٢) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٣٣٥، ١٢٤٩ (١٨٣٤م)٠

٦٣) F.O. 78, Vol, 380, Dr Bowring, July 1839.

٦٤) أسد رستم ، إدارة الشام، ص ١١٣ ٠

٦٥) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، المصدر المذكور، ص ٥٧ ٠

٦٦) عبد العزيز سليمان نوار، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧- ١٩٢٠، ص ٣٠٤

٦٧) Dodwell, H. The Founder of Modern Egypt, P. 156.

٦٨) عبد الكريم غرايبة، سورية فى القرن التاسع عشر، ص ١٣١ ٠

٦٩) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٦، ١ الشام، وثيقة رقم ٣٦، ١٠ رجب ١٢٤٧، وثيقة رقم ٩٥، ٢٩ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م)٠

٧٠) المصدر نفسه، محفظة ٦٢، ٧ الشام، ترجمة الوثيقة رقم ١١٨، ١٣ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)٠

٧١) المصدر نفسه، صورة الوثيقة العربية ١٢١، ١٣ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)٠

٧٢) المصدر نفسه، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٠٣، ١٠ ذو العقدة ١٢٤٧ (١٨٣٢م)٠

٧٣) المصدر نفسه، محفظة ٥٦، ١ الشام، وثيقة رقم ٤٢، ٣ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م)٠

٧٤) المصدر نفسه، صورة ترجمة المكاتبة ٣٨، أوائل رجب ١٢٤٧ (١٨٣١م)، Vol, 283, Campbell's Report.

٧٥) Ibid, Vol. 319, Campbell- Palmerston, May 18,1837.

٧٦) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٩، ٤ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٨٥، ٢٨ محرم ١٢٤٨ (١٨٣٢م)، محفظة ٦٤، ٩ الشام، ترجمة قسم من الوثيقة رقم ١٣٧ ٠

٧٧) المصدر نفسه، محفظة ٦٥، ١٠الشام،تلخيص الوثيقة ١٤، ٦ جماد الأول، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٤، ٢٨ جماد الأول ١٢٤٩ (١٨٣٣م)٠

٧٨) Cattaui, op. cit., Duhamel ? Boghos, Le 3 Juin, 1836.

٧٩) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلد الخامس، ص ٧٨، وثيقة رقم ٥١٧، ٢٤ ربيع الأول ١٢٥٦ (١٨٤٠م)٠

٨٠) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، ترجمة جزء من التقرير ٢٤، ٣ محرم ١٢٤٩ (١٨٣٣)٠

٨١) F.O. 78, Vol. 283, Campbell's Report.

٨٢) Ibid, Vol. 257, Campbell- Palmerston, April 18, 1835.

٨٣) Ibid, Vol. 380, Dr Bowring, July 1839, Farren, La Syrie Sous L'Administration de Mehemet Ali, P. 439.

٨٤) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٧٢، ١٦ ذو الحجة ١٢٤٧ (١٨٣٢م)٠

٨٥) المصدر نفسه، صورة الوثيقة العربية رقم ١٠٦، ١٣ ذو العقدة ١٢٤٧ (١٨٣٢م)٠

٨٦) المصدر نفسه، محفظة ٦٢، ٧ الشام، صورة الوثيقة العربية ٢٢٩، ٢٨ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)٠

٨٧) المصدر نفسه، محفظة ٥٨، ٣ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٤/٧٣، ١٧ ذو الحجة ١٢٤٧ (١٨٣٢م)٠

٨٨) المصدر نفسه، محفظة ٥٩، ٤ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٩١، ٢٩ محرم ١٢٤٨ (١٨٣٢م)، محفظة ٦٠، ٥ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٢١، ٢٥ ربيع الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م)٠

٨٩) الخورى بولس قرالى، المصدر المذكور، ص ٢١، مكاتبة من كتافاكو إلى البارون دوتنفيل٠

٩٠) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٥، ١٠ الشام، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٧١، ١٩ جماد الآخر ١٢٤٩ (١٨٣٣م).
٩١) المبلغ ٧٥٠٠ قرش، الخورى بولى قرالى، المصدر المذكور، مكاتبة من كتافاكو إلى الكافالير اليانو دى بتشوتو، ١٧ يوليو ١٨٣٢ .
٩٢) حبيب جاماتى، إبراهيم فى الميدان، ص ص ٣٨، ٣٩ .
٩٣) أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، المصدر المذكور، ص ١٠٤ .
٩٤) F.O. 78, Vol, 380, Dr Bowring, July 1839, Cattaui, op. cit., P.7. Duhamel a Soliman Pacha, Le 21 Mai 1836.
٩٥) الأوامر والبيورلديات الصادرة من ولى النعم محمد على باشا، أمر منه إلى بوغوص بك، ٢٩ رجب ١٢٥٣ (١٨٣٧م).
٩٦) المصدر نفسه.
٩٧) F.O. 78, Vol. 320, Campbell- Palmerrton, Oct. 4, 1837.

٩٨) محافظ الأبحاث، محفظة ٦٦، ١١ الشام، ترجمة الوثيقة رقم ٩/٢٧٣، ٢٩ ربيع الآخر ١٢٥٠ (١٨٣٧م).
٩٩) F.O. 78, Vol. 32o, op, cit.
١٠٠) محافظ الأبحاث، محفظة ٥٩، ٤ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ١٨٥، ٢٨ محرم ١٢٤٨ (١٨٣٢م).
١٠١) محافظ الجهادية، محفظة ١، رقم قديم ٥٥٧، ٢٨ محرم ١٣٤٨ (١٨٣٢م).
١٠٢) ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص ص ١٢١، ١٢٢
١٠٣) Dodwell, op. cit., PP. 181, 182.
١٠٤) محافظ الأبحاث، محفظة ٦١، ٦ الشام، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨، ٢٩ ربيع الآخر ١٢٤٨ (١٨٣٢م)، محفظة ٦٢، ٧ الشام، ترجمة وتلخيص الجزء التركى من الوثيقة رقم ٥١، ٦ جماد الأول ١٢٤٨ (١٨٣٢م).
١٠٥) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا، المجلدان ٣، ٤، ص ٦٥، وثيقة رقم ٢١٥، ٢٤ محرم ١٢٥٣ (١٨٣٧م).
١٠٦) المصدر نفسه.
١٠٧) محافظ الأبحاث، محفظة ٧٠، ١٥ الشام، ترجمة الوثيقة رقم ٢٨٦، ٨ ذو القعدة ١٢٥٤ (١٨٣٩م).
١٠٨) عبد الكريم غرايبة، المرجع المذكور، ص ١٢٦ .

إدارة الأزمات فى عصر محمد على
حرب المورة نموذجاً

د. يحيى محمد محمود

مقدمـــــــة

"إدارة الأزمات" مصطلح ظهر مع التطور العلمى الحديـــث، خصوصـــاً فـــى مجال العلوم السياسية والإدارية، واستخدام مصطلح حديث للتعامل مع حـــدث قديـــم ليس بدْعاً فى مجال الدراسات التاريخية، إذ هو محاولة لفهم العديد مـــن الأحـــداث التاريخية فى سياقها العام، ولا يعتبر فى نفس الوقت تحميلاً للحدث التاريخى بـــأكثر مما يحتمل، أو تعليباً له داخل قوالب حديثة. ولعلنا بهذا نستطيع تقييـــم أدوار مـــن اضطلعوا بهذا الأحداث وما واجهوه من أزمات مع افتقادهم للمعرفة التى تقدم وسائل مواجهة الأزمة آنئذ. وسنتعرض من خلال هذه الدراسة لمدى قدرة "محمد على" على إدارة الأزمات متخذين من حرب المورة نموذجاً.

مفهوم الأزمة :

الأزمة هى حدث غير مرغوب فيه، يهدد بشدة النظام القائم[١]، فهى عبارة عن مواقف مركبة تتحدى النظام بأكمله، كما تتحدى افتراضاتـــه الأساســية، وتتطلـــب تصرفات وقرارات عاجلة ومستحدثة، تؤدى فيمـــا بعـــد لمراجعـــة دقيقـــة للنظـــم والافتراضات الأساسية من قبل أعضاء هذا النظام[٢].

وترجع أهمية دراسة الأزمات فى أنها تظهر مدى القدرة التحليلية والإدراكيـــة للإدارة أثناء الأزمة[٣]، وتبين تأثير الضغوط المصاحبة للأزمة على عمليـــة اتخـــاذ القرارات[٤]، إضافة إلى قدرة الإدارة على التغلب على العديد من المخاطر وتؤكد فى نفس الوقت قدرة القيادة على التحكم فى مصيرها، واتخاذ القرارات[٥].

هناك عدة أنواع عديدة من الأزمات منها الأزمات الاقتصادية، والاجتماعيـــة،

والخاصة بالكوارث الطبيعية[٦] بالاضافة إلى الأزمات السياسية ، وقد واجه محمد على العديد من تلك الأزمات نظراً لطول فترة حكمه والتى زادت عن أربعين عاماً، ولما كان من الصعب دراسة كل هذه الأزمات فى هذه المساحة، لذا تخيرنا أخطر هذه الأزمات ألا وهى حرب المورة كنموذج، يبين الأسلوب الذى اتبعه محمد على فى إدارة تلك الأزمة.

ويرجع اختيارنا لهذه الحرب لتجلى شروط الأزمة فيها، فهى أزمة كادت أن تعصف بمحمد على وجيشه، وابنه وقائد جيوشه إبراهيم باشا، كما أدت إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية داخل البلاد، والناتجة عن محاولة توفير التمويل اللازم للجيش، بالإضافة إلى انخفاض النيل عامين متتاليين فى أثناء تلك الأزمة، مما زاد من صعوبة الأزمة الاقتصادية، فهى أزمة نموذجية بكل المقاييس يمكن من خلالها دراسة أسلوب محمد على فى الإدارة.

إدارة الأزمة :

إدارة الأزمة هى العملية الإدارية المستمرة التى تهتم بالتنبؤ بالتطور المحتمل للأزمة، وذلك عن طريق الاستشعار ورصد المتغيرات المولدة لتلك التطورات، وتعبئة الموارد والإمكانيات المتاحة للتعامل مع الأزمة بأكبر قدر ممكن من الكفاءة والفاعلية وبما يحقق أقل قدر ممكن من الخسائر، مع ضمان العودة للأوضاع الطبيعية فى أسرع وقت وبأقل تكلفة ممكنة، وأخيرا دراسة أسباب الأزمة لاستخلاص النتائج لمنع تكرارها، أو تحسين طرق التعامل معها مستقبلا، مع محاولة تعظيم نتائجها الإيجابية بأقصى درجة ممكنة[٧].

وقبل التعرض لتلك الأزمة سنعرض فى عجالة لحرب المورة.

حرب المورة

بدأت حرب التحرير اليونانية عام ١٨٢١م، عندما ثار اليونانيون على الحكم

العثمانى لبلادهم، وطالبوا باستقلالها عن الدولة العثمانية، وقد هاجم الثوار اليونانيون القوات العثمانية فى وسط اليونان، وفى العديد من جزر البحر الكاريبى طوال الفترة من ١٨٢١-١٨٢٥م، حيث توالت الهزائم على القوات العثمانية الواحدة تلو الأخرى، ولم يكن أمام السلطان سوى الاستعانة برجله القوى محمد على باشا(٨).

لم تكن بلاد اليونان بعيدة عن اهتمام محمد على، إذ سبق له أن أرسلى ٤٤٠٠ جندى إلى كريت فى ١٩ ذى الحجة ١٢٣٦هـ/١٦ سبتمبر سنة ١٨٢٠ م بقياد حسن باشا(٩)، فى الوقت الذى كان يتابع فيه عن كثب ما يحدث فى المورة، ويحيط نجله إبراهيم باشا علما أولا بأول بما يجرى وحتى قبل أن يطلب منه السلطان القضاء على ثورة المورة(١٠). وفى نفس الوقت كان محمد على يدخر قوته وجيوشه، فحين طلب منه السلطان أن يرسل إبراهيم باشا إلى العراق لقيادة القوات العثمانية المدافعة عن بغداد وأرضروم، اعتذر محمد على بحجة إنشغاله فى كريت والسودان فى ١٥ شعبان سنة ١٢٣٨هـ / ٢٨ ابريل سنة ١٨٢٢م(١١)، واحتفظ محمد على بابنه وجيشه لمهام أخرى كان يتطلع إليها ألا وهى الحصول على ولاية المورة.

لهذا سعد محمد على بإسناد مهمة القضاء على ثورة بلاد اليونان (مأمورية مورة) فى غرة رجب ١٢٣٩هـ/٢٢مارس سنة ١٨٢٤، فكتب محمد على للصدر الأعظم معربا عن شكره وسعادته بتولية تلك المأمورية (١٢)، كما أعرب عن نفس السعادة فى كتاباته لكبار الموظفين العثمانيين مثل سلحدار الحضرة الشاهانية، وناظر الضربخانة(١٤)، وغيرهم ممن أرسل إليهم برشاويه ، والتى تضمنت إرسال ٢٠ألف قرش لأحد موظفى الديوان السلطانى فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٣٩هـ/٢٠ يوليو ١٨٢٤م(١٥)، و١٠ آلاف قرش إلى أغا دار السعادة فى نفس اليوم(١٦)، أما شيخ الإسلام الذى كان أعلى مقاما فقد أرسل إليه ٣٠ ألف قرش(١٧)، كما أرسل ١٠ آلاف قرش لكل من محافظ الاستانة(١٨)، وأمين الضربخانة(١٩)، وامين الترسانة(٢٠)، وتحفل مراسلات محمد على بقائمة كبيرة من الموظفين الذين أرسل لهم النقود على سبيل

الهدية (الرشوة) بمناسبة إسناد مهمة المورة إليه[٢١]، والتى تولى توزيعها عليهم وكيل بالاستانة نجيب أفندى.

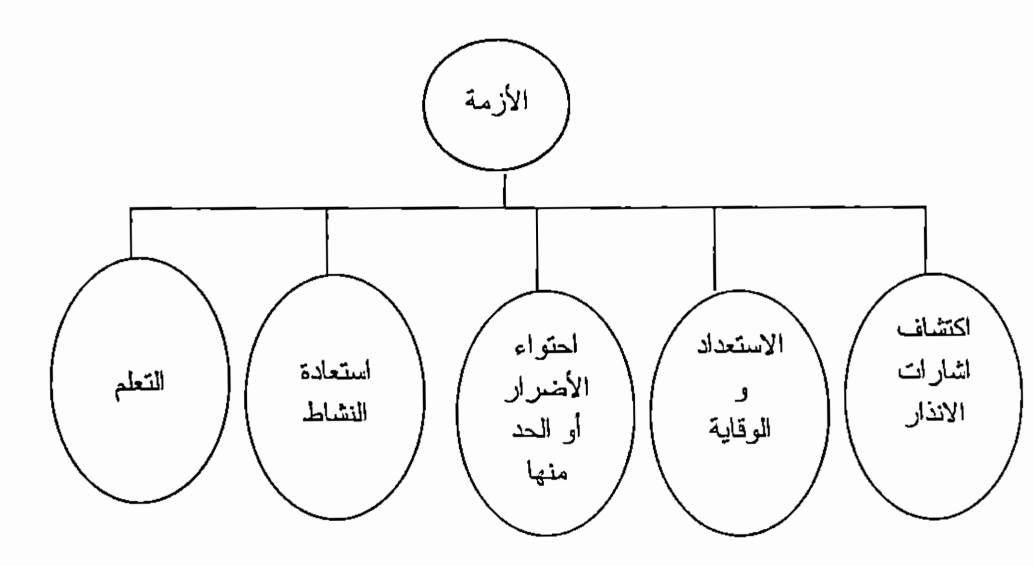
ولم تكن مأمورية محمد على فى المورة مفروشة بالورود، فسرعان ما أثقلت تكاليفها الباهظة ماليته، والتى تضمنت إعداد الجند والمؤن، وصرف الرواتب وشراء الذخائر وإذا أضفنا إلى ذلك التدخل الأوروبى الكبير ضد محمد على[٢٢]، وفرض الحصار على سواحل اليونان، وتدمير الأسطول المصرى فى نفارين[٢٣]، وقطع خطوط إمدادات الجيش المصرى، فسنجد أن الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا أصبح مهدد بالفناء جوعا فى اليونان، كما أصبح محمد على مهددا بفقد ابنه وقائد جيوشه فى اليونان، وتحول أمله فى مأمورية المورة إلى أزمة حادة، بعد أن فقد حوالى ٣٠ ألف جندى وأسطوله البحرى، الذين انفق على تجهيزهما ما يقرب من ٧٧٥ ألف جنية [٢٣].

قد زادت حدة الأزمة عندما رفضت الدولة العثمانية الانسحاب من المورة، بل طلبت من محمد على الاستمرار فى القتال، دون أن تدعم قوات إبراهيم باشا بأية امدادات ، وأصبح محمد على مهددا فى ولايته على مصر من قبل الدول الأوروبية. وهكذا اتضحت كل مظاهر الأزمة، فى موقفه الصعب الذى يهدد بفقدانه جيشه، وولده، وولايته فىحال الاستمرار فى الحرب واستعداء الدول الأوروبية أو الانسحاب منها والخروج عن طاعة السلطان .

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن كيف كانت إدارة محمد على لتلك الأزمة؟

مرت إدارة محمد على للأزمة بخمس مراحل أساسية يوجد بينها تداخل ، ولكن يمكن استنتاج مراحل إدارة محمد على للأزمة من الشكل التوضيحى رقم (١) الذى يبين مراحل إدارة محمد على للأزمة.

شكل رقم (١) يبين مراحل إدارة محمد على للأزمة



من هذا الشكل نرى أن إدارة محمد على للأزمة قد مرت بخمس مراحل، المرحلة الأولى تمثلت فى اكتشاف محمد على للأزمة، والمرحلة الثانية تمثل مرحلة الاستعداد والوقاية، أما المرحلة الثالثة فكانت احتواء الأضرار ومحاولة الحد منها، وفى المرحلة الرابعة كانت استعادة محمد على لنشاطه، وأخيرا تأتى المرحلة الخامسة وهى مرحلة التعلم والاستفادة من دروس الأزمة وسنعالج كل من هذه المراحل كل مرحلة بالتفصيل.

أولا: المرحلة الأولى : (الاكتشاف)

تتمثل تلك المرحلة فى اكتشاف إشارات الإنذار التى تنبئ عن الأزمة، وقد اكتشف محمد على أنه مقبل على مواجهة الدول الأوروبية من تحذير القنصل الفرنسى بالقاهرة له، إذ حذره من أن الدول الأوروبية تراقب بعين القلق ما يحدث فى المورة، وأن دخول جنوده والجنود الأتراك لبلاد اليونان لن يمر بسهولة، وأن

عليه (محمد على) أن يحاول منع دخول هؤلاء الجنود لبلاد اليونان[٢٤].

كان هذا الإنذار الودى عن طريق القنصل الفرنسى بمثابة جرس إنذار لمحمد على بأن هناك أزمة سياسية مقبلة فى حال تدخله فى اليونان، والتى كانت قد سبقتها أزمة اقتصادية لتدبير الموارد المالية اللازمة للوفاء بالذخائر، والإمدادات العسكرية اللازمة لتلك القوة العسكرية الموجودة باليونان[٢٥].

وعلى الرغم من خطورة الموقف فقد دفع محمد على بقواته إلى اليونان والتى راح يعمل لتأمين وصول الامدادات إليها بوضع الأسطول العثمانى تحت قيادة إبراهيم باشا ، ليس لضمان وصول الامدادات فحسب ، بل وتسهيل نقل التعليمات بين مصر واليونان .

لهذا عاود محمد على مطالبة السلطان بوضع الأسطول العثمانى تحت قيادة إبراهيم باشا وهو طلب سبق له أن طلبه من السلطان من قبل فى غرة رجب سنة ١٢٣٧ هـ/ ٤ إبريل سنة ١٨٢٠م[٢٥]، قبل إسناد مهمة القضاء على ثورة المورة إليه وعاد ليكرر نفس الطلب مرة ثانية فى ١٥ شعبان سنة ١٢٣٩هـ/١٤ إبريل سنة ١٨٢٤م[٢٧]، ثم فى ٧ جماد أول سنة ١٢٤٠هـ/١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٤م[٢٨]، ولكن السلطان العثمانى عين خسرو باشا خصم محمد على قائدا للأسطول العثمانى، قد وصل خسرو بأسطوله للإسكندرية فى ٣ ربيع أول سنة ١٢٤١هـ/١١ أكتوبر سنة ١٨٢٥م[٢٩]، مما أدى إلى عجز محمد على عن التغلب على نقطة ضعفه تلك والناتجة عن تعنت السلطان العثمانى، وكانت قيادة خسرو الضعيفة للأسطول أحد أسباب تدميره فى نفارين.

وقد أخذ الضغط الأوروبى يزداد، وبدأ محمد على من خلال السفن التجارية يعرف بفرض الحصار على بلاد المورة، كما حملت له الأخبار عن حصار الجيش المصرى، واشتدت الازمة حين وجد جيشه مهددا بالفناء جوعا على يد الدول

الأوروبية، التى احكمت حصارها حول اليونان[٣٠].

من جهة أخرى كانت مصر تعيش فى أزمة أخرى حيث واصل النيل انخفاضه للعام الثانى على التوالى[٣١]، واصبح السؤال الكبير آنئذ كيف يمكن تدبير تموين ذلك الجيش الضخم فى بلاده المورة، مع انخفاض موارد مصر، وما هى الاساليب اللازمة للخروج من الأزمة؟.

المرحلة الثانية : (الاستعداد والوقاية)

بدأ محمد على محاولات وقاية جيشه بالسير فى عدة اتجاهات، كان أولها حث السلطان العثمانى نفسه على قبول الصلح مع الدول الأوروبية، وثانيها هو محاولة امداد جيشه بالمؤن والأغذية، أما ثالث هذه الاتجاهات فكان إخراج جيشه من الموره رغم إرادة السلطان ان تعذر الاتجاهان الأولان.

ففى الاتجاه الأول بدأ محمد على من خلال وكيله بالاستانه نجيب أفندى فى تصوير الموقف المتأزم للجيش المصرى فى المورة، حتى لا يندفع السلطان العثمانى إلى مزيد من المواجهات العسكرية غير المحسوبة، والتى قد تؤدى إلى إهلاك جيشه[٣٢]، ولكن السلطان العثمانى لم يصغ لمحمد على ولم تفلح محاولات محمد على فى الحصول على الموافقة على سحب جنوده من المورة، مما دفعه إلى أن يسلك مسلكاً آخراً فى محاولة لإمداد جنوده بالذخائر من الاستانه.

بعد أن تم تدمير الأسطول المصرى والعثمانى فى نفارين، استحال امداد الجيش المصرى المحاصر فى المورة بالمؤن والذخائر بحراً، على حين كان ذلك أسهل باستخدام الطريق البرى من الدولة العثمانية ، التى كان ما زال لها ممتلكات أوروبية يمكن من خلالها إمداد الجيش بالمؤن براً، فكتب محمد على للسلطان طالباً إمداد جيشه[٣٣] بالمؤن إلا أن السلطان لم يفعل شيئاً لذلك الجيش[٣٤]، وبدأ ضعف الدولة العثمانية يبدو واضحاً لمحمد على.

ولكى يدفع السلطان للإسراع بنجدة إبراهيم أرسل محمد على لوكيله بالاستانه ليخبره بوقوع تمرد عسكرى بين الجنود بسبب عدم صرف رواتبهم، وأنهم خرجوا عن طاعة إبراهيم، مما سيضطره للعودة بجنوده إلى مصر [٣٥]، بعد أن شارفوا على الهلاك[٣٦]، الا أن تلك الصيحات ضاعت سدى إذا كانت الدولة العثمانية اضعف من أن تنجد جيشاً، واقصر نظراً من أن ترى أبعاد تلك الأزمة، لذلك ظلت على موقفها المتقاعس، متشبسة برأيها فى ضرورة قمع ثورة اليونانيين، والإبقاء على إبراهيم باشا بالمورة للدفاع عن الدولة العلية رغم حصار الدول الأوروبية له، هنا بدأ محمد على فى محاولة احتواء الخسائر والحد منها وهو ما سنتناوله بالتفصيل.

المرحلة الثالثة : (احتواء الأضرار أو الحد منها):

تمثلت تلك المرحلة فى الخطة التى وضعها محمد على لاحتواء الخسائر الناتجة عن الأزمة على محاور عدة :الأول هو محاولة توفير التموين ذاتياً من داخل المورة، والثانى مفاوضة الدول الأوروبية على الخروج بجيشه من المورة، والمحور الثالث هو محاولة التغلب على آثار تلك التصرفات والتى قد تحدث فى الاستانة، وهو المدرك جيداً لطبيعة الدولة العثمانية.

بدأ محمد على أولاً بمحاولة توفير التموين لقواته من المورة نفسها باستخدام الطريقة التى استخدامها فى السودان، حيث كان إبراهيم يجلب العبيد والذهب ويستخدم إيراداته من بيع العبيد فى تمويل الحملة[٣٦]، فبدأ إبراهيم بتعليمات من محمد عِلى فى مهاجمة القرى والمدن للحصول على تموين جيشه من تلك البلاد[٣٧]، واستغلال ذلك فى الضغط على الدول الأوروبية لفتح الطريق البحرى لإمداد إبراهيم بالمؤن حتى لا يضطر إلى الهجوم على الأهالى للحصول على تموين جنوده فى الموره[٣٨].

وفى نفس الوقت دأب محمد على على إصلاح ما بقى من السفن الحربية

والتى عادت من نفارين، ومحاولته بناء العديد من السفن لاستخدامها فى امداد جيشه بالمؤن، وطلب من نجيب أفندى إمداده بالأخشاب من الأناضول[٣٩]، كذلك حاول الحصول عَلى الأخشاب من الشام، ولكن ذهبت كل تلك المحاولات سدى وهو ما دفعه بعد ذلك إلى طلب ولاية الشام، حتى يتمكن من تكوين فرق عسكرية جديدة ويبنى أسطولا جديدا[٤٠].

هذا فى الوقت الذى اتجه فيه محمد على إلى الدخول فى مفاوضات مع الدول الكبرى لحل الأزمة سياسيا وتهيئة الاستانة ، لتقبل فكرة انسحاب قوات من المورة، فى نفس الوقت الذى يعد فيه الاذهان فى الاستانة لتقبل خروج جيشه من المورة بإرسال ما يصله من معلومات للباب العالى عن قوة الجيوش الفرنسية والبريطانية الى انتقلت من أسبانيا والبرتغال إلى المورة[٤١]، وتصوير حالة جنوده الذين شارفوا على الهلاك[٤٢]، ومطالبة السلطان بالموافقة على عودة عددا من الجنود المصريين على أن يعودوا إليها مرة أخرى [٤٣]، ثم عاد ليخبر السلطان أن الجنود قد خرجوا عن طاعة إبراهيم، وأنهم سيعودون لمصر على سفن أجنبية وسيعيدوا إبراهيم معهم بالقوة[٤٤].

وبينما كان محمد على يعمل على تهيئة الاستانة لقبول فكرة انسحاب قواته من المورة، فقد دخل فى مفاوضات مع الدول الأوربية للتوصل إلى ترتيبات لسحب جيشه مع التعهد بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر، مقابل إعادة الأسرى المصريين والسفن التى أسرت أيضا، وأن يترك عددا محدودا من الجنود المصريين للمحافظة على الأمن فى خمس مدن يونانية هى مودرن وكورون ونفارين وباتراس وكستل توريزه، وتخلى باقى المواقع وهكذا خرج الجيش من الموره بعد أن فقد ٣٠ ألف من جنوده وعاد الباقون إلى مصر على متن سفن أجنبية[٤٥].

وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه خروج الجيش من المورة رغم إرادة السلطان عمل محمد على على امتصاص آثار ذلك الموقف عند السلطان العثمانى والتصدى لتصوير ذلك الخروج عن رغبة السلطان بأنه محاولة للانفصال بمصر، ربما يرجع ذلك إلى رغبته فى الحصول على ولاية الشام من السلطان، لا إلى خوفه منه بعد ما أصبح يراه فى حجمه الحقيقى، فكتب لوكيله بالآستانه، ولكبار الموظفين - الذين دأب على رشوتهم - بأنه لا يرغب فى الانفصال عن الدولة الا أنه يفضل استخدام الحيله لإخراج جنوده من الموره بسلام، حتى يمكنه استرداد قوته لمساعدة السلطان بعد ذلك(٤٦).

وقد حاول محمد على استخدام شيخ الإسلام بالاستانه والذى دأب على رشوته - كما رأينا - فى حث الدولة العثمانية على القبول بمفاوضة الدول الأوروبية مباشرة، فكان يبلغه بما يصله من أخبار من الأجانب عن عزم الدول الأوروبية مهاجمة الدولة العثمانية، وكان يطلب منه إبلاغ ذلك لكبار المسؤلين دون الإشارة إلى أن تلك المعلومات جاءته من طرف محمد على(٤٧).

كما حاول محمد على إقناع شيخ الإسلام بإصدار فتوى تجيز مطالب اليونانيين والدول الأوروبية فى الحصول على كامل الحرية، وأن كان ذلك مضرا للدين والدولة - فى رأى محمد على وشيخ الإسلام- إلا أنه يجوز موافقة الدول الأوروبية كنوع من الحيل "اقتداء بأعمال ولاة أمور الإسلام السالفين حتى يمكن الوصول لأسباب عمارية البلاد"(٤٨)، أى أن قبول مطالب البلاد الأوروبية بإطلاق الحريات يمكن الموافقه عليه كشكل من أشكال المناورة السياسية(٤٩).

وهكذا نرى أن محمد على قد نجح فى الحد من خسائره بالاستمرار فى مواجهة الجيوش الأوروبية، وبتقليل خسائره بسحب قواته من المورة، رغم رفض السلطان لذلك الانسحاب.

المرحلة الرابعة : (استعادة النشاط)

بدأ محمد على فى إعداد خططه لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الأزمة، وذلك بإعادة بناء جيشه وأسطوله، ويلاحظ أن محمد على بدأ ذلك فور وصول نبأ تدمير الأسطول المصرى فى نفارين فى ثلاث ساعات ونصف، حيث كتب لطاهر باشا "أنه لابد من تجديد دوننمه أخرى أقوى"[٥٠]، وهنا نجد أن محمد على رغم ما يشعر به من حزن وأسى لفقدانه اسطوله الا أنه يقرر فى نفس اللحظة ضرورة بناء أسطول جديد.

كذلك نجد إبراهيم باشا يشرع فى تكوين فرق عسكرية جديدة بعد وصوله إلى مصر بأيام قليلة، هذا ما يمكن استنتاجه من مكاتبات محمد على، فقد كتب لكتخدا بك أن "نجله إبراهيم باشا الذى هو إكسير فؤاده قد شرف ثغر الإسكندرية بالسلامة" يوم ٤ ربيع ثانى سنة ١٢٤٤هـ /١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٨[٥١]، وبعد ذلك بعشرة أيام أمر محمد على كتخدا بك بصرف "٥٠٠ كيس من خزينة الإسكندرية وإرسالها إلى ناظر الجهادية محمود بك على ذمة مشترى الخيول اللازمة للآلايات السوارى التى صار تشكيلها حسب طلب نجله إبراهيم باشا بناء على التماس ناظر الجهادية[٥٢].

وهكذا نرى أنه بعد عشرة أيام فقط بدأت الخطوات التنفيذية لإعادة تشكيل وحدات الجيش، وهذا يعنى أنه قد تم تحديد الوسائل اللازمة لإعادة بناء الجيش، كما تم تحديد متطلبات إنشائه، وتقدير التكاليف، ومن هذا نرى أن محمد على استخدم إمكانياته لإعادة بناء جيشه بدلاً من إنفاقها فى حرب خاسرة فى المورة، وبتكاليف أقل من تكاليف الحرب، وهذه القوة الجديدة التى يبنيها تمكنه من أن يحمى ولايته فى مصر، حتى لا يُضيع ما حققه من مكاسب طوال ٢٥ عاماً فى صراع مع الدول الكبرى.

وقد ساعد إنهاء الأزمة فى نفس الوقت على إعادة الاستقرار للبلاد، بتخفيض

تكاليف الحرب الباهظة، وإعادة جو الأمان للجنود الذين مات منهم ما يزيد على ٣٠ ألفا فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وقد شهد الريف المصرى اضطرابات بسبب التجنيد، لا سيما بعد أن أصبح الأبناء يغادرون قراهم لسنوات طويلة وقد لا يعودون، مما ساعد على ظهور اتجاه لتشويه الأطفال حتى لا يتم تجنيدهم مستقبلا، وكان على محمد على أن يتصدى لتلك الظاهرة الجديدة من تشويه الأطفال حتى يصبحوا غير لائقين لأداء العسكرية[٥٢].

خامسا : (مرحلة التعلم)

تبدأ مرحلة التعلم بتقييم عناصر الأزمة وتحليلها ودراسة أحداثها وردود الفعل، ولعل هذه الخطوة من أهم العوامل التى تزيد من قدرة الحاكم المستقبلية فى التعامل مع الأزمات المختلفة، فلاشك أن الحاكم الذى يجتاز أزمة معينة يكون أقدر وأنجح فى التعامل مع الأزمات المستقبلية، حيث تتوفر له ولمساعديه الخبرة والمعرفة مما يؤدى إلى الارتقاء بأدائه بعد الأزمة[٥٣].

ويلاحظ أن مرحلة التعلم عملية مستمرة مصاحبة لجميع تطورات ومراحل الأزمة من اكتشاف للإشارات ، إلى اتخاذ الإجراءات الوقائية للمنع أو الاستعداد، وأخيرا استعادة النشاط، ففى كل مرحلة من مراحل إدارة الأزمة يمكن مراجعة الأحداث المشابهة وتلافى السلبيات والعمل على عدم الوقوع فى الأخطاء مرة أخرى.

ويمكن استخلاص الدروس التى استوعبها محمد على من الأزمة من خلال أوامره التى أصدرها عقب تلك الأزمة، ومن خلال تحليل الأحداث التى وقعت بعد ذلك وطريقته فى التعامل معها، إذ لا نستطيع الزعم بأنه يوجد لدينا حصر للدروس التى استخلصها من تلك الأزمة، خصوصا أننا نتعامل مع أحداث تاريخية انتهت إلا أنه يمكن استنتاج تلك الدروس من خلال سياسة محمد على نفسه بعد حرب المورة.

لعل أهم هذه الدروس هو الوقوف على إمكانيات السلطان العثمانى ، والعمل للخروج عليه دون مخاوف ، لا سيما بعد أن فشلت محاولات اقناع السلطان بالتفاوض مع الدول الأوروبية لحل الأزمة سياسيا ، والتى اعتبرها محمد على ضرورة استراتيجية حتى يمكن إعداد قواته مرة ثانية [٥٤]، حيث قرر محمد على مفاوضة الدول الكبرى مباشرة ووقع معها اتفاقا نص على جلاء قواته عن المورة فى أغسطس سنة ١٨٢٨ دون اطلاع السلطان عليها [٥٥] ، ثم سارع بنقل جنوده إلى الاسكندرية على سفن أجنبية استأجرها بالاضافة إلى مالديه من سفن [٥٦]، وهكذا حصل محمد على على مكانة دولية بعيدا عن السلطان وهو ما أثار السلطان العثمانى .

ومما لا شك فيه أن هذا الاجراء أظهر محمد على بمظهر المتصرف غير التابع للسلطان العثمانى ، واعتاد محمد على على رفض بعض طلبات السلطان بلا حرج ، فقد رفض طلب السلطان امداده بضباط مصريين لتدريب الجنود العثمانيين على النظم الحديثة متعللا بأن ضباطه قد تم تدريبهم على يد ضباط أوربيين تختلف عاداتهم عن هؤلاء العثمانيين ويحصلون على رواتب أعلى مما سيؤدى لوقوع اضطرابات بينهم وبين هؤلاء العثمانيين [٥٧] ، وحين قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٢٨ [٥٨]، رفض محمد على مساعدة السلطان حتى لا تتأثر قوته كما حدث فى حرب المورة ، مما أدى إلى هزيمة السلطان وتوقيعه لصلح أدرنه فى أكتوبر ١٨٢٩ والذى يبيح لروسيا حق الملاحة من البحر الأسود إلى المتوسط والاعتراف باستقلال اليونان [٥٩].

أما أهم الدروس التى تعلمها محمد على من الأزمة هو ضرورة تحديث جيشه، بعد أن بهر إبراهيم باشا فى المورة بالتنظيم العسكرى الحديث للجيوش الأوروبية لا سيما الفرنسيين ، وشروعه بعد الحرب فى اعادة تكوين جيشه على أسس فرنسية فى أعقاب عودته من المورة [٦٠]، لهذا استقدم محمد على مزيدا من المعلمين الفرنسيين

لتدريب الجيش المصرى مثل الجنرال بليار [٦١]، فى محاولـــة لامتــلاك مؤسســة عسكرية تفوق المؤسسة العثمانية .

ثالث الدروس التى تعلمها محمد على من أزمة الموره هو ضرورة ضم الشـلم لمصر وذلك لاكتشافه أنها عمق استراتيجيى، يؤدى لزيادة قدرات مصر العســكرية، كما أن ثروات وإمكانيات الشام لم تكن بعيدة عن ذهن محمد على، إذ كان يدرك مــا للمنطقة من موارد، وكان يعتمد على الأمير بشير، الذى ساعده من قبل على العــودة إلى الشام، على أن يلتزم الأمير بشير بامداده بعشرة آلاف جندى بقيادة أكبر أبنائــه وقت الحاجة إلى ذلك، إلا أنه لم يوف بوعوده حين طلب منه محمد على ذلك، متعللا بنقص موارده[٦٢]، لهذا لم يكن أمام محمد على سوى طلب ولاية الشام لنفسه ولابنــه إبراهيم، "من أجل تنظيم ادارتها وتشكيل قوة عســكرية مــن ٤٠ ألــف عســكرى نظامى"[٦٣].

ولإدراك تأثير حرب المورة على طلب محمد على لولاية الشام ، نجده يخــبر ابنه إبراهيم بطلب ولاية الشام فى نفس الرسالة التى أخبره فيها باتفاقه مع الإنجلــيز على الجلاء عن المورة، وطلب منه فيها إخلاء المورة[٦٤].

لهذا نجد أن نجيب أفندى كتخذا محمد على فى الاستانه بدأ مســاعيه لتعييــن محمد على واليا على الشام، واراد الباب العالى احراج محمد على، فطلب من نجيب أفندى أن يتقدم محمد على شخصيا بطلبا رسميا موقعا منه يطلب فيه تعيينــه واليــا على الشام، وحين أرسل نجيب أفندى الطلب إلى محمد على لتوقيعه وبخ محمد على نجيب أفندى لطلبه هذا، وطلب منه السعى لدى كبار الموظفين العثمانيين، لأنه لــم يحدث أن تقدم محمد على بطلب مماثل فى أى من الأمور التى اسندت إليه[٦٥].

ولم يكن محمد على ليستطع وحده الخروج بتلك الدروس وإدارة الأزمة، بــل كان هناك فريق ساعده فى إدارتها وأن كان محمد على يعد أهم أفراد هــذا الفريــق

وعصبه الرئيسى وهو ما سنلقى عليه الضوء .

فريق إدارة الأزمة [٦٦]:

لقد أدار محمد على أزمة حرب المورة معتمدا بشكل أساسى على جهازه الإدارى الذى كان يقوم بإدارة شئون الدولة، ويمكن القول أن الأزمة قد أديرت من خلال فريق مكون – إضافة لمحمد على نفسه – من ولده إبراهيم باشا، ووزير خارجيته بوغوص بك يوسفيان، وقائد بحريته محرم بك، بالإضافة إلى نجيب افندى كتخداه بالاستانه، ويلاحظ على هذا الفريق أنه مكون من فردين من أسرة محمد على إلى جوار بوغوص بك ونجيب أفندى وكيله بالاستانه.

وقد كان محمد على قائد هذا الفريق، ولا يجوز لأى من هؤلاء أن يبت فى أمر من أمور الأزمة الا بعد الرجوع له شخصيا بما فى ذلك تحركات إبراهيم باشا التى لم تكن تتم دون مشورة محمد على الذى كان الدينامو المحرك لكافة الأمور من مصر، التى كانت تشكل مركز القيادة للقوات الموجودة فى اليونان، ومركز إدارة الأزمة.

أما إبراهيم باشا فقد كان قائد القوات الميدانية والمنفذ لتعليمات محمد على الخاصة بكافة شئون الأزمة من أمور مالية وسياسية وعسكرية، وهو القائد المباشر للقوات المقاتلة فى ميادين القتال[٦٧].

أما بوغوض بك فقد تولى الاتصالات الخارجية مع القناصل الأجانب، ومفاوضة الدول الأجنبية[٦٨]، كما قام بتدبير جميع الموارد المالية اللازمة للباشا لإدارة الأزمة[٦٩].

أما محرم بك فقد كان صهر محمد على – زوج ابنته توحيده هانم – وقائد الأسطول، ولعب دورا مهما فى إدارة الأزمة من خلال تدبير وسائل الانتقال وذلك عن طريق الأسطول المصرى، وكان همزة الوصل بين محمد على وإبراهيم باشا،

باستخدام الأسطول المصرى الذى تم تدميره فى نفارين،ثم انتقل بعد ذلـــك للعمـل كمحافظ للإسكندرية(٧٠).

وكان نجيب أفندى كتخدا محمد على فى الاستانه، والممثل لــه أمــام البــاب العالى، وقد لعب نجيب أفندى أدوار مهمة فى توزيع رشاوى محمد على على كبــار المسئولين العثمانيين، وفى توصيل بعض المعلومات التى يريد محمد على إبلاغــها للباب العالى بشكل غير مباشر، حيث كان يقوم بتسريب المعلومات لكبار الموظفيــن الذين ينقلونها بدورهم للسلطان، كذلك قام نجيب أفندى بجمع المعلومات المختلفة مـن كافة المصادر وإرسالها إلى محمد على فى مصر(٧١)، ويمكن القول أنه كــان عيــن محمد على الساهرة فى الاستانة، كما كان المتحدث باسمه فى طلب ما يريد(٧٢).

وقد طلب محمد على من نجيب افندى إزاحة بعض كبار الموظفين العثمــانيين مثل دفتر دار كريت، وخسرو باشا، والذى فشل نجيب أفندى فى إزاحته ممــــا أدى إلى غضب محمد على عليه (٧٣).

والملاحظ أن محمد على كان يحلل المعلومات التى ينقلها إليه نجيب أفندى من الاستانة، ولا يتلقاها على أنها أمر مسلم به، فحين أخبره أن أمريكا اتفقت مع الــدول العليه على مقاومة فرنسا وانجلترا، أبدى محمد على استغرابه لذلك، واتهمه بقصـــر النظر، وعدم الوقوف على أحوال أوروبا(٧٤). فقد توافرت لديه بصيرة القائد، لذلـــك نجده بارعا فى رسم السيناريوهات وهى أحد خصائص القائد النـــاجح ، وهــو مــا سنلقى عليه الضوء.

محمد على رسم اسوأ السيناريوهات :

امتاز محمد على طوال الأزمة بقدرته الدائمة على رسم أسوأ ســـيناريو لمــا يمكن أن تصل إليه الأمور، وقد ساعده ذلك على وضع قواعد للأمان لإدارتــه فقــد افترض حدوث فتن فى مصر والحجاز بإيعاز من الإنجلــيز، وافــترض أن يصــل

العداء مع إنجلترا إلى اقصاه، ورسم السيناريو الذى أعده الخطوات اللازمة لكل موقف، فقد حرص على إرضاء الإنجليز وعمل على ألا يناصبهم العداء السافر، كما عمل على عدم توريط القوات المصرية الموجودة فى الحجاز آنئذ فى عمليات عسكرية جديدة حتى لا يؤدى ذلك إلى ما لا يحمد عقباه.

كذلك رسم محمد على سيناريو لما يمكن أن يحدث لقواته فى المورة، حيث توقع حدوث تمرد عسكرى من عساكر الباشبوزق العثمانيين الموجودين فى المورة بسبب عدم دفع رواتبهم، وإمكان انتقال ذلك التمرد لجنوده، لذلك حرص دائما على استمرار وصول التموين اللازم لجنوده سواء من مصر، أو بمهاجمة اليونانيين للحصول على غذاء الجيش باستخدام وحدات سريعة الحركة، مع ثبات المدفعية الثقيلة فى مواقعها حتى لا يؤدى تحريكها لإجهاد الجنود.

كما نجده يستخدم تلك السيناريوهات للضغط على الباب العالى، عن طريق تسريب شائعات للاستانه بأسوأ التوقعات حتى يحث السلطان على اتخاذ مواقف أفضل، كذلك استخدم محمد على تلك السيناريوهات كبالونات اختبار حيث يخطر نجيب أفندى المسؤلين العثمانيين بما يمكن أن يقع مستقبلا من احتمالات لتفادى الأزمة لقياس رد الفعل العثمانى إزاء تلك السيناريوهات حتى دون أن تقع.

وسائل محمد على للاتصال والاعلام :

لقد أدرك محمد على ضرورة توفير وسائل سريعة لنقل المعلومات والبريد سواء قبل الأزمة أو اثناءها، فقد عهد فى ٢٠ صفر سنة ١٢٣٧هـ، للخواجه ابرو خال بوغوص بك ومجموعة أخرى بتأسيس البوستة الخديوية بين مصر والإسكندرية لسهولة نقل الأخبار إليه، وقد حرص على ألا تحمل البوستة الأشياء الثقيلة حتى يسهل نقل البريد من الإسكندرية للقاهرة[٧٥].

كذلك قام محمد على بتحويل البريد القادم من الآستانة إلى الطريق البرى وبعد

أن فقد اسطوله البحرى، وبعد ان اصبح الطريق البحرى غير آمن[٧٦]، كما استخدم محمد على السفن التجارية الإنجليزية والفرنسية لنقل رواتب الجند[٧٧]، وكانت بعض تلك السفن تعرض بنفسها نقل الرواتب والرسائل بينما يعتذر محمد على حين لا يوجد[٧٨] بريد، وزيادة فى الحذر طلب محمد على من بوغوص بك تقسيم الرواتب على أكثر من سفينة[٧٩].

وقد أدار محمد على مسألة الدعاية بنفسه، فقد كان يقوم باختبار المعلومات التى تتجمع لديه، سواء ما يصله منها بالبريد من الاستانة، أو المورة أو ما يصله عن طريق السفن التجارية بالإسكندرية، وبعد أن يتأكد من صدق المعلومات كان يكتب إلى جميع المسئولين داخل الدولة بما جاءه من أخبار.

فحين تصله أنباء انتصارات إبراهيم باشا، يكتب لجميع ولاة الدولة العثمانية، وللحجاز والسودان التابعتين له ليزف لهم البشرى، ويطلب من كل هؤلاء الولاه إذاعة أخبار انتصارات جيوشه.

أما الصورة المأساوية التى وصل إليها الجيش المصرى بعد هزيمة نفارين فقد حرص أيضا على رسمها ولكن لكبار الموظفين العثمانيين للضغط على السلطان، فكان يكتب العديد من الرسائل لهؤلاء المسؤلين.

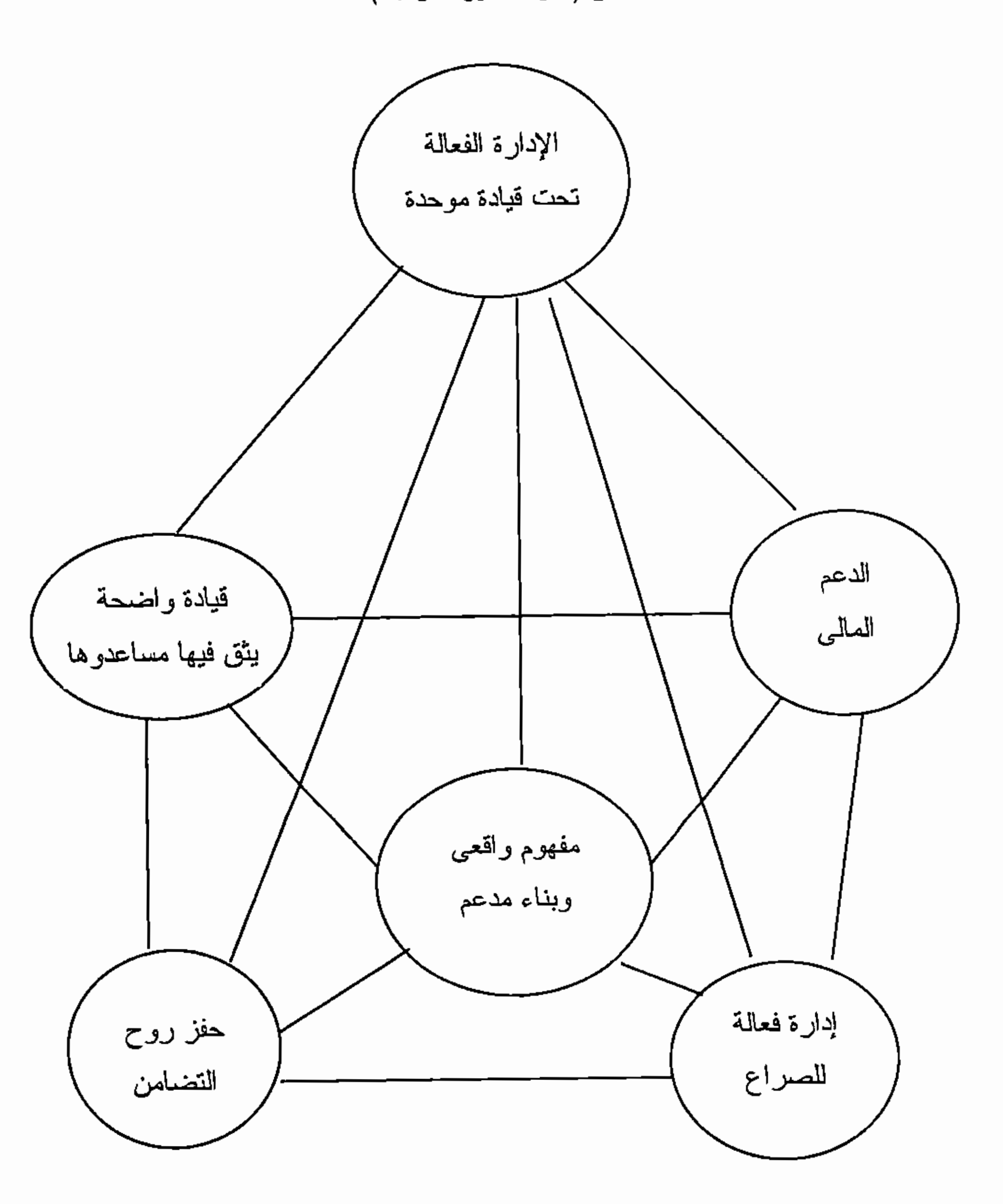
عوامل نجاح محمد على فى إدارة الأزمة

يرجع نجاح محمد على فى إدارة الأزمة لأسباب عدة، أولها هو إدارته الفعالة لها، من خلال قيادة واحدة توافرت لها مقومات القيادة الفعالة، وثانيها هو ثقة مساعديه من فريق إدارة الأزمة فى قيادته، وأنصياعهم المطلق لأوامره وثالثها توافر روح من التضامن بين فريق إدارة الأزمة أى بين محمد على نفسه وبين مساعديه، مما انعكس بشكل ايجابى على تعاملهم معها ، أما رابع هذه الأسباب فهو تلك الإدارة الفعالة للصراع من تجنب للتأخير والإعداد لتلافى الأزمة أولا بأول بأسرع إجراءات

ممكنة، والابتعاد عن البيروقراطية بإجراءاتها، أما خامس الأسباب فهى توفير الدعم المالى لإدارة الأزمة، من خلال وضع جميع موارد البلاد فى خدمة الجيش، وهكذا تمكنت مصر من تأمين التمويل الكافى للجيش، وبدون ذلك ما كان محمد على بقادر على تحقيق هذا النجاح الكبير فى إدارة الأزمة.

أخيرا يأتى المفهوم الواقعى المتوافر لمحمد على، الملم بحقيقة الأمور داخل الدولة العثمانية، والمطلع على القدرة العسكرية للدول الأوروبية، والذى يعرف نظم التشغيل لكافة موارده فى ضوء أحداث عصره، ويوضح الشكل رقم (٢) عوامل نجاح محمد على فى إدارة الأزمة.

شكل رقم (٢) يوضح الدعائم التى أدت إلى نجاح محمد على فى إدارة الأزمة



شكل رقم (٢) يبين الدعائم الست لفاعلية إدارة الازمات

من هذا الشكل الذى وضعه Rainer Muller سنة ١٩٨٥ [٨٠] نرى كيف أن تلك الدعائم كانت منطبقة على إدارة محمد على للأزمة، وإن كان بشكل عفوى ينم

عن عبقرية فطرية دون أن ترتبط بمعرفة منظمة بعلوم الإدارة .

الخاتمة

تلقى إدارة الأزمات الضوء على صانع القرار ومدير الأزمة وهو محمد على باشا، إذ يتضح من الدراسة كثير من الجوانب المعتمة، مثل المعرفة بإطار العمل، والعوامل المحددة للقضية، ومدى معرفته بعصره، وبالدولة العثمانية التى يعيش تحت سيادتها، وقدرته على تدبر الأمر فى إطار سيادة الدولة، كما رأينا من خلال الدراسة كيف بحث محمد على عن المعلومات واختبر صحتها على ضوء معارف عصره وخبرته، مرتكنا إلى سليقته وفطرته.

يتضح أيضاً من الدراسة كيف أثرت الخبرة مع المشاكل الاستراتيجية السابقة فى محمد على، ومدى المهارات على الخلفيات الاستراتيجية التى اكتسبها محمد على بعد فترة تقل قليلاً عن ربع قرن من الزمان فى حكم مصر.

ومن الدراسة نرى أيضاً أثر الحافز المرتقب والمرتبط بالقرار فى قرارات محمد على، إذ أن قبوله القيام بنجدة السلطان فى المورة يرتبط بحصوله على حكم ولايات أخرى إلى جانب مصر، ولذا أبدى استعداده لتدبير كافة التكاليف المرتبطة بذلك، ولكن حين أصبحت الأمور تهدد ما حصل عليه من مكاسب بعد فترة طويلة من حكمه لمصر، قرر الانسحاب على عكس ارادة السلطان، واكتشف من خلال أزمته تلك الحجم الحقيقى للسلطان.

من الدراسة نرى أيضاً استغلال محمد على للدين، حيث حاول دوماً الحصول على رضا شيخ الإسلام بالآستانة، ودفعه بالرشوة لتبرير سلوكه .

ويلاحظ أيضاً من الدراسة كيف أن محمد على اتخذ كل قرراته فى ظل ضغوط متنوعه أولها دولية تمثلت فى الحصار البحرى من الدول الأوروبية، وضغوط داخل الدولة تمثلت فى ضغط الباب العالى للاستمرار فى القتال الذى كان يهدد جيشه

بالإبادة، كما اتخذ كافة قراراته فى ظل وسائل بسيطة للاتصال.

كذلك تبرز قدرة محمد على على إدارة الأزمة رغم التنازع فى الاختصاصات بينه وبين باقى موظفى السلطان الذين انيط بهم قمع ثورة المورة، حيث كان خسرو باشا قائد الاسطول خصما له، وهو رجل ضعيف الحيلة والمهارات، قد ذهبت محاولات محمد على لدى الباب العالى لتوحيد القيادة فى يد ابنه إبراهيم أدراج الرياح وكانت النتيجة هى ضياع الأسطول مما أدى إلى ضغوط عصبية ونفسيه على محمد على، ومع ذلك استطاع الوصول بالأمور إلى بر الأمان.

وتبرز أهمية قرارات محمد على فى ضوء تعقد الأمور أثناء الأزمة، وتعارض مصالحه مع مصالح السلطان، ومن هنا كان من الضرورى التضحية بمصالح الدولة العلية من أجل مصالحه، وكان قراراً صعباً فى تلك الفترة، انعكست آثاره فيما تلا ذلك من مواجهات مع السلطان العثمانى، بعد أن أدرك أن مواجهة السلطان ليست بالأمر العسير.

كذلك ظهر أثر عواطف محمد على الجياشة حيث أصبح ابنه إبراهيم باشا – اكسير فؤاده على حد تعبيره – مهددا بالموت فى المورة، فقد اختيار ابنه وجيشه وضرب بمصالح الدولة والسلطان عرض الحائط، واستمر فى هذا الطريق إلى نهايته.

وقد حقق العمل الدؤوب لقرارات محمد على الفاعلية الكاملة فى تحديد أبعاد الموقف، والبحث عن المعلومات الجديدة من كافة المصادر، ومراجعة الاستراتيجيات أولاً بأول، مما ساعد على تركز سلطة اتخاذ القرار فى يد واحدة – محمد على باشا شخصياً – مما ساعده على التصدى لكل المواقف بما تقتضيه الحاجة.

هوامش الدراسة

(1) Muller, Rainer, "Corporate crisis managment". Long Range Planning, 1985, vol.18, No.5.
(2) Pouchant & Douville, "Toward a systmic crisis Management strategg". Industrial crisis Quarterly, 1993, vol.5, No.3.
(3) Reilly, Anne. H. "Are organization Ready for crisis" Columbia Journal of world Business, Vol.22, Spring 1997.
(4) Fink, Steven, "Crisis Management". Planning for inevitable, New York. p.13.
(5) Wheelen Thomas, L.& J. David Hunger, Strategic Managment, U.S.A., Wesley, Third Edition. p.131.

(٦) د. محمد رشاد الحملاوى، إدارة الأزمات، مكتبة جامعة عين شمس، القاهرة، د.ت، ص ٩٣ .

(٧) د. منى صلاح الدين شريف، إدارة الأزمات، الوسيلة للبقاء، القاهرة، ١٩٩٨، ص٥٣.

(8) The world Encyclopedia, volume 8, world book, 1995, U.S.A., p.342.

(٩) د. زينب عصمت راشد، كريت تحت الحكم المصرى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٦٤، ص٥٢.

(١١) رسالة من محمد على للصدر الأعظم، ١٥ شعبان سنة ١٢٣٧هـ /١٤ ابريل سنة ١٨٢٤، يعتذر فيها عن إرسال إبراهيم باشا لبغداد، مخطوط الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، مخطوط غير منشور رقم ٢٤٨٤، تاريخ تيمور، دار الكتب القومية.

(١٢) عريضة من محمد على للصداره العظمى، غرة رجب سنة ١٢٣٩هـ/٢٢مارس ١٨٢٤، المصدر السابق، ص١٢٠.

(١٣) مكاتبة من محمد على باشا لسحدار الحضرة الشاهانية، المصدر السابق، ص١٢١.

(١٤) مكاتبة من محمد على باشا، لناظر الضربخانه العامرة، المصدر السابق، ص١٢٢.

(١٥) مكاتبة من محمد على باشا إلى احد موظفى المابين الهمايونى فى ٢٢ ذى العقدة سنة ١٢٣١هـ/٣٠ أكتوبر سنة ١٨٢٨، المصدر السابق، ص١٤٠.

(١٦) مكاتبة من محمد على باشا إلى أغا دار السعادة فى نفس التاريخ، المصدر السابق، ص١٤١.

(١٧) مكاتبة من محمد على باشا، إلى شيخ الإسلام، نفس التاريخ، المصدر السابق، ص١٤١.

(١٨) مكاتبة من محمد على باشا إلى محافظ اسلامبول، نفس التاريخ، المصدر السابق، ص١٤٢.

(١٩) مكاتبة من محمد على باشا إلى امين الضربخانة العامرة، نفس التاريخ، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٢٠) مكاتبة من محمد على باشا إلى أمين الترسانة العامرة، نفس التاريخ، المصدر السابق، ص١٤٢.

(٢١) تضم مكاتبات محمد على مجموعة كبيرة من الأسماء التى أرسلت لهم الرشاوى مثل بهجت أفندى وترجمان الحرمين الشريفين بالاستانة، ونجل درى افندى، والعديد من المواطنين العثمانيين انظر المصدر السابق ص١٤٠، ص١٤١، ص١٤٢، ص١٤٣.

(22) Le Grand Atlas de L'histoire Mondiale Encycolpaedia Universalis, P.24, France, Paris, 1991.

(23) Encyclopaedia Universalis, P.890, France, Paris, Corpus 10, Paris, 1993.

(*) سبق لمحمد على أن فقد ولدين الأول هو طوسون الذى توفى فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦، والثانى هو اسماعيل الذى توفى فى اكتوبر سنة ١٨٢٢، أنظر : عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص ص١٤٣، ١٦٦، دار المعارف، ١٩٨٩.

(٢٤) رسالة من محمد على لبوغوص بك، وثيقة رقم ١٨٣٦٨، ديوان التجارة والأمور الأفرنجية، دار الوثائق القومية.

(٢٥) أمر من محمد على لكتخدابك ، ١٤ ربيع ثنى سنة١٢٤٢هـ/١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٦م.

(٢٦) مكاتبة لنجيب أفندي، غرة رجب سنة ١٢٣٧هـ، ابريل سنة ١٨٢٠، المصدر السابق.

(٢٧)-مكاتبة لنجيب افندى، ١٥ شعبان سنة ١٢٣٩ هـ/١٤ ابريل سنة ١٨٢٤م، يطلب تعيينه قائدا للاسطول العثمانى لاتحاد المصالح، المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢٨) مكاتبه لأحد ياوران الحضرة الشاهانية، يطلب ولاية وقيادة الدوننمه البحرية لابنه ابراهيم، ٦ رمضان سنة ١٢٣٩هـ، نفس المصدر، ص١٥٥.

(٢٩) عريضة للصدر الأعظم، ٣ ربيع أول سنة ١٢٤١هـ، ١١اكتوبر سنة ١٨٢٥م، نفس المصدر.

(٣٠) مكاتبه إلى نجيب أفندى قبوكتخدا بالاستانه، ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤٣هـ/٤ نوفمبر سنة ١٨٢٧، نفس المصدر.

(٣١) أمر منه إلى مأمور الأقاليم البحرية والقبلية ٢٨ شعبان سنة ١٢٤١هـ/٨ ابريل سنة ١٨٢٥م يأمر فيه بعدة إجراءات لمقاومة آثار الشراقى.

(٣٢) مكاتبة لنجيب افندى بالاستانة ، ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤٣ هـ/ ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٧، المصدر السابق.
(٣٣) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ١٨ جماد آخر سنة ١٢٤٣ هـ /٩ نوفمبر سنة ١٨٢٧ ، المصدر السابق.
(٣٤) مكاتبه من محمد على لنجيب أفندى، ٢٤ جمادى آخر سنة ١٢٤٣هـ، ١٥ نوفمبر سنة ١٨٢٧، المصدر السابق.
(٣٥) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ١٧ شوال سنة ١٢٤٣هـ/ ٣١ مارس سنة ١٨٢٧، المصدر السابق.
(٣٦) رسالة من محمد على لإبراهيم باشا وإلى جده، ٢٧ محرم سنة ١٢٣٧هـ
(٣٧) مكاتبه من محمد على لبوغوص بك ١٠ ذو القعدة ١٢٤٣هـ/ ٢٥ مايو سنة ١٨٢٨م
(٣٨) نفس المصدر.
(٣٩) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ١٦ صفر سنة ١٢٤١هـ.
(٤٠) مكاتبة إلى إبراهيم باشا ، ٢٩ محرم سنة ١٢٤٤هـ /١٢ أغسطس سنة ١٨٢٨م.
(٤١) عريضة للصدارة العظمى، ٢٧ رجب سنة ١٢٤٣هـ /١٠ أغسطس سنة ١٨٢٨م.
(٤٣) عريضة للصدارة العظمى، ٢٩ محرم سنة ١٢٤٤هـ /١٢ أغسطس سنة ١٨٢٨
(٤٤) مكاتبة منه لنجيب افندى، ٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٤ هـ /١٣ يونية سنة ١٨٢٨م.
(٤٥) عبد الرحمن الرافعى، نفس المرجع، ص٢١٤.

(٤٦) مكاتبة إلى إبراهيم باشا ٢٩ محرم سنة ١٢٤٤ هـ، ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٨م.

(٤٧) مكاتبة إلى شيخ افندى، ٨ جماد آخر سنة ١٢٤٣هـ /٢٨ ديسمبر ١٨٢٧م.

(٤٨) مكاتبة منه إلى شيخ افندى بالاستانة ، ٢٣ جمادى أول سنة ١٢٤٣هـ /١٣ ديسمبر سنة ١٨٢٧م.

(٤٩) نفس المصدر.

(٥٠) مكاتبة من محمد على لطاهر باشا، باشبوغ الدوننمه الهمايونية ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤٣هـ، نفس المصدر، ص ٢١٨.

(٥١) أمر من محمد على باشا لكتخدابك، ٤ ربيع ثانى سنة ١٢٤٤هـ / ١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٨م.

(٥٢) أمر من محمد على باشا لكتخدا بك، ١٤ ربيع ثانى سنة ١٢٤٢هـ /٢٥ أكتوبر سنة ١٨٢٨م.

(٥٣) د. منى صلاح الدين شريف، المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٥٤) مكاتبة إلى نجيب افندى بالاستانة ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤٣هـ /٤ نوفمبر سنة ١٨٢٧م.

مكاتبة إلى نجيب أفندى بالاستانة، ١٥ جماد أول سنة ١٢٤٣هـ/٤ ديسمبر سنة ١٨٢٧م.

(٥٥) مجموعة من الباحثين، ابراهيم باشا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ص ١٠٥، القاهرة ١٩٤٨.

(٥٦) مكاتبة من محمد على لابراهيم باشا، ٢٩ محرم سنة ١٢٤٤ هـ /١٢ أغسطس سنة ١٨٢٨م.

(٥٧) مكاتبه من محمد على لنجيب افندى، ٢٥ ربيع أول سنة ١٢٤٢هـ /٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٦.

(٥٨) محمد مختار باشا ، التوفيقات الالهامية، ص١٢٨٢، تحقيق ونشر د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٠.

(٥٩) مجموعة من الباحثين ، ابراهيم باشا، ص١٠٥.

(٦٠) فيجان، التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه، مخطوط مترجم وغير منشور، محافظ الأبحاث، محفظة ١٨ ، دار الوثائق القومية.

(٦١) محمد مختار، نفس المصدر، ص ١٢٨٣.

(٦٢) مكاتبة إلى الميربشير، ٧ رجب ١٢٣٩هـ/١١ مارس سنة ١٨٢٤.
مكاتبة إلى الميربشير، ٩ رجب سنة ١٢٣٩هـ /١٣ مارس سنة ١٨٢٤.

(٦٣) مكاتبة لشيخ الإسلام، ٢٣ جمادى ثانى سنة ١٢٤٣هـ/ ٢٢ يناير سنة ١٨٢٧.

(٦٤) مكاتبة لإبراهيم باشا ٢٩ محرم سنة ١٢٤٤ هـ / ١٥ أغسطس سنة ١٨٢٨م.

(٦٥) مكاتبة إلى نجيب افندى ٢٤ جماد آخر سنة ١٢٤٣هـ /٢٣ يناير سنة ١٨٢٧م.

(٦٦) يفترض خبراء الإدارة أن يدير الأزمة فريق مكون من أخصائى قانونى، واخصائى فى العلاقات العامة، وخبراء فنيونن، اخصائى مالى، اخصائى اتصالات، بالإضافة إلى رئيس الفريق وهو ما لم يتطابق مع حالتنا، حيث كان فريق إدارة الأزمة كما سنوضح، لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد رشاد الحملاوى، ادارة الأزمات، ص١٥٩، مكتبة عين شمس، ١٩٩٥.

(٦٧) أمر من محمد على لابراهيم باشا، ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤٣هـ /٤ نوفمبر سنة ١٩٢٧. لمزيد من التفاصيل : انظر: مجموعة من الباحثين ، ابراهيم باشا، الجمعية التاريخية، انظر أيضا: مكاتبات محمد على لابراهيم باشا، مخطوط المكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علىباشا ووولده العزيز إبراهيم، مصدر سابق، الجزء الأول.

(٦٨) انظر: بوغوص بك يوسفيان، فيلسوف محمد على ومستشاره، المنشــور فــى نفس الكتاب.

(٦٩) ديوان التجارة والأمور الأفرنجية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلـــد ٥٧، العدد٢، ابريل سنة ١٩٩٧، ص١٣٩.

(٧٠) الأهرام، العدد ٨٢٥١، ١٢ مايو سة ١٩٠٥.

(٧١) مكاتبة من محمد على لنجيب أفندى، ١٥ جمـــاد اول ســنة ١٢٤٣هــــ/٢٥ أكتوبر سنة ١٨٢٧م.

(٧٢) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ٨ جماد أول سنة ١٢٤٣هــ /١٨ أكتوبر سنة ١٨٢٧م.

(٧٣) مكاتبة من محمد على لنجيب أفندى، لايقاف تعيين راغب أفنـــدى دفــتر دار لكريد، ١٦ صفر سنة ١٢٤١هــ.

مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ٥ رمضان سنة ١٢٤١هــ/ لعزل خسرو باشا.

(٧٤) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ٨ جمادى اول ســـنة ١٢٤٣هــــ /٢٨ نوفمبر سنة ١٨٢٧.

(٧٥) مكاتبة من محمد على لحاكم البحيرة، ٢٠ صفر سنة ١٢٣٧هــ/١٣ ســبتمبر سنة ١٨٢٧.

(٧٦) مكاتبة من محمد على لنجيب افندى، ١٥ شعبان سنة ١٢٣٨هــــ/٢٨ ابريــل سنة ١٨٢٢.

(٧٧) مكاتبة من محمدعلى لبوغوص بك، وثيقة رقـــم ١٨٦١١، ديــوان التجــارة والأمور الافرنجية، دار الوثائق القومية.

(٧٨) مكاتبة من محمد على لبوغوص بك، وثيقة رقـــم ١٨٤٠٧، ديــوان التجــارة والأمور الافرنجية، دار الوثائق القومية.

(٧٩) مكاتبة من محمد على لبوغوص بك، وثيقة رقـــم ١٨٢٨٤، ديــوان التجــارة

والأمور الافرنجية، دار الوثائق القومية.

(80) Rainer Muller, "Corporata crisis Management" Long Range Planning, p.46. vol. 18, No.5.

المصادر

أولاً: المصادر غير المنشورة

١- الوثائق غيرالمنشورة المحفوظة بديوان التجارة والأمور الافرنجية، دارالوثائق القومية.

٢- الوثائق غير المنشورة ، المعية السنية، دار الوثائق القومية.

ثانياً: المخطوطات غير المنشورة

١- المكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا وولده ابراهيم، مخطوط غير منشور، دارالكتب، مجموعة تيمور، رقم ٢٤٨٤، تاريخ تيمور، دارالكتب القومية.

٢- فيجان ، التاريخ الحربى لمحمد على وابنائه، مخطوط غير منشور، محافظ الأبحاث، محفظة ١٨، دار الوثائق .

ثانياً: المصادر المنشورة

اولاً: المراجع العربية :

١- د. منى صلاح الدين شريف، ادارة الازمات الوسيلة للبقاء، القاهرة ، ١٩٩٨.

٢- محمد رشاد الحملاوى، ادارة الازمات، مكتبة عين شمس، القاهرة ، ١٩٩٥.

٣- عبد الرحمن زكى، التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف، ١٩٩٠.

٤- مجموعة من المؤلفين : إبراهيم باشا، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٤٨.

٥- زينب عصمت راشد، كريت تحت الحكم المصرى، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ١٩٦٤.

٦- عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، دار المعارف، ١٩٨٩.

ثالثا: الدوريات العربية:

١- مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهر، المجلد ٥٧، العدد ٢.

٢- الأهرام ، ١٩٠٥.

الدوريات الأجنبية Periodicals

1- Long Range Planning, vol.18, 1985.
2- Industial crisis Quaterly, vol.5, No.3, 1993.
3- Columbia Journal of world Business, vol.22, Spring, 1997.

دوائر المعارف الأجنبية

1- The world Encyclopedia, volume 8, world book, U.S.A., 1995.
2- Le Grand Atlas de Mondiale Encylopaedia Universlais France, Paris, 1991.
3- Encylcopaedia Unversalis France, Paris, 1993.

المراجع الأجنبية

1- Fink, Steven, Crisis Mangement; planing for inevitable , New York.
2- Wheelen Thomas, J.David Hunger, Strategic Mangement, Wesley, U.S.A.

المحور الثالث

الجيــش المصـــــرى



الجندية والمواطنة في عصر محمد على

د. عبدالوهاب بكر

لا أختلف مع ما أجمع عليه المصريون من أن " محمد علي " هو مؤسس مصر الحديثة وباعث نهضتها وصاحب الفضل في نقلها من عصور الظلام الوسطوية إلى العصر الحديث بما يتضمنه من مستجدات الحداثة والتطوير العقلي والتقني.

كما أني أشارك أولئك الذين ربطوا بين محمد على وبين قيام الجيش المصري الحديث لأول مرة في تاريخ البلاد، وأؤيد نهضته الحربية المشهورة التي أفرزت قيام المؤسسة العسكرية المصرية على النمط الفرنسي المستمد من دور الخبراء الفرنسيين في تحديث الجيش المصري وإنشاء المدارس العسكرية بأنواعها المختلفة، والتشكيلات العسكرية (آلايات الغارديا) و(الجريناديير) والجرخجية)[١].

ولا تناقش هذه الورقة تاريخ إنشاء الجيش المصري ولا بدايات تواريخ آلاياته وأورطه (مفردها أورطه أي كتيبة) ولا التعديلات التي أدخلت على نظمه على مدى سنوات حكم "محمد علي"، فكل هذا طرقته أعمال الكثير من المؤرخين.

لكن هذه الورقة معنية في المقام الأول بمحمد علي والإنسان المصري الذي كان عماد ذلك الجيش الذي شرع في تأسيسه منذ عام ١٨٢٠م.

ولعل هذا موضوع غاب عن فكر أغلب من تصدوا لدراسة الجيش المصري تمامًا –باستثناء أعمال قليلة لعلي شلبي وخالد فهمي[٢].

لقد فاجأ محمد على المصريين بخطوته الرائدة عندما أعلن عن مشروعه الجديد والذي درج على تسميته (الجمعية الخيرية) و(الأثر الجليل) [٣].، من إقامة جيش مصري قوامه الفلاح المصري بعدما فشل مشروع التجنيد من أهالي السودان.

ولقد كانت فكرة إقامة الجيش عند محمد على مرتبطة كل الارتباط بترسيخ مجده الشخصي وتأكيد شهرته (لقد اقتضت التجليات الإلهية التي أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل – أي النظام الجهادى الجديد –من حيز القوة إلى حيز الفعل في زمان شيخوختنا، فماذا عسانا صانعون، اللهم إلا أن يكون قد أدينا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة)(٤). على أن أفكاره نحو التخلص من التبعية للدولة العثمانية وانتهاز فرصة ضعفها واستعداد الدول لتجزئتها كانت من بين دوافعه تجاه تأسيس هذا الجيش(٥).

ولأنه لم يكن يثق بقدرات وإمكانيات هذا الشعب الذي ولي أمره في عام ١٨٠٥م فقد حرص كل الحرص على أن لا يدع للمصريين فرصة الارتقاء إلى مناصب جيشه الجديد أو تولي مراتب القيادة فيه – أنظر إلى ما قاله كلوت بك في هذا الشأن (إنهم " أي المصريين " في المراتب العالية لا يقدرون كرامة مراكزهم الجديدة فيهم يغايرون العثمانيين والمماليك في الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عاداتهم القديمة بما أضطر محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا على الرغم منهما إلى الكف عن ترقيتهم وترفيعهم إلى المراتب السامية في الجندية، ومن هذا النقص أسندت إلى المماليك والأتراك في الجيش المناصب العليا(٦).

ولعله من المفيد قبل الاسترسال في الحديث عن الجيش في عصر محمد علي من المنظور الذي اتخذته محوراً لهذه الورقة، الحديث عن مسألة الجندية والمواطنة. فالجندية في الوطن نوع من خدمة يؤديها المواطن لبلده وفاءًا لحقها عليه في توفير المسكن والمأكل والمشرب والحياة الكريمة والحرية بكل صورها. والمواطنة هي عضوية دولة مؤسسة قانونًا توفر حقوقًا وامتيازات معينة وواجبات مقابلة لهذه الامتيازات والحقوق(٧).

فإذا وفت الدولة بواجباتها تجاه المواطن من حيث إيفائه حقه في التمتع بحقوق

المواطنة المتعددة كان لزامًا على المواطن أن يفى بالتزاماته تجاه وطنه في إطـار " المواطنة "

والمواطنة لا تخرج عن كونها شعور داخلي يتمثل في الإحساس بميل عاطفي تجاه الوطن مظهرة الرغبة في الدفاع عنه والذود عن حدوده والذوبان في ترابه والموت في سبيله والحفاظ على شرفه والدفاع عن قيمه والإسهام في مجده ورفعته. هي شعور نفسي إذن لا يتوفر إلا إذا توافر الإحساس باستحقاق الوطن لهذا الشعور، ولا يتوفر هذا الشعور إلا إذا تساوى أهل البلد الواحد في الحقوق والواجبات وساد العدل بينهم، وقام الحاكم بواجبه وفق قواعد العدل الاجتماعي والإنصاف لا تمييز بين فرد وآخر ترتيبًا على علو قدره أو زيادة ماله أو جاهه.

إما إذا كان الأمر في الوطن على عكس ما فات، فلا وطنية ولا مواطنة ولا إحساس عاطفي من المرء تجاه – بلده – بل الإحساس هو الغربة والكمد والشماتة في بعض الأحيان. بل والانفصال عن البلد والرغبة في الانتماء إلى بلد أخر يشعر فيه المرء بمشاعر المواطنة.

ولا تترتب هذه الأحاسيس السلبية إلا إذا أحس المرء بأن التفاوت في الحقوق والواجبات بينه وبين بني بلده هو السائد، بأن الحاكم مشغول عنه بمصالحه الخاصة. بانفصال المؤسسة الحاكمة عن الشعب، بسوء المعاملة من جانب النظام الحاكم، بالظلم بالتجاهل، بالاستعلاء، بالتمييز في المعاملة، بعدم الإنصاف، بالتفاوت في الثروات، بسوء العدالة، بالتفاوت في الدخول والثروات، بحدة الفوارق بين الطبقات ... وهي أمور تتضح بجلاء في دول العالم الثالث وفي الدولة التي عانت من الاستعمار طويلاً، وفي الأمم التي يسود الجهل والفقر والمرض بين مواطنيها.

ولا أريد أن أستطرد طويلاً في هذه الفذلكة الوصفية القانونية، لكنى أردت أن أقدم للدراسة، فهي كما يرى القارئ الكريم ترتبط بحدث خطير في حياة مصر في

القرن التاسع عشر، وأعنى به إدخال " واجب الجندية " ضمن الواجبات التي ألــزم بها المصريون في ظل النظام الحاكم الذي بدأ في عام ١٨٠٥م، وصلة هذا الواجب بحقيقة " المواطنة " التي عاشها المصريون – إن وجدت – في ذلك الوقت.

كيف كان " خطاب " محمد علي إلى المصريين عندما شرع في تطبيق هــذا النظام الجديد عليهم – لندع الوثائق تتكلم. هذا خطاب صادر من " محمد علي " إلى نجله إبراهيم " بشأن " التجنيد في مصر " ولعله يتضمن لأول مرة القواعــد التــي وضعها محمد علي للخدمة في الجيش من حيث :

١) الرواتب والامتيازات.
٢) مدة الخدمة.
٣) الدعاية للنظام الجديد.
٤) اختيار الأفراد.
٥) أسلوب جمع الأفراد.

" لما كتبنا إلى أحمد باشا متصرف جرجا وإلى محمد بك نــاظر مصلحتــي أسوان وفرشوط (مدير أسوان وفرشوط) أمر جلب وجمع الأفراد ... المراد ترتيبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم .. أن يفهموا من تقتضي الحال إفهامهم أن يكــون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنًا في القرية التي يجلب منها وذا أهل وسكن فيــها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين ... وأن يحرر هؤلاء الأفــراد بمعرفــة حطــام أقاليمهم (يقيدون في دفاتر الجندية) وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين في أماكنهم مهيئين للطلب (أي يكونون تحت الطلب) وأن يثبت في الدفتر أسماء قراهــم وأسماؤهم وأسماء آبائهم (أي تسجيلهم في دفاتر خاصة) وأن سيســتخدمون ثــلاث سنين (مدة الخدمة العسكرية) ويعطون في أثناء خدمتهم لحمًا وأرزًا مفلفلاً مرتيــن في الأسبوع (نوعية الطعام في الجيش) ومرتبًا قدره ثمانية قروش كل شهر والكسى اللازمة لهم في كل عام (المرتب والملابس) ثم يطلقون ويســرحون بعــد الســنين

الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومة تتيح لهم الإقامة في قراهم معافين من التكاليف[٨].

الخطاب واضح ويحمل في سطوره قواعد جديدة ومحددة للخدمة العسكرية في مصر في عهد محمد علي.

لكن هناك جزئية أخرى تتعلق بهذا الأمر ولها من الأهمية ما يفوق أهمية أي وثيقة أخرى، ألا وهي سن الجندية في عهد محمد علي، ما هي السن التي حددها محمد علي للجندية في مصر.

تجيب على هذا السؤال وثيقة صادرة بعد ١٤ عامًا من تاريخ الوثيقة السابقة.

" ..... **ثانياً** – إن التجنيد في أوروبا إنما يكون في سن العشرين أو الواحد وعشرين وأما نحن فإذا جندنا فنجند في سن أربع عشرة إلى الثلاثين بسبب قلة الناس"[٩].

أربعة عشر عامًا كانت سن التجنيد في الجيش المصري الحديث في عصر محمد علي، وهي في تقديري سن صغيرة للغاية ويمكن القول معها بلا مبالغة أنها سن يطلق على صاحبها " صبي " حتى الآن في مصر – سن لا يقوى صاحبه على أداء مهام عسكرية وصفها المعاصرون بأنها كانت فوق الطاقة.

" ترجمة الوثيقة رقم ٢٥ من المحفظة ٢٤٤ عابدين – تقرير يوم الجمعة ٣ من شوال سنة ١٢٤٨هـ – مايو ١٨٣٢م – كتب إلى أميرالاى (قائد لواء البيادة {المشاة} الثامن ذو الفقار بك (قد اطلعت على كتابكم الذي قلتم فيه أنكم دخلتم قونية في ٢٦ من رمضان وأخذتم تعالجون الجنود الذين تورمت أيديهم وأرجلهم – فأحذروا أن تتقدموا إلى الأمام والتزموا الإقامة بقونية)"[١٠].

كان " إبراهيم باشا " يدفع قواته في معارك الشام دون " فترات راحة " إذا لزم الأمر، إلى حد الإصابة بالإنهاك – أي أنه كان يضع أمامه الهدف دون اعتبار

للنتائج – المهم هو وصوله إلى المواقع والبلاد التي يريد الوصول إليها[١١].

أما عن مدة الخدمة في الجيش فقد كانت ثلاث سنوات من الناحيـــة النظريـــة، لكنها تمتد إلى خمسة عشر سنة وأكثر من ذلك، بل ومدى الحياة. كانت الحـــــروب التي زج محمد علي بمصر فيها قد بلغت من الكثرة والطول حدًا لم يكن من الممكن معه أن تطبق قواعد الخدمة التي وضعها محمد علـــي فـــي أوائـــل تطبيـــق ذلـــك النظام[١٢].

ولم تكن أى أسباب مهما كانت قوتها تمنـــــع " محمـــد علـــي " مـــن تجنيـــد المصريين، فالزراعة التي كانت عماد الثروة الوطنية لم تكن عذراً يحول دون جمع الأفراد للتجنيد أو حتى تأجيل تجنيدهم.

" في يوم ... حضر ... والأغوات النظار إلى شبرا حيث بســـط الموضـــوع وأفهموا ... فاستأذنوا بمناسبة تقرب أوان الزراعة أن يرجأ تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير (أي تحضير الأرض للزراعـة). وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفـــق والموقـــف وأكـــد عليـــهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة. على أن أهالي مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالي أوروبا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئـــة الحكومـــة فـــي أوروبا. ومن البديهي أنه لا يستطاع والحالة هذه تجنيد العســـــاكر وفقًـــا لأصـــول الجهادية المقررة. وعليه فإن من الجلي الواضح أن الواجب يقضي علينا أن نجنـــد العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفـــق بين مصالحنا وحالنا وأن نرى أعمالنا على قدر قدرتنا ... أوفدوا من قبلكـــم مـــن يفحص هؤلاء العساكر عند إحضارهم إلى مصر ونبهوا عليه بأن يفرز منهم مـــن يصلح نوعًا ما للعمل ويرسلهم إلى الأرط (الكتائب) ويعيد الذين لا يصلحون إلـــى قراهم. ولما كان من اللازم أن توزع العساكر التي يتم إرسالها علـــى الأورط وألا يعاد منهم أي نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك. وجامع القول فكروا في هذا الموضوع

من ناحية العسكرية والفلاحية مع مراعاة الحالة والموقف وأنهوه بطريقة مناسبة ... واعنوا بإجراء ما يتفق ومصالحنا "[١٣].

والوثيقة تتحدث عن نفسها، فالزراعة لم تكن عذرًا يبيح تأجيل التجنيد – والتجنيد لا يتم وفقًا لأصول (الجهادية) وتبعًا لما يتيسر للحاكم. والتوفيق يتم بين مصالح الحاكم وأحواله – والفرز يقبل فيه من (يصلح نوعًا ما للعمل) – ومن يرسل إلى الكتائب لا يعاد إلى بلدته.

ولقد حاولت أن أجد كلمة واحدة تتعلق (بمصالح الفلاحين) في الوثيقة فلم أجد – وهذا هو بيت القصيد – (فالأثر الجليل) و(الجمعية الخيرية) ترتبط أساسًا بمصلحة الحاكم بصرف النظر عن مصالح المواطنين.

كان طبيعياً والحال كذلك أن يقاوم الفلاح عملية تجنيده من ناحية، وأن يتولى القائمون على هذا الأمر إعماله بالقوة.

فبالنسبة للفلاح فإنه عمد إلى الفرار من التجنيد واللجوء إلى أماكن لا تطاله فيها يد الحاكم، ولما عجز عن الفرار لجأ إلى المقاومة السلبية المتمثلة في إحداث الإصابات بجسده التي تحول دون الاستفادة منه فى الجندية، ولما لم يحل هذا دون تجنيده قام بانتفاضات وتمردات في أماكن متفرقة من البلاد[١٤].

وبالنسبة لسلطات التجنيد فإنها من ناحيتها استخدمت أساليب القهر والعنف الأمر الذي دعا محمد علي إلى إصدار تعليماته بإتباع أساليب أخرى لتحقيق المهمة.

" ... لما لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على هذا الأمر (التجنيد) فلم يكن ثمة ما يوجب إرغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه بل كان يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه ... فالذي يلوح لي هو أنه لم يشرع في إنشاء أساس هذه المصلحة (التجنيد) على هذا الوجه (الإقناع) بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هذا داعيًا إلى إباء الفلاحين وامتناعه ...

فلو كتبتم سعادتكم إلى متصرف جرجا والي ناظر مصلحتي أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرج وعدم اتخاذ سبيل الجبر في التجنيد[١٥].

ومن الذي كان يخضع للتجنيد ؟ وما هي المعايير التي كان يتم على أساسها تجنيد المصريين غير اعتبارات اللياقة البدنية ؟

فرق النظام الحاكم منذ البداية بين المصريين والعناصر الأخرى العرقية التي ضمتها البلاد، فاختص العناصر المملوكية والتركية بمراتب القيادة بعد تلقيهم التعليم الأساسي الذي أنشأ له مدرسة أسوان في مستهل إدخاله النظام الجديد.

ونظرة إلى أسماء ضباط الجيش في عهد محمد علي تكشف خلوه من أي اسم مصري.

إبراهيم يكن – سليم ساطع – مصطفى مختار – داود أغا – علاء الدين – على أغا كسكين زاده – إبراهيم أدهم – محمود أغا – أحمد المنكلي – خورشيد – عثمان[١٦].

ومن المؤكد أن المدارس العسكرية التي أنشأها محمد على كانت قاصرة على غلمان المماليك الذين ذبحهم في عام ١٨١١م، ثم ضم إليهم غلمانه وغلمان كبار موظفيه وبعث بهم جميعًا إلى أسوان حيث المدرسة العسكرية الأولى ليتلقوا تعليمهم العسكري الذي يؤهلهم للعمل كضباط بالجيش.

" من الجانب العالي إلى ناظر أسوان وفرشوط

أن الأورط التي نظمت في أسوان كانت بلغت إلى الخامسة عشرة. وقد اقتضى إنشاء أربع أورط من السود في أسوان في الوقت الحاضر فأعملوا على إنشائها. ثم عينوا البكباشية والقول اغاسية (قواد الطوابير) والملازمين وحاملي الأعلام – واليوزباشية (النقباء) اللازمين لها ... وحيث أن المماليك أجدر بالمعاونة من الأتراك فيجب البدء بهم فيؤخذ من بينهم من يليق بأن يكون ضابطًا ثم يكملُ

العدد الباقي من الأتراك ... ولما كان الجنود الترك لا يقاسون بالمماليك فـــإذا مـــا انتخبوا ضابطًا فإنه يجب العناية جهدًا باستعدادهم واستحقاقهم ... (١٧).

لا أثر للمصرين أبدًا في وثيقة تتحدث عن جيش محمد علي، هو جيش قاعدته "فلاحية" وقمته مملوكية تركية تنظر إلى تلك القاعدة على أنها من (الفلاحين العمـــى الذين صاروا عساكر) (١٨).

كذلك فقد كان المستوى الاقتصادي للأسرة دور كبير في قضية التجنيـــد، ولا توجد لدينا وثيقة واحدة حتى الآن تشير إلى أن من جندوا في جيش محمد على كانوا من الطبقات الميسورة – ولعل مشاركة أقارب المجندين – الذين كانوا يتبعونهم إلـــى أماكن الفرز أو معسكرات التدريب – لهم فيما تخصصه الحكومة لهم مـــن الطعـــام تكشف لنا المستوى الاجتماعي الذي كان المجندون يأتون منه. علـــى أن الأمـــر لا يحتاج إلى كثير عناء، فقد كانت الثروة خلال الفترة موضوع الدراسة لا تزال بيـــد الطبقة التركو – جركسية التي جاءت مع محمد علي أو بقايا العنـــاصر المملوكيـــة التي أحاطت به، ومن ثم فليس ثمة حاجة إلى الحديث عن أبناء ســـراه المصرييـــن الذين كانوا لا يجندون حيث أنه في تقديرنا لم يكن هناك في مصـــــر أثريـــاء مـــن المصريين في ذلك الوقت.

ولعل استخدام المستوى المادي معيارًا للتجنيد بعد عصر محمد على – وأعنى به نظام "البدل النقدي" الذي طبق في ثمانينيات القرن التاسع عشر حتى إلى ما قبـــل ثورة يوليو ١٩٥٢م – كان يعود إلى عصر "محمد علي" عندما كان التجنيد لا يطبق إلا على الفقراء والمعوزين وهم غالبية المصريين في ذلك الوقت.

كذلك فإن احتكار أبناء الطبقات الميسورة في مصر وعلى مدى سنوات طـــوال امتياز التعليم العسكري في المدارس الحربية التي تخرج ضباط الجيش، كان يجـــد جذوره في قصر مناصب الضباط في الجيش المصري في عصر محمد علي علـــى فئة المماليك والأتراك والانفصال التام بين القيـــادات التركوجركسـية والقـــاعدة

العريضة من الفلاحين المصريين – وهو ما أنتج أثره في ثمانينيات القرن التاسع عشر في ثورة (عرابي) على نظام الجيش الذي كان يعمل به احتجاجه على التفرقة في المعاملة بين الوطنيين من رجاله وبين العناصر التركو-جركسية التي كانت تستأثر بمناصب القيادة في الجيش وتسوم المصريين صنوف العنت وألوان العذاب الأمر الذي دفع الجيش بقياداته إلى الانتفاض على هذه القيادات التي تولت الجيش منذ نشأته الأولى.

وإذا كان المصريون قد ثاروا لأوضاعهم السيئة في ثمانينات القرن التاسع عشر مع ما صاحب ذلك الزمن من تطور في الخدمة العسكرية وصدور قوانين منظمة للخدمة في الجيش، فيما بال حالهم في عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن عندما كانت المؤسسة العسكرية في طور التكوين، ويتربع على قيمتها أتراك ومماليك لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يمارسون إلا العنجهية والصلف والغرور.

وفي داخل الجيش ... ماذا كانت أحوال المصريين.

– المرضى يستخدمون للقتال رغم مرضهم.

" تلخيص التقرير المقدم من محمد منيب أفندي كاتب الديوان رقم ٥٣.

من أفندي الديوان إلى دولة الباشا السرعسكر بتاريخ ٩ شوال ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) يعرض أنه بناءً أمره الكريم بفحص العساكر الموجودة في البلاد الشامية وإرسال من يصلح منهم للقتال إلى الجيش، قد أرسل الأطباء إلى البلاد المذكورة لفحص من يقيمون بها من الجنود، واتخذت الإجراءات اللازمة لملء المكان الذي سيخلو حين إرسال الجنود المنتخبين وأنه وصل من قبل المير لواء عمر بك المقيم بالشام ضابط برتبة الملازم و٥٩ جنديًا وسيرسلهم إلى طرسوس إذا وردت السفينة المطلوبة من سواحل الشام.

من أفندي الديوان إلى المير لواء عمر بك المقيم بالشام بتاريخ ٩ شوال

١٢٤٨هـ.

أشعار بوصول الضباط والجنود الذين تحسنت صحتهم وإرسالهم إلى عكا بموجب أمر دولة الباشا السرعسكر وبأنه سيرسلهم إلى ميناء طرسوس تمهيدًا لإلحاقهم بالجيش حسب الأمر متى وردت السفينة المطلوبة لنقلهم [١٩].

- كبار الضباط يستولون على مرتبات العساكر.

" ترجمة الوثيقة رقم ٣٠ تقرير من محمد منيب أفندي في ٨ من ذي القعدة سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) قد بلغ ... مسامع جناب السرعسكر أن البكباشي (المقدم) حسين أفندي متسلم بيروت سابقًا قد أخذ إذ كان بالإسكندرية يوميات الجنود (قوائم صرف المرتبات) ... من الخزينة كاملة ولم يصرفها لهم حتى الآن. ولما كان حسين أفندي الموما إليه اليوم بعكاء فقد كتب اليوم أمر / ٩ بالتحقيق معه ثم بالقائه في الحبس إذا ثبت عليه شئ وتحصيل المبالغ منه وطرده إلى مصر بعد تجريده من النياشين" [٢٠].

"تلخيص الوثيقة التركية رقم ١٣٩ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) من السر عسكر إبراهيم باشا إلى والده الجناب العالي يعرض أنه تلقى من مأمور ديوانه الخديوي كتابًا خاصًا بمرتبات آلاى المشاه المقرر إرسالها وسائر لوازمها وأن المبلغ المرسل إلى الجيش حتى الآن أربعة آلاف كيسه (الكيس ٥٠٠ قرش) فقط وعليه فيعاني الجيش أزمة مالية والسبب في ذلك على ما يعلمه يرجع إلى قبض كبار الموظفين المقيمين بمصر المدللين المتنعمين مرتباتهم أولاً فأول دون أن يفكروا في مرتبات الجنود الذين يقتلون ويقتلون في ميادين الحرب في سبيل ولي النعم، ولذلك يلتمس تصحيح هذا الوضع وإمداد الجيش بالنقود اللازمة حتى يتمكن من صرف مرتبات الجنود "[٢١].

والوثائق المقدمة لا تحتاج إلى تفسير، فهي تكشف عن حرمان الجنود

المصريين المقاتلين في الشام لصالح (محمد علي = ولي النعم) من مرتباتهم التي يسرقها كبار الضباط- أو أن الأموال اللازمة لمرتبات الجنود لا تكفي نظرًا لتقاضي كبار الموظفين في مصر لمرتباتهم الكبيرة دون اعتبار لحاجة العسكري المصري إلى القروش الثمانية التي وعد بها شهريًا في بدايات تطبيق نظام التجنيد.

أما هذه فوثيقة تصرخ بسوء الأحوال المالية للجيش ونفاذ الأموال بسبب استيلاء كبار موظفي " محمد على " على الأموال لأنفسهم. مرسل الوثيقة هو السرعسكر إبراهيم إلى والده. لنقرأ ما يقول :

" سيدي صاحب الدولة ولي نعمتي ذو الرحمة المفطور على الكرم. لقد وصلني الخطاب المرسل من الأفندي مأمور ديوانكم الخديوي بشأن تدبير رواتب وجميع لوازم الآلايين المشاة اللذين ستتفضلون بإيفادهما وقد فهمت فحواه وعلمت منه أن النقود على وشك النفاد في الآونة الحاضرة بمصر. إن مجموع النقود التي وصلت إلى الجيش المنصور حتى الآن أربعة آلاف كيسة. والآلايات التي أوفدت فيما بعد لم تصرف إليها رواتبها كاملة بل أرسلت بعد توحيدها بالنسبة للاستحقاق مع الآلايات الموفدة قبلاً. وعليه فإن نفاذ النقود جدير بالملاحظة. وعلى ما أعلم – على نحو ما عرف وتحقق عند عودتي من المورة – أن السبب في حدوث هذه الأزمة هم الكبراء. فقد عمدوا إلى تناول مرتباتهم أولاً فأولا وتسببوا بذلك في إيراث الضائقة لغيرهم. فما أشد هذا الغدر وما أبعد هذا الصنيع عن الإنصاف، مع أنهم يقيمون في منازلهم على أتم راحة وقد شملتهم أنواع النعم في ظل الجناب العالي الخديوي وهم متمتعون بجميع أسباب المتع لا يفكرون في عبيدكم الموجودين هنا الذين يفدون الروح في سبيل جنابكم العالي ولا يعرفون الراحة ويقضون الليل والنهار فوق التراب وتحت الغبار، إنما يحصرون أفكارهم في أنفسهم فقط. صحيح نحن لا نريد لنا نقوداً ولكن العدل يقضي بأن يقوم الطرف الآخر أيضًا بنصيبه من الإخلاص والعمل كما يعمل الموجودون معنا بأرواحهم وأدمغتهم. والواجب عليهم

في مثل هذه الظروف أن يخرجوا ما ادخروه وأن يبذلوه بكل سرور في سبيل الجناب العالي.

هذا ما يحتمه الواجب عليهم، لا أن يحاولوا قبض استحقاقهم أولاً فأولا أملا في تكثير وإنماء ثرواتهم وأن يكونوا سببًا في ظهور هذه الأزمة المالية في مثل هذا الظرف الدقيق. إن عدل الجناب العالي يقضي بأن تستحضر كشوفهم وتراجع وأن يجازى من يثبت عليه ارتكاب الشناعة الآنفة الذكر..

العبد سلام علي إبراهيم "[٢٢].

ولقد كانت هناك الأمراض والإصابات المتفشية في الجنود من الزهري والأمراض الأخرى والتي أسهبت الوثائق في الحديث عنها[٢٣].

ومن عجب أن المرضى من الجنود كانوا يفترشون أسرة من (التبن) في المستشفيات.

ترجمة الوثيقة رقم ٩٥ تقرير عسكري من يوم الاثنين ١٩ رجب ١٢٤٧هـ.

صورة التقرير الوارد من أمير اللواء عمر بك.

" قد فهم من العريضة المقدمة من حكيمباشى الجيش أنه رغمًا من التنبيهات المتكررة السابق صدورها بشأن إعداد التبن الكافي اللازم لعمل الفرش للمرضى وإرساله للمستشفى لم يرسل حتى الآن فنخطركم بوجوب إيجاد المقدار اللازم الكافي من التبن بأي وجه كان وإرساله إلى المستشفى في أسرع وقت "[٢٤].

ومفهوم المخالفة في هذه الوثيقة أن المرضى والمصابين في المستشفيات كانوا يفترشون الأرض أثناء فترات علاجهم لأن (التبن الكافي اللازم لعمل الفرش للمرضى) (لم يرسل) (رغماً من التنبيهات المتكررة).

أما قضية الطعام فإن الجرايات (التعيين اليومي من الغذاء) لم تكن تكفى فضلاً

عن سوء نوعيات الطعام.

صورة الوثيقة العربية رقـــم ١٣٥ بتـــاريخ ١٧ شـــعبان ســـنة ١٢٤٨هـــ (١٨٣٢م).

لمتسلم بيروت تقدم ورد تحريركم المتضمن أن الحنطة والشعير خلـــص مـــن طرفكم وطلبتم حنطة لأجل جراية العساكر وشعير لأجل البوستات (خيول الـــبريد). فبوقتها أرسلنا تحريركم لديوان الذخاير لأجل يقرروا عنه المقتضى أعطاه فجـــاوبوا أن لكل ماية نفر يرسل خمسين إردب حنطة ... فتكفي لقاطعيـــة (التغطيـــة) ثلاثـــة شهور وأن البوستة يكفيها خمسين إردب مصري شعير. فبحيث أن العساكر بطرفكم نحو مايتين نفر واصلكم طيه تحرير لمتسلم صور يسلمكم ماية إردب مصري حنطة وخمسين إردب شعير كيل مصري. [٢٥].

وبحسبه بسيطة فحواها قسمة ٥٠ إردب على ١٠٠ فرد فإن نصيب هذا الفـــرد من الحنطة يكون نصف إردب في الشهور الثلاثة – وبقسمة نصف إردب على ٩٠ يوم فإن نصيب الفرد يكون (٠٦%) كيلة في اليوم إذا اعتبرنا أن الإردب ١٢ كيلة.

ويبدو أن طعام الجنود كان ٣٠٠ درهم من الخبز يوميًا ولا شئ غير ذلـــك – ذلك أن وثيقة تاريخها غرة شوال ١٢٤٨هـــ تقول بذلك وتضيف أن هذا القدر كـــان غير كاف لحاجة الجنود. ويطلب محرر الوثيقة (ضم شـــئ مـــن اللحـــم والســـمن والأرز) إلى جراية العساكر[٢٦].

وقد أثبت تقرير جرد وتفتيش الآلاي الثامن المشاة المحرر في ٦ مارس عـــام ١٨٣٦م أن طعام الجنود كان الأرز المخلوط بالبرغل مع الســـمن – وأن الســـمن المتوفر في الآلاي قليل رغم أنه كان يصرف للعساكر بديلاً عن اللحـــم الـــذي لـــم يصرف للعساكر منذ عدة أيام، وأن خليط الأرز والبرغل والسمن كان هو الطعـــام الأساسي المسمى (لابة = أرز قريب مـــن الحســـاء). وأن مجـــاري مراحيـــض

المستشفى كانت مسدودة وتطفح بالأقذار التي كانت تتسرب إلى الغرفة المجاورة. وأن من بين حالات الذين أصيبوا بالجرب وأدخلوا للمستشفى كانت هناك حالة فرد أصيب بقرحة في رجله وأن رباط القرحة لم يغير منذ عدة أيام وجوانب القرحة غير نظيفة وحالتها سيئة. وأن عدد العساكر الجهادية في الآلاي كانوا ١٦٦٥ عسكري وقت التفتيش كان المرضى منهم ١٤٨ توزعت أمراضهم بين ٥٥ مصابون بمختلف الأمراض – ٥٨ بمرض الجرب – ١٢ مصابون بجراحات – ١٧ بالجدري – ٦ بالزهري، وأثبت التفتيش أن مرض الجرب أكثر انتشاراً في الآلاي من سواه من الأمراض – كما أثبت أن أمير الآلاي وقائمقامه لا يعرفان القراءة والكتابة[٢٧].

كان لا بد من وجود ردود أفعال من جانب الفلاحين المصريين المجندين في هذا الجيش، وقد تمثلت هذه الردود مع ما تعرضه الوثائق التالية من أحداث.

" تلخيص المكاتبة رقم ٧٤ بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٨ (١٨٣٢)

من السيد محمود " أعيان " قونية إلى وحيد أفندي كاتب دولة السر عسكر.

يخبره بفرار جنود الآلاي العشرين المقيم بقونية بكثرة على الرغم من التدابير التي اتخذها راجيًا عرض ذلك على دولة السر عسكر "[٢٨].

– فرار جنديين من الآلاي الثالث عشر ٢٠ شعبان ١٢٤٧ (١٨٣١)

– فرارجندي من الآلاي الثامن ٢٠ شعبان ١٢٤٧

– فرار جنديين من الآلاي الثامن عشر ٢٠ شعبان ١٢٤٧

– فرار جنديين من البلوك الأول بالأورطة الأولى من الآلاي الثامن ٢٥شعبان١٢٤٧[٢٩].

وفي قضية هروب الجندي (عبدالله الشامي) من الأورطة الخمسين والواردة في تقرير الحوادث التي وقعت بالجيش المصري في يوم الاثنين ٢٠ شعبان سنة ١٢٤٧

ما يكشف عن حقيقة مشاعر الجندي المصري تجاه هذا الذي كان يجري في مسألة الجندية بصفة عامة.

كان هذا الجندي قد هرب من بلوكه – وتم إجراء تحقيق تناول قياداته وفق التسلسل العسكري – فما وصل التحقيق إلى الأونباشي (العريف) المسئول عن الجندي الهارب تقرر حبسه بالمخفر. هنا اعترض الأونباشي وردد عبارات تمنى فيها أن يفر الجنود جميعًا من الوحدة التي يعمل بها(٣٠).

هذا الشعور لا ينبغي أن يترك دون تحليل – صحيح أن الأونباشي المذكور قد جوزي بتنزيله إلى رتبة نفر، وصحيح أن جنديًا أخر من جنوده فر كذلك – لكن هذه الوقائع كلها لا قيمة لها أمام ما فاه به الأونباشي من دعائه أن يفر كل الجنود – هو كاره للخدمة في الجيش– حانق على قياداته – أمل في أن يخرب الجيش الذي يعمل به عن طريق فرار جميع جنوده، وداعيًا ربه أن يستجيب لدعائه.

أليس في هذا إجابة على قضية المواطنة التي نناقشها في إطار الجيش الذي أنشأه محمد علي.

أي مواطنة هذه التي كان يشعر بها الفلاح المصري في جيش يجند أفراده في سن الرابعة عشرة، ويطعمون الخبز دون إدام، ويأكلون (اللابة)، ويتهرشون من الجرب، ويفترسهم الزهري، ويفترشون الأرض في المستشفيات التي كانت أسرتها (إذا وجدت) من التبن، ولا يتقاضون القروش الثمانية التي تقررت لهم كمرتبات شهرية، ويجلدون خمسمائة جلدة مع استخدامهم مقيدين بالسلاسل والأغلال إلى أن تنتهي الحرب إذا هربوا(٣١). ويقودهم ضباط أتراك ومماليك لا يعرفون القراءة والكتابة ولكنهم يعرفون التعنت والغرور والصلف والكبرياء.

لقد ضبطت في الجيش المصري حالات سرقة الشعير الذي تطعم به الجياد، وحالات سرقة العدس والبقسماط الخاص بطعام الجنود، وحالات سرقة بارود

المدافع لبيعها مقابل قروش أو تين جاف وعنب[٣٢] وهذا يعني أن الجنـــود كـــانوا يعانون الفاقة والجوع.

نحن لم نناقش أحوال أولئك المعدمين الذين تركهم عائلوهم في الوطن ليلتحقوا بجيش محمد علي الحديث – هل توفر لهم الطعام أو المال الكافي للحياة ؟

من بين وثائق هذه الورقة وثيقة عبارة عن شكوى " محمد كاني بك " ميرالاي الفرسان في كوتاهية من عدم صرف ما خصص لأسرته المقيمة في القاهرة ويرجو إجراء اللازم (حتى يطمئن من ناحيتهم ويتفرغ للخدمة بقلب فارغ من همهم) [٣٣].

وليس القصد من عرض هذه الوثيقة شرح حال هذا الضباط الكبير الذي يشكو عدم وصول الراتب المخصص لأسرته، لكن القصد هو القياس مع الفارق في شـــأن حال العساكر الذين لا يعلم كم قرشًا من القروش الثمانية التي تمثل المرتب الشهري لكل منهم كانت تخصص للأسرة فى مصر، وهل كانت هذه القروش تصل إلى هـذه الأسر أم لا ؟

لقد استخدم محمد علي هذا الجيش من المصريين لخدمة مصالحه الشـــخصية، وضحى بالزراعة في سبيل إنشاء هذا الجيش، وهذا ما تقوله الوثائق – ثم ضحـــى بهذا الجيش عندما ضاعت فرصة تحقيق مصالحه – ولندع الوثائق تتكلم.

دخل " إبراهيم " (معركة نزيب) بجيش قوامه ٥٠,٠٧٣ ضابطًا وجنديًا منـــهم ٣٧٦٧٣ من المشاة المشكلة فى خمسة ألوية، و ٦٧٧٥ من الخيالة في ثلاثة ألوية و ٥٦٢٥ من المدفعية وأربعة آلايات مدفعية.

بلغت خسائر الجيش في هذه المعركة ٣٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح، وفي عام ١٨٤٠ اتفقت إنجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر العسكرية وانتزاع الشام مـــن محمد علي بعد الدماء التي أريقت فيها على مدى تسع سنوات والأموال التي انفقت.

بعد أن تحقق محمد علي من الخسارة، أمر إبراهيم بالانسحاب، فأصدر هـــذا

أمره في ٢٩ ديسمبر ١٨٤٠ بالجلاء عن الشام. كان هـــذا الجيــش يؤلــف مــن ٥٥,٠٠٠ جندي بصحبتهم ١٥٠ مدفع، وبدأ الحشد في حلب.

في خطة الانسحاب قسم إبراهيم جيشه إلى خمسة أقسام بقيادة أحمد باشا الدره مللي والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلي، والرابع بقيادة سليمان باشا الفرنساوي – أما الخامس فكان بقيادته. عين للقسم الأول طريق شرق الأردن إلى غــزة والعريــش، وعين للقسم الثاني طريق الحج ومعان فالعقبة إلى نخل والسويس – أما قسمه وكـان مؤلفًا من آلايات الحرس وعرب الهنادي والباشبوزق فقد يمم وجهه شـــطر غــزة ليركب منها البحر إلى مصر.

• سار الجيش المنسحب على أقدامه من الشام إلى مصر عبر طرق ثلاثة يكفــي القول فيها أن الماء والزاد نفد من بعضها حتى اضطر الجنود إلى التهام لحوم الخيل وأن يعيشوا على الأعشاب – وكان هذا الجيش قبل الوصول إلى غـــزة أو العقبــة يكافح ثلاثة مخاطر (الجوع – العطش – قطاع الطرق).

في ١٥ يناير وصل القسم الأول من جيش إبراهيم إلى (غــزة)، أمــا جيــش (سليمان) الذي سار على طريق الحج ومعان والعقبة إلى السويس، فقد كان يحســب أن القيادة في مصر سترسل إليه عن طريق صحراء السويس الزاد والمـــاء، لكــن خاب أمله .. ومتروك للقارئ تصور النتيجة المترتبة على ذلك.

وفي ٣١ يناير ١٨٤١ وصل إبراهيم إلى غزة وأرسل إلى والده يسأله بعــض حاجيات الجيش فبعث بها إليه. وبعد عشرين يومًا غادر هذا الجيش في ١٩ فــبراير ١٨٤١ عائدًا إلى مصر.

أما الجيوش الأخرى التي تخطفت مؤخراتها عصابات العربان وأنهكها الجوع والعطش فإنها لم تصل أبدًا. لقد فقد الجيش المصري خلال عملية الانســحاب مــن الشام ما لا يقل عن ٣٠,٠٠٠ رجل. وهكذا فإن عدد الذين وصلوا إلى مصر مـــن

بين ٥٥,٠٠٠ كانوا ٢٠,٠٠٠ رجل. ما بين جريح وكسيح ومريض سبقهم القائد العام عن طريق البحر[٣٤].

بحسبة بسيطة يمكن القول أن ثلثي الجيش المصري فقد في عملية الانسحاب من الشام بلا معارك – فقط في انسحاب غير منظم ترك فيه " السر عسكر " قواته المنسحبة ليصل إلى مصر في وقت مبكر. ويقضي القانون ١٠٤ الذي كان يطبق في ذلك الوقت بأن لا يترك القائد قواته المنسحبة ويصل إلى قاعدته قبلها، وجزاء المخالفة هو (الإعدام) لارتكاب (عار الفرار)[٣٥].

من هذه الجزئية نناقش قضية (محمد علي) وهذا الجيش.

أزعم أن (محمد علي) ألف هذا الجيش لتحقيق طموحاته الشخصية في المجد، وفي سبيل الوصول بهذا الجيش إلى المستويات المطلوبة في الكفاءة والقوة خصص له موارد البلاد لتسليحه وتدريبه وتجهيزه – ولم يفكر محمد علي في أي اعتبارات في سبيل تحقيق مطلب (القوة العسكرية).

وحقق الجيش مطلب محمد علي الذي أقامه من أجله وأعني به (الطموح والمجد) فوصل إلى (قونية) داخل الأراضي العثمانية، وأصبح القائد إبراهيم على مسافة أميال قليلة من السلطان العثماني.

لكن تقلبات الأحداث وتطورات الأمور لم تترك محمد علي ينعم بالمجد الذي حققه كثيرًا فتآمرت إنجلترا وروسيا ثم فرنسا عليه وأرغم على الانسحاب من الشام.

من المتصور أن محمد علي كان قد وصل عند هذا الحادث(إرغامه على الانسحاب) إلى أقصى نقطة في الإحباط النفسي، وعلى ذلك فإنه يأس من الاستمرار في قضية جيشه بعدما لم يعد لهذا الجيش فائدة ما في استرداد ما أفقدته إياه القوى Powers.

وأزعم أن هذا الأمر كان وراء الانسحاب المتعجل والغير مسئول – من وجهة

نظرى – للجيش على هذه الصورة المروعة .

إن قضية الانسحاب من الشام لم تأخذ حقها من الدراسة وفقًا لما تطرحه هذه الورقة من أفكار – أعني مسألة ربط شكل الانسحاب بنفض محمد علي يديه من الجيش الذي أفنى عمره في بنائه.

وقد يؤيد وجهة النظر التي تطرحها هذه الورقة، ما أصاب الجيش خلال الفترة الباقية من عهد محمد علي بعد (تسوية لندن ١٨٤٠) ومدتها ثمانية سنوات. فقد أهمل أمر الجيش بشكل يتناقض تمامًا مع الاهتمام الذي كان يوليه إياه في بدايات إنشائه – صحيح أن بعض أسباب إهمال أمر الجيش كان يرجع إلى تحديد عدده بثمانية عشر ألف جندي وفق نصوص فرمان أول يونيو ١٨٤١م، إلا أن هذا السبب وحده لا ينهض مبررًا مقنعًا للانهيار الذي أصاب المؤسسة العسكرية خلال الفترة ١٨٤٠ – ١٨٤٨، وهو ما يؤيد وجهة النظر التي تطرحها هذه الورقة من أن (المصلحة الشخصية) التي كان محمد علي يتغياها من الجيش قد زالت، ومن ثم فلا معنى للاهتمام بهذا الجيش.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها بالتبعية من ذلك هي أن الجيش الذي أقامه محمد علي لم يكن أبدًا لخدمة الوطن أو للذود عن مصر في المقام الأول، كما أن مسألة الوطنية وحب مصر تصبح هنا موضع تساؤل.

في كلمات أخرى فإن هذه الورقة تقول مباشرة أن مسألة الجيش كانت مسألة شخصية بحتة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالطموحات الشخصية لمحمد علي، وأن انهيار هذه الطموحات استتبع فقدان الدافع لإقامة الجيش أو الاهتمام بأمره والعناية به.

ومن هذا المنظور تأتي مناقشة مسألة المواطنة على المستويين المتعين منقاشتهما في هذه الورقة :

١) هل كان محمد علي يفهم معنى المواطنة عندما أقام جيشًا في عام

١٨٢٠ ؟ هل كان يعني معنى قيام " جيش مصري " ؟ إن إنشاء جيش لمصر يعني أن يكون الجيش من المصريين سداة ولحمة Warp and Weft. ولكن الجيش الذي شهدته عشرينيات القرن التاسع عشر كان جيشا محرما على المصريين تسنم مراتبه – اقتصرت مراتبه على مستوى القيادات الصغرى والوسطى والعليا على المماليك ثم الأتراك – ولقد فسر لنا " كلوت بك أسباب الباشا في هذا الصدد. عندما قال أن المصريين (يغايرون العثمانيين والمماليك في الأهلية للقبض على زمام القيادة) (٣٦).

ولقد استمر حرمان المصريين تولي مناصب القيادة فى الجيش المصرى لسنوات وسنوات بعد محمد على ، وظلت السيادة والقيادة ومناصب السيطرة للعناصر التركو-جركسية حتى اضطر " أحمد عرابي" إلى الثورة في سنة ١٨٨١.

ليس في وثائق الفترة موضوع الدراسة ما يفيد أو يؤيد أن محمد علي كان يفهم من أمر مصر شيئا أكثر من تحقيق مطامحه فيها من إقامة بيت حاكم لا يستطيع السلطان أن يخلعه منه وأن يفوز بوراثة هذا البيت لذريته من بعده. لكن هناك فرقا كبيرا بين (حب مصر) و(حب حكم مصر) – وأزعم أن محمد علي كان يقع تحت التصنيف الثاني.

فإذا كان هذا الأمر مقبولا بشكل منطقي فإن الحاجة لا تدعو إذن لمناقشة المواطنة أو الحس الوطني عند الرجل – لأن القضية لا تتجاوز في هذه الحالة مسألة (التسلسل الهرمي الإحتياجي).

Heirarchy Of Needs لأبراهام مازلو Abraham Maslow فيما يتصل بعنصرها الخامس " " الواقعية الذاتية " Self – Acualiztion، وهي الإحتياج الذي يتصل بالحاجة إلى تطوير القدرات وتحقيق أقصى

الأماني.

(Needs that Pertain to the requirement of developing our capabilities and reaching our full potential)(٣٧).

وتتلخص هذه النظرية (الواقعية الذاتية) في أن ملاحظة الدوافع الإنسانية تثبت أن الإنسان (حيوان احتياجي) Wanting animal، وأنه ما أن يوفى الإنسان رغبته في شئ حتى تأخذ مكانها رغبة أخرى، وهو ما يسمى بتوالي الدوافع Succession of motives. وقد توصل "مازلو" في نظريته هذه إلى أن هناك أناسًا يمكن تصنيفهم كأصحاب الواقعية الذاتية Self Actualized people. وهم أناس يختلفون عن أحاد النلس من حيث أنهم أصحاء نفسيًا على غير العادة، ولديهم قدرة ملحوظة على تحرير أنفسهم من القولبة أو النمطية Stereotype، وخبرات فائقة في البصيرة والوعي الحاد – إلى جانب صفات أخرى تتعلق بالمرح وقبول الحوادث اليومية بواقعية غير مبالية.

ويمكن من خلال التطبيق، القول بأن " محمدًا عليًا " كان من هذا النوع من الرجال أصحاب " الواقعية الذاتية " في مجال التحليل النفسي، وأن قضية " الجيش والمصريين " لم تكن تخرج عن هذا الإطار، رغبة عارمة في تحقيق الذات واقعيًا، بصيرة حادة ووعي حاد، اندفاعات وراء اندفاعات تجاه الرغبات الذاتية التي لا تنتهي وَصولاً إلى الهدف النهائي.

ومع أنه ليس من أهداف هذه الورقة تحليل " محمد علي " نفسيًا، فإن دراسة قضية "الوطن والمواطنة" استلزمت الخوض بعض الشيء في هذا الأمر.

٢) وأما فيما يتعلق بالمواطنة عند المصريين، وارتباط هذه القضية

بالجندية فإن من المسلم به أن المواطنة لا تولد من فراغ؛ وأنها تولد من شعور داخلي عند المواطن بأن وطنه حريص عليه، معني بأمره، يعالجه في مرضه، يطعمه عند جوعه، يعطيه وقت حاجته، يهرع إليه وقت شدته، ويرعى أهله وأسرته وقت غيابه.

هذا هو الوطن الذي يتقدم مواطنوه الصفوف للدفاع عنه بنفس راضية وقلب ثابت مطمئن. هذا هو الوطن الذي يتولد لدى جنود جيشه " بالعقيدة القتالية "، الرغبة في التضحية في سبيله، الاقتناع بعدالة قضيته.

أما الوطن الذي يضحي بأبنائه في سبيل " الواقعية الذاتية " لولي النعم، وأولاده وأحفاده، الوطن الذي يترك أبنائه يسحقهم الجوع ويقتلهم المرض، الوطن الذي يكون "التبن" فيه بديلاً عن التراب كفراش للمريض، الوطن الذى يقذف بأبنائه إلى أصقاع الأرض لتحقيق مجد شخصي للحاكم دونما اهتمام بأسرهم وما إذا كانوا قد ملئوا بطونهم أم ناموا على الطوى ... لا أظن في مثل هذا النوع من الأوطان يمكن أن يشعر المرء بالمواطنة، ولعل ما يمكن أن يشعر به مواطن في هذا الوطن هو " الغربة " والنقمة والضيق بقادته وحكامه والرغبة في التنكيل بهم إن استطاع، فإن لم يستطع فبدعوة ربه أن ينتقم له منهم جزاء ما أصابه من ذل وهوان.

ولعل ما قدمته " نماذج " أحوال الجنود المصريين في الوثائق التي ضمتها هذه الورقة –ومنها الكثير في دار الوثائق – تكشف بكل يسر عن مدى النصب الذي كان يعانيه الجندي المصري في الجيش في عهد محمد علي، من بداية تجنيده وحتى نهاية خدمته أيًا كانت هذه النهاية. وهي أحوال أزعم أن " المواطنة " بالمعنى الذي صورته هذه الورقة، لا يمكن أن تخلق أو تتكون عند الجندي المصري في ظلها تحت أي ظروف.

الهوامش

(١) الغارديا أو الجارديا : من الكلمة الفرنسية Garde أي حارس – استخدمت للإشارة إلى آلايات الحرس المشاة – جريناديير Grenadiere أي رماة القنابل – أما الجرخجية Charkhagi فيقصد بها قوات المقدمة في الجيش أو فرق الاستطلاع خفيفة الحركة. راجع عبدالرحمن زكي " الجيش المصري في عهد محمد علي " – دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٤٢م، ص ٢١.

(٢) لم أطلع على عمل خالد فهمي بعد ولكني سمعت به – أما عمل علي شلبي (المصريون والجندية في القرن التاسع عشر) دار الكتاب الجامعي – القاهرة ١٩٨٨م – فهو ما أقصده.

(٣) أسد رستم وعبدالرحمن زكي " الممهدات لتاريخ الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير" – وزارة الدفاع الوطني – القاهرة ١٩٤٣ – ص١٣، ١٨.

(٤) المرجع السابق ص٧.

(٥) المرجع السابق – المقدمة. ٠

(٦) عبدالرحمن الرافعي (تاريخ الحركة القومية في مصر – عصر محمد علي) مطبعة النهضة – القاهرة – ١٩٣٠ – ص٣٨٥.

(٧) Lexicon Universal Encyclopedia – Lexicon publications – USA – 1983 – Vol. 4

(٨) الوثيقة التركية ١٦٨ بتاريخ ٦ رجب ١٢٣٧ – ٢١ مارس ١٨٢٢ بالدفتر رقم ١٠ معية تركي – عن أسد رستم وعبدالرحمن زكي – المرجع السابق ص ٧–٨

(٩) محفظة ٢٥٢ عابدين – ترجمة الوثيقة التركية ٢٢٠ بتاريخ ١٨ شوال سنة ١٢٥١ – ٦ فبراير ١٨٣٦ من إبراهيم باشا إلى سامي بك – والنص المقتبس

هو جزء من كتاب مطول يختص بالاعتراضات الموجهة ضد النظام الحديث الذي كان سليمان باشا الفرنساوي قد قدمه إلى إبراهيم باشا بشأن تنظيم الجيش – عن أسد رستم وعبدالرحمن زكي – المرجع السابق ص١٠٧.

(١٠) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام ح محفظة رقم ٧٣.

(١١) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ – الجمعية الملكية للدراسات التاريخية – القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية – مواضع متفرقة).

(١٢) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة ٦٦ – تقرير وقوعات الجيش المصري يوم الثلاثاء الموافقة ٢٥ من شوال سنة ١٢٤٧ (١٨٣١م) – إلى سليم بك أمير لواء الغارديا.

(١٣) سجل ١٦ معية تركي – وثيقة ٢٠ ص١٩ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٣٨ – ١٨ يونية سنة ١٨٢٣ " من الجناب العالي إلى والي جدة " – عن أسد رستم وعبدالرحمن زكي – المرجع السابق – ص٢٢.

(١٤) على شلبي " المصريون والجندية " مرجع سبق ذكره، ص ٣٤ – ٣٥.

(١٥) الوثيقة التركية ١٦٨ بتاريخ ٦ رجب ١٢٣٧ – ٢١ مارس ١٨٢٢ بالدفتر ١٠ معية تركي – مرجع سبق ذكره ص٨.

(١٦) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا – مرجع سبق ذكره – مواضع متفرقة.

(١٧) وثيقة تركية رقم ٣٢٧ – دفتر ١٠ معية تركي ورقة ١٤ بتاريخ ١٣ محرم ١٢٣٨هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٢٢م) عن (ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا) – مرجع سبق ذكره، ص١٤٢-١٤٣،١٦٧.

(١٨) علي شلبي – المرجع السابق ص٣١.

(١٩) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣.

(٢٠) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣.

(٢١) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – المصدر نفسه.

(٢٢) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣.
(٢٣) دار الوثائق القومية – ترجمة تقرير عسكري رقم ١١٥ مكرر – تقرير عن مدينة اللاذقية بتاريخ ٨ شعبان ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) – محافظ أبحاث الشام – محفظة ٦٥.
(٢٤) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٦٥.
(٢٥) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٢.
(٢٦) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣ (ترجمة الوثيقة رقم ٧ من المحفظة رقم ٢٤٤ عابدين من سليمان أغا متسلم أيدين إلى جانب السر عسكر في غرة شوال ١٢٤٨).
(٢٧) الممهدات لتاريخ الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير – مرجع سبق ذكره "التقرير المؤرخ في ١٨ ذي القعدة سنة ٥١ – ٦ مارس ١٨٣٦م الخاص بأمر جرد وتفتيش الآلاي ٨ جي بيادة – ص٤٠ –١٠٢.
(٢٨) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣.
(٢٩) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٦٥.
(٣٠) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٦٥ – تقرير عن الحوادث التي وقعت في الجيش المصري في يوم الاثنين ٢٠ شعبان ١٢٤٧.
(٣١) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣ – تلخيص الوثيقة ٢٤ بتاريخ ١٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م).
(٣٢) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٦٥ – تقرير عن الوقوعات التي حصلت في الجيش المصري المظفر في يوم الخميس الموافق ٢٢ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) – تقرير عن الحوادث التي وقعت في الجيش المصري يوم الأربعاء الموافق ٢٩ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣١م).
(٣٣) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٧٣ – تلخيص

الوثيقة التركية رقم ١٥٣ بتاريخ ٢٦ شوال سنة ١٢٤٨م.

(٣٤) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا – مرجع سبق ذكـــره – ص ٣٧٢-٣٧٣-٣٩٧-٣٩٩.

(٣٥) دار الوثائق القومية – محافظ أبحاث الشام – محفظة رقم ٦٦.

(٣٦) راجع الحاشية رقم (٦).

(٣٧) أبراهام هارولد ماسلو Maslow, Abraham H. (أبريل ١٩٠٨- ٨ يونيـــة ١٩٧٠) – منظر أمريكي وصاحب نظريات قائدة ومؤيدة لعلم النفس الإنسـاني Humanistic psychology فيما يتعلق بما يسمى " بالقوة الثالثـــة " Third Force التي كانت البديل لمدارس السلوكية Behaviorism والتحليل النفسي Psychoanalysis المسيطرة – عند إنشـــاء جامعـــة Brandies في عـــام ١٩٤٨ أصبح ماسلو رئيسًا لقسم علم النفس بها وظل بهذا المنصب حتى قبـــل وفاته بقليل – ألف كتابًا من أشهر الكتب في علم النفس Toward a Psychology Of Being - Lexicon Universal Encyclopedia – Lexicon publications (1962) N.Y 1980.

الجيش ودوره في مشروع محمد على

د. خالد فهمي

في أغسطس ١٩٤٩م وفي الذكرى المئوية لوفاة محمد على بعث أبوالـــهول برسالة لصديقته القاهرة يناجيها فيها ويسترجع معها قصتهما معًا. في هذه الرســالة التي قام بترجمتها "من الهيروغليفية" إلى العربية محمود تيمــور حكــى أبوالــهول للقاهرة تاريخًا ملخصًا لمصر بدءًا من العصر الفرعوني مرورًا بالعصر الإســلامي وتأسيس عمرو بن العاص للفسطاط ثم تأسيس الفاطميين للقاهرة ومــا أن وصــل أبوالهول (أي تيمور نفسه) إلى فترة حكم المماليك حتى لخصها تلخيصًا شديدًا ثــم أضاف :

ودالت دولة ذلك المملوك الجبار ... وخرجت مــن بوتقــه المحــن والأرزاء صافية الجوهر فكنت الظافرة القاهرة. وكيف لا تكونين كذلك وقد قيَض الله لك ذلك الشهم الغيور. ذلك العبقري الفذ بن قوله ؟ لكأني به وهو في مسقط رأسه رانيا إليك يخترق بنظره الثاقب سجوف الزمن، ويغالب أمواج البحر، فيراك في محنتك تعانين الشقوة والبأساء ويستمع إلى ندائك اللاهف المستصرخ فلا يملك إلا أن يهب إليــك واثبًا وثبته الكبرى، هاتفًا من أعماق قلبه : لبيك، لبيك أني لا متثله الســاعة وفــد هبط عليك باسطًا ذراعيه إليك فتراميت في أحضانه راجفة القلب، فياضة الحنين.

ثم يختم أبوالهول خطابه قائلاً " هل يذكر القاهرة ذاكر دون أن يســرع إلــى خاطره طيف محمد على ؟ أليس هو محلقًا بروحه العظيم حول قلعته يشرف عليــك من عل يتعهدك ويرعاك؟ أو ليس هو اليوم متمثلاً الوثابة، وعظمته الخلاقة، في دم حفيده الفاروق الجالس على العرش يجدد نهضة الوطن ويبعث قواه إلى الأمام ؟".

هناك نقاط عدة في هذه المقالة، الرسالة البليغة التي يمكن التوقف عندها، منها مثلاً أن محمد على يبدو هنا أقرب إلى النبي الملهم منه إلــى الوالــي العثمــاني أو

المصلح أو المتحدث أو كيفما شئنا أن نعرفه. فمحمد على هنا يهبط فعلاً من السماء لينتشل مصر من واقعها المزري ويبعث نهضتها. ولا يقدم لنا تيمور – وهو هنا ليس وحيدًا – أي معلومات تساعدنا على أن نفهم كيف استطاع ذلك الرجل الأمي الذي أتى من مكان ناء من الدولة العثمانية والذي كان أبوه يحترف تجارة الدخان – كيف استطاع هذا الرجل أن يتعرف على أهمية التعليم الطبي الحديث – أو إنشاء الدولة المركزية أو الجيش المدرب حديثًا ما بالك بأفكار التنويريين ؟ وبالطبع إذا صيغ السؤال بهذا لا يستطيع المرء أن يقدم إجابة إلا أنه كان عبقريًا وعلى النقيض من هذا الاتجاه لتقريظ محمد على توجد محاولات عدة لذمه وإظهاره على أنه الحاكم المستبد الظالم الذي أرهق كاهل المصريين وأنه فرعون آخر اتصف حكمه بالقسوة والظلم.

وأعود إلى مقال تيمور لكي أخذ منه مدخلي إلى محاولة التعرف على محمد على فترة حكمه بطريق لا يجرني إلى وصفه بأنه العبقري الفذ أو المستبد المستنير وسأتوقف عند نقطتين هامتين غائبتين في مقال تيمور.

النقطة الأولى التي يضمرها الكاتب هي الحقيقة العثمانية – تلك الحقبة التي دامت أكثر من أربعة قرون والتي لا يشير إليها تيمور من قريب أو بعيد. أما الغائب الأخر في هذا المقال فهو الفرد المصري، فقيرًا كان أو غنيًا، رجلاً كان أو أمرأة. ففي هذا المقال الذي يعبر بحق عن الخطاب القومي الذي ألفناه – خاصة عندما يتعرض لفترة حكم محمد على – ففي هذا المقال لا يفسح تيمور المجال إلا لذكر القادة والحكام : عمرو بن العاص ، جوهر الصقلي، محمد على، فاروق.

في حديثي عن محمد على اليوم سأحاول بالتحديد أن أتعرض لهذين البعدين الغائبين من مقال تيمور ومن الخطاب القومي المصري وبالتحديد سأحاول أن أقدم تاريخًا اجتماعيًا (وليس حربيًا) لجيش محمد على ولنبدأ بتوضيح سبب اختياري للجيش. فغرضي ليس دراسة تاريخ حربي لمحمد على وإنما التعرف على طبيعة

المجتمع المصري في فترة حكمه وأثر إصلاحاته المتعددة على هذا المجتمع. ومن هنا تنبع أهمية دراسة الجيش. فهو أولاً كان المحرك الأساسي للعديد من المؤسسات التي استحدثها محمد على مثل المستشفيات والمدارس و" الفا وريقات " التي كانت كلها تخدم الجيش بشكل أساسي. وهو ثانيًا كان ذا أثر كبير على المجتمع المصري فعن طريق التجنيد التحق بالجيش أكثر من ١٠٠ ألف مصري من مختلف الأقاليم وبذلك أرى أن تأثيره فاق بكثير في وقعه على عامة الناس المؤسسات الأخرى المرتبطة به.

وثالثاً فهو – وبالطبع – كان الإدارة التي استخدمها محمد على في حربه ضد السلطان – وبالتالي فإن دراستنا لهذا الجيش – وبخاصة لخطابات محمد على إلى قواده العظام وعلى رأسهم ابنه إبراهيم باشا من الممكن أن تمكننا من التعرف على نظرة محمد على وأفراد طبقته الحاكمة إلى اسطنبول والدولة العثمانية – ورابعًا فإن دراسة اجتماعية لهذا الجيش وبالتحديد للعلاقة بين الجنود والضباط فمن الممكن لها أن تقدم لنا صورة أو أفكاراً عن كيفية رؤية غالبية الجنود – الذين يعبرون بحق عن السواد الأعظم من السكان إلى محمد على وحاشيته وطبقته الحاكمة.

أما ما أقصده بالإطار العثماني هو أهمية أن نأخذ في الاعتبار ليس فقط أن مصر كانت قانونا ولاية عثمانية تخضع لسلطة السلطان في اسطنبول وإنها كانت كذلك لمدة تقترب من الثلاثة قرون ولكن، إضافة، أن محمد على وأفراد حاشيته والطبقة الحاكمة كانوا عثماني الثقافة واللغة والتوجه العام، وكى نوضح هذه النقطة المهمة فأقول أولاً أن محمد على وكما يظهر في خطاباته المحفوظة بأصلها التركي كان هو نفسه عثماني النزعة والهوية. فهو كان على دراية تامة بتاريخ الدولة العثمانية وبمحاولات الوزراء والسلاطين والصدور الأعظم المعاصرين له والسابقين عليه للنهوض بالدولة ولإصلاح أمورها، كما كان أيضًا على دراية بمحاولات الولاة الآخرين لولايات أخرى في الدولة العثمانية التمرد على سلطة

اسطنبول مثل محاولات الوهابيين الذين حاربهم أو ثورة الموره الذين حاربهم أيضًا أو على باشا والي يانينا وكانت لمحمد على عيون وآذان في اسطنبول تخبره أولاً بأول بأخبار العاصمة وتنقل له بشكل دائم تقلبات السياسة فيها.

ثانياً : كان محمد على شأنه في ذلك شأن الكثير من الولاة الأخريين كثير التشبه بالعثمانيين في اسطنبول ومحاولة محاكاتهم ففي ملابسه ومظهره العام أو في طريقة تنظيمه لبيروقراطيته أو لبلاطه استلهم محمد على النموذج العثماني أو على الأقل معرفته القانونية لهذا النموذج. وذلك يظهر كما قلت في ملبسه ومنظره العام كما يظهر في الطراز المعماري المفضل له والذي يظهر في مسجده أو قصوره في القلعة أو شبرا.

ثالثاً : توجد أدلة عدة في خطابات محمد على ووثائق إدارته أنه كان يأخذ هنا البعد العثماني مأخذ الجد. وكيف لا يأخذه وهو على دراية تامة بأنه ليس من أصل مصري أو أنه ذو نسب شريف ؟ ولم يكن محمد على أيضًا بفاتح يستطيع أن يقول لنفسه أو لغيره أن مصر له لأنه فتحها بالسيف. إذن لم يبق لمحمد على إلا الاعتماد على رضاء السلطان ليستمد منه شرعية حكمه. وذلك ما تؤكده الروايات المتعددة والتي يورد الجبرتي الكثير منها والتي تظهر بوضوح مدى الاهتمام البالغ بفرمان تجديد ولاية له كل عام. وتؤكد هذه الرؤية أيضًا محاولات محمد على الدائمة في استرضاء السلطان وأعوانه الكثيرين مثل دفع الجزية السنوية في ميعادها وإرسال الهدايا والعطايا الثمينة لهم.

ومثال آخر هو تسميته للترعة التي حفرها لوصل الإسكندرية بالنيل بالمحمودية تيمنًا بالسلطان محمود الثاني.

وباختصار فإن عالم محمد على كان عالما عثمانيًا ونظرته إلى واقعه كانت دائمًا تمر بهذا المنظور. وهنا يجب التساؤل بماذا تفيدنا هذه الرؤية ؟ أي ما فائدة

النظر في مشروع محمد على من هذا المنظور العثماني ؟ أظن أنه ذو فائدة كبرى. فالجيش الذي أسسه محمد على في ١٨٢١م مثلاً كان جيشًا عثمانيًا أكثر منه فرنسيًا في استلهامه لنموذج معين ليحتذى به. وذلك إنه في اختياره للرتب والألقاب العسكرية وفي وضعه لهيكل تنظيمي للجيش فضل محمد على بشكل واضح النموذج العثماني على الفرنسي. فمثلاً عندما اقترح عليه إبراهيم باشا وسليمان أغا في عام ١٨٢١م هيكلاً تنظيمًا للجيش المزمع إنشائه رد عليهما بأن ما قاما بوضعه منقول من جيش نابليون الذي يكبر بكثير ما كان في نيته إنشائه وأمرهما أن يحتذيا بحذو السلطان سليم الثالث الذي أنشأ النظام الجديد قبل ذلك بحوالي ربع قرن. إن إغفال البعد العثماني عن تجربة محمد على تضعنا في دائرة المركزية الأوروبية التي يحاول الكثير منا التخلص منها والرد عليها.

على أن محمد على في نفس الوقت كان على دراية دقيقة بأن مكانته في هذا العالم العثماني لم تكن آمنه أو مستقره، فمحمد على – كما يظهر في خطاباته إلى إبراهيم باشا وبشكل واضح إلى نجيب أفندي عامله وسفيره في اسطنبول – كان على علم وثيق بمحاولات السلطان سليم ثم محمود للتخلص منه. ففي ١٨٠٦م وبعد عام واحد فقط من تعيينه واليًا على مصر قرر سليم الثالث عزله واستبداله بيوسف باشا والى سالونيك وإرسال محمد على بدله إلى تلك الولاية القريبة من اسطنبول والتي يمكن فيها السيطرة عليه بشكل أقوى ثم رأى إرساله إلى الحجاز لقتال الوهابيين محاولة أخرى للتخلص منه. ثم كانت مؤامرة لطيف بك (باشا) في ١٨١٣م والتي اكتشفها محمد لاظ أوغلي وقام بقطع رأس الخائن لطيف بعد أن عاد لطيف من اسطنبول وأغتنم فرصة غياب محمد علي في الحجاز ليقوم بمحاولة " انقلاب قصر Palace Coup " فمحمد على إذن لم يكن مطمئنًا في ولايته الغنية والمهمة وكان على علم بأن بقاءه في هذه الولاية يعتمد على استخدامه القوة في الاحتفاظ بها أكثر مما يعتمد على رضاء السلطان العثماني به. وبالتالي فإن إنشاءه

لجيش حديث مدرب تدريبًا جيدًا ومسلح تسليحًا حديثًا كان الغرض منه أساسًا الدفاع عن منصبه في مصر بالقوة المسلحة إذا لزم الأمر.

وقد يسأل سائل : ولكن ألم يكن الغرض من إنشاء هذا الجيش والسبب وراء تكبد كل هذه الأموال وصرف كل هذا الجهد هو القتل في سبيل تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية؟ وأرى أن الإجابة على السؤال الهام من واقع الوثائق الأصلية المحفوظة بأصلها التركي في دار الوثائق هو بالنفي، فمحمد علي عندما شرع في تأسيس جيشه عام ١٨٢١ – ١٨٢٢م لم يكن في نيته حرب السلطان، ومرد ذلك ليس فقط محاولته استقراء رد فعل القوى الأوروبية تجاه هذا العمل الجريء وإنما لأنه هو ذاته لم يكن ليستطيع أن يتصور تبعات هذا العمل على العالم العثماني الذي كان ينتمي إليه، إذاً لم يتصور أن ينظر الأمور من خارج منظور هذا العالم. ونحن نرى أثر ذلك التردد بوضوح عندما قام إبراهيم باشا بالفعل بغزو بلاد الشام – فبعد انتصاراته المتعددة والمتلاحقة على قوات السلطان في معارك حمص وبيلان وقونية في عام ١٨٣٢م وبعد أن دانت له الولايات الشامية كلها بعث إبراهيم باشا إلى محمد علي ينبئه بهذه الفتوحات وينقل له طلبًا خاصًا بترجمة هذه الانتصارات العسكرية إلى واقع سياسي جديد، وبالتحديد كان إبراهيم يلح على أبيه أن يأمر خطباء المساجد بأن يدعو له وليس للسطان العثماني وأن يأمر بسك النقود باسمه.

على أن والده لم يكن مستعدًا بعد أن يذهب إلى هذا المدى، وفي المفاوضات المتأزمة التي أفضت إلى صلح قوتاهيه لم يستطع محمد علي أن يصرح لنفسه وليس فقط لخليل باشا مندوب السلطان الذي حضر للإسكندرية للتفاوض – لم يستطيع محمد علي أن يتصور نفسه خارج ذلك العالم العثماني. وفي رده على إلحاح إبراهيم المتكرر ليطلب منه الاستقلال كان يرد أبيه دائمًا :

" تكفيني محمد عليتي "، وفي نفس الوقت كان يرسل الرسالة تلو الأخرى للصدر الأعظم ولعامله لإعطائه ولاية الشامية. وباختصار وقبل أن انتقل إلى النقطة

الثانية الأساسية يجب التأكيد على أن محمد على كان يأخذ وضعه كوالٍ عثماني يستمد شريعته من تجديد السلطان لولايته سنويًا مأخذ الجد. فيجب أن نؤكد أن محمد على لم يكن فاتحًا ولم يكن ذا نسب عريق أو شريف بل كان مغامرًا عسكريًا سمحت له الظروف وهو في سن صغيره أن يستحوذ على حكم ولاية غنية، ولكن كان هذا الاستحواذ مرهونًا برضاء السلطان. غير أنه أدرك – كما كان سيدرك أي والٍ في مكانه – أن قدرته على البقاء في تلك الولاية الغنية والمهمة مرهون بتأسيسه لقوة عسكرية عتيدة يستطيع أن يعتمد عليها في صد أي هجوم عسكري قد يقوم به السلطان أو أعوانه في اسطنبول لإحلال وال أخر محله. ولذا يجب أن ينظر إلى الجيش الحديث الذي أسسه محمد علي في منتصف العقد الثاني من حكمه على أنه كان سبيله ليس لانتزاع استقلال من الدولة العثمانية بل لترسيخ مكانته في مصر كوالٍ باسم السلطان ومحاولة إبقاء تلك الولاية صلبة من بعده. وبهذا يمكن أن ينظر إلى فرمان ١٨٤١م ليس كدليل لهزيمة محمد على أو لتمكن أوروبا من الاتحاد مع الدولة العثمانية لحرمان محمد على من ثمرات نجاحه – بل على العكس : يجب أن ننظر إلى هذا الفرمان على أنه قمة نجاح محمد على فهو قد حاول طيلة حياته أن يضمن منصبًا دائمًا كوالٍ لهذه الولاية المهمة وأن يبقى حكمها في نسله من بعده، وهذا بالضبط ما تمكن من تحقيقه سنة ١٨٤١م وهو في السبعين من عمره.

وانتقل الآن إلى النقطة الثانية في حديثي ألا وهي التاريخ الاجتماعي لذلك الجيش، والمقصود بالتاريخ الاجتماعي بالطبع ليس ذلك التاريخ الذي ألفناه والذي تلقناه في المدارس والذي يعتبر بحق تاريخ فتوحات ومعارك – تاريخ ضباط وقادة– بل أقصد هنا تاريخ هذا الجيش كما ولو كان قد كتبه أحد الجنود، ونصطدم هنا بالطبع بمشكلة المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها لتقدم لنا صورة من واقع الجنود سواء أثناء فترة التجنيد أو التدريب أو تلك التي تتعلق بأدائهم الفعلي في المعركة أو بتبعات المعركة : أي الإصابة أو الموت أو الفرار.

وسأتناول بالتحديد أهم هذه المراحل – ألا وهي مرحلة التجنيد.

ومن المعروف أن أول قرار بتجنيد الفلاحين كان قد صدر في جمادى الأول ١٢٣٧هـ الموافق فبراير ١٨٢٢م وكان الغرض منه جمع حوالي أربعة آلاف من فلاحي الصعيد ليحلوا محل الجنود الأتراك الذين سبق إرسالهم إلى السودان.

وفي هذه المحاولة الأولى للتجنيد حثَّ محمد علي رجاله أن يتعاملوا مع هذه المهمة الدقيقة برفق وحذر فكتب مثلاً في مارس ١٨٢٢م إلى إبراهيم باشا يحذره من أنه علم أن ضباط التجنيد يجمعون الرجال من القرى بنفس الطريقة التي يجمعونهم بها للسخرة. ثم أضاف أن هذه الطريقة يجب أن تتوقف فوراً لأن الفلاحين وكما قال بالحرف الواحد "ليسوا معتادين على الخدمة العسكرية ... فعلينا أن نرغبهم فيها. ويمكن تحقيق ذلك بتعيين بعض رجال الدين الذين يمكن أن يقنعوا الفلاحين بأن الخدمة العسكرية ليست كالسخرة. ونستطيع في نفس الوقت أن نذكرهم أن الفرنسيين عندما كانوا في مصر استطاعوا أن يجندوا الأقباط للخدمة في جيشهم ... فإذا كان هذا حال القبط فلاشك أن حال المسلمين سيكون أفضل، فقلوبهم تمتلئ بالتقوى والغيرة على الدفاع عن الملة ".

في تلك الرسالة يبدو الباشا متفائلاً بشأن كيفية استقبال الفلاحين لتلك السياسة الجديدة التي أتت في وقت كانت الضرائب الكثيرة قد أثقلت كاهلهم بالفعل وكانت سياسة الاحتكار قد عممت لتشمل أغلب المحاصيل الزراعية التي كانوا ينتجونها. ولذلك واجه ضباط التجنيد مشاكل أخطر كثيرًا من أن تحل بمجرد تعيين دعاه لترغيب الفلاحين في الخدمة العسكرية. ذلك أن السلطات، بالإضافة إلى افتقارها إلى أية معلومات تفصيلية عن السكان كانت مفتقرة أيضًا إلى أية معايير بشأن شروط السن والحالة الاجتماعية وعدد الأخوة لمن يتم تجنيدهم. فما كان على ضابط التجنيد بمجرد تلقيهم أوامرهم بجمع عدد من الفلاحين إلا أن يغيروا على عدد من القرى ويلقوا القبض على من يوجد من الرجال بلا نظام ولا ترتيب ولا اقتراع

وحينئذ يربط هؤلاء الرجال بحبال حول أعناقهم في مجموعة من ستة إلى عشرة أفراد ثم يساقون إلى المعسكرات مخلفين وراءهم جماعات تعيسة محطمة القلب من الزوجات والأمهات والأطفال يولولون ويصرخون ويحاولون سدي أن يمنعوا الجنود من الرحيل برجالهم.

أما محاولات الباشا في إقناع الفلاحين بأن الخدمة في الجيش واجب ديني فلم تلق إلا أذانًا صماء. وتلك المحاولة على أية حال كانت خطيرة عندما شرع الباشا في غزو الديار الشامية عندما كان يقاتل جيوش السلطان العثماني نفسه.

هنا نأتي إلى لب المشكلة التي واجهت محمد علي وأجهزته العسكرية فالباشا لم ينجح مطلقًا في إقناع الفلاحين بالالتحاق في الجيش بإرادتهم الحرة، ففور العلم بسياسة التجنيد الجديدة استخدم الفلاحون مختلف الطرق لمقاومتها. وأول هذه الطرق كان التمرد العام. فالوثائق توضح أن تمردين على الأقل قد إندلعا بسبب سياسة التجنيد. أولهما كان في المنوفية في مايو ١٨٢٣م، عندما اندلعت انتفاضة مؤثرة استطاع محمد على إخمادها فقط عندما قاد بنفسه قوة من حرس قصره مزودة بستة مدافع ميدان. أما الانتفاضة الثانية فمن الممكن اعتبارها ثورة شعبية اندلعت في الصعيد وشملت كل المنطقة من المنيا حتى أسوان واشترك فيها ثلاثون ألف رجل وامرأة واستمرت أكثر من شهرين. تلك الثورة لم تخمد إلا بعد أن قضى الباشا على أكثر من أربعة آلاف فلاح وبعد أن أعدم عددًا كبيرًا من الضباط والجنود رميًا بالرصاص نظير اشتراكهم في هذه الثورة.

أما الطريقة الثانية لمقاومة التجنيد فكانت تلك المحاولات البائسة للفلاحين بأن يقوموا بتشويه أجسادهم أملاً منهم أن يحصلوا على "تذكرة" من أحد الحكماء (الأطباء) بالإعفاء من الخدمة. وكانت أهم طرق التشويه خلع السنة الأمامية لكى لا يستطيعوا خلع خراطيش بنادقهم لملئها بالبارود أما الطريقة الثانية للتشويه فكانت بتر السبابة لكي لا يستطيعوا شد الزناد. والطريقة الثالثة كانت وضع سم فئران في

أعينهم لكي تبدو وكأنهم قد أصابهم الرمد أو حتى العمى.

بالطبع لم يكن لمحمد على أن يسمح لهذا الإهدار للقوى البشرية. وسرعان ما اتضح للفلاحين رد فعل السلطات القمعى لمحاولاتهم البائسة للهروب من سيطرة الباشا.

لقد أمر محمد على بأن أي شخص يساعد الفلاحين على تشويه أجسادهم – وهؤلاء كانوا في العادة إما أمهاتهم أو زوجاتهم – لأن يشنقوا على مداخل القرى، أما المشوهون فقد كانوا يجندوا بالرغم من عاهاتهم – بل أن " ارطاً " بأكملها كانت تشكل من المعاقين إما بسبب عاهات وقعوها على أنفسهم أو بسبب جروح تلقوها في المعارك. بالإضافة إلى ذلك فقد تم منع بيع سم الفئران تمامًا في مصر وكان يعاقب من يبيعه بالجلد.

أما الطريقة الثالثة التي اتبعها الفلاحون لمقاومة الخدمة العسكرية فكانت الفرار. وهنا يجب التأكيد عل أن حالات الفرار لم تكن حالات فردية بل شكلت ظاهرة كبيرة ومزعجة لمحمد على وكبار ضباطه. وسرعان ما اتضح أن من واقع يوميات التعداد أن الفارين شكلوا في منتصف الثلاثينات. أي بعد مرور حوالي ١٥ سنة على البدء في سياسة التجنيد – ستين ألف عسكري من الجيش فقط (+ ٢٠ ألف من الأسطول) أي أن عدد الفارين بلغ حوالي نصف الذين كانوا تحت السلاح.

وبالمقارنة بجيوش السلطان العثماني أو بجيش نابليون فإن هذه النسبة كانت كبيرة جدًا ولا تترك في رأيي أي شك أن " مشروع محمد على " ايما كان تعريفه لم يلق أي صدى لدى الغالبية العظمى من رعاياه ويجب هنا التأكيد على أن جيش محمد على لم يكن الجيش الوحيد في التاريخ الذي استطاع أن يحقق انتصارات مذهلة في ميادين القتال بالرغم من عدم اقتناع غالبية الجنود بالهدف الذي يحارب من أجله هذا الجيش. فجيش نابليون يقدم أبلغ مثال على أن هناك جيوش حارب فيها

الجنود لا للدفاع عن الوطن بل لمجد ومصلحة شخص واحد.

ولكن في حين نجح نابليون في إقناع ضباطه على أن ما كان يحارب من أجله كان فعلا الثورة وعظمة فرنسا لا شخصه وعظمته هو، وفي حين حاول هؤلاء الضباط بدورهم أن يقنعوا جنودهم بذلك، لم يقم محمد على حتى بمحاولة حث ضباطه على النظر إلى هذا الجيش وإلى دورهم فيه على أنه جيش مصري، بل على العكس فقد كان في ذهن الباشا كما عبر صراحة لأحد مستشاريه العسكريين الفرنسيين أن ما كان يقوم به في مصر لا يختلف عما يقوم به الإنجليز في الهند. فهم هناك يجندوا الهنود ويؤمر عليهم ضباطًا إنجليز وهو في مصر يجند الفلاحين ويؤمر عليهم ضباطًا أتراكاً. وإن هؤلاء الضباط كانوا يدينون بالولاء ليس لمصر أو لسكانها وإنما له ولأسرته.

ولا يتسع الوقت للحديث هنا عن العلاقة المتأزمة بين الجنود والضباط في هذا الجيش. ولكن من الضروري طرح نقطتين أساسيتين :

أولاهما أنه كانت هناك فجوة كبيرة في اللغة والثقافة والمستوى الاجتماعي بين الجنود وضباطهم. فهؤلاء الضباط الذين وفدوا من شتى أنحاء الدولة العثمانية لم يكن يجمعهم بالجنود الذين قادوهم سوى عنصر الدين. أما من حيث اللغة والثقافة والأصل فهؤلاء الضباط شكلوا فئة مختلفة اختلافًا أساسيًا عن الجنود. وبالتالي فإذا كان لجيش محمد على أي أثر على خلق شعور بين الجنود بالتفرد والاختلاف عن الأخر فإن هذا الأخر لم يكن جيوش السلطان العثماني الذي كانوا يحاربونه بل تلك الفئة المتغطرسة والمتعالية عنهم لغويًا وعرقيًا ومن حيث أصولها الجغرافية والتي كانت تستحوذ على الرتب العليا في الجيش. أما النقطة الثانية فهي أن هؤلاء الضباط تمكنوا بفضل مساعدة العسكريين الفرنسيين لهم من أن يطوعوا الجنود وأن يدربوهم تدريبًا حديثًا. وباختصار فإن الانتصارات العسكرية المتلاحقة التي حققتها قوات محمد علي لم تكن نابعة من حماسة الجنود لمشروعه بل كان الفضل راجعًا

فيها لولاء ضباطه له ولتفانيهم في السيطرة على الجنود وتدريبهم وتحويلهم في النهاية إلى ألة عسكرية لا يستهان بها، بغض النظر عن شعورهم الإنساني أو الوطني المصري.

وفي النهاية أود أن ألخص ما قلته في بداية حديثي فأغلب الدراسات – وإن لم تكن كلها– التي تناولت جيش محمد علي حاولت رؤية تلك المؤسسات الهامة من وجهة نظر الباشا نفسه، وزادت بأن نظرت إلى محمد علي على أنه زعيم قومي بالرغم من أصله الألباني، وفي المقابل فقد حاولت هنا وضع تجربة محمد علي في إطار عثماني وأن أقدم تاريخًا اجتماعيًا لجيش محمد على. وبالتالي يظهر جيش محمد علي وتظهر حروبه ومغامراته العسكرية ليست كحروب تحرر وطني كما جرت العادة على قراءتها من القاهرة أو كتمرد مسلح كما جرت العادة على قراءتها من اسطنبول بل كمحاولات وال طموح وقوي في إبقاء حكم ولايته المهمة له ولأولاده من بعده. كما حاولت أن أقول أن نجاحه في ذلك لم يكن راجعًا إلى عبقريته أو نفاذ بصيرته بقدر ما كان بفضل الجهود القسرية للآلاف من رعاياه المستضعفين دون ما اقتناع من جانبهم بمشروعه أو مشاركتهم الوجدانية فيه.

الفن الحربى الأوربى وأثره على بناء
وتطور الجيش المصرى خلال عصر محمد على

د. فطين أحمد فريد على

محمد على وطموح بناء الجيش الحديث

استبد بكوات المماليك بأمور مصر فى العصر العثمانى ، فخضعت البلاد لسيطرتهم العسكرية، وأخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنها وحمايتها من اى اعتداء خارجى واستمر الحال على هذا النحو الى مجيىء الحملة الفرنسية الى مصر فى سنة ١٧٩٨ . فقاومها الأهالى و المماليك مقاومة شديدة ، ولكنها استطاعت التغلب عليهم بعد معارك عنيفة . فاعتصم بعض المماليك بالصعيد ، ينــاوئون الفرنسيين طوال مدة اقامتهم بمصر الى خروجهم منها فى سنه ١٨٠١ . فظهرت قوة المماليك من جديد بجانب الحامية العثمانية . وحينما استتب لمحمد على الأمر فى ولاية مصر سنة ١٨٠٥ ، وجد أن قوة مصر الحربية تتكون من شر ذمة من الرجال جمعوا من اماكن متفرقة ، لا تربطهم بمصر صلة ، فهم مزيج من الترك والالبانيين والمغاربة والدلاة ، ولم يكن لدى هولاء الجنود وطنية او مثل عليا يعتزون بها . بل كان يجمعهم حب السلب واقتسام الغنائم ، أكثر مما تجمعهم راية واحدة .(١)

فلم يكن لمصر إذا فى ذلك الوقت جيش بالمعنى الصحيح . ورغم ما أحرزه هؤلاء الجنود من انتصارات فلم يكن محمد على راضياً عنهم لإنهم كانوا كثيرى التمرد والعصيان ولذلك وطد محمد على العزم على التخلص من هؤلاء الجنود وتكوين جيش آخر من السود على النظام الأوربى الحديث . وكانت الحرب الوهابية التى استمرت من عام ١٨١١ الى ١٨١٩ فرصة نادرة انتهزها محمد على للقضاء على هذه العناصر المشاغبة ، فسيرها الى الحجاز ، حيث قضى على معظمها فى صحراء بلاد العرب .(٢)

وأدرك محمد على باشا بمجرد ما تسلم زمام حكومة مصر انه لابد من إدخال النظام الحديث فى القوة العسكرية البرية والبحرية لكل حكومة تريد أن تكون مقاليد البلاد فى قبضة يدها حتى تتمكن من إدارة شئوونها على محور النظام وتعمل على حفظ حوزتها من الغارات الخارجية ولعل الذى لفت نظره الى ما فى النظام العسكرى الحديث من التفوق ما شاهده بنفسه من انكسار الجيوش العثمانية التى كانت تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا فى واقعة أبو قير أمام الجيش الفرنسى بقيادة نابليون بونابرت [٣] .

كما رأى محمد على منذ قاتل الفرنسيين فى معركة الرحمانية ، تفوق النظم الحربية الحديثة على الخطط الشرقية وعرف قيمتها عند مساعدة القنصل الفرنسى "دروفتى " له أثناء الحملة الإنجليزية بقيادة " فريزر " على مصر سنه ١٨٠٧ . فصمم محمد على باشا على ان يستبدل جنوده غير النظامية بجيش على النظام العسكرى الحديث أو ما كانوا يسمونه " النظام الجديد " متى سنحت الفرصة لذلك[٤].

ولم ير محمد على من الحكمة التعجل فى تنفيذ مشروعه وظل يستخدم جنوده من الباشبوزق – أى الجنود غير النظاميين – فى حملاته الأولى ببلاد الحجاز ثم حملته السودانية وقد سارت حروب طوسون باشا مع الوهابيين على النمط الشرقى القديم وكذلك ابراهيم باشا مع أنه ضم الى هيئة أركان حربه الضابط الفرنسى فيسيير Vaissiere فى الحملة الحجازيه . فقد ظلت الأساليب الحربية القديمة هى المتبعة ولم يطرأ عليها تغيير [٥] .

ويحلو للكثير من المؤرخين ان يصور محمد على باشا بصورة الذى وضع خطة كاملة متكاملة منذ البداية لإنشاء الجيش الحديث بل وإعادة بناء مصر الحديثة . ولكن الوثائق التى خلفها عصرة تظهر بما لا يدع مجالا للشك ان محمد على كان فى البداية لدية الآمال والأطماع دون ان يكون لدية خطة عمل متكاملة ، وأن أسلوبه

فى تنفيذ رغباته هو البدء بالعمل كيفما إتفق ثم يعدل ويطور وينسق طبقا لمجريات الأمور بعد ذلك . وعلى العموم وبالإضافة الى ان تسلسل الأحداث يؤيد ذلك ، فانه ورد فى حاشية خطاب موجه من محمد على الى نجله ابراهيم ما نصه "... والحاصل أن العقلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون فى بادىء الامر الى تنظيمها كيفما اتفق اى على بركة الله ،ومن ثم يأخذون فى وضعها فى نصابها كلما ثبتت اقدامهم ، حتى تتاح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لما يرغبون . فيجب علينا ان نتشبه بهم نحن ايضا فنسير بأمورنا حسبما يقتضية الموقف ، وكلما إتسع لنا الوقت وسنحت الظروف عمدنا الى إتمام ما ينقصنا . فابذ لوا الهمة فى اتخاذ هذا الإسلوب ...[٦] "

ان وجود جيش كبير لم يكن وحده كافيا لضمان الاستقرار واستتباب الأمر لمحمد على فى إمبراطوريته الواسعة ، بل كان ضروريا كذلك ان ينظم هذا الجيش تنظيما حديثا ، يمكنه من التغلب على أعدائه ، ولم يكن هؤلاء الأعداء جميعا من بدو بلاد العرب أو من رجال القبائل فى النوبة ، بل كان منهم كذلك العثمانيون والأوربيون ، الذين ما كان يستطيع الصمود أمامهم او قهرهم فى ميدان القتال ، سوى جيش على النظام الحديث . صحيح ان الباشا أحرز عدة انتصارات باهرة فى النوبة وسنار والحجاز بفضل القوات العسكرية التى وجدها عندما تسلم زمام الحكم ، وصحيح ان تلك القوات كانت مزيجا من الترك والألبان والمغاربة والدلاة أو الدلاتية كما سماهم الشيخ الجبرتى ، وأنه لم يكن يجمع بين هؤلاء جميعا سوى تناول المرتبات من محمد على ، وانتصار الغنائم والأسلاب فى أثناء المعارك وبعدها ، إذ لم تكن ثمة مثل وطنية او قومية عليا تربط بين أشتاتها ،ولكن رغم الانتصارات التى أحرزتها تلك القوات ، لم يكن محمد على راضيا عن ذلك الجيش الخليط ، الذى لا يعرف النظام ، إذ أنه ما كان يتوقع إحراز مثل تلك الانتصارات إذا اشتبك جيشه وهو على هذا الوضع ، مع جيش أوربى أفاد من الأساليب والأنظمة الحديثة التى

الفتها جيوش أوربا ، خلال المعارك التى خاضت غمارهـا أيـام حـروب الثـورة ونابليون ، و كان محمد على يدرك تمام الإدراك أن الفضل فيما أحرزه جيشه مـن انتصارات الى ذلك الحين ، إنما يرجع كذلك الى رقابته الدقيقة ، و الـى إشـراف أبنائه وقواده العسكريين ، على القوات المحاربة ، و لهذا كله لم يكن محمـد علـى راغبا فى إنشاء جيش كبير فحسب ، بل كان فى الوقت نفسه معنيـاً بتدريـب هـذا الجيش على أحداث النظم ، ومن ثم سمى الجيش الذى شرع فى تكوينـه " بالنظـام الجديد " (٧)

<u>الفن الحربى الاوربى</u>

عندما قرر محمد على باشا ادخال " النظام الجديد فى جيشة " كان الفن الحربـى فى اوربا يشهد تطوراً كبيراً فى مجالات التكتيك والاستراتيجية بالإضافة الى تطـور نظم التسليح والتنظيم والتدريب والفنون العسكرية بوحة شاملة .

لقد خرج الجيش البروسى بعد حرب " السبع سنوات " منهكا ولكن راضيا عن نفسه . وقد احتفظ بنظمه وعقائده الراسخة . وفى فرنسا فى الناحية الأخرى صـدم الكثيرون من احداث الحرب ، وبدأ قدر كبير هام من اعادة التفكير واعادة التنظيم(٨).

وكان استخدام فريد ريك الثانى ،و المعروف " بالأكبر " – ملـك بروسـيا – للمدفعية التى تجرها الخيول ابتكارا كبير الأهمية .. ويعكس هذا التحسينات الفنية فى المدافع الثقيلة التى تمت فى السنوات القريبة وبالمثل الاهتمام الجديد بخفة الحركـة وطور جان دى ماريتز قبل حرب عام ١٧٤٠ طريقة جديدة لثقب مواسير المدافـع بمثقاب جاعلا بذلك الماسورة اكثر قوة ،والعيار أكثر دقـة بالنسـبة الـى محيـط المقذوف . واثبت فيما بعد الرياضى البريطانى بنيامين روبينز انه فـى اسـتطاعة عبوة اصغر ومدفع أخف قذف طلقة الى نفس المسـافة . وأدى كـل مـن هذيـن الاكتشافين الى انقاص حجم المدافع بدون فقدانها فاعليتها . وطبق جريبـو فـال –

المفتش العام للمدفعية الفرنسية بعد عام ١٧٦٥ هذه الـــدروس ، مقصـــرا مواســـير المدافع وهادفا الى جعل المدفعية أكثر فى خفة الحركة . وصنعت أيضـــا عربـــات المدافع لتجرى بسلاسة أكثر ، وحلت الخيول محـــل العجــول . وهكـــذا أصبحـــت للمدفعية القدرة الآن على السير بسرعة المشاة . كما لم يعد هناك فاصل كبير بينـــها وبين الخيالة ، وأكثر من ذلك فقد أصبحت أكثر قـــدرة الآن علـــى المنـــاورة فـــى المعركة. ومال عدد المدافع أيضا الى الزيادة ، ولقد ساعد على هذا التطور اكتشـــاف صهر المعادن بفحم الكوك والذى جعل من المتوفر مدافع من الحديد أحسن وارخص بدلا من البرونز كما كان سابقا [٩] .

ولم يكن هناك تطور فنى مشابه فى الأسلحة الصغيرة ، و لكـــن زادت قـــوة النيران نتيجة للخبرة والتدريب . وأوحت دروس حـــرب " الاســـتقلال الامريكيـــة" للأوروبيين مزايا المشاة المسلحة تسليحا خفيفا . ولقد ثبت انه لو دربت مثـــل هـــذه القوات تدريبا عاليا على المناورة واستخدام الأرض ، فانها ســـوف تكـــون مكملـــة للأرتال الملتصقة للقوة الرئيسية وبذا تزيد كثيرا من فاعلية الجيش فى المعركة [١٠].

ولقد أوحت التطورات فى المدفعية والقوات الخفيفة الابتعـــاد عـــن الأفكـــار التكتيكية التقليدية للقرن الثامن عشر . وفى عام ١٧٧٨ عرض دى تيل فى كتابـــه " عن استخدام المدفعية الحديثة " نظاما لعمل المدفعية المتحركة والمشاة معا .. وكـــان على المدفعية ان تبدأ المعركة بفتح النيران على مسافة ... را ياردة حيث تقصـــف من الجنب كل طول امتداد خط العدو. وجادل الجنرال جريبوفال أيضا مؤيدا للمدافـــع الخفيفة الجديدة ذات المواسير القصيرة ، وبالرغم من أنها سوف تكون اقل دقة علـــى المسافات البعيدة الا أنها ستكون اكثر قدرة على الحركة واكثر فعالية ، فى المسافات القصيرة . ودارت مناقشات كثيرة حول النقطة الصحيحة للموازنه بين خفة الحركـــة وقوة النيران ، وهذه أثارت مسألة تجمع القوات . واقترح نولارد وجوب التخلى عن الخط ، واستخدام الارتال المتوازية ، والتى يمكن بالهجمات المركزة اختراق خـــط

العدو فى نقط مختلفة – على أن تملأ الفواصل بين الارتال بالمشاة الخفيفة .. وتطلبت تشكيلات الارتال طابورا جديدا للمعركة .. وبين " بحث عام فى التكتيك " لجوبرت فى عام ١٧٧٢ نظاما لتحركات أساسية بسيطة يمكن للقوات بواسطتها ان تتشكل بسرعة وبدون ارتباك من تشكيل الخط الى تشكيل الرتل و بالعكس [١١].

وأوحت المبادئ التكتيكية الجديدة للهجوم وخفة الحركة ، استراتيجية السعى وراء المعركة بدلا من المناورة ويمكن بقوة النيران المحسنة اجراء عمليات التثبيت بأعداد أقل من القوات . وهكذا اصبح ممكنا للقائد ان يقسم قواته الرئيسية الى أرتال هجوم منفصلة ،و شبكة متقاربة من المفارز ، والتى اذا كانت قادرة على الحركة بسرعة كافية فانه سيكون فى امكانها ايقاع العدو فى الشرك واجباره على المعركة[١٢] .

لقد ظلت هذه المبادئ العسكرية الجديدة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة قبل قيام الثورة الفرنسية ، مثارا للمناقشة لافتراضات عملية مجربة حتى قيام حرب " الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ " ولقد قضت الثورة الفرنسية على كل القديم فى كل طريقة وخاصة فى القوات المسلحة ، وذلك بتطهيرها سلك الضباط . وكان على الأقل ثلثى ضباط الجيش الفرنسى قبل الثورة من النبلاء ، وهذا كان فى حد ذاته سببا هاما للسخط الثورى . ولكن فى عام ١٧٨٩ ألغيت امتيازات النبلاء ، وعلى عام ١٧٩٤ كان قد خرج من الجيش خمسة أسداس الضباط النبلاء . وهكذا فتحت الرتب العالية للجنود الأكفاء .. وكما أشعلت الثورة الفرنسية حماسا للديموقراطية فى الأمة الفرنسية تغيرت صفة كل الجيش واصبح الحرس الوطنى الجديد والذى كان نظام تجنيده بالتطوع هو قلب الجيش القوى ، وبعد فترة وجيزة أصبحت غالبية كل المجندين من المتطوعين . ولقد كانت الصفة الجديدة والمميزة لهذا الجيش الوطنى القائم على التطوع هى اندفاع الجنود خلف ضباطهم بدلا من دفعهم بواسطة ضباطهم .. واندلعت الحرب فى ابريل ١٧٩٢ بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من

ناحية أخرى .. وكان سبب اندلاعها خشية حكام النظام القديم من الثـــورة ،وكــره زعماء الثورة الفرنسية للنظام القديم . ومن أجل حملة الشعب ضد الاســتبداد كــان ينهض الفرنسيون ليتطوعون للقتال [١٣] .

وطور نابليون بونابرت بعد عام ١٨٠٥ أسلوب اســتراتيجى جديـد يصلــح لجيوش تتكون من ٢٠٠و٠٠٠ رجل ويتناسب مع المدى المتزايد لاهتماماته السياسية . وقد استخدم لأول مرة تشكيل الفليق ذات الاكتفاء الذاتى والذى يتكون من فرقتيــن او ثلاثة . وبقيت السرعة والتحرك المضبوط جزءا من سر نجاحه . وكان يســتخدم فيلقا قويا كحرس أمامى ليثبت العدو ، بينما تناور الفيالق الأخرى بدقة لتجزئ قوات العدو ، أو الالتفاف على جانبها أو تطوقها ، أو تقوم بالضربة المدمرة النهائية [١٤] .

وكانت تكتيكات نابليون هجومية أيضا وذات تحضير طويل . وكان يعمـــل أكثر ما يمكن مقدما لتحديد سير المعركة ،ولكن كان لدية الاحساس الدقيق بـــالتوقيت فى القتال . وكما قال : " ان مصير المعركة هى مسألة لحظة واحـــدة " و " توجـد لحظة فى الاشتباك تكون فيها أقل مناورة حاسمة وتعطى النصر ، انها نقطة المـــاء التى تجعل الاناء يفيض " وكانت نظرته للأرض بارعة . و كتب كولينكورت انـــه "كان يبدو وكأنه يستخرج الرجال والخيول والمدافع من احشاء الأرض " [١٥] .

وقد كانت المشاة هى السلاح الرئيسى فى جيوش نـــابليون . ومــن حيـث المبـدأ استخدمت المشاة فى تشكيل مختلط وهو تشكيل مكون من بعض كتائب فـــى خـط وأخرى فى رتل . ومزايا تشكيل الخط الذى اقتصرت عليه معظم الجيوش الاخــرى – هو انه ينتج أقصى قوة نيران من القوات ، فى حين لا يستطيع سوى صفيـــن او نحو ذلك من الرتل استخدام بنادقهما ولكن فى الناحية الاخرى فان القوات الناقصـــة التدريب لا تطلق نيرانها بثبات ، كما ان الصدمة النفسية الناتجة من قوات محتشـــدة فى رتل كانت كبيرة . وقد دافع جوبرت عن الأرتال فى أحوال معينة ، كمـــا أنـــها

اثبتت جدارتها فى حروب الثورة . واستخدمت الجيوش الفرنسية من وقت الحملات الايطالية وما بعدها التشكيل المختلط بنجاح كبير ، مغيرين تجمعهم التكتيكى تبعا للأرض و المقاومة . وكان النموذج الاساسى للمعركة هو قيام مجموعات من الرماة المهرة مناوشة ومضايقة العدو ، ثم يتم احتوائه بواسطة الكتائب التى فى تشكيل الخط و التى تقوم باضعاف قوات العدو الى حد ما ومنعها من التجمع ، وعندئذ تقوم الارتال باختراق خط العدو الذى استنزف وفقد ترابطه . ولقد أثبتت هذه التكتيكات دائما نجاحها فى المعركة (١٦) .

وكان تسليح المشاه هو بندقية طراز القرن الثامن عشر ذات الماسورة الملساء والتي تعمر من الأمام ولها زند ذو صوانه ولم تكن لها فاعلية كبيرة حيث أن الصوان كان يحتاج باستمرار إلى تغييره ، بينما سرعان ما تتسخ الماسورة من استخدام البارود الخشن . أما البارود فكان يصبح عديم القيمة اذا ما كان رطبا . وكان في استطاعة الجندى المدرب تدريبا عاليا أن يطلق طلقتين في الدقيقة . وفى الحقيقة لم يشغل نابليون نفسه كثيرا بتطوير قوة نيران الجيش بواسطة التدريب . فقد كان المقذوف لا يصل بتأثير إلى مسافة أكثر من ٢٠٠ ياردة ، أى عند المسافة التى يكون مقدار الحصا عندها ٩ قدم . ولذا اخترعت البندقية الأكثر دقة ، ولكنها كانت بطيئة في العمل وغالية الثمن ، ومن ثم قل استخدامها (١٧) .

وكانت المعاونة الاساسية من نابليون – والذى كان رجل مدفعية – للتكتيكات ي في استخدامه للمدفعية ولقد كان سعيد الحظ في ذلك لآن التقدم الفنى والصناعي مكن لأول مرة للقائد من استخدام المدفعية باسراف . وكانت المدفعية حتي هذه الآونة توزع فقط على طول مواجهة التشكيل ، لتعرقل قوات العدو أثناء تشكيلها وتضعف مواجهته قبل أن تبدأ المعركة الحقيقية . وقام نابليون باعادة تنظيم المدفعية في الايات واستغل خفة الحركة لمدفعية الخيول التى عملها جريبوفال (١٨) .

واحتفظت الخيالة بعملها السابق في الاستطلاع وتوفير الحماية في التقدم والتقهقر والقيام بعمليات صغرى على مسافة من الجيش الرئيسى . ولقد اخذ بناء قوات خياله قويه وقتا طويلا بعد الثورة إذ أن ذلك كان مكلفا كما كانت آلايات الخيالة وقفا على الطبقة الأرستقراطية ولقد غير نابليون من تنظيم الخيالة وكلفها بمهمة هامة فى المعركة . فمع أنشاء الفرقة كوحدة مستقلة تتكون من جميع الأسلحة وبقوة ٦٠٠٠ الى ٩٠٠٠ رجل كانت هناك حاجة إلى الخيالة فى وحدات أصغر مما كانت عليه فى الماضى وأن تكون على ألفة وعلاقة مرنة مع المشاه وشكلت الخيالة الخفيفة (الشوسير و الهوسار) خيالة الفرقة والفيلق . وخفض عدد آلايات الخيالة الثقيلة إلى ما يقرب من النصف . وسلح هذا النوع بالسيوف ودرع للصدر ودرع للظهر. ولكنها لم تكون مخصصة للفرق بل أحتفظ بها فى تشكيلات مجمعة للقيام بالهجمات القوية فى اللحظة المناسبة فى المعركة . وأنتهت الخيالة المتوسطة (الـ ـاجرن) إلى أن تكون مجرد مشاه راكبة وشكلت هى وبعض الخيالة الخفيفة الاحتياطى الرئيسى من الخيالة والتى كانت مهمتها متابعة النجاح بمطاردة نشطة لتأكيد أن بقايا جيش العدو المنهزم قد دمرت تماماً – كما حدث فى حملتى ألم وجينا. وكان أعظم ضباط خيالة نابليون هو مورات زوج أختة والذى جعله بعد ذلك ملكاً على نابولى . و كان مورات متهوراً وله نزوات ولكنة كان قائد ملهماً [١٩] .

وأختلف الجيش البريطانى فى هذه الحقبة فى نواحى كثيرة عن الجيش الفرنسى. وأكثر ما يلاحظ أنه لم يكن جيشاً قومياً ولكنة كان جيشاً محترفاً صغيراً من الطراز القديم أى من ذلك الطراز الذى كان يصفه واضعو النظريات العسكرية فى ذلك الحين بأنه عتيق . كما أن التناقض بين حياة ويلنجتون ونابليون كان مميزاً. وكانت براءات الضباط فى الجيش البريطانى يتم الحصول عليها بالشراء أو بالنفوذ الشخصى ومن الطبيعى أن تكون متيسرة فقط للرجال الذين من أصل رفيع [٢٠].

وكانت الوحدة الأساسية في الجيش البريطاني هي اللواء أو الآلاى . ولكن

أنشأ ويلينجتون نظام الفرق . وكانت الفرقة تشكيل يضم جميع الاسلحة والخدمات ولديها اكتفاء ذاتى ويمكن فصلها عند الضرورة من القوات الرئيسية ' وقادرة بالتدريب على المناورة الواسعة . وقام ويلينجتون بادماج قوات برتغالية فى الفرق البريطانية لزيادة أعداد قواته فى شبه الجزيرة ، وكان ذلك عادة بمعدل لواء برتغالى واحد يضم بعض الضباط البريطانييه الى لواء ين بريطانيين . وكان لدية فرقة واحدة مكونة من البرتغاليين فقط . وتولى تدريب وتنظيم القوات البرتغالية بجدارة الجنرال بيرسفورد . ومن حين لأخر شكل ويلينجتون فيلقا ، ولكن كان هذا أمرا استثنائيا ، اذا ظلت الفرقه التشكيل الأساسى .. وأخيرا كان لديه عشر فرق .. ومن بين أحسن قادة فرقه المعروفين كان هيل وجرا هام وبيكتون وجروفارد . وكان ويلينجتون مسئولا أيضا عن ادخال أول سلاح للمهندسين والشرطة العسكرية فى الجيش البريطانى [٢١] .

هذه لمحة بسيطة عن فن الحرب والمدارس العسكرية فى اوربا ، وكذا تنظيم وتسليح وتدريب الجيوش الاوربية . و قد وجد محمد على ان عهد حرب العصابات وحرب الكروالفر وفتن الدروب وان الحرب علم عويص وان لابد من جيش منظم قومى وانه وحده – فى الواقع – اله السياسة القومية .ولذلك صمم على الاستعانه بالخبرات الاوربية فى انشأ جيشه الجديد او النظام الجديدة .

تطور الفكر العسكرى الأوربى

لم تخرج الخطوط العريضة للاستراتيجية التقليدية البرية منذ أقدم العصورعن أمرين: إما سحق قلب الجيش وحملة على التقهقر ثم الأنسحاب وأما تطويقة عن طريق أحد جناحيه .

وقد كان هدف الاستراتيجية حتى نهاية القرن الثامن عشر هو إجبار العدو على أن يخوض المعركة فى ظروف وفى منطقة لا تلائمه بينما هى تلائم الطرف

الآخر وكان غزو البلاد يرمى إلى ارغام العدو على قبول خوض المعركة فى المكان والزمان المحددين [٢٢] .

وخلال التاريخ كله نجد أن الأقتراب المباشر كان هو الأمر الطبيعى وأن الأقتراب غير المباشر المحقق للغرض كان هو الاستثناء وأن القادة كانوا يفضلون النوع الثانى فى معظم الأحيان كآخر أجراء فى جعبتهم وليس فى الإستراتيجية الابتدائية وقد كان إرباك تفكير العدو ومواقعه هو المعيار الحقيقي لقيمة اقتراب غير مباشر [٢٣] .

وقد كانت إستراتيجية القرون الوسطى تعتمد على جيوش الإقطاع التي كانت فى أساسها جيوش خيالة غير أنه لم تكن لمعظم حروب القرون الوسطى نتائج حاسمة لسببين أولهما ان التطوير فى التحصينات قد سبق تطور الأسلحة وبذلك أصبحت الأرجحية للدفاع وثانيهما أن الجيوش لم تكن قد نظمت بعد فى وحدات مستديمة ذات كفاية ذاتية بل كانت تتحرك وتقاتل عادة كوحدة واحدة [٢٤] .

وبحلول عام ١٧٩١م ، بدأت فترة جيوش القوميات بظهور الجيش الفرنسي الذي نبع من الثورة الفرنسية وقد كان أول جيش وطني أوروبي يتبع استراتيجية جديدة تعتمد على خفة الحركة والمرونة لذلك أمن نابليون بالامكانات الكافية فى التنظيم الجديد للجيش فى فرقة منفصلة تتمتع كل منها بكفاية ذاتية . كما قدم نابليون فكرة الحاجز الإستراتيجي لاستراتيجية العمل غير المباشر وذلك بأن يكتسب موقعا طبيعيا فى مؤخرة العدو مشكلا حاجزا استراتيجيا فعالا و التى كانت الهدف الاول لمناوراته الفتاكة ضد مؤخرة العدو [٢٥] .

أما اساليب قتال جيوش الاقطاع تمثلت فى الهجوم الخاطف بالفرسان . وقد احدثت الثورة الفرنسية تغيرا اساسيا فى أساليب القتال اعتمد على زيادة معدل سرعة التقدم فى الهجوم عما كان سائدا آنذاك وقد قسم الجيش الى وحدات ذات كفاية ذاتية

يمكنها ان تتعاون مع بعضها لتحقيق هدف واحد عندما تعمل منفصلة[٢٦].

وقبل عهد محمد على لم تكن هناك استراتيجية مصرية بل كانت هناك أساليب قتال عتيقة اذا كانْ المماليك واتباعهم يشكلون جيشا جميعه من الفرسان حتى اذا خرجو للحرب لم يتبعوا أساليب معينه بل اعتمدوا على الكر والفر السريع وعلى النزال الفردى [٢٧] .

كان محمد على قد اعجب بفنون الحرب الاوربية أثناء قتاله ضد الفرنسيين فى مصر . فلما استتب له الامر فى ولاية مصر عام ١٨٠٥م عقد العزم على ادخال هذه الفنون الحربية فى الجيش المصرى . وبالقضاء على المماليك اصبحت الفرصة مواتية لتنظيم الجيش على النسق الاوروبى [٢٨] .

محمد على والنظام الجديد

لم يكن تأليف " النظام الجديد " بالآمر الحين ، فقد صادف محمد على فى طريقة صعابا وعقابا لا تقل عما صادفه السلطان العثمانى سليم الثالث ، عندما أراد إدخال " النظام " فى بلادة ، إذ انضم العلماء إلى جماعة الانكشارية فى معارضة هذه " البدعة "و أرغموا " النظام " على الانسحاب إلى آسيا الصغرة فى عام ١٨٠٦، وكذلك الحال فى مصر اذ انضم العلماء الى جماعة الألبانيين ، وعارضوا محمد على فى محاولاتة الأولى فى أغسطس ١٨١٥، رغبة فى القضاء على "بدعة النظام الجديد " ، وسارو يرتدون الحديث الشريف ، " كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلاله ، وكل ضلاله فى النار " ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انهم تأمروا حتى على حياته ، وقد ذكر الشيخ الجبرتى كثيراً من أخبار تلك المؤامرات ، فى حوادث شهر شعبان ١٢٣٠ (٩يوليو – ٦ اغسطس ١٨١٥) ، ورأى الباشا فى مثل هذه الظروف ان يصطنع الحذر والأناة فى معالجة الموقف ، فاخذ ينتحل المعاذير لتفريق الجند فى أنحاء مصر المختلفة ، او لإرسالهم على صورة نجدات أو إمدادات

لجيوشه فى بلاد العرب ، وظل الباشا يجرى فى سياسته على هذا السنن ، حتى احس بأن سلطانه فى مصر قد توطدت دعائمه ، وأن صيته قد ذاع فى أرجاء العالم الاسلامى ، بسبب انتصاره على الوهابيين واسترداد مكة والمدينة من أيديهم ، وعندئذ رأى ان الفرصة أصبحت مواتية للأقدام على محاولته الثانية ، وكان ذلك حوالى عام ١٨١٩ ، فبادر بإرسال عدد من الرقيق السودأى " العبيد " الى فرشوط ، لتدريبهم تحت إشراف ابراهيم أغا أحد " العصاة " اللذين لجئوا الى مصر من الآستانة ، ولم يلبث الباشا ان وجد الحاجة ماسة إلى تأليف هيئة من الضباط المدربين على الاسلوب الحديث لتنظيم الجيش الجديد الذى اعتزم إنشاءه ، كما دعت الضرورة الى اختيار مدربين يقومون بتعليم الجنود[٢٩] .

وكان اختيار أولئك الضباط والمدربين او المعلمين مثار صعوبات جمة ، لان الباشا لم يشاء ان يستقدمهم من تركية حتى لايثير شبهات الباب العالى من ناحية ، ولان الجيش العثمانى إذ ذاك لم يكن فى حال تسمح بإرسال المدربين اللازمين من ناحية أخرى ، لذلك رأى الباشا ان يتجه صوب اوربا حيث وجد ضالته ، إذ أن عدداً كبيراً من الضباط الفرنسيين خاصة باتوا بغير عمل بعد ان وقفت رحى الحروب النابليونية ، وساروا يتوقون الى الخدمة فى بلاد اخرى، سعياً وراء الرزق وخوفاً مما قد يصيبهم من الأذى فى عهد ملكية البربون الراجعية ، فقر راى الباشا على ان يستخدم منهم جماعة فى جيشة الجديد ، ولاسيما انه كان قبل ذلك قد ألحق ضابطاً فرنسياً يدعى فاسيير Vassiere بخدمة ابراهيم باشا فى أثناء حروبه مع الوهابيين ، كما راى ان يستخدم بعض الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين ، وبذلك اجتمعت لدى محمد على نخبة طيبة ، كان من بينهم " شاتى " Chatis و " وسيفان" Sevin ، و " داراجون " Daragon و" مارى " Mari، ويعرف أيضاً باسم " بكير أغا " ، ثم سيف Seve المشهور بأسم " سليمان الفرنساوى " وهو أقدرهم جميعاً [٣٠] .

وبرغم انه لم يكن هناك اوامر صريحة بعدم تجنيد المصريين ضمن الجيش

العثمانى وبرغم انه كان من سلطة الولاة فى كل ولايات الامبراطوريـــة العثمانيــة تجنيد قوات " باشبوزق " إلا انه لم يحدث أن قام أى من الولاه على مصـــر بتجنيــد مصريين حتى فى القوات غير النظامية[٣١].

وفى اول الأمر عندما فكر محمد على فى إنشاء جيش جديد لم يقــــرر تجنيــد المصريين مثله مثل من سبقه من الولاه . بل نراه يبدأ أولا بمحاولة إعـــادة تنظيــم قوات الجيش القديم .وعندما فشل ، فكر فى إستخدام عبيد من الســـودان . وأخــيرا عندما لم يجد فى استخدام هؤلاء العبيد من يحقق غرضه ،إذ أن معظمهم كان يصاب بالأمراض بل ويتوفاة الله ، لم يجد أمامه سوى الاستعانه بـــالمصدر الطبيعــى بــل والمستمر ألا وهو الشعب المصرى [٣٢].

بدأت المحاولة الأولى لمحمد على لإنشاء الجيش الجديد بعد عودته من الجولة الاولى فى الحرب الوهابية عام ١٨١٥ . فلقد أمر محمد على جميـــع الجنــود أن يخرجوا الى ميادين التدريب قبيل فجر يوم ٢ اغسطس ١٨١٥ مثل الطرق الأوربيــة ، للتدريب الى ما قبل الظهر الا أن الجنود رجعوا الى المدينة فى مظاهرة تحولـــت الى ثورة نهبوا فيها المحلات وعمت الفوضى القاهرة ، مما إضطر محمد على الى إيقاف تلك المحاولة وتعويض المتضررين من أحداث الإضرابات [٣٣].

لم ييأس محمد على مما حدث بل تحايل على ذلك ، وقد زاد اقتناعه بضرورة التخلص من عناصر جيشه القديم . فقام بتشتيت وحداتهم بعيداً عن القـــاهرة حتــى يتجنب تمردهم او اثارتهم للفتن . فقام بالتدريج باخراج الجنود مع ضباطـــهم الـــى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور . كما انه استمر فى إرسال الامدادات للقوات فى الجزيرة العربية ، كما انه ارسل حملة لفتح السودان . وكان من بين أهدافه من فتــح السودان استجلاب عبيد لتكوين الجيش الحديث[٣٤]. وذلك لان محمد على قد اســتقر راية على عدم اختيار الجنود فى الجيش الجديد من الأتراك أو الأرنؤود . كما انـــه

كان لا يميل الى المجازفة باخذهم من المصريين [٣٥].

وبرغم الجهود التى بذلت للعناية بالمجندين السودانيين الذين بلغ عددهم ثلاثون الفاً ، الا أن هذه الجهود وتلك العناية لم تستطيع الإبقاء على حياتهم . فلقد قدمت لهم خدمة صحية تحت إشراف الطبيب " دوساب "وكانوا يطعمون بالمصل الواقى من الأمراض الوبائية عند وصولهم الى المعسكر فى أسوان كما أعدلهم مستشفى للعناية بمرضاهم ، وبرغم هذا كله انتابتهم الامراض وتلقفهم الموت بكثرة أزعجت محمد على [٣٦].

وبرغم ما ذكر من رغبة محمد على من التخلص من الجيش القديم إلا أنه فى الواقع كان يعمل على التخلص من العناصر التى اعتادت على التمرد والفوضى فقط . ولكنه فى نفس الوقت ظل يحتفظ بقوات غير نظامية بل زاد من حجمها الى أن وصل تعداد القوات غير النظامية فى عام ١٨٣٩ الى ٤١٦٧٨ جندى ، ما بين فرسان ومشاة ومدفعية [٣٧].

وليس أدل على بعد نظر محمد على وثاقب رأية . من أنه بعد أن خرج ظافرا من حربه فى الجزيرة العربية ، أوتى من الشجاعة الأدبية وسعة الفكر ما جعله يقدم على تحطيم آلته الحربية القديمة ليستبدل بها آله أخرى من نوع جديد [٣٨] .

كان لابد من تنظيم الجيش على الأنظمة الحديثة من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون القتال الحديثة فاستدعى محمد على الاخصائيين والعسكريين من الفرنسيين والايطاليين و النمسويين لتنظيم نواه جيش من الطراز الاول . ولاشك أن تشكيل الجيش على تلك الصورة يستدعى بناء الثكنات وتشييد المدارس العسكرية لتخريج الضباط وإقامة المستشفيات للمرضى وتأسيس المصانع لعمل الملابس والمهمات وأدوات التسليح والذخيرة ، فأرسل فريقاً من الشباب الأتراك والمصريين الى أوربا لتلقى علوم الحرب الحديثة فى مدارسها كما انه استجلب الى مصر

مجموعة من الضباط والمدربين الأوربيين كان من بينهم الكابتن سيف أحد ضباط هيئة ياوران المارشال ناى(٣٩) . ولم يجد محمد على أوفق من " سيف " (*) ليشغل منصب المعلم الرسمي للنظام الجديد يعاونه " دوميرج " و " كادو " و " كيسون " و "مارى " أو " بكير أغا " ولم يكون هؤلاء جميعاً بما فيهم " سيف " نفسه سوى "تعليمجية " (٤٠).

وأتجه محمد على إلى الفرنسيين للاستعانة بهم في تزويده بالضباط اللازمين لتدريب جيشه الجديد . فوفد إلى مصر ضباط عديدون ، أقدرهم وأعظمهم شأناً الكولونيل سيف (سليمان الفرنساوى فيما بعد) الذي يعتبر بحق مؤسس جيش مصر الحديث (٤١).

وقد خشي محمد على ، من أثاره شكوك تركية ، فبعث بالجنرال سيف إلى أسوان في أكتوبر ١٩٢١ لبعدها عن القاهرة ومؤثراتها من ناحية وقربها من السودان ذلك القطر الذي ينتظر أن يكون أهم مراكز التجنيد للجيش الجديد من ناحية أخرى(٤٢). وزوده بألف من مما ليكة ليتولى تدريبهم هناك على النظم الحربية الحديثة بعيداً عن أعين الباب العالي ورجالة .وقد خضع هؤلاء للنظام الجديد لأنهم كانوا ملكاً خاصاً لمحمد على . ولكنة عندما حاول تطبيقه على المماليك الآخرين ثاروا ضده ، ولم يستقر لهم حال آلا بعد أن وعدهم محمد على بعدم التعرض لنظمهم الحربية التي نشأوا عليها (٤٣).

وقد لقي " سيف " في تعليم هؤلاء الضباط وتدريبهم متاعب كثيرة ، ذكرها " مانجان " وغيرة من المؤرخين ، كما ذكرها " تيودور دلسبسى "

(*) جوزيف نثليم سيف Joseph Antheleme Seve وهو من مدينة ليون، انتظم فى سلك المدفعية بالبحرية الفرنسية واشترك فى معركة الطرف الأخر فى أكتوبر ١٨٠٥ والتحق بعد ذلك بالجيش الفرنسى فى ايطاليا عام ١٨٠٧ ثم اشترك فى حرب نابليون مع النمسا عام ١٨٠٩.

Theodore de lesseps شقيق **فرد نند** دلسبس الأكبر ، وكان قد زار الوجه القبلي في ذلك الحين ، قال " لقد **رأى سيف** حياته تتعرض للخطر عدة مرات ، كما شاهد جهوده وهى قاب قوسين **أو أدنى** من الفشل، فكثيراً ما أصدر الأمر بإطلاق النار فإذا به يسمع صوت **الرصاص يدوى** على مقربة منة ، ولكنة استطاع بفضل جنانة الثابت أن يؤدى الواجب الذي نيط به أداء موفقاً " على أن " سيف " كان يلقى كل تأييد ومعا ضده من محمد على باشا وكبار رجال الدولة، أمثال " محمد بك لاظ أو غلى " وزير الداخلية ثم الحربية ، وعثمان نور الدين الذي نقل إلى التركية القواعد العسكرية الفرنسية ، التي صارت أساساً لتعليم الضباط الجدد(٤٤). ومن ثم فكر محمد على في استخدام الجنود السود في الجيش ، وكانت هذه الفكرة من الدوافع الأساسية لفتح السودان (٤٥). ونتيجة لحركة التوسع في السودان ، أن تدفقت أعداد كبيرة من الزنوج على أسوان في جماعات ضخمة ، حيث أقيمت لهم المعسكرات ، واتخذت الوسائل الطبية اللازمة لوقايتهم . ولكنهم رغم ذلك قد خيبوا الآمال التي عقدها عليهم ، فمع كونهم على جانب عظيم من الشجاعة والاستعداد لتقبل النظام الجديد ، وخضوعهم التام للنظام والتدريب العسكري ، فان طبيعتهم لم تستطع مقاومة المرض مهما كان تافها . ولهذا كانوا يموتون بالعشرات . فاضطر أمام هذه النتيجة السيئة إلى الإلتجاء لتجنيد الفلاحين المصريين في الجيش الجديد (٤٦). ولقد صادفته عقبات جمة في سبيل تحقيق هذا الغرض ، منها أن المصريين لم يستخدموا للدفاع عن أراضيهم منذ عهد الفراعنة ، ولهذا لجأ البعض إلى تشوية أجسادهم هربا من الخدمة . فأضطر محمد على إلى قبول المشوهين بالجيش وإسناد أعمال الحفر ، من الخطوط الحديدية إليهم ليكونوا عبرة لغيرهم . ولشدة كراهية الفلاحين للجندية كانت تلجأ الحكومة ألي أخذهم بالقوة مكبلين بالحديد ، ولهذا كثرت حوادث الفرار من الجندية في السنوات الأولى من استخدامهم في الجيش . وقد سلك والى مصر مختلف الطرق لترغيب الفلاحين في الجندية عن طريق الوعاظ ورجال الدين

والمرتبات (٤٧).

كما كان للطبقة الأرستقراطية التركية دخل كبير فيما لقيه محمد على باشا من صعاب وعقاب ، لان أفراد هذه الطبقة لم يكفهم أن يرفضوا انخراط أبنائهم في سلك الجندية ، بل أرادوا كذلك أن يحولوا دون تجنيد المصريين ، وحجتهم في ذلـــك أن الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح في متناول " الفلاحين" كما زعمـــوا أن وضع السلاح في أيدى " الفلاحين " المغلوبين إنما هو تسليمهم الإداة إلتى يطـــردون بها " العثماني " ولكن محمد على باشا رأى أن يمضى في سبيله قدما غـــير عـــابئ بمثل تلك المزاعم والآراء فأقبل على تجنيد المصريين أيما إقبال ، ونجحت التجربـــة نجاحاً لم يكن ثم من يتوقعة ، وسرعان ما ألـــف " الفلاحـــون " حياتـــهم الجديـــدة واصبحوا يرون من دواعي فخرهم أن يعتبروا أنفسهم من " جند محمد على " وهكذا ظل " العبيد " و " الفلاحون " يفدون على معسكر أسوان (٤٨) .

وقد وجد الجنرال سيف في بادئ الأمر صعوبات جمة أقامها هؤلاء الممـــاليك في وجهة ، لأنهم جبلوا على عدم الخضوع لنظم عسكرية دقيقة . فحاولوا اغتيالـــه ، ولولا شجاعته ومقدرته ، وحسن سياسته ، لما نجح في مهمته ،حتى أنه أضطر إلـــى اعتناق الاسلام تسهيلا لهذه المهمة ونظراً لشدة الحـــرارة بأســـوان وبعدهـــا عـــن العاصمة ، وصعوبة المواصلات بينها وبين القـــاهرة ، وتعـــرض معظـــم الجنـــود للمرض(٤٩) . فقد أمر محمد على فى أوائل عام ١٨٢٣ أن ينتقل الجند إلـــى مكـــان قريب من القاهرة علـــى أن يتـــم هـــذا الأنتقـــال علـــى عـــدة مراحـــل .. لذلـــك أنتقل المعسكر من أسوان وأستقر فترة إثر فترة فى إسنا و أخميم ثم فى أبى تيـــج ، حيث زارهم محمد بك لاظ أو غلى ناظر الحربية وقام بالتفتيش عليهم (٥٠). ثم أنتقـل إلى بنى عدى قرب منفلوط (٥١).

وأسند محمد على مهمة الأشراف على القوة الجديد ة إلى أبنة إبراهيم الـــذى

لم يجد غضاضة فى أن ينضم إلى صفوف الذين يتم تدريبهم كواحد منهم . وكان برنامج التعليم الذى وضعه سيف يستغرق ثلاث سنوات (٥٢).

وفى سنتى ١٨٢١– ١٨٢٢ أنشأ محمد على ديوان الجهادية للنظر فى أمور الجيش والإشراف على تدريبه وتزويده بالأسلحة والمهمات وبناء الثكنات العسكرية. كما أستعان محمد على بالبعثة الفرنسية برياسة البارون بوايية Boyer لتنظيم الجيش المصرى على النمط الفرنسى .ومعظم رجال البعثة كانوا ممن خدموا تحت إمرة نابليون . كما أستخدم بعثة عسكرية بولندية من ضباط الجيش البولندى بعد استيلاء روسيا على بولندا بمقتضى قرارات مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ فى تنظيم الجيش وتدريبه (٥٣).

وفى يناير عام ١٨٢٣ ، استطاع " سيف " أن يعد ستة الآيات من الجند المشاة طبقاً للتعاليم والأنظمة المعمول بها فى فرنسا منذ صدور قانون جوفيون سان سير Gouvion Cyr فى ٢٣ أكتوبر ١٨٢٠ (٥٤). وأصبح المماليك الذين تدربوا فى أسوان على النظام الجديد ضباطاً لهذه الآلايات الستة الأولى (٥٥).

وفى ديسمبر ١٨٢٣ ، زار محمد على معسكر المدرسة الحربية . فى بنى عدى قرب منفلوط ، وكان يصحبه فى هذه الزيارة كل من " دروفتى " القنصل الفرنسى "وصولت " القنصل الإنجليزي وقام الجند بمناورات حازت إعجاب الجميع وبعد العرض شكل كل آلاى مربعاً وقف وسطه الضباط وتسلم كل آلاى علمه الخاص ، وقد وصف فولابيل Vaulabelle حفل تسليم الأعلام وحلف اليمين ، وكيف قرأ الأئمة – المشايخ آيات من الذكر الحكيم وكيف نحرت الذبائح ، وأنتهى الحفل بإطلاق المدافع ، وقد سر محمد على مما رأى ، وعقد النية على أن يضع هذه الآلايات الجديدة موضع التجربة(٥٦)، فسافر الألاى الأول صوب أسوان فى طريقة

إلى سنار وكردفان في ٥ يناير ١٨٢٤ ، وسار الثانى إلى القصير للإبحار منها إلى جدة ، أما سائر الآلايات فغادرت مقرها بعد قليل إلى المورة ، وفي جميع هذه الميادين برهن النظام الجديد على كفاية ممتازة [٥٧].

وكان الجيش النظامى فى عام ١٨٢٤يتألف من الألايات الستة ، يشتمل كل منهما على خمس أورط واحدة منهما للاساس.. ولما كانت الاورطة تتألف من ٨٠٠ جندي فقد تكونت قوة مؤلفة من ٢٤٠٠٠ جندي وتسلم كل آلاى علمه الخاص ورقمة الذى يتميز به [٥٨] . أما غير النظاميين فكانوا حوالي عشرة ألاف ، وزع أكثرهم بين بلاد العرب والنوبة وسنار و الكردفان هذا عدا الفرسان والمدفعية ، وقد بلغ عدد الفرسان نحو ثمانية آلاف أغلبهم من الدلاة و التركمان ، وكانوا مقسمين" زمراً " كل" زمرة" مؤلفة من خمسمائة فارس ، بقيادة " بيك "يلتحق بخدمة الباشا مدة معينة، وكانوا لا يعرفون النظام ولا يربط بينهم سوى الطمع فى الغنائم والأسلاب ، وفضلا عن ذلك فقد كان لكل كبير فى الدولة جماعة من فرسان المماليك البيض, بلغ عددهم ١٠٦١٠ فى عام ١٨٢٥، وأما المدفعية فكانت تتألف من ١٢٠٠ عثمانى ، يستخدمون مدافع ميدان أو حصار اشتريت من تركيا وفرنسا واسبانيا . وفى عام ١٨١٥ حاول احد الضباط الفرنسيين يدعى " جوثاردى فينور Gothard de veneur " ، إصلاح المدفعية المصرية بابتكار نوع جديد من المدافع ، ولكنه توفى قبل أن يضع اختراعه موضع التجربة ، وفى مارس ١٨٢٢، أى بعد سبع سنوات قام بارون سويدى يدعى "ويترشيت Witterschett" بتجربة أخرى ولكنه لم يوفق ، ولعله مما يجدد ذكره أن محمد على باشا صنع بعض مدافعة الاولى فى المصانع التى أنشأها وأحضر لها مهرة الصناع من أوربا, وكان أهم هذه المصانع فى القلعة،[٥٩] وقد وصفها" مانجان " بقوله "إن أقسامها الواسعة كانت تشغل حيزاً عظيما من القلعة ، يمتد من قصر صلاح الدين القديم إلى باب الإنكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة ، وكان يصنع فى معمل صب المدافع فى كل شهر من ثلاثة الى أربعه مدافع من عيار أربعه وثمانيه أرطال ، وكانت

تصب فيه أحيانا مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ، ومدافع من هذا النـــوع يبلـــغ قطرها أربعاً وعشرين بوصة "[٦٠].

ومنذ عام ١٨٢٤ كان بالقلعة إلى جانب معمل صب المدافع معمل آخر للبـارود، وثالث للأسلحة ، وكان معمل صب المدافع تحت إشراف فرنســى يدعــى جونــون Gonon كانت تعوزه الخبرة والحكمة ، ولم يكن ما ينتجه معمله من النوع الجيــد ، ولهذا لم يستطع أن يحوز رضاء محمد على باشا ، أما معمل البارود فكان يشـرف عليه فرنسى آخر هو " قسطي coste " رئيس مهندسى الوالى، وإليه يرجع الفضـل فى إعادة إنشاء معمل البارود القديم ، الذى أسسه الكيميائيون من علمـــاء الحملـة الفرنسية قبل ذلك بحوالى ربع قرن فى جزيرة الروضة قبالة مصر القديمـة ، وأمـا معمل الأسلحة والبنادق فقد أسس فى عام ١٨٢٣ بفضل جهود فرنسى يدعى جيلمان guillemain "لم يلبث ن خلفة إيطالى يدعى " فرانجينى frangini " قضـى المعمل تحت إشرافه نحو سنتين ، قبل أن يتم صنع بندقية واحدة ، رغم ماتكبده محمد على باشا من نفقات طائلة ، ولهذا ظل يشترى بنادق الجيش من الخارج ، وإن لـم تكن من النوع الجيد [٦١].

واحتذى محمد على باشا فى تنظيم هذه الأورط مثال الجيش الفرنسى ولـم يشذ عنه إلا فى وجود ضابط يسار أى " صول قول أغاسى " أرقى من ضابط اليسـار فى الرتبة وأن الذى فوق رتبته مباشرة هو البكباش أى رئيس الاورطة . وكان تشـكيل أركان حرب الآلاى بالكيفية الآتية : " أميرالاى (قائد) ، قائمقام (قائد ثـــان) ، جراح (حكيمباشى) ، مساعده (حكماء) ، بكباشى (قواد أورط) ، ضابط يميـن صاغ قول أغاسى) ، ضابط يسار (صول قول أغاسى) ، كتاب ، إمام"[٦٢] .

وكان عدد قواد الاورط بالآلاى الواحد أربعة لان أورطة الأساس الخامسة كان قائدها برتبة ضابط يمين(صاغ قول أغاسى) وكانت كل أورطة مؤلفة من ثمانية بلوكـات

على الوجه الآتى : " عدد (١) بلوك الجريناديرgrenadiers وهؤلاء صفوة الاورطة ، وأطول رجالها قامة . عدد (١) بلوك الرماه volitgeurs وهم أقصر رجال الاورطة قامة ويستخدمون للاستكشاف ، عدد (٦) بلوكات توفكجيةFusiliers و البلوك يتألف من يوزباشى وملازم أول وملازم ثان بالإضافة إلى باشجاويش ، ٤ جاويشية ، ٨ أومباشية ، ٢ أمين بلوك ، ٣ ترومبتجية ، بروجى و ٨٠ جندى." [٦٣]

وكان تعليم الجنود قبل نهاية عام ١٨٢٣ قد تقدم تقدماً كافياً جعل محمد على باشا يرغب فى رؤيتهم وتفقد حالهم واستعراض صفوفهم فدعا فى ديسمبر ١٨٢٣ مسيو دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام ومستر سولت Salt قنصل إنجلترا العام لمرافقته إلى الوجه القبلى لزيارة معسكر بنى عدى واستعراض الجنود المصرية النظامية الجديدة . وهناك عملت مناورات واسعة النطاق أما مهم وضع خططها سيف وقام بتنفيذها إبراهيم باشا فسر الجميع وهنأ القنصلان محمد على باشا. فأنعم على " سليمان بك " الفرنسى برتبة الأميرالاى [٦٤] .

وبعد العودة من هذه الرحلة كتب قنصل فرنسا العام إلى وزير الخارجية الفرنسية بباريس بتاريخ ٩ فبراير ١٨٢٤ ما يأتى : " أن هذا الجيش التام النظام والترتيب على الطريقة الفرنسية يتألف من سودانيين وفلاحين مصريين قوادهم وضباطهم من العثمانيين والمماليك . وقد بلغوا فى دقة المناورات درجة تستوجب الفخار للضباط الفرنسيين الذين علموهم "[٦٥].

وفى عام ١٨٢٤ تم توزيع الآلايات الستة بالكيفية الآتية :

أرسل الآلاى الأول بقيادة الأميرالاى عثمان بك إلى سنار وكوردفان .

أرسل الآلاى الثانى بقيادة الأميرالاى محمد بك لا مداد القوات المصرية فى الحجاز.

أرسلت الآلايات الباقية إلى بلاد اليونان وهى :

الآلاى الثالث بقيادة الأميرآلاى خورشيد بك .

الآلاى الرابع بقيادة الأميرآلاى حسين بك .

الآلاى الخامس بقيادة الأميرآلاى سليم بك .

الآلاى السادس بقيادة الأميرآلاى سليمان بك الفرنساوى (٦٦).

غير أن هذه المعدات وتلك القوات لم تكن كافية فى نظر محمد علـــى باشـــا ، لأن الآلايات لم تلبث أن أرسلت بعد تدريبها إلى السودان والحجاز والمـــورة ، وكـــادت مصر نفسها تخلو من جيش قوى ، يستطيع الدفاع عنها إذا دعت الظروف ، هذا إلى ان القضاء على الجيش الجديد كان أموا محتملاً ، إذا رأت تركيا او الدول الأوربيـــة الاشتباك مع محمد على باشا ، قبل أن يكون لديه من الجنود ما يسد حاجة الميـدان ، لذلك قر رأى محمد على باشا على أن ينشئ ثلاثة آلايات جديدة على غرار الآلايات الستة السابقة ، فسارع إلى حشد المجندين فى بنى عدى وعهد بتعليمهم الى مـــهندس قديم من نابولى يدعى " شياندى " Chiandi ويعرف باسم " قاسم أغا " وكان الرجل يطمع فى ان ينال من الحظوة لدى الباشا ما ناله سليمان الفرنساوى فهداه التفكير إلى نقل المعسكر من بنى عدى إلى " اثر النبى " جنوبى مصر القديمة ، ثم إلى " القبـــة " ، غير ان قرب المعسكر من أماكن اللهو و التسلية بالقاهرة ، وما عرف عن عـــداء العاصمة لكل جديد فى الجيش ، جعل محمد على باشا يأمر بنقله إلى مكـــان بيـــن " الخانقاه " و " أبى زعبل " عرف باسم " جهاد أباد " وفى معسكر " جهاد أباد " أكملت الآلايات الثلاثة ، السابع والثامن و التاسع ، تدريبها فى أغسطس ١٨٢٥ (٦٧).

<u>البعثة العسكرية الفرنسية</u>

ولما كان رائد محمد على باشا الا يقف عن هذا الحد ، فقد عهد الى المســـيو

" تورنو " Tourmeau أحد تجار الإسكندرية ، بمهمة البحث فى فرنسا عن مدربين لجيشه ، من بين ضباط الجيش الفرنسى الإمبراطورى السابق ، على أن يفضل عند الاختيار أولئك الذين خدموا فى مصر إبان الحملة الفرنسية ، بحيث تتألف البعثة المطلوبة من ضابط واحد برتبة " جنرال" أما سائر أفرادها فيكفى أن يكونوا من الضباط العاديين ، وبناء على هذا التكليف رحل " تورنو" إلى فرنسا فى صيف عام ١٨٢٤ ، واتصل فى باريس بالجماعة التى ظلت تعرف فى فرنسا باسم " المصريين " Les Egyption لسابق خدمة أفرادها فى مصر تحت إمرة نابليون ، وكان من بينهم الجنرال " بليار " Belliard ، الذى أخذ على عاتقه مهمة تأليف البعثة المطلوبة وفق رغبات محمد على باشا ، فاختار لرياستها الجنرال البارون " بواييه فرنسوا جوزيف" Boyer [٦٨] . فأختار هذا القائد لفيفاً من الضباط الفرنسيين كان معظمهم ممن اشتركوا فى حرب فرنسا تحت قيادة نابليون . نذكر من هؤلاء الضباط الكولونيل جودا قائد الآلاى السابع والعشرين فى حرب البرتغال وكان من أمهر المدربين العسكريين وقومندان الأورطة المشاة " أودلف دى تارلين " الذى منح وسام الشجاعة فى عام ١٨٠٧ . وقومندان السوارى بولان دى تارلين من فرقة الهوسار فى الجيش الأسبانى . والكابتن بو جول والملازم لاديو والطبيب الجراح دوفينول والماركيز ليفرو (ماريشال ده كامب) وكان قد خدم فى الجيش الفرنسى أثناء الحملة المصرية فعرف جيداً طبيعة البلاد المصرية وقد كلفه محمد على باشا القيام بمهام مختلفة كان منها شراء بعض السفن الحربية لمصر [٦٩].

وفى ٦ أكتوبر ١٨٢٤ وافقت الحكومة الفرنسية على طلب محمد على باشا فأرسلت بعثة عسكرية برئاسة اللفتننت جنرال البارون بواييه فرانسوا لتدريب الجيش المصرى وتنظيمه على نسق الجيوش الحديثة ، وقد تألفت البعثة من مجموعة من الضباط الفرنسيين سبق ذكر أسماءهم ، وكان عقد توظفهم فى الجيش المصرى لمدة عشر سنوات ولو أن رئيس البعثة لم يبق فى خدمة محمد على باشا بعد عام ١٨٢٦.

وقد انتدب فى عام ١٨٢٥ ضباط آخرون من الجيش الفرنسى نذكر منهم قومندان الأورطة جان هاراجلى والكابتن بونافنتور دبارون وقومندان الأورطة بيير ماليه وقومندان الأورطة انطوان بيكو والادجونات ماجور بيير بيز والكابتن لويس جان سوى قومندان المدفعية ادوار راى . وفى عام ١٨٢٩ استدعى الضباط : القومندان جول بلانات وقومندان الأورطة السوارى الفيكونت بونافنتور والماجور ماى دشالز هونوريه والكابتن جان بتيه امبرواز وقومندان أورطة سوارى فاران[٧٠].

وصل الجنرال بوايية إلى مصر وكان يحمل لمحمد على باشا خمسمائة بندقية حديثة الصنع هدية من ملك فرنسا فقبلها محمد على بسرور وامتدح الذخيرة الفرنسية كما أثنى على صداقة فرنسا لمصر وللمصريين . وكانت مهمة الجنرال أثناء المدة التى مكثها فى مصر من نوفمبر ١٨٢٤ الى أغسطس ١٨٢٦ قصيرة لم تزد على تنظيم وتدريب التشكيلات الفنية للواءات المنشاة الجديدة وكذلك تنظيم القيادة العليا [٧١] . وسلاح المدفعية وسلاح المهندسين العسكريين [٧٢] .

وأصلح الجنرال بوابيه نظام انتخاب ضباط أركان الحرب بتأسيس مدرسة خاصة لهم .

فقد اقترح على محمد على باشا تأسيس مدرسة أركان حرب فى الخانقاه ، يختار طلبتها من بين الضباط الصالحين للقيادة ، وحصل بوابيه على موافقه الباشا فى ٢٥ مايو ١٨٢٥ وفتحت المدرسة أبوابها فى ١٥ أكتوبر من العام نفسه فى قرية جهاد أباد ، وكان مديرها الاول الضابط الفرنسى بلانا ، وكان من ضباط المدفعية القدماء فى الجيش الامبراطورى [٧٣].

لقد عهد ألى بوابيه وأعضاء بعثته بالقيام على تعليم المجندون الذين جئ بهم إلى معسكر الخانقاه ، وفق الأنظمة الفرنسية الحديثة ، وقد أمكن إعداد الآلايات الثلاثة المطلوبة فى أربعة اشهر مما أثار إعجاب محمد على باشا عندما زار

المعسكر فى مارس ١٨٢٥ ، فقد أقام به خمسة عشر يوما ، شاهد فى إثنائها عرضا عاما ، وحضر مناورات قام بها جنود هذه الآلايات ، وعلق الجنرال بواييه على هذه الزيارة فى رسالة له بتاريخ ٥ مايو ١٨٢٥ فقال : " إن الوالى قد تملكته الدهشة لما رآه من انتظام الحركات ، ونتائج إطلاق النار ، عند التقدم و التقهقر ، وسير طوابير الهجوم ، وفى كلمة موجزة ، أعجب بكل ما استطاعت هذه الآلايات أن تقوم به أمامه ، من حركات عسكرية منوعة ، فى مهارة وبراعة وكان من أثر إعجاب الباشا ، أن دعا إلى المعسكر جميع عظماء القطر ووزرائه ، وبعبارة أوجز كل من يكرهون الجديد ... ".[٧٤]

على أن الجنرال بواييه لم يغب عن باله قط أن يهتم بلباس الجند وأسلحتهم وعتادهم ، فقام قبل كل شئ باختيار الميدان ، ثم تقدم إلى الباشا بطلب الإسراع في تنظيم المدفعية ، كما كتب إلى وزير الحربية الفرنسية المركيز دى كلير مون – تونير Clermont Tonnere ، يرجو الموافقة على إرسال بعض الضباط لتنظيم المصنع الذى يقوم بصنع مدافع محمد علي باشا وأسلحته ، وكذلك للقيام بتعليم رجال المدفعية المصرية ، وقد وافقت حكومة الملك شارل العاشر علي هذا الطلب ، وفي أغسطس ١٨٢٥ وصل الي الاسكندرية ضابط المدفعية "راي" Rey الذي تمكن من القفز بصناعة المدافع وكذا البارود في مصر [٧٥]

وكان آخر اعمال الجنرال بواييه اشتراكة مع "راي" و" جودان" والاخوين "دي تارليه " في مجلس الجهادية ، الذي شكله محمد علي باشا في عام ١٨٢٥ برياسة عثمان نور الدين ، وكان الغرض من تشكيل ذلك المجلس – وهو عبارة عن لجنة عسكرية – توحيد نظم التعليم والتدريب في الجيش ودراسة النهوض به[٧٦]

الفرسان والنظام الجديد

ولعل أهم ما حدث بعد رحيل الجنرال بواييه عن مصر ، إدخال النظام الجديد

في قوة الفرسان المصرية ، وكان السبب في هذا الاصلاح ، أن إبراهيم باشا أعجب أيما إعجاب بقوة الفرسان الفرنسية وتنظيمها في جيش الجنرال ميزون Maison ابان حرب المورة ، ولم يكد القائد المصري يعود إلى أرض الوطن ، حتي وصف لوالده ما شاهده من نظام تلك القوة وبراعتها ، فقرر محمد على باشا تنظيم قوة الفرسان المصرية ، وعهد بذلك إلى الضابط الفرنسى بولان دى تارليه ، وطلب إليه الباشا في بداية عام ١٨٢٩ تشكيل سبعة آلايات دفعة واحدة لانه كان يعد العدة للحرب السورية الآولي . وقد استعان "دى تارلية في نهاية عام ١٨٢٩ بثلاثة من ضابط السوارى الفرنسيين القدماء وهم (توشبيف) De Toucheboeuf, و"مایدى شال " Mey dee chales, " بتى petit ثم لحق بهم بعد قليل القومندان نويل فاران Noel Varin "وكان من ضباط اركان حرب الماريشال " جوفيون" سان سير " القدماء ، وقد أمكن بفضل معاونة هؤلاء جميعاً تنظيم الآلايات السبعة المطلوبة ، على النظام الفرنسى فى عام ١٨٣٠ . [٧٧]

ولما كانت قوة الفرسان الجديدة فى حاجة إلى ضباط ، فقد أسس محمد على باشا فى أبريل ١٨٣١ – عملا برأى سليمان الفرنساوى – مدرسة للفرسان فى الجيزة بسراى مراد بك القديمة . وقد عهد الباشا بإدارة المدرسة إلى " فاران " Varin ، على أن عمل " فاران " كان فى الواقع مقصوراً على الأشراف الفنى ، بينما قام بالأعمال الإدارية مدير مصرى كان حلقة الاتصال بين المدرسة والحكومة[٧٨].

وكان تلاميذ المدرسة فى عهدها الأول من الترك أو المماليك وكانوا نحو المأتين أما المصريون فكانوا يقصرون على تعلم العزف فىالبورى [٧٩]. ثم أخذ العنصر المصرى ينمو بها ويزداد . حتى إذا مضت سنوات قليلة أصبح جل تلاميذ المدرسة – كغيرها من المدارس – من المصريين وزال عنها العنصر الأجنبى أو

كاد .[٨٠]

وقد زار المارشال مرمون هذه المدرسة سنة ١٨٣٤ وكان بـها أذ ذاك ٣٦٠ تلميذاً فأعجب بها وكتب عنها فى رحلته ما يلى : " عندما شاهدت هؤلاء الطلبة فـى الميدان يقومون بالمناورات خيل لى أنى امام **طابور** من أرقى الأيات الخيالة عندنا . ولئن كان ينقص المدرسة لتصل إلى درجة **الكمال بعض** دروس فى اللغة والرسـم وغير ذلك ولكن مما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقسها شـئ ، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل ، والمناورات التى يقومون بها تجـرى بخفـة ودقـة وإحكام ، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون ، والروح المعنوية فيهم على مـا يرام ، فهم جنود بكل **معانى** الكلمة ، وحملة الأبواق يؤدون عملهم باتقان "[٨١]

البعثة العسكرية البولونية

بلغت قوة النظام الجديد ، أى جيوش محمد على باشا النظامية ، قبل الحـرب السورية الأولى فى مايو ١٨٣١ ، على حسب تقرير " فافييه " DeF aviers ، احد ضباط الهوسار الفرنسيين ، ٤٢٩٨٤ جندياً منهم ثلاثة وثلاثـون الـف مـن المشاه، ٦٣٨٤ من الفرنسان ، و ٢٤٠٠ من المدفعية ، خرج منهم مع إبراهيم فـى غزو بلاد الشام ستة آلايات من المشاه ، وأربعه من الفرسان ، عدا المدفعية . وأبلى النظام الجديد فى هذه الحرب بلاء حسنا ، إذ أحرز إبراهيم انتصـارات بـاهرة ، سرعان ما تطايرت أنباؤها إلى أوربا ، فكان نجاح النظام الجديد منشأ الأجـراءات التى أتخذت فى باريس لإرسال البعثة العسكرية البولونية إلـى مصـر ، بریاسـة الجنرال البولونى " هنرى دمبنسكى " H enri D embinski [٨٢]

وصل الجنرال هنرى دمبنسكى من الإسكندرية وقابل محمد على باشا يـوم ٢٠ يولية ١٨٣٣ بقصر رأس التين بالإسكندرية ، وحضر هذه **المقابلته** الدكتـور هـاج

والقومندان " زميوت " ياوردمبنسكى و القنصل الفرنسى بالإسكندرية " ميمو " Mimaut ، وقد طلب محمد على من الجنرال البولونى تنظيم الجيش المصرى ، ومقابلة أبنة إبراهيم باشا فى الشام للاتفاق على ذلك ، حيث قابله فى أطنه يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٣٣ [٨٣].

وعندما عاد الجنرال دمبنسكى إلى مصر فى ديسمبر ١٨٣٣ ، بعد مقابلة إبراهيم باشا ، كتب إلى محمد على باشا رسالة طويلة عن مقابلته لإبراهيم باشا ، ثم أعد قائمة بعدد الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة أركان الحرب ، وكذلك عدد الضباط و المعلمين فى قوات المشاة والفرسان ، وما يتكلفونه جميعاً من نفقات قدرها بمبلغ ٢٠٩،٦٠٠ فرنك ، وأقترح على الباشا أن يستخدم ضابطين من الجنرالات البولونيين ، ثم قدم مشروعاً مطولاً " لتنظيم الجيش فى مصر والشام " بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٨٣٣ ، وكان أهم ما احتواه المشروع إنشاء هيئة أركان حرب ، وأدخال أصلاحات فنية فى تشكيل آلايات المشاه والفرسان والمدفعية ، وكذلك تقسيم الجيش ستة لواءات ، يشمل كل منها أربعة آلايات من المشاه والفرسان وعدداً من البطاريات (المدفعية) ، وزيادة عدد الجيش النظامى إلى ١٢٠٠٠٠ فى وقت الحرب ، و ٨٤٠٠٠ فى وقت السلم ، وذلك عدا البدو والجنود غير النظاميين .

غير أن هذا المشروع لم يوضع موضع التنفيذ ، بل تضافرت عدة عوامل على تعطيله و إخفاقه ، ولعل أهم تلك العوامل سوء التفاهم بين " دمبنسكى " وإبراهيم باشا ، و إعتقاد إبراهيم أن الجنرال البولونى تعوزه الخبرة العسكرية الكافية ، لإنة لم يبلغ المراتب العليا فى قيادة الجيوش . كما كانت للاعتبارات السياسية كذلك أثر واضح فى أخفاق البعثة البولونية ، ذلك بإن الدولة التى ألحت على محمد على فى قبول الصلح مع السلطان ، و على محمود الثانى ليتفق مع الباشا منعاً للروسيا من بسط سيطرتها على تركيا ، كانت شديدة الحرص على الأ يعكر شئ صفو السلام الذى تم عقده فى كوتاهيا ، والا يحاول محمد علي باشا ازعاج الباب العالي، او

استثارة روسيا حليفتة الجديدة، ولما كان محمد علي يعرف ما بين روسيا وبولندة ، فقد ادرك تمام الادراك – كما صرح بذلك القنصل الفرنسي ميمو – ان و جود " دمنبسكى " في خدمته سوف يلفت النظر اليه ، ويثير الشكوك من ناحية نواياه السلمية " ولا سيما بعد ان بات منتظرا ان يصل الي مصر في بداية عام ١٨٣٤ القنصل الروسي الجديد " دوهاميل " D uhamel ، وكان يهم الباشا بطبيعة الحال ان تظل علاقاته وديه مع الروسيا ، ولايريد بسبب وجود البولنديين في مصر ، وبسبب "القضية البولندية " ، ان تحدث مشاكل جديدة قد تزيد الموقف حرجا وتعقيدا ، وزاد الطين بلة ان " دمبنسكى " نفسه لم يدع اية فرصة تمر ، دون ان يبدي عداءه السافر للروسيا ، وعزمه الاكيد علي ان يتخذ من مصر – كما كتب القنصل الانجليزي كامبل الي حكومتة في ٢١ يوليه ١٨٣٣ – "نقطة ارتكاز لتاليف جبش بولندي " يستخدم ضد الروسيا [٨٤]

علي ان الجنرال البولوني رغم اصراره علي ترك الخدمة ، سارع في ٢ مارس ١٨٣٤ الي تسطير خطاب الي محمد علي باشا قال فيه :" ان جيش جنابك العالي في حاجة الي رجل ماهر يستطيع تنفيذ المشروع الذي وضعته لتنظيمه ومن الواجب ان يتم ذلك باقصي سرعة ممكنة ، فقد عملتم الشئ الكثير حتي جمعتم الجنود ، ولكنكم لم تفعلوا سوي الشئ اليسير في سبيل تشكيل الجيش وتنظيمه والمحافظة عليه ، وضمان وحدته ، والتاكد من الوسائل التي يستطاع بها تغذيته بالرجال ، دون ان يحيق بالبلاد الاذي والخراب ، كما ان جنابكم العالي لم تعملوا غير القليل لاعداد القواد الذين يتولون زمامة " ، وظاهر ان دمبنسكى كان يشير في خطابه الي ان الجيش المصري كان مفتقرا الي هيئة اركان حرب منظمة قبل كل شئ ، علي ان دمبنسكي لم يطل به المقام في مصر ، فقد بارح الاسكندرية الي مرسيليا في ١٧ ابريل ١٨٣٤ ، وانطوت بذلك صفحة البعثة البولندية[٨٥]

على أنة مهما اختلفت الاراء فى شأن ما احتواه خطاب – دمبنسكى الى محمد

على باشا ' فلا جدال فى أن الجيش المصرى كان فى حالة تأجر ظاهر منذ انتـــهت الحرب الشامية الأولى حتى أن سليمان الفرنساوى نفسه كان يعتقـــد أن اســـتمرار الحال على هذا المنوال لابد أن يؤدى إلى انهيار الجيش فى ثلاث سنوات أو أربـــع . وكانت أبرز نواحى الضعف فى جيش مصر حاجته الملحة إلى الضبـــاط الآكفـــاء الممتازين ' هذا إلى أن قوة الجيش العامل لم تكن متناسبة مع عدد سكان البلاد حتـــى ان الاخصائيين العسكريين كانو يعتقدون انه مهما اشتدت اساليب المشـــرفين علـــى التجنيد فلن يتيسر على الدوام ملّ الفراغ الذى يحدث فى صفـــوف الجيـــش ، ذلـــك الفراغ الذى كان " ديمبنسكى " يعزوة الى انعدام التنسيق بيـــن الفـــرق والالايـــات المختلفة لافتقار الجيش الى هيئة اركان حرب منظمة وهو امر يتحمل الجيش مـــن جرائه خسائر فادحه فى الارواح والعتاد [٨٦] وليس ادل على حاجـــة الجيـــش الـــى الاصلاح فى ذلك الحين من رسالة " دوهاميل " بتاريخ ٩ مايو ١٨٣٤ حيث قـــال : "ان الجميع فى القاهرة معنيون بالتنظيم الجديد للجيش ، ذلك التنظيم الـــذى اظـــهر " ديمبنيكس " ان الحالة تستدعى اجراءه على الفور[٨٧]

النظام الجديد ومازق الحروب المستمرة

كان على محمد على باشا ان يخوض غمار الحرب تلـــو الاخـــرى قبـــل ان يتكون لدية جيش نظامى كامل الاهبة ، اذ ان ذلك لم يتيسر له قبل عام ١٨٢٨ . ولم يكد محمد على يستكمل ، استعدادة العسكرى ، حتى اشتعلت حرب الشام الاولـــى و الثانية ، مع ما تخللهما من عمليات عسكرية لاخماد الثورات فى بلاد العرب وكريـــد والسودان ، وبل وفى ارض الشام نفسها ولهذا لم يكن ثم مناص من ان يحدث فـــى تلك الاثناء ، بين عامى ١٨٢٨ ، ١٨٤٠ تعديل فى النظام الجديد "[٨٨]

وكان استقدام محمد على باشا طائفة اثر طائفة من الضباط والمدربين الاوربيين خطوة فى سبيل هذا التعديل ، كما عني الباشا بهيئة اركان حرب الجيش حيث عمـــد

فى عام ١٨٣١ الى عثمان نور الدين حيث اسند له رئاسة هذه الهيئة ثم استبدل بـــه فى رياستها ، سليمان بك الفرنساوى الذى رقى فى عام ١٨٣٣ الى رتبة " ميرمران" ثم انعم عليه بالباشوية بعد انتصار قونية .[٨٨]

وفى السنوات التالية زاد عدد المشاة زيادة عظيمة ، بسبب الحاجة اليهم فـــى سنار وكردفان وبلاد العرب والشام ، وبسبب ما كان بين الباشا والسلطان من نضال شديد وعداء مستحكم الحلقات ، فبينما كان عدد الالايات فى عام ١٨٢٨ اثنى عشـر ، ارتفع الى ثمانية عشر ، (منها الاى للحرس) فـــى عـــام ١٨٣١ ، والـــى اثنيـن وعشرين الايا (منها اثنان للحرس) فى عام ١٨٣٣ ، والى واحد وثلاثيـــن ألايـــا (منها ثلاثة للحرس) ، ثم الى اربعين آلايا (منها اربعة للحرس) فى عام ١٨٤٠ ، وكان عدد " الأورط " يختلف فى هذه الآلايات وكان الالاى الواحد يتألف من ثـــلاث اورط على الاقل وتتألف " الاورطة " الواحدة من ثمانمائة جندى [٨٩]

وكان من أثر العناية بالجيش فى شتى النواحى ، أن أرتفـع عدده من ٢٤,٠٠٠ فـى عام ١٨٢٤ ، إلى ٤١,٠٠٠ فـى عـام ١٨٢٥ و ٨٠,٠٠٠ فـى عـام ١٨٣٣ و ١٥٠,٠٠٠ فى عام ١٨٣٩ هذا عدا القوة غير النظاميـة التـى زاد عددها مـن ١٣,٠٠٠ فى عام ١٨٣٨ ، إلى ٣٣,٠٠٠ فى عام ١٨٣٩ .[٩٠]

<u>الإعداد والتدريب :</u>

لم يكن فى مصر عندما تولى محمد على ولايتها أى أفراد على علم بتنظيـــم الجيوش بل ولا بفنون الحرب وتكتيكاتها الحديثة آنذاك لكى يمكن الاســـتعانة بـــهم لتدريب سواء ضباط أو جنود الجيش وكذلك تنظيمه . ولذلك لم يكن أمام محمد على إلا الاستعانة بالخبرة الأجنبية من دول أوربا . وعليه فقد قرر العمل فى اتجاهين فى آن واحد أحدهما هو إرسال بعثات للتعلم فى هذه الدول والثانى هو استخدام خـــبراء عسكريين يقومون بتدريب الضباط والجنود فى مصر [٩١].

ولقد أرسل محمد على عدد ضخم من البعثات العسكرية فى كل المجالات التخصصية ،إلى كل من إيطاليا وإنجلترا والنمسا وفرنسا التى كان فيه التركيز الاساسى للبعثات. وكانت اولى البعثات للتخصص فى الشؤن الحربية عام ١٨١٣ وكانت ثانى البعثات فى عام١٨١٨ .[٩٢]

بينما كانت البعثة الثالثة فى عام ١٨٢٦ وقد عين محمد على المسيو " جومار " مشرفاً على البعثات المصرية بالخارج . وكانت هذه البعثة مؤلفة من أربعة واربعين شاباً من الأتراك والمصريين وقد اضطر خمسة منهم الى العودة إما لعدم الكفاءة او لاسباب صحيحة . واخذ الطلاب يتوافدون الى فرنسا فى كل عام بعد ذلك حتى بلغ عدد من قدموا الى فرنسا فى الفترة من عام ١٨٢٧ حتى عام ١٨٣٣ نحو ٦٠ طالباً[٩٣]. وكانت اعظم البعثات التى اوفدها محمد على الى فرنسا فى عام ١٨٤٤ وبلغ عدد طلابها ٧٠ طالباً وكان من بين هؤلاء الطلبة بعض أبناء وأحفاد محمد على . ولقد قامت فرنسا بإنشاء مدرسة خاصة لطلبة هذه البعثة عرفت باسم المدرسة المصرية بباريس وكانت تحت إشراف وزير الحربية الفرنسى وعين الأميرالاى " بوانسو " ناظراً لها . ولقد كان الغرض من هذه البعثة تخصص أعضائها فى العلوم الحربية ، ولقد ألتحق بها بعد ذلك أعداد أخرى[٩٤] .

ومثلما أهتم محمد على بإرسال البعثات إلى الخارج ، أهتم أيضاً بل وزاد اهتمامه باستجلاب الخبراء العسكريين الأجانب لتدريب وتنظيم الجيش وكذلك الخبراء فى جميع المجالات التى لها علاقة من قريب أو بعيد ببناء الجيش الحديث القوى الذى ينشده . ولقد كان أشهر الخبراء هو المسيو " أنتلم سيف " والذى أشتهر فيما بعد باسم " سليمان باشا الفرنساوى " . وبعد أن بدأت أمور التجنيد والتدريب تنتظم نوعاً ما فكر محمد على فى استقدام بعثة عسكرية فرنسية تقوم بتنظيم الجيش ورفع مستوى التعليم والشئون الأخرى . ولقد ظهر ذلك بوضوح من رسالة لمحمد على إلى ابنة إبراهيم مؤرخة فى ٢٧ ذى القعدة ١٢٣٨ (١٨٢٣م) يقول فيها : لقد

فكرنا فى أستخدم رجل قدير يتولى تنظيم عساكرنا الجهادية[٩٥] ، وفقـا للأصـول العسكرية المقررة ويكمل النقص فى الأنظمة القائمة الآن ويرفع التعليـم والشـئون الأخرى على الوجه المطلوب . وقد تحدثنا فى هذا الموضوع إلى صديقنا الخوجـة "دروفتى " قنصل فرنسا عندما جاءت مناسبة فكتب جنابة بدروه عن فكرتنا هذه إلى الجنرال الذائع الصيت المعروف بأسم "بويية " أحد جـنرالات " بونـابرت " الـذى سيصبح بعد رتبة واحد مرشالا ، والذى حضر مع "بونابرت " أكـثر حروبـه ... وبالفعل تم التعاقد مع الجنرال "بويية " ومعه مجموعة من الضباط برتـب مختلفـه للعمل فى الجيش المصرى لمدة عشرة أعوام ؛ ولو أن الجنرال " بوييه " لم يسـتمر فى خدمة محمد على إلا مدة قصيرة من نوفمبر ١٨٢٤ إلى أغسطس ١٨٢٦ . ولقـد أنتدب فى عام ١٨٢٥ بعض الضباط الآخرين من الجيش الفرنسى [٩٦]. ثم تلى ذلـك استمرار الاستعانة بالأجناب ، وكان من أشهر البعثات العسكرية التى اسـتعان بـها محمد على ما اشتهرت بالبعثة العسكرية البولندية برئاسـة الجـنرال " دمبنسـكى " السابق الإشارة إليه .

وكما أهتم محمد على بإرسال البعثات إلى الخارج واسـتجلاب الخـبراء و البعثات الأجنبية أهتم أيضاً بإقامة المعسكرات لإقامة وتدريب الجنود وكذلك إقامـة المنشآت اللازمة لإتمام العملية التعليمية ألا وهى المـدارس العسـكرية المختصـة لتدريب و تخريج الضباط وصف الضباط ولقد أنشئ أول معسكر للتدريـب فـى " أسوان " كما سبق القول ثم أنشئ معسكر آخر فى " بنى عدى" . وبعد زيارة محمـد على لمعسكر بنى عدى فى نهاية عام ١٨٢٣ كما سبق القول راى أن هذه القرية قـد أصبحت غير صالحة لاقامة هذا المعسكر الكبير فيها فقرر محمد على عقب عودتـه أن ينقل هذا المعسكر ليكون بالقرب منه فى موضع مجاور للقاهرة فنقل المعسـكر الى " أثر النبى " بجنوب مصر القديمة قبيل منتصف عام ١٨٢٤ ، إلا أن هذا المكان كان معرضا لأن تغمرة مياه النيل ؛ فنقل مرة أخرى الى منطقة القبة . ثم وجـد أن

هذا الموقع أيضا لا يصلح لقربة الشديد من القاهرة إ ذ أن ملاهى المدينة قد تصرف أذهان الضباط و الجنود و تعوقهم عن القيام بأعمالهم . فتم نقل المعسكر إلى منطقة بين " الخانقاة " و "أبى زعبل "وسمى المكان الجديد "جهاد أباد "[٩٧] أى (المدينة الجهاد) .

ولقد أنشئت المدرسة الحربية بأسوان عام ١٨٢٠ ثم انتقلت إلى " أسنا " ثم إلى " أخميم " وبعدها نقلت إلى " المخيلة " (قرب أسيوط) وأخيراً استقرت فى " الخانقاه " عام ١٨٢٥ ولقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية . وأنشئت مدرسة أركانجرب بقرية " جهاد آباد " فى عام ١٨٢٥ ؛ وأنشئ فى نفس العام مدرسة الموسيقى العسكرية ومدرسة البحرية ومدرسة قصر العينى للتعليم الإعدادى (التجهيزى) وأنشئت مدرسة الطب عام ١٨٢٧ فى " أبى زعبل " كما أنشئت مدرسة الطب البيطرى فى رشيد عام ١٨٢٨ . وأنشئت مدرسة الفرسان (السوارى) بالجيزة فى أبريل ١٨٣١ وأنشئت مدرسة المدفعية فى " طره " فى نفس السنة ؛ وأنشئت مدرسة المشاة (البيادة) فى " الخانقاة " فى عام أنتقلت إلى دمياط فى عام ١٨٣٤ ثم نقلت ثانية إلى " أبى زعبل " فى عام ١٨٤١ . وأنشئت مدرسة المحاسبة فى عام ١٨٣٦ ثم ألغيت بعد عامين . وأنشئت مدرسة المهندسين العسكريين فى عام ١٨٤٤ فى بولاق وكانت أصلاً ملحقة بمدرسة المدفعية بطره .

ولقد تطور بإضطراد حجم القوات فى الجيش الجديد (الجهادية) . فلقد بلغ ستة آلايات مشاة فى عام ١٨٢٤ بقوة أربعة وعشرين الف مقاتل ؛ وبلغ فى عام ١٨٢٨ أثنى عشر آلايا للمشاة وبعض وحدات المدفعية والمهندسين علاوة على المدارس الحربية بقوة إجمالية ٥٥١٤٤ فرد وفى عام ١٨٣١ كان الجيش الجديد يحتوى على خمسة عشر آلايا للمشاة منها آلايا حرس (جارديا) . وثمانية آلايات سوارى بالإضافة إلى وحدات المدفعية والمهندسين بقوة إجمالية ٥٧٢٠٠ فرد . وأرتفع حجم القوات فى عام ١٨٣٣ ليصبح أثنين وعشرين آلاياً للمشاة وثلاثة عشر

آلايا للسوارى وثلاثة آلايات للمدفعية بالإضافة إلى وحـدات مهندسـين ومـدارس الجيش ليصبح العدد الأجمالى ٩١٠٤٨ فرد . بينما أرتفع حجم القوات فى الجيـش الجديد فى عام ١٨٣٧ إلى ٣٥ آلاياً للمشاة منها آلايين حرس ، وخمسة عشر آلايـاً للسوارى منها أثنين حرس وثلاثة آلايات مدفعية حرس وثلاثة آلايات مدفعية مشـاة وآلايين مدفعية فرسان علاوة على عدد من أورط بلوكات المدفعيـة إلـى وحـدات مهندسين ووحدات أخرى بقوة إجمالية ١٢٣٢٢٥ فرد .

تطور الفكر العسكرى خلال حروب محمد على

١-الحرب الوهابية (١٨١١-١٨١٩)

كان التخطيط العلمى المنظم غائبا فى الحرب الوهابية ، ومن ثم كانت ترجـع القوات الى مسرح الحرب طبقا للمواقف الطارئة كذلك لم تقدر قوة الوهابيين التقديـر الصحيح فضلا عن إغفال طبيعة مسرح الحرب مما أدى الى إلحاق خسائر جسـيمة بالقوات المصرية .[٩٨]

ولما كانت طبيعة مسرح الحرب صحراوية جبلية تكثر بها الهضاب والتلال وتتخللها الأودية والدروب والمضايق وتقل بها موارد الإعاشة مما يجعل الأرض فى صـالح المدافع كان على قيادة الحملة ان تدرس تأثير طبيعة هذا المسرح على أعمال القتـال ولكنها أغفلت ذلك تماما كما إنها لم تستطلع محاور التقدم جيدا فلم تكتشف المتـاريس والطوابى التى أقامها الوهابيون على اجناب مضيق الحديدة فزحف الجيش المصـري مرتبا الصفوف على ذلك المضيق يمينا ووسطا ويسارا وهـاجم الوهـابيين الا ان نيران الوهابيين أخذت تحصدهم دون ان تنال نيران المصريين منـهم ودار القتـال خمسة أيام متتالية أجبرت الحملة فى نهايتها على الارتداد الى ينبع متكبـدة خسـائر فادحة [٩٩].

ولما وصل المدد الى طوسون غير أساليب القتال متبعا أسـلوب الاقـتراب

غير المباشر على المستوى التكتيكى فعزل قرى بـــدر جنيــن والمدينـــة المنــورة والصفراء وتلك التى على جانبى مضيق الجديدة كما ضيق الخناق على العدو فـــى المضيق حتى سقط فى ايدى الجيش المصرى (١٠٠) .

وعندما سافر محمد على إلى الحجاز أدرك أنه من الخطأ محاربة الوهـابيين فى البقاع التى تتكاثر بها الهضاب ، فاتبع أساليب الخداع مســـتدرجاً إيـاهم إلـى السهول و الوهاد كما أتبع تكتيكاً جديداً إذا أنه بمجرد أن توسط الجيشان الهول تجمع الجيش المصرى على هيئة مربعات وأصلى الجيش الوهابى نـــاراً حاميـة ردتـة خاسراً. اما إبراهيم باشا الذى تولى قيادة الحملة الثالثة – التى كانت تضـــم بعــض وحدات الجيش النظامى الحديث فقد أتبع أساليب حصار القلاع والحصون التى كانت سائدة فى العصور الوسطى عندما حاصر قلعة الرأس التى امتنعت عليه نحو خمسـة شهور وهلك فى حصارها كثير من الجنود(١٠١) .

ثم وضع إبراهيم باشا الهدف الأستراتيجى من الحملة نصب عينيــه وهــو الاستيلأ على الدرعيه فأخذ يمهد له بالاستيلاء على بلدتى " عنيزة " و " الشـــقراء " التى أستخدم فيها المدفعية فى حشد ولولا الاعتماد على حشد المدفعية فى معركـــة " الشقراء " لهلك الكثير من الجنود المشاة (١٠٢).

أما خطة حصار الدرعية فقد وضعها إبراهيم باشا بمعاونة الضابط الفرنسـى " فسيير " وبعد أن أحكم حصارها مع إزعاجها المستمر بالقتال قام بالهجوم عليها من أربعة جهات مما أدى إلى سقوطها والاستيلأ على جميع المتاريس والطوابى مما يعد تطوراً فى تكتيكات الحصار (١٠٣) .

٢ – حملة السودان (١٨٢٠ – ١٨٢٢)

كان فتح السودان حرباً قومية بحتة الغاية منها تأليف وحـــدة وادى النيل السياسية والاطمئنان على منابع النيل فلا عجب أن يعد فتــح الســودان خــير

حروب مصر فى عهد محمد على (١٠٤).

لقد أرسل محمد على جيشين لفتح السودان ، الجيش الأول بقيادة ابنة إسماعيل و الجيش الثانى بقيادة صهره محمد بك الدفتر دار لفتح كردفان . بدأت حملة السودان تحركها من القاهرة فى يولية ١٨٢٠ إلى أن احتشدت فى أسوان ثم عبرت الحدود وفتحت بربر وأم درمان وسنار وفى نفس الوقت تمكن جيش محمد الدفتر دار من فتح كردفان بعد معركة دموية مظفرة ببلدة " بارة " شمالى الأبيض " أبريل ١٨٢١ وفى أثناء أقامه الجيش فى سنار أنتشر المرض يبن الجند فاضطر إسماعيل إلى طلب المدد من أبية فوصله المدد بقيادة إبراهيم باشا . وصل إسماعيل زحفه على النيل الأزرق فوصل " فاز وغلى " ودانت له فى ينساير ١٨٢٢ أم إبراهيم باشا فقد حال مرضة الشديد دون تنفيذ كشف منابع النيل الأبيض فاضطر إلى العودة إلى مصر (١٠٥).

أن الجيش المصرى الذى تحرك لفتح السودان لم يقابل سوى قوات منعزلة وعزلاء الأمن الرماح وما شاكلها تجهل فنون الحرب لذلك لم يلق الجيش مقاومة تذكر إلا فى بلاد الشايقية وفى كردفان وفى مملكة سنار مما لا يدع مجالاً للحكم عليه . وقد كانت الأمراض الوبئيه هى العقبة الكؤود التى اعترضت الجيش المصرى فى فتح السودان فكانت اشد خطرا من القتال وخوض المعارك(١٠٦).

٣ - حرب اليونان (١٨٢١ - ١٨٢٨)

بينما كان محمد على يستكمل تنظيم الجيش الحديث ويوطد أركان الدولة المصرية اذا بالسلطان محمود يدعوة الى حرب جديدة ميدانها البر و البحر و قد اصدر له فرمانا بهذا التكليف ، فلبى محمد على دعوة السلطان العثمانى خوفا من سخطة علية وأملا فى الحصول على الشام مكافأه له (١٠٧).

وعندما بدأ الجيش المصرى قتالة فى شبة جزيرة المورة ، أدرك إبراهيم

باشا من وقائع معركة بودروم البحرية فى سبتمبر ١٨٢٤ بين الأسطولين اليونـــانى والمصرى ، أن هزيمة اليونان لا تكون على ظهر البحر لذلك أعتمدت اســتراتيجية مصر فى اليونان على الحرب البرية [١٠٨].

تولى إبراهيم باشا القيادة العليا للجيشين المصرى والعثمانى ورأى أنه لكــى يخضع شبه جزيرة المورة لا بد له من الاستيلاء على مدن " ميتون " و " كــورون " و " نفارين " فقد أتبع أسلوب الاقتراب غير المباشر إذا أستولى أولاً عـــل جزيـــرة اسفاخترىا ليكمل حلقة الحصار حولها ثم هاجمها واستولى عليها باقترب مباشر فـــى يونيه ١٨٢٥ [١٠٩].

وباستيلائه على مدن الثلاثة امتلك إبراهيم باشا مفاتيح شبه جزيرة المــورة . ثم أتضح أمامه الهدف الاستراتيجى وهو الاستيلاء على " تريبــو لــتزا " عاصمــة المورة لإنهاء العمليات الحربية فاختار إبراهيم باشا الحل الصعب إذ قرر الزحـــف عليها مجتازاً جبل " تايجنت " وبرغم صعوبة هذا الجبل ومضيقه فقد هزم إبراهيـــم باشا الثوار و طاردهم ودانت له شبه جزيرة المورة عدا مدينة " نوبلى " التى تركــها مضطراً لمساعدة القائد العثمانى رشيد باشا [١١٠].

كما أدرك إبراهيم باشا أن لميسولونجى أهمية فائقة وأن الاســـتيلاء عليـــها يؤثر على سير العمليات الحربية فى المورة بأسرها ولكن فى البداية أتبــع أســلوب الاقتراب المباشر وهاجمها من اتجاهين فمنى بخسائر فادحة لذلك قرر بعد اســتطلاع الأرض مع المهندس العسكرى الأيطالى " رومينى " اتباع أسلوب الاقـــتراب غـــير المباشر فقرر غلق المسالك المؤدية إلى " ميسولونجى " برا وبحراً والاستيلاء علـــى جزيرتى " دولماس " و " أنتوليكوس " لتحكمهما فى طرق الاقتراب الى ميســولونجى وقد تم له ما آراد كما أستولى على جميع الحصون التـــى تحمـــى" ميســولونجى " فسقطت بعد حصار شديد ودخلها إبراهيم باشا فى ٢٣ أبريل عام ١٨٢٦ [١١١].

لقد أثبتت حرب اليونان كفاءة الجيش المصرى الحديث وإستيعابة فنون القتال وكانت وسيلة لظهور شخصية مصر الدولية ولكن كانت خسائر مصر فى اليونان فادحة فقد بلغت القوات التى جردتها لهذه الحرب ٤٢,٠٠٠ مقاتلا خسرت منهم ٣٠,٠٠٠ وفقدت أسطولها الناشئ ولم تنل سوى جزيرة كريت (١١٢).

٤ – حروب الشام

إذا كانت حرب الشام دفاعية هجومية معاً فطموح محمد على إلى فتح سوريا كان بهدف الدفاع عن مصر وعن مركزه فيها كما كان أيضاً بهدف التوسع ، لذلك لم يـو بدا من أن يؤلف جيشاً قوياً على الطراز الحديث بلغ نحو مائة ألف مقاتل وأن يجدد له المهندس الفرنسى " سيرزى " الأسطول الحربى (١١٣).

وقد أعد محمد على حملة قوية مكونة من ستة آلايات من المشاه وأربعة من الفرسان وأسطولاً عدته خمس سفن كبيرة تتبعها بعض السفن الصغيرة . وفى أكتوبر ١٨٣١ تحرك معظم الجيش براً عن طريق العريش إلى حدود سوريا ونقل الأسطول قيادة الحملة وجزءاً من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة من الإسكندرية إلى يافا (١١٤).

وظهر تطور الفكر العسكرى المصرى خلال سير المعارك فى الشام والأناضول . فقد ضرب الجيش والأسطول المصرى الحصار حول عكا متبعين أساليب الحصار السائدة فصمدت عكا للحصار وبعد انقضاء ثلاثة شهور حشد السلطان العثمانى جيشاً قوياً لرفع الحصار عن عكا وهنا تتضح براعة إبراهيم باشا ومحافظته على الغرض الرئيسى إذ ترك قوة كافية لحصار عكا وتحرك بالجزء الأكبر من الجيش إلى طرابلس لتدمير الجيش العثمانى فى معركة تصادمية غير أن القائد العثمانى أرتد عنها عندما أقترب إبراهيم باشا منها ولكن عندما وصل الجيش المصرى إلى سهل " الزراعة " تقدم الجيش العثمانى لمهاجمته فدارت معركة "

الزراعة " ، فى ١٤ أبريل ١٨٣٢ والتى أتبع فيها إبراهيم باشا أساليب القتال الحديثة إذ هاجم العدو من عدة اتجاهات وقطع خطوط مواصلاته مما أدى إلى انهياره السريع وارتداده إلى مدينة " حماة " لإعادة التنظيم وطلب المدد [١١٥].

بعد أن فرغ إبراهيم باشا من الجيش العثمانى عاد إلى هدفه الرئيسى وشدد الحصار على عكا براً وبحراً مستغلاً عدم قدرة الجيش العثمانى المهزوم على أعادة تنظيمه قبل شهرين ثم حمل على سور المدينة حتى تصدع وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة اقتحمها المصريين يوم ٢٧ مايو ١٨٣٢ ودار القتال حتى المساء ودافعت حامية عكا دفاعاً مجيداً إلى أن ازدادت خسائرها فطلب عبد الله باشا والى عكا التسليم وسلمت المدينة فى مساء ذلك اليوم بعد حصار دام ستة أشهر[١١٦]. ثم استغل إبراهيم باشا النجاح الذى أحرزه واستولى على دمشق بعد معركة تصادمية مع الجيش العثمانى [١١٧].

وفى أعقاب سقوط عكا جرد السلطان العثمانى جيشاً من ستين ألف مقاتل احتل نصفه مدينة " حمص " واحتلت بقية الجيش إنطاكية فانعزلت القوتان لكبر المسافة بين البلدين فقرر إبراهيم باشا تدمير قوة حمص ثم التفرغ لسحق بقية الجيش العثمانى [١١٨].

أتبعت القيادة العثمانية خطة دفاعية سلبية فوزعت قوتها فى ثلاث صفوف بينما اتخذت القيادة المصرية جانب المباداة وقررت القيام بهجوم تثبيتى بالمواجهة على الجيش العثمانى مع شن الهجوم الرئيسى بقيادة إبراهيم باشا عن طريق القيام بحركة تطويق واسعة بالفرسان حول ميسرة العثمانيين وفى نفس الوقت وفى نفس الوقت تقوم قوة من المشاه بهجوم مخادع لشغل ميمنة العثمانيين فى صفها الأول والثانى[١١٩] . بينما تقوم قوة منفصلة بمهاجمة الصف الثالث للميمنة المكون من جنود غير نظاميين . وقد طبق إبراهيم باشا أساليب القتال الحديث فى الهجوم . فما

أن هاجمت القوة المنفصلة ميمنة العثمانيين حتى بدأ الهجوم الرئيسى بتطويق الميسرة العثمانية التى تراجعت فهجم المصريون بالمواجهة مما أدى إلى هزيمة الجناح الأيسر العثمانى وتخليه عن مواقعه كما بدأ قلب الجيش العثمانى فى التقهقر فضلاً عن سوء موقف ميمنة ووسطه مما أحرج مركز الجيش العثمانى وما أن حل الظلام حتى أخذ القائد العثمانى يبحث عن وسيلة ينقذ بها نفسه واقتدى به الضباط والجنود وتقدمت القوات المصرية لتستولى على مواقع العثمانيين وتدخل مدينة حمص يوم ٨ يوليه ١٨٣٢ [١٢٠].

وفى معركة بيلان (٣٠ يوليه ١٨٣٢) ، أتبع إبراهيم باشا أساليب القتال الحديثة من التفاف وتطويق وعزل الدفاعات ومهاجمة المؤخرة مع استخدام المدفعية فى حشد فضلاً عن استخدام أسلوب الاقتراب غير المباشر على المستوى التكتيكى إذ أتبع الطريق الصعب لتطويق ميمنة وميسرة العثمانيين فقد تحركت القوات فى طرق وعرة وبرغم ذلك نجحت حركة الميمنة فى إسكات الميسرة العثمانية كما أنزلت المدفعية خسائر فادحة بالعثمانيين استغلتها القوات المصرية وهاجمت ميمنة العدو ووسطه بشدة كما شرعت قوة فى الالتفاف حول ميسرة العثمانيين الذين تقهقروا إلى بيلان فأسرعت قوة مصرية إلى احتلال الطريق المؤدى إلى الاناضول ليحول دون انسحابهم وصبت عليهم نيرانها فلم يتحمل العثمانيون وطأتها ولاذوا بالفرار[١٢١]. ثم احتلت القوات المصرية بيلان وطاردت فلول العثمانيين و أسرت الكثير منهم واحتلت الإسكندرونة وتعتبر معركة بيلان بداية النهاية للقوات العثمانية التى ادت هزيمتها إلى فتح الطريق إلى الاناضول وتهديد الدول العثمانية [١٢٢].

وفى معركة نزيب (٢٤ يونية ١٨٣٩) ، استقر رأى القيادة العثمانية على التمسك بمواقعها الحصينة فى " نزيب " وعدم المغامرة بدفع قواتها لمهاجمة الجيش المصرى فى العراء بينما قضت الخطة الهجومية المصرية – لتعذر مهاجمة الدفاعات العثمانية بالمواجهة أو من الاجناب – بالقيام بحركة تطويق واسعة وعميقة

حول المواقع العثمانية ومهاجمتها من الخلف بهدف إجبار العدو على ترك مواقعه الحصينة والقتال فى الأرض المكشوفة . نفذ إبراهيم باشا حركة التطويق ببراعة وظهر خلف مواقع العثمانيين . فأضطر القائد العثمانى إلى إخلاء مواقعه الحصينة فى نزيب وتغيير مواجهة جيشة[١٢٣] وقد نجح إبراهيم باشا بثاقب نظره فى أن يهزا الدفاعات العثمانية باحتلاله تبتين حاكمتين على ميسرة الجيش العثمانى أغفل القائد العثمانى احتلالهما فكانت هذه الحركة مفتاح النصر فى المعركة ثم هاجمت القوات المصرية ميسرة العثمانيين بعد تمهيد قوى بالمدفعية فى مراحل القتال . وقد أتبع إبراهيم باشا أسلوب الضغط المستمر العنيف على العدو إلى أن تزلزلت صفوف الجيش العثمانى أمام الهجمات المصرية ودب الضعف فى خطوطهم فلاذوا بالفرار[١٢٤].

لقد قضت هذه المعركة على قوة الدولة العثمانية الحربية كما كانت أكبر انتصار أحرزه الجيش المصرى[١٢٥] ، وقد أدت هزيمة الجيش العثمانى فى نزيب إلى تسليم قائد الأسطول العثمانى جميع سفنه إلى الحكومة المصرية فى الميناء الغربى بالإسكندرية يوم الرابع عشر من يوليه ١٨٣٩ [١٢٦].

ويمكن بعد استعراض سريع للأحداث ، أن نتبين بوضوح أنه قد حدث تطور فى القدرة الذاتية لمصر فى مجالات متعددة يأتى فى مقدمتها ذلك التطور الإيجابى للبناء العسكرى للقوة البشرية المصرية. والذى واكبه تطور مصاحب فى المجالات الاقتصادية والثقافية و السياسية .

ولما كانت القوة العسكرية هى أدات محمد على التى قر قراره أنها سبيله الأساسى لتحقيق أطماعه ، فأننا نجد أنه ما من عمل قام به لتطوير أى ناحية من نواحى الحياة فى مصر إلا وكان الغرض الأول من هذا التطوير هو زيادة القدرة لقواته العسكرية .

ورغم أن محمد على قد تخطى ما حرص عليه هو ومن سبقوه من حكام مصر من الأجانب عموماً على حرمان الشعب المصرى من أن يكون له أية قدرة حربية . فلقد غامر وقام بتجنيد المصريين ليكونوا جنود جيشه الذى يحقق به أحلامه. إلا أنه حرص على التخلص من الزعامات الشعبية كما حرص أن يكون سلك الضباط مقصوراً على الأتراك والمماليك والأجانب وعلى وجه الخصوص فى الفترة الأولى من تكوين الجيش الجديد وعلى وجه أخص بالنسبة للقادة وكبار الضباط .

ولقد كانت الدول الأوربية تنظر إلى مصر كل من وجهة نظرها ، إلا إنها كلها كانت متفقه فيما بينها أنه يجب أن لا يترك لمصر العنان فى بناء قدرتها العسكرية ، بل من الواجب تحجيم هذه القدرة وإن كان هناك خلاف بين الدول الأوربية ، فإنه خلاف حول ما تسعى كل منها فى الوصول إليه من نفوذ لها فى مصر .

ولقد خاض محمد على فى أيام حكمه ستة حروب منها ثلاثة حروب خاضها بالجيش القديم الأولى ضد حمله فريز والثانية ضد الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية والثالثة فتح السودان . وهى تعتبر محاولة جادة لتعظيم القدرة المادية بالإضافة إلى محاولة تعديل الهيكل الأساسى للقوة الحربية بتغيير التنظيم والتدريب علاوة على تغيير نوعية القوة البشرية إذ أن محمد على كان يأمل من بين أماله الكثيرة أن يكون الهيكل الأساسى للجيش الحديث الذى ينوى إنشاءه من السودانيين .

وكانت حروب محمد على الثلاثة الأخيرة بواسطة الجيش الحديث الذى كان قوام جنوده من المصريين . وكانت أولى تلك الحروب الثلاثة أى الحرب الرابعة التى خاضها محمد على هى حرب المورة . وكان أهم ما يميز هذه الحرب هو اشتراك الجندى المصرى فى القتال لأول مرة بعد أن كان قد غاب من ميادينه قروناً

طويلة من الزمان . وكانت بالإضافة إلى كونها بمثابـــة اختبـــار للنظـــام الحربـــى الحديث، تعتبر أيضاً تطعيماً للجيش المصرى بشكل جديد ، على خوض المعارك .

وكشفت الحرب الخامسة (حرب الشـــام والأنـــاضول) الأهميـــة الكبـــيرة لاستخدام الأساليب الحديثة فى القتال . كما أبرزت الكثير من الصفـــات العســـكرية الدفينة فى الشعب المصرى . وكانت الحرب السادسة (الحرب السورية الثانية) هى آخر الحروب التى خاضها محمد على . ورغم أن تلك الحرب لم تحقق ما كان يرنو إليه محمد على ، بل أنها قد أفقدته قدراً كبيراً مما كان قد حققه من توســيع لنطـــاق نفوذه ، إلا أنه قد حققت له بعضاً من أطماعه .

الهوامش

١) دكتور محمد محمود السروجى ، " الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر"، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ ، ص ١٥ .

٢) محمد رفعت ، " تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة " ، القاهرة سنة ١٩٢٦ م ص ص ٦-٧ .

٣) عمر طوسون ، "صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد علي – الجيش المصرى البرى والبحرى " ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٤٠ م ، ص٣ ، نقلا عن

" Histoire De L'Egypte sous Le. Governement De Mohammed –Aly " par M.Fleix Mengin ،Consul be France ،paris ،1823 .

٤) عبد الرحمن زكى ، " محمد على الكبير والجيش المصرى " ، وزارة الدفاع الوطنى ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص٣٠ .

٥) المصدر السابق ، نفس المكان ، انظر كذلك عبد الرحمن الرافعى ، " عصر محمد على " ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ م ، ص ص ٣٧٢- ٣٧٨ .

٦) وثائق وزارة الدفاع المصرية – وثائق المتحف الحربى بالقلعة ، وثيقة رقم ٢٠، ص ١٩، دفتر رقم ١٦معية تركى ، ٨شوال ١٢٣٨، القاهرة .

٧) محمد فؤاد شكرى وأخرين ، " بناء دولة مصر محمد على " ، دار الفكر العربى، الطبعة الأولى ١٩٤٨ ، ص ص ١٤٨-١٤٩

٨) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، طبعة ١٩٧١ ص٣٣ .

٩) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، طبعة ١٩٧١ ص٣٣ – ٣٤.

١٠) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٣٤.

١١) محمد عبد الحليم ابو غزالة ، " تاريخ فن الحرب " ، كـــود ٦٢/١ ، ص ص ١٥٨-١٥٩ .

١٢) محمد عبد الحليم ابو غزالة ، " تاريخ فن الحرب " ، كود ٦٢/١ ، ص١٦٥ .

١٣) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٣٥ .

١٤) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٤٥، انظر كذلك كارل فون كلاوزفيتز ، " فى الحرب" الجزء الاول ، تعريب وتعليق اكرم ديرى ، المقدم الهيثم الأيوبى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩م ص ص ٧-٢١.

١٥) كارل فون كلاوزفيتز ، " فى الحرب " الجزء الاول ، ص ٢٥.

١٦) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٤٥ .

١٧) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٤٥ .

١٨) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٤٥.

١٩) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ٤٦.

٢٠) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ص ٥٣-٥٤ .

٢١) وزارة الحربية المصرية ، " تاريخ الحرب " ، الجزء الثانى ، كود ١٥-١٧ ، ص ص ٥٤-٥٥.

٢٢) بطرس غالى ، " الاستراتيجية والسياسة الدولية " ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٧ .
٢٣) وزارة الحربية المصرية ، " الاستراتيجية " ، المجلد الاول ، طبعة ١٩٦٣ ، ص١٣٤.
٢٤) وزارة الحربية المصرية ، " الاستراتيجية " ، المجلد الاول ، طبعة ١٩٦٣ ، ص١٣٤.
٢٥) عبد الرحمن زكى ، " الحرب عند العرب " ، ص ص ١٥-٥٤.
٢٦) جورج كاستلان ، " تاريخ الجيوش " ، مترجم ، النهضة المضرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥٤.
٢٧) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٩ .
٢٨) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على " دار الفكر العربى، الطبعة الاولى ١٩٤٨ ، ص ٤٧٣.
٢٩) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على " دار الفكر العربى، الطبعة الاولى ١٩٤٨ ، ص ١٤٩.
٣٠) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على " ، ص ص ١٤٩-١٥٠.
٣١) وزارة الدفاع المصرية ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المسلحة المصرية عبر التاريخ " ، ص ٥٦.
٣٢) المصدر السابق، ص ص ٥٦ – ٥٧ .
٣٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ .
٣٤) عبد الرحمن زكى ، " التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير " ، ص ١٥٩.
٣٥) كلوت بك ، " لمحة عامة إلى مصر " ، القاهرة ، مطبعة ابو الهول ، ح٢ ، ص ص ٣٢٠-٣٢١ .

٣٦) عبد الرحمن زكى ، " التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير " ، ص ١٦١.
٣٧) كلوت بك ، " لمحة عامة إلى مصر " ، ص ص ٣٣٥-٣٣٦ .
٣٨) بييركرابيتس ، " ابراهيم باشا " ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٤٦ ، انظر كذلك عبد الرحمن الجبرتى ، " عجائب الأثار فى التراجم والأخبار"، ج٤ ، المطبعة الأميرية ببولاق ، حوادث شهر شعبان ١٢٣٠هـ (يوليه / أغسطس ١٨١٥) .
٣٩) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ، ص ص ٣١-٣٢
٤٠) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على" ، ص ١٥١ .
٤١) محمد محمود السروجى ، " الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر " ، ص ١٦ .
٤٢) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على" ، ص١٥١ .
٤٣) محمد محمود السروجى ، " الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر " ، ص ١٦ .
٤٤) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على" ، ص١٥١ .
٤٥) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دوله مصر محمد على" ، ص١٥١.
٤٦) محمد فؤاد شكرى وآخرين ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ١٥٢ .
٤٧) محمد محمود السروجى ، " الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر " ، ص ص ١٦ –١٧ ، انظر كذلك محمد صبرى ، " تاريخ مصر من محمد على الى العصر الحديث " ، مكتبة مدبولى الطبعة الاولى ١٩٩١ ، ص ٤٤ ، عمر طوسون " صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على " ، ص ص ٣-٥ .
٤٨) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ، ص ٣٢، انظر كذلك عمر طوسون ، صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على "، ص ٤ .

٤٩) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ١٥٣ .
٥٠) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبـــير " ، ص ٣٣ .
٥١) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبـــير " ، ص ٣٣ .
٥٢) عبد الرحمن زكى ،" المصدر السابق " ص ٣٤ .
٥٣) محمد محمود السروجى ، المصدر السابق ، ص ١٨ .
٥٤) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ١٥٢ .
٥٥) عمر طوسون ، " صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على " ، ص ٦ .
٥٦) محمد فؤاد شكرى وآخران،"بناء دولة مصر محمد على "، ص ١٥٣ .
٥٧) عمر طوسون ، " صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على " ، ص ٦ .
٥٨) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبـــير " ، ص ٣٤ .
٥٩) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دولة مصـــر محمـــد علـــى " ، ص ص ١٥٣-١٥٤ .
٦٠) عمر طوسون ، " الجيش المصرى البرى والبحرى " ، مطبعة دار الكتـــاب المصرية ١٩٤٠ ، ص ص ٣ – ٦ نقلا عن

Mengin ،F.Histoire de L'Egypte sous le governement de Mohammed Ali ،paris 1823 .

٦١) محمد فؤاد شكرى وأخران ، "بناء دولة مصر محمد على "، ص ١٥٤ .
٦٢) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشـــا الكبـــير " ، ص ٣٥ .

٦٣) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ، ص ص ٣٥ – ٣٦ .
٦٤) المصدر السابق ، ص ٣٦ .
٦٥) المصدر السابق ، نفس المكان .
٦٦) المصدر السابق ، ص ص ٣٦ – ٣٧ .
٦٧) محمد فؤاد شكرى و آخران " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ص ١٥٤ – ١٥٥ .
٦٨) محمد فؤاد شكرى ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ١٥٥ .
٦٩) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ص ٥٢ .
٧٠) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير "، ص ٥٣ .
٧١) المصدر السابق ، ص ٥٤ .
٧٢) محمد فؤاد شكرى ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ١٥٨ .
٧٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
٧٤) محمد فؤاد شكرى وآخران ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ص ١٦٢ – ١٦٣ .
٧٥) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
٧٦) المصدر السابق ، ص ص ١٦٤ – ١٦٥ .
٧٧) كلوت بك ، " لمحة عامه الى مصر " ، الجزء الثانى ، تعريب محمد مسعود ، مطبعة ابو الهول ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٣٢٤ .
٧٨) أحمد عزت عبد الكريم ، " تاريخ التعليم فى عصر محمد على " ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ص ٣٩٩ – ٤٠٧ .

٧٩) عبد الرحمن زكى " الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير " ، ص ٦٦.

٨٠) عبد الرحمن الرافعى ، " عصر محمد على " ، الطبعة الأولى ١٩٥١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٣٨٩ نقلاً عن رحلة المارشال مرمون ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

٨١) كلوت بك ، " لمحة عامة إلى مصر " ، الجزء الثانى ، تعريب محمد مسعود ، ص ص ٣٢٥ – ٣٢٨ ، أنظر كذلك محمد فؤاد شكرى وآخران ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

٨٢) محمد فؤاد شكرى وآخرين ، " بناء دولة مصر محمد على " ، ص ص ١٧٠ – ١٧٢ .

٨٣) محمد فؤاد شكرى وآخرين ، " بناء دولة مصر محمد على ", ص ص ١٧٣ – ١٧٤ .

٨٤) محمد فؤاد شكرى , " بعثة عسكرية– بو لونية فى مصر فى عهد محمد علىّ، مجلة كلية الاداب جامعة فؤاد الاول ,العدد الثامن المجلة الاول ، مايو ١٩٤٦ , القاهرة ١٩٤٦

٨٥) المصدر السابق .

٨٦) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، وثائق المحفوظات العسكرية ، دفاتر ومحافظ المعية (تركى وعربى) ، وثيقة رقم ١١٧ ، دفتر ٧ ، معية تركى .

٨٧) وثائق المحفوظات العسكرية ، تقرير الكونت جوهلميل Duhamel القنصل العام الروسى بمصر – الذى تولى مهام منصبة فى يناير ١٨٣٢ – الى بوتنيف المندوب الروسى فوق العادة بالقسطنطينية بتاريخ ٩ مايو ١٨٣٤ .

٨٨) المحفوظات العسكرية ، ملف تقرير القناصل خلال حكم محمد على ، تقرير جون بورنج ، ص ص ٦٦ –٦٨ .

٨٩) وزارة الدفاع الوطنى ، المتحف الحربى ، تاريخ الآيـــات المشـــاة ، الطبعـــة الاميرية ببولاق ١٩٤٣ ص ص ١٢-١٧ .
٩٠) وزارة الدفاع الوطنى ، المتحف الحربى ، تاريخ الآيات المشـــاة ، المطبعـــة الأميرية ببولاق ١٩٤٣ ، ص ١٩ .
٩١) وزارة الدفاع ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المسلحة المصريـــة عبر التاريخ " ، ص ٥٨ .
٩٢) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحرببى لعصر محمد علـــى الكبـــير ، ص ص ٣٢٦-٣٢٧ .
٩٣) كلوت بك : مرجع سابق ذكرة ، ص ص ٥١١ – ٥١٢ .
٩٤) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، ص ٣٢٨ .
٩٥) ان لفظ (جهادية) كان يطلق على الوحدات النظامية الجديدة .
٩٦) عبد الرحمن زكى ، التاريخ الحربى لعصر محمد علـــى ، ص ص ٢٥٧ – ٢٦٣ .
٩٧) عبد الرحمن زكى ، التاريخ الحربى لعصر محمد علـــى الكبـــير ، ص ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ، ٢٤٦ .
٩٨) دفتر نمرة (١) معية تركى ، الوثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ١٩ رجب ١٢٢٦ هـــ – ٩ أغسطس ١٨١١م ، وثائق حرب الحجاز الثانية ، المتحف الحربى بالقلعة .
٩٩) دفتر نمرة (١) معية تركـــى ، الوثيقـــة رقـــم ٨٠ بتـــاريخ ٢٧ ذى الحجـــة ١٢٢٦هـــ – ١٢ يناير ١٨١٢ ، وثائق حرب الحجاز الثانية المتحـــف الحربـــى بالقلعة .
١٠٠) دفتر نمرة (١) معية تركى ، مكاتبة رقم ٧ بتاريخ ٢٧ رمضان ١٢٢٧ هـــ – ٤ أكتوبر ١٨١٢ ، وثائق حرب الحجاز الثانية ، المتحف الحربى بالقلعة .
١٠١) محفظة نمرة (٢) بحر بر ١ ، وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ٣ ديســـمبر١٨١٧م ،

وثائق حرب الحجاز الثانية ، المتحف الحربى بالقلعة .
١٠٢) محفظة نمرة (٥) بحر بر ١ "وثيقة رقم ٣٣ بتاريخ ٥ يناير ١٨١٨ ، وثائق حرب الحجاز الثانية ، المتحف الحربى بالقلعة .
١٠٣) محفظ رقم (٦) بحر برا ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٨١٨م ، وثائق حرب الحجاز الثانية ، المتحف الحربى بالقلعة .
١٠٤) محمد فؤاد شكرى ، " مصر والسودان – تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر" ، ص ص٧–٨
١٠٥) عبد الرحمن زكى ، " إبراهيم باشا " ، ص ص ٢١ – ٢٢ .
١٠٦) عبد الرحمن الرافعى " عصر محمد على " ص ١٥٨ .
١٠٧) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على " ، ص ١٦٥ .
١٠٨) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
١٠٩) عبد الرحمن زكى " إبراهيم باشا " ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ٣٤ .
١١٠) المصدر السابق ، ص ٣٥ .
١١١) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على " ، ص ٤٦ .
١١٢) المصدر السابق ، ص ٤٧ .
١١٣) كاد لفين دبارو ، " حرب مصر ضد الباب العالى فى سوريا و الأناضول " ، ص ٤١٢ .
١١٤) عبد الرحمن الرافعى ، " عصر محمد على " ، ص ١٩٨ .
١١٥) وزارة الدفاع ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المسلحة المصرية عبر التاريخ " ، ص ص ٥٧ – ٥٨ .
١١٦) عبد الرحمن الرافعى ، " عصر مجمد على " ، ص ص ١٩٨ – ١٩٩ .
١١٧) محمد فيصل عبد المنعم ، " مصر تحت السلاح " ، ص ٢٧٩ .

١١٨) محمد فيصل عبد المنعم ، " مصر تحت السلاح " ، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .
١١٩) محمد فيصل عبد المنعم ، " مصر تحت السلاح " ، ص ٢٨٢ .
١٢٠) وزارة الدفاع ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المصرية عبر التاريخ " ، ص ٥٩ .
١٢١) وزارة الدفاع ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المصرية عبر التاريخ " ، ص ٦٠ .
١٢٢) عبد الرحمن الرافعى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على " ، ص ١١٨.
١٢٣) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على " ، ص ١٢٩ .
١٢٤) وزارة الدفاع ، هيئة البحوث العسكرية ، " تطور القوات المسلحة المصرية عبر التاريخ " ، ص ص ٦٠ – ٦١ .
١٢٥) عبد الرحمن الرافعى ، " الجيش المصرى فلا عهد محمد على " ، ص ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .
١٢٦) عبد الرحمن زكى ، " الجيش المصرى فى عهد محمد على " ، ص ١٣١ .

المحور الرابع

النشاط الاقتصادى



نقل تكنولوجيا استخراج الذهب
صفحة من العلاقات المصرية الروسية فى عهد محمد على

جينادى جاريا تشكن

جامعة موسكو

كان افتتاح قنصلية روسية بمصر عام ١٧٤٨، فاتحة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، تلك العلاقات التى توطدت فى عهد محمد على باشا الكبير، ولما كان حاكم مصر يسعى لإقامة دولة مركزية حديثة فى مصر، فقد تطلب ذلك إدخال إصلاحات فى مجالات عدة من بينها الصناعة، وخاصة صناعة التعدين.

منذ مدَّ محمد على حكمه إلى السودان فى مطلع العشرينات من القرن التاسع عشر، كان من بين أهدافه البحث عن خام الذهب واستخراجه من منطقة فازوغلى جنوب سنار، واستخدم فى هذا الصدد جهود أحد الخبراء الفرنسيين الذى عجز عن التوصل إلى طريقة استخلاص خام الذهب من الشوائب العالقة به.

ولما كان محمد على حريصاً على التماس الخبرة أينما وجدت، فقد علم من "ميديم" قنصل روسيا فى مصر بتوفر الخبرة المنشودة فى روسيا، فطلب منه (يونيو ١٨٣٨) أن يبعث إلى حكومته فى طلب المعلومات الخاصة بطريقة استخلاص الذهب والرسوم الخاصة بالمعدات المستخدمة لذلك، فاستجابت الحكومة الروسية لهذا الطلب وتلقى محمد على المعلومات المطلوبة مترجمة إلى الفرنسية بعد ما يزيد على ثلاثة أعوام (نوفمبر ١٨٤١). ولكن محمد على طلب من القنصل الروسى أن يساعده فى استقدام بعض مهندسى هيئة التعدين الروسية لمساعدة الحكومة المصرية على تدريب الفنيين المصريين على استخراج الذهب، وبناء المعدات اللازمة لذلك. فاعتذرت الخارجية الروسية عن عدم تلبية الطلب بسبب زيادة الطلب على الفنيين

الروس فى هذه الصناعة نتيجة التوسع الكبير فيها فى روسيا عندئذ، واقترحت على الباشا (يوليو ١٨٤٣) أن يوفد إلى روسيا بعض المصريين لتعلم هذه الصناعة هناك بالمصانع الحكومية بمدينة يكاتيرينبورج.

ووافق محمد على باشا على الاقتراح الذى قدمته له الحكومة الروسية باسم القيصر، وقرر ايفاد مبعوثين إلى روسيا لدراسة التعدين فى خريف ١٨٤٥. وقد وقع اختيار الباشا على شابين هما على محمد، وايليا داشورى، وكانا قد درسا التعدين فى النمسا من قبل، ويجيدان الألمانية والفرنسية.

وصل المبعوثان إلى روسيا فى اكتوبر ١٨٤٥، وأقاما وراء جبال أورال حتى مايو ١٨٤٦، وكان برفقتهما مهندس التعدين الروسى أ.ب. كوفاليفسكى، وتم تدريبهما على طرق استخلاص الذهب من الرمال الحاوية للمعدن ببعض المصانع الروسية بالمنطقة، وإطلاعهما على مختلف الآلات المستخدمة فى الاستخلاص، وتدريبهما على فك وتركيب تلك الآلات تمهيداً لقيامهما بهذه المهمة فى مناجم الذهب بفازوغلى بالسودان عند انتهاء تدريبهما وعودتهما إلى مصر.

وبعد عودة على محمد وايليا داشورى من روسيا، تم إيفادهما إلى السودان، حيث قاما بدراسات حقلية بمناطق مختلفة فيما بين خريف ١٨٤٦ وربيع ١٨٤٧. ولحق بهما مدربهما الروسى كوفاليفسكى الذى جاء بناء على طلب من محمد على باشا، وبصحبته ثلاثة من الفنيين الروس: واستطاع أن يحقق نتائج جيدة بمساعدة تلميذيه السابقين على وايليا، فتمكن الفريق من إقامة مصنع لاستخلاص الذهب بفازوغلى، وتشغيله بقدر كبير من النجاح، وعُدَّ هذا المصنع نموذجاً يمكن إقامة مصانع أخرى على نسقه فى أماكن أخرى. وعاد كوفاليفسكى إلى روسيا فى صيف عام ١٨٤٨ بعد أن منحه إبراهيم باشا وساماً رفيعاً وبعض الهدايا تقديراً لجهوده فى تزويد الحكومة المصرية بالخبرة اللازمة لاستخلاص الذهب.

وبعد عودته إلى روسيا، قدم كوفاليفسكى تقريـراً عـن مهمتـه فـى مصـر والسودان، فقد كلف عند سفره بدراسة الأوضاع الجيولوجية بالمنطقـة مـع جمـع عينات منها، وبيانات حول المخطوطات والبرديات القديمة. وجاء بتقريره وصـف للأوضاع السياسية والتجارية فى السودان واثيوبيا، وأكـد أهميـة إقامـة علاقـات دبلوماسية وتجارية لروسيا مع بلدان أفريقيا الشمالية الغربية وخاصة مصر، وقـدم قائمة بالبضائع الروسية التى يمكن تصديرها للمنطقة. والمواد التى يمكن اسـتيرادها منها، واقترح تنظيم خط ملاحى روسي يربط أوديسا باستانبول والإسكندرية تسـاهم فيه الحكومة الروسية. وكانت ثمرة هذه الاقتراحات تأسيس شركة الملاحة والتجـارة الروسية.

وهكذا طُوِيَتْ هذه الصفحة الهامة فى العلاقات المصرية الروسية، ولعل وفـاة محمد على وإبراهيم وتغير أحوال مصر بعدهما لم تتح الفرصة لتنميتها وقد اعتمدنـا فى إعداد هذه الدراسة على وثائق أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الإمبراطورية(*) وربما كانت دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة تضم وثائق تحوى بعض تفاصيل تلك التجربة الهامة لنقل تكنولوجيا استخراج الذهب من روسيا إلى مصر.

(*) جميع المراسلات الخاصة بمهمة على محمد وايليا داشورى فى روسيا ومهمة كوفاليفسكى فـى مصر والسودان مودعة بالأرشيف المذكور بموسكو (الصندوق – "سـانكت – بطرسـبورج – الأرشيف السياسى") ملف ١٠-١١، الفترة ١٨٣٨-١٨٤٨).



تقنين علاقة القرية بالسلطة في عهد محمد

د. على بركات

شهدت مصر منذ عشرينات القرن التاسع عشر محاولة إخضاع الريف المصري لنظام صارم اتخذ أكثر من مظهر من أجل تثبيت الفلاحين في أماكنهم وحثهم على إنتاج القطن والمحاصيل النقدية اللازمة للسوق الأوربي وبناء القاعدة الاقتصادية التي انطلق منها محمد علي لبناء مشروع الدولة الحديثة. وفي هذا الاتجاه كان من الضروري تحديد الواجبات الملقاة على الفلاحين والحصص المطلوبة منهم ورصد أدائهم من خلال سلسلة من التشريعات ساهمت في رسم النسق العام لإخضاع الريف وتقنين علاقة الفلاح بالسلطة[١].

وكان أول هذه التشريعات هي لائحة الفلاح التي جاءت محصلة اجتماع عقد في القاهرة سنة ١٨٢٩م، برياسة إبراهيم باشا ضم ٤٠٠ عضو من ضباط الجيش ومديري الأقاليم وموظفي الحكومة وعدد من أعيان الأقاليم[٢].

وقد أشارت هيلين ريفلين إلى الظروف التي صدرت فيها هذه اللائحة. ففي عام ١٨٢٦م أمر محمد علي كبار موظفيه بالتنقل في الأقاليم ودراسة أسباب الانهيار العام الذي ألم بالإدارة. وأمرهم أن يبلغوه بكل حالات الانحراف مثل خراب الذمة والابتزاز التي كان يرتكبها موظفوا الأقاليم. وأن يكونوا على علم بتفاصيل الإدارة هناك. وأمرهم أن يبذلوا كل جهد مستطاع للحصول على متأخرات الضرائب وأن يقترحوا في النهاية وسائل معالجة الوضع. وفي مايو ١٨٢٦م تم عقد اجتماع في طنطا استمر ثلاثة أيام وقدم فيه هؤلاء الموظفون تقاريرهم. وعلى الرغم من ذلك استمرت أحوال مصر في التدهور حتى هرب كثير من الفلاحين من الريف. وعلى ذلك فعندما عين إبراهيم باشا كتخذا (نائبًا للباشا) دعا كبار المسئولين في الإدارات المدنية والعسكرية إلى اجتماع عقد عام ١٨٢٩م وحضره أيضًا كبار موظفي الأقاليم

وقد ناقش ذلك الاجتماع وسائل إصلاح العيوب القائمة وتخفيف معاناة الفلاحين دون أي تخفيض في الضرائب[٣].

وقد استمرت هذه الاجتماعات بعض الوقت وحضرها ٤٠٠ شخص وكانت جلسات هذه الجمعية سرية تبدأ من الغروب وتستمر معظم الليل وتؤكد ريفلين أن لائحة زراعة الفلاح كانت من نتائج أعمال هذه الجمعية العمومية ويبدو أن تكوين هذه الجمعية أوسع من تكوين مجلس المشورة الذي تشكل عام ١٨٢٩م وتكون من ١٥٦ عضوًا منهم ٢٣ من كبار الموظفين والعلماء و٢٤ من مأموري الأقاليم و٩٩ من كبار أعيان القطر المصري شاركوا في هذه الاجتماعات حسب ما أورده الرافعي نقلاً عن الوقائع في تلك الفترة [٤] فقد أشارت ريفلين إلى أن هذه الاجتماعات كان يحضرها الكتبة الأقباط. وفي نفس الوقت لا يشير الرافعي فيما أورده من أسماء إلى كبار مشايخ الوجه القبلي الذين جرت استشارتهم في موضوع محاصيل الوجع القبلي وطرق زراعتها[٥]. وقد صدرت اللائحة في طبعتها الأولى في شكل كتيب يحوى الجزء الأول منه تعليمات تفصيلية تتعلق بالزراعة خاصة تنظيم زراعة المحاصيل وموعد زراعة كل محصول والمدة التي يمكثها في الأرض وطريقة ري كل محصول والتقاوي وقوة العمل اللازمة للفدان الواحد، فمثلاً حددت اللائحة قوة العمل اللازمة للحصد بثمانية أفراد للمحصول الجيد. كما حددت أجرة الجمل الذي يستخدم في نقل المحصول بثلاثة قروش في اليوم. وكذلك أجرة النورج المستخدم في درس المحصول والمواشي التي تستخدم في جرها بقرشين ونصف. كما حددت القيمة العينية لقوة العمل في حالة عدم وجود نقود لدى الفلاح المزارع[٦].

وقد لقيت المحاصيل النقدية عناية خاصة في هذه اللائحة فقد أوردت اللائحة تعليمات تفصيلية حول زراعة القطن (الهندي) طويل التيلة وكذلك الأرز وقصب السكر والسمسم والكتان. وفيما يتعلق بقصب السكر حددت اللائحة تفصيلاً طريقة زراعته وعصره وكيفية عمل العسل والسكر وقوة العمل اللازمة وأجرة العامل في

كل مرحلة من المراحل.

وفيما يتعلق بمصر الوسطى والوجه القبلي تفيد اللائحة أنه تم استشارة كبار مشايخ هذه المناطق فيما يتعلق بالمحاصيل التي تزرع بها وطريقة زراعة كل محصول وقوة العمل اللازمة ومواعيد الزراعة والحصاد وغيرها وهم الشيخ إبراهيم عبدالرحيم، والشيخ حسن عبدالدايم، والشيخ إسماعيل عكاشة، والشيخ نصر عثمان، والشيخ محمد الخولي، والشيخ حسن نصر[٧].

وعمومًا فقد شملت اللائحة جميع العمليات اللازمة لكل محصول من وقت زراعته حتى تسليمه إلى الشون. كما شمل هذا الجزء مهام مختلف الموظفين في القرى والمراكز والأقسام من مشايخ الحصص إلى حكام الاخطاط ونظار الأقسام وغيرهم.

أما الجزء الثاني من هذا الكتيب فكان عبارة عن تقرير تقدم به محمود بك ناظر الجهادية إلى الجمعية المشار إليها حيث تمت الموافقة عليه ويشمل التقرير مقدمة توضح الأسباب التي دعت إلى تقديمه ثم بيان الجرائم والمخالفات التي يعاقب عليها القانون وتتعلق معظمها بمجتمع القرية[٨].

وقد أعيد طبع الكتيب بشقيه عام ١٢٥٧ هـ كما صدر في طبعته الأولى، ويقول بير أن نصوص مواد العقوبات التي وردت باللائحة مستمدة من الشريعة الإسلامية باستثناء عقوبات السرقة[٩].

كانت هذه اللائحة قانونًا رسميًا مهمته توجيه رجال الإدارة في الريف وضمان سير الإدارة بالكفاءة المطلوبة دون ظلم. وقد توفرت فيها كل أشكال المراجعة والموازنة لمنع الإهمال سواء من جانب الفلاحين أو الموظفين. كما تضمنت إجراءات وقائية للفلاحين الذين أعطو حق الشكوى والتعويض كما حرمت العقوبات المطلقة أو تلك التى تطبق بدون ضوابط . وكان كل انتهاك للائحة له عقوبته

الخاصة فتضمنت اللائحة حوالى ٧٠ مخالفة يعاقب مرتكبوها بالمد أو الغرامة أو السجن أو بالعقوبات الثلاث معاً. وكانت المخالفات تشمل الاهمال من جانب الموظفين أو الفلاحين ، والسرقة وقطع الجسور والهرب من الأرض والهرب من التجنيد ، والمنازعات بين الفلاحين والقتل أو الاصابات الناتجة عن استخدام العنف والاختلاس بأنواعه المختلفة والاغتصاب ونقل حدود الحيازات الزراعية ، وحرق الاجران ، وكسر السواقى ، وسرقة الفاكهة ، والغلال ، والدجاج والغنم ، واستعمال ماشية الغير دون رضاه، وذبح اناث الحيوانات قبل الثالثة من سنها وهى كلها تدور حول الحياة الزراعية [١٠] . وقد تضمنت هذه اللائحة نصوصاً لحماية حق الدولة قبل الفلاحين كعقاب من يمتنع عن دفع المال أو من يحمى ممولاً لجأ إليه هرباً من دفع الأموال الأميرية أو من يحمى اللصوص أو يكذب على الحكام. كما أنها تعاقب مشايخ القرى إذا ظلموا الأهالى عند جباية الأموال أو اغتصبوا العذارى أو امتنعوا عن ارسال الانفار إلى الجهادية [١١].

وكانت عقوبة هذه الجرائم المتنوعة تتراوح ما بين السجن والنفى للسودان أو الضرب بالكرباج من ١٠-٥٠٠ جلدة. ومن العقوبات التى قررتها اللائحة التشهير بالمجرم بأن يكتب على كتفه الأيمن بالوشم حرف ل (نسبة إلى اللومان) .

وكانت معظم المخالفات يفصل فيها رجال الإدارة المدنية باستثناء بعض القضايا التى تتصل بالحدود الشرعية مع إشارات صريحة لاحكام الشريعة [١٢] .

ويلاحظ أن هذه اللائحة قد انصبت على القرية وعلى تنظيم الحياة الريفية لدرجة اعتبرها البعض قانوناً جنائياً خاصاً بالحياة الريفية وشئون الزراعة [١٣] .

وفى اطار تطور التشريعات الإدارية فى عهد محمد على صدر قانون السياسة الملكية فى ربيع الآخر سنة ١٢٥٣ (يوليو ١٨٣٧) . وترى هيلين ريفلين أن الظروف التى أدت إلى ظهور هذا التشريع هو تأزم وضع مصر المالى علم ١٨٣٧

الأمر الذى تطلب إعادة تنظيم كبرى الإدارات الحكومية وإلى دعم مختلف هذه الإدارات [١٤] .

وقد أدرجت هذه التعديلات الإدارية فى قانون السياسة الملكية أو قانون إدارة الدواوين وهو يتكون من مقدمة وثلاثة فصول ، تتحدث المقدمة عن الظروف التى تطلبت إصدار هذا القانون . وجاء الفصل الأول تحت عنوان " عن بيان الترتيبات الاساسية " وضم تسعة بنود أشار الأول منها إلى تقسيم الادارة العليا إلى سبعة دواويين هى : ديوان خديوى، وديوان الآيرادات ، وديوان الجهادية ، وديوان البحر ، وديوان المدارس ، وديوان التجارة والأمور الأفرنكية ثم ديوان الفاوريقات أما البنود الباقية فقد حددت صلاحيات واختصاصات هذه الدواوين [١٥] .

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان "عن بيان العملية " ويشمل ٣١ بنداً حددت طريقة عمل أجهزة الدولة ومؤسساتها على كافة المستويات، واختصت البنود من ١–٤ بتحديد مسئوليات وواجبات المستويات الإدارية المختلفة تجاه القرى كما حددت العقوبات التي توقع ضد استغلال الموظفين لنفوذهم في الريف فيما يتعلق بالضرائب وتحصيل الأموال من الفلاحين وكذلك صيانة الجسور[١٦].

أما الفصل الثالث فجاء تحت عنوان " بيان سياسة نامة " وجاء في ٢١ بابًا شملت أنواع العقوبات التي يمكن أن توقع على الموظفين الذين يختلسون الأموال العامة أو يحدثون إضرار بممتلكات الدولة أو يحصلون على رشوة أو يهملون في أعمالهم. كما حرمت على الموظف العام الاشتغال بالتجارة وخاصة تجارة المحاصيل الزراعية وحددت العقوبات اللازمة لذلك وتراوحت بين الطرد من الوظيفة والعمل بدون أجر والنفي والأشغال الشاقة المؤبدة[١٧].

وقد خلطت ريفلين وكذلك جبرييل بير بين الفصل الثالث من هذه اللائحة الذي جاء تحت عنوان " سياسة نامة " وبين قانون السياسة الملكية ككل ويبدوا أن مصدر

هذا اللبس هو ما أورده أحمد فتحي زغلول عن هذا الموضوع في كتابه المحاماة والذي نشر في القاهرة عام ١٩٠٠م.

وفي الفترة ما بين عامي ١٨٤٢/ - ١٨٤٥م صدرت عدة تشريعات تناولت بشكل أو أخر القرية والمجتمع الريفي كان أهمها لائحة الجسور التي صدرت في رجب ١٢٥٨ (أغسطس ١٨٤٢م) التي تناولت المخالفات المتعلقة بصيانة الجسور والسدود. وفي هذا الاتجاه صدر قانون عمليات الجسور في ذي الحجة ١٢٥٨ (يناير ١٨٤٣م) والذي يحدد الواجبات الملقاة على عاتق المهندسين والموظفين والآخرين فيما يتعلق بالجسور والأشغال العامة وهذا القانون يعتبر مكملاً للائحة الجسور المشار إليها. وكان أبرز ما جاء في هذين التشريعين هو ضمان عدالة توزيع المياه في الريف[١٨].

وفي محرم ١٢٦٠هـ صدر قرار الجمعية الحقانية والذي تناول أوضاع الفلاحين الذين تركوا أراضيهم منذ عام ١٢٤٨هـ وإعادتهم إلى بلادهم ومسئولية مشايخ القرى في ذلك[١٩].

كما صدر أمر من ديوان المالية في ٨ جماد الآخر ١٢٦٠هـ حدد مسئوليات مشايخ القرى في حفظ الأمن بالقرى والنواحي ومواجهة حالات قطع الطريق والقرصنة في النيل[٢٠]. وفي ٩ شعبان ١٢٦٠هـ (٢٤ أغسطس ١٨٤٤م) أصدرت الجمعية الحقانية ملحقًا لقانون العقوبات شمل العديد من المواد تحدد العديد من العقوبات وطرق تنفيذها مثل حالات تزييف العملة وتزوير الأختام والتشرد والاغتيال والقتل والسرقة والنهب والنصب والاحتيال وشهادة الزور وغيرها من الجرائم والمخالفات[٢١].

وفي أول محرم ١٢٦١هـ (١٠ يناير ١٨٤٥م) تم نشر جميع القوانين التي صدرت ابتداءً من لائحة الفلاحة وحتى القانون الصادر في ٩ شعبان ١٢٦٠هـ بما

في ذلك القوانين المتفرقة الصادرة عن الجمعية الحقانية خلال الفترة ما بين عــامي ١٨٤٢م – ١٨٤٤م في قانون واحد تحت اسم القانون المنتخب الجديد مضافًـا إليـه التعليمات التي كان محمد علي قد أصدرها فيما يتعلق بمسـئوليات العـاملين فـي الجفالك (الضياع الملكية) وكذلك في الأراضي التي تحولت إلى عهد وجاء ذلك فـي ٢٠٣ بند وقد عرف هذا القانون عند الأوربيين بقانون محمد علي[٢٢].

ويلاحظ أن هذا القانون الجديد لا يتضمن إشارات للشريعة الإسلامية في قضايا الحدود وهتك العرض وإنما حدد العقوبة بالسجن في القلعة أو الأشغال الشاقة المؤبدة في ميناء الإسكندرية لمثل هذه الجرائم[٢٣].

وفي نهاية عصر محمد علي جرت صياغة هذه المجموعـة مـن القوانيـن بطريقة مبسطة ومختصرة في قانون صدر عن مجلس الأحكام الذي تم تشكيله فـي أوائل عصر عباس وتم نشره في ٨ رجب ١٢٦٥هـ (مـايو ١٨٤٩م). واصبـح يعرف لدى الأوربيين باسم قانون عباس[٢٤]. وجاء في عشرة فصول تحـدث الأول والثاني منها عن الأمور المتعلقة بالزراعة والجرائم والمخالفـات التـي يمكـن أن ترتكب هذا القطاع بما يتفق مع الأسس التي جاءت في لائحة الفلاح (المواد مـن ١– ١٦). أما الفصل الثالث من هذا القانون والذي جاء تحت عنوان "البنـود المتعلقـة بالسياسة" فقد اشتمل على الجرائم والمخالفات التي سبق ذكرها في قانون السياسـة الملكية وقانون أغسطس لعام ١٨٤٤م (المواد من ١٧–٤٢)، أمـا الفصـل الرابـع فاشتمل على الجرائم والحدود التي يتم العقاب فيها وفقًا لمبادئ الشريعة الإسـلامية (المواد من ٤٣–٥٣). أما الفصل الخامس فيتعلـق بـأمور الجهاديـة والمخالفـات العسكرية والقضايا التي يكون عساكر الجهادية طرفًا فيها وكذلك سلوكيات مشـايخ القرى تجاه المطلوبين للتجنيد من حيث محاباة البعض على حساب البعض ا لآخـر (المواد من ٥٤–٥٩)، واشتمل الفصل السادس على الأمور التـي تتعلـق بحمايـة الجسور والحفاظ عليها والمخالفات التي يمكن أن ترتكب بهذا الخصوص (المـواد

من ٦٠-٦٣) وتناول الفصل السابع المواد المتعلقة بالاختلاس (المواد من ٦٤-٦٩).

ويتعلق الفصل الثامن بالمواد المتعلقة بالسرقة وإخفاء اللصوص ومسئوليات مستويات الإدارة في حالة وقوع سرقات (المواد من ٧٠-٧٩). وتناول الفصل التاسع تقليد الأختام وتزويد تذاكر المرور وغيرها مما يدخل في جرائم التزوير (المواد من ٨٠-٨٥) أما الفصل العاشر والأخير فيتناول جرائم غش النقود وتزييفها وغش المعادن النفيسة[٢٥].

وقد اقتبست بعض مواد هذا القانون من الشريعة الإسلامية كما هو الحال في إتلاف بعض الأعضاء كالعين والأذن والأنف والسن (مادة ٧ من قانون المنتخبات). وكما هو الحال في القصاص والدية والقسامة وفي حالة القتل (المواد من ٢٤-٢٦) وفي إسقاط الحمل وقتل الولد (المواد من ٢٨-٣٠) [٢٦].

أما المصدر الآخر الذي أخذت منه هذه التشريعات فهو القانون الجنائي الفرنسي كما فى النص الذي يقضي بأن حكم الإعدام لا ينفذ على الحامل إلا بعد وضعها (مادة ١٣٧) وكما في حالة الدفاع الشرعي عن النفس (المادتان ١٦٢ ، ١٦٣) وكما في النص على جريمة النصب وخيانة الأمانة (المادة ١٥٧) [٢٨].

والقراءة المتأنية لهذه التشريعات تشير إلى أنها كانت ترمي إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسية :

أولاً : <u>وقف التجاوزات والعقوبات المبالغ فيها :</u>

فقد كان المديرون الأتراك وغيرهم من الحكام المحليين في الريف يرتكبون تجاوزات في مواجهة الفلاحين تصل إلى حد القتل، ولدينا إشارات إلى ذلك النوع من الأحكام المتسرعة التي كان يصدرها المديرون الأتراك فيما ذكره إدوارد وليم لين الرحالة الإنجليزي الذي زار مصر أكثر من مرة ابتداء من عام ١٨٢٥ فهو يشير إلى واقعة كان بطلها سليمان باشا السلحدار الذي تولى أكثر من منصب في

عهد محمد علي والمعروف بتصرفاته البربرية –حسب وصف لين – فقد حدث عندما كان سليمان باشا السلحدار مديرًا لطنطا وأثناء قيامه بزيارة تفقدية لإحدى شون الغلال التابعة للحكومة أن وجد اثنين من الفلاحين ينامان بالقرب من الشونة، فسأل عن عملهما وعن سبب تواجدهما في المكان فأخبره أحدهما بأنه أحضر ١٣٠ إردبًا من القمح من قرية مجاورة وأجاب الآخر انه أحضر ٦٠ إردبًا من أرض تابعة للمدينة فصاح المدير منفعلاً " أيها النذل ذلك الفلاح يحضر ١٦٠ إردبًا من قرية صغيرة وأنت تحضر ٦٠ إردبًا فقط من أرض المدينة " وحاول الفلاح المقيم بمدينة طنطا أن يدافع عن نفسه بأنه يحضر هذه الكمية يوميًا بينما زميله يحضر كميته أسبوعيًا. ولكن المدير كان قد أصدر أمره بشنق الفلاح على فرع شجرة قريبة، وإذا كان الفلاح قد نجا من الموت بسبب تحايل العامل الذي كلف بالشنق على منطوق الحكم حين فرق بين الشنق والقتل فعلق الفلاح في حبل لشنقه وجعل رجليه تلامس الأرض الأمر الذي أدهش المدير عند مروره في اليوم التالي عندما وجد الفلاح حيًا ويحضر كمية جديدة من الغلال[٢٩].

وكانت مثل هذه الأحكام الطائشة والمتعجلة تذهب بحياة كثير من الفلاحين ومن ثم صدرت هذه التشريعات لتضع حداً لمثل هذه الأحكام.

يتضح ذلك من مقدمة لائحة الفلاح التي جاء بها :

" أن المسموع بأن أصحاب الجنح المقتضى لهم التأديب من طرف الحكام يضربون ضربًا زيادة عن قانونهم ومن ذلك يحصل لهم تلف فلأجل رفع هذا الغدر يقتضي أن التأديب الذي يلزم إلى كافة المجرمين يتحدد له حدود ويصير التنبيه على حضرات المأمورين ونظار الأقسام وحكام الأخطاط بأنهم لم يتجاوزوا في إجراء قصاص أحد المجرمين زيادة عن ما هو محدد عليهم، وإذا صدر منهم ضرب أحد زيادة عن حدوده فيكون ذلك عايدًا بهم ولأجل فهم ذلك وإجرائه فأظن انه يقتضي تحرير خلاصات من المجلس العالي ونشرهم لكافة المأموريات لأجل أن يكونوا

منتهين لعملية ذلك(٣٠).

وعلى ذلك فقد تضمنت لائحة الفلاح والتشريعات التالية لها نصوصًا تتضمن حماية حقوق الفلاحين تجاه مشايخ القرى إذا ظلموا الأهالي عند جباية الأموال مثل " إذا كان المأمور يطلب من بلد عشرة أكياس (الكيس ٥٠٠ قرش) من المال الذي عليهم وحين تفريد ذلك على الأهالي يتحقق أن شيخ البلد فرد ذلك على الفقراء ولا جاب على أقاربه وحمى بعضًا من الفلاحين الذين له معهم غرض فأول دفعة يضرب ١٠٠ كرباج وثاني دفعة ١٥٠ كرباج(٣١).

أو ميز المشايخ بين أقاربهم وبين الفلاحين في المعاملة عند طلب الأنفار للجهادية "إذا كان أحد الفلاحين له ولدان فقط وأن شيخ الحصة أخذ منه أول مرة ولد منهم وأورده إلى أوردي الجهادية وفي الدفعة الثانية أيضًا من عدائه إلى الفلاح المذكور أخذ منه الولد الآخر وترك والدهم معطلاً عن أشغاله ...... فينبغي أن كان للشيخ المذكور ولد فيؤخذ وإذا لم يكن يوجد له ولد يؤخذ من أقاربه ويفرج عن ابن الفلاح الثاني"(٣٢).

وكذلك في حالة إفراط حاكم الخط في تنفيذ العقاب على أحد الفلاحين " إذا كان حاكم الخط يضرب أحد المذنبين مقدار الكرباج المحدد لذنبه ولكن الغرض له يضربه في مقتل ويموت المضروب من ذلك الضرب فيقتضي دية الشرع .... والحكم المذكور أيضًا يجري على المأمور الكبير فبمقتضى ذلك يجب أن يكون الضرب فقط في الأكعاب ومحل القعاد" (٣٣).

وكذلك في حالة تشغيل الفلاحين بدون أجر " إذا كان شيخ بلد أو خلافه يشغل فلاح في أشغال نفسه سواء كان في مشال زرعه أو في قلعة أو سائر الأعمال بدون أجرة فمثل ذلك تتحصل منه الأجرة الطاق اثنين "(٣٤).

وعلى الرغم من هذه التأكيدات الصريحة بضرورة الالتزام بهذه القواعد التي

نصت عليها هذه التشريعات فإن الوثائق البريطانية المتعلقة بهذه الفترة تشير إلى أن عدد الضربات بالكرباج كانت تخضع لهوى القاضي فمثلاً إذا سرق الفلاح ماعزاً من الباشا أو الحاكم فقد يحكم بعدد من الضربات تبقي الفلاح عاجزًا لعدة شهور. وتقول هذه الوثائق أن قسوة العقوبة لم تكن بعدد الضربات التي يحددها القاضي بل بالطريقة التي كانت تنفذ بها. وعلى الرغم من أن لائحة الفلاح وغيرها من التشريعات قد حاولت أن توقف هذه الأنواع من التعسف فإن الوثائق البريطانية تشير أيضًا إلى أن هذه اللوائح بقيت أقرب إلى كونها أداة نظرية منها أداة فعالة وبالتالي فشلت في تحقيق ذلك الغرض[٣٥].

بل أن الارتجالية في إصدار الأحكام والقسوة في تنفيذها قد استمرت بعد صدور هذه اللائحة يؤكد ذلك ما ذكره إدوارد وليم لين في كتابه المشار إليه عن واقعة حدثت حوالي عام ١٨٣٣ أي بعد صدور لائحة الفلاح : وملخصها أن ناظر أحد الأقسام بمديرية المنوفية وكان من المصريين الذين استعان بهم محمد على في مثل هذه الوظائف التي كانت في البداية قاصرة على الأتراك يذكر لين أن هذا الناظر كان يقوم بتحصيل الضرائب بإحدى القرى وكان على أحد الفلاحين بهذه القرية أن يسدد مبلغًا من المال قدره ستة ريالات كضريبة متأخرة عليه ولم يكن الفلاح الفقير يملك ذلك المبلغ ولا يملك سوى بقرة يعيش منها هو وأسرته ويستعين بها في أعمال زراعته، وبدلاً من أن يتبع الناظر الوسائل المتبعة مع الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب لجأ إلى نوع من العقاب القاسي حيث أمر شيخ القرية بإحضار بقرة الفلاح المسكين وعرض على الفلاحين شرائها فاعتذروا عن شرائها لضيق ذات اليد فأمر الناظر بإحضار جزار وأمره بذبح البقرة وتقسيمها إلى ستين قسمًا وأمر الفلاحين بشراء كل قسم مقابل ريال واحد وأعطى الجزار رأس البقرة.

وبعد أن حدث ذلك اشتكى الفلاح إلى مدير المنوفية وكان في ذلك الوقت محمد بك الدفتردار. فما كان من المدير إلا أن أمر بإحضار الناظر والجزار الذي ذبح

البقرة والفلاحين الذين اشتروا اللحم ثم أمر الجزار بذبح الناظر وتقطيع جسده إلى ستين جزًا وأمر كل فلاح من الفلاحين الذين اشتروا لحم البقرة أن يأخذ كل منهم جزًا مقابل ريالين أعطاهما لصاحب البقرة كما أعطى الجزار رأس الناظر وتم ذلك بحضور قاضي المنطقة(٣٦).

وتشير الوثائق البريطانية إلى أن أفراد أسرة محمد على لم يكونوا أنفسهم بعيدين عن هذه التجاوزات وخرق القانون. ففي عام ١٨٤٥م قتل سعيد باشا الذي أصبح واليًا على مصر (١٨٥٤-١٨٦٣) فلاحًا بيديه في دمنهور حيث أن سعيد باشا لم يكتف بقسوة العقاب الذي أمر بتوقيعه على الفلاح المخطئ بل أخذ الكرباج بنفسه وظل يضرب الفلاح المسكين حتى مات(٣٧).

ثانياً : ضمان تعبئة الفائض من الريف للمدينة :

استهدفت التشريعات الصادرة في هذا الشأن وضع الضوابط القانونية لتحقيق ثلاثة أهداف رئيسية كان محمد على يسعى لتحقيقها كجزء من مشروعه :

- توفير مياه الري اللازمة للزراعة وضمان عدالة توزيع المياه في الريف.
- توفير قوة العمل اللازمة للزراعة وللأعمال العامة وضمان عدم ترك الفلاحين لقراهم.
- زراعة الأرض وعدم تركها خالية وما يترتب على ذلك من إعطاء أراضي الفلاحين غير القادرين لغيرهم لزراعتها وتحديد مسئولية مشايخ القرى في ذلك وعدم ترك الفلاحين لزراعتهم وتحديد مسئوليتهم في حماية المحصول(٣٨).

وفي هذا الاتجاه يلاحظ أن المشروع قد جرم أفعالاً يعتبرها المشرع المعاصر إهمالاً من الشخص في حق نفسه لا يحاسب عليها القانون لأن آثارها ترتد عليه

وحده. مثل معاقبة من لا يأخذ محراثه وقت التخضير (زرع المحصول) ويذهب إلى غيطه أو يتكاسل في تخضير أرضه، ومثل هذه الأفعال لا تتطلب في التشريع المعاصر تدخلاً من جانب السلطة العامة لمنع مثل هذا الإهمال. لكن المشرع في عصر محمد على واجهها بعقوبة جنائية كانت توقع على المهمل.

ويمكن فهم ذلك على ضوء سياسة الاحتكار التي طبقها محمد علي وهيمنة الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادي وضمان تعبئة الفائض نحو المدينة(٣٩).

وعلى هذا فقد تصاعد المشرع بالعقوبة في حالة إحراق الفلاح لمحصوله وجعل عقوبة هذا التصرف السجن مدى الحياة " إذا كان أحد المشايخ أو الفلاحين يحرق جرنه أو أصنافه زعمًا منه بان يرفع عنه مال أطيانه، فمن يفعل ذلك ينبغي أن يرسل إلى اللومان يقيم فيه مدى حياته إذ هو خائن في حق نفسه وحق الميري"(٤٠).

وكان على حاكم الخط ومشايخ القرى ضمان جباية الضرائب ومن أجل ذلك كانوا يجوبون القرى الواقعة تحت إشرافهم بصورة مستمرة ويعقدون اجتماعات شهرية لموظفي الناحية ومشايخ الحصص والصراف، ويفحصون سجلات الناحية حصة حصة واسمًا اسمًا فإذا اكتشفوا أن حائزى الأرض قد تأخروا في دفع الأموال المقررة عليهم سألوا المتأخرين عن سبب تأخيرهم واستخدموا الضغط إذا لزم الأمر. كما كان عليهم التأكد من أن الصيارف يجمعون من الفلاحين القدر المطلوب. وفي حالة الحاجة إلى السخرة لزراعة الأرض أو لتطهير الترع وتقوية الجسور كان على موظفي الخط بالتعاون مع المأمور تدبير الأعداد اللازمة للقيام بهذه الأعمال والإبلاغ عن الفلاحين الهاربين من مناطق أخرى(٤١).

وكانت مستويات الإدارة المختلفة مسئولة عن وضع هذه التشريعات موضع التنفيذ فكان المأمور يضطلع بالمسئولية عن كل الأعمال في القرى الواقعة تحت

إشرافه، ولهذا كان يرسل مفتشين للتحقيق من عدم إهمال الفلاحين لأعمالهم وكان يقوم بنفسه بجولات تفتيشية في كل النواحي ويستمع إلى الشكاوى المقدمة ضد الموظفين ويأمر عند الضرورة بإلغاء المطالب التعسفية ويعاقب المخطئين بالحكم عليهم بالسجن حسب القواعد التي حددتها القوانين. وكان يقوم دوريًا بدعوة ناظر القسم وموظفي الخط يناقش معهم ما يجب اتخاذه من إجراءات لتحسين الإدارة وسداد الضرائب.

كما كان على المأمور أن يتأكد من تحصيل وإحضار المحاصيل إلى شون الحكومة وفي حالات تأخر سداد الضرائب كان المأمون يستدعى المشايخ من الأخطاط ويصدر إليهم تعليماته بتدبير تلك المتأخرات خلال وقت محدد(٤٢).

كما كان على المأمور أن يبحث عن الفلاحين الذين هجروا أرضهم وأن يعيدهم مرة أخرى، ويتصل بهذه المسئولية مسئولية أخرى هي التأكد من سلامة التصاريح الصادرة للفلاحين الذين دعتهم الظروف إلى الانتقال من مكان إلى لآخر.

وكان ناظر القسم يراجع حسابات الصيارف في القرى كما كان مسئولاً عن متابعة أعمال الري وسلامة الجسور، كما كان يطلب من كبار المشايخ أن يمدوه شهريًا بأسماء الهاربين من الفلاحين ثم يقوم بالبحث عنهم فإذا كانوا قد هربوا إلى خارج الإقليم كان يقدم بشأنهم طلب إلى المأمور وكان ناظر القسم يرسل تقريرًا شهريًا عن حالة الزراعة والأشغال العامة في القسم(٤٣).

وكان حاكم الخط يقوم بتجميع القائمين مقام ومشايخ الحصص ويبلغهم بالكميات والمحاصيل التي تطلبها الحكومة من كل ناحية ويرتبون توزيع آلات الري وفي موسم الفيضان كانوا يشرفون على عمليات ري القرى ويصدرون التعليمات الخاصة بتوزيع الأرض المخصصة لكل محصول، ويتأكدون من أن المشايخ والفلاحين قد أعدوا الأرض ووزعوا المحصول طبقًا للتعليمات التي أقرتها الحكومة.

وكان حاكم الخط يحيط الناظر علمًا بكل التطورات التي تحدث في القرية مع عمل تقدير موقف للمحاصيل المزروعة وحالة الجسور(٤٤).

ثالثاً : **أحكام الرقابة على القرية وإرهاب الريف** :

حددت التشريعات السابقة مسئوليات خاصة بالرقابة على الموظفين العاملين في القرية مثل القائم مقام وشيخ الحصة ومشايخ الأخطاط والصيارف والخفراء والعاملين بالشون وكذلك نظار الأقسام والمأمورين. وفي هذا الاتجاه تعرضت التشريعات للتصرفات التي يمكن أن تصدر عن موظفين عموميين يعتبرها المشرع في الوقت الحاضر مخالفات ذات طابع إداري تواجه بعقوبة تأديبية تمس المركز القانوني للموظف. لكن المشرع في عهد محمد علي وضع لها عقوبات أقرب إلى العقوبات الجنائية مثل شيخ الحصة أو القائم مقام الذي لا يحضر إلى أشغال الترع والجسور رغم التنبيه عليه، أو يحضر ثم يهرب أو يتسبب في هروب أحد الفلاحين, فمن حيث هو ممتنع عن أداء خدمة الميري يجب قصاصه، فإن كان شيخ حصة فيضرب مائتي كرباج وإذا كان قائم مقام فيضرب ٣٠٠ كرباج، ومثل شيخ الحصة الذي يهرب عند طلب المال من أحد البلاد، وشيخ الحصة الذي يقسم المال المطلوب من البلدة على الفلاحين دون نفسه وأقاربه من الفلاحين الذين في حمايته، وكذلك الصراف الذي يسكت عن التبليغ عن هذه الجريمة، وشيخ الحصة أو القائم مقام أو حاكم الخط الذي يقبض من أحد دراهم في غياب الصراف، وشيخ الحصة الذي يحمي أحد الفلاحين الممتنعين عن دفع ما عليهم من مال الحكومة، ومثل شيخ الحصة أو القائم مقام الذي يهرب عند طلب المال من أحد البلاد. ويلاحظ أن العقوبة كانت تشتد عند تكرار المخالفات كما كانت تختلف باختلاف مركز الجاني.

فشيخ الحصة أو القائم مقام الذي يهرب عند طلب المال من أحد البلاد كانت عقوبة كل منهما تختلف عن الآخر " فأما القائم مقام فيضرب في أول مرة ٣٠٠ كرباج وفي الثانية ٥٠٠ كرباج وأما شيخ الحصة إذا هرب فيضرب في أول مرة

٢٠٠ كرباج وفي الثانية ٣٠٠ كرباج[٤٥].

وإمعانًا في إرهاب الريف لم يأخذ المشرع بمبدأ شخصية العقاب فكان يعاقب في بعض الحيان غير مرتكب الجريمة[٤٦].

وكانت العقوبة تمتد أحيانًا لتقع على القرية كلها مثل في حالة شيخ الحصة أو القائم مقام الذي يمتنع عن تقديم الأنفار المطلوبين للجهادية وفي هذه الحالة كان يؤخذ المطلوب من أخواتهما فإن لم يكن لهما أخوة فمن أقاربهما فإن لم يكن لهما أقارب فيؤخذ من أنفار الناحية، كما كانت العقوبة تشتد عند تكرار المخالفة[٤٧].

وفي نفس الوقت اعترفت التشريعات بالتعذيب كأسلوب للكشف عن الجاني ففي النص الذي وضع لمواجهة حالات الاعتداء على عمال الحكومة أثناء طلبهم للأموال إشارة صريحة إلى ذلك " أنه إذا كان الضاربون معلومون فيقتلون جميعًا بعد الثبوت بالوجة الشرعي، وإن كانوا غير معلومين في الظاهر ووقع غالب التهمة على بعض أشخاص منهم فينبغي أن الحاكم يجتهد فى تقريرهم بتطويل مدة الحبس والضرب الذي لا يؤدي للهلاك ".

كما كانت العقوبة في بعض الأحيان مقرونة بالتشهير بالجاني كما في حالة إخفاء اللصوص أو التستر عليهم من قبل القائم مقام أو المشايخ الكبار أو مشايخ الحصص فيشير البند ٤٦ من قانون المنتخب الجديد إلى ضرب المسئول عن ذلك " خمسمائة كرباج ويكون ضربه في يوم سوق البلدة عند مجتمع الناس على ملأ العالم"[٤٨].

رابعاً : موجهة التمرد أو العنف الجماعي (انتفاضات الفلاحين) :

حددت التشريعات المسئوليات الناجمة عن مهاجمة " الحكام " خلال أدائهم لواجباتهم وكذلك حالات الثورة أو التمرد الجماعي أو عصيان القرى وغير ذلك من مظاهر الخروج على السلطة التي يمكن أن يلجأ إليها سكان الريف وهنا يلاحظ أنه

ليست هناك فئات اجتماعية توقع منها المشروع الثورة على السلطة غير الفلاحيـــن. ففي لائحة الفلاح نجد ثلاثة بنود تتناول هذه القضية :

- إذا كان أحد المشايخ أو أحد الفلاحين يجمع علـــى رأيــه كــلام فـــلاح وتجاسروا على الهجوم على شيخ الخط مع حاكم الخط وفزعـــــهم يكــون بالنبوت ... أو باستخدام بندقية".

- " إذا كان أحد من قائمي مقام البلاد أو المشايخ الكبار يكونون مـــهتمين في خدمة الميري، وفي طلبهم للمال من أربابه قاموا عليهم بعــــض مـــن أهالي البلد وضربوا أحد من المذكورين ".

غير أن أهم هذه النصوص هو البند الخاص بعصيان القرى حيث جاء بــه " إذا كان المأمور أو الحاكم يرسل أحد إلى بلد بخصوص مطاليب الديوان ويحصل مــــن عموم الناحية عصيان ويفزعون بالسلاح ولم يطاوعوه فيقتضي أن وقت ذلك يتوجــه المأمور إلى الناحية المذكورة فإن اعصوه أيضًا وما أطاعوه فإن كان قريب من تلــك الناحية موجوداً أوردي (قوة) من عساكر الخيالة فيرسل إليها عساكر ويحيطون بـــها ويضبطون كبار مشايخها، وينظر إلى من كان سببًا في العصيان فيرسل إلى لومـــان الإسكندرية يقيم فيه سنة واحدة وباقي المشايخ ورفقاؤهم الذين وجدوا في العصيـــان فيضرب كل منهم أربعمائة كرباج ... وإذا وجد أحد من أهالي البلاد المجاورة لتلــك الناحية حضر لأجل الإعانة إلى الناحية المذكورة، أن كان شيخًا أو فلاحًا يضبط فإن كان شابًا فيرسل إلى الجهادية وإن كانوا لا يصلحون للعسكرية يرسلوا إلى اللومـــان يقيمون فيه ثلاث سنوات[٤٩]. وقد تكررت هذه البنود في التشريعات التالية[٥٠].

فقد جاء البند الخاص بعصيان القرى بنفس مضمونه السابق في قانون المنتخب الجديد "... إذا كانت أهالي أحد البلاد عصت بالكلية وتجاسرت على إشهار الســـلاح وأرسل لها الحاكم فلم يطاوعوه، فإنه يتوجه إليهم بنفسه فإن لـــم يطـــاوعون أيضًـــا

يصير إحاطة البلدة التي يحصل من أهاليها مثل ذلك وضبط المشايخ الكبار وأكبر من يكون سببًا في إيقاد الفتنة يرسل إلى اللومان بقيد الأبد وباقي الكبار يرسل كل منهم بميعاد ثلاث سنين وباقي المشايخ ومن رافقهم من الفلاحين يضرب كل منهم أربعمائة كرباج، وإذا حضر شيخ أو فلاح من سائر القرى إلى البلدة المذكورة بقصد الإعانة فإن كان شابًا يرسل إلى الجهادية وإن يكون كهلاً يرسل إلى لومان الإسكندرية بمدة ثلاث سنوات. وأما إذا أطلقوا بندقية وحصل جرح أو سقط (قتل) فتصير المجازاة بموجب بند ٤٢ من هذا القانون (البند الخاص بالقتل العمد) [٥١].

ونفس النص والمعنى نجده في البند ١١ من قانون رجب عام ١٢٦٥[٥٢].. ومن الواضح أن المشرع قد تصاعد بالعقوبة في التشريعين الأخيرين.

وقد ظلت هذه العقوبات الخاصة بعصيان القرى تحكم التشريع المصري حتى عصر إسماعيل كما يتضح من متابعة تحركات الفلاحين خلال تلك الفترة.

لقد كانت هذه التشريعات تطبقها المجالس المختلفة، فديوان الوالي كان ينظر في الجنايات الكبرى وقد حل محله مجلس ملكية ثم الجمعية الحقانية وفي الأقاليم كان يقوم على تطبيقها المديرين ونظار الأقسام وحكام الأخطاط. والواقع أن تطبيق هذه القوانين كان موكلاً لذمة وضمير هؤلاء الحكام وكثيرًا ما كانوا يتعسفون ويحكمون وفقًا لأهوائهم وشهواتهم فقد كان كل موظف يعتبر نفسه هو القيم على تنفيذ القانون يعاقب الناس دون رقيب. ويلاحظ أن العقوبات التي نصت عليها القوانين كانت على جانب كبير من القسوة ولا تتناسب قسوتها مع نوع الجريمة ولكن مع جسامة الضرر الناتج عنها فسرقة الفاكهة مثلاً جعلت عقوبتها أشد من عقوبة سرقة الدجاج وسرقة الغنم كانت عقوبتها أشد من سرقة الفاكهة[٥٣].

وتتجلى قسوة العقاب على سبيل المثال في قضية غرق الطفل رزق فارس بقرية الغنايم إحدى قرى أسيوط في شوال عام ١٢٦٨ (١٨٥٢). وملخص هذه

القضية كما وردت في وثائق مجلس الأحكام أن الطفل المذكور خرج خلف أمه ليلعب وبعد مضي بعض الوقت وجدت الأم الابن غارقا في مياه الصرف المتخلفة عن المسجد القريب وليس به أثر جروح كما ثبت من التحقيق، وعلى الرغم من أن السلطة المختصة قد انتهت إلى أن وفاة الطفل كانت قضاءً وقدرًا، كما أن أولياء الدم لم يتهموا أحد بقتله كما جاء في منطوق الحكم على الرغم من ذلك نص الحكم على معاقبة مشايخ الناحية وكذلك أصحاب المسجد والمسئولين عنه بجلدهم جميعًا ثلاثمائة كرباج بين جمهور من أمثالهم " كون المذكرين لم حصل منهم التفات في سد البالوعة بوقته "(٥٤).

وليس الجديد هنا هو قسوة العقاب وإنما الجديد يكمن في الصياغة الدقيقة في هذه التشريعات للمهام وأسلوب المراقبة وتحديد العقوبات حيث جرى النص على كل فعل على حدة ومراقبته لتنسيق القرية ككل في اقتصاد للمحاصيل والمال والرجال. وكان ذلك جزء من محاولة صياغة مجتمع القرية فيما يشبه السكنة العسكرية من حيث الانضباط والنظام(٥٥).

والقضية الأخيرة المثارة في هذا الموضوع هي : تطور علاقة تشريعات محمد علي بالشريعة الإسلامية. ذلك أن جبرييل بير في مقاله " التنظيمات في مصر قانون العقوبات " أثار إشكالية تتعلق بتطور موقف محمد علي من الشريعة الإسلامية فهو يذكر أن القانون الذي صدر في ٢٤ أغسطس ١٨٤٤م (٩ شعبان ١٢٦٠هـ) لا يشير إلى الشريعة الإسلامية خاصة في البنود الخاصة بالقصاص والأحوال الشخصية ويرى بير أن التشريعات السابقة واللاحقة لهذا التشريع أكثر محافظة من هذه الناحية(٥٦).

فقد نصت لائحة الفلاح صراحة على أن هتك العرض يعد جريمة ينظر فيها القاضي طبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية وعلى السلطات المدنية تنفيذ الحكم الذي يصدره القاضي وكان نص هذه المادة على النحول التالي " إذا كان أحد يسب أحد أو

يأخذ وجه بنت فهذه دعوة منوطة بالشرع الشريف "[٥٧].

أما قانون أغسطس ١٨٤٤م فلم يشير إلى القاضي أو إلى الشريعة في هذا الشأن وحدد العقوبة على هذه الجريمة بالسجن في القلعة أو الأشغال الشاقة في ميناء الإسكندرية وكان نص المادة " أن كل من اتهم بالتعدي زوراً على عرض أحد من ذكر أو أنثى ... فيرسل إلى اللومان من ستة أشهر إلى ثلاث سنين وإن كان من الخدم الكبار فيربط في القلعة تلك المدة"[٥٨].

وعندما صدر قانون رجب ١٢٦٥ أحال هذه الجريمة مرة أخرى إلى الشرع : " إذا قصد أحد أخر بهتك عرض أو بقول سوء أو أزال أحد بكارة بنت فمثل هذه المواد من الأمور التي تنظر بالشرع الشريف فتحال رؤيتها على الحاكم الشرعي. وما يقتضيه الشرع في ذلك يفيد إجراؤه بمعرفة الحاكم العرفي على مقتضى الإعلام الشرعي في ذلك "[٥٩].

وينطبق ذلك على كل ما يتصل بالقصاص والأحوال الشخصية، ويعلل بير ذلك بأن القانون الذي صدر في رجب ١٢٦٥ قد جرت صياغته قبل صدور قانون أغسطس ١٨٤٤م إلا أن نشره قد تأخر إلى أوائل عصر عباس وبذلك يكون القانون الصادر عن الجمعية الحقانية في أغسطس ١٨٤٤م أكثر قوانين محمد على تقدمًا وأنه تطور طبيعي لموقف محمد علي من الشريعة الإسلامية والحقيقة أن هذا الرأي يحتاج إلى مناقشة ذلك لأن هذا الرأي الذي توصل إليه بير سببه ما ذكره أمين سامي الذي أشار إلى أنه " في رجب ١٢٦٥ تم طبع القانون العام الذي صدر في ختام ١٢٥٩ مدة حكم ساكن الجنان محمد علي باشا وكان جاريًا عليه العمل من وقتها ويشمل ٩٠ مادة وهو مطبوع باللغة العامية[٦٠].

ورواية أمين سامي هنا تحتاج إلى مراجعة لسببين :

١- أن أمين سامي على غير عادته لم يشر إلى المصدر الذي استمد منه هذه

المعلومة.

٢- أن ما جاء بقانون عباس من نصوص خاص بجرائم التزوير وغش العملة والمعادن النفيسة (الزغلية) مأخوذة بنصها من القانون الصادر عن الحقانية (أغسطس ١٨٤٤) مما يؤكد أن القانون الذي نشر في أوائل عصر عباس قد جرت صياغته في فترة لاحقة لصدور قانون الحقانية والقانون المنتخب الجديد. وأن قانون رجب ١٢٦٥ جاء نتيجة مراجعة قانون المنتخب الجديد ولتفادي الازدواجية التي وردت به بين المواد المأخوذة عن لائحة الفلاح فيما يتعلق بالأحوال الشخصية والحدود وبين المواد المناظرة لها المأخوذة عن قانون الحقانية ١٨٤٤م. وأن هذه المراجعة كان الهدف منها أيضًا التأكيد على الشريعة الإسلامية وهو اتجاه يتفق مع ما هو معروف مع طبيعة عباس المحافظة. وعلى هذا فإن القانون الجنائي الذي تم نشره في أوائل عصر عباس لا يرجع صدوره إلى عام ١٢٥٩ كما ذكر بير اعتماداً على أمين سامي وإنما يرجع إلى أوائل عصر عباس.

ويبقى بعد ذلك جزءًا من هذه الإشكالية قائمًا وهو الازدواجية التي وردت في قانون المنتخب الجديد والتي ظل معمولاً بها حتى عام ١٨٤٩م والتي قد يحسمها مراجعة أحكام المحاكم الشرعية خلال الفترة ما بين عامي ١٨٤٤م و ١٨٤٩ أي بين صدور قانون الحقانية وبين صدور القانون الجنائي في أوائل عهد عباس.

الهوامش

(١) ميتشيل تيموثي، استعمار مصر، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، دار سيناء للنشر القاهرة، ١٩٩٠، ص٧٣،٧٤.

(٢) ريفيلين ، هيلين آن، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، دار المعارف القاهرة ١٩٧٦م، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى واخر، ص١٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٧ .

(٤) حول تركيب العضوية لمجلس المشورة وأهم قراراته، انظر عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م، ص٦٠٨ – ٦١٣.

(٥) لائحة زراعة الفلاح وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح، مطبعة صاحب السعادة شوال سنة ١٢٥٧هـ، صفحة ٢٠ – أيضًا ريفلين، المرجع السابق، ص١٤٧.

(٦) لائحة الفلاح، ص٧.

(٧) المرجع السابق، ص٢٠ ، ٢٨.

(٨) المرجع السابق، ص٦١ – ٧٦.

(٩) جبريل بير، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة، ترجمة عبدالخالق لاشين وعبدالحميد فهمي، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة ١٩٦٧م، ص٢٤٢.

(١٠) لائحة الفلاح ، طبعة ١٢٥٧ صفحة ٦٩–٧٠ ريفلين، المرجع السابق، صفحة١٢٩.

(١١) شفيق شحاته – حركة التجديد فى النظم القانوننية فى مطلع القرن التاسع عشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦١، صفحة ١٠٦.

(١٢) شفيق شحاته، المرجع السابق ، صفحة ١٠٦ .

(١٣) المرجع السابق .

(١٤) ريفلين ، المرجع السابق ، صفحة ١١٥ .

(١٥) قانون السياسة الملكية ، طبع بمحروسة بولاق فى سلخ شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥٣ ص٢-١٢ ، ايضاً ريفلين ص ١١٥ .

(١٦) قانون السياسة الملكية الفصل الثاني : ص١٢-٣١.

(١٧) قانون السياسة الملكية الفصل الثالث : ص٣٢-٤٠.

(١٨) قانون المنتخب الجديد، دار الطباعة المصرية في غرة محرم ١٢٦١هـ ص٣٥-٣٧، ٤٣-٥٣.

(١٩) المرجع السابق، ص٦٨-٧٠.

(٢٠) المرجع السابق، ٧٣، ٧٤ حول القوانين التي صدرت في تلك الفترة انظر أيضًا جبرييل بير، المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٢١) قانون المنتخب الجديد، ص٧٥-١١٥.

(٢٢) انظر قانون المنتخب الجديد.

(٢٣) بير ، المرجع السابق ، ص٢٤٤

(٢٤) المرجع السابق، ص٢٤٤

(٢٥) حول نص القانون : انظر القانون الجنائي الصادر عن مجلس الأحكام في ٨ رجب ١٢٦٥ دار الطباعة المصرية القاهرة في ٨ رجب ١٢٦٥.

(٢٦) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢٧) ________________ ، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢٨) بير ، المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٢٩) Lane. E. W. Manners and Customs of the Modern Egyptian. London , 1966, P 129.

(٣٠) لايحة الفلاح لتعليم الزراعة والنجاح، ص٦١. وقد أنشئ المجلس العالي عام ١٨٣٤م وكان يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء

يختارهما شيخ الأزهر واثنين من التجار يخترهما كبير تجار العاصمة واثنين من الأعيان عن كل مديرية وكانت له بعض الاختصاصات القضائية، الرافعي، المرجع السابق، ص٦٠٧.

(٣١) لايحة الفلاح . ص ٦٤. قانون المنتخب الجديد مع اختلاف بسيط فى الصياغة بند ١٠ ص٦.

(٣٢) لائحة الفلاح ص٧٥، أيضًا قانون المنتخب الجديد ص٢٢ بند ٤٩.

(٣٣) لائحة الفلاح ... ص٦٨.

(٣٤) قانون رجب ١٢٦٥هـ.

(٣٥) ريفلين، المرجع السابق، ص١٢٩.

(٣٦) Lane. Op cit. PP 123-129.

(٣٧) ريفلين ، المرجع السابق ، ص١٢٩.

(٣٨) لائحة الفلاح، ص٣٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣. –

أيضًا محمد دويدار، الاقتصاد المصري بين التخلف والتطوير، دار الجامعات المصرية الإسكندرية ١٩٧٨، ص١٩٧-١٩٩

– وحول البند الخاص بعدالة توزيع المياه انظر قانون المنتخب الجديد بند ٩٣ص٤٩.

(٣٩) عبدالفتاح حسن، ترتيب الإدارة العامة والرقابة على أعمالها في مصر خلال ١٧٩٨-١٨٧٥م. مجلة العلوم الإدارية، العدد الأول عام ١٩٧٢، ص٥٦، وحول نص البند المشار إليه انظر لايحة الفلاح ص٧٠ – وقانون المنتخب الجديد بند ٣٥، ص١٦،١٧.

(٤٠) قانون المنتخبات الجديدة بند ٢٠.

(٤١) ريفلين، المرجع السابق، ص١٣٦.

(٤٢) ريفلين، المرجع السابق، ص١٣١، أيضًا لائحة الفلاح، ص٥٢-٥٥.

(٤٣) المرجع السابق، ص١٣٢،١٣٣.

(٤٤) المرجع السابق، ص١٣٥ – أيضًا لائحة الفلاح، ص٥٢-٥٥. والقائم مقام هو المسئول الرئيسي في القرية في ذلك الوقت.

(٤٥) عبدالفتاح حسن، المرجع السابق، ص٥٦-٥٨ حول النصوص الخاصة بالرقابة على الموظفين في الريف انظر : – لائحة الفلاح ص ٦٢ ٦٥.
– قانون المنتخب الجديد ص ٤ ٨ بنود ٦،٨،١٠،١١،١٣.
– قانون رجب ١٢٦٥ ص٤ بند ٥.

(٤٦) د. شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٤٧) عبدالفتاح حسن، المرجع السابق ص٥٩ حول نص هذا البند انظر :
– لائحة الفلاح ص٦٣. – قانون المنتخب الجديد ص٥، ٦ بند ٩
– قانون رجب ١٢٦٥ ص٢٤ بند ٢٤ مع بعض التعديل، حيث ألقى النص المسئولية على الأخوة ثم الأبناء ثم أبناء العمومة ثم الأقارب دون أن تمتد إلى كل أفراد القرية.

(٤٨) عبدالفتاح حسن، المرجع السابق، ص٥٩-٦٠ عن نصوص هذه البنود انظر :
– لائحة الفلاح، ص٦٨-٧٤. – قانون المنتخب الجديد ص١٣، ٢١ بندي ٢٦،٤٦. – قانون رجب ١٢٦٥، ص٣٦، بند ٧٤. وفيما يتعلق بإخفاء اللصوص يلاحظ أن العقوبة كانت في لائحة الفلاحة ٣٠٠ كرباج.

(٤٩) لائحة الفلاح ص٦٧،٦٨،٦٩.

(٥٠) قانون المنتخب الجديد، ص١١،١٣،١٤ بنود ٢٤،٢٦،٢٧.
قانون رجب ١٢٦٥، ص٥،٧،٢١، بنود ١١،١٤،٤٧.

(٥١) قانون المنتخب الجديد ص١٤ بند ٢٧.

(٥٢) قانون رجب عام ١٢٦٥، ص٦٠٥.

(٥٣) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص١٠٦، ١٠٧.

(٥٤) دار الوثائق/ دفتر ٧/١٤/٧ ديـــوان مجلـــس أحكـــام مصـــر، وارد الأقـــاليم ص٥٠،٧٠.

(٥٥) ميتشيل، المرجع السابق، ص٧٤.

(٥٦) جبرييل بير، المرجع السابق، ص٢٤٣،٢٤٥.

(٥٧) لائحة الفلاح ... ص٦٩ – بير، المرجع السابق، ٢٤٤.

(٥٨) نص المادة في قانون المنتخب الجديد ص٨٩، ٩٠ بند ١٦٥ .

(٥٩) قانون رجب ١٢٦٥ص ٢٠ بند ٤٤.

(٦٠) أمين سامي، تقويم النيل وعصر عباس حلمي باشا الأول ومحمد سعيد باشـــا، المجلد الأول من الجزء الثالث، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٦، ص٢٢.

جهـــــــــود محمـــــــــد على التعدينية بالشـــــــام
إبان الحكم المصرى (١٨٣١ – ١٨٤٠ م)
" دراسة وثائقية "

د. عبد اللطيف محمد الصَّباغ

المقدمـــــــــة :

يعد محمد على باشا صاحب نهضة صناعية كبرى، تطلبت الكثير من المــواد الخام، وبخاصة الفحم والحديد عصب الصناعة آنذاك، ولم تستطع مصر أن تفى بكـل احتياجات تلك النهضة من المواد الأولية، لذا تطلع محمد على باشـا بناظريـه إلـى البلدان المجاورة، ووجد بغيته فى بلاد الشام، فبمجرد أن انتهت القوات العسكرية مـن ضمها، سافرت البعثات التعدينية تنقب عن المعادن ومصادر الطاقة فى كل مكان. وقد تركز التعدين فى منطقتين؛ المنطقة الأولى فى جبل لبنان وجبل الـدروز. والمنطقـة الثانية فى أدنه وطرسوس بآسيا الصغرى، وظلت المنطقة الثانية تتبع الديوان الخديوى فى مصر، إلى أن ضمتها إدارة الشام فى بداية عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م لـذا أطلقنـا لفظة الشام على المناطق التى خضعت للحكم المصرى فى الشام وآسـيا الصغـرى تجاوزاً.

وقد اعتمدت الدراسة على الوثائق المصرية التى تضمنتها محافظ أبحاث الشام بصفة خاصة ولم نجد أصداء لها فى المصادر الأخرى، أما الدراسات السـابقة فـهى دراسات عامة عن تجربة الحكم المصرى فى الشام، وطبيعة هذه الدراسات لم تسـمح لأصحابها بالتعمق فى موضوعات مثل التعديـن، غـير أنـها أرشـدتنى لاختيـار الموضوع.

وتأتى الدراسة على ستة محاور رئيسية؛ اختصت المحاور الأربعـة الأولـى بالمعادن الرئيسية، وهى الفحم والحديد والرصاص والقطران. وضم المحور الخـامس

المعادن الأخرى الأقل أهمية. وانفرد المحور الأخير بتقديم دراسة عن العاملين في مجال التعدين سواء الأجانب أو المصريون أو الشوام. ونحاول من خلال هذه المحاور أن نستوضح جهود محمد على، والركائز التى اعتمد عليها في الخبرة والتقنيات والعمالة، ومدى نجاحه فى تحقيق أهدافه.

والواقع أن محمد على باشا لم يكن أول من أمر بالتنقيب عن المعادن ببلاد الشام، فقد عثرت بعثات التنقيب على حفريات تدل على التعدين، إذ قام الفرنسيون بتعدين الفحم فى المناطق التى وصلت إليها أيديهم إبان حملتهم على مصر والشام[١] كما قام الأهالى فى بعض المناطق بتعدين الفحم والحديد والقطران وغيره لحسابهم الشخصى، ولكن على نطاق محدود. وبمجرد أن استقرت الأمور فى بلاد الشام للحكم المصرى ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م صدرت الأوامر بالتنقيب عن المعادن، واعتمدت الإدارة المصرية فى البداية على إرشادات رجالها من أهل البلاد للوصول إلى مناطق وجود الفحم وأسندت أمر التنقيب فى البداية إلى حداد يدعى الأسطى أحمد المصرى"[٢].

أولاً : الفحـم الحجـرى :

يوجد الفحم فى شكل عروق تحت سطح الأرض على أعماق مختلفة، فقد يوجد تحت سطح الأرض مباشرة، وقد يمتد إلى عمق اثنى عشر ذراعاً، وأحياناً يضطرب سير عرق الفحم أسفل وأعلى فى المناطق التى تعرضت للزلازل من قبل[٣]. ويتراوح سمك عرق الفحم بين ثلاثة وأربعة أذرع، ويتم استكشاف المعدن وتحديد سمكة باستخدام مثقاب (بريمة) [٤]. ويبدأ العمل بفتح مغارة وإزالة الأتربة حتى الوصول إلى عرق الفحم، ثم تتبعه بنفق مدعم بالخشب من الجانبين ومن أعلى، لمنع انهيار الأتربة بشكل يسمح للعمال باستخراج المعدن. وتحتاج الأنفاق المشار إليها إلى كميات كبيرة من الأخشاب، وبلاد الشام غنية بالأشجار، فليس هناك مشكلة سوى قطع الأخشاب ونقلها[٥].

وقد استخدمت الإدارة المصرية سكك حديدية مصغرة ثبتت في فلنكات خشبية في أرضية النفق، وكان يتم تحميل الفحم من المنجم على عربات حديدية صغيرة يدفعها العمال على السكك الحديدية. ثم تنقل إلى نفق آخر بعد نفاد فحم النفق الأول. وهذه الإجراءات سهلت عملية استخراج الفحم وزادت من إنتاجه ووفرت الوقت والجهد. فقد أشارت إحدى الوثائق إلى وجود ١٥.. قطعة حديد من سكك النقل في أنفاق الفحم التي حفرت في العام الماضي (١٢٥٤هـ)، وأن خلع هذه القطع من محلها وفرشها في جهات أخرى يحتاج إلى وقت طويل ومصاريف لا يستهان بها"[٦] وأشارت وثيقة أخرى إلى طلب مهندس الفحم بارتيل خمسمائة قطعة حديد، وتم إحالة الطلب إلى القائمين على سبك الحديد لسرعة توريده[٧].

بدأت عمليات التنقيب بمقاطعة جباع برئاسة المعاون أحمد فهمي والأسطى أحمد المصري يعاونهما متسلم جباع وأغا أورطة البلطجية المقيمة في عكا ومجموعة من العمال وبعد حفر عدة مواقع، تم العثور على الفحم قريباً من سطح الأرض، ثم انقطع ما عدا عرقاً واحداً على عمق عشرين ذراعاً[٨] لكن الإنتاج كان ضعيفاً، فلم يتجاوز إنتاج العامل خمس عشرة أقة. وبلغت الكمية المستخرجة في ستة وعشرين يوماً خمسين قنطاراً[٩]. فأمر إبراهيم باشا بإرساله عن طريق ميناء صيدا إلى الإسكندرية[١٠] وقد قدم أغا أورطه البلطجية تقريراً أوضح فيه إمكانية العثور على كميات كبيرة من الفحم الحجري في المنطقة المذكورة، وأن الأمر يتوقف على حضور متخصص في شئون المعدن، وطلبت الإدارة المصرية بالفعل إعادة التنقيب عن الفحم في جباع تحت إشراف خبير أجنبي غير أن البعثات التالية لم تنجح في الوصول إلى مزيد من الفحم في الجبل المذكور[١١].

ولفت الأمير بشير انتباه الأسطى أحمد المصري إلى وجود الفحم في جبال لبنان الغربية، وتحديداً في جبل كسروان وجبل التوف[١٢]، لكنه رفض إرسال دليل معه حتى تصدر إليه الأوامر باستخراج الفحم من المناطق المذكورة[١٣]. وقد ذهب

الأسطى أحمد إلى جبل كسروان[١٤]، بتكليف من الإدارة المصرية، وقرر أن تعدين الفحم يحتاج إلى جهود كبيرة والكمية محدودة، فهى لا تزيد عن خمسمائة قنطار، تحتاج إلى عمل ثلاثة أشهر[١٥]. وفى جنوبى جبل لبنان أوضح المهندس الإنجليزى وجود الفحم بالقرب من منجم قورنيل القديم، لكنه لم يحدد كمية الاحتياطى فى جوف الجبل بسبب مياه الأمطار ووعورة الطرق المؤدية إلى المعدن[١٦]، وأشار المهندس إلى وجود الفحم فى زبدين، لكنه لم يحدد مقداره، وعاين زحلـه فوجد أن فحمها قليل[١٧].

ونصح الأمير بشير إبراهيم باشا بعدم التنقيب فى جبل الدروز[١٨]. وقد يرجع ذلك إلى خوفه من طبيعة الدروز الثورية التى قد تحول دون إتمام العمل، ولكن بمجرد إخضاع الدروز، عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م أصدر محمد على باشا أمراً إلى إبراهيم باشا بمباشرة تعدين الفحم والحديد فى جبل الدروز وسافر على رأس بعثة التنقيب المهندس الإنجليزى يوسف بارتيل، وصدرت الأوامر إلى الأمير أمين شقيق الأمير بشير الشهابى بإرشاد البعثة ومساعدتها وتوفير ما يلزمها من عمال[١٩].

وعندما انتظمت أعمال التعدين تدفق الإنتاج، فتراوح إنتاج الحقول الثلاثة الرئيسية (قرنايل وزبدين وقبالة) بين خمسين وسبعين قنطاراً من الفحم يومياً، فبموجب دفتر القبانى نجد إجمالى إنتاج يوم ٢١ جماد الآخر ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م قدر بنحو خمس وستين قنطاراً، وقل الإنتاج فى اليوم التالى إلى خمس وخمسين قنطاراً، بينما زاد فى اليوم الثالث إلى سبعين قنطاراً، وقدر الفحم المتحصل من قرنايل فى مدة ثمانية أيام بخمسمائة وخمسة وعشرين قنطاراً، فى حين قل الإنتاج فى قباله إلى مائتين وسبعة وخمسين قنطاراً فى المدة نفسها[٢٠].

أما الفحم المرسل من جبل التوف إلى بيروت فى مدة عام تقريباً فقد بلغ ١٧,٣ قناطير، وبقى فى المصلحة حوالى ٣.. قنطار جاهزة للنقل[٢١]. وقد بلغ الإنتاج الإجمالى من الفحم لعام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) ٨,٧٣٨١ قنطاراً، أرسلت كلها إلى

مصر[٢٢]. والإنتاج السابق لا يمثل إنتاجاً سنوياً ثابتاً، إذ تأثر سلبياً فى كثير من الأعوام بعوامل عدة، منها حركات التمرد والعصيان ضد الحكم المصرى، والأمطار وصعوبات النقل، وهو ما نفصله فيما بعد.

وأياً ما كان حجم الإنتاج فقد سد عجزاً كبيراً فى حاجة مصر من الفحم الحجرى، لكنه لم يلب كل الاحتياجات، فلجأت مصر للاستيراد من الخارج، وكثيراً ما كانت ترسل إلى بيروت تطلب المزيد من الفحم، ففى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م الموضح إنتاجها أعلاه أرسل الديوان الخديوى فى مصر يطلب إرسال ٤٨٦١١ قنطاراً إلى الإسكندرية، فأشار محافظ بيروت لشريف باشا – حكمدار بر الشام – بعدم إمكانية الاستمرار فى تشغيل منجم الفحم بسبب حلول فصل الشتاء، وأشار ناظر معدن الفحم إلى أن الإنتاج أرسل كله إلى الإسكندرية وجار الاستعداد للموسم الجديد بعد انقضاء فصل الشتاء[٢٣].

وقال الخبراء الأجانب أن فحم بلاد الشام جيد جداً يصلح لإدارة السفن والمصانع، لكنه لا يصلح لصهر الحديد نظراً لوجود بثور كبريتية به، واقترح المهندس بارتيل الإنجليزى إحراق الفحم أربعة أيام ثم إطفاؤه بالتراب، ويظل تحت التراب أربعة أيام أخرى لكى يستعمل فى صهر الحديد، غير أن النتيجة لم تكن جيدة[٢٤]. واشترط المهندس النمساوى إحراق الفحم ليكون صالحاً لصهر الحديد أيضاً، لكنه لم يحدد مدة الإحراق أو طريقة الإطفاء، فأجريت التجارب، وتم إطفاؤه بالماء بعد إحراقه يوماً وليله، ثم إطفاؤه بالتراب بعد إحراقه يومين كاملين، غير أن النتائج لم تأت إيجابية[٢٥].

وبعد استخراج الفحم من المنجم يتم فرزه، وفصل الخبث والأتربة، ويعبأ فى زكائب ويوزن، ثم تحمله الدواب إلى بيروت. ويسلم القبانى تذكرة مختومة لصاحب الدابة بالوزن واسم صاحب الدابة وقريته، ليقوم بتسليمها فى بيروت مع الفحم، وقد أوصى حنا بحرى مدير حسابات بر الشام –لدى تفقده لأعمال مناجم الفحم فى جماد

آخر ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م – بأن يكون لدى مأمور المنجم كاتب يسجل إجمالى الفحم الذى يوزن يومياً، لتسهيل عملية المراجعة وتجنب أعمال الغش والسرقة[٢٦].

ولأهمية عملية التعدين، فقد تولى إبراهيم باشا بنفسه الإشراف عليها، وكانت الإدارة المصرية قد رأت إسناد هذه العملية للأمير بشير أو أحد أولاده أو أتباعه غير أن إبراهيم باشا اعترض قائلاً "لا شك فى ولاء الأمير بشير لنا لكنه بلغ الخامسة والسبعين من عمره، ومن الظلم تكليفه بهذه الأمور، أما أولاده وأتباعه فهم حريصون على نهب أموال الميرى وسلبها"[٢٧].

ويعمل الجهاز الإدارى لاستخراج الفحم بشكل هرمى يأتى فى قمته ناظر حسابات المعدن، ويعهد إليه بالإشراف الكامل على عملية التعدين، وتنفيذ سياسة الإدارة المصرية وحل ما ينجم من خلافات، ويخضع هذا الناظر لإشراف حنا بحرى، أما الإشراف الفنى على عمليات التنقيب والاستخراج وتمهيد الطرق، فقد عهد به إلى مهندسين أجانب خبراء فى شئون المعدن[٢٨]. ويشرف على سير العمل فى كل منجم مأمور "يقوم بتوزيع العمال على أماكن عملهم، فهذا يحفر الأرض، وذاك يرفع التراب وغيره يدفع العربات، وسواه يدير الدواليب (المفارز)، وآخر ينظف الفحم أو يحضر الماء للعمال، وهكذا"[٢٩] كما يتولى صرف الأجور المستحقة للعمال والمستخدمين[٣٠].

ويضاف إلى قائمة المستخدمين قبانى تابع للإدارة يقوم بوزن الفحم المرسل إلى بيروت وإثباته فى تذكرة مرفقة مع المكّارية (الحمّارين) وهناك كاتب فى كل منجم يرصد إجمالى الفحم المرسل إلى بيروت يومياً، إضافة إلى قيامة بقيد أسماء العمال قبل الشروع فى العمل يومياً، وإحصائهم عند الظهيرة، وبيان أسماء الحاضرين والغائبين، ويرأس العمال مشرفون تحت اسم "ضبطان"[٣١].

وآخر أعمال تعدين الفحم النقل، حيث واجهت الإدارة المصرية صعوبات جمة فى طريق النقل الذى تعترضه سلاسل جبلية، وعدد من مجارى الأنهار، إضافة

إلى طول المسافة بين مناطق الإنتاج وميناء التصدير (بيروت)، وقد فكـــرت الإدارة المصرية فى إنشاء سكة حديد، لتسهيل عملية النقل وبخاصة من جبل الدروز إلا أنـــها ترددت بسبب ارتفاع التكاليف، وعدم وجود دراسة جدوى حقيقية لديـــها للاحتيــاطى الموجود فى المناجم[٣٢]. واعتمدت الإدارة المصرية على مكَّارية من أهل البلاد فـــى نقل الفحم على دوابهم بالأجرة[٣٣] وبلغت تكلفة نقل القنطار الأنجليزى خمساً وعشرين قرشاً من جبل الدروز إلى بيروت، قلت إلى النصف فى مناجم جبال بيروت[٣٤]. وهى تكلفة عالية لكنها السبيل الوحيد أمام الإدارة، حيث قدر المهندس تكلفة إصلاح الطريق مبدئياً بثلاثة آلاف كيس[٣٥] وهو مبلغ لا يتحمله المعـــدن، فـاضطرت الإدارة إلـــى استخدام قواتها العسكرية بالتعاون مع الإدارة المحلية فى تمهيد الطرق[٣٦].

وحرصت الإدارة المصرية على حساب تكلفة إنتاج المعدن، على أن يرســـل مع اليومية إلى ناظر حسابات المعدن ليتسنى له محاسبة المتسببين فى زيادة التكلفـــة أولاً بأول. وتشمل تكلفة الإنتاج مرحلتى الاستخراج والنقل، وتتأثر تكلفتـــه بنشــاط العمال، ففى ١٨ محرم تمكن أحد الأسطوات ومعه عامل واحد من استخراج عشـــرة قناطير بيروتى حتى المغرب وعلى جانب آخر أخذ عامل غلاماً فعملا يوميـــن، فلـــم يستخرجا سوى ستة قناطير وعندما حسبت تكاليف الأجرة وشـــمع الإضـــاءة بلغـــت عشرة قروش، وثمن الستة قناطير ٤٢ قرشاً[٣٧] أما تكلفة نقلها إلى بـــيروت فبلغـــت ثلاثة وعشرين قرشاً[٣٨]. أى أن التكلفة حتى بيروت للقناطير الســـتة بلغـــت ثلاثـــة وثلاثين قرشاً بمعنى أنها لم توفر سوى تسعة قروش هذا بالإضافة إلـــى أن تكـــاليف النقل من بيروت إلى الإسكندرية لم تضف على التكلفة فاستوجب الأمر وقفة من ناظر حسابات المعدن مع فريق العمل فـــى المنجـــم برئاســـة المـــأمور حتـــى لا يتكـــرر التقصير"[٣٩].

وقد واجهت الإدارة المصرية العديد من المشكلات والصعوبات فـــى تعديـــن الفحم، ويأتى على رأس المشكلات تلك الثورات التى عرقلت الإنتاج وبخاصة أن جبل

الدروز كان من أكثر مناطق الشام تمرداً على الإدارية المصرية؛ فحينما ثار الـدروز عام ١٢٥٦هـ/١٨٤.م اشترطوا عدة شروط لإنهاء عصيانهم منها "أن المعدن إذا دار يكون بالحرية وليس بالإلزام"(٤٠) بمعنى إنهاء الاحتكار.

ومن المشكلات كذلك ارتفاع أجور الخبراء الأجانب ومترجميهم وعدم تعـاون سكان البلاد وبخاصة الدروز مع الإدارة وثمة حادثة أشار إليها المهندس بجبل الدروز فى تقريره إلى إبراهيم باشا توضح هذا المعنى، فعندما طلب متسلم بـيروت إرسـال خمسين قنطاراً من الفحم، أرسل المأمور والشيخ شهان – المعين من قبل الأمير بشير لصرف مرتبات العمال – الفحم المطلوب دون فـرز ودون الرجـوع للمـهندس أو مترجمة. ومن ثَمَّ فالفحم المرسل لا يصلح للاستعمال، الأمر الذى دعا المهندس للقول "إنى أعلم يقيناً أن الشيخ شـهان قـد بـذل جـهوداً جبـارة فـى العـام المـاضى (١٢٥.هـ/١٨٣٤م) لعرقلة استغلال منجم الفحم هذا، وأن سليم أغا (المأمور) يعلـم هذا جيداً، وبناءً عليه قد يكون غرضه فى إرسال الفحم على هذه الصـورة تشـويه المعمل وإظهار عدم صلاحيته للاستعمال لصرف النظر عن استغلاله"(٤١) والحادثـة تتفق مع موقف الأمير بشير المعارض لتعدين جبل الدروز الذى ذكرناه آنفاً.

أما بالنسبة للصعوبات الطبيعية التى قابلت الإدارة المصرية فى تعدين الفحـم فتأتى الأمطار العزيرة فى مقدمتها، حيث يستمر فصل الشتاء فى بلاد الشام حوالـى ستة أشهر (من ٩ ديسمبر إلى ٥ مايو)(٤٢). وخلاله يتوقـف العمـل فـى المنـاجم، وتغشاها مياه الأمطار، وعند بداية العمل فى الموسم الجديد يتحتم التخلص من الميـاه المتجمعة فى حُفَر المناجم قبل بداية التعدين، وهى تستغرق فترة طويلة نظـراً لعـدم وجود طلمبات رفع مياه، وإنما تم استخدام الطريقة التقليدية المتمثلة فى رفـع الميـاه بالجرة، وهى تستغرق فترة طويلة(٤٣).

كذلك فقد أثرت الأوبئة على التعدين بطريقة غير مباشرة، حيث يمنع العمـال والخبراء من المرور عبر المناطق الخاضعة للحجر الصحى، ويذكر إبراهيم باشا فـى

خطابه لسامى بك "وصلنا إشعاركم الخاص باحتجاز حسين أغا والكيميائى، وأنهما سيصلان إلى منجم الفحم الحجرى بعد انتهاء مدة الحجر الصحى، ونبلغكم إلى أن تنتهى مدة الحجر الصحى ويصلان إلى هنا يكون الثلج قد نزل. وعليه فليس لكم أن تسألوا قائلين ماذا فعلتم فى أعمال التعدين هذا العام؟"[٤٤].

وبذلك نجحت الإدارة المصرية فى تعدين الفحم من بلاد الشام، مستعينة بالخبرات الأجنبية والتقنيات الحديثة والعمالة الشامية، وتغلبت على الصعوبات البيئية والمشكلات البشرية، إلى حد كبير فحصلت على معظم احتياجاتها من الفحم.

ثانياً : الحديد :

يعد الحديد إلى جانب الفحم عصب الصناعة، لذا حرصت الإدارة المصرية على التنقيب عنه فى كل مكان تصل إليه، فبمجرد أن وصل إبراهيم باشا إلى أدنه – بآسيا الصغرى – أرسل مع البريد عينة من معدن عثر عليه فى جبال كولك[٤٥] إلى مصر، أظهرت نتيجة التحليل أن المعدن يحتوى على ٦٥% حديد و ١% زرنيخ و٤% كبريت و٠.٣% مواد مترسبة، وأنه ليس فى المعدن شئ من الفضة أو الرصاص أو النحاس[٤٦] الأمر الذى أكد لإبراهيم باشا ما سمعه من أحد أعيان أولوقشله[٤٧]. بوجود الحديد والرصاص فى أربعة مواقع فى جبل كولك، فاستغل إبراهيم باشا فرصة وجوده لقطع الأخشاب من الجبل المذكور وإرسالها إلى الساحل عبر نهر سيحون، وطلب من والده إرسال خبير التعدين "قالوه" أو الصيدلى الكسندر مع فريق عمل للتنقيب عن الحديد والرصاص[٤٨].

ووصلت الأوامر من مصر تطلب إبلاغ محمد على باشا بمقدار الحديد والرصاص المستخرجين من جبال كولك، والكمية التى يقدر استخراجها قياساً على عملية التعدين الجارية[٤٩]، الأمر الذى يؤكد حرصه على التعدين ورغبته فى الحصول على المعادن من تلك الجهات. وأكد أخصائيو التعدين بعد عمليات التنقيب

أن المعدن هو الرصاص، والحديد الموجود لا يرقى إلى مستوى التعدين. وقد وجدوا حفريات قديمة كثيرة فى الجبل تدل على تعدين الجبل من قبل بطريقة بدائية(٥٠) ومن المحتمل أن تكون عمليات التعدين السالفة قد استنفذت الحديد.

ولم يكتف إبراهيم باشا بذلك، وإنما أرسل بعثة استكشافية تجوب باقى المناطق الخاضعة له فى آسيا الصغرى بحثاً عن المعادن، فعثرت على خام حديد فى جبل قوزان، لكنه كان هشاً كالزجاج(٥١). ثم عثرت عليه فى مناطق شمالية بعيدة جداً عن الساحل، الأمر الذى يضاعف تكاليف النقل، ففضلت الإدارة المصرية صهره وبيعه محلياً للحدادين والتجار(٥٢).

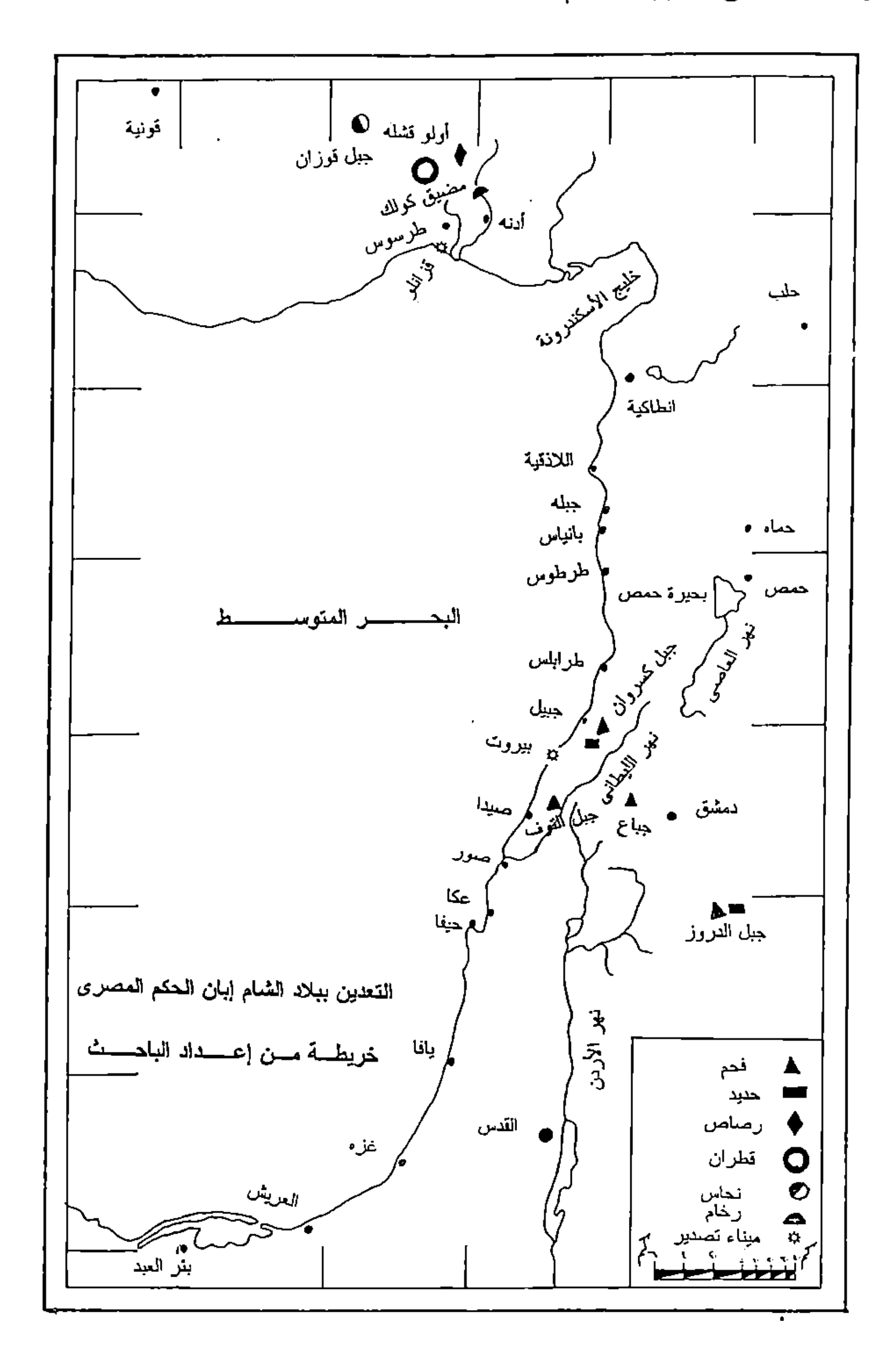
وبعد فشل جهود التنقيب عن الحديد فى أماكن قريبة من الساحل فى آسيا الصغرى عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م اتجهت فى العام التالى بتوجيه من إبراهيم باشا إلى الجبال المحيطة ببيروت؛ فعثر المهندس برتيل على حديد فى مرجيا(٥٣) بنسبة ٣٥-٤٠% بالقرب من مناطق الفحم، لكن المسافة بينهما كانت وعرة وإنشاء طريق بينهما يتطلب نفقات كبيرة، فأصبح من الأيسر نقله إلى الساحل وصهره هناك(٥٤). وفى جباع وقريباً من الفحم عثر أحمد أفندى على خام حديد، فأخذ منه عينة إلى بيروت(٥٥).

وقد وجد الحديد بكثرة فى جبل الدروز، أما أجود الأنواع فهى تلك الموجودة فى مرجيا، وهو أكثر المناجم إنتاجاً وأسهلها استخراجاً. وأنشأت الإدارة المصرية سبعة أفران فى أماكن قريبة من الخشب ويعد خشب السنديان أفضل أنواع الخشب لصهر الحديد ويستخدم بشكل مباشر دون أن يتحول إلى فحم نباتى(٥٦). ويتم صهر الحديد على ثلاث مراحل؛ فى المرحلة الأولى يتم حرق الحديد الخام بالخشب ثم يدق بالمطارق إلى أن ينظف من الشوائب العالقة به. وفى المرحلة الثانية يوضع فى فرن أكبر(٥٧) ويحمى عليه بالخشب، ويفتح الفرن كل ثلاث ساعات مرة، فيخرج منه قطعة حديد وزنها سبعون أقة، تنقل إلى فرن صغير، يحمى بفحم نباتى، حتى يذوب

الحديد ويجرى كالماء، فيتلقاه رجلان ويطرقانه على السندان، ويصبح الحديد صالحاً للاستعمال، وهكذا لا تستخدم أية آلة فى عملية الصهر(٥٨).

وأجرى بارتيل تجربة لصهر الحديد بالفحم الحجرى فى جبل الدروز، غير أنه خرج يتهشم بمجرد الطرق عليه، وقد أرجع هذا المهندس السبب إلى عوامل فنية تتعلق بتصميم الفرن لأنه ليس على الطراز الأوربى والكير صغير لا يولد هواءً كافياً للاشتعال. ويتعلق البعض الآخر بالفحم الذى يحتوى على بثور كبريتية؛ فمن المفترض أن يحترق الفحم فى سبعة أيام، إلا أنه احترق قبل أربعة أيام(٥٩). ويرى مأمور المنجم أن المهندس المذكور ليس له خبرة كافية بصهر الحديد، وقد اعترف هو نفسه بعدم خبرته ورأى ضرورة إرسال خبير يجرى العمل بمعرفته، حتى يمكن صهر الحديد بالفحم الحجرى، فمن المفترض أن الحديد المصهور بالفحم يكون أجود من ذلك المصهور بالخشب(٦٠).

ومن ثَمَّ تمكنتالإدارة المصرية من تعدين الحديد فى جبل الدروز وجبل لبنان فحصلت على احتياجاتها من خام الحديد، ليساهم فى بناء الدولة الحديثة، وتم صهر خام الحديد باستخدام خشب السنديان من نفس مناطق الإنتاج، الأمر الذى خفف من تكاليف الإنتاج، ولم يتمكن الخبير الأجنبى من صهره بالفحم الحجرى.



قونية
أولو قشله
جبل قوزان
مضيق كولك
أدنه
طرسوس
قزانلو
خليج الاسكندرونة
حلب
انطاكية
اللاذقية
جبله
بانياس
حماه
طرطوس
حمص
بحيرة حمص
البحر المتوسط
نهر العاصى
جبل كسروان
طرابلس
جبيل
بيروت
نهر الليطانى
صيدا
جبل التوف
جباع
دمشق
صور
عكا
حيفا
جبل الدروز
التعدين ببلاد الشام إبان الحكم المصرى
خريطة من إعداد الباحث
يافا
نهر الأردن
القدس
غزه
العريش
بئر العبد
فحم
حديد
رصاص
قطران
نحاس
رخام
ميناء تصدير

ثالثاً : الرصـاص :

تقدم إبراهيم باشا نحو الشمال الغربى تاركاً البعثة التى وصلت مـن مصـر تنقب عن المعادن بجبال كولك برئاسة خبير التعدين كنسيرك والكيميـائى بوريـانى. وبعد عشرين يوماً تمكنت البعثة من الوصول إلى عرق الرصاص عبر نفق طوله ٤. قدماً وعرضه أربعة أقدام على عمق ٢٤ قدماً تحت سطح الأرض، وبعد سـتة أيـام استخرجت البعثة نحو ستين قنطاراً، ولكن فى اليوم التالى نفد عرق الرصاص، وأخـذ الثلج يتساقط، واستحالت مواصلة العمل[٦١].

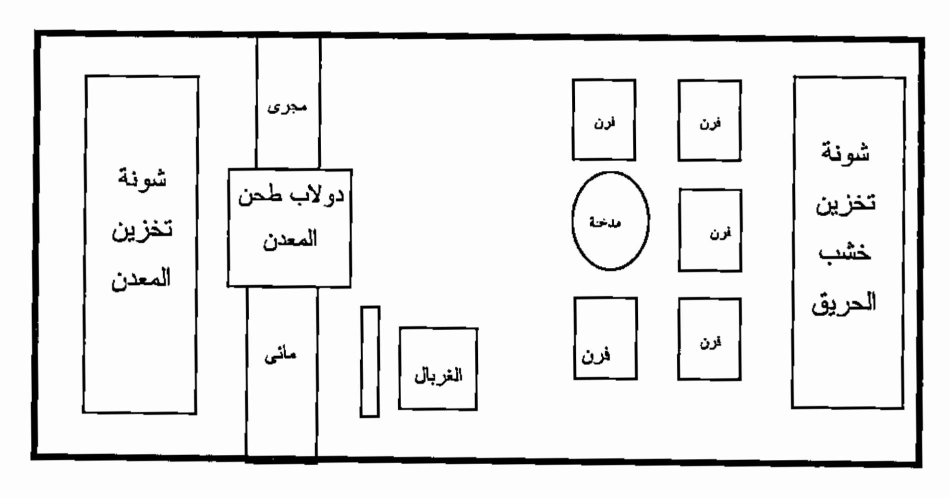
وأرسل أخصائى التعدين عينة من الرصاص بالبريد إلـى بوغـوص بـك، ليعرضها على محمد على باشا[٦٢]. ومع إشراقة موسم التعدين بدأت عمليات التعديـن، حيث عثر على خام الرصاص فى امتداد الحفرة التى حفـرت فـى العـام السـابق (١٨٣٣م)، كما اكتشفت البعثة معدن رصاص آخر عند قمة جبل بولفار – من جبـال كولك – على سطح الأرض، قال عنه الخبير إنه من النوع الجيد، وأرسلت منه عينـة إلى بوريانى الذى بقى فى كولك، فأوضح بعد فحص العينة أن كل مائة درهم[٦٣] خـام من المعدن تستخرج اثنين وسبعين درهماً من الرصاص أى أن نسبة الرصاص فـى الخام تعادل ٧٢% إضافة إلى ..٥% فضة. كما أرسلت عينة من الخام إلـى مصـر لمعاينتها. واستقر الرأى على استقدام خبيرين لبناء معمل الصهر من مصر وأن يشـيد المعمل المذكور فى كرلز[٦٤]، حيث تتوفر المياه والأخشاب، ومن ثم تطلـب الأمـر اصلاح الطريق بين المنجم والمعمل[٦٥].

ورفع بوريانى تقريراً إلى إبراهيم باشا، أوضح فيه نتيجة تحليل الرصـاص، وقائمة بمتطلبات تعدينه من المواد الكيميائية والآلات والأدوات، مما لا يمكن توفـره بجهات أدنه، وذلك لإحضارها من مصر مع خبراء بناء الأفران، كما طلـب تعييـن جهاز إدارى مكون من مدير ومباشر ومعاون وقبَّانى وكاتب. أما بالنسـبة لإصـلاح

الطريق بين المعدن والفرن فقد قرر إبراهيم باشا أن يعرض الأمـر علـى العشـائر لإصلاحه بالمقاولة(٦٦). وكتب محمد على باشا إلى ابنه إبراهيـم يوصيـه بالعنايـة بالرصاص وسرعة تعدينه. وصدرت الأوامر بإعداد المعدات والكيماويات المطلوبـة وإرسالها بأسرع وقت إلى أدنه(٦٧). واهتمام محمد على بتعدين الرصاص يدل علـى مدى حاجته إليه، إذ كان يستورد كل احتياجات ديوان الجهاد من الرصاص من أوربا، الأمر الذى يكلفه مبالغ طائلة(٦٨).

وفى فصل الشتاء تتوقف أعمال التعدين فى جبال كولك تماماً، حيث يتسـاقط الثلج بكثرة، فلا يملك رجال التعدين إلا سد أفواه المناجم والنزول إلى كولك، ويكتفون بما نقلوه إلى معمل الصهر(٦٩). وعندما اكتمل بناء المعمل كان به اثنا عشـر ألـف قنطار من المعدن الخام فى انتظار الصهر(٧٠). وكلفت الإدارة محمد رشيد حكمـدار أدنه بزيارة المعدن وكتابة تقرير كل عشرة أيام وإرساله إلى إبراهيم باشا(٧١). وعندما تأخر إنتاج الرصاص أرسل محمد على باشا إلى إبراهيم باشا يوبخه، وأوضح محمـد رشيد أن الإنتاج متوقف على الانتهاء من بناء الأفران، وتعهد وفقاً للأمر العالى بـأن يرفع لمحمد على باشا تقريراً إسبوعياً عن أعمال المعدن(٧٢).

وضع بوريانى تصميم معمل صهر الرصاص، واستغرقت عمليـات البنـاء خمسة أشهر ونصف(٧٣). وتكون المعمل من خمسة أفران ومدخنـة ودولاب طحـن، واحتاجت مجموعة الأفران والمدخنة أربعين ألف طوبة و ١٥٠ حمـلاً مـن الجيـر المطفى، ويبلغ طول المدخنة ٤٥ ذراعاً(٧٤) وأساسها خمسة أذرع، وتم توصيلها مـن أسفل بمجموعة الأفران، لتصريف الدخان الناتج عن عملية الصهر. أما دولاب طحـن المعدن الخام فتم إنشاؤه بجوار مجرى مائى لإدارته، وتم تزويده باثنتى عشرة قطعـة حجر طاحونة. وأحضرت الإدارة من مصر ثلاث مقاطع من قماش النحـاس لصنـع غرابيل لغربلة المعدن بعد طحنة(٧٥).



معمل صهر الرصاص "من إعداد الباحث"

وتبدأ عملية الصهر بطحن المعدن الخام وغربلته للتخلص من أكبر قدر من الأتربة العالقة به، ثم ينقل بعد ذلك إلى الأفران لصهر واستخلاص المعدن، ومن المعروف أن الرصاص يحتاج إلى درجة حرارة أقل من كثير من المعادن الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فشلت تجربة صهره على يد الكيميائى بوريانى، الأمر الذى أحدث خلافاً بينه وبين قورنيل كبير المعّدنين، الذى طرد بوريانى من الخدمة بعد الرجوع إلى إبراهيم باشا[٧٦].

وقد أوضح قورنيل أن فشل التجربة يرجع إلى سببين؛ السبب الأول : احتواء المعدن الخام على عنصر الكبريت، والسبب الثانى خطأ فى تصميم الأفران، حيث إن فتحات الكير لا تدخل هواءً كافياً للاشتعال داخل الأفران. فهدم قورنيل أحد الأفران وبنى فرناً جديداً ليجرى تجربة جديدة لصهر المعدن، فوضع سبعة قناطير من خام الرصاص وأوقد ناراً هادئة لمدة ١٨ ساعة لإزالة عنصر الكبريت، ثم أضاف مسحوق حجر الزند وحجر التلحيم، وزيدت النار لمدة ست ساعات، غير أن المادة المذابة تشربت المعدن فور إذابته، واستحال كل هذا معجوناً مترسباً، وما لبث أن أسود واحترق وتحجر. وأشار قورنيل إلى أن مسحوق الحجرين المضاف للمعدن كان

ثقيلا، وأن هناك نوعا آخر منه يطفو فوق المعدن ويسمح بجريانه خارج فرن الصهر. وبذلك فشلت التجربة الثانية لصهر الرصاص، وتأكد قورنيل أن المعدن لا يمكن صهره فى هذا الفرن، فتوقف عن العمل وسافر إلى بيروت(٧٧).

وكان من الصعب على محمد على باشا أن يصرف النظر عن معدن الرصاص بعد أن تكبد أموالا طائلة(٧٨)، إذ بلغت نفقات بناء معمل الصهر، التى صرفت بمعرفة بوريانى حوالى ثلاثة آلاف كيس، إضافة إلى ثمانمائة كيس مرتبات وتعيينات(٧٩). غير أن فشل تجربة صهر المعدن أصابت محمد على باشا بخيبة أمل كبيرة فى هذه الناحية، فتوقف العمل فى صهر المعدن طوال الفترة من رجب ١٢٥٢هـ/ أكتوبر ١٨٣٦م حتى بداية عام ١٢٥٥هـ/ مارس ١٨٣٩م.

ولم تقف الإدارة المصرية مكتوفة الأيدى، فأصدرت أوامرها إلى العاملين فى المعدن بالتنقيب عن مزيد من المعدن، فاكتشف قورنيل خام رصاص آخر فى طوز أغاج بالقرب من سيس، تصل نسبة المعدن فيه إلى ٥٥%(٨٠). ثم أمر إبراهيم باشا حكمدار أدنه أن يرسل مائة أقة من الرصاص الخام إلى بيروت، لإجراء تجربة الصهر بمعرفة خبراء التعدين العاملين فى الفحم، وأن يرسل مائتى أقة إلى مصر لإرسالها إلى أوربا وصهرها هناك، وأمره أن يستعين بخبرات رجال التعدين الآخرين فى المناطق المحيطة لإجراء تجربة الصهر على كميات قليلة من الخام(٨١).

ولم تذهب جهود الإدارة المصرية هباء، فقد جاء نجاح التجربة هذه المرة على يد أحد الخبرات المصرية، ويدعى أحمد أفندى، الذى تمكن من صهر خام الرصاص، بعد أن توصل إلى الأخطاء التى وقع فيها الخبراء الأجانب، فجاء فى تقرير خورشيد باشا حكمدار أدنه "أوقد أحمد أفندى الفرن بالحطب (الخشب) لمدة ١٨ ساعة، ووضع ٥٢ أقة من المعدن الخام الأحمر فصهرها فى ٥٦ دقيقة واستخرج منها ١٥ أقة و ٣.. درهم بواقع ٣١%(٨٢)، بيد أن الطوب المستخدم فى بناء الأفران أخذ يتناثر ترابه أثناء انصهار المعدن ... فأقترح إرسال عشرة آلاف طوبة إنجليزى

(طوب حرارى) إذا كان موجوداً منه بالإسكندرية لينشأ بها فرناً أكبر بمعرفة الأفندى المذكور، ويستنتج من هذا أن المصروفات التى أنفقت بغير حساب حتى الآن ذهبت هباءً منثوراً، لم يجن منها أى فائدة"[٨٣].

وما أن علم إبراهيم باشا بنجاح التجربة حتى أصدر أوامره إلى عثمان بك ناظر المعدن باختبار المواد الخام الموجودة بالمعمل، فقام أحمد أفندى بتنظيف الفرن الصغير ووضع به مائتى أقة من الخام ذا اللون الأصفر واستخرج منها رصاص بنسبة ٢٥%، وفى اليوم التالى وضع فى الفرن بعد التنظيف ٥٤ أقة من الخام الأحمر، فاستخرج منها ثلاث أقق و ٣.. درهم أى بنسبة ٧% من الخام. وعند اختبار المادة السوداء لم ينجح فى استخراج أى كمية من الرصاص. وأوضح أحمد أفندى أن المادة الصفراء والحمراء يمكن أن تؤدى إلى نتائج أفضل إذا استخدم طوب حرارى، لأن الطوب المستخدم فى بناء الأفران لا يقاوم الحرارة، كما أن الكير المستخدم ليس من النوع الجيد، وطلب جلداً خاصاً للكير من مصر، وصانعاً يقوم بتركيبه، وطالب تجريب الخشب بدلاً من الفحم لمصلحة الميرى، ووعد بإعادة التجربة لإذابة المادة السوداء"[٨٤].

ويتضح من التجارب السالفة العقلية المنظمة للمعدِّن المصرى أحمد أفندى، ومثابرته وإصراره على نجاح التجربة، كما يظهر تخلص الإدارة من الخبرات والعمالة الأجنبية بكل ما تتطلبه من مرتبات ونفقات هائلة. وانحصرت أخطاء التجربة التى أجراها الأجانب فى عدة مسائل فنية منها عدم التفريق بين أنواع الرصاص، وبناء الفرن بطوب غير مقاوم للحرارة، واستخدام مضخات هواء ضعيفة لا تؤدى إلى زيادة الاشتعال، وكذا وضع الخام عند بداية إيقاد النيران فى الفرن، إضافة إلى وضع كميات كبيرة من الخام رغم صغر حجم الفرن.

حاول أحمد أفندى خبير التعدين الجديد السفر إلى مصر لإجراء مزيد من التجارب لاستخلاص الرصاص نظراً لتوفر الإمكانيات، غير أن محمد على باشا

اقترح على إبراهيم باشا إجراء الاختبارات فى محل المعدن توفيراً للوقت، وإرسال ما يحتاج إليه من مصر. فعلق إبراهيم باشا الأمر على استشارة ناظر المعـدن، نظـراً لحلول فصل الشتاء. وقد فضل عثمان ناظر المعدن تشغيل المعمل فى فصل الشـتاء ريثما يتم جلب الطوب الحرارى من مصر[٨٥]. الأمر الذى يوضـح مـدى إصـرار الإدارة المصرية على كافة مستوياتها على اختصار الوقت والتغلب على الصعوبـات واستخلاص أكبر قدر من الرصاص.

وبعد نجاح التجربة وعد أحمد أفندى بصهر خمسة آلاف قنطار من الرصاص الصافى فى السنة، غير أنه واجه صعوبات حالت دون تنفيذ وعده تمثلت فى أمريـن، الأمر الأول تأخر وصول الطوب الحرارى، نظراً لعدم وجـوده بمصـر، وانتظـار وصوله من أوربا، وقد أثر ذلك سلبياً على عملية الإنتاج، إذ يحتاج الفرن إلى فـترة توقف وترميم بعد كل مرة، فيحول دون استمرار العمل[٨٦]. ويتمثل الأمر الثانى فـى تعطل دولاب طحن المعدن بعد وفاة النجار الأجنبى الـذى أنشـأه، أمـا النجـارون المحليون فليست لهم أية خبرة وعملية دق المعدن بالشاكوش غاية فى البطء، واقـترح ناظر المعدن إنشاء آلة مثل طاحونة القمح لأداء المهمة بتكلفة تقريبية ٤٥. قرشاً[٨٧].

وهكذا أنفقت الإدارة المصرية مبالغ طائلة لتعدين الرصاص، وكـادت هـذه الجهود والأموال تذهب سدى، لولا أن تمكن أحد الخبرات المصرية من صهر المعدن قرب نهاية الحكم المصرى عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ولم يحقق تعدين الرصاص النتائج المرجوة، ولعل المكسب الذى تحقق فى هذا الميدان يكمن فى تفوق العقلية المصريـة وإمكان الاعتماد عليها.

رابعاً : القطـــــــــــــران :

معروف أن بلاد الشام غنية بأشجارها، لـــــذا قـــررت الحكومـــة المصريـــة استخراج القطران والزفت لسد حاجة الجيش والأسطول، حيث يستخدم القطران فـــى دهانات السفن والمدافع وعلاج إبل الجيش وكانت مصر تستورد القطران والزفت من بلاد الشام[٨٨]. ويستخلص القطران بعد نقل الخشب من الجبل إلى الأفران بـــالتقطير الجاف. أما غلى القطران فينتج عنه ترسب الزفت، فمن ثمانية آلاف أقة قطران يمكن استخراج أربعة آلاف وخمسمائة أقة من الزفت[٨٩].

أرسلت الإدارة المصرية خبير القطران الفرنسى داسيه إلى منطقة كولك فـــى أوائل عام ١٢٥١هـ/ مايو ١٨٣٥م لإنتاج القطران والزفت، وبعد أن تفقـــد الموقـــع أوضح حاجته إلى معاون أفرنجى، وكذلك عشرون شاباً مصريـــاً لتعليمـــهم تعديـــن القطران، واثنين من صانعى البراميل، وترجمان يعرف اللغتين الفرنسية والتركيـــة، كما طلب إرسال آلة التقطير التى صنعت فى ترسانة الإسكندرية من قبل[٩٠].

وقد استخرجت مصلحة القطران ثمانية آلاف أقة من القطران شهرياً مقـــابل مصروفات قدرها ٧٦١٥ قرشاً شهرياً، وبعد إضافة أجرة النقل إلى ميناء التصديـــر قزانلو، تصبح تكلفة الأقة حوالى ٤٢ بارة، بخلاف أجرة النقل إلى الإسكندرية، تقـــوم به سفن تابعة للإدارة المصرية. والملاحظ من الجدول رقم (١) أن الإدارة كانت تدفع أجرة البلطجية[٩١] والنجارين والدواب والجنود باليومية وليس بالشهر؛ وهى بذلك قـــد أعفت مصلحة القطران من رواتب هؤلاء فى أيام العطلات وكذا طوال أشهر الشـــتاء، حتى لا تتحمل المصلحة رواتب ترفع تكلفة المنتج من القطران والزفت.

ويتضح من الجدول أيضا أن الإدارة المصرية اختارت اثنيـــن مـــن أمنـــاء البلوكات لتعليم صنعة القطران بمرتب ثلاثين قرشا شهريا للواحد، وكذا اثنـــا عشـــر جنديا بمرتب شهرى ٧٥ قرشا للفرد. بعد أن تعهد معلم القطران بتعليمهم، ليتولوا أمر

التعدين بعد ذلك، لزيادة الإنتاج وتخفيف عبء مرتب الخبير الأجنبى ومترجمه عـــن كاهل مصلحة القطران، ويقدر – كما هو واضح من الجدول – بثلاثـــة آلاف قـــرش شهرياً أى ستة أكياس، وهو مبلغ يزيد بلا شك من تكلفة القطران.

وأفضل الأخشاب المستخدمة فى استخراج القطران هى الأخشاب ذات المـــادة الدهنية، ومنها أشجار الصنوبر والشراق[٩٢]. واستعانت الإدارة المصرية بأربعة عشر من أهل المنطقة لقطع الأشجار، ويومية الواحد منهم ثلاثة قروش – كما هو واضـــح من الجدول – كما استخدمت أحد عشر نجاراً من أهـــل المنطقـــة أيضاً بأجـــــر يومى أربعة قروش للفرد لتقطيع وتحميل الخشب ونقله إلى الأفران. وتعهد الخشـــابون بنقل ألفى حمل[٩٣] من الخشب شهرياً إلى الأفـــران، واســـتخدموا خمســـة خيـــول، ويستخرج خبير القطران من كل حمل خشب شراق ثمانى أقق قطران، وبذلك يزيـــد المستخرج على ستة عشر ألف أقة من القطران، الأمر الذى يـــؤدى إلـــى انخفـــاض التكلفة إلى النصف، بشرط صدق القائمين على نقل الخشب، لذا رأى ناظر المعدن أن يصدر محمد على باشا مرسوماً إلى متسلم طرسوس لمتابعة المذكورين حتى ينتظـــم أمر مصلحة القطران[٩٤].

جدول رقم (١) : مصروفات مصلحة القطران فى شهر واحد

القائمون بالعمل	عددهم	اليومية بالقرش	الأجرة فى الشهر بالقرش	أيام العمل عدا الأجازات
بالطــــه جى	١٤	٣	١٠٥٠	٢٥
خشاب (نجار)	١١	٤	١١٠٠	٢٥
دواب	٨	٤	٨٠٠	٢٥
جنــــــود	٥	١	١٢٥	٢٥
خبير القطران	١	–	٢٠٠٠	الشهر كاملاً
المترجــــم	١	–	١٠٠٠	الشهر كاملاً
جنود يتعلمــــون الصنعــــة	١٢	٢,٥	٩٠٠	الشهر كاملاً
أمناء بلوكات يتعلمون الصنعة	٢	١	٦٠	الشهر كاملاً
دواب ركوب الخبير والمترجم	٣	–	١٨٠	الشهر كاملاً
صانع البراميل	١	–	٥٠	الشهر كاملاً
ثمن ميرة الجنود وصانع البراميل	١٥	–	٣٥٠	الشهر كاملاً
إجمالــــى التكلفــــة شهريـــاً			٧٦١٥	

المصدر : محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة ٢٣/٩٥، ٢٥ صفر ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦م)

واعتمدت الإدارة فى البداية أربعة أفران لاستخلاص القطران، أشرف عليها الخبير الأجنبى، وبقيت مسألة توريد الأخشاب هى العقبة، فكثيراً ما تكررت شكوى ناظر المعدن من توقف الأفران بسبب انشغال الأهالى بنقل الشعير من ميناء قزانلو إلى جهات أدنه وطرسوس وكولك[٩٥] لذا كانت الإدارة تلجأ إلى أخذ سندات مختومة من المتعهدين بقيمة ما سيوردونه شهرياً للأفران من أخشاب الإذابة بالعدد وأخشاب الحريق بالحمل أو القنطار[٩٦]. وتودع هذه السندات فى ديوان المعدن، وترسل نسخ منها إلى متسلم طرسوس ليتابع الوفاء بهذه التعهدات، وتبعث إدارة المعدن بصور من هذه السندات إلى إبراهيم باشا للإحاطة[٩٧].

وينقل القطران على الدواب إلى مينائى قزانلو ومرسية، حيث أنشأت مصلحة

القطران أحواض تخزين فى كل منهما بالقرب من رصيفا الشحن، وجلبت لها الأحجار من القلاع المتهدمة القريبة من الميناءين، كانت هذه الأحواض صغيرة، ولكن مع زيادة الإنتاج أنشأت المصلحة حوضاً فى قزانلو يستوعب مائة ألف أقة(٩٨). وجاءت هذه التوسعات بعد أن اختار مأمور المعدن ثمانية ممن تعلموا صنعة القطران وأنشأ لكل منهم فرناً مستقلاً، وقد بلغ إنتاج هذه الأفران مجتمعة ستين ألف أقة من القطران فى كل شهر(٩٩).

وفى الموانى يتم تعبئة القطران فى براميل خشبية، واستعانت الإدارة المصرية بفنى براميل يونانى يدعى خرالمبو، فعرض تصنيع نوعين من البراميل، يسع النوع الأول ٤٥ أقة من القطران، بينما يسع الآخر مائة أقة، وأوضح أن بوسعه تقديم برميلين هو ومساعده يومياً من النوع الأول أو برميل واحد من النوع الثانى. ويصنع البرميل من الخشب، بوضع شرائح خشبية متراصة، ثم تطوق بطوقين خفيفين من الحديد، وكان القطران ينقل إلى السفن فى البراميل الصغيرة، ثم تُفرّغ فى البراميل الكبيرة، ثم تشحن إلى الإسكندرية(١٠٠). ومما يذكر أن إنتاج هذه البراميل لم يسد الاحتياجات، وأثر ذلك على إنتاج القطران سلبياً، فحينما فحص ناظر المعدن إيرادات القطران ظهر عجز فى الإنتاج، الأمر الذى جعل ناظر المعدن يستوقف خبير القطران ويسأله عن السبب، فاحتج بنقص البراميل، لذا أحضرت الإدارة البراميل اللازمة من مصر(١٠١).

وبلغ ما أنفق على القطران حتى ١٥ رجب ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م أربعين ألف قرش مقابل إنتاج أربعين ألف أقة من القطران وخمس عشرة ألف أقة من الزفت، بإجمالى خمس وخمسين ألف أقة(١٠٢). ثم زاد الإنتاج فى العام التالى، فبلغ القطران المنقول إلى ميناء خلال شهر واحد ٢٣,٦٣٨ أقة، وأصبح المختزن فى الأحواض والبراميل نحو مائة وخمسين ألف أقة قطران وعشرين ألف أقة زفت(١٠٣). وتكدس القطران فى الموانى وتأخر نقله إلى مصر مما أدى إلى ترشيد الإنتاج بعد ذلك، فقل

القطران المنقول إلى الميناء خلال شهرى رمضان وشوال عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م إلى ١٢,٨١٩ أقة[١٠٤].

وكانت مصر تحتاج سنوياً إلى ما يقرب من ١٢٣ ألف أقة من القطران وإلى ١٤. ألف أقة من الزفت وإذا ما قورنت هذه الاحتياجات بحجم الإنتاج السابق الإشارة إليه، نجد أن هناك فائضاً كبيراً فى الإنتاج، مما دعا مدير ديوان عموم البحرية إلى التفكير فى بيع ما تبقى من القطران باسم الحكومة فى الأسواق المحلية، ليتوقف التجار عن استيراده[١٠٥].

ومن ثَمَّ فقد نجح محمد على باشا فى تعدين القطران والزفت فى جبال كولك، وغطى الإنتاج استهلاك مصر، وعرض الفائض فى الأسواق المحلية، ليعوض هذا النجاح بعض المصاريف التى أنفقت على تعدين الرصاص.

خامساً : المعادن الأخرى :

أ-الفضة :

حرصت الإدارة المصرية على التنقيب عن الفضة لتغطية احتياجات مصر منها، فتحرك موظفوها بهمة بالغة، فعندما مر أحمد أفندى أحد معاونى إبراهيم باشا بقرية بيلان وهو فى طريقه إلى عكا، تذكر قول إبراهيم باشا بوجود الفضة فى هذه القرية، فسأل أهلها غير أنهم أنكروا، فطلب دليلاً من شيخ القرية حتى اهتدى إلى المعدن، ثم أرسل منه نموذجاً إلى الكيميائى فى أدنه لتحليله، وآخر إلى مصر بصحبة البريد لتحليله، حتى إذا كان المعدن المذكور مفيداً تم تعدينه[١٠٦].

وعندما وردت عينة معدن كولك، على أمل أن يوجد به نسبة كبيرة من الفضة عرضت العينة على أحمد يوسف معير الضربخانة، الذى درس الكيمياء فى أوربا، لم يجد أثراً للفضة فى العينة[١٠٧]. وقد ضمت الإدارة المصرية معدن فضة يقوم الأهالى بتعدينه فى ميدنة "قيرشهر" بآسيا الصغرى، فعينت محمد أغا متسلماً للمدينة المذكورة

وأميناً لمعدن الفضة، وأبقت الوضع على مـا هـو عليـه، واشـترت المنتـج مـن الأهالى[١٠٨]. وقد يبرر عدم إقدام الإدارة على ضم المعدن بشكل كامل خوفـها مـن ثورة المستفيدين منه، وبخاصة أنه فى الأطراف التى يمكن أن يلجـأ أهلـها للدولـة العثمانية، إضافة إلى اعتدال سعر المعدن.

ب- النحـاس :

كانت مصر تستورد النحاس لسد احتياجاتها، وبخاصة عملية ضرب النقـود، وقد بلغ سعر الأقة من سبائك النحاس الأفرنجى ستة عشر قرشاً[١٠٩]. ولسـد العجـز طلبت الإدارة المصرية من حكمدار بر الشام أن يشترى كل ما يمكـن شـراؤه مـن النحاس الخردة ويرسله إلى مصر على ألا يزيد سعر الأقة عن أثنى عشر قرشاً[١١٠].

ولم ينس محمد على باشا أن يُذكِّر ابنه بالتنقيب عن النحاس وهو يعيد الأمـن إلى ربوع البلاد فى أعقاب ثورة الشام الأولى (١٨٣٤م)، حيث ترامى إلى أسـماعه وجود معدن نحاس بالقرب من مدينة خليل الرحمن، وحينما وصل إبراهيم باشا إلـى المدينة المذكورة سأل عن المعدن فأخبروه أنه فى جبل الكرك[١١١]. لكنـه لـم يعـثر للنحاس على أثر فيه[١١٢]. وقد أسفرت عمليات التنقيب عن وجود النحاس فـى جبـل قوزان بالقرب من كولك[١١٣]، وطلبت الإدارة المصرية من مصر إرسال خبير تعديـن أو اثنين حتى لا يتوقف العمل فى جبل كولك[١١٤] ويبدو أن الإدارة انشغلت بمحاولـة استخلاص الرصاص فى كولك، فلم ترد إشارة إلى تعدين النحاس الموجود فى جبـل قوزان.

ج- الرخام وحجر الصوان :

إبان عملية قطع الأشجار فى منطقة نهر جيحان[١١٥] أبلغ القبودان على أنـه شاهد بعض قطع من الرخام، فطلبت الإدارة إرسال القطع المذكورة إلى إنطاكية[١١٦]. ومن طرسوس أرسل المعاون محمد رشيد إلى إبراهيم باشا يبلغه أنه عثر على الرخام

فى الجبل الكائن شمالى قرية ديكلى[١١٧]، "وقد صنع منه الأسطى مرانى خمس شمعدانات وسلطانية شوربة، ووضعت هذه المصنوعات فى صندوق وقدمت لأعتابكم. وقال بوريانى الكيميائى إن الرخام المتقدم الذكر يصلح لأن يصنع منه بلاط أرضيات الغرف ويغطى حيطانها"[١١٨].

وعثر رجال الإدارة المصرية على أحجار صوان تصلح للطواحين بالقرب من صور، فبعث حنا بحرى مدير حسابات بر الشام إلى حسين أغا متسلم صور، ليتابع عملية فصل الأحجار المطلوبة وتجهيزها وإرسالها على الإبل مع قائمة بالتكلفة[١١٩]. وبمجرد أن علم محمد على باشا بوجود حجر الصوان فى جبل الدروز طلب من مجلس الجهادية إرسال أسطى إلى الجبل المذكور لمعانية الصوان وتعدينه[١٢٠].

ولم يأل رجال الإدارة المصرية جهداً طوال فترة وجودهم فى الشام، ففى ٢٦ ربيع أول ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م عثر رستم أفندى فى الجبل الذى يحضر منه الأخشاب على نوع من الحجر يشبه المعدن، ومختزن بداخله ماء، فأرسل مع خيل البريد إلى مصر ثلاث قطع من الحجر المذكور وقارورة مليئة بالماء المختزن، لتحليلها وتحديد مدى أهميتها[١٢١] . وبعيداً عن قيمة الأحجار المذكورة أو الماء المختزن بها، فإن سلوك رستم أفندى يدل على الحركة الدؤوب لرجال الإدارة المصرية فى التنقيب عن كل ذى قيمة.

د- البريت (البويا السوداء) :

بعد أن اختفى عرق الرصاص فى جبال كولك ظهر معدن آخر أسماه كنسيرك خبير التعدين بريت، وظن أن به نسبة من الذهب، فبعث بخمس أقات إلى بوريانى فى أدنه، أوضح تحليل العينة عدم وجود شئ من الذهب أو النحاس، لكنه نجح فى استخراج البويا السوداء من المعدن المذكور، وصرح رجال الإدارة أن مصر

تستخدم هذا النوع من الأصباغ بكثرة، فأرسل بوريانى عينة من المعدن إلى مصـــــر لإعادة تلحيلها وتعدينه عقب انتهاء فصل الشتاء[١٢٢].

هـ- الإسفنـــج :

أقامت الإدارة المصرية رابطة لمن يغطس على الإسفنج من الشوام، فاشـترت منهم الإسفنج وأعادت بيعه، ودخل الفائض لخزينة الميرى، ولم يستثن من ذلك سـوى الأروام الذين يدخلون تحت الحماية الفرنسية، إذ رفع عنهم رسم المـــيرى[١٢٣] ومـــن ذلك نتبين أن الإدارة المصرية لم تترك شيئاً دون أن تستثمره.

سادساً : العاملون فى مجال التعدين :

أ- الأجانـــب :

أسند محمد على باشا إلى الأجانب المهام التى تحتاج إلى مهارات أو خـــبرات علمية لا تتوفر لدى المصريين والشوام، فاستدعى خبراء فى شئون المعدن وكيميائيين من دول أوربا وبعث بهم للتنقيب عن المعادن فى جميع أنحاء بـــلاد الشـــام، حيـــث أشرف الإنجليزى بارتيل على التعدين فى جبل لبنان وجبل الدروز[١٢٤]، بينما أســـند الإشراف فى جبل كولك إلى خبير التعدين النمساوى كنسيرك والكيميائى بوريانى ثـــم قورنيل بعد ذلك[١٢٥]. أما تعدين القطران فعهدت به الإدارة إلـــى الخبـــير الفرنســـى داسيه، الذى استعان بمعاون أجنبى كان موجوداً بالإسكندرية ويدعى حنـــا بليـــارذى لإلمامه بصناعة القطران[١٢٦]. وكان على المهندس الذى ينقب عن معدن ما ألاَّ يـــهمل أمر البحث عن أية معادن أو خامات تخدم الإدارة المصرية، فالمـــهندس الإنجلـــيزى المختص بالفحم، حينما عثر فى زحلة على طين يصلح لصنع طوب حرارى يســـتخدم فى سبك الزجاج، أثناء دراســـته للطريـــق بيـــن المعـــدن وبـــيروت، أبلـــغ الإدارة المصرية[١٢٧].

واستعان خبراء التعدين بنجارين أجـــانب ذوى مـــهارة خاصـــة؛ فاســـتدعى

بوريانى نجاراً لإنشاء آلة طحن تقوم بمهمة تنعيم خام الرصاص قبل صهره، بدلاً من دق الخام بالشاكوش وذلك توفيراً للوقت والجهد[١٢٨]، ورأى خبير التعدين فى مناجم الفحم إسناد النجارة والحدادة فى المناجم إلى أجانب لتميزهم فى صنعتهم على الرغم من اعتراض مأمور المنجم، بسبب ارتفاع أجورهم[١٢٩].

واستخدام الأجانب لم يكن أمراً عشوائياً، وإنما جاء وفق تخطيط دقيق وتلبية للاحتياجات الضرورية، يتضح ذلك من موقف إبراهيم باشا من تعيين معلم مدرسة المعادن، عندما أرسل سامى بك كبير معاونى محمد على باشا إلى إبراهيم باشا فى صفر ١٢٥٢هـ/ مايو ١٨٣٦م يحيطه علماً بإبطال مدرسة المعادن بموجب تنظيم قانون المدارس الجديد، ويتساءل عن إمكانية استخدام معلم المدرسة المذكور، طلب إبراهيم باشا من سامى بك إيضاح العلم المتخصص فيه المذكور أو الصنعة التى يجيدها[١٣٠].

وقد تكلفت الخزانة المصرية الكثير بسبب استخدام الأجانب، فإلى جانب المرتبات العالية، تحملت مرتبات المترجمين المرافقين لهم، إضافة إلى كتاب أكفاء يمثلون حلقة الوصل بين الخبراء والإدارة المصرية. وقد عمل ذلك على زيادة تكلفة المعدن مما أزعج ناظر حسابات المعدن، فعندما سافر مهندس الفحم عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م إلى مصر أرسل الناظر المذكور إلى إبراهيم باشا يقول "مع أنى أعلم أن الخزينة واحدة، إلا أن أملى ألاَّ يضاف أجر المهندس على مصلحة الفحم فيرفع سعر التكلفة، ويحمل الفحم أعباء كثيرة، فيسود وجهى أمام الإفرنج وولى النعم"[١٣١].

ولم تقبل الإدارة أى تمرد من الخبراء الأجانب، فلمَّا أثار الكيميائى بوريانى بعض المشكلات مع الإدارة المصرية، رفع الأمر إلى محمد على باشا، فاستنكره قائلاً "إن كان المذكور يريد أن يخدم بروح الوفاق فذاك وإلا فإن كان يخالف ويختلف هكذا باستمرار، فيكتب إلى بوغوص بك للبحث عن مُعَدِّن آخر"[١٣٢]. ورأى إبراهيم باشا

أن الذى حمل الكيميائى المذكور على التمرد والكبرياء هو زعمه أنه المعدّن الوحيـــد عزيز الوجود. والحل الأمثل – من جهة نظر إبراهيم باشا – هو إرسال خبير تعديـن أو اثنين إلى المنطقة، وبخاصة أن مناجم النحاس فى المنطقة نفسها كـــانت معطلـة وتحتاج إلى خبير(١٣٣).

واعتنت الإدارة المصرية بالأجانب، فوفرت لهم الخدمات الطبية عن طريـــق أطباء الجيش(١٣٤) كما عملت على تعويض الإعاقة الناتجة عن العمل مع الاستفادة من خبرات وقدرات صاحب الإعاقة، فعندما كسرت ساق المترجم مسينويسو، الذى كـــان بمعية المهندس الإنجليزى بارتيل، صدرت الأوامـــر بتخصيـص مرتـب شــهرى للمذكور، على أن يستخدم على طريق التقاعد فى خدمة تليق به، وكان المذكور ماهراً فى حياكة قلوع السفن، فعين للعمل فى ميناء الإسكندرية برتبة يوزباشـــى، بمرتـب خمسمائة قرش شهرى(١٣٥). ومنحت الإدارة المصريـــة الأجـانب حريـة ممارسـة الطقوس الدينية فى أوقات الراحة، وسمحت لهم بالسفر إلى بلادهم خلال توقف العمل شتاءً، إما لقضاء أجازة أو للتزودد بالمعلومات فى مجال التخصص، ولم يبق منهم إلا من يحتاجه العمل شتاءً(١٣٦).

ب–المصريـــون :

تولت كوادر مصرية إدارة شئون المعدن سواء فى ذلك إدارة الحسابات ممثلة فى ناظر حسابات المعدن(١٣٧)، أو إدارة المناجم ممثلة فـــى رئاســة العمـــال، وكـــذا الأعمال الكتابية، وأسندت المهمتين الأخيرتين إلى أمناء من الجيش يجيدون القـــراءة والكتابة، ليتمكنوا من مراقبة العمال وقيد أسمائهم ومراجعتها فى أوقات متفاوتة مـــن اليوم، لمنع عمليات التسرب أو الهرب من العمل(١٣٨).

وفى مجال العمل التعدينى الفنى تولى وكيل ناظر شورى المـــدارس اختيـــار المتفوقين من تلاميذ مدرسة المعادن والمهندسخانة، ممن أنهوا دراستهم، وأرسل كشفاً

بأسمائهم وأعمارهم ورواتبهم إلى مأمور الديوان الخديوى، الذى تولى تجهيزهم للسفر إلى الشام لمرافقة الخبراء الأجانب فى التنقيب عن المعادن والمشاركة فى عمليات صهرها وتجهيزها وتضمنت القائمة التى أعدت فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٥١هـ/١٩٣٦م عشرة أسماء تراوحت أعمارهم بين ٢٥،١٧ عاماً وحدد لهم المرتب الشهرى بمقدار مائة قرش ما عدا اثنين بلغ راتب الواحد منهما ستين قرشاً، وقد يكون للتخصص دخل فى تحديد المرتب، وتسلم كل منهم قبل سفره طاقمين من الملابس وبطانية وما يخص من آلات هندسية[١٣٩].

وأمر إبراهيم باشا بإلحاق عدد من الشباب بالخواجة داسيه ليتعلموا صنعة القطران، من بينهم محمد أفندى، الذى حددت له الإدارة راتباً قدره ٥.. قرش شهرى. وقبل أن ينتهى عقد داسيه بشهر واحد أرسل إبراهيم باشا إلى والده يقترح الاستغناء عن داسيه، لأن مصلحة القطران لا تتحمل نفقاته وإسناد المهمة إلى الشباب الأربعة الذين تعلموا صنعة القطران[١٤٠]. وشهدت ساحة التعدين فى كولك تفوقاً مصرياً، عندما نجح أحمد أفندى فى استخلاص الرصاص، بعد فشل الخبراء الأجانب فى صهره. توصل أحمد أفندى إلى الأخطاء التى وقع فيها الأجانب وقد تأخر نجاح التجربة، فلم تستطع المصلحة تعويض الخسائر، لكنه نجاح يحسب للعقلية المصرية[١٤١].

وخلال فصل الشتاء يتوقف العمل ويحصل المصريون على أجازات يعودون خلالها إلى مصر، إذا لم تكن حاجة العمل تستلزم وجودهم، وما يلبثوا أن يعودوا مرة أخرى إلى موقع العمل مع نهاية هذا الفصل[١٤٢]. وهكذا اعتمد محمد على باشا على المصريين فى الإدارة ووضع ثقته فى شباب مصر الذى حصل على قدر من التعليم، ليكونوا نواة خبراء التعدين فى المستقبل.

ج- الشـوام :

استبعدت الإدارة المصرية الشوام من المناصب الرئيسية فى التعدين، لخوفها من تذبذب الولاء وعدم الإخلاص لها. كما حاول الشوام التقليل من شأن المعادن والتشكيك فى جدواها لإثناء الإدارة المصرية عن التعدين، وبخاصة فى جبل الدروز، وقد ظهر ذلك جلياً فى موقف الأمير بشير المعارض لتعدين الإدارة المصرية جبل الدروز(١٤٣). ولم يثبت أن أسندت الإدارة إلى أهل البلاد مهام رئيسية فى التعدين اللهم إلا فى تعدين القطران، إذ عهدت الإدارة بثلاثة شباب من طرسوس بمرافقة معلم القطران، لتعليم صنعة استخلاصه، وقد نجحوا فى مهمتهم وأجادوا فيها، فبنى إبراهيم باشا لكل منهم فرناً لاستخراج القطران والزفت(١٤٤).

وإن كانت الإدارة المصرية لم تعتمد على أهل البلاد فى المهام الرئيسية إلا أنها اعتمدت عليهم بصفة أساسية فى الأعمال التى تحتاج إلى مجهود عضلى مثل أعمال الحفر والتنقيب والنقل وقطع الأخشاب وبعض الأعمال الفنية البسيطة، ومنها نجارة الألغام (الأنفاق) التى تتبع المعدن تحت سطح الأرض، وتحتاج عمليات الحفر والتنقيب إلى عدد كبير من العمال، فلجأت الإدارة إلى أهل البلاد المجاورة لمنطقة التعدين، لتوفر على نفسها تكاليف نقل العمال وإقامتهم، وبلغ أجر العامل قرشاً وعشرين بارة للكبير وقرش واحد للصغير يومياً(١٤٥). وإعطاء الأجرة يومياً يبين فلسفة الإدارة فى تفادى دفع الأجرة أيام العطلات.

وقد تسبب انخفاض الأجور فى نفور العمال من مواصلة العمل، فقل عدد عمال مناجم الفحم إلى خمس وستين عاملاً، الأمر الذى ألجأ الإدارة المصرية إلى الاستعانة بالقيادات المحلية بالشام، فحينما انتدب الأمير بشير أسعد حمور وكيلاً من طرفه لجلب العمال زاد عددهم إلى مائة وخمسين عاملاً(١٤٦). وعندما لمس إبراهيم باشا انخفاض أجور العمال، لدى تفقده العمل فى المناجم فى جماد آخر ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، صدر أمراً شفوياً يقضى بوجوب ضم بعض الشئ على يومية

العمال، غير أن الوثائق لم توضح حجم هذه الزيادة، واكتفت بالإشارة إلى تنفيذ الأمر[١٤٧].

ويرجع عدم إقبال العمال الشوام على العمل فى التعدين لانخفاض الأجور من ناحية والحقد على الإدارة المصرية التى احتكرت مناجم كانوا يستخدمونها من قبل لحسابهم، ولو بقدر يسير من ناحية أخرى، وقد جرت محاولات للتغلب على المشكلة، فعرض جعفر أغا مأمور منجم الفحم اقتراح باستخدام مذنبى الجبل فى أعمال المنجم بدون مرتب بدلاً من إرسالهم إلى السجن، وأيد حنا بحرى الاقتراح توفيراً للنفقات. إلا أن إبراهيم باشا رفض لما يترتب على استخدام المذنبين فى أعمال المنجم من آثار سلبية على العمال العاديين، فينظرون إلى العمل فى المناجم على أنه عمل تأديبى، أضف إلى ذلك أن العمل فى المنجم لا يستمر خلال فصل الشتاء، وبالتالى لا يجوز سجن المجرمين خلال فترات من العام دون أخرى[١٤٨].

وأسندت الإدارة المصرية عمليات تمهيد الطرق بين مناطق التعدين والأفران وموانى التصدير إلى عمال من القرى التى تمر بها الطرق، وبإشراف وتوجيه من مهندس المعدن، كما استعانت بأهل البلاد فى نقل المعدن الخام من المنجم إلى الأفران ومنها إلى الموانى، على أن يأتى العامل بدابته، واختلفت أجور النقل حسب طول المسافة وصعوبة الطريق وكمية المنقول. وقد كان هناك حرص على وجود توازن بين تكاليف الإنتاج والنقل وسعر المنتج، حتى يتوفر هامش ربح معقول[١٤٩].

كما تحمل أهل البلاد مسئولية تقطيع الأخشاب اللازمة للمناجم والأفران من الجبال القريبة من المنجم وإحضارها، فاضطرت الإدارة المصرية أن تلقى بعبء تقطيع الأخشاب ونقلها على عاتق رجال الإدارة المحلية، وحددت الكمية المطلوبة من كل منهم ونوعها والمدة المسموح بالتوريد خلالها والمبالغ المستحقة لهم، وضمنت كل ذلك فى عقد مع كل منهم، ليفى بالتزاماته[١٥٠].

الحصـــــاد :

يتضح لنا مما سبق جهود محمد على باشا فى التنقيب عـــن المعـــادن ببـــلاد الشام، لتوفير المواد الأولية اللازمة للنهضة الصناعية، التى أسهمت فى بناء الدولـــــة الحديثة فى مصر. ولتحقيق أفضل النتائج اعتمد والى مصر فى التنقيب على المعـــادن واستخراجها وتجهيزها على تقنيات حديثة واستعانت الإدارة المصرية بأهل الخـــــبرة من أوربا، غير عابئة بما تتكلفه الخزانة من مرتبات لهم ولمترجميهم، كما وفرت لهم سبل الراحة والرعاية الصحية.

وقد تحمست الإدارة المصرية فى التنقيب عن المعادن، فإن ذهب أحد رجالـــها فى مهمة ما، وعثر على نوع من المعدن أو الرخام وكل ما يتصل بهما لا يتوانى فـــى إبلاغ الإدارة، وإرسال عينة منه إلى الجهات المختصة، الأمر الذى أدى إلى اكتشـــاف العديد من المناجم. وألحق محمد على باشا بعض شباب المصريـيـــن مـــن خريجـــى مدرسة المعادن والمهندسخانة بحقل العمل، للاستفادة من الخبرات الأجنبية، وصقـــل الدراسة النظرية بخبرة عملية، ليكونوا كوادر للإدارة المصرية تعتمد عليهم فيما بعـــد وشهدت مناجم كولك تفوقاً للعقلية المصرية، عندما تمكن أحمد أفنـــدى مـــن صـــهر الرصاص وهو ما فشل فيه الأجانب.

وقد عرفت بلاد الشام فى ظل الحكم المصرى عمليات التعدين المنظمة لأول مرة فى تاريخها. واستعانت الإدارة المصرية بالشوام فى بعض الأعمال الفنية مثل النجارة والحدادة، واستخلاص القطران، كما اعتمدت عليهم بشكل كامل فى توفير العمالة اللازمة للحفر والتنقيب وتمهيد الطرق والنقل وقطع الأخشاب غير أن احتكار محمد على للتعدين آثار أحقاد الشوام، وبخاصة فى جبل الدروز؛ فكان أحد دوافع الثورات المتكررة، كما كان لسياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على بصفة عامة فى مجالات التعدين والصناعة والتجارة أثرها فى إثارة أحقاد الدول الأوربية.

المصـــــــــــــادر

١- محافظة أبحاث "الشام" بدار الوثائق القومية "بكورنيش النيل" وبيانها كالتالى:

محفظة ٦٥ أبحاث (١الشام)	رجب وشعبان ١٢٤٧هـ/ ٣١- ١٨٣٢ م
محفظة ٦٦ أبحاث (٢الشام)	رمضان وشوال ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م
محفظة ٦٧ أبحاث (٣الشام)	ذو القعدة وذو الحجة ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م
محفظة ٦٨ أبحاث (٤الشام)	محرم وصفر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م
محفظة ٦٩ أبحاث (٥الشام)	ربيع أول وربيع أخر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م
محفظة ٧٠ أبحاث (٦الشام)	باقى ربيع آخر وجماد أول ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م
محفظة ٧١ أبحاث (٧الشام)	جماد آخر ورجب ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م
محفظة ٧٢ أبحاث (٨الشام)	شعبان ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م
محفظة ٧٣ أبحاث (٩الشام)	من رمضان- ذو الحجة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م
محفظة ٧٤ أبحاث (١٠الشام)	من المحرم- ذوالحجة ١٢٤٩هـ/٣٣-١٨٣٤م
محفظة ٧٥ أبحاث (١١الشام)	من المحرم- ذوالحجة ١٢٥٠هـ/٣٤-١٨٣٥م
محفظة ٧٦ أبحاث (١٢الشام)	من محرم- ذوالحجة ١٢٥١هـ/٣٥-١٨٣٦م
محفظة ٧٧ أبحاث (١٣الشام)	من المحرم- جماد اخر ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م
محفظة ٧٨ أبحاث (١٤الشام)	من المحرم- ذوالحجة ١٢٥٢هـ/٣٦-١٨٣٧م
محفظة ٧٩ أبحاث (١٥الشام)	من المحرم- ذوالحجة ١٢٥٣هـ/٣٧-١٨٣٨م
محفظة ٨٠ أبحاث (١٦الشام)	من المحرم- ذوالحجة ١٢٥٤هـ/٣٨-١٨٣٩م
محفظة ٨١ أبحاث (١٧الشام)	من المحرم- ربيع آخر ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م

محفظة ٨٢ أبحاث (١٨الشام) جماد أول- ذوالحجة١٢٥٥ هـ/٣٩-١٨٤.م

محفظة ٨٣ أبحاث (١٩الشام) من محرم - جماد أول ١٢٥٦هـ/١٨٤.م

محفظة ٨٤ أبحاث(٢. الشام) جماد آخر - ذوالحجة١٢٥٦هـ/٤.-١٨٤١م

٢- الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا ثـم مـن ولـده العزيز إبراهيم، مخطوط محفوظ بدار الكتب القومية جزآن، مصـــور علـى ميكروفيلم تحت رقم حـ١ ١٣٤٦٣ و حـ٢ ٢٨٦,٩ .

الهوامش

١)محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) تلخيص الوثيقة التركية ٥٩، ٧ جماد آخر ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م).
٢) المصدر نفسه، ترجمة التقرير التركى ٣٨، ٢٦ جماد أول ١٢٤٩هـ (١٨٣٣).
٣) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٤) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة رقم ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
٥) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) تلخيص الوثيقة ٥٩، ٧ جماد آخر ١٢٤٩ (١٨٣٣م).
٦) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) مكاتبة رقم ١٧٩، ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩).
٧) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٦١، ٢٤ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٨) الذراع = ٦٤ سنتيمتراً.
٩) القنطار الإنجليزى به ٢١٧ أقة والأقة = ١٢٤٨ جراماً، ومن ثَمَّ فإن القنطار الإنجليزى به ٢٧١ كيلو جراماً. أما القنطار البيروتى فيعادل ٣٣,٥ أقة بما يعادل ٤٢ كيلو جراماً. ويتم التعامل رسمياً بالقنطار الإنجليزى، ويستخدم القنطار البيروتى فى المناجم.
١٠) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة التقرير التركى ٣٨، ٢٦ جماد أول ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)
١١) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٩٨، ١٧ صفر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
١٢) الخريطة ص ١٥ .
١٣) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة التقرير التركى ٣٨، ٢٦ جماد أول ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)
١٤) الخريطة ص ١٥ .
١٥) المصدر نفسه، تلخيص الوثيقة ٥٩، ٧ جماد آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
١٦) القدم = ٣..٤٨ سنتيمتر أى أن ٥.. قدم = ١٥٢,٤. متر.
١٧) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م)، راجع الخريطة ص ١٥ .

١٨) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ١٥٦، ٥ شعبان ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
١٩) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢,٧، ١. ربيع آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤).
٢٠) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤٧/٢٤-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٢١) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) صورة المرفق العربى للوثيقة ١٧٩-٢، ١. رمضان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٢٢) محفظة ٨. أبحاث (١٦ الشام) ترجمة الإفادة ١,٧، ٢٧ ذى الحجة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م).
٢٣) المصدر نفسه.
٢٤) المصدر نفسه، وثيقة ٢٧٧/٢٤-٢، ١١ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٢٥) المصدر نفسه، وثيقة ٢٧٧/٢٣-٣، ١٤ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٢٦) المصدر نفسه، وثيقة رقم ٢٤٧/٢٤-٦،٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٢٧) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) مكاتبة رقم ٢٤٢، شوال ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٢٨) المصدر نفسه، وثيقة ١٧٧/٢٣-٣، ١٤ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)/ ومحفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام)، ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ.
٢٩) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤٧/٢٤-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٣٠) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة ٥٢/٢٣، ٧ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) .
٣١) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٥٢/٢٣، ٧ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٣٢) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) مكاتبة رقم ٢٤٢، شوال ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٣٣) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤٧/٢٤-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٣٤) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م)
٣٥) الكيس ٥.. قرش.
٣٦) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٣٧) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٣٨) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).

٣٩) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ.
٤٠)(١) محفظة ٨٣ أبحاث (١٩ الشام) صورة الوثيقة العربية ١٨٥/٢٦-٢، ٢٦ ربيع آخر ١٢٥٦هـ (١٨٤.م).
٤١) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) مكاتبة رقم ١٦٤، ٦ ربيع أول ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٤٢) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٤٣) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) صورة الوثيقة العربية ٢١/٢٥٢، ١١ ربيع آخر ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٤٤) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦.، ٢٨ محرم ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٤٥) تقع جبال كولك شمالى أدنه، الخريطة ص ١٥ .
٤٦) محفظة ٦٩ أبحاث (٥ الشام) ترجمة الوثيقة ٦٥، ٨ ربيع آخر ١٢٤٨ هـ (أغسطس ١٨٣٢م).
٤٧) تقع بالقرب من مضيق كولك الجبلى، الخريطة ص ١٥ .
٤٨) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٨.، ٥ صفر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
٤٩) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٣٥، ٢٥ جماد أول ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
٥٠) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٩١، ٢٨ جماد آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
٥١) المصدر نفسه، تلخيص الوثيقة التركية ١٧.، ١٨ شعبان ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
٥٢) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) ترجمة الوثيقة ٢٩٣/٢٤، ٢ ذو الحجة ١٢٥٢هـ/(١٨٣٦) ومحفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) صورة الوثيقة العربية ٢٢١-٤ بدون تاريخ.
٥٣) تقع فى جبال لبنان العربية قرب بيروت، الخريطة ص ١٥ .
٥٤) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
٥٥) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٩٨، ١٧ صفر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
٥٦) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) ترجمة الوثيقة ٢٣٧/٢٤، ٩ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٤).
٥٧)(١) يبلغ ارتفاع الفرن ١٢ قدماً إنجليزياً، وأعلاه دائرة ارتفاعها ٤ أقدام وستة أصابع، له فتحة تهوية واحدة ضيقة، وله مجرفتان (المجرفة كير يدخل هواء للفرن ليساعد على الاشتعال) طول الواحدة قدمان وستة أصابع وعرضها قدمان، لكل

منها عامل خاص يتولى استخدامها، المصدر نفسه.

٥٨) المصدر نفسه.

٥٩) المصدر نفسه، وثيقة ٢٤/٢٤٧-٥، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) .

٦٠) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة ٢٤/٢٣٧، ٩ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

٦١) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٩١، ٢٨ جماد آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).

٦٢) المصدر نفسه، ترجمة جزء من الوثيقة ١٩.، ٨ ربيع آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).

٦٣) الدرهم = ٣,١٢ جرام.

٦٤) تقع كرلز غربى مضيق كولك، على مسافة ساعة من المضيق، وتبعد عن أدنه ١٧ ساعة، أما المسافة بين كرلز والمنجم فهى حوالى ٤ ساعات، راجع الخريطة ومحفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/٢٥١، ١٥ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

٦٥) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١١٩، ٨ ربيع أول ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).

٦٦) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة رقم ١٤٣، ١٣ ربيع أول ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).

٦٧) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٤٧١، ٢٥ ذو القعدة ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).

٦٨) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة رقم ٢٣/٧١، ٢١ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

٦٩) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٩٧، ١١ رجب ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).

٧٠) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٢٥، ٢٢ صفر ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م).

٧١) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/٢٥١، ١٥ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

٧٢) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٢٥، ٢٢ صفر ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).

٧٣) استمرت عمليات البناء من غرة ربيع أول ١٢٥.هـ (١٨٣٤م) حتى منتصف شعبان من العام ذاته، المصدر نفسه.

٧٤) الذراع = ٦٤ سنتيمتراً.

٧٥) المصدر نفسه.

٧٦) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤/٢٣٨، ٩ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦).
٧٧) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٥٥، ٢ جماد أول ١٢٥٢هـ (١٨٣٦).
٧٨) كانت حسابات معدن أدنه ترسل مباشرة إلى خزانة الخديوى باعتبار أنها خارجة عن حسابات إيالة الشام حتى نهاية ١٢٥١هـ/مارس ١٨٣٦م، ثم انتقلت لحسابات عموم الشام بداية من عام ١٢٥٢هـ/ نهاية مارس ١٨٣٦م، محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) وثيقة ٢٥/٩٩، ١٢ ربيع آخر ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
٧٩) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/٢٥١، ١٥ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٨٠) حفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة ١٤، ٨ محرم ١٢٣٣هـ (١٨٣٧م).
٨١) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/٢٣٨، ٩ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٨٢) من هذه النسبة يتضح أن التحليل الذى أجراه الكيميائى بوريانى لم يكن صحيحاً.
٨٣) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٢٤-٢، ٣ شعبان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٨٤) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة ٢٤/٢٨-٧، ٩ جماد آخر ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٨٥) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ١٥١-٢، ١٧ شعبان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٨٦) المصدر نفسه، ترجمة الإفادة ٢٦٥، ١٣ ذو الحجة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٨٧) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ١٥١-٢، ١٧ شعبان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٨٨) محفظة ٦٦ أبحاث (٢ الشام) صورة الوثيقة العربية ١٢، ٦ رمضان ١٢٤٧هـ (فبراير ١٨٣٢م).
٨٩) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٣,٦/٢٣-٢، ٦ شعبان ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٩٠) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية رقم ١,٣، ١٢ صفر ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م).
٩١) البلطجية هم حملة البُلط ويعملون فى تقطيع الأخشاب، وكان ضمن جيش إبراهيم باشا أورطة بلطجية.

٩٢) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٣,٦/٢٣-٢، ٦ شعبان ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٩٣) يعادل حمل الخشب ١٥ أقة، ويحمل الحصان ثلاثة أحمال فى المرة الواحدة، وهى نتاج عمل واحد من البلطة جيه فى اليوم، أما القنطار فيعادل ١١٢ أقة، محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) وثيقة ٢٢/١٧٤، ٢١ شعبان ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
٩٤) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة رقم ٢٣/٩٥، ٢٥ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٩٥) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٢٩-٨، ١٧ شوال ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
٩٦) الأخشاب التى تورد لمصلحة القطران نوعان، النوع الأول أخشاب لاستخلاص القطران، وهى تقطع قطع صغيرة تسمح بحملها ووضعها فى الفرن، والنوع الثانى أخشاب إذابة، وهى أعواد طويلة ورفيعة من الخشب تستخدم فى تقليب القطران عند إذابته فى الفرن. محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة ٢٣/٩٥، ٢٥ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
٩٧) المصدر نفسه.
٩٨) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٧١/٢٥-٢، ١١ رمضان ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
٩٩) المصدر نفسه، مكاتبة رقم ١٢٤، ٢٧ جماد أول ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٠٠) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام وثيقة رقم ١٧٤/ ٢٢، ٢. شعبان ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
١٠١) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٣,٦/٢٣-٢، ٦ شعبان ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٠٢) المصدر نفسه.
١٠٣) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٧١م٢٥-٢، ١١ رمضان ١٢٥٣هـ (١٨٣٧).
١٠٤) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الإفادة رقم ٢٦٥، ١٣ ذو الحجة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
١٠٥) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٣١٣، ٥ ذو القعدة ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٠٦) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٧٨، ٣ ذو الحجة ١٢٤٩هـ (إبريل ١٨٣٤م).
١٠٧) محفظة ٦٩ أبحاث (٥ الشام) ترجمة الوثيقة ٦٥، ٨ ربيع آخر ١٢٤٨هـ (أغسطس ١٨٣٢هـ).

١٠٨) محفظة ٧٣ أبحاث (٩ الشام) تلخيص الوثيقة التركية ٤١، ٧ شوال ١٢٤٨هـ (١٨٣٣م).
١٠٩) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة المكاتبة رقم ٢..، ١٧ شوال ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
١١٠) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) مرفق رقم ٢ للمكاتبة ١٥٧، ١٩ شعبان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م)
١١١) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٩٧، ٣ ربيع آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م)
١١٢) المصدر نفسه، ترجمة الوثيقة التركية ٢٧٦، ٨ جماد أول ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
١١٣) الخريطة ص ١٥ .
١١٤) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١١٧، ١٨ صفر ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
١١٥) بالقرب من أدنه الخريطة ص ١٥ .
١١٦) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة جزء من الوثيقة ٢٨٨، ٨ ذو الحجة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
١١٧) تقع ديكلى على بعد ساعتين شمال شرقى طرسوس، الخريطة ص ١٥ .
١١٨)(١) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٣٣٧، ٢٧ رمضان ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
١١٩) محفظة ٦٦ أبحاث (٢ الشام) صورة الوثيقة العربية ٥٦، ٢٢ رمضان ١٢٤٧هـ (فبراير ١٨٣٢م).
١٢٠) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا، جـ٢ أمر منه إلى مطوش باشا، ٢٣ رمضان ١٢٥٢هـ/ (١٨٣٦م).
١٢١) محفظة ٨. أبحاث (١٦ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٥٥، ٢٦ ربيع أول ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م).
١٢٢) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٩١، ٢٨ جماد آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).
١٢٣) محفظة ٦٨ أبحاث (٤ الشام) صورة الوثيقة العربية ١١٩، ١٧ محرم ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م).
١٢٤) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م).
١٢٥) محفظة ٧٤ أبحاث (١. الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٩١، ٢٨ جماد آخر ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤/٢٣٨، ٩ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

١٢٦) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١,٣، ١٢ صفر ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
١٢٧) محفظة ٧٥ أبحاث (١١ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٦٥، ١٣ جماد آخر ١٢٥.هـ (١٨٣٤م)
١٢٨) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ١٥١-٢، ١٧ شعبان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
١٢٩) تراوح مرتب الحداد الشامى بين ٣.. و ٤.. قرش حسب الخبرة، ولمساعده ١٥. قرشا، ومرتب النجار الشامى ١٥. قرشاً، فى حين بلغ مرتب الحداد الإنجليزى ٧٥. قرشاً، والنجار الأسبانى ٥.. قرش، محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة رقم ٢٣/٥٢، ٧ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٣٠) المصدر نفسه، وثيقة رقم ٢٣/٨١، ٢١ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٣١) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٢٥/٢٣٧-٢، ١٨ شعبان ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٣٢) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة الوثيقة التركية ٨٣، ١٩ رجب ١٢٥١هـ (١٨٣٥م).
١٣٣) المصدر نفسه.
١٣٤) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/٢٢٧-٤، ١٣ رجب ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٣٥) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) وثيقة ٢٥/٥٦، ٥ ربيع آخر ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٣٦) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الإفادة ٢٦٥، ١٣ ذو الحجة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
١٣٧) من أمثلة هؤلاء أحمد أفندى ناظر حسابات معدن الفحم الذى جاء إلى الشام بخبرة إدارة سبع سنوات فى مصر وعدة سنوات فى الحجاز والسودان، وعين بمرتب شهرى قدره ٧٥. قرشاً، محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) وثيقة ٢٥/٩٨-٢، ٢٥ ربيع أول ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٣٨) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة ٢٤/١٤٧-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٣٩) محفظة ٧٦ أبحاث (١٢ الشام) ترجمة القرار الخاص بتلامذة المعادن المقرر سفرهم إلى الشام، ٢٦ ذو الحجة ١٢٥١هـ (مارس ١٨٣٦م) وكذلك الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر، جـ٢ إفادة بناء على أمر مأمور المهمات البحرية، ١٨ جماد أول ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).

١٤٠) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة ١٤، ٨ محرم ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٤١) راجع التفاصيل فى تعدين الرصاص.
١٤٢) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام) ترجمة الإفادة ٢٦٥، ١٣ ذو الحجة ١٢٥٥هـ (فبراير ١٨٤.هـ).
١٤٣) التفاصيل فى تعدين الفحم والحديد بجبل الدروز.
١٤٤) محفظة ٧٩ أبحاث (١٥ الشام) ترجمة الوثيقة ١٤، ٨ محرم ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).
١٤٥) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيقة ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٤٦) محفظة ٨٢ أبحاث (١٨ الشام مكاتبة رقم ١٧٩، ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).
١٤٧) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤٧/٢٤-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٤٨) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) ترجمة الوثيق ٣٢، ٢. محرم ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٤٩) محفظة ٧٨ أبحاث (١٤ الشام) وثيقة رقم ٢٤٧/٢٤-٦، ٢٩ جماد آخر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).
١٥٠) محفظة ٧٧ أبحاث (١٣ الشام) وثيقة ٩٥/٢٣، ٢٥ صفر ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م).



بوغوص بك يوسفيان
فيلسوف محمد على ومستشاره
١٧٦٨-١٨٤٤

د. يحيى محمد محمود

بوغوص بك يوسفيان هو أحد الأرمن الذين عملوا فى خدمة محمد على باشا، وساعدوه على بناء الدولة الحديثة ، وإذا كان محمد على يمثل عبقرية التخطيط فقد مثل بوغوص بك عبقرية التنفيذ ، من هنا ترجع أهمية دراسة الدور الذى لعبه فى بناء الدولة الحديثة ، وعلى الرغم من عدم توافر الدراسات عنه ربما بسبب إهمال الجبرتى له ، والذى لم يذكره سوى مرة واحدة فى الجزء الرابع من كتابه الكبير " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار "[١]، فكيف يمكن تبرير تجاهل الجبرتى له ؟ ربما يرجع ذلك إلى إقامة بوغوص الدائمة فى الإسكندرية التى لم يكن بها من الوقائع التى يقوم الجبرتى بتسجيلها .

كذلك فإن بقاء بغوص فى الظل يجئ تنفيذاً لإرادة الباشا ، فكان محمد على هو الظاهر دائماً ، وكان كل رجاله فى الكواليس ، وما سجله الجبرتى هو ظاهر الأمور، ولابد من الرجوع لوثائق عصر محمد على لدراسة ذلك الدور الذى لعبه بوغوص بك .

نشأة بوغوص بك :

اختلفت المصادر فى تحديد تاريخ ميلاد بوغوص بك ، فذكر بعضها أنه ولد سنة ١٧٦٩م[٢] فى إزمير، وذكرت بعض المصادر الأرمنية أنه ولد فى سنة ١٧٦٨م فى ذات المدينة [٣]، ونحن نرجح المصادر الأرمينية القديمة ، فربما توفرت لها من المعلومات ما لم تتوافر لدينا . لذلك سنستخدم ذلك التاريخ الأخير كتاريخ لميلاده ، ومن المرجح أن الذين اتخذوا من سنة ١٧٦٩ م تاريخاً لميلاده رغبوا فى أن تكون تلك السنة التى ولد فيها محمد على وقد توفى والد بوغوص فى سنة ١٧٩٠م، وتولى رعايته خاله أركيل الذى كان يعمل مترجماً فى القنصلية البريطانية فى أزمير ، ومن ثم كانت تربيته وتعليمه فى منزل خاله ، حيث تعلم على يد معلمين

خصوصيين، فلم يذهب للمدارس التركية ، وربما كان ذلك لكونه مسيحياً[٤]، لذلك لم يذهب لمدارس المسلمين، وربما لرغبة أسرته فى تنشئته على أسس معينة ، وإعداده ليكون ملماً باللغة الأرمينية ، وتعليمه علوماً معينة تهتم بها الأسرة ، مثل اللغات الأجنبية ، لهذا نجده يتعلم العربية ، والتركية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، واليونانية، وكان من الطبيعى أن تكون الترجمة هى مهنته الأصلية ،وتشير بعض المصادر الأرمينية إلى ممارسته التجارة الخارجية التى تتطلب معرفة باللغات الأجنبية.

وقد وصل بوغوص إلى مصر لأول مرة سنة ١٧٩١ حيث عمل بالتجارة مما أتاح له فرصة التعرف على أحوال البلاد والخبرة بمسالكها ،ثم استأجر جمرك رشيد [٥] ، وعاد إلى أزمير مرة أخرى سنة ١٧٩٨ ، لكى يعمل مترجماً بالقنصلية البريطانية بها ، والتى كانت تلعب دوراً كبيراً فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر ، وفى سنة ١٨٠٠م عاد ثانية إلى الاسكندرية عندما استعان به سيدنى سميث كمترجم خاص له [٦].

وترجع استعانة سيدنى سميث ببوغوص كمترجم له لإجادته للغات التى سبقت الإشارة إليها ، وإلى معرفته بالبلاد التى سبق له أن تجول بها كتاجر ، ومستأجر لأحد جماركها، ومن هنا نرى دور التجار الأجانب فى مساعدة سيدنى سميث على طرد الحملة الفرنسية من مصر ، وبعد انتهاء عمل سيدنى سميث انتقل بوغوص سنة ١٨٠٢ لخدمة خسرو باشا حيث عمل مترجماً له ، ثم انتقل للعمل كمترجم أيضاً لخورشيد باشا ، ولا يعرف الدور الذى لعبه بوغوص كمترجم لخورشيد باشا أثناء ثورة الزعامات الشعبية وجماهير القاهرة على خورشيد باشا سنة ١٨٠٥، ولكنه كان ملماً بحكم عمله بكافة الأحداث التى وقعت وانتهت بتولية محمد على باشا حكم مصر ، ولينتقل بوغوص للعمل مع محمد على فى وظيفة ترجمان . ولكنه بحكم خبرته التجارية انتقل لمدينة الإسكندرية ليقيم بها وليستأجر من محمد على جمرك الإسكندرية

مقابل ٢٥٠٠ كيسة لمدة خمسة سنين [٧]، بشرط أن يسدد المبلغ كاملاً لو حدث عجز بالإيرادات ، وأن يتقاسم الطرفان الربح إذا زاد عن ذلك . وهكـذا تقاسـم الطرفـان العمل كشريكين فى الفترة من ١٨١٤ –١٨١٩ ، وتوضح تلك العلاقة مدى حـرص محمد على باشا على تحقيق حد أدنى من الإيرادات ، ومدى ثقة بوغـوص الخبـير بإدارة شئون الجمارك فى مدى ما يمكنه تحصيله من جمارك من جمرك الإسكندرية .

هذا وقد رخص محمد على لبوغوص بتحصيل عائد مقداره قرش واحد علـى كل أردب من الحبوب التى يبيعها للتجار الأجانب كعائد محادثة سنة ١٨١٣م[٨].

موقف محمد علـى مـن المسـيحيين :

تميز عصر محمد على بالسماحة الدينية ، وهو ما لم يعرفه المسـيحيون فـى باقى أجزاء الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، ويمكن دراسة رؤية محمد على لـهؤلاء فى ضوء علاقته بباغوص بك وسائر المسيحيين فى ذلك الوقت ، فقد كان محمد على يرى أن الشريعة الإسلامية تقضى لهم بكافة الحقوق ، وفى مقدمتها حق العبادة وبنـاء الكنائس ، يتضح ذلك من الأمر الذى أصدره محمد على باشا فى ١٩ ذى الحجة سـنة ١٢٤٩ هـ / ٣٠ إبريل ١٨٣٣ م ، إلى مديـر قبلـى وبحـرى بـالتصريح لأحـد المسيحيين ببناء كنيسة ، والذى جاء به " أن أحكام الشرع تقضى بالتصريح للمذكـور ، مع عدم معارضته كسائر الملل العيسوية ، بناء عليه تصرح لبنـاء كنيسـة وهـذا للمعلومية[٩] "، وهكذا فإن تصريح محمد على ببناء هذه الكنيسة جاء مـبرراً بتوافـق ذلك مع الشريعة الإسلامية بل أنه قد أمر بإعادة بناء منزل أحد المسيحيين فى كريـت حين تهدم منزله نتيجة لقذف مدفعية محمد على فى قلعة ريتمو [١٠]، كما مـنح كافـة المسيحيين حق الدخول إلى البلاد والخروج منها دون أى ممانعة فـى ١٨٢٩م [١١] ، وهكذا كانت رؤية محمد على لوضع المسيحيين فى دولته .

وقد استخدم محمد على العديد من المسيحيين إلى جوار بوغوص فى الكثير من

الأعمال مثل المعلم غالى الذى عهد إليه بإعادة مساحة الأقاليم القبلية [١٢] فى ٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ/ ١ نوفمبر ١٨٢١م ولكنه لم يتردد فى إصدار أوامره لإبراهيم باشا فى ٥ شعبان من نفس العام ٢٨ إبريل ١٨٢١م بفصل رأسه لأن له آراء تعوق عمل الحكومة [١٣] ، وقد برر محمد على هذا القتل بأن المعلم غالى هو "الذى قتل نفسه حين ساء سلوكه بضرر أمور الإدارة بتعنده لآرائه وعدم طاعته" ، ولم يشفع له أنه هو الذى أسس حسابات أطيان قبلى وبحرى ، واقترح على إبراهيم تعيين أخيه المعلم بشاره محله ، أو الاستعانة بأحد الفرنسيين [١٤]،وقد سبب هذا الإعدام حالة من الرعب لكبار موظفى الحكومة [١٥].

ولم يقتصر الأمر على المعلم غالى بل إن بوغوص نفسه كاد أن يفقد حياته حين كان محمد على يتفقد دمياط سنة ١٨١٠م ووجد بها كثير من الاضطرابات فى الحسابات فأمر بإعدام بوغوص ، ولكن القواص الذى عهد إليه بقتل بوغوص وإلقائه فى النيل تقاعس عن تنفيذ تلك المهمة ، وقام بإيوائه فى أحد المنازل ، وعندما وصل محمد على لرشيد وجد أنها أكثر سوءاً من دمياط ، ووجد كثيراً من المشكلات التى تعوق الإدارة مما جعله يندم على إعدام بوغوص ويصيح لو أن بوغوص حى لوجد لى حلاً لتلك المشكلة ، هنا يرتمى القواص على قدمى الباشا ويقبلها ويعلن له أنه لم يقتل بوغوص ويرسل محمد على فى طلب بوغوص ويعيده إلى ما كان عليه ، وتلك الرواية التى قصها علينا نوبار باشا فى مذكراته [١٦] ، وإن كانت فى شكل درامى إلا أن فحواها أن محمد على كاد أن يقتل بوغوص لتقصيره يوماً ثم أعاده إلى ما كان عليه ، لذلك نرى الكثير من الأرمن بعد ذلك يحاولون الدخول فى الحمايات الأجنبية لحماية أرواحهم من طغيان ولاة مصر ، مثل يوسف حكيكيان الذى خاف على نفسه عقب هروب أرتين باشا من بطش عباس ، وحاول الدخول فى حماية إنجلترا لحماية روحه من بطش الوالى [١٧].

ومن تلك الوقائع نرى أن محمد على استخدم المسيحيين بشكل عام ، والأرمن

بشكل خاص بتسامح دينى كامل ، وسمح لهم ببناء الكنائس حين يريدون ولكن لم يكن ذلك إلا لسماح الشريعة الإسلامية به ، وبشكل عام فقد عاملهم معاملة رعاياه الذيـــن يمكن أن يبطش بأى منهم فى أى وقت إذا ارتكبوا أى خطأ فى رأيه ، ويصل العقـاب إلى درجة الإعدام فى الأمور الإدارية البسيطة ، حتى أن البعض قد اعتبر أن عبقرية بوغوص تكمن فى أنه ظل طيلة كل هذه السنوات يتمتع برضى طاغية ، وأنه كــان يعرف أنه كان من الممكن أن يفقد حياته فى أى لحظة ، لهذا كان لا يتوجه لمقابلـــة الباشا إلا بعد أن يتلو صلواته الأخيرة (١٨).

علاقة محمد علـــى ببوغـوص بيـن الشـدة واللـين .

من خلال متابعة علاقة محمد على ببوغوص بك يتضح لنا أسلوبه فى معاملــة كبار موظفيه بين الشدة واللين ، فهو يشكر بوغوص فى رسالته على اجتـــهاده فــى تحصيل حقوق الحكومة لدى التجار الأجانب (١٩)، ولكنه فى مناسبة أخرى يطلب منــه إرسال كاتبه لمجلس الشورى لعمل الميزانية ، وأنه إذا لم يصل فسيجلد ٥٠٠ جلـــدة (٢٠)، وهكذا يلوح لموظفه بالجلد إذا ما تأخر ويؤنب محمد على بوغوص لعدم إرساله كاتبه إلى الديوان فى مناسبة أخرى (٢١).

ولم يتوقف الأمر عند حد التأنيب بل أن محمد على هدد بوغوص فى أكثر من مرة بأنه إذا خالف أوامره فسيصيبه السوء من نفسه (٢٢) ، وليس من محمد على باشـا ، حتى لا يتأخر فى عرض الردود على الأوامر الصادرة إليه (٢٣).

حياة بوغـــوص الخاصـــة :

لا يوجد وصف لحياة بوغوص فى بيته إلا من خلال وصف نوبار باشا فـــى مذكراته فقد وصف لنا نوبار بيت بوغوص فى الإسكندرية بأنه كان بيتـــاً ضخمـــاً ، وكان يحيط به القواصة من كل مكان ، وهذا البيت كان مملوءاً بالسكرتارية والكتبـــة الذين يرتدون ملابس عسكرية يحملون سيوفاً ، أما ما يرتديه بوغوص فكان معطفـــاً

أسود بحزام أحمر من الحرير الدمشقى ، وكان دقيق الملامح يبدو عليه الإجهاد دائماً (٣١).

وقد بالغ كثيراً فى وصف مدى بساطة بوغوص ، وكيف أنه مات فقيراً بعد أن كان يدير كل هذه المؤسسات ، فيصف لنا نوبار تركة بوغوص بأنها ١٤٩ قطعة من الذهب فئة خمسة قروش ، بالإضافة إلى جوهرة ١٨ قيراطاً أعطاها له محمد على وجدها نوبار باشا بعد أن هدده محمد على بقطع رقبته بتهمة سرقة بوغوص(٣٢) ، وقد حرصت كافة المصادر الأرمينية على التأكيد على مدى نزاهة بوغوص بك ، ومع التسليم بتلك النزاهة إلا أنه يلاحظ أن بوغوص بك قد أنفق الكثير من ثروته على الجالية الأرمينية فى الإسكندرية والقاهرة ، واستقدم الكثيرين منهم على نفقته الخاصة.

ومع ذلك ترك بوغوص تسعة عقارات أحدها فى ميدان كرموز ، والآخر به ٤٠ وكالة أى مبان ليست بالقليلة ، ونظراً لأن بوغوص لم يكن له أولاد فقط أوصى بترك ثروته لأخيه ولمريان يوسف التى كانت تعيش فى أزمير ومثلهما فى تسلم التركة يوسف سركيس (٣٣)، أى أنه كان هناك ميراث ليس بالقليل لبوغوص ، والواضح أنه لم يلجأ للتلاعب بمالية البلاد ، وكان أميناً بشكل كافٍ ، ولكنه لم يكن فقيراً ، كما يحلو للكثيرين المبالغة فى تصوير تقشفه .

مكانة بوغوص عند محمد على :

تتضح مكانة بوغوص بك من نص الأمر الصادر له من محمد على باشا فى ٦ صفر سنة ١٢٥١ هـ / ٤ إبريل ١٨٣٥م والذى جاء به " خطاباً إلى افتخار أمراء الملة المسيحية ونخبة كبراء الطائفة العيسوية، مدير التجارة المصرية والأمور الأفرنجية، بوغوص بك ، بإحالة أمور المبيعات المصرية بخارج الحكومة لعهدته وبالإحسان عليه برتبة الميرلوا مكافأة له على تمشيته المواد المحالة لعهدته بمحوذ

الاستقامة باذلاً جهده ودرايته فى خدمته ويؤكد عليه برؤية ذلك حسب التعريفة التى أعطيت له وبصرف المصاريف الضرورية لبعض المواد المستعجلة بلا استئذان وتقديم كشف بما يصرف أسبوعياً وبأنه يؤمل منه رؤيته على ما يحال عليه ومنه وإبراز المآثر والصداقة بحسن الخدمة وبتقديم دفاتر الحسابات أولاً بأول إلى الخزينة ولذا لزم إصداره إليه للعمل بموجبه والتحاش من مخاطبته" (٣٤).

من تلك المخاطبة نستطيع أن نرى ما وصلت إليه مكانة بوغوص بك ، فهو، افتخار المسيحيين وكبيرهم ، وهو ما يعكس رؤية محمد على لهم على أنهم طائفة وليسوا مواطنين عاديين وهو ما يتوافق مع نظام الملل العثمانى ، وهو ما يرجع إلى طبيعة ذلك العصر ، ولكنه فى ذات الوقت يشير إلى ما وصل إليه هؤلاء من مكانة فى مصر ، فيمكن أن يكون منهم أمراء ويمكن منحهم الأوسمة ، مكافأة لهم على حسن إدارة الأمور المحالة إليهم ، وكان محمد على قد منح بوغوص بك البكوية سنة ١٨١٨م (٣٥).

وفى نفس الأمر نجد أن محمد على يمنح بوغوص الحق فى صرف كافة المصاريف الضرورية بدون استئذان ، وهو حق لم يمنحه محمد على لأولاده ، حيث طلب من بوغوص ومن الديوان أكثر من مرة قيد حساباتهم ، وألا يتجاوزوا الأموال المخصصة لهم (٣٦) ، كما خصم مبالغ كان سعيد باشا قد استدانها من صراف بالأستانة من حساب سعيد باشا (٣٧).

بوغوص والأرمن فى الإدارة المصرية :

أتاحت مكانة بوغوص بك لدى محمد على إرسال أعداد كبيرة من الأرمن ضمن كافة البعثات التى أرسلها محمد على باشا لأوروبا ، فقد أرسل خمسة مبعوثين ضمن بعثة سنة ١٨٢٦م ، تخصص منهم يوسف حكيكيان فى الهندسة ، وثلاثة فى الإدارة ، فى حين تخصص الرابع وهو يوسف أفندى فى الزراعة ، وفى بعثة الأنجال

سنة ١٨٤٤ أرسل ستة من الأرمن ضمن البعثة [٢٤] ، وهو ما أوجد نوعاً من الاندماج بين الأرمن وبين هؤلاء المبعوثين ، وكما أتاح نظام التوظف التلقائى للمبعوثين بعد عودتهم فرصة أمام الأرمن لتقلد الوظائف العليا فى الدولة، فظل هؤلاء الأرمن على قمة الجهاز الإدارى للدولة طوال القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين .

وقد مكن هؤلاء الأرمن للجالية الأرمينيه من تولى الوظائف التى يمكن الحصول عليها فى كافة المجالات ، فأصبحت معظم الوظائف التى تتصل بشئون التجارة والخارجية اللذان ضمهما ديوان التجارة والأمور الأفرنجية حكراً على هؤلاء الأرمن حتى لقب بالديوان الأرمنى [٢٥]، ويرجع ذلك إلى اشتغال هؤلاء بالترجمة ومعرفتهم الكاملة باللغة التركية إلى جانب العديد من اللغات الأوربية ، فكان من الطبيعى أن يحتكروا هذه الوظائف ، حتى أن وظيفة ترجمان الباشا ظلت حكراً على الأرمن .

وكانت وزارة الخارجية ميراثاً عن بوغوص للأرمن فى مصر ، فقد خلفه فى إدارة ديوان التجارة والأمور الأفرنجية أرتين بك تشراكيان ، وبعد عزله عين اسطفان ديمرجيان وعندما تولى سعيد حكم مصر عين اسطفان ديمرجيان مديراً للخارجية ، ثم خلفه نوباريان سنة ١٨٦٦م، وحين تم تشكيل أول مجلس للنظار سنة ١٨٧٨م برئاسة نوبار احتفظ لنفسه بمنصب ناظر الخارجية فى حين تولى ديكران بك زوج ابنته منصب وكيل النظارة ،وقد أصبح نوبار باشا ناظراً للخارجية أربع مرات حتى ١٨٩٤م ، وهكذا فقد شكل الأرمن ٦٤% من نظار الخارجية فى القرن التاسع عشر ، أى ظلت نظارة الخارجية حكراً عليهم فى معظم الأوقات كميراث عن بوغوص بك [٢٦].

وقد استخدم محمد على الكثير من أسرة بوغوص فى بعض المراكز المهمة،

مثل أبرو خال بوغوص بك الذى استخدمه فى تأسيس البوستة ٢٠ صفر سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١م [٢٧]، كما أرسل نوباريان مكرويج إلى فرنسا كممثل له فى العاصمة الفرنسية ١٨٣٨ [٢٨].

ولقد سار خلفاء محمد على على نفس الدرب ، واتبعوا سياسته نحو الأرمن من أسرة بوغوص بعد وفاته ، فقد أعطى أركل شقيقه بعض الأصناف من ديوان التجارة حسب طلبه سنة ١٨٤٩ [٢٩]، كما منح نوبار الباش ترجمان مبلغ ٥٠٠ ألف قرش للانتهاء من بناء منزل كان قد شرع فى بنائه سنة ١٨٥١ [٣٠]، وهكذا كانت تتم مساعدة أسرة بوغوص سواء لممارسة التجارة أو حتى لبناء المنازل الكبيرة.

الأدوار التى لعبها بوغوص بك :

تعددت المهام التى ألقيت على عاتق بوغوص بك الترجمان إلى جوار عمله فى الترجمة وهو العمل الذى ظل يمارسه حتى بعد أن انتقل إلى الإسكندرية ، وبعد أن أصبح مديراً لديوان التجارة والأمور الأفرنجية ، فكان محمد على يقوم بإرسال المراسلات المهمة إليه بالإسكندرية ليترجمها ويعيدها إليه [٣٨] ، كما كان يراجع ترجمات بعض الكتب التى كان محمد على يطلب ترجمتها مثل كتاب روضة العمران ، بل طلب منه محمد على أن يبت فى أمر طبعه [٣٩]، وإلى جوار الترجمة مارس عدة مهام فى مقدمتها نظارة الخارجية .

إدارة الشئون الخارجية :

لعب بوغوص بك دور وزير الخارجية فى ذلك الوقت بحكم عمله كمدير لديوان التجارة والأمور الأفرنجية ، ويلاحظ أن محمد على لم يحدد مهاماً معينة لهذا الديوان بل ترك الأمر لبوغوص بك ليحدد مهام ديوانه ، فعلى حين تحفل وثائق عصر محمد على من خلال دفتر مهام الدواوين بمهام كل ديوان من دواوين محمد على ، نجد أن ديوان التجارة والأمور الأفرنجية لم يرد ذكره بذلك الدفتر على

الإطلاق [٤٠]، بل ترك إدارة شئونه كما هو جارى بمعرفة بوغوص بك .

وقد مارس بوغوص بك مهام وزير الخارجية ، فكان المكاتبات المرسلة من استانبول تصل إليه فى الإسكندرية وهو الذى يرفعها إلى محمد على [٤١]، وكذلك كافة مكاتبات محمد على التى كان يرفعها للسلطان كانت ترسل عن طريق بوغوص، كما كان محمد على يشاور بوغوص فى كافة الأمور المتعلقة بالخارجية ، أيضاً فإن كافة المراسلات مع السفراء الأجانب تتم عن طريق بوغوص بناء على أمر محمد على سنة ١٨٣٥م [٤٢] ، وكان محمد على لا يلتقى بأى قنصل إلا بعد وصول بوغوص [٤٣].

كما تولى بوغوص بك إدارة المفاوضات نيابة عن محمد على فى المسائل المتعلقة بالأمور الخارجية ، فقد فاوض الإنجليز بشأن إنشاء طريق السويس ، وطلب منه محمد على أن يبدى رأيه الخاص [٤٤]، كما كلفه بجس نبض الإنجليز ومحاولة معرفة أفكارهم ونقلها إليه ليتمكن من التصرف فيما يمكن عمله [٤٥].

كذلك أدار بوغوص بك الأزمات السياسية التى واجهت محمد على ، فحين واجه محمد على الإنجليز بسبب حرية التجارة ، عندما سلم كامبل صورة من الفرمان العالى بعدم التدخل مبيناً أن كامبل بصدد الكتابة للشام بالمعاهدة البريطانية التركية ، وطلب منه أن يفكر تفكيراً فيما يجب عمله ثم يبدى له أفكاره وملحوظاته[٤٦]، ثم عادة مرة ثانية يطلب منه الحضور لطرفه بعد أن تضايق من ضغط كامبل للعمل بالمعاهدة ، وحين ترجم بوغوص مذكرة ميمو قنصل فرنسا بشأن تنفيذ المعاهدة وأرسلها إلى محمد على ، طلب محمد على من بوغوص التصرف بناء على أن عقد معاهدة مع فرنسا يجب أن يكون مع الحكومة العثمانية وليس مع مصر ، والاستعداد لما يمكن أن تسفر عنه تلك المعاهدة [٤٧].

هذا وقد مثل بوغوص بك محمد على باشا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠م فى

التوقيع على أهم المعاهدات التى عقدها محمد على مع الدول الكبرى ، ومن أهمها اتفاقية الإسكندرية سنة ١٨٤٠م[٤٨] ، وبموجب تلك الاتفاقية حصل محمد على على حكم مصر وراثة له ولأولاده من بعده ، وبدأت الخطوات الأولى لفصل مصر عن السيادة العثمانية ، وقد قام بوغوص بجهود كبيرة بعد ذلك الفصل للتصدى لمحاولة بريطانيا تهديد استقلال مصر ، فعلى سبيل المثال حينما رفضت السفن البريطانية الامتثال لقوانين الحجر الصحى فى ميناء الإسكندرية سنة ١٨٤٣م تصدى لها بوغوص وألزمها بإتباع قوانين الحجر الصحى [٤٩].

كما قام بوغوص بك باستيراد الخامات اللازمة لإنشاء مسجد محمد على بالقلعة ، حيث طلب منه محمد على استيراد الرخام اللازم لإنشاء المسجد وفقاً للمواصفات المحددة [٥٠] ، كما طلب منه أيضاً شراء ١٥٠٠ قنطار من الرصاص اللازم لإنشاء نفس المسجد [٥١]، وهو ما بين اندماج المسيحيين مع المسلمين فى تصريف كافة أمور الدولة دون تمييز بينهم على أساس الدين ، بل أننا نجد بوغوص بك يحقق مع الشيخ إبراهيم أحد موظفى ديوان أوقاف الإسكندرية بشأن مبالغ قام بصرفها [٥٢]، ويرفع نتيجة التحقيقات ، كذلك نجد بوغوص يضع رسماً جمركياً قدره ٥% على بضائع المسلمين لترغيبهم فى أشغال التجارة الدولية وفقاً لأوامر محمد على فى ٢٢ رجب سنة ١٢٥٨ هـ / ٣٠ أغسطس ١٨٤٢م [٥٣].

<u>المهام الاقتصادية :</u>

كان بوغوص بك على رأس الإدارة التجارية بمصر ، وتولى بنفسه القيام بعدة مهام أهمها متابعة أسعار المنتجات المصرية بالخارج وذلك عن طريق كبار التجار ، وكانت أسعار القطن هى أهم الأسعار التى يتابعها بوغوص بنفسه [٥٤]، كما تولى تحديد أسعار بيع الحاصلات [٥٥] ، وإبلاغ التجار بتلك الأسعار [٥٦] ، وحينما كانت تنخفض أسعار بعض الحاصلات كان بوغوص يتولى تحديد الوسائل اللازم إتباعها

لتلافى الأضرار ، فحين انخفضت أسعار البن المستورد فى السوق الداخلى سنة ١٨٣٧ [٥٧]، تولى بوغوص تخفيض أسعار بن الحكومة للترويج للمخزون منه[٥٨] ، كما كان يقوم بإخطار التجار بمقادير المحاصيل المتوقع جمعها قبل وصولها للشون حتى يستطيعوا التقدم بعروضهم للشراء [٥٩].

هذا فضلاً عن متابعته لأسعار المنتجات بعد تحديدها ، فإن كانت هناك فرصة لزيادة الأسعار بالمزايدة حتى بعد الاتفاق فإنه يقوم بإبلاغ التجار بتلك الزيادة[٦٠].

وقد أشرف بوغوص أيضاً على تسليم الحاصلات المباعة للتجار الأجانب ، ومحاسبتهم على أثمان ما اشتروه [٦١]، كذلك تولى البحث عن مشتريات للسفن الأجنبية الموجودة بالإسكندرية بناء على تعليمات محمد على [٦٢] ، وقام بحفظ أثمان مبيعات الحكومة لديه بالإسكندرية ، واستخدام هذه العائدات للقيام بمشتروات محمد على وفقاً لتعليماته [٦٣].

أيضاً تولى بوغوص الإشراف على إعداد الكشوف الخاصة بمقدار الحاصلات التى ترد لشونة الإسكندرية كل ١٥ يوماً [٦٤]، ومقدار ما على الحكومة من ديون للتجار [٦٥]، وكان يتم إعداد تلك الكشوف بمعرفة موظفيه ، ويراجعها بوغوص وتختم بختمه وترسل لديوان المعاونة [٦٦] . كما تولى متابعة حسابات الوكلاء الموجودين فى أوربا [٦٧].

وبعد التوسع المصرى فى الشام انتقل لبوغوص الإشراف على الشئون التجارية وعلاقات التجار فى تلك البلاد ، حيث كان محمد على لا يبرم أمراً إلا بعد أخذ رأى بوغوص ليقوم بإبلاغ وجهة نظره لشريف باشا حكمدار الشام [٦٨] . كما قام بوغوص باستخدام علاقاته بالقناصل الأجانب لحل بعض المشكلات التى واجهت التجارة ، فحين رفض القنصل الإنجليزى بطرسوس والتجار الذين فى حمايته تأدية الرسوم الجمركية على صادراتهم ووارداتهم[٦٩]،طلب محمد على من بوغوص التدخل

لدى القنصل البريطانى – كامبل – لإقناعهم بتأدية الرسوم (٧٠) ، كما طلب منه أن يبدى رأيه بشأن المعاملة التجارية بين التجار الأوربيين والأهالى فى صيدا(٧١)، وحين حدث نزاع بين الأهالى والتجار الأوربيين فى عكا أحاله محمد على لبوغوص وطلب منه أن يرد عليه سريعاً بما يجب عمله (٧٢).

ويلاحظ على ممارسة بوغوص لكل تلك المهام أنها كانت جميعاً تخضع لإشراف الباشا، وأن بوغوص رغم ما تمتع به من صلاحيات إلا أنه كان لا يبرم أمراً دون إخبار الباشا الذى كان يوافق على جُلِّ مقترحاته ، ولكنه كان يرفض بعضهما فحين اتفق بوغوص مع اثنين من التجار الإنجليز على تصدير قطن قيمته ٢ مليون ريال على أن تتحمل الدولة التأمين على القطن رفض محمد على ذلك الشرط (٧٣) ، كما كان يرد بعض المشتريات (٧٤).

<u>بوغوص بك مستشار للشئون الزراعية :</u>

قام بوغوص بكثير من المهام الزراعية إلى جوار مهامه السابق الإشارة إليها، فقط طلب محمد على أن يستعلم من المعلمين بزراعة تقاوى الصبغة الزرقاء عن كيفية زراعتها ، واستحضارها على ذمة الحكومة سنة ١٨٢٣م (٧٥)، كما طلب منه الاستعلام من أهل الخبرة كما إذا كانت هناك طريقة أو دواء لمنع الحشرات من الأرز دون إفساده (٧٦) ، كما طلب منه أيضاً استجلاب أشجار البلوط وتقاويه من أولاد زنانيرى لوفرته فى أزمير مسقط رأسه (٧٧) ، كما طلب منه جلب قناطير من صوف جمال الأناضول لتجربتها فإن نجحت يتم استجلاب تلك الجمال لمصر (٧٨)، وهكذا ينقل بوغوص بأوامر محمد على ما يجده صالحاً فى تركيا لمصر.

<u>بوغوص والشئون العسكرية :</u>

تعددت المهام التى كُلف بها بوغوص بك فى الجانب العسكرى على الرغم من

أنه لم يكن يخضع لإشرافه ، فعلى سبيل المثال طلب منه محمد على ترشيح فرديـــن وإرسالهما لأوربا ليحلا محل آخرين ثبت ضعف بصرهما فى فرنســا [٧٩] ، وحيــن وجد أن السفن الروسية تفوقت على سفينتين مصريتين وأسرتهما طلب منه التحقيــق فى نوع السفينة الروسية وإخباره نتيجة التحقيق [٨٠] ، وعندما استوردت مصر قنـابل غير صالحة، طلب منه محمد على عمل معاينة لتلك القنابل بمعرفة أحد المهندسـين ، وأن يخبره نتيجة ذلك [٨١] ، وحين أراد محمد على تنويــع مصــادر السـلاح سـنة ١٨٣٤م واستقدم مدافع من بلجيكا طلب من مطوش باشا تجربتها، وإرسال تقرير إليه نتيجة تلك التجربة ، ولكنه كتب فى نفس الوقت لبوغوص أن يخبر مطوش باشا عمـا يلزم عمله فى هذا الأمر [٨٢] ، أى أن قائد البحرية المصرية سيعمل وفقـــاً لنصــائح بوغوص بك مدير ديوان التجارة لأنه سبق له القيام بتلك المهام مرات عديدة .

وقد شارك بوغوص بالرأى فى إعداد الجيش والأسـطول ، إذ اقـترح علــى محمد على تعيين سفن حربية لمرافقة السفن التى تنقل الذخـــائر إلــى الشـام سـنة ١٨٢٦م، ووافق محمد على رأيه [٨٣] ، وحين قطع الثوار اليونانيين البحر على السفن المصرية القادمة من إنجلترا والتى تحمل مدفعية ، ونقلوها إلى قبرص ، طلب محمـد على من بوغوص النظر فى الوسائل المستحسنة التى يمكن بها جلب هـذه المدفعيـة سواء كان ذلك بإرسال سفن لإحضارها أو الكتابة إلى أحد هناك لإحضارها[٨٥].

كذلك طلب محمد على من بوغوص بك إرسال الحنطة اللازمة إلى قائد الجنود المصريين بقبرص من شون الإسكندرية ســـنة ١٨٢٦م [٨٦]، وهنـا نـرى أن دور بوغوص هو الإدلاء بالرأى والتنفيذ معاً فيما يختص بالمسائل العسكرية .

بوغوص بــك المستشـــار :

ظهر بوغوص بك كمستشار أمين لمحمد على من خلال مجموعة من النصائح التى عمل بها محمد على فى كافة المجالات ، فقد نصح بوغوص بكبس القطن قبــل

تصديره ، حتى يسهل شحنه وتنخفض مصاريفه ، وعمل محمد على بتلك النصيحة[٨٧] ، وكان محمد على لا يصدر محصولاً إلا بعد مشورة بوغوص ، مثال ذلك ما حدث قبل تصدير الشعير إلى غرناطة سنة ١٨٢٧م [٨٨] ، بل إن محمد على كان يطلب من بوغوص أن يبت فى بعض الأمور مثل منع استيراد الأجانب البن من الخارج سنة ١٨٣٥م [٨٩] ، وأن يبت فى مسألة الحجر الصحى فى مدينة الإسكندرية بالاشتراك مع القناصل [٩٠] ، والبت فى مسألة بيع الأرز الموجود فى الإسكندرية سواء ببيعه بالمزاد أو بالأجل [٩١].

كذلك طلب محمد على من بوغوص إبداء الرأى فى مواعيد إعادة الطلاب الدارسين من أوربا [٩٢]، وفى تشجيع المصريين على ممارسة التجارة الخارجية[٩٣]، وكذلك رأيه فى توحيد الأوزان سنة ١٨٣٤م [٩٤].

ولم يقتصر عمل بوغوص على الاستشارة فقط ، بل منفذاً لتعليمات الباشا فى مجالات شتى ، حيث عهد إليه بضرورة إعادة المسحبين من الزراعة سنة ١٨٤٣م[٩٥] ، وقد كان محمد على يهتم بالعمل لأقصى درجة حتى أنه أصدر أوامره لبوغوص بتشغيل العمال الموجودين بالحجر الصحى فى تصنيع القلوع حتى لا يضيع الوقت أثناء وجودهم به [٩٦].

ومن المهام التى كلف بها الباشا بوغوص نقل الغلال من رشيد قبل فيضان سنة ١٨٢٢م [٩٧]، وتنظيم بعض أمور الترسانة سنة ١٨٣٤م[٩٨]، كذلك طلب منه السماح للرعايا الأجانب ببناء سفن نيلية فى النيل على أن ترفع عليها أعلام مصرية، ويسددوا الرسوم المحددة سنة ١٨٤١م[٩٩]، كما عهد إليه بالقيام بتنفيذ بعض المنشآت الخاصة بالتجارة مثل إنشاء مخازن بالاتفاق مع ناظر الشون سنة ١٨٢٧م[١٠٠] والمساعدة فى بناء سفينة تجارية برشيد سنة ١٨٤٠م [١٠١].

وفاة بوغـــوص :

ساءت حالة بوغوص الصحية فى أواخر أيامه ، خصوصاً بعد أن حــــدد لـــه عباس باشا – كتخدا محمد على – راتباً لأول مرة [١٠٢] ،ويصف لنــــا نوبـــار أيـــام بوغوص الأخيرة ، وكيف أنه امتنع عن العلاج حتى أرسل له محمــد علـــى طبيبــه الخاص ، فامتثل للعلاج ، ولكن خدمه اكتشفوا عقب وفاته أنه لم يكن يتناول الطعـــام، ربما رغبة منه فى مفارقة الحياة وهو ما حدث فى ذى الحجة ١٢٥٩هـــــ/ الموافــق ١١ يناير سنة ١٨٤٤م. بعد أن ارتدى ملابسه وخرج للديوان لأنه أراد أن يموت فـــى مكان عمله حيث وافته المنية [١٠٣].

وعندما علم محمد على بوفاة بوغوص أمر أرتين بك الذى عينه خلفاً له بـــأن يخصص المرتبات الكافية لأتباعه وخدمه ، وأن تتحمل الحكومـــــة رواتبـــهم لحيـــن وصول أخيه [١٠٤] . وحين وصله أن بوغوص دفن فى جنازة عادية أمر باســـتخراج جثته وإعادة دفنه فى جنازة عسكرية، ولما كان من العسير ذلك ، فقد خرجت جنـــازة رسمية عسكرية من منزل بوغوص بك بنعش خالٍ حتى مقبرته يصفها لنا نوبار فـــى مذكراته ، حيث يسير ما يقرب من عشرة آلاف جندى مسلم فى جنازة رجل مســيحى فى إحدى الولايات العثمانية ، ذلك المشهد الذى خطف لب نوبار باشا ودفعه للحيــــاة فى تلك الولاية ، حيث لم يكن للمسيحيين أى قدر فى الحقوق فى باقى الولايات[١٠٥].

الخـــاتــمـــــة

يعتبر بوغوص بك شخصاً فريداً فى تاريخ مصر الحديث ، وهذا يرجع إلـــى ضخامة الدور الذى لعبه فى خدمة محمد على ، وتمثيله عبقرية التنفيـــذ ، وتوضـــح دراسة دوره فى بناء الدولة الحديثة جوانب عديدة من تاريخ مصر الحديث.

فمن تتبع ما وصل إليه من مكانة ، وما قام به من أعمال يتضح له أن عبقريـة محمد على لم تكن فى التخطيط فقط بل وفى اختيار مساعديه من أمثال بوغـــوص ، وفى متابعتهم فى أداء أعمالهم ، حتى أن الرجل الذى ظل على قمة الجـــهاز الإدارى والمالى ما يقرب من ٤٠ سنة، مات دون أن يثرى ثراءً فاحشاً بل مات مثله مثل باقى الموظفين شخصاً عادياً ، ليس شديد الفقر ، ولكنه لم يثر على حساب الدولة .

وتوضح الدراسة أيضاً اندماج عنصرى الأمة من مسيحيين ومسلمين كموظفين فى خدمة الباشا دون تفرقة بينهما إذ يمكن لموظف مسيحى أن يستورد ما يلزم لبنـــاء مسجد ، دون أى اعتراض كما يمكن لحاكم مسلم داخل الدولة العثمانيــــة أن يقــرب مسيحياً وأن يحظى لديه بكل تلك المكانة ، وأن يصرح ببناء الكنائس دون أدنى خجل

كما توضح الدراسة دور بوغوص بك كيف أنه يمكن لأحد كبار موظفى محمد على أن يمد نشاطه إلى جميع المجالات ، فيعمل فى مجال الزراعـــة ، والصناعـــة ، والجيش ، إلى جوار عمله فى الشئون الخارجية والمالية ما كانت مؤهلاته تسمح لـــه بذلك .

كذلك يظهر أهمية التجارة فى بناء دولة محمد على باشا ، فقد عادت التجـــارة على الباشا بالأرباح الوفيرة والتى مكنته من بناء الدولة الحديثة كما أن التجــــار قــد لعبوا دوراً كبيراً فى بناء الدولة .

أيضاً نستنتج أسلوب محمد على فى اتخاذ القرارات ، فقد درج على مشـــاورة المختصين وأن الكثير من القرارات التى اتخذها بعد مشورة بوغوص ، الـــذى كـــان يستقى الكثير من آرائه من التجار الأجانب ، والوكلاء التجاريين الموجودين بالخارج.

الـــهوامـــش

١- عبدالرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى الـــتراجم والأخبـــار ، جــــ ٤ ، ص ٢٩٢، طبعة بولاق ١٢٩٧هـــ / ١٨٨٠م .

٢- آريف ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٨.

٣- أرشاج البويجبان ، الأرمن فى الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحـــدة ص ٢١ المطبعة كوستاتسوماس ، القاهرة ، د . ت .

٤- المرجع السابق ، ص ٢٢ .

٥- أراداش كاوتسيان ، تاريخ الأرمن فى مصر ، صـــ ٧٥ ، إيطاليا ١٩٨٦.

٦- محمد رفعت الإمام ، الأرمن فى مصر ، القرن التاسع عشر ، صـــــ ٢٦٥ ،دار نوبار للطباعة ، القاهرة ، د.ت.

٧- أراداش كاوتسيان ، نفس المرجع، ص ٧٧.

٨- من الجناب العالى إلى الترجمان بوغوص ، محفظة ٥ ذوات تركـــــى ، وثيقـــة ١١٧ ، دار الوثائق القومية .

٩- أمر من محمد على باشا لمدير قبلى وبحرى فى ١٩ ذى الحجة ١٢٤٩ هـــــ / ٣٠ إبريل ١٨٣٣م .

١٠- أمر لمحافظ كريد فى ٢٧ صفر ١٢٤٩ هــ/ ١٧ يوليه ١٨٣٣م.

١١- أمر من محمد على للمعية فى ٢٤ جماد آخر سنة ١٢٤٥ هــ / ١٨٢٩م.

١٢- أمر لمتصرف جرجا ٥ ربيع أول ١٢٣٥ هـــ / ٢٣ ديسمبر ١٨١٩م بتعييـــن المعلم غالى لمساحة الأقاليم القبلية.

١٣- أمر من محمد على باشا لإبراهيم باشا بفصل رأس المعلم غالى فى ٥ شـــعبان سنة ١٢٣٧ هــ / ٢٨ ابريل ١٨٢١م.

١٤- إفادة من محمد على باشا لإبراهيم باشا فى ١٥ شعبان ١٢٣٥ هــ/ ٢٩ ابريـلى ١٨١٩م.

١٥- إفادة من محمد على باشا لإبراهيم باشا فى ١٥ شعبان سنة ١٢٣٧هـ/ ١٢ مايو ١٨٢١م.

١٦- Mémoires du Nubar pacha, librairie du liban Beyrouth 1983,p.6.

١٧- د. أحمد عبدالرحيم مصطفى ، عصر حكيكيان ، ص٧٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠.

١٨- نفس المرجع ، ص ٩٤.

١٩- مكاتبة محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٦ صفر سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م ، دفتر ٦ معية تركى ، دنيقة ٧٧.

٢٠- رسالة محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٦ صفر سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٢م، ديوان التجارة .

٢١- رسالة محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٩ صفر سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م، ديوان التجارة.

٢٢- رسالة محمد على باشا لبوغوص بك ، ٨ صفر ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م ، ديوان التجارة .

٢٣- رسالة محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٥ ذى القعدة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م ، وديوان التجارة.

٢٤- محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص ١٢٣.

٢٥- نفسه ص ١٣٧.

٢٦- نفسه ص ١٦٨.

٢٧- الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر محمد على باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم ص ٢٤ ، أمر من محمد على باشا إلى حاكم البحرة ، ٢ صفر، ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م.

مخطوط غير منشور دار الكتب والوثائق القومية ، رقم ٢٤٨٤ تيمور.

٢٨- أمر فى ١٥ رجب سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م ، ديوان التجارة والمبيعات ، دار الوثائق القومية.

٢٩- أمر فى ٢٨ ذى الحجة ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م، ديوان التجارة والمبيعات ، دار الوثائق القومية.

٣٠- أمر فى ٧ جماد ثانى ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م ، ديوان التجارة والمبيعات ،دار الوثائق القومية.

٣١- - Mémoires de Nubar, p.5.

٣٢- - Ibid.

٣٣- أراداشس كاوتسيان ، تاريخ الأرض فى مصر ، جـ٢ ، ص ٢٠.

٣٤- بيورلدى فى ٦ صفر ١٢٥١هـ ، منشور فى مخطوطة، الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر ، محمد على باشا ، ثم من ولده العزيز إبراهيم ، ص ٤٩٦.

٣٥- أمر من محمد على باشا لبوغوص الترجمان الذى صار أخيرا بوغوص بك ، ٣ شعبان ١٢٣٤هـ / ١٨١٨ م المصدر السابق.

٣٦- أمر من محمد على باشا لديوان التجارة والمبيعات فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٤م ديوان التجارة والأمور الأفرنجية، دار الوثائق القومية.

٣٧- أمر من محمد على باشا لديوان التجارة والمبيعات فى ٤ ذى الحجة ١٢٥٨هـ / ١٨٤١م.

٣٨- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢ رمضان سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م، ديوان التجارة والمبيعات ، وثيقة رقم ١٨٢٢٨.

٣٩- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٥ شعبان ١٢٥١هـ / ١٨٣٥ ، ديوان التجارة والمبيعات ، دار الوثائق القومية.

٤٠- دفتر ترتيب الوظايف ، ويضم كافة الدواوين ووظائفها باستثناء ديوان التجارة والأمور الأفرنجية ، دار الوثائق القومية.

٤١- رسالة محمد على لبوغوص بك ، ١٤ محرم سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م ديوان التجارة والمبيعات .

٤٢- أمر من محمد على لبوغوص بك ، ٩ ربيع سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م ، ديوان التجارة والمبيعات.

٤٣- رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥م، ديوان التجارة والمبيعات.

٤٤- رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ٩ ربيع أول سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٤٥- رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ٢٥ صفر سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٤٦-رسالة من محمد على لبوغوص بك ، غرة شوال سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.

٤٧-رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ٢٥ ذى القعدة ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٥م.

٤٨- محمد رفعت الإمام ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٥.

٤٩- رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ١٥ محرم سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٥٠- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٥١- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٢ ربيع آخر سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م.

٥٢- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ،٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م.

٥٣- أمر من بوغوص بك بتقدير رسوم جمركى ٥% على بضائع المسلمين ، ١٢ رجب سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٥٤- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك بشأن أسعار القطن ، ١٦ رمضان سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م، وثيقة رقم ١٨٣٤٣ - رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، بشأن أسعار القطن فى مرسيليا ، ٤ شوال سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤ ، وثيقة رقم ١٨٣٦٥- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، بشأن أسعار القطن ، ١١ رمضان سنة ١٢٤٠هـ ، ١٨٢٤م ، وثيقة ١٨٣٤٣.

٥٥- من ناظر مجلس الملكية إلى عونى أفندى ، دفتر ٧٥٤ تركى ، ص ٢ وثيقة ٢٦،١٧٢ رمضان ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩.

٥٦- بلاغ من بوغوص للتجار بشأن أسعار السكر ، ٣ شوال ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م، ديوان التجارة والمبيعات.

٥٧- أمر من محمد على لبوغوص بك ، ١٠ ذى الحجة ١٢٥٣/ ١٨٣٧م ديوان التجارة والمبيعات.

٥٨- أمر من محمد على لبوغوص بك ٢٢ ربيع ثانى ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ،ديوان التجارة والمبيعات.

٥٩-من ناظر مجلس الملكية إلى السنيور بوغوص، دفتر ٧٥٤ تركى ، ص ٥، وثيقة ٢٨١ ، ١٢ ربيع أول.

٦٠- من ناظر مجلس الملكية إلى الخواجة بوغوص ، دفتر ٧٥٤ تركى ، ص ٥٤، وثيقة ٢٩٧ ، ١٦ ربيع ثانى ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م.

٦١- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٩ رمضان سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤، وثيقة رقم ١٨٣٥٠ ، انظر أيضاً : الوثائق أرقام ١٨٣٥١ ، ١٨٢٥٣، بتسليم حاصلات لتجارة أجانب من الجناب العالى لخواجة بوغوص دفتر ٧٤٧ خديوى تركى ، ص ١ ، وثيقة ٢ ، ٢ محرم ١٢٢٤هـ ، ١٨٢٩م.

٦٢- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك بتحميل سفينة نمساوية فولا ، ذى الحجة ١٢٣٤هـ / ١٨١٨ ، وثيقة ١٨٠٢٨.

٦٣- أمر من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٨ جماد آخر ، ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤م.

٦٤- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٧ جماد أول ، سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م.

٦٥- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢ جماد ثانى سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.

٦٦- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٩ صفرسنة ١٢٥٤هـ / ١٨٢٩م.

٦٧- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ،٣ جماد الثانى ١٣٩هـ ، ١٨٢٣م.
٦٨- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٨ شعبان ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م.
٦٩- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٤ صفرسنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٩م.
٧٠- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٤ صفر سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م.
٧١- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢١ جماد آخر سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.
٧٢- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣١م.
٧٣- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢ رمضان سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م.
٧٤- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، صفر سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م.
٧٥- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٣٠ رجب سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م.
٧٦- ٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٤٣م.
٧٧- رسالة من محمد على لبوغوص بك ، ٩ جماد آخر سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م، وثيقة رقم ١٨٤٣٧.
٧٨- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٣رمضان ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م.
٧٩- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٨ شعبان سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م.
٨٠- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٧ رمضان.
٨١- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٥ شعبان ١٢٤٢هـ / ١٨٢٨م.
٨٢- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، غرة ذى القعدة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٣م.

٨٣- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١١ رجب سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م.

٨٤- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٢ شعبان سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م.

٨٥- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٣ شعبان سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م.

٨٦- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٥صفر سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م.

٨٧- من المعية إلى ناظر الأصناف ، دفتر ١٥ معية تركى ص ١٢ ، وثيقة١٣١.

٨٨- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢١ شوال سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م.

٨٩- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٨ شعبان سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.

٩٠- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٨ صفر سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م.

٩١- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٨صفر سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٤م.

٩٢- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٥ ذى القعدة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.

٩٣- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١١ ذى الحجة ١٢٥٢هـ ١٨٣٨م.

٩٤- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٩ شوال سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٤م.

٩٥- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م.

٩٦- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٥ رجب سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م.

٩٧- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٩ رمضان سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م.

٩٨- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٧ ربيع أول سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م.

٩٩- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ١٥شعبان سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م.

١٠٠- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٥ ربيع أول ١٢٣٢هـ/ ١٨٢٧م.

١٠١- رسالة من محمد على باشا لبوغوص بك ، ٢٤جماد آخر سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م.

١٠٢- محمد رفعت الإمام ، نفس المرجع ، صـ

١٠٣- -Mémoires de Nubar.

١٠٤- -Mémoires de Nubar.

المحور الخامس

الثقافة



الذاتية المصرية والأدب العربى فى عهد محمد على الكبير

فلاديمير سافريونوف

جامعة موسكو

إنّ قضية الذاتية المصرية فى عصر محمد على الكبير متعلقة بتمييز طبيعة الأدب العربى فى مصر وتصنيف الثقافة المصرية فى إطار النصف الأول من القرن التاسع عشر. فيما وصف بأنها ثقافة العهد الانتقالى، مما يثير التساؤل حول طبيعة تلك الثقافة، وما إذا كانت استمرار لما قبل ذلك العهد أم تغيراً له سماته الخاصة.

وشهد القرن التاسع عشر إعادة البناء للمنظومة الأدبية والفكرية التقليدية، كما شهد تكوين الثقافة الجديدة والحديثة. وما خلقته هذه الفترة من أدباء بارزين ولامعين لهم من المكانة والأهمية ما كان لشعراء العرب في القرون الوسطى ربما كان لآثارهم أهمية بالغة من وجهة نظر النقد الأدبى ونظرية الثقافة العالمية.

ويمثل الأدب العربى الحديث مجموعةً من آداب الأقطار العربية، كما تولد الأدب الوطنى في مصر وسوريا وتونس في حدود القرن التاسع عشر. وجرت حركة علمية ثقافية فى البلاد تحت رعاية الحكومة المصرية، وكانت تهدف إلى تشكيل الدولة المستقلة القوية عسكرياً واقتصادياً فى وادى النيل تحت حكم محمد على الكبير ورعايته ، بغرض إمداد المصريين بقدر وافٍ من المعرفة لحضارة أوربّا الحديثة. فتم إجراء الحوار الوطني الواسع بين الأدب الشرقى والأدب الغربى.

أما احتلال جيش إبراهيم باشا بيروت – فى أوائل الأربعينات – فقد فتح طريقاً للحرية والتقدم الاجتماعى، وازدهار الفنون الجديدة، وتحويل بيروت إلى المركز الثقافي الثاني في نطاق النهضة العربية الحديثة. وفى الوقت الذي شهدت فيه مصر موجة الإصلاحات الاقتصادية والإدارية والعسكرية، ولم يرد محمد على الكبير تحويل بلاده إلى دولة ذات طابع أوربى على صعيد الأخلاق والعادات والدين.

هذا وقد بدأ حاكم مصر إصلاحاته قبل بدء تطبيق حركة التنظيمات فى الآستانة، ولكنه لم يقبل الكثير من التغيرات السطحية الظاهرة في الحياة اليومية ، المتأثرة بالأخلاق الغربية الناقصة.

ويمكن القول انه ضمن الحوار الأدبي والثقافي بين الشرق والغرب فى إطار عهد محمد على الكبير نشاهد انتباه المصريين إلى ما جلبته فضائل الحضارة الأوربية العلمية والتكنيكية، كما نلاحظ نواياهم لتجديد واقعهم المعاصر، ونستمع إلى دعوتهم إلى المحافظة على القيم التقليدية الأصيلة. ونتيجة لهذا الحوار تولد الأدب العربى الحديث، والذى كان متأثراً بالتقاليد الكلاسيكية.

وقد تزامنت المرحلة الأولى في تأريخ الأدب العربى الحديث مع عصر محمد على الكبير وأُقْتُرِحَ في هذه المرحلة من تطور مصر بناءُ الثقافة الجديدة، وإعداد جيل جديد من الخبراء، وإبراز الشخصية المصرية القادرة على مواجهة المستقبل.

وفى سبيل ذلك تم تأكيد الذاتية الثقافية الإسلامية العربية للشخصية المصرية. وتتمثل هذه المرحلة بحركة التنوير في الحياة الأدبية والفكرية.

وجدير بالذكر في هذا الصدد إصدار أول جريدة (الوقائع المصرية) وإقامة المدارس التعليمية الجديدة مثل "مدرسة المهندس خانة" و "مدرسة الطب" و "مدرسة الألسن" ، وأصبحت الأخيرة مركزاً لترجمة الكتب العلمية والأدبية من اللغات الغربية إلى اللغة العربية ، كما تم إرسال بعثات الطلاب إلى فرنسا.

ومن المعروف أن رفاعة بك الطهطاوى كان رائدا من رواد الأدب العربي الحديث وقد ألف فى عام ١٨٣٤ كتابه المهم "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" وطرح فيه كل ما تجمع فى ذهنه المتوثب حول تطور فرنسا الاجتماعى، وسبل تحقيق النهضة بأرض الإسلام. وأكد فيه فكرةً جديدة مفادُها عدم وجود تعارض بين الإسلام والمعرفة الحديثة التى كانت وراء تقدم الفرنسيين وأطلق الدعوة للاستفادة

من خبرة أوربا العلمية والحضارية.

فوصف المؤلف الجزيرة العربية بوطن الأديان والأنبياء. أما مصر فهى تلعب دور العقل لأرض الإسلام. وتعتبر مصر مصدر العلم والمعرفة للمسلمين. وبذلك حدد الشيخ الطهطاوى لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى الحديث وظيفة مصر عند المسلمين وأبرز خصوصيتها فى أرض الإسلام.

واقتدى رفاعة رافع بالنماذج التقليدية فى أدب الرحلات عند العرب. وضمّ "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" وصف سَفَر المؤلف إلى العاصمة الفرنسية، وموقع المدينة ومناخها، والعلاقة بين المواطنين والسلطة، وأخلاق أهل المدينة وعاداتهم، والدين والعبادات، والعلوم الحكمية والفنون المختلفة، وأخيراً عودته إلى مصر. وبرغم احترام الطهطاوى لجامعة الأزهر "الوضاحة بشموس أنواع العلوم" أصبح مولعاً بالسلوك والآداب الفرنسية. وقد لقيت كتب الفلاسفة الفرنسيين لعصر التنوير فى القرن الثامن عشر قبولاً حسناً فى قلب رفاعة رافع الطهطاوى، ولكنه لم يطلع على النماذج الرومنتيكية مثل فيكتور هوجو أو لامرتين.

ولا نكاد نجد أثراً للأدب الرومنتيكى الأوربى على الكتاب والشعراء العرب إلا فى بداية القرن العشرين، حينما بلغ الأدب العربى الحديث فى تطوره الذاتى المرحلة الرومنتيكية نفسها.

واهتم الطهطاوى بوصف شوارع المدينة، والمسرحيات، وأخلاق أهل باريز وسلوكهم وملابسهم بمختلف طرزها، فوقف النقاد على الكثير من العناصر الواقعية فى كتابه.

وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نُشير إلى تحوُل الوعْى الفنى أو حدوث تغّيرٍ جوهرى لسبل الإبداع عند الشيخ الطهطاوى، لأنه يوجد فى كتابه الكثير من عناصر الأدب التقليدي وخاصةً أدْب الرحلات القديم ومنها وصف العجائب. وقد تضمّنت

الرحلات القديمة حكايات السحر والغرائب والقصص العجيبة، لأن القارئ في القرون الوسطى لم يضع حداً بين السحر والواقع، وصاغ من امتزاج السحر والواقع صورة الكون الوحيدة غير المنفصلة.

أن عنوان كتاب الطهطاوي (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) يشابه عناوين الكتب العربية القديمة. وتلعب أوصاف المظاهر التكنيكية الحديثة وعادات أهل العاصمة الفرنسية الدور ذاته الذي لعبته أوصاف العجائب فى مؤلفات أدباء العرب فى القرون الوسطى.

وفي هذا الصدد نشير إلى كتاب "تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا" لمؤلفه الشيخ محمد عياض الطنطاوي. فقد زار روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد اثر عليه ما رآه فى روسيا تأثيراً كبيراً، بما فى ذلك الشتاء والجليد والمصابيح فى شوارع المدينة، والليالي البيضاء والباخرة التى أطلق عليها اسم "العجائب" ووصف كل هذه الأشياء باستخدام المفاهيم التقليدية للثقافة العربية الإسلامية.

وتخرج الشيخ الطنطاوى فى جامعة الأزهر حيث تتلمذ على الشيخ الباجورى والشيخ حسن العطار، وعُين الطنطاوى معلماً وأستاذا فى نفس الجامعة. وكان يشرح المعلقات ومقامات الحريرى. ولم يشرح أحد من الأزهريين قبله قصائد الشعر الجاهلى لأنهم إعتنوا بشرح الشعر الإسلامى فقط.

وأخذ الطنطاوى يدرس اللغة العربية الفصحى فى صفوف المدرسة الإنجليزية فى القاهرة لموظفى السفارات الأجنبية وللخبراء الأجانب الذين دعاهم محمد على الكبير للمشاركة فى العمل فى نطاق إصلاح مصر وتحويلها إلى دولة مستقلة قوية عسكرياً واقتصادياً وعلمياً. وكان تلامذته فى الثلاثينات السيد (موخين) وكيل السفارة الروسية وكذلك أيضاً ابن المستشرق الروسى الكبير (فرين).

وتلقى الشيخ الطنطاوي دعوةً من الحكومة الروسية للقدوم إلى بطرسبورج، فسمح له محمد على الكبير بالذهاب إلى روسيا. ودرس الطنطاوى اللغة الروسية أثناء تواجده فى روسيا على يد السيد (موخين) الذى رافقه فى سفره.

وبعد وصوله إلى بطرسبورج أصبح مدُرساً للغة العربية فى مدرسة وزارة الخارجية الروسية، وأستاذا فى جامعة بطرسبورج وقد حل فى تلك الوظيفة محل المستشرق والروائى الروسى الكبير (سينكيفيتش). وكان موظفو وزارة الخارجية وطلاب الجامعة يستثمرون وجود الشيخ الطنطاوى لتعليمهم البلاغة وإمدادهم بمعرفة الأدب العربى القديم وخصائص الثقافة العربية الإسلامية. كما تعاون الطنطاوي مع أبرز المستشرقين الروس فى عصره ومنهم جريجوريف وسافيليف ودورن جوتفلد.

وقد ألف الطنطاوي "تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا" حوالى عام ١٨٤٠، وكتب النص النهائي فى حدود عام ١٨٥٠. ولم يُقَدّر لكتابه أن يرى النور. وتوجد النسخة المخطوطة والنسخة المسودة في مكتبة جامعة (بطرسبورج) والنسخة المبيضة فى خزانة الكتب فى اسطنبول التى أرسلها المؤلف إلى السلطان عبد المجيد الأول والتى تضمنت قصيدة مُزينة بأبيات تسجيل التاريخ بحروف الجمال ونماذج الصناعة اللفظية الأخرى التى عُرِفَ بها الشعراء المصريون الذين عاشوا فى العصر العثمانى.

ومن المعروف تماماً، وجود أربعة اتجاهات شعرية فى الأدب العربى فى مصر تحت الحكم العثمانى، وهى المدرسة البكرية، والمدرسة العلوية، والمدرسة الشعبية، والمدرسة الأميرية. وكان الطنطاوى قد مدح السلطان عبد المجيد وفقاً لقواعد المدرسة الأميرية.

ضم كتاب الطنطاوي ثلاثة فصول حيثُ وصف فى الباب الأول رحلته إلى

العاصمة الروسية الشمالية وسجل تاريخ وحياة المدينة الاجتماعية والثقافية منذ بدء حكم القيصر بطرس الكبير حتى ولاية نيقولاى الأول فى النصف الثانى، كما عكس فى الفصل الثالث الأخير أخلاق الروس وظروف حياتهم اليومية.

هذا وقد عكس كل من كتاب "تحفة الاذكياء بأخبار بلاد روسيا" للشيخ الطنطاوى، وكتاب "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" لرفاعة بك الطهطاوى تغيرات فنية فى الأغراض التقليدية وطرائق الإبداع الأدبية التى شهدتها المرحلة الانتقالية، والتى تزامنت مع الحوار الثقافى وحركة التجديد، وبداية الثقافة المصرية الحديثة.

ومن أجل إبراز مظاهر الذاتية المصرية نشير إلى ديوان الأزجال المصرية الذي أصدره الشيخ محمد شهاب الدين، وهو أديب فصيح رفيع المستوى، وإلى ديوان الوطنيات الذي نظمه رفاعة رافع الطهطاوى باستخدام شكل الموشح.

وكان رفاعة بك طيب الصفات، وكان يتقد وطنية وغيرة على بلاده، وله فى ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر وعظمة جيشها ومن هذا قوله يخاطب الجنود:

يا أيها الجنود ... والقادة الأسود
إن أمكم حسود ... يعودها مى المدمع
فكم لكم حروب ... ينصركم تؤوب
لم تثنكم خطوب ... ولا إقتحام معمع
وكم شهدتم من وغى ... وكم هزمتم من بغى
فمن تعدى وطغى ... على حماكم يصرع

وتتجلى روحه الوطنية فى ترجمته نَشيد فرنسا القومى (المارسيليز) لإعجابه له. وفى الوطن يقول : الوطن هو عُش الإنسان الذي فيه درج، وفيه خرج، ومجمع

أسرته، ومقطع سُرَّته، وهو البلد الذي أنشأته تربته، وغذاه هواؤه، ورباه نسيمه، وحلت عنه التمائم فيه.

ويقول عن مصر في زهو وإعجاب:

"ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف، إن لم نقل: أنها أشرف الأمكنة، فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات، وآثار وحديث، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد، منقوشة فى عرض الأرض، بيد الحكمة الآلهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها، حتى تكاد أن تكون حصرتها فى أرجائها بلدة معشوقة السكنى".

ولا نستطيع أن نقول أن الأدباء الذين ظهروا فى عهد محمد على تأثروا تأثراً عميقاً بالنهضة العلمية فى عصره، ولكنهم ولاشك أفادوا منها، مع أنهم ظلوا متأثرين بآداب العصر السابق. أطلعوا فى عصر محمد على الكبير على أشياء كثيرة لم يروها من قبل، وأحاطت بم نهضة شاملة، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ والزخارف اللفظية فى كتابتهم وشعرهم إلا القليل منهم. ومن هؤلاء الشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويدر والسيد على الدرويش والشيخ محمد شهاب الدين. ولكنهم وقعوا تحت ظل الشهرة الأدبية للطهطاوى.

وكان الشيخ حسن العطار من أبرز وجوه النهضة العلمية، وأوسع رجال عصره ثقافة. وفى أيامه دخل الفرنسيون مصر، فاتصل بهم، وأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم، وعلم بعضهم اللغة العربية، ثم ارتحل إلى الشام وسكن دمشق زمناً، ثم آب إلى مصر وعهد إليه بتحرير "الوقائع المصرية" ثم تولى التدريس بالأزهر، ثم صار شيخاً له فأحسن إدارته وظل فى منصبه إلى يوم وفاته فى عام ١٨٣٥. وكان من أشهر تلاميذه رفاعة الطهطاوى الذى طلب منه الشيخ حسن العطار وصف إقامته فى باريز كتابياً. وللعطار ديوان شعر، وروى له

الجبرتى كثيراً. وكان على صلة بكثير من أدباء عصره.

وكان الشيخ حسن القويدر تلميذاً للعطار، ونال شهرة عظيمة فى العلوم، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة. ومن تأليفه شرحه على منظومة الشيخ العطار فى النحو، وله كتاب إنشاء ومراسلات وكتاب "نيل الأرب فى مثلثات العرب" وهو مزدوجات ضمنها الألفاظ المثلثة الحركات، المختلفات المعانى. وقد طبع فى مصر ثم نقله إلى إيطاليا المستشرق (أريك فيتو) وله ارجوزة طويلة مؤلَّفة من ألفين وميئتين وعشرة أبيات.

ولد السيد على الدرويش بالقاهرة، ونشأ بها، وأُغرم بالأدب، وأصاب شهرةً كبيرة فى زمانه، وله عدد وفير من المقطوعات الغنائية، كما اتصل بأمراء أسرة محمد على وعُرف بشاعر عباس الأول. وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعية. كان بالنسبة لعصره فى طليعة الشعراء. وله ديوان طبعه تلميذه مصطفى سلامه النجار وقد جمع فيه كل ما قاله السيد على الدرويش من شعر ونثر.

وكما ذكرنا سابقاً أن إصدار ديوان الأغانى المصرية الشعبية ونقصد بذلك الزجل تحت عنوان "سفينة الملك" للأديب الفصيح الرفيع المستوى محمد شهاب الدين يدلُ على تكوين الوعى القومى عند المثقفين المصريين فى مطلع القرن التاسع عشر لأن الاهتمام بالأدب الشعبى (الفولكلور) يتزامن كالعادة فى تاريخ الثقافة العالمية مع صياغة الذاتية الوطنية المنعكسة فى تطور الشعر والنثر.

وجدير أن نذكر هنا أن الذاتية المصرية بدأ تكوينها فى عصر محمد على الكبير، وتطورت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى إطار الفكرة المصرية التى تجسدت فى ظل النزعة الفرعونية.

ومن أوضح الأمثلة التى نجدها فى الأدب المصرى باللغة العربية الفصحى والتى تدل على ازدهار الذاتية الوطنية عند شعراء مصر المقطوعة الآتية التى تنتهى بها قصيدة محمود سامى البارودى والتى ألفها الشاعر فى منفاه فى سرنديب

يناجى مصر من غربته:

فَيَا مصْرُ : مَدَّ اللَّهُ ظِلَّكِ وَارْتَوى ثَرَاكِ بِسَلْسَالٍ مِنَ النيل دَافِق
وَلاَ بَرِحَتْ تَمْتَارُ مِنْكِ يَدُ الصبَا أريجاً يُدَاوِي عَرْفَةَ كُلَّ نَاشِق
فَأَنْتِ حِمَى قَوْمِي وَمَشْعَبُ أُسْرَتِي وَمَلْعَبُ أَتْرَابِي وَمَجْرَى سَوَابِق
بِلاَدٌ بِهَا حَلَّ الشَبَابُ تَمَائمي وَنَاطَ نِجَادَ المَشْرَفِيِّ بِعَاتِقِي
إِذَا صَاغَهَا بَهْزَارُ فكْرى تَصَوَّرَتْ لِعَيْنِيَ فِي زِيِّ مِنَ الحُسْنِ رائِق
تَرَكْتُ بِهَا أَهْلاً كِراماً وَجِيرَةً لَهُمْ جِيرَةٌ تَعْتَادُنِي كُلَّ شَارِقِ
هَجَرْتُ لَذِيذَ الْعَيْشِ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ وَوَدَّعْتُ رَيْعَانَ الشَبَابِ الْغُرَائِق
فَهَلْ تَسْمَحُ الأَيَامْ لِي بِلِقَائِهِم وَيَسْعَدُ فِي الدُّنْيَا مَشُوقٌ بِشَائِق
لَعَمْرى لَقَدْ طَالَ النَوَى وَتَقَطَّعَتْ وَسَائِلُ كَانَتْ قَبْلُ شَتَّى الْمَوَاثِق
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ سَاءَتْ صُرُوفُهَا فَإِنِّي بِفَضْلِ الله أَوَّلُ وَاثِق
فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِه وَيَرْجِعُ لِلأَوْطَانِ كُلُّ مُفَارِقِ

ويعتبر دخول العامية فى الأدب العربى وجها آخر للتأكيد على الذاتية المصرية. وجدير بالذكر فى هذا الصدد الإشارة إلى صدور مجلة "أبو نضارة زرقا" لمحررها يعقوب صنُوع باللغة العامية فى حوارية بين ابى الغلب وشيخ الحارة، ومسرحية الأخلاق بقلم محمد عثمان جلال، وأشعار بالعامية للسيد عبدالله النديم.

واهتم يعقوب صنُوع بإبراز أنواع الطبيعة المصرية المتنوعة ووجه عبدالله النديم شعره إلى ضباط الصف المصريين الذين اشتركوا فى الثورة العرابية، وفتح محمد عثمان جلال أفقاً واسعاً لتطور المسرح المصرى القومى . ولكن حدث كل ذلك فى مرحلة ما بعد عصر محمد على الكبير، ومهد السبيل إليه ما شهدته الثقافة المصرية من تطور على عهده.



فرنسا ونظرية التحديث فى مصر فى عهد محمد على

عبد الكريم مدون

ارتبط التاريخ العربي عموما والمصري على وجه الخصـــوص بتحـولات على مستوى مناهجه وتقنيات قراءة الحدث ، وقد شكلت مرحلة القرن التاسع عشر ، المجال المعرفي الذى اختلفت حول صيرورة أحداثه مجموعـــة مــن الدراســات ، ويرجع هذا التنوع فى القراءة ، أولا الى غنى المرحلة التاريخية من ناحية التحولات الحديثة ، وثانيا لكونها تشكل نقطة التماس والاتصال مع الآخر حيث سمحت وسـائل الاتصال والتواصل لمصر والعالم العربي ، التعرف على التجارب الأوربيـــة فــى مجالات متعددة ، تحولت الى "كونية " بعد انتشارها ، وقــد كــانت مصــر أولــى المجالات العربية فى انتمائها الى هذه " الكونية " أولا عن طريق اتصالها بفرنسا من خلال الحملة الفرنسية ، وثانيا من خلال تجربة مميزة عرفتها خلال النصــف الأول من القرن التاسع عشر ، هذه التجربة ، وانطلاقا من المعطيات الســابق ذكرهــا ، شكلت اختلافا حول تحديد معالمها بين عملية التحديث والإصلاح من جهة والاقتباس والمماثلة من جهة أخرى ، وقد جاء مصدر هذا الاختلاف أساسا مــن خــلال فــهم للحداثة نفسها فى ارض نشأتها أولا ثم فى أرض استقبالها ثانيا .

إن الإشكال المطروح لدى الدارسين العرب يتمثل فى كيفية إدراك الحداثـــة فهي لا تمثل نقطة زمنية يقف عندها التاريخ ولكن هى عبارة عن صيرورة تراكمية عبر الزمان ، فالعرب لم يعيشوا الحداثة فى بنائـــها ولــم يواكبوهــا فــى جانبــها الكرونولوجى ولكنهم أدركوها فى جانبــها الســانكرونى ، فقــد اســتطاعوا إدراك مكتسبات الحداثة وما حققته من منجزات سواء فى الميدان الفكري أو السياســـي أو الاقتصادي ، من غير ملاحقتها فى بنائها وتتبعها فى إرساء أسسها فالحداثــة التــى تعامل معها العرب هى حداثة مشهد لا حداثة مسار ، ولعل هذا ما يجعلنـــا عندمــا

نتحدث عن الحداثة ننطلق من نتائجها ومكتسباتها ، ناسين أن وراء تلك النتائج مسارا طويلا وديناميةً وحركة وعمليات التأسيس واعادة التأسيس وهنا تطرح أمامنا العلاقة بين الحداثة كفكرة والتحديث كممارسة داخل نظام أو نظرية ، حيث أن دراسة الحداثة من خلالها تسمح بقراءة منطقية للواقع والتاريخ (١).

لقد باتت هذه المعطيات غائبة عند قراءة تجارب التحديث فى العالم العربي، فدراسة التجربة المصرية خلال فترة حكم محمد على ارتبطت بسكونيتها داخل الزمن وبذلك تم النظرية إليها من خلال فرضيات الفشل والنجاح ، والمماثلة والفردانية دون قراءتها داخل الحركة العامة .

ان مستويات الفشل والنجاح ترتبط بنهاية الزمن وهذا لا يمكن الأخذ به في هذه التجربة باعتبارها شكلت نتيجة لمرحلة وسببا لمرحلة أخرى ، أما الطرح الذى يرتبط بالمماثلة والفردانية أو الانفراد ، فهو فى الأولي ينطلق من تشبيه غير منطقي بتجارب الآخر حيث ذهب البعض إلى نعتها برأسمالية الدولة أو كما قال لويس بلان : " الدولة الرأسمالى الأول " ، وآخرون قالوا بالاشتراكية الحكومية ، ثم هناك من قال بأنها تمثل نظام جماعيا (٢)، فالأولى تجمع بين التحديث والاقتباس عن الغرب ، فى هذه الحالة يجب أن نتحفظ من استعمال كلمة "رأسمالية " التي استعملت فى أوربا فى بداية القرن الحالي للدلالة على" رأس المال والرأسمالى " والذي استعمله لويس بلان بشكل يحمل نوعا من المبادئ الاشتراكية التى تجعل الدولة تقدم رؤوس الأموال دون المشاركة فى الأرباح التي تبقى حسبه من نصيب العمال ، فهل كان الأمر كذلك فى مصر ؟

أما الطروح الثاني فقد ربط دون وعى بين استعانة محمد على فى تجربته بمجموعة من العناصر الذين كانوا تابعين لجامعة سان سيمون التى تعرضت الى الانقسام بداية من سنة 1833 وقد ربط من قالوا بذلك " تجربة الاشتراكية الحكومية"

بين مذهب السانسيمونيين الذى قال بسيطرة الحكومة على وسائل الإنتاج ونفوذها فيما بعد فى الفكر الاشتراكي الطوبوى مع العلم ان كلمة اشتراكية لم تظهر فى فرنسا إلا سنة 1831 ، لكن الذى لم يحدده هؤلاء يتمثل فى علاقة من اشتغلوا مع محمد على بهذه الحقائق النظرية للفكر السانسيمونى ، والمتمثل أساسا فى حل البرلمان وإعلان الدكتاتورية لفرض الإصلاحات ، مع الأخذ بعين الاعتبار، فى ذلك المجتمع ككل والذى يوفر للفقراء شروط العيش الضرورية (٣). أما الطرح الثالث فيرتبط بمميزات الحضارات المعتمدة على الري بمياه الأنهار والتى قال بها منتسكيو، وهذه الحضارات طبعا تعتمد العمل الجماعي المنظم من طرف " الدولة "، وهو طرح له علاقة بمنظور الأخر ، الذى يعتمد على مياه الأمطار فى الري ، لمثل هذه الحضارات ٠

إنها طروحات لمستويات متعددة انطلقت من بعض المتماثلات العامة دون مراعاة التدقيق الذى له علاقة بالتعميم الغير الممنهج ، وفى هذه الحالة فالبحث لا يرتبط بتقديم بديل لهذه الطروحات ، التى تبقى أساسية ، ولكن يمثل عرضا لواقعية الحالة والتى تتفاعل فيها عناصر متعددة ، وهى القراءة التى يمكن نعتها بالانفرادية بحيث ساهم فى تكوينها ثلاثة عناصر، فرنسا الدولة على المستوى الأوربي وشخصية محمد على وبقايا السانسيمونيين فى مصر ، وانفرادية هذه القراءة ترتبط هى الأخرى بعناصر ثلاث أثرت وتفاعلت مع تجربة محمد على ، حركية الداخل المتمثلة فى المالية ، وحركية الداخل والخارج المتمثلة فى الجيش وحركية الإنتاج المتمثلة فى الأشغال العامة ٠

إن غياب العنصر الأول فى التكوين ارتبط بالتقلبات التى كانت تعرفها فرنسا خلال المرحلة التى انتهت بثورة 1830 وما بعدها التى انتهت بثورة 1848 مع اختلاف فى الموقف بخصوص مصر بين حكومة تييرس وحكومة جيزو ، ومع هذا المخاض السياسي الذى كانت تعرفه الدولة الفرنسية فى أوربا يبقى العنصران

الثاني والثالث أساسيان فى ذلك التكوين الانفرادي ، وتقول (Nada Tomiche):
"طيلة ثلاثين سنة وبواسطة إدارة أعيد تنظيمها ، عمل محمد على على فرض تسيير اقتصادي صارم ودقيق للبلاد لم يستلهمه انطلاقا من نظرية أو من خـــلال تجربــة قديمة أو معاصرة ولم يتخذ أية دولة نموذجا ولم ينطلق من مذهب معين "(٤) فـــى حين أن (Francis Riaux) له رأى آخر حيث يقول : " لقد قدمت فرنسا لمصـــر أكثر ما قدمته أية دولة أوربية أخرى ، ان المهندسين الفرنسيين هم الذيـــن فكـــروا وطبقوا أغلبية المشاريع فى مجال الأشغال العمومية والتى كانت نتائجها تغيير وجــه البلاد"(٥)، والمقولتان تضعنا أمام قراءتين القراءة الأولى ترتبط بماكييفليـــة محمـــد على رغم كونه لم يقرأ كتاب الأمير(٦) ، وهنا تطرح أمامنا القـــراءة الســـيكولوجية لشخصية محمد على المرتبطة بعبقريته الفطرية، أما القراءة الثانية فترتبط بفاعليـــة الدور الذى لعبه الفرنسيون فى مصر لدرجة تغيير وجه البلاد كما قال (ريو) ونذكر من بين هؤلاء ، Linand de Bellfonds ، كبير المهندسين و Mougel والســـيد Droveti والعـــالم الفرنســـى Frederic Cailliauds والسـيد Le Fevre و D, arnaud و Lambert و Thibaut والمـــهندس Sabatier والكولونيـــــل Seve ، كما استقدم محمد على طائفة من كبار الضباط الفرنسيين لمساعدته علـــى تنظيم الجيش حيث تكون العديد من الضباط المصريين على يد الفرنسيين ، وعندمـــا أنشأ المدرسة الحربية بالجيزة تولى تنظيمها السيد Varin وعيـــن الســـيد Carre مديرا لمدرسة الموسيقى العسكرية وقام السيد Galice بإصلاح قـــلاع الإســـكندرية وإنشاء غيرها للدفاع عن شؤون البلاد وسواحلها وعين الســيد Cerisy لإدارة دار الصناعة الكبرى بالإسكندرية لبناء السفن الحربية، وكان Jumard عضو المجمـــع العلمي المصري أيام بونبارت مشرفا على البعثات التى يوفدها محمد على الىفرنسا (٧)، فمن خلال هذه الأسماء التى ارتبطت بمصر وبتجربة محمد علـــى، يمكـــن أن نميز اهتماماتها فى توجهين توجه يرتبط أساسا بالجيش ومقوماته العلمية والمجاليـــة

وتوجه آخر له علاقة بالأشغال العمومية واعادة الإنتاج ، والتوجهين معا يرتبطان مع التوجه الذى أسميناه بالحركية الداخلية والمتمثلة فى المالية التى تحكم علاقة محمد على مع المجتمع المصري وبذلك يكتمل المنهج الذى يرتبط بانفرادية مصر ، لكن اذا ما حاولنا وضع مقاربة بين توجهات تلك الأسماء السابق ذكرها والحركة السانسيمونية التى برزت فى فرنسا وحاولت تصدير أفكارها الى الخارج خاصة مصر كما جاء فى صحيفة Ie Globe الناطقة باسم هذا المذهب ، فإننا نميز فرقا بين طبيعة الأفكار السانسيمونية كما برزت فى فرنسا والتى تعبر عن نفسها انطلاقا من ثلاث وحدات ، العلم والصناعة ، وحل البرلمان وإعلان الدكتاتورية لفرض الإصلاحات ثم توفير الشروط الضرورية لطبقة الفقراء ، وهى تدابير فى مجملها لا ترتبط بالحاضر وانما لها علاقة بالمستقبل لذلك سميت بالاشتراكية الطوبوية ، فهناك فارق بين الأفكار والممارسة على ارض الواقع لدى بعض الفرنسيين الذين اشتغلوا مع محمد على والذين ارتبطوا بهذا المذهب ففكرة سيطرة الدولة كانت قائمة وهى من وحي محمد على الذى أراد تكوين قوة عسكرية وقوة منتجة وفرها هؤلاء انطلاقا من استعمال جزء من فكرهم السانسمونى فى مجالي العلم والإنتاج وهنا تكمن عملية التحديث الذى حاول من خلالها محمد على الجمع بين آليات العلم المتطورة والإنتاج ويمثل هذا التوجه الى جانب دكتاتوريته الاحتكارية ، نوعا من التلاقي الذى يهدف الى الإصلاح حسب المفهوم السانسيمونى، هذا الواقع جعل جميع القوى الاقتصادية فى مصر تتحول الى الفرنسيين فمسيري الصحة والأعمال الصناعية فرنسيون فضلا على ان مخطط القوة المصرية فرنسي[٨] ، ان مستويات التكامل التحديثى حسب فرنسا يكمن فى تنظيم المالية والقوانين فى مصر أو ما عبرت عنه سابقا بالحركية الداخلية والتي أخذت بعدا جديدا بعد انهيار السياسة الاحتكارية فقد كرس محمد على جهوده لتكوين البناء السليم للدولة المصرية ، فقد عرفت مصر بعد 1841 تحولات عبر عنها تارة بالتطور الاقتصادي وأخرى باللانقلاب الاقتصادي لكن ما هو مفهوم

هذه المصطلحات وبالتالي ما هي مضامين واقعيتها فى مصر ؟

لقد اعتمد محمد على على الفرنسيين فى إقامة مشروعاته الزراعية والصناعية وكان توجههم خارجيا اكثر منه داخليا ، ما أوجب إحداث انقلاب فى اقتصاديات مصر بدل نوع مميز من التطور[٩] مرتبط بظروف مصر العامة والتى قد يكون للمجتمع المصرى دور فاعل فيها ، ففي تطور الأمم يجب توفر ثنائية منطقية ، تتمثل الأولى فى الحاكم ، والثانية فى المجتمع ، فلم تكن مصر فى عهد محمد على لتتحمل إجراء اقتصاديا فى مثل هذا العمق فلم يخطر ببال الوالي رغم ذكائه بأن يطلب من المصريين شيئا آخر غير طاعتهم ، فلم يصل الشعب خلال فترة حكمه الى مستوى فهم مقاصده ، ما يسمح له بالاندماج مع مؤسسات التى جاء بها ، فإذا كان من الضروري ان يكون هناك تغيير كان من الواجب ان يتم على المدى البعيد وهذا ما كان لا يرغبه محمد على فكان يريد تطبيق مبادئه بغض النظر عن معرفتها أو معرفة جدواها ، وإذا ما نظرنا الى الآخر والى مساره التاريخي نجد أن التحول كان تدريجيا واستمر فترة طويلة[١٠]، وبذلك فالسياسة التى نهجها محمد على تحمل توجها انقلابيا حيث أنه ركز على تغيير بعض المؤسسات القديمة وتعويضها بأخرى جديدة ، دفعت الكثير الى نعتها بعملية التحديث ، ان التطور يحكمه نمو بطيىء ومتدرج يؤدى الى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤدى سابقها الى لاحقها وهذا هو الذى يشكل عملية التحديث فى تكامليتها كما حصلت لدى الآخر ، لقد كانت فرنسا المحرك الأساسي لعملية الانقلاب الذى عرفته مصر محمد على ، فمن خلال وثائق الأرشيف الأوربى بدار الوثائق نلاحظ أن هناك اتجاه واحد يتمثل فى الدور الكبير الذى كان يلعبه المهندسون الفرنسيون فى إتمام العمليات المتمثلة فى بناء الجسور والقناطر ، بل وأن تصاميم هذه الأخيرة لا تتم الا بموافقة مصلحة الجسور والقنوات فى فرنسا ، اذ أن أى مشروع يتم اقتراحه لا يطبق إلا بعد هذه الموافقة ، وهذه الوثائق لا تقف عند هذا الحد فهى تمدنا كذلك بمعلومات تقول : بأن العاملين

على تطبيق هذه التصاميم كانوا يدفعون الوالى الى جلب الاختصاصيين والآلات من فرنسا [١١]، ولم يتم الاقتصار بخصوص التخصص على المهندسين إنما أصبح الاختصاص يشمل الحرفيين فى مجالات متعددة كالنجارة مثلا ويؤكد هذا التوجه موجل حينما كان يقوم ببناء إحدى السدود فى مصر ، القناطر الخيرية، كانت حاجته الى نجارين يعملان تحت رئاسة السيد Dean وبما انه لم يكن يعرف أحدا لشغل هذين المنصبين فقد توصل بأمر من الوالى للبحث عنهما فى دار الصناعة ثم فى المدينة لكنه بعد بحث طويل لم يجد أحدا فى المستوى ولهذا عمل على التخلى عن هذين المنصبين وكان يتأسف حينما يرى العمل فى السد غير متكامل كما هو الشأن بالنسبة لجميع أعمال هيكلة البناء وقد عمل مرارا ، حسب قوله ، على ضرب النجارين وقطع أجورهم ، ولم يتوصل الى أية نتيجة ، ولكنه بالصدفة وجد من بين الأربعين أو الخمسين من العمال الفرنسيين الذين وصلوا الى مصر ، نجارين كفأين وهما الاخوة Tarjon و Tercal واللذين يطلبان العمل بمتوسط أجر يصل الى 800 قرش شهريا[١٢] .

يمكن أن نخرج بمجموعة من الاستنتاجات ، من خلال كلام موجل أحد كبار المهندسين الفرنسيين فى مصر الذين لعبوا دورا هاما فى أعمالها العامة ، ترتبط أساسا بعملية التحديث فإذا كانت فاعلة على المستوى العلوى من الناحية العلمية تصاميم هندسية مراقبة من طرف المصالح المختصة فى فرنسا فهى على المستوى التحتي لا تحمل هذه الحداثة التى بقيت منحصرة على مستوى العمال الحرفيين فى العنصر الفرنسى وهذا يخرج العامل المصرى من دائرة التحديث وهذا يدفعنا الى الحديث عن غياب وعى محلى بفاعلية هذه التحولات ، وترتبط أسباب غياب هذا الوعى إما فى عوامل ، خارجية تتمثل فى عدم عمل الفرنسيين المشتغلين فى مصر على تكوين الأهالي خوفا من مزاحمتهم لهم وأجر 800 قرش يؤكد ذلك فى وقت كان العامل المصرى يسخر للعمل فى هذه المشاريع الإنتاجية بدون أجر ،

أو عوامل داخلية تتمثل فى سياسة محمد على وفى معاملته للمصريين من جهة ، وقد ترجع تلك الأسباب من جهة أخرى الى الفرد المصرى نفسه ٠

لقد كانت الأعمال التى تمت من طرف المهندسين الفرنسيين فى مصر مرتبطة أساسا بالزراعة التى تمكن بالأساس من تطوير واعادة الإنتاج مع استمراريته وقد تأكد هذا التوجه من خلال الاقتراحات التى تقدم بها موجل الى الوالى بخصوص تطهير ترعة المحمودية أولاً لجعلها صالحة للملاحة وثانيا لتتمكن عن طريق آلات بخارية لرفع المياه من سقى حوالي 15000 فدان على طولها[١٣]، هذا بالإضافة الى مشاريع أخرى والتى كانت بمثابة المحرك للرى الدائم الذى يشجع بالأساس على التخصص فى بعض الزراعات التسويقية ، كل هذا يوضح لنا ارتباط مصر فى ميدان الزراعة بالخبراء والفنيين الفرنسيين ، لكن هل تمكن هؤلاء الفرنسيون من تكوين مصر على النمط الفرنسى أم ان الظروف حالت دون ذلك لاختلاف الأنماط بين الطرفين ؟

للإجابة وبوضوح على هذه الإشكالية لا بد من الرجوع الى الإدارة المصرية باعتبارها المؤثر المباشر فى جميع التحولات الاقتصادية والسياسية ، لننظر ما قامت به فرنسا من إصلاح فى هذا القطاع وبالخصوص المالي باعتباره المحرك الأساسي الذى اعتمدته السلطة المصرية لتحقيق أهدافها ، فقد جلب محمد على السيد Rousset والذى ترك خدمة وزارة المالية الفرنسية بموافقة حكومته سنة 1844 ليساعد محمد على فى إصلاح أحوال مصر وتخليص حساباتها من القيود العديدة والتقاليد القديمة ، حيث عمل على تبسيط الإجراءات وطبق نظام المراقبة فهو يرى ان تسيير الإدارة المالية جد صعب اذا لم تكن هناك مراقبة صارمة على جميع العمليات الحسابية وفى جميع المستويات ، واقترح لذلك إقامة مراقب رئيسي داخل وزارة المالية يكون له اتصالا بباقي المراقبين ، ويكون تحت امرته مفتش أو ثلاثة يقومون بمراجعة الحسابات للسنوات الماضية والجارية قصد المقارنة ، ما يساعد

على معرفة الوضعية العامة [١٤]، ولكن رغم كل هذه الإجراءات فقد كان السيد روسية يرى أن هناك خصوصية بالنسبة لمصر تتمثل فى ان الإدارة المالية تعتبر من أهم المؤسسات التى تعتمد عليها الدولة ، فقد عرض على مجلس القاهرة مشروع إصلاح مالي وذلك بما يلائم مصر فى بعض الأشكال المعمول بها فى فرنسا فهو يرى ان هناك فرقا شاسعا فيما بين طبيعة الإيرادات بالنسبة للمجالين فى طريقة الأداء من جهة وفى عادات السكان من جهة ثانية بالإضافة الى وجود عقليات مختلفة مما يجعل من الصعب تطبيق نفس الأسلوب ، ولذلك فهو يقترح تجديدا عمليا يتمثل فى ان تهتم وزارة المالية بجميع الإيرادات والمصروفات وان تكون عمليات البيع والشراء ، التى هى الآن تابعة لوزارة الخارجية ، تابعة لوزارة المالية وذلك للحفاظ على جميع مداخيل الدولة ولأداء مصاريفها [١٥] .

فالتنظيم الفرنسي قد دخل الإدارة المالية المصرية ليغير بعض مرافقها بما لا يخالف خصوصيتها التى تختلف عن فرنسا ومن الملاحظ ان محمد على لم يتوقف عند هذا الحد بل نراه يبعث سامي باشا الى باريس ليتعرف على طريقة تسيير بعض الإدارات العمومية[١٦].

هذه بعض النماذج التى توضح بجلاء مدى ارتباط مصر فى مجموعة من المشاريع التى لها علاقة بشكل أساسي بالتحولات الانفرادية والتى تمثلت فى الحركيات الثلاث الأشغال العامة والجيش والمال ، فقد ارتبط اسم فرنسا بمجموعة من المشاريع المقامة فى مصر واقترنت الأسماء السابق ذكرها (سيف ولينان وموجل وروسية وغيرهم) بهذه الحركيات الثلاث لكن هل كانت هذه الحركيات لتغير من بنية مصر العامة بحيث يصبح الإصلاح بمثابة إعادة تشكيل نظام ما ، يتوافق مع المستجدات التى تطرحها ظروف التبدل [١٧] . من الصعب الإجابة على هذا التساؤل الذى يحمل نوعا من التجزؤ فى بنيته، خاصة وأن التحول لحق بنيات محددة دون العقليات وهذا ما دفع بروسية عند حديثه عن إصلاح مالية مصر الى استعمال كلمة خصوصية

والتى من الضروري مراعاتها فى عملية التحديث التى نهجها محمد علـــى والتــى سماها (ريو) بالوجه الجديد الذى رسمه الفرنسيون فى مصر ، لكـــن يبقــى هــذا التحول " الجديد " جزئيا رغم حمولته التحديثية المرتبطة بالعلم والإنتـــاج ، والتــى انحصرت فى أهداف السلطة الحاكمة ، فهى لم ترق الى مستوى مســايرة ظــروف التبدل العام ، ورغم ذلك فيمكن اعتبارها تجربة متقدمة فى وقتها وفى ظروفها اذا ما تمت قراءتها بعيدا عن تلك النظرة التى تحدد الحداثة والتحديث فى إطــار ســكونية زمنية ، فالتحديث بنية متكاملة ، ولفهمها فى إطار مجالها المرتبط بتجربـــة محمــد على وجب الابتعاد عن المماثلة والاقتباس الغير المنطقي الذى قد يؤدى الى مجموعة من المغالطات المعرفية واذا شكل العلم والإنتاج أرقى مستويات التحديث فى عـــهد محمد على ، فقد غاب هذا المستوى فيما سمى بالمشروع المجتمعـــي فلــم يســتفد المصريون من اقتباس محمد على للنظم الغربية ، ولكن هذا الاقتباس مع ذلك أســس نوعا من الحركية التى لا يمكن تغييبها لفهم تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر ، فالمصريون كانوا فى حاجة الى تطوير وتعديل لا الى انقلاب وتغيير وهنا تم الإبعاد عن إصلاح وضع قائم مقابل انقلاب مرحلي فرضته ظرفية التحول ومع ذلــك فقــد كرس هذا التحول نوعا من الإثارة الاجتماعية التى بدأت تتكون والتى ستكون فاعلــة فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر رغم محدوديتها فى فئة اجتماعية مميزة ٠

هل من الضروري ان يكون أى مشروع تحديثى اجتماعيا ؟ إذا مـــا اجبنــا بنعم حول هذا التساؤل فإننا سنكون طوبويين كما فعل السانسيمونيون ، فالأساس فى الدراسات التاريخية لا يرتبط بتحديد ما يجب ان يكون عليه المجتمع ، ولكن التحديـد ينطلق مما هو كائن ، هذا هو الخطأ الذى نقع فيه عندما نتحدث عـــن الحداثــة أو التحديث بمنظورهما الغربى ، خاصة وأننا ننطلق من نظرتنا لنتائجها أى مما حققتـه على مستويات متعددة بما فيها الاجتماعية ، وإذا حاولنا دراسة هذا الواقع المشهد فى أوربا وفى فرنسا بالأساس فقد ارتبط بفئة اجتماعية معينة كسبت العلـــم والمــال ،

وواجهت من خلالهما الاكليروس والنبلاء واستطاعت بهذه المواجهة تحقيق مستويات متعددة من التغييرات ولا نقول كلها ، لذلك ولفهم التجربة المصرية التى مارسها محمد على يجب دراستها فى ذاتها وانطلاقا من خصوصيتها ، ويمكن أن نقول أن تجربته شكلت انتفاضة على مستويات قديمة كان من الضروري ممارستها بهذا الشكل لوضع مسار جديد لإرهاصات بناء الدولة المصرية التى ستتضح معالمها فيما بعد .

لكن تجربته كانت تمثل بالنسبة لعامة الناس عبئا لا يحتمل من الضرائب الفادحة واعمال السخرة وهذا يرتبط كما قلنا سابقا بالحركية المالية التى مارستها السلطة على المجتمع المصري لتحقيق حركية أخرى على المستوى العلمي والإنتاجي ، فالمشاريع التى أقامها محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عايشها بل انتفعت بها وطبعا بمستويات متفاوتة الأجيال التى توالت من بعده .

لقد تقدمت حالة الفلاح نسبيا عما كانت عليه زمن المماليك ومع ذلك فقد حرم من حق التملك واستهدف لفداحة الضرائب ومظالم موظفي الحكومة مما جعله فى حالة من البؤس والتعاسة رغم زيادة الإنتاج الزراعي حيث ان مداخيل مصر من التجارة مع أوربا وأفريقيا وآسيا وصل سنة 1836 الى 130 مليون فرنك لساكنة تقدر ب ثلاثة ملايين نسمة وهى تمثل نفس القيمة التى تقدمها التجارة الفرنسية التى تقدر ساكنتها ب 32 مليون نسمة سنة 1830، [١٨] فرغم هذا الرخاء الاقتصادي الذى كان الفلاح المصرى مشاركا فيه ، فمستواه الاجتماعي لم يتغير ، وقد وصف مانجان Mengin المؤرخ الفرنسى هذه الوضعية بقوله " اذا صح انه لا توجد فى العالم بلاد اغنى من مصر من الوجهة الزراعية ، فليس تمة بلاد أخرى اتعس منها سكانا ، وإذا بقى العدد الذى بها من السكان سنة 1822 (الذى يقدر بأكثر من 2,5 مليون) ، فالفضل فى ذلك إنماء يرجع الى خصوبة ارضها وقناعة فلاحيها"[١٩]، وما زاد حالة الفلاح سوءا كونه كان مجبرا على تقديم اعمال السخرة التى اقيمت

معظم المشاريع الكبرى عن طريقها ، مثال ذلك شق ترعة المحمودية التى اشرف عليها المهندس الفرنسي كوسطى (Coste) حيث تحدث هذا الأخير عن أعمال السخرة التى رافقتها فقال: " كان على كل مدير مديرية أن يقدم عددا من الرجال.... فتقدم الجيزة ثلاثين ألفا ، والبحيرة خمسين والقليوبية ثلاثين ، والمنوفية مائة وعشرين ، والشرقية خمس وعشرين ، والمنصورة خمسة عشر ، والغربية مائة وثلاثين ، أى أن المديريات تقدم ما مجموعه أربعمائة آلف فلاح " [٢٠] وإذا ما حاولنا ربط هذه الإحصائيات بعدد ساكنة مصر التى تصل فى هذه الفترة إلى حوالي 2,5 مليون نسمة فان النسبة المئوية للساكنة التى اشتغلت فى حفر المحمودية تصل إلى 16% وكلما تعددت أوراش العمل كلما زادت هذه النسبة ، وهذا يفند ما ذهب إليه (ريو) عندما قال ان المهندسين الفرنسيين هم الذين فكروا وطبقوا أغلبية المشاريع فى مجال الأشغال العمومية والتى كانت نتائجها تغيير وجه مصر ، فقد نتفق معه فى عملية التفكير المرتبط أساسا بالعلم ولكن الآلة المطبقة لهذه المشاريع كانت مصرية شكلتها أيادى وتضحيات الفلاحين الذين كانوا يمارسون نوعا من التحديث دون وعى به . هذا بالإضافة إلي ما كانوا يقدمونه لعملية تشكيل الجيش عن طريق التجنيد الإجباري وذلك طبقا للنظام الجديد الذى أرسى قواعده محمد على بمساعدة المستشارين الفرنسيين وهذا التجديد تطلب العديد من الساكنة الفلاحية وصلت حسب إحصاء الجنود سنة 1839 الى 235880 [٢١] أي حوالي 8% من مجموع الساكنة ، والتى اذا ما أضيفت إلى النسب الكبيرة التى تقوم بعمليات السخرة فإننا يمكن إن نقول إن عملية التحديث التى باشرها محمد على بمساعدة فكر وعلم الفرنسيين ما أمكنها النجاح بدون الفلاح المصري .

أما على مستوى الصناعة التى أقامها محمد على فرغم كون الذين اشتغلوا بها قد استقدموا من قراهم وانتزعوا من حقولهم بالقوة ورغم الكراهية الحادة من جانبهم للآلات ولأساليب الإنتاج الحديث فان هذا لم يمنع ظهور مجموعة عمالية فى

إطار الصناعة المصرية الناشئة قدر عدد أفرادها حوالي 40 ألف عـــامل أي مـــا يناهز 0,16 % من مجموع الساكنة المصرية خلال العشرينيات من القرن التاســـع عشر ، لقد كانت أجور العمال على اختلاف طبيعة لوظائف متقاربة ومنخفضة علـى العموم وتعكس الأثر السلبي الذى كان لتطبيق الاحتكار فى المجال الصناعي ولملكية الدولة للمشاريع الكبرى ، وتحكمها فى طريقة العمل بها ، كما يظهر ان المســتوى المعيشي للطبقة العاملة المصرية فى هذه الفترة ظل متدنياً لمـــا احدثتــه السياســة الاقتصادية على باقي فئات المجتمع ،ولتوضيح هذه الوضيعة التى عانى منها العامل المصري نعطى مثالا للأجر الذى يتقاضاه نجار سنة 1825 والذى يصل إلـــى مـــا بين4 إلى9 [٢٢] قروش فى اليوم أي ما يعادل ما بين 120 و270 قرش فى الشهر ، وقد أوردنا هذا المثال أولا للرد على موجل الذى لم يجد نجارا للاشتغال فـــى الســد واضطر إلى جلبه من فرنسا من بين الخمسين عاملا فرنسيا الذيــن وصلــوا إلـــى مصر بأجر وصل إلى 800 فرش فى الشهر وهذا يؤكد من جهة سبب عدم التوازن بين مداخيل الدولة وساكنتها ، ومن جهة أخري فهو دليل على ان فرنســـا كـــانت تحول دون تحديث العاملة المصرية حتى لا تزاحمها فى الأجور الكبيرة التى كـــانت تأخذها من الوالى .

إن الترابط بين العوامل التى شجعت أو أعاقت التنمية ، من القوة بحيث يكاد يكــون مستحيلا ان نعزل عاملا مركزيا واحدا أو حتى عدة عوامل ، ونجعله مسؤولا عـــن سقوط نظام الاحتكار، ان إلقاء المسؤولية على أوربا وحدها قد يكون مضللا بقــــدر إلقائها على الشكل السلبي للسياسة الاقتصادية او لشخصية المجتمع أو لفساد الطبقـــة الحاكمة ، ويمكن بسهولة الزعم بحيث ان الكثير من الحقائق يمكن تأكيها والمتمثلـــة أساسا فى الواقع وخصوصية مصر ، والتى تحكمت فى عملية التصرف الإنســـاني الذى مارسه محمد على حيث أنه من خلال النسب المائوية السابق الإشارة إليها فـــلن الأشغال العمومية هي التى أخذت حصة الأسد بالنسبة للساكنة المصرية ، وهذا يعنى

نوعا من التحديث الذى يتماشى مع الظروف البيئية للبلاد ، ويأتى الجيش والصناعة، رغم أن مجموعة من الدراسات ربطت بينها وبين سياسة الاحتكار ، بنسب لا تمثل إلا جزءا بسيطا من هذه الساكنة ويمكن القول ان محمد على كان منطقيا فى تعامله مع ظرفية البلاد المادية والمعنوية ، فقد كان رغم استبداده اكثر حكام عصره استنارة ووعيا ، عندما حاول بضربة واحدة أن يحول مصر المتخلفة إلى دولة حديثة ذات اقتصاد حديث وبمشاركة جميع الشرائح الاجتماعية دون وعى منهم، وهذا ما يجب أن نضعه فى الاعتبار عند أية محاولة تقييمية للتجارب التحديثية العربية .

الهوامش

١- عبد السلام بن عبد العالى ، ثقافة الأذن والعين ، الدار البيضاء تبقـــال، 1994، ص. 19 .

٢- محمد إبراهيم منصور،دور الدولة فى عملية النم والرأسمالي فى عـــهد محمــد على 1805 -1848 فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلــد 33، 1986، ص ص 191 -193٠

٣- شر ينب روبير،القرن التاسع عشر،ترجمة أسعد داغـــر، بـــيروت 1969، ص 96٠

٤- Nada , Tomiche, l' Égypte moderne , Paris , P.U.F , 1976 , PP 18 - 19.

٥- Francis , Riaux , la France et l' Égypte , Paris , 1870 , p.11 .

٦- ذوقان قرقوط ، جوانب غير معروفة من تجربة محمد على باشا ، فى مجلـــة الوحدة ، ع 31 -32، 1987، ص 101.

٧- محمد نجيب أبو الليل ، الصحافة الفرنسية فى مصر منذ نشـــأتها حتـــى نهايـــة الثورة العرابية، القاهرة، 1953، ص ص 129 ــ 131٠

٨- A.A,F.O,78/557 lettre from Murray to Straphord Canning, 17 decenbre 1848 .

٩- محمد فهمى لهيطة ، الاقتصاد الصناعى والبنك المركزى ، القاهرة ، 1944، ص ص ٠ 66 ــ 68

١٠- Merriau, Paul, l' Égypte contemporaine, 1840 - 1857, Paris, 1857 , PP. 46-48.

١١- A.E, boite 77, letrre de Mougel a Artin, 19 mai 1844.

١٢- A.E boite 77 letrre de Mougel a Abbas , 16 septenbre 1846.

١٣- A.E, boite , 7 letrre de Mougel a Artin bay , 7 nouvenbre 1843.

١٤- A.E, boite 77 , letrre de rousset a Artin bay , 11 nouvembre 1843.

١٥- A.E, projet de rousset en 1845 , boite , 77.

١٦- Sabry , Mohamed , l'empire egyptien sous M. Ali, Paris , 1933,p 582.

١٧- حليم الياجزى ، الإيديولوجية الإصلاحية ومظاهرها فى الفكر العربى الحديث، المجلد الثانى ، بيروت ، 1985 ، ص 13 .

١٨- Dsniel, Penzac , Epidemies , en demies et populqtion en Egypte au XiX siecle , in egypte au XiXsiecle , Paris , 1982 , P29 .

١٩- عبد الرحمان الرافعى ، عصر محمد على ، ط 4 القاهرة ، 1982، ص 550.

٢٠- محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة مصر محمد على ، ط I القـــاهرة ، 1948، ص . 42 .

٢١- عبد الرحمان الرافعى ، المرجع السابق ، ص . 355.

٢٢- محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص . 504.

محمد على مؤسس الحداثة التابعة

د. سيد البحراوي

لا أحد بالطبع يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي لعبه محمد على في التاريخ المصري، أو الجهود الجبارة لإقامة الدولة المصرية الحديثة، في مختلف المجالات في الزراعة والصناعة والبنية الأساسية بالإضافة إلى الجيش وما يتعلق به من مؤسسات ومصانع ترسانات، ثم – دون شك – في التعليم والثقافة.

غير أن السؤال البديهي الذي لا بد أن يتبادر إلى الذهن، بشأن تقييم هذا الدور وهذه الجهود هو : ماذا بقى من كل هذه الإنجازات بعد نهاية عصر محمد على مباشرة ؟

الإجابة – للأسف – هي : لم يبقى الكثير. ويمكن الرد على هذه الإجابة بأن ضياع هذه الدولة الحديثة ليس مسئولية محمد على، وإنما هي مسئولية الدول الكبرى التي تحالفت مع الباب العالي ضده. وهذا لا شك صحيح ولكنه لا يكفي للتفسير، بل إن هذا في حد ذاته، يؤكد المسئولية الخاصة بمحمد على ذاته وبمعنى أدق بمشروعه الذي قام بصفة أساسية على أساس التطلع إلى الخارج، تحالفًا أو صراعًا، دون الانتباه إلى الداخل (الشعب) ليكون القوة الأساسية التي كانت تستطيع – لو وجدت وحدثت حقًا – الدفاع عن هذا المشروع لأنه في هذه الحالة كان سيعتبر مشروعها هي، وليس مجرد مشروع محمد على الذي فرض من أعلى ولم يصل إلى أعماق المجتمع الحقيقية.

لقد أراد محمد على أن يبني حديثة، بالمفهوم الرأسمالي الأوربي للحداثة، ولم يبذل جهدًا حقيقيًا للتعرف على إمكانيات "التحديث" الحقيقية التي كانت متاحة ولو على نحو جنيني قابل للتطور والنضج. بل يمكن القول أن محمد على فعل الكثير

وقضى على هذه الإمكانيات مثلما قضى على دور العلماء والتجار والأشراف كما هو معروف، وكما حول النظام الاقتصادي الذي كان - ينبئ - عبر صراعاته - بإمكانيات تطور إلى احتكار شخصي له، قبل أن يلحقه النظام الاقتصادي الرأسمالي الأوربي (أو الذي يسمى بالعالمي) [مثال : إدخال زراعة القطن].

إن إلحاق مصر، بالنظام الرأسمالي لم يأت من منطلق الندية، بل من باب التبعية، لأن محمد على حاول أن يبني مصر الرأسمالية بأدوات الرأسمالية الأوربية وليس بأدوات وقيم مصرية، يقال أنها كانت مؤهلة لتحقيق ذلك لو سمح لها بالتطور والنضج(١). ومن يتابع كيفية بناء هذه "الحداثة" يستطيع أن يتأكد أنها قد تمت من خارج المجتمع المصري أو قمته دون قاعدته العريضة. ومثال إنجاز محمد على في التعليم "الحديث" كاف لتوضيح هذا الأمر.

لم يكن محمد على راغبًا في أن يعلم المصريين لكي يكونوا مجتمعًا "حديثًا"، بل كان يريد عناصر منهم تستطيع أن تنفذ مشروعه "التنموي" في الصناعة والجيش وغيرها. ومن هنا فقط انتقى هذه العناصر من بين أبناء الأعيان وخلعهم من بيئاتهم ووضعهم في نظام صارم مغلق يتعلموا فيه - على الطريقة الأوربية - بعيدًا عن أهلهم الغارقين في الجهل أو - في أفضل الظروف - يتعلمون على الطريقة الأزهرية القديمة التي لا يمكن أن تصنع عقلاً حديثًا.

إن ما حدث في التعليم ربما اخطر - في نتائجه - مما حدث في الصناعة والزراعة وغيرها من مجالات التنمية. فانهيار هذه المجالات بعد وفاة محمد على، كان يمكن إعادة بناؤه لو كانت هناك القوى القادرة والراغبة في ذلك، لكن محمد على لم يبن هذه القوة، بل بنى فئة أو طبقة من المتعلمين، انتموا ذهنيًا إلى النموذج الأوربي (٢) - في التعليم والحياة - والأهم أنهم كانوا اعتماديين (dependant) كما علمهم محمد على ونظامه، بالإضافة إلى أنهم كانوا منفصلين انفصالاً تامًا عن المجتمع المصري وقيمه، ولا يملكون وسيلة الاتصال به حقيقيًا. وهذه الطبقة كانت

- مع غيرها من شرائح ملاك الأراضي والعسكريين - نواة الطبقة الوسطى الحديثة التي قادت مصر - مع تطورات واختلافات في مراحل مختلفة - حتى الآن، بفهمها للعالم فهمًا تابعًا للنموذج الأوربي، وإن فشل فللنموذج الإسلامي القديم، لأن بنيتها الذهنية بُنيت على نحو غير قادر على الإبداع، نحو يؤمر فيطاع، وأن حاول الخروج (كما فعل عرابي مثلاً أو قادة ثورة ١٩ أو ضباط ١٩٥٢م وغيرهم) فهو خروج عاجز، ناتج عن رد الفعل، ومراهن- طوال الوقت - مثلما فعل محمد على نفسه، على القوى الخارجية، وليس على الشعب، الذي لم يتح له أبدًا أن يطور إمكانياته الحقيقية لتحقيق حداثته الخاصة به التي تلبي احتياجاته وتنطلق منها ومن إمكانياته الداخلية.

وكنموذج على هذه الحداثة التي حاولها مثقفو محمد على وإمتداداتهم في الأجيال من المثقفين، سنتوقف ببعض التفصيل عند محاولة تقديم شكل (أو نوع) أدبي حديث لم يكن موجودًا في التراث العربي، وأقصد شكل (أو نوع) الرواية، الذي بدا واضحًا أن المثقفين المصريين بدءًا من رفاعة رافع الطهطاوي وعلى مبارك قد انتبهوا إلى وجوده في الأدب الأوربي (والفرنسي بصفة خاصة)، وحاولوا محاولات مختلفة أن يقدموا مثيلاً له في الأدب العربي، يلبي احتياجات الشرائح الاجتماعية الجديدة التي نشأت منذ عهد محمد على كما سبق أن أشرنا.

لقد سار متعلمو محمد على في سبيل تقديم الرواية إلى اللغة العربية في اتجاهين واضحين منذ البداية، اتجاه ترجمة الروايات الأوروبية حيث ترجم الطهطاوي مثلاً رواية تليماك لفنلون سنة ١٨٦٧م، واتجاه محاولة كتابة رواية بالاستعانة بأشكال القص العربي القديم مثل الرحلة (تخليص الإبريز في تلخيص باريز لإشباعها، لرفاعة وعلم الدين لعلي مبارك) أو مقامة كما هو الحال في حديث موسى بن عصام للمويلحي الكبير، وحديث عيسى بن هاشم لابنه محمد المويلحي وليالي سطيح لحافظ إبراهيم وغيرهما.

وسوف نتوقف هنا بصفة خاصة عند حديث عيسى بن هاشم لمحمد المويلحي لعدة أسباب. أولها أنه اعتبر أكثر تلك النصوص قربًا من الرواية إلى درجة أن بعض النقاد يعتبره الرواية العربية الأولى. والسبب الثاني أن محمد المويلحي يكاد يكون امتداداً طبيعيا – رغم أصوله التي تعود إلى ميناء مويلح بالجزيرة العربية – للمثقفين الذين عملوا في الجهاز الإداري لمحمد على وأبنائه. أما السبب الثالث، فهو أن البطل الرئيسي في " عيسى بن هشام " أي "أحمد باشا المنيكلي" كان ناظرًا للجهادية في عهد إبراهيم ابن محمد على، وقد أحياه الكاتب لكي يتجول به في عصره (نهاية القرن التاسع عشر)[٣] بعين عصر محمد على، وليكتشف مدى التدهور الذي أصاب البلاد بسبب غياب محمد على أو بمعنى أدق مشروعه. كما سنرى.

رغم أن محمد المويلحي (١٨٥٨م-١٩٣٠م) لم يشر في كتابه من قريب أو بعيد إلى أنه يريد أن يكتب رواية، إلا أن هناك العديد من المؤشرات التي تؤكد أنه كان يرغب في ذلك. فهو على كل حال يعرف النوع الروائي وكان صديقًا لبعض كتابه لبعض كتابه الفرنسيين (ألكسندر دوما). وفي عنوان كتابه الثانوي (فترة من الزمن) وهدفه الذي يزاوج بين المتعة والتسلية والنقد الإصلاحي، وفي صلب موضوع الكتاب الذي يعالج أزمة اجتماعية ونفسية عميقة، في كل هذا ما يؤكد أن النزوع الروائي كان قويًا عند المويلحي الذي ينتمي إلى الفكر الإحيائي قد حاول أن يكتب (شكلاً) روائيًا مستعينًا بشكل من التراث العربي القديم كان قد مات تقريبًا قبل أن يعاد نشره قبل المويلحي بعقود قليلة، أقصد شكل المقامة، وخاصة مقامات بديع الزمان الهمذاني. فعنوان كتاب المويلحي هو إحياء أو استدعاء لراوي مقامات الهمذاني، وهو "حديث" وليس "قصة". وتبدأ الفصول – في معظمها – بنفس صيغة المقامة : " حدثنا عيسى بن هشام ". وكل فصل يكاد يكون مستقلاً بنفسه، ليبدأ الفصل التالي له بنفس الصيغة الانفصالية (حدثنا ...). والأهم من ذلك هو هدف

الكتاب الذي يعلنه المؤلف في مقدمة الطبعة الرابعة قائلاً " هذا الحديث – حديث بن هشام – وإن كان في نفسه موضوعًا على نسق التخييل والتصوير، فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال، لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها، والفضائل التي يجب التزامها"(٤).

هذا الهدف التعليمي الإصلاحي الذي يستعين بالخيال والتصوير يكاد يكون هو نفس هدف المقامة القديمة. والمويلحي يؤكد هذا حين ينص تحت العنوان مباشرة – على غلاف الكتاب – القول المأثور " كان النبي عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقًا. ويضاف إلى كل ذلك لغة الكتاب المسجوعة المتفرعة المليئة باستشهادات من النصوص القرآنية والشعرية ومن الأحاديث النبوية وغيرها من المأثورات.

هذه الملامح، بالإضافة إلى الطابع الكاريكاتيري في تقديم الشخصيات (وصفها، دون عمق كاف)، والوقوع في أسر الزمن الدائري، الذي حول الكتاب إلى مجموعة من الدوائر المتماسة التي لا تنفتح على بعضها في حركة درامية متصاعدة، كل هذه الملامح تؤكد اعتماد المويلحي على المقامة بشكل واضح لا لبس فيه. وهنا يأتي السؤال : هل فعلاً استفاد المويلحي من المقامة في بناء رواية ؟

الإجابة هي بالنفي. فلا هو نجح في التوصل حقًا مع المقامة، ولا نجح في بناء رواية.

لم يتوصل مع المقامة لأنه لم يحدث القطيعة الضرورية معها، لم (يغربل) خصائصها المختلفة، ليسقط منها الميت، ويعيد نظام الحي في نسقه الجديد. وهو لم يستطع أن يفعل ذلك، لأنه كان ذا عقلية احيائية ناقلة، من ناحية. لأنه – من ناحية ثانية – لم يملك حقًا نسقًا جديدًا، نقصد النسق الروائي الحديث. ولأن الأمر كذلك

فلقد لجأ إلى المقامة، في حين أن المقامة بالتحديد لا تصلح – كنـــوع أدبـــي – لأن يستفاد من بعض عناصرها في البناء الروائي، نظرًا لتقعـــر لغتـــها، كاريكاتيريـــة شخصياتها والهدف الوعظي التعليمي، بالإضافة طبعًا إلى قصرها.

في المقابل، فإن هناك بعض الأشكال الشعبية التي كانت ما تزال حيـــة بيـــن الناس مثل السير الشعبية أو حتى الحكايات، تحمل بعض العنـــاصر القويـــة، التـــي يمكنها أن تساهم في تخليق شكل أو أشكال روائية عربية. والتجربة الأوروبية فـــي الرواية – كما يشير ميخائيل باختين وغيره (٥) تدعم هذا الـــرأي حيـــث أنـــها قـــد استفادت في بداياتها من أشكال القص الشعبية لدى الجوالة وفي الكرنفالات الشـــعبية وغيرها (ويمكننا أن نضيف أنها قد استفادت من قصص ألف ليلة وليلة التي كانت قد تحولت إلى قصص شعبي أوروبي حين تمثلها الناس وهضموها).

وهنا نعود لنؤكد أنه في مقابل ذلك، لم يتمثل المويلحي عناصر المقامـــة ولـــم يهضمها ولم يفقدها ماضويتها، فظلت عبئًا ثقيلاً رازحًا على الهم الحديث، ولم ينجـــح المويلحي – لهذا السبب– في أن يقدم التصوير الحديث لأزمة المجتمع، ولا أن يقـــدم الحل المناسب لهذه الأزمة.

إن المويلحي حين كتب حديثه لم يكن يحاول أن يقدم مجرد عمل فني، بل عمل فني جديد يلبي احتياجات اجتماعية جديدة تولدت في المجتمع نتيجة نشـــأة الطبقـــة الوسطى الجديدة مع عهد محمد على، ومحاولة للإمساك بأزمة هـــذه الطبقـــة التـــي ينتمي إليها، والتي تمثلت في قوله في نهاية الرحلة الأولى مفسرًا الفساد والخلل فـــي المجتمع : " السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتـــة فـــي البـــلاد الشرقية، وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معايشهم ... لا يلتفتون إلى مـــا هناك من تنافر الطباع، وتباين الأذواق، واختلاف الأقاليم والعادات، ولم ينتقوا منـــها الصحيح من الزائف، والحسن من القبيح، بل أخذوها قضية مسلمة، وظنوا أن فيـــها السعادة والهناء، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كـــان

لديهم من الأصول القويمة، والعادات السليمة، والآداب الطاهرة ..."[٦] الخ.

فبعد أن طاف الراوي ببطله (أحمد باشا المنيكلي) في كفة أرجاء المجتمع المصري في نهايات القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، شاهد معًا كل مظاهر الفساد والتحلل والأدواء، توقف ليسأل عن السبب، فإذا هو في تقليد الشرقيين للغربيين في كل شئ. وهذا صحيح بالطبع. لكن المويلحي في نص لاحق (في نفس الصفحة) يرد هذا التقليد إلى " ما أعقب العزة السابة من البطر والأشر، وما يتولد عنها من طول التواني والتواكل، وسوء التراخي والتخاذل، فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم، ولم يكترثوا بمستقبلهم، وقعدت بهم هماتهم عن مشقة التكاليف التي كان يتباهى أسلافهم باحتمالها ..... ")[٧].

وهذا التفسير الأخلاقي قد يكون صحيحًا أيضًا، لكن المعاصر للمويلحي لا يستطيع أن يعتبره السبب الوحيد في هذه التي كان قد وقع فيها الاحتلال الإنجليزي لمصر، ويتم إلحاقها –استعماريًا– بالسوق الرأسمالي العالمي.

ومع ذلك فحتى لو وافقنا المويلحي على تفسيره، فإن الحل يكون بمراجعة النفس والعمل على تغيير النفوس من الداخل، ولكن المويلحي لا يفعل ذلك، بل ينتقل إلى أوروبا (باريس) في الرحلة الثانية من الكتاب ليقدم حالة واضحة من الذي كان يرفضه من قبل أي حالة الانبهار، وليصل في النهاية – على لسان الحكيم الفرنسي – إلى حل متناقض وتلفيقي. يقول :

" لهذا المدينة (الغربية) الكثير من المحاسن، كما أن لها الكثير من المساوئ، فلا تغمطوها حقها، ولا تبخسوها قدرها، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم، ويلتئم بكم، واتركوا ما يضركم، وينافي طباعكم، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها، وعظيم آلاتها، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين، وشر المستعمرين، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل

عاداتكم، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ...."[٨] .

والنص تكرار لما سبق ولكن به إضافة مهمة، وهي أن ما ينفعنا وينبغي أن نأخذه من الغرب هو " جليل الصناعات وعظيم الآلات " أي التكنولوجيا، أما ما نحن بغنى عنه فهو الأخلاق والعادات. وهذا هو الفصل الثنائي المثالي الغريب (والذي ما يزال يسيطر على أذهان الكثيرين منا حتى الآن) بين الإنتاج المادي والإنتاج الروحي. وهو فصل غير صحيح علميًا، ومستحيل عمليًا. أما إذا حدث، كما هو الحال الآن، فإنه يؤدي إلى خلل حاد في الشخصية الإنسانية وفي بنية المجتمع كله، يصل إلى حد الشيزوفرينيا.

وهنا لا بد أن نلاحظ أنه من الطريف، أنه بهذه الدعوة إلى التمسك بأخلاق الماضي (ومن هنا يمكن أن نفهم عودته للاستعانة بالمقامة)، ينتهي به الأمر إلى تكريس ايديولوجية الرأسمالية الأوروبية التي كانت تسعى في ذلك الوقت – ومازالت – للسيطرة على أسواق الشرق حتى عبر الاستعمار العسكري المباشر والاستيطان. فالمويلحي حينما يعتبر أن التكنولوجيا والبضائع الأوروبية هي أجود ما فيها يدعو إلى استيرادها دون حرج، طالما أننا نتمسك بفضائل أخلاقنا وجميل عاداتنا، وهو – كما سبق القول – المستحيل كما أثبت التاريخ.

هنا يمكننا القول أن العودة إلى الماضي لم تكن عودة صحيحة لأنها كانت من منطلق الذهنية التابعة، التي وقعت أسيرة الانبهار بالحضارة الغربية، فأدى بها هذا الانبهار إلى عدم قدرتها على إحداث الانقطاع / التواصل الحقيقي، مع الماضي ومع الحاضر ومع المستقبل المتوهم (أي النموذج الأوربي). ينطبق هذا الأمر على التعامل مع المقامة ومع الأخلاق والعادات، وينطبق أيضًا، على التعامل مع الرواية ومع التكنولوجيا الغربية (والكتاب يقدم هذه المفاهيم على نحو يكاد يجعلها مترادفات). ومثلما فشل المويلحي في الاستفادة من المقامة لإنجاز رواية، فشل أيضًا في المزاوجة بين الأخلاق القديمة والتكنولوجيا الأوربية، ففشل أخيرًا في فهم أزمة

المجتمع وفي تقديم حل لها جماليًا وفكريًا[٩] .

وهذا الفشل – في تقديري – هو من ناحية نتائج مشروع محمد على التحديثي الذي سبق أن وصفناه، ويكاد – في نفس الوقت – أن يكون مماثلاً له، ولذلك وهذا هو الأخطر، فالكتاب يحاول إحياءه وتجديده دون انتباه لأزمته واستحالة تحقيقه. وهو خطر لم يقف عند هذا الكتاب ومرحلته، بل امتد، وإن بأشكال مختلفة في مختلف جوانب حياتنا وثقافتنا حتى اللحظة الراهنة ويكاد يكون مسئولاً عن جوهر أزمتنا الحديثة بصفة عام [١٠] .

الهوامش

١- راجع وجهة النظر في كتاب :

Peter Gran : Islamic Roots Of Capitalism. University Of Texas Press. Austin 8 London. 1979.

٢- راجع حول هذه القضية تفصيلا كتابنا : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث. دار شوقيات، القاهرة. ١٩٩٣م.

٣- نشر الكتاب منجما في صحيفة مصباح الشرق فيما بين ١٩٨٩م - ١٩٠٢م ثم صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٧م.

٤- الحديث في طبعته الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٤٧م.

٥- راجع باختين : الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٨٧م. وكذلك كتاب " نظرية الأدب" لمجموعة من العلماء السوفيت، ترجمة جميل نصيف التكريتي. بغداد ١٩٨٠م ص٢٢٥ وما بعدها.

٦- الحديث، ص٢٥٢.

٧- الحديث، ص٢٥٢.

٨- نفسه ص٣١٥.

٩- راجع حول هذه القضية تفصيلا كتابيا " محتوى الشكل في الرواية العربية " الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م. وهو الذي اعتمدنا عليه أساسا في هذه الورقة، مع الإيجاز والإضافات المفهومة الجديدة.

١٠- راجع حول هذه الأزمة كتابنا " الحداثة التابعة في الثقافة المصرية " تحت الطبع. دار مريت للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

محمد على والحضارة القديمة

د. مجدى عبد الحافظ

يكتنف موضوع محمد على والحضارة المصرية القديمة كثير من الغموض، وكلما عثرنا على مزيد من المراجع أو الوثائق الخاصة بهذا الموضوع كلما ذادت حيرتنا، وتضاعفت إشكاليات الموضوع. إذ أن النظرة على هذه المصادر تؤكد بما لا يدع مجالا لآى شك على تناقض نلحظه منذ الوهلة الأولى ، يظل يصاحبنا طيلة الدراسة، وهو ما يتمثل في الفوضى التي تم التعامل بهما مع الآثار المصرية القديمة: فوضي التصاريح والقوانين والأقوال والأفعال.

وكلها وإن كانت صادرة عن نفس المصدر ، ألا وهو والي مصر محمد علي، إلا إننا نلحظ غياب خيط ناظم يؤطرها لتصب في النهاية في صالح سياسة أثرية واضحة. بل علي العكس كان التناقض هو السمة الغالبة التي ميزت هذه المصادر.

إن الحيرة التي تتملكنا أحيانا أمام بعض الموضوعات وقراءة النصوص المختلفة عندما نكتشف التباين ، بل التناقض الصريح فيما نعاينه ينطبق بامتياز علي موضوعنا هذا ،خاصة عندما نستطيع التأكيد وبيقين ثابت أن آثار الحضارة المصرية القديمة في عهد محمد علي لم يكن ينظمها قانون أو لائحة ما. أكثر من ذلك لم تلق أبدا الاهتمام والاحترام الواجبين ، لا من قبل الأهالي الذين أطلقوا عليها تعبير " المساخيط "، ولا من قبل السلطات الحاكمة التي لم تتورع عن هدم المعابد والمسلات الفرعونية القديمة، بينما كانت المومياوات تجارة رائجة داخل مصر وخارجها.

في الوقت نفسه لا نعدم وجود مصادر أخري تؤكد وبنفس اليقين السابق اهتمام والي مصر بالحضارة والآثار المصرية القديمة سواء من خلال القول أو الفعل، بل سنجد عشرات النصوص والوقائع والأحداث التي تؤكد وتبرز هذا الاهتمام.

ما الصحيح وما الحقيقي الذي يمكن أن نعتمده في هاتين الرؤيتين إذن؟ يلح علينا هذا السؤال وبشدة ، ولكي نهم بالإجابة علية سيكون من الأوفق التعرض أولا لعناصر تلك الرؤيتين حيث سيمدنا هذا العرض ببعض التفاصيل التي ستعيننا علي الاطلاع علي الكيفية التي تم التعامل من خلالها مع آثار الحضارة المصرية القديمة.

<u>الرؤية الأولي : الإهمال التام لآثار الحضارة المصرية القديمة :</u>

١- إن نظرة واحدة علي الأوامر التي أصدرها محمد علي خلال فترة حكمه الممتدة (١٨٠٥-١٨٤٨م) والخاصة بالآثار المصرية يمكنها أن تؤكد تلك الرؤية ، حيث اقتصرت هذه الأوامر علي إعطاء أي أجنبي يريد الحق في التنقيب عن الآثار في المكان الذي يحلو له، إضافة إلي أنها كانت تعطيهم الحق في الاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار قديمة[١] ولعل أشهر البيورلديات كان لشامبليون حيث يصرح فيه إلي "صديقه المسيو شامباليون " الفرنساوي بالسياحة في أعلي الأقاليم الصعيدية إلي بربر ولكونه ضيف يلزم مساعدته من عموم المأمورين في كل ما يلزم له "[٢]

٢- جرت العادة علي استخدام المعابد والمقابر والقصور الفرعونية القديمة كمحاجر يستفاد منها في بناء المعسكرات الخاصة بالجيش ، إضافة إلي الورش والجسور التي شهدت طفرة كبيرة في هذه الحقبة التاريخية . تلك الحقبة التي شهدت أيضا تصاعدا كبيراً علي صعيد التدمير الذي لحق بالآثار المصرية القديمة.

وقد حصر كثيرا من الرحالة الأوربيين في تقاريرهم وكتاباتهم آثارا كثيرة قد دُمرت بالكامل، ولعل أشهر هذه التقارير هو الذي وضعه شامبليون اثناء رحلته لمصر التي وصلها في ١٨ أغسطس ١٨٢٨م ، وغادرها في ٢٩ نوفمبر سنة١٨٢٩م بعد أن جابها من أقصي الشمال إلى أقصى الجنوب مما أتاح له مقارنة ما أحصاه كتاب "وصف مصر " من آثار مع الواقع الفعلي المرير الذي

اعترف بهدم حوالي ثلاثة عشرة أثرا يذكرهم شـامبليون جميعا مؤكـدا " أن الرحالة يشعرون بالأسف والحسرة وكذلك كل أوروبا المتحضرة التـي تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميرا تاما وشاملا منذ بضع سـنوات دون أن يبقي منها أدني أثر" مذكرا الباشا بأن "فقدان تلك الآثار يثير مخـاوف كل طبقات المثقفين وقلقهم بشأن المصير الذي ينتظر الآثار الأخـرى التـي لا تزال قائمة حتى الآن "[٣].

كما يذكر لنـا جاسـتون فيـت G.wiet مذكـرة قدمـها قنصـل فرنسـا ميموMIMAUT إلي محمد علي باشا بشأن مطالبته بوقف قيام العمال بهدم معبـد دندرة من اجل بناء مصنع لنسيج القطن في قنا في ٢٤ فبراير سنه ١٨٣١ ، كمـا يذكر لنا تدخل بيكلر ميسكو Puckler Muskou لنفس الغرض ، ويحدثنـا رغبـة ميسكو في أن يجعل من مصر متحف ضخم ، ويكتب فيت معلقـا " إلا أنـه فـي إمبراطورية محمد علي ليس ثمة مكان يتسع لشئ آخر غير المعسكرات والمصـانع، والمدارس التطبيقية"[٤].

ويضيف أن العديد من الأعمدة والكتل الفنية تم إختفائـها مـن الاسـكندرية لاستخدامها في بناء المعسكرات وفي الأعمال البحرية التي أدارهـا دى سـيريزى DE CERISY ويحكي لينا دى بلفون LINANT DE BELLEFONDS إلـي دى إستورمل D'ESTOURMEL انه حاول بلا جدوى الحصول من الباشا علـي ثلاث فرمانات تعمل علي إيقاف الدمار الشامل للآثار الرائعة لمدينـة انتينوبوليـس NTINOE (الشيخ عباده)[٥] .

ويؤكد فيت أن استورمل نفسه خلال مقابله له مع الوالي سنه ١٨٣٣م اشـتكي إليه الدمار الذي يلحق بالآثارالقديمة، ووعده الباشا بأنه سيعمل علي أن تنفذ أوامـره الخاصة بهذا الموضوع. ولعل حادثة الشروع في هدم الهرم الأكبر من اجل بناءأحد

السدود في بداية عام سنة ١٨٣٦م ، تظل هي الطامة الكبرى لعصر محمد علي بأكمله. إذ طلب الباشا من لينا دى بلفون ترتيب هذا الأمر. ويكتب قنصل فرنسا ميمو خطابا مطولا لمحمد علي يحذره فيه من مغبة هذا العمل الذي ينتمي للهمجية ، مما سينال اسم وسمعة محمد علي الذي عرف في اوروبا مرتبطا بالانشاء والعمران عندما سيرتبط بتدمير أعظم أثر خلفته البشرية علي ارض مصر وهو عجيبة من عجائب الدنيا السبع "الأهرام ".

ويذكره في رسالته بالمحاولات السابقة لهدم الهرم الأكبر والفشل الذي حالفهما. ويذكره أيضا بالرأي العام القوي الذي يحسب له ألف حساب في فرنسا وأوروبا، وكيف أن هذا العمل سيؤدي إلي فقدان الباشا للمؤيدين و المتعاطفين معه.

إلا أن محمد علي حينما اطلع علي ميزانية المشروع واكتشف أنها فاقت كل الحدود تراجع عما قرره ، وعاد مرة أخرى إلي محاجر المقطم [٦].

هذا وقد عاين ريفو RIFAUD من قبل ما من شأنه أن يؤدي إلي ما سبق عندما قال: "لم يفهم بعد سادة الأرض المصرية ما هي الفائدة التي ترتبط بالآثار القديمة وبالأطلال التي تكشفهما . فمصر الرئيسية ، القاهرة أو الجيزة لا تتمتع بوجود الجمعيات العلمية ".

إن المراجعات التي قمنا بها في أوامر محمد علي والتي تقع في جزئين ، مقارنة ، ومطابقة لما وافق عليه محمد علي في مقابلات شامبليون الخاصة به ، والتي ذكرها شامبليون بمذكراته، وغالباً ما تكون في شكل مطالب ، ومكاسب خاصة بالآثار ، وتتطلب بعض الاجراءات ، وعلي الرغم من موافقة محمد علي عليها ، إلا أننا عندما قمنا بمراجعة أوامر محمد علي في التواريخ التي ذكرها شامبليون ، نجد أن محمد علي لم يهتم باستصدار فرمانات تنظم وتنفذ ما وافق عليه من قبل. مما يؤكد علي غياب القناعة بأهمية ما كان يوافق عليه في حينه ، وكأن

موافقته كانت عبارة عن مجاملات دبلوماسية ، ولم تشكل بعد أهميـــة مـــا داخـــل المشروع الكبير لمحمد علي في مرحلته الأولي. الذي حافظ فيه طيلة الوقت علـــي المتوارث رغم إيمانه بالتحديث في مجالات التقنية، إذ نجـــده يطلـــق علـــي أحـــد المسلات، والأرجح أن تكون مسلة الأقصر التي تم إهدائها لفرنسا ، يطلـــق عليـــها "أحد الأعمدة الكفرية "(٨)

<u>الرؤية الثانية : الاهتمام الكامل لآثار الحضارة المصرية القديمة :-</u>

تستند الرؤية الثانية علي تنفيذ ما يمكن أن يحسب علي الأوامر الصادرة عـــن الباشا والتي أتاحت لكل أجنبي البحث عن الآثار في مصر. إذ أن قبل محمد علي لـــم يكن الأجنبي في حاجة أصلا لتصريح ، وبالتالي لا نستطيع أن نحصي ما خرج من آثار مصريه مع الأجانب قبل عصر محمد علي.

وإذا كان مجموع ما خرج من آثار في عصر محمد علي كثير جدًا بإحصـــاء التصاريح التي أصدرها للأجانب ، إلا أن ما خـــرج قبلـــه يفـــوق مجموعـــه آلاف المرات، لأن كل أجنبي كان يمكنه القيام بالحفائر والاستيلاء علي ما يعثر عليه دون ادني تدخل من السلطات التي انشغلت في التطاحن فيما بينها علي السلطة. وإذا كانت هذه السلطات لم تنشغل يوما بموضوع الآثار ، فان محمد علـــي قـــد شـــغله هـــذا الموضوع ولو بشكل جزئي ، والدليل إخضاعه لتصريح من الدولة.

أكثر من ذلك فلقد تمت تحت حكم محمد علي بعض الاكتشافات عن طريـــق التقنيات التي صرح بها ففى سنه ١٨١٧م تمت بعض الاكتشافات في الهرم الأكـــبر عن طريق كافيجاليا CAVIGALIA كما تم مع نفس المهمة رفع الرمال عن أبـــو الهول. وفي سنة ١٨١٨م تمت اكتشافات أخري في الهرم الثاني (خفـــرع ، عـــن طريق بلزانى BELZANI الذي عمل في خدمة سالت SALT .

ولم تنته الاكتشافات في منطقة الأهرامات إلـــي هـــذا الحـــد ، بـــل توبعـــت

الاكتشافات في المنطقة عن طريق الكولونيل الإنجليزي ويز WYSE، وفيما بعد عن طريق لبسيس LEPSIUS.(٩)

ولا ننسي أن مهمة شامبليون العلمية التي تمت في سنه ١٨٢٨م – سنه ١٨٢٩م لم تتم إلا بموافقته وبمباركته وبتصاريحه التي سهلت المهمة.ولعلنا نعرف مدي تقدير واهتمام محمد علي بأبحاث واكتشافات شامبليون الأثرية ، وقيامه باستقباله في عديد من المرات ، بل استمرت نقاشاتهما لساعات طوال.

ولعل الأدبيات المكتوبة تحكي لنا عن مدى هذا التقدير الذي كان يكنه الباشا لمكتشف رموز اللغة الهيروغليفية. ففي أحد الأمسيات حيث كان شامبليون مدعوا علي العشاء لدي الباشا وولي عهده إبراهيم باشا ، وبصحبة الطبيب الفرنسي باريزيت PARISET ، حدث أن ألمت بولي العهد أثناء العشاء أزمة قلبية ، قام الطبيب باريزيت علي الفور بالتدخل و أنقذ إبراهيم باشا من موت محقق تحت وقع تأثر الباشا البالغ الذي أخذ يردد "بعث الأول (يقصد الطبيب باريزيت) ابني إلي الحياة من جديد بينما أحيا الأخر (يقصد شامبليون) مجد وعزة بلدي الذي أندثر من زمن سحيق ! (١٠).

ولعلنا نذكر عبارته الشهيرة إلي شامبليون عندما قال له : "من بين كل المذاهب الأوربية ، لا أطالب لي ولشعبي إلا بمذهب فك الرموز الهيروغليفية !"(١١)

ومن شدة اهتمام محمد علي بالآثار وبالاكتشاف العظيم لشامبليون أهدى إليه سيفا محلي بالذهب كما يقول فيت " كشاهد علي الرضا الذي انتابه عندما شاهد الرسومات الجميلة ذات البروز القديمة التي كانت تملأ حقائبه "(١٢). والمعروف أيضا أن محمد علي المحب لكتب التاريخ وأحداثه و المستمع الجيد لأخبار الملوك والحكام القدامى كان قد التمس من شامبليون أن يكتب له موجزا عن تاريخ مصر القديمة ، فوعده بذلك ، وبالفعل قام بتسليم محمد علي لهذا الموجز في ٢٩ نوفمبر سنه

١٨٢٩م قبل مغادرته لمصر وقد قرأه محمد على جيداً ودرس ما جاء فيه بعناية تامة كما سنكتشف فيما بعد.

كما أن باشا مصر لم يكن يقف مكتوف الأيدي أمام العبث بالآثار المصرية القديمة ، فعلي أثر هدم سالت SALT جزءا من معبد الكرنك ، أتخذ الوالي من الإجراءات والضوابط ما جعل كايبو CAILLIAUD المهتم بآثار مصر يحيي قرارات الباشا قائلا "لا نستطيع إلا التصفيق لهذه الضوابط الشديدة التي اتخذها محمد علي منذ فترة قصيرة والذي أعلن خلالهما من نفسه حامي آثار مصر ، إذ أن رعايا أمم اكثر تحضرا لم تعرف احترام الآثار بما فيه الكفاية "[١٣].

ولعل قرار إنشاء المتحف الخاص بالآثار المصرية يُعزي إلي محمد علي نفسه حينما شعر بالخزي بعدما شاهد المعاملة المهينة التي يتعامل بها تجار ومرتزقة الآثار مع الآثار المصرية ، فأمر بالجريدة الرسمية في ١٥ أغسطس سنة ١٨٣٥م بأمر علي قدر خطير من الأهمية يوضح المدى الذي بلغه محمد علي في الاهتمام بالآثار والنضج الذي بلغه في التعامل معها إذ يقول الأمر : "يحدث أن بعض الأجانب يقومون بهدم الأبنية القديمة ويأخذون منها أحجار وأشياء أخري مشغوله ، ويصدرونها إلي البلدان الأجنبية وإذا ما استمرت هذه العمليات ، فإنه مما لا شك فيه فإنه في وقت قصير جدا لن يعد لمصر شيئا من الآثار القديمة وسينتقل كل شيء للخارج.

ومن المعروف أيضا أن للأوربيين أبنية يكرسون الجهد فيها لصيانة الأشياء القديمة، والأحجار المغطاة بالرسومات والنقوش ، وأشياء أخري مماثلة محفوظة فيها بعناية وتعرض علي سكان البلاد وأيضا علي الرحالة الذين يرغبون مشاهدتها ومعرفتها ، مثل هذه المباني تعطي للبلاد التي تملكهما شهرة عظيمة.

واعتبارا من هذه الوقائع فإن الحكومة قد قررت منع تصدير هذه الأشياء

القديمة التي توجد في الأبنية القديمة بمصر إلي الخارج ، وهي لديها قيمة جد عظيمة ، هذا وسنخصص في العاصمة ذاتها مكانا سيستخدم لوضع الآثار التي عثر عليها أو سيعثر عليها عقب التنقيبات . لعرض هذه الآثار علي الرحالة الذين يزورون البلاد. وقد قررت الحكومة منع هدم الأبنية القديمة الموجودة بمصر العليا، والسهر علي صيانتها بكل العناية الممكنة "(١٤).

وفي مراجعة لأوامر محمد علي الصادرة بالفعل في تلك الفترة نجد أمره إلي مدير قنا في سنه ١٨٣٥م، يقول فيه "سبق ونبهت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة علي المباني القديمة الموجودة بدندرة تجاه قنا وببناء صورا بأطرافها والأن سمعت بإخراج أحجار من داخل البناء المذكور وجاري أعمالها جبرا ومن الضروري معرفة صحة ذلك من عدمه فإن كان صحيحا ينبغي إيضاح الأسباب المبني عليها مخالفة التنبيهات '(١٥).

ونجد مكاتبة أخري لمحمد علي في ٨ يناير سنة ١٨٣٦م موجهة لأحد موظفيه يرد بها علي تقرير كان قد رُفع إليه يقول فيها : " أخذنا علما بتقريركم المؤرخ في ١٣ رمضان سنة ١٢٥١هـ (٢ يناير) ، والذي أحطنا علما بوجود ١٨٨قطعة أثرية صغيرة وكبيرة موضوعة بمخزن للبضائع ،وتلتمسون التصريح بنقلها في مكان سننشأه لهذا الغرض في مدرسة الألسن.

فلتعلم أني ارغب بكل ما أوتيت من حيوية وطاقة أن يتم الانتهاء من هذه المباني التي نريدها بأقصى سرعة وأن تنقل إليها هذه القطع الأثرية. لذا أرجو إبلاغ كل من له علاقة بهذا الموضوع بإنهاء هذه الأعمال في اقرب فرصة ممكنة"(١٦).

وإذا غلفنا هذه الرؤية الثانية بعاطفة الحب الجياشة لمحمد علي تجاه مصر والتي تجلت في عبارات التقدير والعشق كقوله " أحب بلادي وسأبرهن أن هذا الحب جزء من ديني "(١٧) أو قوله : " نوالنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم

الجسيمة. وعدم القيام بالسعي والاجتهاد في عماريتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا لا تقبله شيم جبلتي وتأبى نفسي أن أكون شريكًا لكم في ذلك "[١٨] كذلك قوله أوديفريد سنة ١٨٤٢ " لا أرغب أبدًا في زيارة شعوب أوربا. أنا أحب مصر لدرجة أنني لا أود زيارة البلدان الأخرى. أما فيما يختص بالعلم المنتشر بين الدول الأوربية فأني عرفت كيف أستخلصه من جميع الأجانب الذين هبطوا، وأن استغل كل ما استحسنته فيهم "[١٩] أو في قوله إلى بوكهارات : " إني أحب مصر بكل حرارة العاشق. ولو أعطيت عشرة آلاف حياة، لضحيت بهما جميعًا راضيًا من أجل امتلاكها"[٢٠]. هذه العاطفة تجعلنا نقول في النهاية إضافة إلى ما سبق أن محمد على هو صاحب النهضة الأثرية العظيمة في مصر، مما سيتناقض تمامًا مع الرؤية الأولى، ويحيلنا إلى التناقض الذي رصدناه في البداية، وإلى تساؤلنا الأصلي : ما الصحيح والحقيقي في الرؤيتين ؟

لعل العودة إلى الفضاء الثقافي المرتبط بالسياق التاريخي لهذا العصر ربما تجعلنا نرى الصورة أشد وضوحًا، حيث سيطلعنا هذا على الشائع والمتعارف عليه من قيم ثقافية سادت بما يجعلنا – ربما – نكشف عن سر هذا التناقض الذي افترضناه، وبالتالي سيدفعنا بدوره إلى البحث عن أفاق تحليلية تفسر التناقض خارج إطار الرؤيتين السابقتين.

<u>الفضاء الثقافي المرتبط بالسياق التاريخي الذي دارت خلاله الأحداث :</u>

<u>أولاً :</u> أمام استخدام الأماكن الأثرية كمحاجر، وهو ما عايناه في عهد محمد على لابد من الاعتراف بأن العادة قد جرت منذ القدم في العصور المختلفة أن يتم الاعتماد في الإنشاءات والأبنية المختلفة على الأحجار الخاصة بالمعابد والآثار المختلفة، فلم يكن معروفًا في التعامل مع الآثار أية قوانين أو لوائح، والتاريخ مليء منذ عصر عمرو بن العاص وحتى محمد على، فلم تكن ملكًا لأحد – كما كانوا

يتصورن – بل هي ملك لمن يجدها. ولم يكن هذا مستهجنا على الإطلاق لاعتبارات دينية في الأساس اعتبرت هذه الآثار إطلال وخرائب لأمم وأقوام سابقة عاثوا في الأرض فسادا، فكان الخراب نقمة من الله، أو هي آثار الكفرة والفراعين، أو ما أطلق عليه العامة كما رأينا تعبير " المساخيط "!. ومن هنا لم يكن عصر محمد على استثناءاً، أو أنه قد استن هذه السنة البغيضة خلافًا لما كانت تقضي به الأعراف أو عادات وتقاليد العصور السابقة عليه.

ومن المعروف أن المسئولين عن تنفيذ تلك الأعمال والإنشاءات كانوا يتوجهون مباشرة دون تصريح أو إذن خاص من الوالي، إذ كان الاتجاه إلى الآثار واتخاذها كمحاجر مسلمة أو بديهية ظلت كذلك عبر العصور المختلفة، وحتى بعد عصر محمد على عندما طلب الخديو عباس الأول الاعتماد على أحجار الهرم الأكبر في بناء القناطر الخيرية، رغم ما أثاره هذا المطلب من ردود فعل قبل سنوات.

ثانيًا : لا بد وأن نعترف بأن الوعي الأثري الذي نعرفه اليوم كان غائبًا عمن عاشوا في عصر محمد على، إذ لم يكن معروفًا بنفس القدر، لا في بلداننا في الشرق العربي الإسلامي، ولا حتى في العالم الغربي الأوروبي مع الاختلاف في النسبة. إذ كان مقصوراً على النخبة من بعض المختصين والمثقفين، وهناك العديد من الوقائع التي تثبت ذلك، سنقصرها على تخلف هذا الوعي عن أوربا، حيث أن الفقرة السابقة (أولاً) تؤكد بما لا يدع لأي شك من تخلف هذا الوعي الأثري عن مصر في عهد محمد على باشا :

- إن اشتراك العديد من الأجانب في عمليات الهدم والنهب المنظم للآثار المصرية يدل على تخلف هذا الوعي، ولقد لاحظ محمد على نفسه هذا، فعندما طالبه أحد الأوربيين بحماية الآثار نجده يثور قائلاً : " أن الأوربيين أنفسهم أكثر من أبناء البلد، هم الذين يعملون على تراجع الآثار فهم الذين يبيعون ويصدرون

هذه الآثار "[٢١] ولقد لاحظنا من قبل كيف أن سالت القنصل الإنجليزي المحب للآثار قام بهدم جزء من معبد الكرنك. أكثر من ذلك نجد أن بعض من عملوا في الاكتشافات الأثرية مثل لبسيس LEPSIUS مثلاً، نجده في فترة أخرى في موقع أخر وعلى رأس قوة مخربة للآثار من أجل الإنشاءات المدنية، تمامًا كما فعل دي سيريزي DE CERISY[٢٢]. وهو الأمر الذي يؤكد على أن هؤلاء عملوا كموظفين لدى المغامرين الأجانب الذين جاءوا للبحث عن الآثار ونهبها، أو لدى الحكومة المصرية، ينفذون ما يطلب منهم طالما حصلوا على مرتباتهم وامتيازاتهم دون أن تكون أنشطتهم مرتبطة بوعي أثري أو ضمير مهني كما يمكن أن يظن.

وعلينا ألا نستغرب هذا فهناك العديد من الدلائل التي تؤيد رأينا هذا، إذ يكفي النظر إلى أوربا في هذا العصر لنتأكد بأنفسنا، ففي فرنسا التي كانت تشكل قلب الثقافة الأوربية لم يقم مجلس نوابها بالتصويت لأول مرة على توفير اعتمادات لحفظ الآثار الفرنسية إلا في سنة ١٨٣١م. أكثر من ذلك فإن مجلس الآثار التاريخية لم ينشأ إلا في عام ١٨٣٧م[٢٣] .

وهناك من الحكايات التي تروى في أوربا الكثير لتأكيد غياب هذا الوعي الحضاري الأثري عن قطاع كبير من الأوربيين فيحكي استرومل أنه بينما كان يتفقد معبد ديان TEMPLE DE DIANE في أحد حدائق مدينة نيم NÎMES الفرنسية في سنة ١٨١٦م، كان يتدلى جزء من الموازيك من سقف المعبد، وعندما أراد اختباره تطوع أحد الحاضرين بسرعة فكره، وقدمه له ليشاهده تحت نظرات الغرابة والاستهجان من استرومل الذي سأله عن وظيفته فهاله أن يسمع بأنه الأمين المكلف بحماية الأثر[٢٤]. كما يحكى بيكلر ميسكو بأنه طلب من الجيش الفرنسي في الجزائر إنقاذ بعض الأعمال الفنية، إضافة إلى البحث في منطقة قسنطينة عن بقايا أعمدة

رومانية إلا أنه سجل بكل الأسى بأنه لم يكن يتحدث إلا مع صم لا يسمعون(٢٥).

ولعل نظرة إلى أثنين من الأوربين ممن عملا فى مصر لفترات طويلة فى عصر محمد على، الأول وهو سالت SALT قنصل إنجلترا والآخر وهو دروفيتي DROVETTI قنصل فرنسا وقد اشتهر عنهما الحب الشديد للآثار، بل عشقهما للحضارة المصرية القديمة، وتعاونا في البداية. وقد استمرت المنافسات والكراهية الشديد بينهما، واتهم كل منهما الآخر بنهب الآثار وسرقتها وإرسالها لبلده . إلا أنه في حقيقة الأمر لم تكن منافستهما إلا علي ما يجنياه من أرباح طائلة من هذه التجارة، ولقد وجدنا أن أحدهما وهو سالت لم يتورع عن هدم جزء من معبد الكرنك لحساب أحد الأوربيين. اكثر من ذلك نكتشف فيما بعد أن المجموعة الأثرية الخاصة بسالت القنصل الانجليزي قد اقتناها متحف اللوفر الفرنسي ، بينما نكتشف أن المجموعة الأثرية الخاصة بدروفيتي القنصل الفرنسي قد باعها لمتحف تيران بإيطاليا (٢٦).

وهكذ نتأكد من الأسباب الخفية للمنافسة، ونستبعد أن يكون الوعي الأثرى في خلفية التنافس.

هل آن لنا أن نستخلص شيئا الآن يمكن أن يفسر التناقض الذي تحدثنا عنة من قبل ؟ نعم إذ يمكننا استخلاص أن موضوع الحضارة المصرية القديمة وأثارها لم يشكل لمحمد علي أية وضعية استثنائية ، غير أنه كان مثل كل الموضوعات التي حاول استثمارها إلي أقصي درجة لتحقيق اكبر قدر ممكن من العوائد ، ومن هنا شعورنا بتناقض الأوامر ، وتناقض القول مع الفعل ، وإقرار بعض الأمور والتراجع عنها ، وهو ما يفسر بأن الغرض الأساسي لم يكن الآثار في ذاتها، بقدر ما كان في حساب ما سيجلبه القرار أو الإجراء من نفع وعائد علي مشروعات الباشا الآتية.

إن العنصر المؤثر في اختيارات محمد علي يظل – في رأينا – أنه لم يفهم

من "العلم " إلا الجانب التقني التطبيقي فقط ، أي لم يفهم سوي تقنية العلم ، وهو فهم براجماتي خالص . وفاته الجانب الكامن في العلم ، ذلك الجانب المبدع الخلاق المطوّر للأذهان والمناهج ، وبالتالي القادر عي النمو الذاتي دوما.

ولذا كان أهم ما يحرص عليه في بعثاته التعليمية إلي أوروبا هذا الجانب التطبيقي ونظرة إلي أحد أوامره تؤكد لنا هذا البُعد الذي كان شديد الحرص فيطلب من عبدي أفندي مأمور التلامذة بباريس بعد أن علم أنهم قد أنهوا التعليمات الملكية والخارجية والعسكرية ، وهو ما نسميه اليوم بمعارفهم النظرية ، نجده يقول : "فقط يلزم لهم تطبيق العلم علي العمل الذي لا يكونْ إلا بسياحتهم وحيث أن ذلك لا يطابق الأصول المصرية فبصرف النظر عن ذلك وحضوره بهم إلي مصر لإلحاقهم بالمصالح لتطبيق معارفهم علي العمليات بها ومداركه ما يلزم لهم من الآلات من باريس لعدم ضياع الوقت .."[٢٧] وهو لا يترك أية مناسبة إلا وقام باستغلالها للتأكيد علي هذا المنحني الذي أعتبره أساسيا فتجده في أحد أوامره لوكيل الجهادية يطلب منه "إرسال تلامذة المهندسخانه مع أساتذتهما إلي المحل المزمع إنشاء قناطر به وتخصيص خيام لهم لرؤية العمل وتطبيق العلم عليه "[٢٨].

ولم يكن يقبل محمد علي بأي حال من الأحوال بتعيين تلامذة البعثات التي أرسلها ، وعادوا وقد أتموا بعثاتهم بنجاح ، إلا بعد اختبار قدراتهم التطبيقية في مجال العلم الذي تعلموا وبرعوا فيه ، فيطلب من ناظر البحرية "بامتحان التلامذة الذين تعلموا فن الصب بأوروبا وتجديد الآلات البخارية الحاضرين منها لمعرفة اقتدارهم علي تطبيق العلم علي العمل وأفادته بما يتضح"[٢٩].

هكذا كان التطبيق هو ما يلح عليه ، وما يعطيه الأولوية القصوى في حقل اهتماماته. ورأينا هذا ليس حكما قيميا ، أي ليس حكما علي محمد علي بالسلب أو بالإيجاب ، فهو ليس اكثر من معاينة باعتبار أن واقع وشخص محمد علي لم يكن

يسمح له بفهم هذا الفرق. إلا أن هذه المعاينة ذاتها يمكنها أن تفتح لنا بعض مغـــاليق الفهم. وهو ما طُبق عمليا في استثمار محمد علـــي للحضـــارة المصريـــة القديمـــة وآثارها.

<u>الجانب العملي التطبيقي من استثمار آثار الحضارة المصرية القديمة فـــي عصـــر محمد علي :</u>

لكي نفهم كيف تألق محمد علي ذلك التألق لابد وأن نشير أنها كـانت وسـيلة ناجعة في يد محمد علي جاءت في وقتها المناسب فمنذ أن استطاع شـــامبليون فـك رموز اللغة الهيروغليفية في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢م نجد أنه قد ذاد اهتمام العـــالم الغربي بآثار الحضارة المصرية القديمة لحد كبير ، وظل في تزايد مستمر يوم بعـد يوم ، وهو ما جعل محمد علي يعمل علي استثمار هذا الأمر في التقرب من أوروبـا الغربية التي كان في حاجة إلي خدماتها من أجـل تحقيـق مشـروعه الحضـاري والاستقلالي الضخم بمصر ، سواء في إرسال بعثاته العلمية إليها ، أو في اسـتقدام العقول والخبرات منها، وفي مرحله لاحقة كوسيلة لتحسين صورته الشخصية التـي تراجعت لحد كبير عقب حرب المورة باليونان.

واندلعت حرب المورة في فبراير سنة ١٨٢١م ، وخمدت في أول أكتوبر سنه ١٨٢٨م وشارك فيها محمد علي بناءا علي طلب الباب العالي ، حيث كان العثمانيون يعانون الهزيمة و الانكسار في كل مكان ،ولم يبق لهم سوي مودون ، وميناكورون الذي كان يحاصره اليونانيون[٣٠] وعند وصول القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشـا نجل محمد علي في أواخر أغسطس سنه ١٨٢٢م كانت نفارين أيضا قد وقعت فـي أيدي الثوار ، إلا أن القوات المصرية التي وصل تعدادها في هذه الحرب إلـي ٤٢ ألفا ، وبلغت نفقاتها ٧٧٥ ألف جنيها[٣١]، قد استطاعت تغيير الموقـف العسـكري لصالح العثمانيين ،وذلك بفضل شدة المقاتلين المصريين وحماسـهم وانتصاراتـهم

الساحقة علي الثوار وما ألحقوه بهم من خسائر جسيمة. هذا مع شجاعة الثوار اليونانيين بما فيهم الشيوخ والأطفال والنساء مما خلّف معه مذابح ودمار ترك تأثيرا سلبيا شديدا علي البلدان الأوربية خاصة إذا علمنا أن مصر قد خسرت ٣٠ ألف مقاتل ، كما خسرت أسطولها الحربي في نفارين مما يعطي صورة عن الدمار والخراب الذي خلفته الحرب وهو ما جعل صورة محمد علي باشا الوالي المصري في أوروبا حاكما محبا للدماء والقتل.

واهتزاز صورة محمد علي في الغرب بشدة عقب حرب المورة يؤيدها ما قاله شارل ديدييه من " أن حكومة باشا مصر وحتي حرب استقلال اليونان كانت تتمتع بتقدير كل الرحالة. وكانت صورة محمد علي على احسن ما يرام في الغرب، وعلى الأخص في فرنسا " ، وهذا يبين لنا شعبية محمد علي لدي الرأي العام الفرنسي خاصة عندما أهدى للملك شارل العاشر فى سنة ١٨٢٦م "زرانة" وفى سنة ١٨٣٠م يصف صورته في أعقاب حرب المورة بأنها قد تكسرت لدي الرأي العام العالمي وثارت ضدها الصحف والمؤسسات المختلفة[٣٢].

والمعروف أن صورة محمد علي تلك التي تشوهت لدي الأنتليجنسيا الأوربية ظلت حاضرة ، حيث تم تصوير حرب استقلال اليونان دائما وكأنها كانت بين الخير والشر ، الخير الذي مثلته الحضارة والعقل الأوربي في مقابل الشر الذي مثلته البربرية التي لا تعبأ بالثقافة المتمثلة في الأتراك ومن والاهم. وقد جسد الفنان دلاكروا في لوحتين المذابح الفظيعة التي ارتكبت في معركة مسيولونجي (إحدى معارك حرب المورة) من قبل جيش محمد علي بقيادة نجله إبراهيم باشا الذي تحول في الرأي العام الفرنسي إلي بربري متعطش للدماء. إضافة إلي ذلك إدانة شاتوبريان للاستبداد التركي ، وخاصة ما ارتكب في اليونان باعتباره عدوانا علي المدنية[٣٣].

ولكي يحسّن محمد علي من صورته تلك التي اهتزت في الغرب استخدم في

نشاطه هذا عديد من الوسائل علي محاور عدة نتخير بعضها :

١-عسكريا امتنع تماما عن الاشتراك في حرب السلطان العثماني محمـــود ضـد روسيا ، عقب عودة الجيش المصري من اليونان في سنه ١٨٢٨م.

٢- إعلاميا استغلال الدعاية الاعلامية (البروباجندا) فـي الغـرب عـن طريـق موظفيه من الغربيين ، ولعل كتاب كلوت بك "لمحه عن مصر " يدخل في هـذا السياق ، وكذا كتاب بلانا "تاريخ إحياء مصر ".

٣-ثقافيا استغلال فك طلاسم حجر رشيد وكشف الأسرار لأول مرة عن الحضـارة المصرية القديمة وآثارها ، وهو موضوع بحثنا هذا .

آليات استثمار الحضارة المصرية القديمة وآثارها :-

لقد تمثل هذا الموضوع في الكيفية التي يمكن من خلالها الاستفادة مـن هـذا العنصر ، ليس فقط في تحسين صورة محمد علي في الغرب والتي تشوهت عقـب حرب المورة - كما رأينا - ولكن أيضا في الاستفادة به واستغلاله علـي مسـتوي المشروع الحضاري الاستقلالي لمحمد علي في مصر. ولكم ساهمت النبذة التاريخية التي كتبها شامبليون وسلمها لمحمد علي قبل مغادرته لمصر في التأكيد علـي هـذا المشروع المصري ، وكان كتبها بناء علي طلب محمد علي نفسـه الـذي أرادا أن يعرف شيئا عن أسرار ملوك وتاريخ الدولة الفرعونية بمصر وسنتبع هذه الآليـات علي محاور ثلاث :-

المحور الأول :

وهو الاستفادة المباشرة والعينية من تلك الآثار ، وإهدائها مباشرة ألي ملـوك وأمراء العالم من جهة ، أو إلي سفرائهم وقناصلهم المعتمدين في مصر مـن جهـة أخري أو تسهيل إجراءات البحث عنها ونقلها وتصديرها خـارج البـلاد وإعطـاء

التصاريح "والبيورلديات " التى تخول لهم ذلك، ففي أمر لمدير الوجه القبلي يخبره عن تصميمه " علي تقديم اثنين موميه برسم هدية إلي حضرة ملكة الإنكليز فمقصودي ان ذلك يكون في غاية الاعتناء فيلزم بمجرد وصوله إلي مصر تدارك الهيكلين ويكون توابيتهما بدون كسر وإرسالهما لطرفي سريعا"(٣٤) أو كما يطلب من القائم على الخزينة " بتورية معتمد دولة النمسا الآثار القديمة التى صار استخراجها من بعض المحلات بمعرفة دولة عسكر باشا الموجودة بطرف يورفورنك وباعطاه ما ينتخبه منها وتحرير بيان ما يأخذه بكشفين تركي وافرنكي و ابعاث تلك الكشوفه إلي باغوص بك(٣٥) بل فتح محمد علي الباب علي مصراعيه في مرحلة أولي دون أية قيود تذكر علي تجار الآثار من الأجانب وكان أغلبهم من قناصل الدول الأوربية كما نري من هذا الأمر إلي كاشف الجيزة وهو "يشير به أن صديقه صولت قونصلى الأنكليز والخواجه دوروفتي قونصل فرنسا والخواجه بوكتى قونبصل أسوج (السويد) باتحادهم مع بعض يمشوا من طرفهم القبودان فاوبليا بالتوكيل عنهم لاستخراج آثارات قديمه بجهات الأهرام وتقسيم ما يعثر عليه من الآثارات القديمة بين بعضهم والتمس صديقة قونصل الانكليز بذلك و...به عدم المخالفة في ذلك مع الملاحظة"(٣٦).

فلم يكن في هذه المرحلة الاستيلاء علي الآثار صراحة يشكل أية مشكلة للإدارة المصرية، ولا لمحمد علي ذاته الذي بالغ في إعطاء التصاريح التي نصت صراحة علي حصول صاحب التصريح علي ما يعثر عليه كان هذا الأمر "بالتصريح إلي المدعو يجنيني مندوب قونصل شور المقيم بإسكندرية بالسياحة في أسنا ونواحيها وبحفر المحلات المأمول وجود آثار قديمة بها بمصاريف من طرفه ويأخذ ما يوجده من الآثار القديمة "(٣٧)، بل في أحوال أخري طالب مأمورية بمساعدة صاحب التصريح بل إمداده بالأفراد ، صحيح مقابل أجر يدفعه ، ولكنها كانت خطوه أبعد مما سبق إذ يأمر "بالتصريح إلي صديقة قونصل سردينيا المقيم

بإسكندرية نحو المحل المقال منه عن وجود حجر مكتوب بالخط القديم ويأخذه متي وجد حسب التماسه ومساعدته بالأنفار التي تلزم للحفر بمصاريف من طرفه "[٣٨].

وكثيرا جدا ما شمل الأمر الواحد أكثر من جهة بمصر من وادي حلفا إلي الإسكندرية مرور بأسيوط ، وفي نفس الوقت محددا بآثار بعينها كأمره "بالتصريح إلي صديقه لاني مندوب قونصل الإنكليز بنقل الآثار القديمة التي وجدها بناحية العرابه المدفونه بمديرية أسيوط وتمثال السبعين الحجر الموجودين بشون وادي حلفه وكذلك كافة الآثار المودعه منه بمبني النيل وباستخراج الحجر المسمي إسفنج الظاهر نصفه إلي إسكندريه وبمساعدته بالأنفار اللازمه لذلك بمصاريف من طرفه وعدم التعرض إليه"[٣٩].

والحق أن محمد علي لم يكن يقصر هذا الحق علي الأجانب ، بل كان مفتوحا أمام الجميع ، غير أن الأجانب هم الذين عملوا في هذا المجال ، وكان من النادر وجود أي من المصريين يعمل في البحث عن الآثار والاتجار فيها ، مع هذا عندما تقدم أحد المصريين للتصريح له بواسطة وكيل ناظر التجارة بنفس ما كان مسموح به للأجانب لم يمنع عنه محمد علي ذلك ، بل نجده "يشير بعدم التعرض إلي يوسف عبد الله أثناء بحثه عن الآثارات القديمة الموجودة بكفور سقارة ومعاملته ومساعدته مثل الجاري في حق الباحثين علي مثل ذلك من الاوروباويون حسب التماس الخواجه جورجي جيارة وكيل ناظر التجارة بمصر "[٤٠]

إلا أن هذه الفوضي التي ميزت تصاريح الآثار قد خفت في مرحلة تالية خاصة بعد الالتماسات المتعددة والمتكررة من بعض علماء الآثار الذين ساءهم عمليات التخريب التي كانت جاريه علي قدم وساق ، ولعل التقرير الذي وضعه شامبليون وحصر فيه ضياع حوالي ثلاثة عشر أثراً ، كان له بعض التأثير ، ولو بكثير من التأخير حيث أنه لأول مره يشير أحد التصاريح بالمحافظة علي البناء القديم رغم أنه لم يغير شيئا من الصياغة القديمة ، سوي تحديد مدة البحث عن الآثار

إذ يقول : " إنه بناء علي التماس جناب الكولونيل قاميل قونصل الانكليز قد صـــدر هذا البيورلدي بالترخيص له بتعيين مندوبين من طرفة للبحث عن انتيقات بالبنادر و القري مدة ستة شهور فعليه يلزم عدم منع من يعينهم المومي إليه من فحت وحفــر بعض المحلات دون مس البناء القديم "(٤٠) وكان لابد من الانتظار سنتين إضافيتين ، خاصة بعد تشكيل المجلس الخديوي الذي حاول أن ينظم موضوع الآثار ويخلصــها من الفوضى التي كانت تحكمها ،ولعل تعليق محمد علي على قرار المجلس يوضــح تلك الترتيبات والإجراءات التي تم اتخاذها إذ يعلن لرئيس المجلس "بأنه علم نشــر وإعلان الخلاصة الصادرة من المجلس بشأن عدم إخراج الأحجــار القديمــة ومــا يماثلها من الآثار وعدم هدم المباني العتيقة الكائنة بالأقــاليم الصعيديــة مــن الآن فصاعد واحالة دقة النظر والالتفات لهذا الخصوص علي النظار والمديرين والتقريـو بإعطاء ذهبية إلي مينا أفندي للمرور بها في السنة دفعة واحدة للتفتيش ولكــون أن التفتيش دفعة واحدة في السنة لا يكفي ولاسيما الأهالي يخرجون الأحجــار القديمــة والتوابيت وما يشابهها من المباني العتيقة وجاري إرسالها من قبلهم إلي إســكندرية وبيعها علي الأفرنج وانهم لذلك يتلفون الأشياء القديمة وأن هذا الخصوص مما يجب الاعتناء به بمزيد الالتفات حتى وكان قد نبه عليه شفاها بتعيين ذات بصفة مفتــش للتفتيش علي أعمال المأمورين في ذلك فعليه يلزم علي المفتش المومي إليه الســعي والاجتهاد في منع إخراج تلك الآثار وعدم هدم المبــاني القديمــه والمــرور دائمــا لحصول المنفعه ولا بأس من مرور السواحين فقط بدون مس شيئ من ذلك "(٤١).

هكذا يشارك محمد علي باشا في مباركة قرار المجلس ، بل ويتشدد في بعض بنوده، ويعين بنفسه المهام التي سيقوم به المفتش المزمع تعينه للحفاظ علي الآثــار ، ربما لقناعته أخيرا بخطورة الأمر ، وهو ما اصطدم مرة أخري بالإستثناءات التــي سنراها فيما بعد. إلا أن المجلس كان قد أصدر أمر آخر مشددا بعد الأمر السابق منع فيه منعا باتا السماح بحمل أو الاتجار أو الاستيلاء علي مــــا اســماه "الأنتيكــات "

المصرية القديمة واجبر الجميع بما فيهم محمد علي نفسه – إلي حين – باحترام هذا الأمر.

ولعل مطالعتنا لهذا الأمر تعطينا إلي أي حد احترم محمد علي أمر المجلس هذا إذ يقول "أن المدعو دولي انهي إليه بطلب صدور أمره بعدم ممانعته في نقل أحجار الانتيقه الصغيرة مع المومياء التي وجدها حال مروره بالأقاليم الصعيدية ويشير بأنه سبق صدور قرار من المجلس بشأن الأنتيقات ولا يجوز الخروج عنه فيلزم عدم معارضة المذكور في نقل الموميه فقط دون الانتيقه لمنطوق القرار المحكي عنه في حق الانتيقات "[٤٣].

وأخذت الأوامر التي يصدرها الباشا في هذه المرحلة الثانية خاصة بعد قرار المجلس الخديوي تلتزم لحد كبير بهذا القرار، بل وعمل علي احترامه في صياغة تصاريحها فأمر منه إلي حبيب أفندي يوضح هذا الالتزام بالقرار إذ يقول "بأن أحد السائح الإنكليزي نهي إليه بان له خمسة صناديق داخلها موميا وغيرها محجوزه بكمرك بولاق ويرغب الافراج عنها من بولاق والكشف عليها بكمرك إسكندريه حسب الأصول والتصريح له بنقلها متي لم يكن بها انتيقه وعليه يلزم التحرير من هنا إلي محل الاقتضي بالاجراء كالتماسه "[٤٤].

وأصبحت التصاريح التي تعطي للسياحة ينص فيها أيضاً صراحة علي احترام قرار المجلس مثل تصريحه هذا "بأنه تصرح إلي كل من السير فرانكي هنكنسه أحد سواح الانكليز بفتح أحد رؤس الأهرام الصغير الكائن بجوار قرية سقارة بمديريته للتفرج وهذا للمعلوميه فيلزم مراعاة منطوق خلاصة المجلس الصادره في حق الانتيقات وأن لا يؤخذ منها شئ" [٤٥] كما تم مراعاة ذلك أيضا مع إعطاء تصاريح التنقيب عن الآثار ، بل اكثر من ذلك اصبح هناك من يرافق صاحب التصريح لمتابعة تنفيذ الأمر ، كأمره إلي محافظ دمياط "بأن حامله المسيو لاف التمس اعطاه

أمر بالتصريح له باستكشاف آثار قديمة بناحية مدينة صان بالقرب من ترعة مويس شرطا أن لا يستخرج شيئا منها من موضعه فيلزم بوصوله ارفاق شخص معه وإرساله للمدينه المذكوره للتجول فيها والاستكشاف علي وجه ما ذكر"[٤٦].

اكثر من ذلك يبدو أن محمد علي أخذ ينتقل بنفسه ليري مدي المحافظة علي هذه الآثار خاصة بعد الحملة الكبيرة التي قادها عديد من الأجانب بشأن معبد دندرة الذي استخدمته كمحجر لبناء أحد المصانع القريبة ،ويبدو أنه علي أثرها أضطر محمد علي لزيارتها بنفسه ليأخذ بعض الضوابط والأجراءات ، وهو ما نفهمه من أمره هذا إلي مدير قنا – وسبق وقد عرضنا هذا الأمر من قبل – حيث يقول "سبق أن نبهت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة علي المباني الموجودة بدندرة تجاه قنا ....الخ ".

ولعله مع هذا الأمر والأوامر الأخرى المشابهة والتي صدرت مشددة علي القرار الصارم للمجلس الخديوي كان يمكننا القول أن في المرحلة الثانية قد تخلي محمد علي تماما عن الفوضي في مجال الآثار ، لولا الاستثناءت التي مررها، وهو ما يؤكد فرضيتنا الأولي من ان محمد علي حاول أن يستغل موضوع الآثار كما استغل كل الموارد المتاحة حتى يحقق بها أقصى ما يمكن من نتائج تصب جميعها في تحقيق مشروعة التنموي الاستقلالي الكبير لمصر، إذ نجده في غمرة تشديداته تلك يصدر أمرا إلي مدير المدارس ليعطي استثناءاً لصديقه قنصل إنجلترا " تطلب صديقنا قامبل قونصل جنرال دولة الإنكليز التصريح له بإرسال الحوضين الحجر الآثار القديمة التي صارا استخراجها من تلول أهرام الجيزة بمصاريف من طرفه لارسالها إلي لوندره وأنه لمناسبة صفاء المودة الحاصلة بيننا يلزم التصريح له بإرسال الحوضين المذكورين إلي لوندره بدون معارضة "[٤٧].

ولعلي محمد علي نفسه شعر بالتناقض بين أوامره السابقة وهذا الأمر مما

دفعه إلي إبراز السبب ليعلل سر الاستثناء الذي يمنحه ،إلا أن " صفاء المودة بينهما " لم تكن ألا القناع الذي يخفي أهمية إنجلترا علي الساحة الدولية كدوله عظمي لخدمة مشاريع محمد علي شخصياً ، ولعلنا نستضئ بأمر آخر صدر من محمد علي في نفس سنة الاستثناء تلك ، فعندما تأخر الفحم عن الوابورات الإنجليزية في السويس وشكوى القنصل الإنجليزي من هذا لمحمد علي نجده يصدر أمرا علي الفور إلي كتخدا باشا بسرعة تنفيذ هذا مذكرا إياه بأن " لكون تشهيل دولة الإنكليز لاتقاس بأشغال بقية الدول بل هي أرجحها عن أشغالي كما يعلم ذلك من مطالعة الأوامر السابق صدورها إلي ديوان مصر ... فيلزم دقة المبادرة في إنجاز طلبات أشغال هذه الدوله أول بأول ويحذر من إلجاء القونصل المرسوم ليتشكى مرة أخري"(٤٨).

والحق أن الاستثناء السابق لا يشكل إهمالا تاما للمحافظة علي قرارات المجلس الخديوي السابقة، بل علي العكس ظلت القرارات السابقة مرعية ومحافظا عليها طالما الأمر لم يتعلق بالدواعي السياسية التي عملت علي الاستثناء السابق وما يؤكد هذا هو أمره إلي مدير بني سويف حينما تعلق الأمر بالأهالي حيث يقول فيه " بأنه سمع بوجود آثار قديمة داخل مغارة بالجبل تجاه قرب سمالوط ووجود غيرها أيضا بالجهة المذكورة بكثرة وجاري هدمها بمعرفة الأهالي بمقولة البحث علي أحجار وحيث أن التصريح بهدم ما ذكر لأجل لزوم أحجار قد أوجب اضطرابه فيقتضي بالتنبيه والتأكيد علي من يلزم بمنع المذكورين وعدم تخريب الآثار القديمة المماثلة لذلك بعد الآن "(٤٩).

وفي السنة نفسها والسنوات التالية نجده يعطي هذه الاستثناءات كما ذكرنا للدواعي السياسية أو الدبلوماسية ففي أمر منه لمدير قبلي "يقتضي عدم التعرض إلي المدعو ليسيو بعلم والثمانية أنفار رفقاه الذين حضروا لهذا الطرف مأموريه من دولة بروسيا أثناء حفر بعض المحلات الباقى بها آثار قديمه .. "(٥٠) والغريب أن الأمر

ينفي منه تمامًا المحاذير والضوابط التي تعودناها في المرحلة الثانية، خاصة في الأوامر السابقة كعدم هدم المباني القديمة، أو منع إخراج الآثار، أو مرافقتهم من قبل أحد موظفي الدولة، فدواعي السياسة لا تقتضي تعكير الأجواء وقد جاءوا في مهمة من قبل دولة بروسيا.

وأيضًا إذا كانت الآثار المستخرجة ستقدم لشخصية هامة فلا بأس من هذا الاستثناء إذ يأمر جمرك الإسكندرية بأن " الأربعة هياكل من الآثار القديمة التي استحصل عليهما الخواجة روشتى لتقديمها هديه إلى البابا قد صرحت له بإخراجها إجابه لطلبه فلا ينبغي التعرض له في ذلك بالكمرك "[51] أو إلى نفس الجمرك ليوضح أن " قنصل جنرال دولة بروسيا استحصل على بعض أحجار وأشياء من الآثار القديمه بواسطة الموسيو ليسبوس المؤرخ لتقديمها لصاحب الحشمه ملك البروسيا وطلب مني التصريح بمرورها فأجابه لطلبه يلزم عدم التعرض في ذلك عند تسفيرها "[52] وكذلك كان الأمر مع " قونصل جنرال دولة النمسا طلب مني إعطاء التصريح له بإرسال الخمسة عشر قطعة من الآثار القديمة إلى ويانه (فيينا) فأجابه لطلبه القنصل ينبغي عدم التعرض له أثناء امراره تلك الآثار من الكمرك"[53] كما أتبع الإجراء لدواعي الدبلوماسيه مع " الموسيو سيراوسون تنتد كاتب سر حكمدارية سيلان (الذي) اشترى اثنين موميه وقطعة حجر من الآثار القديمة في أثناء سياحته بجهات الصعيد وطلب مني التصريح له بمرور ذلك من الكمرك فيلزم عدم المعارضة له فيما ذكر إجابة لالتماسه "[54].

<u>المحور الثاني :</u>

ويتمثل هذا المحور في محاولة إيجاد المشروعية الداخلية لمحمد على – نظامًا ومشروعًا – وكأنه امتداد لملوك مصر الفرعونية، مما يجعل النهوض بمصر وتقدمها كما كانت هو عودة لتلك النهضة القديمة، ومن ثم يصبح الأخذ عن دول

أوروبا الغربية مشروعًا أيضًا من أجل الوصول لنهضة مصر المأمولة .

ومحمد على الذي عرف عنه حبه وولعه للاستماع إلى التاريخ الماضي وشخصياته المؤثرة، وتدارسه للأحداث السياسية الجسام استغل فرصة زيارة شامبليون لمصر وطلب منه – كما رأينا – كتابه مذكرة عن التاريخ المصري القديم، وبالفعل أنجز تلك المذكرة التي شملت استعراضاً للتاريخ المصري القديم منذ كان المصريون بدوا رحلا حتى غزو مصر من قبل العرب ومروراً بالدولة الفرعونية القوية ذات البأس والتي دانت لها الشعوب الأخرى المجاورة. كما تتحدث المذكرة عن أهم المدن في مصر القديمة وعمارتها، ونظم الحكم التي سادتها، وأوضاعها السياسية والعسكرية، وثورة عسكرييها واستيلائهم على السلطة فيها وتقلدهم السلطة كملوك وتأسيسهم للقوانين ومبادئ الأخلاق وأسس الفنون، وتشييدهم للحصون والحاميات والمدن والجسور والمعابد، وتصديهم للمستعمرين الهمجيين بالجيوش القوية المدربة والمسلحة، فأعادوا النظام في شتى الأرجاء والرخاء والرفاهية لرعاياهم.

ومنهم تحتمس الثالث الذي فاق الجميع في تشييده للآثار العظيمة، إضافة إلى شقه لبحيرة قارون بمدينة الفيوم ليجعلها خزانًا يقي مصر من تقلبات النيل. كما أغار على الشعوب الأسيوية التي أصبحت تشكل تهديدًا لأمن مصر، وذلك صيانة وتأمينًا لهذا الأمن. وكذلك فعل خلفاؤه مثل أمنحتب، وحورس، ومينفتاح، وسيزوستريس الذي قام بإخضاع سوريا وإمبراطورية بابل. وهم في نفس الوقت لم يدخروا وسعًا في بناء القصور والآثار التي تخلدهم.

وفي عصر سيزوستريس وصل نفوذ مصر إلى النوبة بأسرها والحبشة وسنار ومجموعة الأقطار الواقعة في جنوب أفريقيا وقبائل الصحراء الشرقية والغربية للنيل، وسوريا وبلاد العرب، ومملكتي بابل والموصل، وجزء كبير من الأناضول

وآسيا الصغرى وجزيرة قبرص والعديد من جزر الأرخبيل إضافة إلى ممالك فارس. كما بلغت الحضارة والفنون والعلوم في الداخل أقصى درجة التقدم والرقي. وارتقت مبادلات وتجارات مصر الخارجية في جميع المجالات. والكشوف الآثرية تبرهن على أن هذا الشعب عاش عيشة رغده مستمتعًا بكافة مظاهر الترف والبذخ. وفي عصر رمسيس ميآمون وهو فاتح عظيم اهتم بسلاح البحرية. وهكذا سارت المذكرة على هذا المنوال[٥٥].

ولعله كانت لهذه المذكرة أثرًا ووقعًا كبيرًا على محمد علي الذي وصفه البعض بأنه " كان يستوحى الآراء الحكيمة من قراءة التاريخ كما كان يتعرف على ما قام به القدماء من مشروعات جليلة في القطر المصري حتى يقوم بأعمال تماثلها، وقد أصدر أمرًا في سنة ١٨٢٩ إلى نظارة المالية يتلخص في أنه اطلع في الكتب التاريخية على أن مؤسس الترعة الاشرافيه (وهي التي تبدأ من ساحل مرقس في البحيرة) المزمع تجديدها الآن هو الاسكندر ومن معه من حكماء اليونان ثم اندثرت، وفي زمن استيلاء الأكراد على مصر تجددت بأمر السلطان الأشرف ثم اندثرت أيضًا. وأنه كلف شاكر أفندي المهندس بمباشرة فتحها وبذل الهمة في ذلك"[٥٦]

اهتمام محمد على بالتاريخ جعله يطلب دائمًا من أصدقائه أن يمدوه بالكتب التاريخية خاصة التي تكرس عن الزعماء التاريخيين العسكريين، وكلنا نعلم مدى اهتمام محمد علي بقراءة تفاصيل حياة نابليون بونابرت من خلال ما كتبه القناصل عنه (محمد علي) في لقاءاتهم به. ولعل رسالة قنصل اليونان وصديق محمد علي طوسيجه في سنة ١٨٣٣م إلى بطريرك الروم الأرثوذكس توضح هذه الأهمية التي أولاها والى مصر بالتاريخ، إذ تقول : " يا صاحب الغبطة كلفني سعادة أفندينا أن أكتب إليكم لعلكم تجدون في مكتبة البطريركية كتابًا خاصًا بحياة الاسكندر الأكبر، ويود سموه استعارة هذا الكتاب لترجمته إلى اللغة التركية. وإذا كان الكتاب غير

موجود لديكم فمن أين يستطيع سموه أن يحصل عليــه. أمــن ديــر ســينا أم مــن الأستانة؟"[٥٧].

هكذا علم محمد على أن مصر كانت دولة عريقة، وذات نسب وصلة بــالتقدم والازدهار كما كانت دائمًا من قبل في عهودها القديمة، وظل هذا الهاجس يلح عليــه في شتى المناسبات ووقت اتخاذ أخطر القرارات. ففي أمر له إلى كافــة الدواويــن والمصالح والمآمير وهو يتحدث إلى موظفيه الكبار عن أهمية الأعوان والمســاعدين في نجاح نواياه وأعماله نجده وهو يحيلهم إلى التاريخ " .. أنه من الأمور المســلمة أن أصحاب الفتوحات وواضعي القوانين في الأعصر الماضية مع ما كان لديهم مــن الثروة والسطوة كانت الشــدائد تلجئــهم إلــى أعــوان لبــث قوانينــهم وتوطيــد دعائمهم.."[٥٨].

كما يحيل محمد علي مرة أخرى على التاريخ القديم ليبرز كيف كانت حالــة مصر المتقدمة بأيدي أهلها، وتشكل مصر محمد علي سنة ١٨٤٣م – وقت الأمــر– امتدادًا جنسيًا لأهل مصر السابقين. ومن هنا يكون المصريون أنفســهم، وبالتــالي حكامهم، مما يجعل من مصر في عصر محمد علي امتدادا طبيعيًا لمصر القديمــة، يقول محمد علي :"..أنه كما هو معلوم لذوي الوقوف بتواريخ الأعصار الماضيــة أن إقليم مصر أخذ في ارتقاء من العمران على دفعتين فأخذا فاق به عن جميع جــهات المسكونة وصار نموذجًا لها الأولى في زمن الأقباط والثانية فــي زمــن اســكندر. والدليل على ذلك كتب التواريخ وسائر الآثار النفسية والأبنية المفتخرة الموجودة إلى زماننا هذا التي لا نظير لها وأن دواعي تلك العمارية ما هــي إلا بواســطة همــم واجتهاد أناس من أبناء جنسنا وكذلك نحن إذا تعودنا على الاجتهاد .. "[٥٩].

من هنا كان وحي محمد علي على سن القوانين والأنظمة وإنشاءاته المتعــددة للقصور والجسور والترسانة البحرية والجيش القوي والمدارس المختلفة " كمحيــي

للدولة المصرية القديمة " ولعل تلك التسمية قد راجت كثيرًا في أوروبا عن طريق موظفيه من الأوربيين، وكان أطلقها لأول مرة بلانا، ومن بعده كلوت بك وكان يصور بهذا والي مصر وكأنه استمرار للدولة المصرية القديمة، محاولاً إحياء نهضتها الفرعونية العظيمة. بل نجد أن محمد علي نفسه يحرص ن يضع هذه الصفة على الميداليات التي صُبت في فرنسا لغرض إهدائها لكبار الشخصيات في الداخل والخارج. ولن نناقش هنا ما أُشيع بأن خلق قومية مصرية في هذا الوقت كانت تسير ومصلحة القوى الأوربية لكي تنسلخ مصر عن قوميتها العثمانية. فعلى الرغم من أن هذا كان يطابق السياسة الأوربية " فرق تسد " في هذه الآونة، إلا أن هذا التطابق لا يجعلنا نوجه اتهامًا إلى محمد علي بالتواطؤ مع القوى الغربية التي عرف كيف يستغلها لحساب مشروعاته، كما فهم حدود وآفاق هذا الاستغلال.

ولا ننسى أنها نفس القوى التي وقفت لمشروعاته بالمرصاد، بل عملت دائمًا على تراجعه، ولعل حوادث نفارين ووصوله لحدود الدولة العلية تشهد على تربص الأوربيين به. ومع هذا قاوم كل الأصوات التي حاولت تثبيط عزائمه فيقول لبوكلر ميسكو في سنة ١٨٢٧م " كل دولة تستطيع أن تصبح كبيرة وكل جيش يستطيع أن يضمن الفوز إذا وجد كل منهما من يعرف كيف يقوده في الطريق القويم "[٦٠]. وعندما ضيقوا عليه الخناق بحجة أن مصر دولة زراعية ليثنوه عن مشروعاته قال: " لا أعتقد شخصيًا أن الطبيعة حتمت على بعض الأمم التفرغ للزراعة أو للصناعة دون سواها. وبالعكس فإني أرى أن كل بلد زراعي قد يصبح بلدًا صناعيًا وتجاريًا في آن واحد"[٦١]. من هنا استطاع محمد على أن يجعل من الأخذ عن النموذج الغربي عملاً مشروعًا في أحد البلدان الإسلامية، لأن الوصل للتقدم لن يتأتى إلا باستعارة أسبابه من الغرب.

ومن هنا بدأ في تحديث مصر على النموذج الغربي وشجع تطوير التعليم وإرسال بعثات الطلبة للخارج واستدعاء الأطباء والمهندسين والعسكريين

والزراعيين من أوروبا للمساعدة في إنجاح مشروعاته على نفس المناهج والأسس والعلوم الغربية. وهو يقول لأحد مهندسيه ممن استدعاهم من أوروبا لتأسيس الترسانة بالإسكندرية " أريد أن يكون هذا الميناء ممارًا بالسفن الحربية. أسسوا لي ترسانة تنافس أعظم الترسانات الموجودة في فرنسا وإيطاليا وإنجلترا. أن المال لن ينقصكم ولا الرجال كما أني أخولكم السلطة المطلقة لإنجاز أعمالكم "(٦٢) وكذ كان يحرص علي استقدام المعلمين في شتي فروع العلم والمعرفة وتحفيزهم علي تعليم الطلبة لفنونهم المختلفة . وقرب إليه من عرف أنه له فضلا في العلم والمعرفة مثل الشيخ حسن العطار الذي أصبح فيما بعد شيخا للجامع الأزهر ، وكان قد آمن بمشروع محمد علي لتقدم البلاد وباركة وأثني عليه ، وهو الذي رشح أحد أهم الشخصيات فيما بعد الشيخ رفاعه الطهطاوي كإمام للبعثة الأولي التي أرسلت لفرنسا ، وكان من همة الطهطاوي ودأبه أن تعلم وأخذ العلم علي أصوله ،وأصبح من أعمدة مشروع محمد علي في الترجمة عن الفرنسية . إذا أمن بإلحاحية التقدم والازدهار لمصر ، وبالقومية والوطن المصري .

وإلي جانب إطلاعه علي الأعمال السياسية والجغرافية والعسكرية والدستورية بفرنسا ، أطلع أيضا علي علم المصريات القديم وأتصل بالمستشرقين وكان يملؤه الزهو والفخر عندما يجد الأوربيين مهتمون بدراسة تاريخ بلاده القديم . ولكان أشد اقتناعه بأن مصر الحديثة هي الوريثة الشرعية لمصر الفرعونية القديمة، وإذا كانت مصر القديمة قوية ومزدهرة فانه لابد لمصر الحديثة أن تنهض وتعود لسابق مجدها التليد. وهكذا استطاع أن يتربي داخل مشروع محمد علي جيل من الرجال آمنوا به وبحسن إدارته وهمته . وكان أغلبهم ممن ذهبوا لبعثاته إلي فرنسا ، أو تعلموا داخل المكاتب والمدارس التي أنشأت علي قدم وساق بمصر.

هكذا استطاع محمد علي إحكام معادلته الصعبة في اكتساب المشروعية الداخلية من خلال العمق التاريخي الذي استمده من تاريخ مصر القديم. وفي

الاستفادة لأقصى حد من هذا الأفق الحداثي الغربي.

المحور الثالث :

ويتمثل هذا المحور فيما أضفته مذكرة شامبليون علي التاريخ المصري القديم بإظهارها أن شرق مصر (سيناء والشام) يمثل بُعداً إستراتيجيا للحفاظ علي الأمن والحدود المصرية عندما ظهر أن الغزوات التي تعرضت لها مصر عبر تاريخها الطويل كانت تأتي دائما من ناحية الشرق. هل نستطيع أن نجزم بان هذا البعد جاء نتيجة لمذكرة شامبليون التي كشفت عن أسرار ملوك وتاريخ الدولة الفرعونية بمصر ، ومن ثم لم يكن ذلك في حسبان محمد علي من قبل ؟

الحقيقة أن هذه النقطة تتطلب منا بحثا مستفيضا قبل أن نقرر ذلك . صحيح أن محمد علي بدأ الأعداد لغزو الشام وتجهيز وتقوية جيشه وأسطوله بعد تسلمه لهذه المذكرة في ٢٩ نوفمبر سنه ١٨٢٩م ، وبدأت حملته علي الشام في أكتوبو ١٨٣١م أى بعد ما يقرب من سنتين فقط ووصل عدد أفراد الجيش وقتئذ إلي ٩٠ ألفا.

وصحيح أيضا أن المصادر التاريخية تؤكد أنه في سنه ١٨١٠م كان محمد علي يود أن تؤول سوريا إليه إلي جانب مصر، كما قال صديقه قنصل فرنسا بمصر دورفيتي حتى ولو دفع سبعة أو ثمانية ملايين قرش كرشوة للسلطان. إلا أن هناك بعداً آخر يمكننا إضافته لإجلاء بعض الأمور ألا وهو رفض محمد علي سنة ١٨٢٩م أيضا طلب فرنسا الملح بإشتراكه في غزو الجزائر إلي جانب الجيش الفرنسي بعد مفاوضات استمرت فترة طويلة ، بحجة أن الجرائر مسلمة ، ونقرأ أسباب الرفض فيما أفضي به إلي ميمو قنصل فرنسا فى سنه ١٨٣٠ م ، وهو ما يعني أن فرنسا لم تكن قد فقدت الأمل بعد في موافقة محمد علي وظلت تلح عليه في ذلك، يقول محمد علي : "لقد أبلغت مرتين بلسان إبراهيم باشا الأسباب التي تحول دون القتال إلي جانب فرنسا علي الرغم من تعلقي ببلادكم ورغبتي الصادقة في

خدمتها . وسأكرر لكم الأسباب إذا أردتم ، أن أعظم وزير في السلطنة العثمانيــة ، ولكن إذا وافقت علي الشروط التي تعرضونها علي فسأفقد كل ثمار جهودي وشرفي في نظر شعبي والمسلمين عامه ، أنهم سيحتقرونني وينفضــون مــن حولــي . لا تتصور أن كلامي هذا مبني علي اعتبارات دينية . انى فوق هــذه الاعتبــارات. لا اعتبر نفسي مسلما أو مسيحيا في سياستي . ولكن بما اننى استمد نفوذي من الشــهرة التي أتمتع بها وحكم أمتي علي أقول لكم أنني إذا تعــاهدت معكــم قضيــت علــي نفسي'[٦٣] .

لكن إلي أي حد كان محمد علي صادقا فيما أعلنه للقنصل الفرنسي ؟ لعل مــا أعلنه محمد علي كان من قبيل الدبلوماسية الهادئة في الرفض ، والمؤسســة علــي حجج وبراهين صعب ردها . وذلك لأنه إذا كان هذا ما يراه محمد علي من الناحيــة المبدئية فكان يمكنه الرفض مباشرة دون الإطالة في أمد المفاوضات التي اســتمرت طويلا هذا من جهة ، ومن جهة أخري فان محمد علي ذاته قــد ضــرب بعــرض الحائط هذه الاعتبارات – ليست الدينية كما أدعــي – ، ولكــن – علــي الأقــل – الاعتبارات التي كان يستمد منها شرعيته ونفوذه وشهرته علــي حــد قولــه ، ألــم يستصدر الباب العالي في إعلان عصيان محمد علي في أوائل مــايو ســنه ١٨٣٢م فتاوى من عبد الوهاب يسنجي زاده شيخ الإسلام باعتبار أن محمد علي ومن اشترك معه بغاة عصاة معتدين ،وبجواز قتالهم وقهرهم ، وعد شركائه ومعاونيه كفار بنص القرآن ، أكثر من ذلك ألم يصادق العلماء ورجال الشرع علي هذه الفتوى[٦٤] . ومع هذا لم توقف الفتوى تقدم محمد علي ولم تثنه عن هدفه في حملته الشامية ووصــول جيوشه حتى الأناضول واشتباكه في معارك طاحنة مع الجيوش العثمانيــة حاميــة حمي الإسلام والمسلمين !؟

وهكذا نميل إلي القول ، ربما تكون رغبة التوسع شرقا والاستيلاء علي الشــام وإيالتها لمحمد علي رغبة قديمة لديه يمكن أن يقف خلفــها عديــد مــن الأســباب

الشخصية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والدولية . إلا أن ما حسم هذه الرغبة – في نظرنا – وقوّاها بل أعطاها مشروعية تاريخية قديمة ، لم تكن لها ربما تكون هذه المذكرة الصغيرة التي سلمها شامبليون للباشا .مع هذا تظل هذه المسألة في حاجة لمزيد من البحث والدراسة .

هكذا ترافقت الأحداث مع الكشف المذهل الذي انجزه شامبليون في سنه ١٨٢٢م بفكه لرموز حجر رشيد ، وبالتالي اماط اللثام للمرة الأولي عن اعظم حضارة حيّرت في العالم القديم والحديث معظم العلماء والمتخصصين .

وفهم محمد علي بذكائه الفطري أهمية هذا السبق العلمي الحضاري لمصر وللحضارة الإنسانية علي السواء ، ومن ثم حاول استثمار هذا الحدث الهام علي كل المستويات – كما رأينا – ومن هذه النقطة تغيرت النظرة والسلوك الذي تم التعامل به دوما مع آثار هذه الحضارة المصرية القديمة .

وقد رأينا كيف أن الأوامر المتناقضة والمتضاربة بخصوص الآثار لم تكن إلا وسيلة من الوسائل المتعددة التي لجأ إليها محمد علي لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة من هذا الموضوع في بناء مشروعه الحضاري الاستقلالي مشروع بناء الدولة الحديثة في مصر.

الهوامش

١-راجع مجموعة الأوامر والبيورلديات في ملاحق هذه الدراسة.

٢-بيورلدي تاريخه غاية صفر ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م) من الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٨٤) تاريخ تيمور، جـ١،ص٢٧٣. (والعجيب أن هذا البيورلدي لم يشتمل على المزايا الكبيرة والضخمة التي كانت تنص عليها البيورلديات قبله أو بعده، وربما يكون هذا راجع إلى توجس وكراهية القنصل الفرنسي بمصر دورفيتي لمجيء شامبليون لأسباب ليست هنا محل اهتمامنا).

٣-شامبليون في مصر – الرسائل والمذكرات، ترجمة عماد عدلي، ومراجعة د. طاهر عبدالحكيم، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، وانظر النص الكامل للمذكرة في ملاحق هذه الدراسة.

٤- GATON WIET, MOHAMMED ALI ET LES BEAUX-ARTS, SOCIÉTÉ ROYALE D'ETUDES HISTORIQUES, DAR AL-MAAREF, LE CAIRE, P.24.

٥- D'ESTOURMEL, JOURNAL D'UN VOYAGE À L'ORIENT , VOL. II, PARIS, 1844, P.328 .

٦-راجع نص الخطاب في المرجع رقم (٤)، صفحات ٣٢ – ٣٤.

٧- RIFAUD , TABLEAU DE L'EGYPTE, DE LA NUBIE ET DES LIEUX CIRCONVOISINS, PARIS, 1830, P.114 .

٨-أمر إلى كتخدا بك في ٤ محرم سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣١م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، حـ١، ص٤٠٠.

٩- GASTON WIET, OP. CIT , P.38-39.

١٠-شامبليون في مصر – الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٣٩٥، وأيضًا :

DE BIBLIOTHEQUE EGYPTOLOGIQUE 31, P.417 ET SUIVANTES.

١١-شامبليون في مصر – الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٣٩٧، وأيضًا :

DE BIBLIOTHEQUE EGYPTOLOGIQUE 31, P.419 .

١٢- GASTON WIET, OP. CIT., P22.

وهناك رواية أخرى جاءت مصاحبة لمذكرات شامبليون، وقد نقلت عن ابن أخته بأن الذي أهدى إليه السيف هو إبراهيم باشا ولي العهد الذي قام بزيارة شامبليون في الصباح الباكر للرابع من نوفمبر يوم الاحتفال بعيد ملك فرنسا (شامبليون في مصر، مرجع سابق، ص٣٩٨)، إلا أنه على عكس ذلك هناك رسالة من شامبليون إلى أخيه في ٢٥ ديسمبر ١٨٢٩م تؤكد على أن محمد علي قد منحه سيفًا رائعًا. (المرجع السابق، ص٤٢١).

١٣- CAILLIAUD, VOYAGE A MÉROÉ, AU FLEUVE BLANC, AU DEL À DE FAZOQL DANS LE MIDI DU ROYAUME DE SENNAAR, À SYOUAH ET DANS CINQ AUTRES OASIS, VOL.III, PARIS ,1826 , P. 300-301.

١٤- JOURANAL ASIATIQUE, 1835, VOL. II, P.474-482.

١٥-أمر منه إلى مدير قنا في ٩ رجب سنة ١٢٥٣هـ(١٨٣٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة جـ٢، ص٣٨٨.

١٦- GASTON WIET , OP. CIT., P. 29.

١٧-إلى كوشلية في سنة ١٨٣٩م – أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

١٨-انظر : شفيق غربال، محمد علي الكبير، جـ٣، ص٦٦، وأيضًا أمر محمد على إلى كافة الدواوين والمصالح والمآمير في ٤ جماد آخر سنة ١٢٥٩هـ (١٨٤٢م) بملاحق هذه الدراسة.

١٩-أهرام نوفمبر ١٩٤٩م.

٢٠-المرجع السابق.

٢١- GASTON WIET , OP. CIT., P. 23.

٢٢- IBID, P.30 .

٢٣- ANDRÉ MICHEL , HISTOIRE DE L'ART , VOL VIII, PARIS , 1929, P.38.

٢٤- D'ESTOURMEL , OP.CIT., VOL.II P.257.

٢٥- EHRHARD, LE PRINCE PUCKLER MUSKAU, VOL.II, PARIS , 1927 , P.35.

٢٦- GASTON WIET , OP. CIT., P. 26. (LE MARGE)

٢٧-أمر منه إلى عبدي أفندي مأمور التلاندة بباريس في ٢٦ ذو القعدة سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١،ص٣٩٥.

٢٨-أمر منه إلى وكيل الجهادية في ١٧ شوال سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة،جـ١، ص٤٧٢.

٢٩-أمر منه إلى ناظر البحرية في ٤ رجب سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٥٩٨.

٣٠-أنظر القائمقام عبدالرحمن زكي، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير – الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م، ص١٨٥، وما بعدها.

٣١-أنظر : عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، دار المعارف، طـ٥، سنة ١٩٨٩م، ص٢١٥.

٣٢-شارل ديدييه، ليالي القاهرة، ١٨٦٠م، باريس، نقلاً عن بحث د. على كورخان المنشور في هذا الكتاب وانظر أيضًا :
PLANT (J), HISTOIRE DE LA RÉGENERATION DE L'EGYPTE, GÈNEVE, 1830, P. 183.

٣٣-راجع في هذا بحث د. على كورخان المنشور في هذا الكتاب.

٣٤-أمر منه إلى مدير الوجه القبلي في ٤ جماد آخر ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢،ص٥٥٥.

٣٥-أمر منه إلى الخزينه دار في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٥١.

٣٦-أمر منه إلى كاشف الجيزة بتاريخ ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٢.

٣٧-أمر منه إلى مأمور نظام أسنا بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٢١٤.

٣٨-أمر منه إلى مأمور الجيزة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة،جـ١، ص٢٩٥.

٣٩-أمر منه إلى الكتخدا بمصر في تاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٣٤٩.

٤٠-أمر منه إلى مأمور الجيزة بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة،جـ١، ص٣٠٩.

٤١-بيورلدي منه خطابا لمديري ونظار أقسام وجه قبلي في ٢٩ شعبان سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٦٨.

٤٢-أمر منه إلى رئيس المجلس في ٢١ ربيع آخر سنة ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة،جـ٢، ص٧.

٤٣-أمر منه إلى مدير نصف ثاني قبلي في ١٣ ذو القعدة سنة ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٧٨.

٤٤-أمر منه إلى حبيب أفندي في ٢٥ جماد أول سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٢١٥.

٤٥-أمر منه إلى مدير الجيزة في ١٣ شعبان سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٢١٥.

٤٦-أمر منه إلى محافظ دمياط في ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص١٤٦.

٤٧-أمر منه إلى مدير المدارس في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٣٨٨.

٤٨-أمر منه إلى كتخذا باشا في ١١ جماد أول سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٣٩٤.

٤٩-أمر منه إلى مدير بني سويف في ٢٣ صفر ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٤٦٢.

٥٠-أمر منه إلى مدير قبلي في ٢٥ شعبان سنة ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٤٧٢.

٥١-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٣ محرم سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٢.

٥٢-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٠ رمضان سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٧.

٥٣-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٤ شعبان سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٥.

٥٤-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٩ شوال سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٤١.

٥٥-راجع : شامبليون في مصر، الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٤٠٢-٤١٦.

٥٦-أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

٥٧-المرجع السابق.

٥٨-راجع ملاحق هذه الدراسة.

٥٩-راجع ملاحق هذه الدراسة.

٦٠-أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

٦١-إلى اوديفريد سنة ١٨٤٢م في أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

٦٢-إلى سيريزي بك في أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

٦٣-إلى ميمو سنة ١٨٣٠م، في أهرام نوفمبر ١٩٤٩م.

٦٤-في شأن هذه الفتوى راجع أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

أمر محمد علي إلى كافة الدواوين والمصالح والمآمير

في ٤ جماد آخر سنة ١٢٥٩هـ

إنه لترادف تقلبات الأحوال وتنوع تيار صعوباتها وشداديها من زمن جديد بعكس وجهة آمالي وكل ما أتأمل لها بامعان النظر ولما يحصل من وخامة عواقبها بالنسبة لجسامة تلك الخطوب كنت أتجلد بعزم ونوايا خيرية لمقابلة شدائد تلك الصعوبات. ومضت على الأوقات العديدة وأنا في تحمل المشاق تاركًا للراحة وبديهي أنه لا يتأتى لشخصي بمفرده مصادمة تلك الخطوب وإذلالها بل يحتاج لأعوان ومساعدين ذو عزيمة حتى ينجح في نواياه وأعماله وأنه من الأمور المسلمه أن أصحاب الفتوحات وواضعي القوانين في الأعصر الماضيه مع ما كان لديهم من الثروة والسطوة كانت الشدائد تلجئهم إلى أعوان لبث قوانينهم وتوطيد دعائمهم حالة كونهم محفوفين بنفوذ الكلمه ومما لا ارتياب فيه أنكم لو اتحدتم كشخص واحد وبذلتم الهمم بساعد الجد وتعودتم على ترك الراحة وأبرزتم الغيرة بالنشاط وتحمل المشاق بالتجلد لبث العدل وتشييد العمران للأعقاب والأخلاق ليكون سببًا للفوز والنجاح ونوال السعادة وأنه كما هو معلوم لذوي الوقوف بتواريخ الأعصار الماضية أن إقليم مصر أخذ في ارتقاء من العمران على دفعتين مأخذ أفاق به عن جميع جهات المسكونة وصار نموذجًا لها الأولى في زمن الأقباط والثانية في زمن إسكندر والدليل على ذلك كتب التواريخ وسائر الآثار النفسية والأبنية المفتخرة الموجودة إلى زماننا هذا التي لا نظير لها وأن دواعي تلك العمارية ما هي إلى بواسطة همم واجتهاد أناس من أبناء جنسنا وكذلك نحن إذ تعودنا على الاجتهاد فكل ما صرفنا الهمم وتحملنا ترك الراحة البتة من الوصول إلى مقاصدنا ونوال نوايانا وأنه لمعلوم للجميع

أن أراضي سائر الممالك الأجنبية أخذت أسمى درجات العمران بواسطة همم أهاليها حالة كونها غير قابلة للزراعة سوى دفعة واحدة في البيئة مع أن أراضي مصر جاري زراعتها دفعتين بل قابلة للزراعة أربع مرات في السنة ولذلك ومن لوازمات قابليتها كان ينبغي أن تكون مصر أضعافًا مضاعفة في العمران وهي صارت عارية من حلية العمارية والتقدم وتلك الحالة أدت لتكوين أنواع سهام الكدر والأسف في فؤادي وفضلاً عن ذلك وما سبق توضيحه أنه بالنسبة لموقعها الجغرافي هي إقليم ومرسى لأهالي البلاد المسكونة البالغ نفوسها ستماية مليون تقريبًا ولا يحتاج الأمر لكثرة الملاحظون والتأمل لإمكان تقدمها في العمارية في أقرب وقت من الزمن لما لها من القابلية لا سيما لاتصالها من جهة الشرق إلى الهند والصين ومن الجهة الغربية والشمالية لأوروبا التي هي اليوم منبع الغنى والثروة ونوالنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعي والاجتهاد في عماريتها يكون عين كفران بالنعمة وهذا لا تقبله شيم جبلتي وتأبى نفسي أن أكون شريكًا لكم في ذلك بل أني انجبر على دوام حقكم للاجتهاد وباستعمال القسوة بغية للوصول إلى الغاية المقصودة ولو أنكم في منزلة أولادي حتى تتيقنوا بأن لا نخلص لكم دون القيام ببذل الهمم المؤثرة في عمران الوطن الذي نلناه والإصلاحات المضطرة لها أهلية وتعرفوا قدره ومزيته أيضًا فمن بعد معلومتكم جيدا ما سبق ذكره والتأمل لنتيجة مزاياه لا شك ترون أنه متى حصل القيام ببذل الهمم والغيرة اللتين هما من مزايا الدراية بالحزم والتروي لابد من الوصول إلى المقاصد المنوية باجتناب التراخي والتحايل وتزييف الكلام تلقاء أوامري المشددة المعطية لأجل تلك المهمة فاحذروا من ارتكاب طورئ التراخي والكسل بما انه ضد الإنسانيه لأن العاقل لا يفتخر بعمله بل يكون افتخاره الوصول إلى نجاح الأمور الموكوله إليه ولهذا كونوا على يقين بأني سأسعى في سبيل هذا العمران حتى وأني أفدي روحي وفامليتي في سبيلها وتحققوا أن كل ما يرى منه أدنى تراخي وإهمال سانجبر على إتلافه لأنه في علم كل من لاذ بي أنه

كان مشربي وسيرى من منذ خمسة وعشرين سنة لا تسمح نفسي بتكدير أحد بل في علم من كانوا موجودين معي وفي صحبتي من عهد أربعين سنة كنت متجنبًا استعمال العنف إنما الآن تلجؤني لاستعمال القسوة وستقروني بهذه الحالة لاتخاذ طرق المعاملة بأنواع أخرى في حقكم بما أني أعذر في ذلك وكل من لم يهتم ببذل الغيرة بالجهد الجهيد لتحصيل السعادة لابد من إتلافه لأني في ذاك العهد لا كنت أؤمل ولا أتعشم في الوصل إلى المراكز التي وصلنا إليها اليوم وصارت آمالي الآن آخذه في ازديان ولذلك يسهل على إتلاف أحد فامليتي الحاكمة على ثلاثة مليون من النفوس في سبيل عمارية وإصلاح الوطن الذين هو أقصى مرغوبي فتخلصوا من وخامة الكسل والتراخي والا تجبروني باستعمال القسوة الرديئة بحالة احتراق قلبي وسكب دموع عيني.

(الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، جـ٢، مخطوطة بدار الكتب القومية تحت رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور، ص٤٩٧-٤٩٩).

ملحق رقم (٢)

من أوامر و بيورلديات محمد علي

أمر منه إلى كاشف الجيزة تاريخه ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ، يشير به أن صديقه صولت قونصل الإنكليز والخواجة دوروفتي قونصل فرنسا والخواجه بوكتي قونسل (أسوج) باتحادهم مع بعض يمشوا من طرفهم القبودان فاوبليا بالتوكيل عنهم لاستخراج آثارات قديمة بجهات الاهرام وتقسيم ما يعثر عليه من الآثارات القديمة بين بعضهم والتمس صديقه قونصل الإنجليز التصريح له بذلك و ... به عدم المـالفة في ذلك مع الملاحظة " (ص٤٢، جـ١، من الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا، ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، مخطوطة محفوظة بدار الكتب القومية تحت رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور).

* * *

" بيورلدى تاريخه ٣ ذي الحجة ١٢٣٣هـ

منه بالتصريح إلى البرنس لونكيس أحد أفراد الإنكليز بحفر المحلات المأمول وجود أثار قديمة فيها بجهات قبلي ". المرجع السابق، ص١٥.

بيورلدي منه تاريخه ٢٠ ربيع آخر ١٢٣٦هـ بالتصريح إلى الخواجة لورن الفرنساوي بالسياحة ببحر النيل والبحث عن الآثارات القديمة (ص٢٧ نفسه)

* * *

بيورلدي تاريخه ١٢ ربيع آخر سنة ١٢٣٩ بالتصريح للخواجة كتابا وروبارت وسكواسي الإنكليزي بالبحث فى الأبنية القديمة المتخربة الكائنة بوادي حلفا والأقاليم الصعيدية عن الآثار القديمة ومساعدة المذكورين وعدم معارضتهما في أمر البحث " (المرجع السابق، ص١١٣-١١٤)

* * *

" أمر منه إلى مأمورية أصوان تاريخه ٢٠ شعبان ١٢٤١هـ يشير به أنه بناء على التماس صديقه قونصل إنكلترا قد صرح إلى الأمير جون فوقس استرا ... أحد امواء الإنكليز للبحث على الآثارات القديمة بجزاير ونواحي أصوان ويؤكد عليه بعدم التعرض له وحمايته " (المرجع السابق، ص١٩٠).

*　*　*

" أمر منه إلى مأمور نظام اسنا تاريخه ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٤٣هـ بالتصريح إلى المدعو يجنيني مندوب قونصل شور المقيم بالإسكندرية بالسياحة في إسنا ونواحيها وبحفر المحلات المأمول وجود آثار قديمة بها بمصاريف من طرفه ويأخذ ما يوجده من الآثار القديمة" (المرجع السابق، ص٢١٤).

*　*　*

" بيورلدي من تاريخه ١٨ رجب سنة ١٢٤٣هـ بالتصريح إلى الموسيو جمص ويستر الإنجليزي بالسياحة بأعلى الأقاليم الصعيدية وبحفر المحلات والبحث فيها عن الآثار القديمة وبمساعدته وعدم ممانعته في ذلك " (المرجع السابق، ص٢٣٥).

" أمر منه إلى مأمور الجيزة تاريخه ١٣ رجب سنة ١٢٤٤هـ بالتصريح إلى صديقه سردينيا بإسكندرية بحفر المحل المقال منه عن وجود حجر مكتوب بالخط القديم ويأخذه متى وجد حسب التماسه ومساعدته بالأنفار التي تلزم للحفر بمصاريف منه " (المرجع السابق ص٢٩٥).

*　*　*

" أمر منه إلى مأمور الجيزة تاريخه ١٣ شوال سنة ١٢٤٤ يشير بعدم التعرض إلى يوسف عبدالله أثناء بحثه عن الآثارات القديمة الموجودة بكفور سقارة ومعاملة ومساعدته مثل الجاري في حق الباحثين على مثل ذلك من الأورباويون حسب التماس

الخواجة جورجي جباره وكيل ناظر التجارة بمصر " (السابق، ص٣٠٩).

* * *

" بيورلدي تاريخه ٦ رمضان ١٢٤٥هـ بالتصريح إلى المستر هي من أمراء الإنجليز ومعه نفرين رسامين وأتباعه بالسياحة لحد سنار وبرسم المباني العتيقة والحفر فيها عند اللزوم وبمساعدته في كل أموره (السابق، ص٣٤٨).

* * *

" أمر منه إلى الكتخذا بمصر في تاريخه ١٩ رمضان ١٢٤٥هـ بالتصريح إلى صديقه لاني مندوب قونصل الإنكليز بنقل الآثار القديمة التي وجدها بناحية العرابة المدفونة بمديرية أسيوط وتمثال السبعين الحجر الموجودين بشون وادي حلفة وكذلك كافة الآثار المودعة منه بمبنى النيل وباستخراج الحجر المسمى اسفنج الظاهر نصفه إلى إسكندرية وبمساعدته بالأنفار اللازمة لذلك بمصاريف من طرفه وعدم التعرض إليه " (السابق، ص٣٤٩) .

* * *

" بيورلدي منه في تاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥هـ بالتصريح إلى قونصل دولة الإنكليز المدعو باركر بفحت بعض المحلات القديمة واستخراج ما يوجد بها من الآثار لحد الشلالات فيمده لغاية أغسطس وبعدم التعرض إليه لحد التاريخ المرقوم " (السابق، ص٣٤٩).

* * *

" بيورلدي في ٢٤ رجب سنة ١٢٤٦هـ بالتصريح إلى صديقه قونصل الإنكليز باستخراج الأحجار القديمة من ناحية ميت رهينة قسم ثاني جيزة وبعدم ممانعته هو ومن يعين من قبله لحفر ذلك من عموم المأمورين والحكام " (السابق، ص٣٨٥).

* * *

"أمر منه إلى الخزينه دار فى ٢٨ ذى الحجة ١٢٤٨ هـ بتورية معتمد دولة النمسا

الآثار القديمة التى صار استخراجها من بعض المحلات بمعرفة دولة عسـكر باشـا الموجودة بطرف يورفورنك وباعطاه ما ينتخبه منها وتحرير بيان ما يأخذه بكشـفين تركي وإفرنكي وإبعاث تلك الكشوفه إلى باغوص بك " (السابق، ص٤٥١).

* * *

" بيورلدي منه خطابًا لمديري ونظار أقسام وجه قبلي في ٢٩ شعبان سنة ١٢٤٩هـ أنه بناء على التماس جناب الكولونيل قاميل قونصل الإنكليز قد صدر هذا البيورلـدي بالترخيص له بتعيين مندوبين من طرفه للبحث عن أنتيقات بالبنادر والقرى مدة سـتة شهور، فعليه يلزم عدم من من يعينهم المومى إليهم من فحت وحفر بعض المحـلات دون مس البناء القديم " (أوامر محمد، جـ١، ص٤٦٨).

* * *

" أمر منه إلى رئيس المجلس في ٢١ ربيع آخر سنة ١٢٥١ بأنه علم نشر وإعـلان الخلاصة الصادرة من المجلس بشأن عدم إخراج الأحجار القديمة وما يماثلـها مـن الآثار وعدم هدم المباني العتيقة الكائنة بالأقاليم الصعيدية من الآن فصاعد وإحالة دفة النظر والالتفات لهذا الخصوص على النظار والمديريون والتقرير بإعطاء ذهبية إلـى مينا أفندي للمرور بها في السنة دفعة واحدة للتفتيش ولكون أن التفتيش دفعه واحـدة في السنة لا يكفي ولاسيما بعض الأهالي يخرجون الأحجار القديمة والتوابيـت ومـا يشابهها من المباني العتيقة وجاري ارسالها من قبلهم إلى إسـكندرية وبيعـها علـى الإفرنج وأنهم لذلك يتلفون الأشياء القديمة وأن هذا الخصوص مما يجب الاعتناء بـه بمزيد من الالتفات حتى وكان قد نبه عليه شفاهيًا بتعيين ذات بصفة مفتـش للتفتيـش على أعمال المأمورين في ذلك فعليه يلزم على المفتش المومى إليه السعي والاجتـهاد في منه إخراج تلك الآثار وعدم هدم المباني القديمة والمرور دائمًا لحصول المنفعـة ولا بأس من مرور السواحين فقط بدون مس شئ من ذلك (أوامر محمد علي، جـ٢،

ص٧).

" أمر منه إلى مدير نصف ثاني قبلي في ١٣ ذو القعدة سنة ١٢٥١هـ بأن المدعو دولي أنهى إليه بطلب صدور أمره بعدم ممانعته في نقل أحجار الانتيقة الصغيرة مع المومية التي وجدها حال مروره بالأقاليم الصعيدية ويشير بأنه سبق صدور قرار من المجلس بشأن الانتيقات ولا يجوز الخروج عنه فيلزم عدم معارضة المذكور في نقل المومية فقط دون الانتيقة كمنطوق القرار المحكى عنه في حق الانتيقات (أوامر، جـ٢، ص٧٨) .

* * *

" أمر منه إلى محرم أغا مدير نصف ثاني قبلي في ٩ ربيع أول سنة ١٢٥٢هـ أن قونصل جنرال دولة النمسا تطلب بعريضته الترخيص إلى المدعو شمغر الحكيم السائح النمساوي الموجود الآن بقنا بمشترى أربعة هياكل معبرة بالموميا وإرسالها إلى بلاد الإفرنج فيلزم بعد العلم بما توضح إعطاء الحكيم المرسوم تصريحا بذلك لعدم تعرض أحد إليه (أوامر محمد علي، جـ٢، ص١٢٤).

* * *

" أمر منه إلى محافظ دمياط في ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٢هـ بأن حامله المسيو لاف التمس اعطاه أمر بالتصريح له باستكشاف آثار قديمة بناحية مدينة صان بالقرب من ترعة مويس شرطًا أن يستخرج شيأ منها من موضعه فيلزم بوصوله أرفاق شخص معه وإرساله للمدينة المذكور للتجول فيها والاستكشاف على وجه ما ذكر (أوامر...، رجـ٢، ص١٤٦).

* * *

" أمر منه إلى حبيب أفندي في ٢٥ جماد أول سنة ١٢٥٢هـ بأن أحد السائح

الإنكليزي نهى إليه بأن له خمسة صناديق داخلها موميا وغيرها محجـــوزة بكمـــرك بولاق ويرغب الإفراج عنها من بولاق والكشف عليها بكمـــرك إســكندرية حسـب الأصول والتصريح له بنقلها حتى لم يكن بها انتيقه وعليه يلزم التحرير من هنا إلـــى محل لاقتضى بالإجراء كالتماسه (أوامر ..، جــ٢، ص١٦٦).

* * *

" أمر منه إلى مدير الجيزة في ١٣ شعبان سنة ١٢٥٢هـــ بأنه تصرح إلى كـل مــن السيرفرانكي هنكنسه أحد سواح الإنكليز بفتح أحد رؤس الأهـــرام الصغـير الكـائن بجوار قرية سقارة بمديريته للتفرج وهذا للمعلومية فيلزم مراعاة منطـــوق خلاصـــة المجلس الصادره في الانتيقات وأن لا يؤخذ منـــــها شــيء (أوامــر ... ، جــــ٢، ص٢١٥).

* * *

" أمر منه إلى مدير قنا في ٩ رجب سنة ١٢٥٣هـــ سبق أن نبهت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة على المباني القديمة الموجودة بدندرة تجاه قنـــا وببنـــاء صوراً بأطرافها والآن سمعت بإخراج أحجار من داخل البنـــاء المذكــور وجــاري أعمالها جبر، ومن الضروري معرفة صحة ذلك من عدمه فإن كان صحيحًا ينبغــــي إيضاح الأسباب المبني عليها مخالفة التنبيهات (جــ٢، ص٣٥٢).

* * *

" أمر منه إلى مدير المدارس في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٤٥هـــ تطلب صديقنا قـــاميل قونصل جنرال دولة الإنكليز التصريح له بإرسال الحوضين الحجر الآثار القديمة التي صارا استخراجها من تلول أهرام الجيزة بمصاريف من طرفه لإرسالها إلى لونـــدرة وأنه لمناسبة صفاء الموده الحاصله بيننا يلزم التصريح بإرسال الحوضين المذكوريــن

بدون معارضة (أوامر، جـ٢، ص٣٨٨).

* * *

" أمر منه إلى مدير بني سويف في ٢٣ صفر سنة ١٢٥٨هـ بأنه سمع بوجود آثار قديمة داخل مغارة بالجبل تجاه قرب سمالوط ووجود غيرها أيضًا بالجهة المذكورة بكثرة وجاري هدمها بمعرفة الأهالي بمقولة البحث على أحجار وحيث أن التصريح بهدم ما ذكر لأجل لزوم أحجار قد أوجب اضطرابه فيقتضي بالتنبية والتأكيد على من يلزم يمنع المذكورين وعدم تخريب الآثار القديمة المماثلة لذلك بعد الآن (أوامر... ، جـ٢، ص٤٦٣).

* * *

" أمر منه إلى مدير قبلي في ٢٥ شعبان يقتضي عدم التعرض إلى المدعو ليسيو بعلم والثمانية أنفار رفقاه الذين حضروا لهذا الطرف مأموريه من دولة بروسيا أثناء حفر بعض المحلات الباقي بها آثار قديمة .. (جـ٢، ص٤٧٣).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٣ محرم سنة ١٢٦١هـ الأربعة هياكل من الآثار القديمة التي استحصل عليها الخواجة روشتي لتقديمها هدية إلى البابا قد صرحت له بإخراجها إجابة لطلبه فلا ينبغي التعرض له في ذلك بالجمرك. (جـ٢، ص٥٣٢).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٤ شعبان سنة ١٢٦١هـ قونصل جنرال دولة النمسا طلب مني إعطاء التصريح له بإرسال الخمسة عشر قطعة من الآثار القديمة إلى ويانه فأجابه لطلبه القنصل ينبغي عدم التعرض له أثناء إمراره تلك الآثار من

الكمرك (أوامر .. جـ٢، ص٥٣٥).

* * *

" أمر منه إلى جمرك إسكندرية في ١٠ رمضان سنة ١٢٦١هـ قنصل جنرال دولة بروسيا استحصل على بعض أحجار وأشياء من الآثار القديمة بواسطة الموسيو ليسبوس المؤرخ لتقديمها لصاحب الحشمة ملك البروسيا وطلب مني التصريح له بمرورها فإجابة لطلبه يلزم عدم التعرض في ذلك عند تسفيرها (أوامر ... جـ٢، ص٥٣٧).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٩ شوال سنة ١٢٦١هـ الموسيو سيراوسون تنتد كاتب سر حكمدارية سلان قد اشترى اثنين موميه وقطعة حجر من الآثار القديمة في أثناء سياحته بجهات الصعيد وطلب مني التصريح له بمرور ذلك من الكمرك فيلزم عدم المعارضة له فيما ذكر إجابة لالتماسه.

* * *

" أمر منه إلى مدير الوجه القبلي في ٤ جماد آخر سنة ١٢٦٢ه، قد صممت على تقديم اثنين موميه برسم هديه إلى حضرة ملكة الإنكليز فمقصدى ان يكون في غاية الاعتناء فيلزم بمجرد وصوله إلى مصر تدارك الهيكلين ويكون توابيتهما بدون كسور وإرسالهما لطرفي سريعًا. (أوامر ... جـ٢، ص٥٥٥).

ملحق رقم (٣)

المذكرة التي سلمها شامبليون إلى محمد علي باشا في ٢٩ نوفمبر ١٨٢٩م

مذكرة سلمت للوالي حول حفظ

وصيانة الآثار المصرية القديمة

من بين الأوروبيين الذين يزورون مصر كل عام يوجد عدد غفير منهم لا يأتون سعيًا وراء أي مصلحة تجارية، وإنما لمجرد الرغبة في التعرف بأنفسهم على آثار الحضارة المصرية القديمة المتناثرة على ضفتي النيل، والتي يستطيع المرء حاليًا تأملها ودراستها في أمان وسلام، بفضل الإجراءات الحكيمة التي اتخذتها حكومة جلالة الملك.

كمال أن فترة الإقامة الطويلة إلى حد ما التي يضطر الرحالة لقضائها في مختلف أقاليم مصر والنوبة تعود بالنفع على العلم الذي يثرونه بملاحظاتهم، وكذلك على مصر نفسها نظرًا لما ينفقونه من أموال لتنفيذ أعمالهم، أو لإشباع فضولهم، أو لاقتناء مختلف منتجات الفن القديم.

لذلك يصبح من الأهمية بمكان أن تعني حكومة سمو الملك بحفظ وصيانة الأبنية والآثار القديمة التي تمثل الهدف الرئيسي من وراء قدوم أفواج الأوروبيين الذين ينتمون إلى أرفع وأغنى الطبقات الاجتماعية.

بيد أن الرحالة يشعرون بالأسف والحسرة، وكذلك كل أوروبا المتحضرة التي تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميرًا تامًا وشاملاً منذ بضعة سنوات دون أن يبقى أدنى أثر. ومن المعلوم جيدًا أن تلك العمليات التخريبية الهمجية تتنافى مع نوايا سمو الملك وأرائه المستنيرة التي لا تخفى على أحد. كما تم ذلك على أيدي أفراد لا يستطيعون تقدير مغبة الأضرار التي يلحقونها بالبلد عن جهالة. إلا أن ذلك لا

يغير من فداحة ما يجرى، كما أن فقدان تلك الآثار يثير مخاوف كل طبقات المثقفين وقلقهم بشأن المصير الذي ينتظر الآثار الأخرى التي لا تزال قائمة حتى الآن.

وفيما يلي قائمة الآثار التي تم تدميرها مؤخرًا :

١-كل آثار " الشيخ عبادة " التي لم يبق منتصبًا منها سوى بعض الأعمدة الجرانيتية.
٢-معبد " الأشمونين " الذي يعد من أجمل الآثار المصرية.
٣-معبد " قاو الكبير " الذي أتت عليه مياه النيل والأيدي الهمجية.
٤-معبد يقع إلى شمال مدينة " إسنا ".
٥-معبد يقع على الضفة اليمنى للنهر في مواجهة " إسنا ".
٦-ثلاثة معابد في " الكاب ".
٧-معبدان يقعان في جزيرة أسوان في مواجهة مدينة أسوان.

وهكذا يبلغ مجموع ما تم تدميره من آثار عتيقة نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر أثرًا، من بينها ثلاثة على وجه الخصوص كانت في غاية الأهمية بالنسبة للرحالة والعلماء.

لذلك فما أمس الحاجة إلى أن يدرك هؤلاء الأفراد أهمية إجراءات حفظ وصيانة الآثار التي سنها سمو الملك إدراكًا تامًا، ويضعونها موضع التنفيذ، ويطبقونها بحذافيرها. فأوروبا بأسرها ستدين بالعرفان لسمو الملك لما يتفضل باتخاذه من تدابير فعالة تهدف إلى صيانة المعابد والقصور والمقابر وكافة الآثار الأخرى التي لا تزال تشهد بعظمة وقوة مصر القديمة، والتي تعد في نفس الوقت أروع ما يزين مصر الحديثة والمعاصرة.

ولتحقيق ذلك الهدف المرجو، يمكن لجلالة الملك أن يأمر بما يلي :

(١) عدم اقتلاع – بأي حال من الأحوال – أية أحجار أو قوالب طوب منقوشة أو غير منقوشة من الأبنية والآثار القديمة التي لا تزال قائمة في المواقع التالية

سواء في مصر أو النوبة :

أولاً : في مصر :

- " صان " الواقعة على قناة " المعز " في مصر السفلى.
- " بهبيت " بالقرب من " سمنود " في مصر السفلى.
- " صان الحجر " في مصر السفلى.
- " قصر قارون " الذي يقع في إقليم الفيوم.
- " الشيخ عبادة " لما تبقى فيها من أثار قديمة.
- " العرابة المدفونة " الواقعة أعلى مدينة "جرجا".
- " قفط "
- " قوس "
- " القرنة " وضواحيها.
- " مدينة هابو " وضواحيها.
- " الأقصر "
- " الكرنك " وضواحيها.
- " المداموـد "
- " أرمنت "
- " الطود " الواقعة على الضفة اليمنى للنيل في مواجهة " أرمنت ".
- " إسنا ".
- " إدفو ".
- " كوم أمبو ".
- " أسوان "
- " جزيرة أسوان ".

ثانيًا : النوبة فيما وراء الشلال الأول :

جزيرة " البردة ".

جزيرة " بغية ".

جزيرة " سهيل ".

" دابود ".

"دندور ".

" بيت الوالي " بالقرب من " كلابشة ".

" كلابشة ".

" جرف حسين "

" الدكا "

" المحرقة "

" وادي السبوع "

" عمدا "

" الدر ".

" إبريم ".

" أبو سمبل ".

" جبل عدة ".

" المساخيط ".

" وادي حلفا " بعض الأنقاض الواقعة على الضفة اليسرى للنيل.

ثالثاً : ما وراء الشلال الثانى :

(١) "سمنة" و"صولب" و "برقل" و"أسور" و"ونجا" وغيرها من المواقع التى تحتوى على آثار عتيقة حتى حدود سنار حيث لا يوجد شئ.

(٢) إن الآثار العتيقة المنحوتة فى الجبال تضارع من حيث أهمية المحافظة عليها

الآثار المشيدة من الأحجار التى تم اقتلاعها من نفس تلك الجبال . لذلك فإن الحاجة ماسة إلى الأمر بعدم احداث أية اضرار أو تلفيات داخل تلك المقابر التى يقوم الفلاحون بتدمير نقوشها إما لإعادة استخدامها فى بناء أماكن تأويهم هم وحيواناتهم، وإما لبيع أجزاء صغيرة من نقوشها إلى الرحالة ، حتى وإن اقتضى ذلك تشويه حجرات بأكملها . أما عن المواقع الرئيسية التى تجدر حمايتها على وجه الخصوص، فتتمثل فى المغارات الجبلية الواقعة على مقربة من :-

- " منف ".
- " بني حسن " ووضواحيها.
- " تونا الجبل ".
- " التل ".
- " سمون " بالقرب من منفلوط.
- " العرابة المدفونة "
- " القرنة " وضواحيها.
- " وادي الملوك " بالقرب من " القرنة ".
- " الكاب ".
- جبل " السلسة.

ففي مثل هذا النوع من الآثار تقع يوميًا عمليات التخريب والتدمير التي يقترفها الفلاحون إما لحسابهم الخاص، وإما لصالح تجار العاديات على وجه الخصوص الذين يستخدمونهم. كما أنني أعلم علم اليقين بأن هؤلاء المضاربين الأوروبيين قد دمروا أبنية أملاً في اكتشاف بعض القطع الأثرية الفريدة في أساساتها. بيد أن المغارات المنحوتة والمنقوشة التي تكتشف يوميًا في " منف " والعرابة المدفونة " والقرنة " سرعان ما تتهدم قريبًا بمجرد فتحها من جراء جهل وطمع وشراهة المنقبين عن الآثار والأشخاص الذين يستخدمونهم.

لقد آن الأوان لوضع حد لتلك العمليات التخريبية البربرية التي تحرم العلم في كل لحظة من آثار غاية في الأهمية، وتصيب الرحالة بالحسرة وخيبة الأمل لاندثـــار النقوش الفريدة التي تكبدوا مشاق كثيرة في سبيل القدوم لرؤيتها .

ومجمل القول فإن مصلحة العلم لا تقتضي بالطبع إيقاف الحفائر التي يكتسـب من خلالها يوميًا المزيد من التأكيدات والمعارف غــير المنتظــرة، وإنمــا تقتضـــي المصلحة إخضاع تلك الحفائر للوائح وقوانين تضمن الصيانة الكاملة لما يتم اكتشــافه من مقابر في الحاضر والمستقبل، وحمايتها من كافة التعديات، سواء كان مصدرهـــا الجهل أو الطمع أو الجشع الأعمى.

الإسكندرية في نوفمبر ١٨٢٩م.

صـــــورة مصـــر فى عصـــر محمـــد عـــلى
فى مقررات التاريخ المدرسى المصرى

د. زكــــــى البحيـــــرى

مدخـــل :

لا توجد أمة من الأمم على سطح كوكبنا تستطيع الاسـتغناء عـن رموزهـا التاريخية المضيئة لكى تنير لها سبيل الحاضر وتستشرق بها آفاق المستقبل وتشد بها أزر أبنائها على طريق التقدم ، لذلك فليس مـن الغريـب أن نجـد أن المقـررات التاريخية المدرسية تولى عنايتها فى أى مجتمع للوقوف على مجـهودات الأجيـال السابقة ، وفى مصر نحن نحاول إبراز الدور الحضارى لبلادنا ، وتنمية الاعـتزاز بتراثنا المصرى وكذا بالتراث العربى والقيم الروحية والثقافية للإنسـان العربـى ، وترسيخ الإيمان بحركة الوحدة العربية ، وتبصير التلاميـذ بخطـورة الإمبرياليـة والصهيونية ، وضرورة معاداتهما ، وتعميق التوجهات الديمقراطية ، والمجـهودات التنموية ، والعدالة الاجتماعية .[١]

إن العلة التى تزيدنا اهتماماً بتاريخنا هى أن كل أمة تحاول إبـراز دورهـا التاريخى وتعظمه ، بل إن الصهاينة يفتعلون لأنفسهم تاريخاً يدعمون بـه وجودهـم على الأرض العربية المحتلة [٢]. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا مبرر لأن ننسى معـالم تاريخنا – كما حدث فى المعالجات المشوهة فى كتابة تاريخنا المدرسـى ، وخـلال فترة تحويل التاريخ إلى مادة غير أساسية فى الثانوية العامة ، وقد حدث تراجع عـن هذه الخطوة أخيراً ابتداء من السنة الدراسية ١٩٩٩/٩٨م – ورموز ماضينا ، ونتذكر أعياد الميلاد ، وأحداث ومناسبات متعددة افتعلناها لأشخاص ليسوا هم تراث مجدنـا ولا نبراس لأجيالنا .

إنه لابد من العودة إلى تاريخنا اليوم بإلحاح خاصة فى حضور مـا يسـمى

بالعولمة التى لا تعنى فى النهاية سوى سيطرة الرأسمالية الغربية والقوى العظمى على مقدرات عالمنا ، العولمة التى تعنى فى الحقيقة تمييع بل إزالة الهوية القومية لدول العالم الأخرى وفى مقدمتها مصر والدول العربية ، وحصر هذه الهوية فى الفلسفة الرأسمالية الغربية المتحكمة ، والأمر الجدير بالالتفات أن سمة إعلامنا المصرى والعربى نشر صور وإذاعة أقوال وموضوعات قد لا تدل أو تعكس واقع تاريخنا وحياتنا ، فالفارق كبير بين ما يبث فى أعلامنا المذاع والمرئى وحقيقة تاريخنا ، وظروف وأحوال مجتمعنا فى كل مكان .

والواقع أن ما يحتم علينا عرض تاريخنا الحقيقى وما فيه من مواقف مشرفة على المهتمين عامة وفى المدارس خاصة أن فى هذا التاريخ أياماً بعينها يحيط بها الغموض من ناحية الدقة التاريخية على الرغم من أن هذه الأيام هى من المعالم المميزة التى غيرت وجه تاريخنا كله .

كذلك فإن ما يدفع الإنسان إلى التفتيش فيما خلفته مقررات التاريخ المدرسى لدى أجيالنا من المعرفة أو الوعى تلك الحيرة التى تستولى على مثقفينا ومتعلمينا وتلاميذ مدارسنا عند حكمهم على حدث أو موقف تاريخى معين ، فوضوح الرؤية غير متوفر ، واختلاف الرأى سمة غالبة ، بل أن آراء الكبار تتضارب مع آراء الصغار ، ويميل كل فريق إلى حشد البراهين لتأكيد مصداقية ما تلقاه من معلومات تاريخية .

وجدير بالملاحظة أن محمد على والى مصر و بانى نهضتها الحديثة قد زادت حوله الأقاويل المبرزة لبطولته إلى الحد الذى جعلها ركاماً ضخماً حجبت الحقيقة ، ومنع من الوصول إلى تقييم موضوعى لعصر هذا الحاكم العظيم ، واستخلاص الخبرات لتجنب الأخطاء التى وقعت فى عصره ، ولقد انعكس ذلك بالطبع على مقررات التاريخ بمدارسنا قبل الثورة ، ثم إن هذه المقررات جاءت فى فترة بعد

الثورة مجحفة أحياناً بدور محمد على رأس الأسرة العلوية التى تعاونت مع المستعمر وقبلت العيش معه على حساب الشعب المصرى ، وعليه فإن من الواجب أن يكون هناك حد أدنى من التاريخ الحقيقى الذى لا تبدله حالة السياسة وأوضاع الحكام خاصة أن من أكثر آفات حكامنا خطورة رغبتهم الواضحة فى طمس تاريخ من سبقوهم.

ولسوف نحاول هنا تتبع كيفية معالجة تاريخ مصر فى عهد محمد على فى المقررات المدرسية المصرية منذ بداية هذا القرن وحتى نهايته تقريباً ، وذلك من خلال تحليل لمحتوى الكتب المدرسية ذاتها فى مواجهة الحقيقة التاريخية التى تعكسها الدراسات الموضوعية .

القوى الشعبية وتولية محمد على :

لقد استمر العثمانيون يحكمون مصر كولاية عثمانية منذ ١٥١٧م حتى مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر والمشرق العربى ، حيث احتلت تلك الحملة مصر وتوجهت إلى الشام على أمل بناء إمبراطورية فرنسية فى الشرق ، غير أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير ، وفشله فى الاستيلاء على عكا ، وقوة المقاومة الشعبية المصرية قد حطمت آمال نابليون وفرنسا فعاد نابليون من حيث أتى تاركاً الحملة ومصيرها فى يد القدر.

إلا أن تاريخ هذه الحملة جاء مشوها فى مقررات التاريخ المدرسى فعن أسباب هذه الحملة ورد فى كتاب المرحلة الابتدائية عام ١٩١١ " أن ولاة مصر فى الفترة الأخيرة خاصة مراد بك وإبراهيم بك قد بالغوا فى نهب التجار الأوربــاويين ، وكثرت شكوى الأهالى ، وقناصل الدول إلى السلطان سليم الثالث . . . ولكنه لم يصغ لهم ولا للقناصل أيضاً . . . فأرسلت حكومة فرنسا جيشاً تحت قيادة الجنرال نابليون بونابرت إلى مصر . . . " [٣]. ويبدو وكأن سبب قيام الحملة الفرنسية هو

نهب زعماء المماليك للتجار الأجانب ، وكأن المحرك الأساسى للحملة الفرنسية أساسه محلياً نظراً لسوء الأحوال وخطأ السياسات القائمة فى مصر وقتها ، علماً بأن المحرك الفعلى كان فى حقيقته خارجياً مصدره أوربا ورغبة فرنسا بعد قيام ثورتها وزيادة قوتها فى الانتقام من غريمتها إنجلترا وذلك باحتلال مصر مفتاح الطريق إلى الهند أكبر مستعمرات إنجلترا فى هذا الوقت ، ذلك لأن إنجلترا كانت قد أحرزت انتصاراً كبيراً على فرنسا فى حرب السنوات السبع ١٧٥٦-١٧٦٣ فى الهند وفى أمريكا الشمالية حيث تنازلت فرنسا عن مستعمراتها فيهما لإنجلترا . (٤)

ان هذه الحقائق التى أغفلتها كتب التاريخ المدرسى فى عهد الاحتلال رصدتها مقررات التاريخ بعد سنة ١٩٥٢ ، مثل مقرر " تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث " للصف الثالث الإعدادى عام ١٩٥٩ ، لمؤلفه أحمد عزت عبدالكريم (٥)، وكتاب " تاريخ العرب الحديث " لنفس المستوى الدراسى عام ١٩٦٣ لمؤلفه أحمد عبدالرحيم مصطفى وغيرهما.

وبصفة عامة لقد أغفلت المقررات المدرسية للتاريخ الإجابة عن سؤال هام هو لماذا تجمع الشعب المصرى كله لمحاربة الفرنسيين ومقاومتهم تحت قيادة الطبقة البرجوازية الناشئة أو الزعامة الشعبية بينما لم يفعل ذلك فى مواجهة ظلم المماليك والعثمانيين على حد سواء ؟ ولماذا بدا وكأن وعياً قومياً قد ولد فى نهاية القرن ١٨ مع العلم بأن الظلم الذى كان يلاقيه المصريون من المماليك والعثمانيين كان بإمكانه إزالة الصمت ، وتخليق وعى ثورى قبل ذلك بوقت بعيد ؟ .

لقد كان الدور الوطنى للطبقة الوسطى (البرجوازية) آخذاً فى التبلور ملتفاً حول الزعامة الشعبية للطبقة الوسطى قبل وخلال الحملة الفرنسية وفى ثورتى القاهرة الأولى والثانية ، وعقب خروج تلك الحملة من مصر وقتما اشتد الصراع على السلطة بين المماليك والعثمانيين ، وفى هذا الخصوص يذكر أحد المقررات

المدرسية " أنه بعد فشل خسرو باشا فى تولية الحكم ... ولى مكانه السلطان العثمانى أحمد خورشيد باشا ... ورأى هذا اتساع نفوذ محمد على وشدة تعلق الأمة والألبانيين به ، فاستقدم جيشاً من المغاربة ليكونوا عوناً عليه ، وأطلق لهم العنان ينهبون ويقتلون ، فكرههم الناس وكرهوا خورشيد من أجلهم وزادوا تعلقاً بمحمد على حتى خشى السلطان مطامعه فأصدر أمراً بتوليته على جده ليبعده عن مصر ، فأدى هذا الأمر إلى أن هاج الجيش ، فهب دفعة واحدة يطلب محمد على والياً على مصر ، وحاصر خورشيد فى القلعة ، فاضطر السلطان إلى عزله وتولية محمد على فى يوليو ١٨٠٥"[٦] ، وهنا لا يبدو دور الشعب المصرى وزعامته فى تولية محمد على ، وهنا لا يبدو أن للشعب المصرى وزعامته دوراً فى تولية محمد على ، ففضل التولية يرجع كما هو باد إلى محمد على ذاته، إلا أن الحقيقة تخالف هذا تماماً، فالشعب المصرى هو صاحب الدور الأساسى فى توليته، فقد انقسمت البلاد بعد خروج الفرنسيين إلى مناطق يحتلها الأتراك وأخرى يحتلها المماليك، وثالثة كان يحتلها الإنجليز ، وتطلع المماليك إلى القبض على زمام الأمور فى البلاد كما كانت من قبل ، وفى نفس الوقت كان الباب العالى يطمح إلى طرد المماليك من الديار المصرية . [٧]

وكان من المتواتر أن المصريين لا وزن لهم فى موازين القوى السياسية فى مصر ، ولم يكن ذلك حقيقياً ، والواقع أن ظروف الحملة الفرنسية ومقاومتها أظهرت القوى الشعبية المصرية وزعامتها وقدرتها على الاستمساك بحقوقها بعد خروج الحملة ضد ما أصاب البلاد من الظلم والإرهاق على أيدى المماليك والأتراك، فعزموا على التخلص من هذين الفريقين وأساليبهما البالية ، فتصدت الزعامة الشعبية بقيادة عمر مكرم نقيب الأشراف لكل جور وبطش من جانب الباشوات الأتراك والأمراء المماليك.[٨] فلقد " ثارت جموع الشعب المصرى فى القاهرة والأقاليم ، وامتد القتال إلى الصعيد ، وقد دفع هذا المدنيين فى القاهرة إلى قفل محالهم واللجوء

إلى مشايخهم الذين اجتمعوا بالقاضى حيث اشترطوا لإنهاء الثورة عدة شروط أرسلوا بها إلى الوالى فطلبهم ولكنهم رفضوا الذهاب إليه وأعلنوا الإضراب العام " وكان لدى قادة الإضراب أو الثورة رغبة فى القضاء على الفوضى دون طموح واع إلى الحكم المباشر ، "وكانوا فى حاجة إلى ساعد قوى يعضدهم حيث ظهر هذا الساعد فى شخص محمد على الذى ما أن انفجر بركان القاهرة ضد خورشيد حتى كان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع الثائرون الاطمئنان إليه فرفضوا والى السلطان وبايعوه والياً عليهم وكتبوا إلى الأستانة " . (٩)

وكان السلطان العثمانى قد استجاب لرغبة الشعب المصرى لتولية محمد على لتفادى ثورته مؤقتاً ، ولذلك لم يمض على اعتراف السلطان به والياً على مصر علم واحد حتى أصدر فرماناً بنقله إلى ولاية سالونيك فى بلاد اليونان ، ولكن هذه المحاولة فشلت أيضاً بسبب إصرار الشعب المصرى على التمسك بمحمد على والياً على مصر ، حسب ما جاء فى المقرر المدرسى للمستوى الإعدادى ١٩٧٧. (١٠)

وعاد الفضل إلى أصحابه حيث أشير صراحة وبالتفصيل إلى دور الشعب والطبقى الوسطى القائدة والأكثر وعياً من المتعلمين ومن رجال الدين والتجار بزعامة السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوى فى مقررات التاريخ المدرسى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

<u>عصر محمد على بداية لتاريخ مصر الحديث :</u>

ذكرت بعض المقررات المدرسية أن الحملة الفرنسية هى التى أيقظت الشعب المصرى وحركت لديه المشاعر الوطنية ، وأوجدت فى مصر نهضة حديثة ، وفى ذلك قدر كبير من المبالغة ، صحيح أن الحملة الفرنسية أوجدت طرقاً للحكم وأساليباً للإدارة والعمل لم تكن موجودة ، إلا أن الواقع يقول أن مصر كانت فى سبيلها إلى إحداث تغييرات اقتصادية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والحقيقة

المؤكدة أن مصر فى عصر محمد على قد شاهدت تغييرات جذرية اقتصادية واجتماعية وسياسية بشكل يجعلنا نقرر باطمئنان أن تاريخ مصر الحديث بدأ مع عصر محمد على ، ومن ثم تسقط وجهات النظر التى تقول بأن الحملة الفرنسية هى الحدث الذى يؤرخ بداية تاريخ مصر الحديث ، وبالطبع فإنه من المرفوض تماماً اعتبار دخول العثمانيين إلى مصر بداية لتاريخها وتاريخ العرب الحديث . (١١) ولقد أكدت وبرهنت كثير من الدراسات التاريخية المعاصرة على أن بداية تاريخ مصر والعرب الحديث يبدأ مع عصر محمد على . (١٢)

التطورات الاقتصادية فى عصر محمد على فى المقررات المدرسية :

يورد كتاب ، تاريخ مصر السياسى لمؤلفه محمد رفعت للمستوى الثانوى عام ١٩٣٤، أن محمد على وضع على كاهله منذ تولى حكم مصر ضرورة إيجاد نظام اقتصادى اجتماعى جديد ومنفرد، يمكنه من توفير مصادر للدخل والتمويل لتكوين جيش وأسطول متقدمين، يؤهلانه للقيام بدور عسكرى وسياسى يمكنه من بناء إمبراطورية واسعة له ولأبنائه فى الشرق مركزها مصر ، وقد عظمت المقررات المدرسية قبل الثورة من الدور الذى كان لمحمد على فلم تعتبره المنشئ الحقيقى لنهضة مصر الحديثة فقط بل وذكرت نصاً " أننا لا نبالغ إذا قلنا (أنه منشئ) نهضة الشرق الأدنى جميعه فهو أول أمير شرقى أشربت روحه مبادئ التقدم والرقى على أصول المدنية الحديثة".(١٣)

ويؤكد محمد رفعت على أن كل الأعمال المدهشة والإصلاحات الهائلة التى قام بها محمد على لتتضاءل أمام مشروع الاستقلال الاقتصادى ، فقد رأى هذا الوالى الذكى أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية ولذا يجب أن تنتج معاملها كل ما يحتاج إليه جيشه وأسطوله العظيمين وما تحتاج إليه أسواقه وأملاكه من المصنوعات،

بدل أن تظل مصر دائماً محتاجة إلى مصنوعات أوربا . (١٤)

وإذا كان هدف محمد على إقامة بناء اقتصادى سياسى وتكوين جيش وضم بلدان وتشكيل إمبراطورية له ولأولاده من بعده إلا أنه فى نظر المحللين قد سربل طموحه الخاص بالنزعة الإسلامية والتظاهر بالرغبة فى تخليص الأمة العربية والإسلامية من العثمانيين أنفسهم الذى اعتبرهم محمد على خارجين على الدين والشريعة الإسلامية (١٥)، ويرى أنور عبدالملك أن محمد على أراد تأكيد خصوصية مصر عن طريق التقليل من النفوذ العثمانى عليها من جانب والأخذ بأساليب الدولة العصرية من جانب آخر ، وفرض نفوذ مصر خارج نطاقها من جانب ثالث . (١٦)

ولكى يُحدث محمد على نقلة حضارية ويوجد نظاماً اقتصادياً أكثر حداثة وضماناً لتحقيق أمنياته بدل أنماط وطرق الإنتاج للأوضاع الاقتصادية، الزراعية والصناعية والتجارية وغيرها .

أ- الزراعة فى عصر محمد على :

كانت الزراعة أول عمل وجه محمد على إليه عنايته الخاصة ، إذ رأى أنها المصدر الأساسى لثروة البلاد ، وعليها يتوقف أهم دخلها السنوى ، فجعل زراعة جميع المحاصيل تحت إشرافه حتى لا يهرب أحد من دفع الضرائب التى عليه ، وتشدد فى المحافظة على سيادة الأمن العام ، وقبض بيد من حديد على عصابات اللصوص التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وأمر مديرى المديريات بعمل مسح للأطيان وقياس مساحة أراضى كل قرية ، ما عدا الضياع التى كان يتم منحها للمقربين وذوى الحظوة ، وكان كل عمدة فى قريته يقوم بتوزيع الأراضى على الفلاحين ، ثم يجمع منهم الضرائب المقررة بمساعدة موظفى الحكومة ، وبذلك سيطر محمد على على جميع أراضى البلاد التى كانت تسمى أرض الأثر (الخراج)، ثم استولى على معظم أراضى الأوقاف التى كانت تحت رعاية العلماء الذين احتجوا

عليه وتجمهروا، " فأقنعهم بالدليل القاطع ، أنه الوالى من قبل الخليفة الـــذى يتولـــى أمور المسلمين جميعاً ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف " . (١٧)

وتدخل محمد على فى كل شئ ، فقد كان يعين المحصولات التى تزرع فـــى كل بقعة من بقاع مصر ، وكانت تجمع المحصولات جميعها آخر العام بعد الحصـــاد وتوضع فى مخازن الحكومة و يقدر ثمنها عدد من رجال الحكومة " ، فكـــان جـــزء منها يؤخذ مقابل ضرائب الأرض ، وما يتبقى تشتريه الحكومة بأسعار هـــى التـــى تحددها ، وتقوم بتصنيع بعض المحاصيل الصناعية كالقطن ، والجزء الأكبر يبـــاع إلى التجار الأوربيين وبذلك احتكر محمد على الزراعـــة ، بـــل وجميـــع المـــوارد الاقتصادية الأخرى ، وأدخل زراعة القطن ، والقنب ، والنيلة التى كانت تستخدم فى صباغة الملابس ، كما اهتم بزراعة الحدائق والغابات . (١٨)

والحقيقة أن محمد على قد أحدث انقلاباً هاماً فى نظام ملكية الأرض فنقل إليه والى حكومته حقوق " الملتزمين " وقام بتوزيع الأراضى على الفلاحيـــن ، وفـــرض الضرائب العالية عليهم مما كانت تنوء بها ظهورهم وإمكاناتهم مما دفع الكثيرين إلـــى الهرب من القرى لعدم قدرتهم على دفع ما عليهم من الضرائب . (١٩)

ومن المؤكد أن عملية تكوين إمبراطورية لمحمد على مركزها مصر لم تكـــن عملاً عفوياً ، وإنما كانت عملية استلزمت من الوالى الفطن تســـخير كـــل الطاقـــات الطبيعية والبشرية المتاحة فى وادى النيل ومصر بالذات ، ومن ثـــم فـــرض نظـــام الاحتكار أو ما يسميه البعض بنظام رأسمالية الدولة الذى يعنى تركيز معظم الدخـــل الإنتاجى القومى فى يد الحاكم والحكومة، ولقد استعان محمـــد علـــى فـــى تحقيـــق مشروعاته بفريق من الأجانب وبالأخص الفرنسيين(٢٠). وبذلك أمكن لوالـــى مصـــر إجراء تغييرات جذرية ، واسعة النطاق فى منطقة الشرق الأوسط (٢١). ولقـــد كـــان محمد على طموحاً تواقاً إلى التوسع ، وهذا استلزم وجود جيش وأسطول كبيرين مما

حتم عليه ضرورة تركيز طاقة البلاد وإيراداتها فى يديه ومن ثم اتبع أسلوب الاحتكار الذى جعل الدولة أكبر مالك لرأس المال والإنتاج.

ب- الصناعة :

يذكر مقرر عام ١٩١٦ أن محمد على رأى إدخال الصناعة فى مصر، ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب ، لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، واستيراد الخبرة ، ومع ذلك فقد أنشأ معامل الغزل والنسيج والحرير والصوف والكتان فى المنصورة ودمياط ، ورشيد والمحلة الكبرى ، وزفتى ، ومنية غمر (ميت غمر) ، وبنى سويف ، كما أنشأ المعامل فى بولاق ومنها مبيضة المنسوجات ، والمصابغ ، ومصانع الطرابيش والسكر ، ومعامل ومسابك الجيش والمعدات والذخيرة [٢٢]. وتذكر باحثة فى مجال الصناعة أن محمد على كان يقوم بشراء الخامات اللازمة للصناعة بأسعار رخيصة ويبيعها للصناع والحرفيين كى يتم تصنيعها طبقاً للمواصفات المطلوبة ، ثم تقوم الحكومة بشراء المواد المصنعة بأسعار محدودة ، حيث تتولى بعدها بيعها للجمهور بأسعار عالية أو تتولى تصديرها للخارج ، والواقع أن النظام الاحتكارى فى الصناعة قد أوجد نهضة صناعية لكنها كانت مفتقدة إلى السوق بسبب المنافسة الخارجية [٢٣].

ويورد كتاب التاريخ للثانوية العامة ١٩٣٤ سبب افتقاد الصناعة فى عهد محمد على للسوق يقول " كان ثمن السلعة المنتجة فى مصانع محمد على أغلى من ثمن مثيلتها التى ترد من الخارج مع جودة أعلى للبضائع الأجنبية ، وكان محمد على على علم تمام العلم بالعجز فى إيرادات مصانعه ، ولكنه استمر للنهاية يستخدمها رغبة منه فى تعويد المصريين على الصناعة ، والاستقلال عن أوربا وتشبهاً بنظام فرنسا وإنجلترا فى ذلك الوقت وهو نظام اتباع حماية التجارة والصناعة المحلية " [٢٤].

ويؤكد أحمد عزت عبدالكريم وآخرون فى كتاب الثانوية العامة الذى كان مقرراً فترة الستينات والسبعينات أن مصر شهدت بالفعل نهضة صناعية كبرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [٢٥]. إلا أن هذا المشروع النهضوى الصناعى لمحمد على قد فشل ، وتسند بعض المقررات المدرسية هذا الفشل إلى محمد على نفسه – وهذا تعليل فيه قدر كبير من التجنى على الحقيقة ، لأن فشل مشروعات محمد على ترجع لعوامل أخرى سوف نشير إليها – تقول : " لا يدهش المؤرخ خطؤه (يقصد محمد على) أحياناً فى بعض الإصلاحات والمشروعات الصناعية ، ولا يؤخذ عليه ذلك ، بل يغتفر له غلطاته بملء صدره بشفاعة أعماله النافعة "[٢٦].

ولقد أوردت باحثة متخصصة فى تاريخ الصناعة فى عهد محمد على أسباب انهيار المشروع الصناعى لمحمد على ، وحددت هذه الأسباب فى عوامل داخلية منها (١) سوء الإدارة والفساد الحكومى ، فلما كانت الحكومة تتبع نظام الاحتكار كإطار لعمليات التصنيع فقد كان عليها أن تقوم وحدها بعملية التصنيع ، وكان على عاتقها إنشاء المصانع وتدريب العمال ، والبحث عن المواد الخام حيث كانت الصناعة بدائية ورؤوس الأموال الوطنية ضئيلة ورؤوس الأموال الأجنبية غير مرغوب فيها... ولذا تحملت الحكومة من النفقات ما لا قبل لها به وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستمر الأمر على ذلك . ٢) عدم وجود العمال المهرة ولذلك استعان محمد على بالخبراء الأجانب . ٣) كذلك فإن تكلفة الإنتاج كانت عالية مما رفع أسعار المنتجات وقلل من قدرتها على منافسة البضائع الأجنبية . ٤) عدم توفر الحماية الجمركية بالمعنى الصحيح، فقد أوعزت الدول الأوربية خاصة بريطانيا إلى السلطان العثمانى بإصدار فرمان سنة ١٨٢٠ ، ينص على أن يترك الباب مفتوحاً للبضائع الأوربية الداخلة إلى الولايات العثمانية ، على أن يدفع عن هذه البضائع ضريبة قدرها ٣% من قيمتها ، مع التأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الفرمان الذى كان مقصوداً به مصر.

وعللت نفس الباحثة فشل المشروع الصناعى لمحمد على بعوامل خارجية

خلاصتها مقاومة الدول الأوربية لحركة التصنيع الوليدة فى مصر ، تلـك المقاومـة التى نستشعر صداها فى الحملة العنيفة التى وجهتها تلـك الـدول نحـو الصناعـة المصرية على ما تشهد به تقارير القناصل الأجانب وإجماعهم على فشل الصناعـة وهى مازالت فى بدايتها مع تكرار القول دائماً بأن مصر بلد زراعى فقط فلقد تحالفت الدول الأوربية على إسقاط نظام محمد على الذى يهدد مصالحـها وتجارتـها فـى الشرق ، ومن ثم كانت تلك المعاهدات التجارية التى عقدتها مع سلطان تركيا مثـل معاهدة "بلطة ليمان " سنة ١٨٣٨. [٢٧]

جـ- التجـارة :

لقد احتكرت الدولة التجارة الداخلية والخارجية فكانت تستولى على المحاصيل الزراعية من الفلاحين وتقوم بتصديرها إلى الخارج جملة واحدة مع بعض منتجـات المصانع ، كذلك كانت الدولة هى التى تستورد ما تحتاج إليه البلاد من مواد خـام أو مُصنعة أو آلات ثم تعيد بيعها بالسعر الذى تراه بما يحقق لمحمد علـى وحكومتـه الربح الوفير [٢٨]، ومن أجل تنشيط حركة التجارة أنشأت حكومة محمد على ترسـانة لبناء السفن ، وجلبت الأخشاب والأدوات اللازمة ، وقامت بإصلاح ميناء الإسكندرية حتى يكون مناسباً لاستقبال العديد من السفن الكبرى ، ويمكنه جذب التجار الأجـانب للاتجار مع مصر ، وشراء بعض محاصيلها الزراعية ومنتجاتها الصناعية . [٢٩]

<u>محمد على وبنـاء الدولـة الحديثـة</u>

فى المقـررات المدرسـية :

كان على محمد على لكى يقيم دولة حديثة فى مصر خلافاً للنهوض بـأحوال البلاد الاقتصادية وتوجيهها بالقدر الذى يكفل له السيطرة عليها الاهتمام بـ :

أولاً : إيجاد حكومة مركزية ، وتنظيم الإدارة الحكومية .

ثانياً : الاهتمام بإدخال العلوم الحديثة ، وتطوير نظام التعليم .

ثالثاً : تكوين قوة حربية قوية . (٣٠)

وتفاصيل ذلك أن محمد على – وكما جاء فى مقرر الثانوى ١٩١٦– أنشأ " ديواناً خديوياً " جعل مقره القلعة ، برئاسة الوالى وينوب عنه فى غيابه " الكتخدا " ، وكان عمله الفصل فى الأمور التى ليست خاصة بالقاضى الشرعى . وأنشأ مجلسين: أحدهما كان يسمى " مجلس المشاورة الملكى " وينتخب محمد على أعضائه بنفسه ، ومهمته النظر فى شئون البلاد عامة ، ومناقشة القوانين قبل إصدارها ، ومع أن هذا المجلس كان رأيه استشارياً فقد خفف به محمد على عبء المسئولية الملقاة على عاتقه ، أما المجلس الآخر: فكان بمثابة مجلس الوزراء الآن، ثم أنشأ محمد على عدة دواوين أهمها " مجلس المشاورة العسكرية " و " ديوان دار الصناعة (الترسخانة) أو البحرية " و " ديوان التجارة " ويرأسه نقيب (شاهبندر) التجار بالقاهرة . ثم قام محمد على بتقسيم البلاد إلى سبع مديريات وقسمت كل مديرية إلى عدة مراكز كان عددها ٦٤ مركزاً ، كما تم تقسيم كل مركز إلى أخطاط أى نواحى يدير شئون الناحية موظف يلقب بالناظر . وإلى قرى يتولى أمورها العمد والمشايخ (٣١). وبذلك أصبحت إدارة البلاد تحت يد محمد على ، كما أصبحت تقسيماتها الإدارية محددة ومسيطر عليها من جانب الحكومة إدارياً .

وعن اهتمام الوالى بالتعليم ، يذكر المقرر المدرسى لسنة ١٩٣٤ للمستوى الثانوى أن التعليم ارتبط بالجيش ، ورأى أن الاعتماد على الأجانب لا يمكن أن يؤدى إلى قوة حقيقية ، فاستعان بهم ريثما يتعلم الوطنيون العمل ويتلقون المعرفة ، ثم استغنى الوالى عن الأجانب تدريجياً ، فقد أرسل البعثات إلى أوربا لتلقى العلم ، حيث كانت أولى البعثات سنة ١٨٢٦ وكان عدد أعضائها ٤٤ عضواً ثم زاد هذا العدد إلى ١١٤ عضواً سنة ١٨٣٣ ، ولما عادت تلك البعثات ساعدت فى تأسيس

المشروعات العظيمة . (٣٢)

وبالفعل أوجد اهتمام محمد على بالتعليم حركة علمية جديدة فنهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتلها اللهجة العامية فتم تعريب الكتب فى مختلف العلوم ، وأصبح الأساتذة المصريون يلقون محاضراتهم باللغة العربية ، وأخرجت المطبعة الأميرية ببولاق عدداً عظيماً من المؤلفات العربية ، وأصدر الباشا صحيفة " الوقائع الرسمية " باللغتين العربية والفرنسية ابتداء من ١٨٢٨ ، وكان من أنجح المدارس تلك الخاصة بأسلحة الجيش ، ومدرسة الهندسة بالقلعة ، ومدرسة الطب والمستشفى الخاصة بها ، وقد أنشئت أول الأمر بأبى زعبل ، ثم انتقلت بعد ذلك سنة ١٨٢٧ إلى قصر العينى ، وبذل " كلوت بك " جهداً عظيماً فى الاهتمام بحالة البلاد الصحية، وإدخال الإصلاحات ، ومن المدارس التى تأسست فى عهد محمد على أيضاً ، مدرسة المهندسخانة فى بولاق ١٨٣٤ ، ومدرسة الألسن بالأزبكية عام ١٨٣٦ ، ومدرسة الصنائع ١٨٣٩ ، والمدرسة التجهيزية بأبى زعبل ١٨٣٦ ، ومدرسة المبتديان بالسيدة زينب ١٨٣٩ ، هذا بخلاف مدارس الجيش وهى : المشاة، والفرسان ، والطبجية التى تأسست حوالى ١٨٣١ . (٣٣)

ولقد اهتم محمد على بإنشاء المدارس بمستوياتها المختلفة الابتدائية والثانوية والعالية ، واستحضر لها كبار الأساتذة الغربيين لتعليم المصريين ، حتى أصبحت هناك كوادر مصرية بعد عودتها من البعثات الخارجية فتولى عدد كبير منها تدريس العلوم المختلفة وبرع فيها ، "وكان يُساق التلاميذ إلى تلقى العلوم بالمدارس رغم معارضة آبائهم وعويلهم كأنما يساقون إلى الموت" (٣٤)، وعلى كل حال فإن عدداً كبيراً من أبناء الشعب المصرى قد انتظموا فى الدراسة وبرعوا فى مجالات المعرفة وذاع صيتهم ومن هؤلاء رفاعة الطهطاوى المفكر ، وعلى البقلى الطبيب ، ومحمد بيومى العالم الرياضى ، وعلى مبارك المهندس ، " على أن هدف الحكومة كانت تهتم بالتعليم انطلاقاً من اهتمامها بالجيش وإدارة الدولة (٣٥)، ولذلك عندما قل اهتمام

دولة محمد على بالجيش – نتيجة فشل مشروع التوسع الخارجى تجاه الشام والشرق، وتحالف الدول الأوربية والسلطان العثمانى ضد محمد على – قل بل إنهار المشـووع التعليمى الواسع فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وعن تكوين محمد على للجيش وإنشائه لأسطول يمكنه من تحقيق مشـروعاته التوسعية يذكر أحد المقررات التاريخية قبل الثورة ، أن أول ما فكر الوالى جدياً فـى ذلك كان فى يونيه ١٨١٥ ، إذ قضى مدة فى إقناع قواد جنـوده بأفضليـة الطـرق الأوربية الحديثة ، ولما عاد إبراهيم من حرب الوهابيين منتصراً فكر الوالـى فـى إنشاء النظام العسكرى الجديد ، وصادف عزمه هذا حضور الكولونيـل سـيف المعروف بـ " سليمان باشا الفرنساوى " إلى القاهرة فعهد إليه محمد علـى مهمـة تكوين الجيش الجديد . فبدأ " سيف " تدريب بعض أولاد المماليك الذين كـانوا فـى خدمة محمد على ومعهم إبراهيم ليكون مثلاً حسناً للطاعة والاستفادة ، بدأت تظـهر علامات التذمر وأخذ العلماء يغرون الشبان بعدم الانصياع لتعاليم الفرنجـة ، ولمـا وجد محمد على الضباط الأكفاء فكر فى جمع الجنود من غير الأتراك والألبان الذيـن كانوا يميلون للتمرد ، فعمد إلى السودانيين لاستخدامهم فى الجيش لكن تجربة تدريبهم لم تنجح لأنهم لم يألفوا المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ، ولم يتحملـوا الـبرودة فمرض ومات منهم عدد كبير فى سنين قلائل ، وأخيراً بدأت فكرة تكوين الجيش من المصريين الذين كان محمد على يدخرهم من قبل لأعمال الزراعة ، وجنـت دولـة محمد على من وراء تكوين الجيش فوائد عسكرية وأدبية كبيرة [٣٦]، وقـام الجيـش المصرى بحروب وتوسعات ضخمة أثبت فيها قدرته النظامية والعسكرية.

ولم يقل اهتمام محمد على بالأسطول عن اهتمامه بالجيش فقد كان ضروريـاً لحماية السواحل المصرية ، وكانت نواته تلك السفن التى صنعـت فـى داخـل دار الصناعة ببولاق لنقل الجيش المصرى إلى شبه الجزيرة العربية ودأب محمد علـى على شراء السفن الحربية من الموانى الأوربية حتى أصبح لمصر أسطول كبـير ،

ولكن الدول الأوربية تآمرت عليه وحطمته فى موقعة نفارين١٨٢٧ فى مياه اليونان.

وعزم محمد على على إنشاء أسطول مصرى جديد ، بأيدى مصرية فشيد تحت إشراف أحد الضباط البحريين الفرنسيين وهو " سيريزى " داراً كبرى لصناعة السفن بالإسكندرية تلك الدار التى صارت من أعظم دور صناعة السفن كما أصبحت الإسكندرية من أعظم موانى البحر المتوسط ، وأصبح الأسطول المصرى من أعظم القوى البحرية فى هذا البحر [٣٧]، ولقد ارتبط الأسطول الحربى المصرى بالأسطول البحرى التجارى ، ولذلك تطورت صناعة السفن الحربية تلك التى كان لها دور كبير فى مشروعات مصر الحربية والتوسعية فى السودان والشام وبلاد المورة ، وشبه جزيرة العرب ، وضعف الأسطول التجارى والحربى المصرى على أثر فشل وتراجع المشروع النهضوى والتوسعى المصرى ككل .

حروب محمد على التوسعية :

١- حروب الجزيرة العربية :

ظهر محمد بن عبدالوهاب فى أوائل القرن ١٨ فى نجد بالجزيرة العربية ، وكانت له آراءه ومذهبه التى كان خلاصتها التمسك بالقرآن الكريم والتوسل إلى الله دون وساطة بنى البشر ، وكان يعتبر أن التوسل لله بالنبى شرك ، وأن زيارة قبر النبى وقبور الأنبياء جميعهم والأولياء والصالحين شرك ، ودعى إلى التقشف وعدم التحلى بالذهب ، ومنع الناس من التدخين وشرب المسكرات . . . الخ وتحدى محمد بن عبدالوهاب السلطان العثمانى وطلب منه عدم إرسال المحمل النبوى إلى مكة فى موسم الحج ، ولما كانت الدولة العثمانية وكان محمد على أكبر قوة فى ولايات الدولة فقد طلب منه السلطان إرسال حملة للقضاء على محمد بن عبدالوهاب ، فجهز محمد على حملة مزودة بالمؤن والذخائر ، وخلال تلك الفترة خشى محمد على تآمر المماليك عليه فدبر مذبحة القلعة ١٨١١ قضى فيها على أمراء المماليك ، ثم أمر ابنه

طوسون بقيادة الحملة إلى " المدينة " حيث تقابل مع الوهابيين عند بلدة " بدر " الشهيرة فانكسر الوهابيين أولاً ثم عادوا وتحصنوا وأظهروا شدة وبأس عظيمين فتقهقر طوسون إلى "ينبع " وفقد عدداً كبيراً من جنوده ، ولما علم محمد على بذلك أرسل مدداً إلى طوسون الذى خرج مرة ثانية إلى " المدينة " فدخلها ثم استولى على جدة ، ومكة والطائف ، فاغتاظ سعود الذى كان يقود القوات الوهابية وتحصن فى الداخل وتقابل مع القوات المصرية فى " تربة " شرقى الطائف فكسرها واستولى على مناطق حصينة وكان طوسون فى المدينة فكتب لوالده بإرسال المدد ، فخرج محمد على بنفسه فى قوة إلى المدينة ، ومات سعود وخلفه " عبدالله " فهزمه محمد على ، واحتل طوسون الدرعية وعاد محمد على إلى مصر ، ثم عاد طوسون بعده عندما وصلته أنباء بحرج موقف والده فى مصر ، ولكن محمد على أرسل ابنه إبراهيم باشا الذى دخل الدرعية وسيطر على نجد وبذلك دانت جزيرة العرب لمحمد على بالولاء [٣٨]. ولقد ساعد ذلك محمد على على دخول اليمن والامتداد إلى الخليج، والإشراف على حركة الملاحة بالبحر الأحمر وتأمين الحج إلى بيت الله الحرام.

٢- فتح السودان فى المقررات المدرسية :

جاء فى أحد المقررات المدرسية أن عملية ضم السودان لأملاك محمد على لم تستغرق وقتاً طويلاً لأن الجيش المصرى كان أقوى بالطبع ولم يجد أمامه سوى قوة محدودة ومقاومة ضئيلة فى بلاد الشايقية جنوبى دنقلة وبلاد كردفان [٣٩]، ويذكر مقرر تاريخى مدرسى آخر أن حملة محمد على بدأت من القاهرة فى يوليو ١٨٢٠ فى حوالى ٣٠٠٠ من المشاة ، ومن ١٥٠٠ من الفرسان ، معهم ١٢ مدفعاً ، و٥٠٠ من عرب العبابدة " فتجمع الجيش حيث اجتاز الحدود المصرية إلى دنقلة ، وهاجم المماليك حيث سلم بعضهم وهرب البعض الآخر إلى كردفان " ، ويذكر المقرر أن الجيش قد هزم عرب الشيخية، ودخل بربر فى مارس ١٨٢١م ثم مدينة شندى التى سلمها له الملك "نمر" ودخل سنار حاضرة أكبر أقاليم السودان ، وكان وقتها يوجد

صراع على حكم سنار بين " بادى" وأخاه فتدخل إسماعيل لتأييد " بادى " الذى أصبح نائباً لمحمد على فى تلك الأنحاء ، وتفشى بعد ذلك المرض فى جيش مصر الذى يقوده إسماعيل فطلب المدد ، فوصله تحت قيادة أخيه إبراهيم باشا ، وقام الأخوان بتقسيم العمل بينهما فكانت مهمة إسماعيل الزحف على أعالى النيل الأزرق، وكانت مهمة إبراهيم استكشاف منابع النيل الأبيض والاتجاه غرباً للوصول إلى المحيط الأطلنطى اعتقاداً منه أن النيل الأبيض متصلاً بنهر النيجر وإذا لم يتحقق له ذلك عاد إلى كردفان وعبأ جيشاً يسير به شمالاً حتى يصل إلى طرابلس على البحر المتوسط ، وهذه الخطة " تدل صراحة على مقدار ما كان يطمح إليه محمد على وأولاده " [٤٠].

ولقد أرسل محمد على جيشاً ثالثاً تحت قيادة صهره محمد بك الدفتردار فى منتصف ١٨٢٢ لغزو كردفان فهزم بعض القبائل عند مدينة " بارا " واستولى على الأبيض ، وانتقم جيش الدفتردار من ملك شندى " نمر " الذى دبر حيلة شنيعة " حرق " فيها إسماعيل بن محمد على خلال مأدبة غذاء أعدها له [٤١]. لقد كانت طموحات محمد على واسعة وكان يتوق إلى إنشاء إمبراطورية واسعة تتوغل فى قلب أفريقيا وتبلغ ساحل البحر المتوسط .

يذكر مقرر المدارس الثانوية ١٩٥٤ أن محمد على بحملته على السودان قد أعاد الارتباط القديم بين شطرى وادى النيل " مصر والسودان " ولقد تشبث المصريون بذلك الارتباط وحرصوا عليه ودافعوا عنه ، ولم اصطر محمد على ١٨٤٠ إلى التخلى عن فتوحاته فى الشرق الأدنى تمسكت مصر وحاكمها بالسودان، وأقرتها الدولة العثمانية والدول الأوربية على ذلك[٤٢].

ولما ضم محمد على السودان حاول استخدام السودانيين فى الجيش الجديد الذى أراد تكوينه لما كان يأنس فيهم من الشجاعة لأنه كان يخشى اشتغال المصريين

بالجندية مما يصرفهم عن العمل بالزراعة - كما سبق أن أشرنا - [٤٣] فاستقدم نحوا من ثلاثين ألف جندى سودانى ، وأخذ الضباط يقومون بتدريبهم على الأعمال العسكرية ببلدة " بنى عدى " قرب منفلوط بمحافظة أسيوط بمصر ، ولم يأت ١٨٢٤ حتى أصبح لمصر جيش منظم كامل العدة يمكن الاعتماد عليه ، غير أن محمد على ما لبث أن أدرك أن قصر الجيش على السودانيين غير مناسب لأن جو مصر لم يناسبهم ، وهم لم يتحملوا التدريبات القاسية ، وكان اعدادهم للحياة العسكرية يتطلب وقتاً طويلاً ونفقات باهظة مما جعل محمد على يلجأ إلى تجنيد الفلاحين المصريين فى الجيش بدلاً من السودانيين . [٤٤]

وعلى كل حال فإن محمد على قد مد نفوذه على السودان وعين عليه صهره محمد بك الدفتردار كحاكم عام حيث أنشأ مدينة الخرطوم وجعلها مقر حكومته وأخذت الإدارة المصرية تنشر الأمن وتنظم التجارة ، وتمهد طرق القوافل ، وتصلح المساحات الواسعة من الأراضى الزراعية وتقيم الكثير من مؤسسات الحكومة . [٤٥]

وقد ورد فى مقرر مدرسى صادر سنة ١٩٥٥ أن محمد على قد اتبع فى حكم السودان ما اتبعه فى حكم مصر إذ كان يختار حكام أقاليم من بين من يثق فى ولايتهم من الموظفين الأتراك وكان أسلوبهم يشبه أسلوب حكم الأتراك فى مصر ، والسودان إقليم واسع مترامى الأطراف وأكثر سكانه كانوا من البدو الذين يأنفون الحياة المستقرة ، ويضيقون بسلطان الحكومة ، ولكن الحكم المصرى استطاع أن يجمع هذه الأطراف ويضع حداً لمنازعات القبائل ويقر الأمن والنظام . [٤٦]

ولما كان محمد على مهتماً بالزراعة وإقامة المشروعات التى تعمل على تطورها فقد كان بالطبع شديد الاهتمام بالنيل مصدر المياه والخير وباستكشاف منابع هذا النهر العظيم " فأرسل أحد ضباطه (البكباشى البحرى سليم قبدان أفندى) فى ثلاث رحلات مختلفة بين سنتى ١٨٣٨-١٨٤١ وغاية ما وصل إليه " سليم قبدان " هى

حدود نهر سوباط عند خط عرض ٤,٥ درجة شمالاً ، وكان قبدان يكتب التقارير الوافية عن رحلاته ويرفقها بجداول خاصة بالأرصاد الجوية ، فكانت هذه التقارير أول المستندات التى ظهرت عن داخل القارة الأفريقية[٤٧]، حيث وصل قبدان إلى منطقة "غندكرو" فى قلب جنوب السودان . [٤٨]

ولعظيم اهتمام محمد على بالسودان وشئونه قام برحلة إلى هناك عام ١٨٣٨ لتفقد أحواله ، حيث كانت ترافقه بعثة من المهندسين والعلماء الفرنسيين، وقد أراد أن يتأكد من وجود المعادن خاصة الذهب فى هذه البلاد، ولكنه لم يجد ما كان ينشده، وقد أصدر أمراً بإلغاء تجارة العبيد ولو أنها استمرت بعد ذلك [٤٩].

ومما لاشك فيه أن مصر على عهد محمد على قد عملت على نشر التعليم والثقافة فى أنحاء السودان فأنشئت المدارس الحديثة فى الخرطوم ، والمدن الكبرى، وأرسلت إليها كبار الأساتذة المصريين ، كما شجعت الثقافة الدينية ، وسعت إلى تعمير البلاد وإصلاح مساحات واسعة من أراضيها للزراعة وذلك أدى إلى استقرار كثير من القبائل الرحل [٥٠].

كذلك تم إنشاء ترسانة كبيرة لصناعة السفن وإصلاحها بالخرطوم عمل بها عدد كبير من السودانيين تحت إشراف الصناع المصريين ، وبنت الحكومة أسطولاً كبيراً من السفن التجارية للنقل النهرى فى النيل وفروعه ، وذلك ساعد على ربط أجزاء السودان بعضها ببعض مما أدى إلى فتح السودان أمام العالم الخارجى فسكنته جاليات وعناصر أجنبية ، وعينت الدول الكبرى لها قناصل فى الخرطوم [٥١].

ولقد كان من نتائج دخول مصر إلى السودان انتعاش الاتجاه العروبى والإسلامى حيث بدأت المؤثرات العربية الإسلامية تزحف إلى الجنوب حيث تقطن القبائل الزنجية ، وهى عملية كان من شأنها تحويل السودان كله إلى وحدة قومية واحدة ، لولاً أن السياسة البريطانية تدخلت بعد ذلك وعملت على فصل شمال

السودان عن جنوبه فضلاً عن أن الميراث التاريخى والمشاكل السياسية الأفريقية قد أدت إلى الوضع الصراعى الحالى بين جنوب السودان وشماله وبين القوى التقدمية والطائفية حول السلطة فى السودان .

وجدير بالذكر هنا أن مقررات التاريخ فى الفترة الآنية قد تجاهلت قضايا السودان وأفريقيا بشكل واضح ، فكتاب التاريخ للصف الثالث الإعدادى ١٩٩٨ ، لا يعطى موضوع السودان حقه ، ولا دور محمد على فيه مكانته ، فهذا الموضوع الهام لا يرد إلا فى ٤ سطور (١٢ كلمة للسطر) مما لا يعطى أى انطباع حقيقى عن أهمية وخطورة السودان بالنسبة لنا. [٥٢] كذلك فإن كتاب الثانوية العامة للعام الدراسى ١٩٩٨ ، لا يورد سوى ١٨ سطراً عن موضوع السودان [٥٣] ، والواقع أن هذه النقوص والملاحظات ترجع إلى أن وضع كتب التاريخ يجب أن يشترك فى صياغتها مؤرخون ثقاة يعرفون تفاصيل تاريخنا ، كما كان الأمر بالنسبة لكتب التاريخ التى كانت مقررة على المستوى الإعدادى والثانوى فى فترات الستينات والسبعينات .

٣- اشتراك محمد على فى حرب المورة:

قامت ثورة فى بلاد المورة (اليونان) ضد الحكم التركى تريد التخلص من سيطرة الأتراك ، ولم تستطع الدولة العثمانية إخماد تلك الثورة فاستعانت بمحمد على الذى ساعدها فى إخماد الثورة لولا تدخل أوربا ، فقد تحمست روسيا لثورة اليونان وتدخلت لصالحهم فتدخلت إنجلترا فوراً فى الصراع خوفاً من امتداد نفوذ روسيا إلى البلقان والبحر المتوسط ، وبادرت إنجلترا بعقد اجتماع فى لندن مع مندوبى روسيا وفرنسا ١٨٢٧ وتم فى هذا الاجتماع الاتفاق على أن ينفصل اليونان عن الدولة العثمانية نهائياً وأن تدفع اليونان الجزية ، وأن يتم عقد هدنة بين المتحاربين وإلا تدخلت الدول المتحالفة بالقوة ، وقرر الحلفاء إرسال أساطيلهم إلى شواطئ بلاد اليونان استعداداً للتدخل بالقوة إذا لزم الأمر ، ودبرت إنجلترا وحلفائها القيام بتحطيم

الأسطول المصرى العثمانى فى معركة نوارين البحرية ١٨٢٧م فرفع ذلك من روح ثوار اليونان المعنوية واستشاط الباب العالى غضباً ودعا المسلمين للجهاد ضد روسيا ، فأعلن القيصر الروسى الحرب ١٨٢٨ وازداد الموقف تحرجاً بعد دخول فرنسا بجيوشها لصالح بلاد المورة ، ورأى محمد على أنه ليس من الحكمة الاستمرار فى مواجهة القوة الأوربية بشكل أوسع من ذلك ، فآثر الانسحاب والإبقاء على قواته لاستكمال مشروعاته ، وقد ورد عرض هذه الحرب فى مقرر الثانوية العامة خلال الستينات .[٥٤]

٤- حروب محمد على ضد الدولة العثمانية فى الشام :

كان محمد على متطلعاً إلى ضم بلاد الشام لدولته لكى تكون عمقاً له وخط دفاع أول عن مصر ، إضافة إلى أن ضم بلاد الشام كان سيزيد مقدار الدخل والتبادل التجارى لدولة محمد على ، خاصة وأن بشير الشهابى حاكم لبنان وقتها كان يرغب فى ضم بلاد الشام إلى مصر ، فشجع ذلك محمد على على أن يطلب من السلطان أن يعينه والياً على بلاد الشام ، ولكن السلطان رفض طلبه لأنه ضد قيام وحدة بين مصر والشام ، لذلك حرض والى " عكا " على محمد على بأن يحمى الفلاحين الفارين من عبء الضرائب فى مصر، فقرر محمد على أن يضم الشام بالقوة وعلى الفور أرسل أبنه " إبراهيم باشا " على رأس الجيش والأسطول إلى بلاد الشام ، فحاصر عكا واستولى عليها ١٨٣٢ ، ودخل دمشق التى رحبت بقدوم المصريين إليها [٥٥]. وفى مقرر مدرسى آخر جاء أن إبراهيم باشا هزم الأتراك هزيمة منكرة عند حمص، ثم اندفع إلى حلب وقابل حسين باشا قائد الجيوش التركية عند مضيق بيلان بين انطاكية واسكندرونه فهزمه شر هزيمة وأصبحت جيوش مصر على مشارف جبال طوروس ، بل اندفعت إلى أراض الأناضول وهزم المصريون جيشاً عثمانياً كبيراً فى قونية نوفمبر ١٨٣٢ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى الأستانة أمام القوات المصرية ، ولكن هذه الانتصارات المذهلة والسريعة أذهلت الدول الأوربية

فبعد صلح كوتاهية بين محمد على والدولة العثمانية أصبح لمحمد على دولة عربية كبرى ضمت مصر والسودان والحجاز ونجد واليمن والشام، ولما استؤنفت الحرب بين محمد على والسلطان العثمانى كانت الجيوش المصرية فى سبيلها بعد هزيمة العثمانيين فى موقعة " نصيبين " إلى التوجه إلى القسطنطينية نفسها ، هنا تدخلت الدول الأوربية بزعامة بريطانيا التى كونت تحالفاً وساعدت القوات العثمانية فى بلاد الشام ضد محمد على وعقدت اتفاقية لندن قررت فيها تقليص دور محمد على فى مصر والشام طول حياته فقط فإذا لم يقبل فى ظرف عشرة أيام أصبحت له ولاية مصر وعمقها السودان فقط ، وهذا ما انتهى إليه فرمان السلطان العثمانى ١٨٤١ الذى قبله محمد على راضخاً بعد أن تحطمت طموحاته الكبرى [٥٦] .

إن الملاحظة الجديرة بالتنويه أن الدول الأوربية قد تحالفت وتجمعت ضد أية محاولة لقيام دولة عربية كبرى فى منطقة المشرق العربى ، فوقفت ضد محمد على فى محاولته كما وقفت ضد محاولة قيام دولة عربية كبرى بعد قيام " الجمهورية العربية المتحدة " بين مصر وسوريا ١٩٥٨ ، حيث كان لجمال عبد الناصر دور وحدوى قومى بارز فى هذا الموقف ، الغرب دائماً فى مواجهة اتحاد المشرق العربى أو حتى محاولة ظهور قوة كبرى فيه ، فهكذا أيضاً كان موقف الغرب بزعامة الولايات المتحدة وبريطانيا عندما ظهر العراق كقوة اقتصادية وبشرية وصناعية وعسكرية كبرى ، وتمخض تكتيك الغرب عن إدخال العراق فى حرب مع إيران ففقد جزء من قوته ثم أدخلته القوى الغربية فى بؤرة الخليج والكويت لكى تقضى على ما تبقى لديه من قوة، لأن بقاء العراق كقوة ليس فى صالح النفوذ والسيطرة الغربية والغطرسة الإسرائيلية .

تقييم لتجربة محمد على ودور الشعب فيها :

كانت الإشارة إلى دور الشعب المصرى وزعامته فى تولية محمد على فى المقررات المدرسية قبل الثورة محدودة حيث كان ينسب الفضل فى تولى حكم مصر

إلى حنكة محمد على وتكتيكه ، وهذا يعنى تجاهل هذا الدور الـــهام فــى مقــررات التاريخ المدرس قبل الثورة كنوع من تعظيم مكانة مؤسس الأسرة العلوية.

غير أن مقررات التاريخ المدرسى بعد ثــورة ١٩٥٢ قــد أرجعــت الحــق لأصحابه فذكرت أن محمد على بعد توليه السلطة كان يقدر الزعامة الشعبية ويرجــع إلى السيد عمر مكرم وصحبه فى كثير من الأمور خاصة كلما احتاجت الحكومة إلــى فرض ضرائب جديدة، فازداد نفوذ عمر مكرم وأصبح ذا أثــر فعــال فــى توجيــه الحكومة حتى أنه وزملاءه كانوا ملاذا للناس فى رفع الظلم . وعندما تحسن مركـــز محمد على قرر أن ينفرد وحده بالسلطة وأصبح يرغب فى التخلص مـــن الزعامــة الشعبية وجماعة العلماء الذين كانوا يحقدون على بعضهم ، خاصة على عمر مكــرم فأوقعوا بينه وبين محمد على لنفيه إلى دمياط ثم إلى طنطا وأطــاح بكــل الزعمــاء والعلماء وقبض على البلاد بيد شديدة بعد ذلك . [٥٧]

لقد كان محمد على راغباً فى تحييد زعامة الشعب المصرى عن القيام بــدور حقيقى فى إدارة شئون البلاد ، فعندما حاول الإنجليز غـــزو مصـــر ١٨٠٧ قــامت المقاومة الشعبية المتمثلة فى أهالى رشيد بصد هذه الحملة وهزيمتها ، وتـــم إبــلاغ السيد عمر مكرم فى القاهرة للمساهمة مع أهالى رشيد فى التصدى لحملة فريـــزر ، حيث كان محمد على يطارد المماليك فى الصعيد ، وعندما طلب السيد عمر مكـــرم تجنيد الشعب المصرى لملاقاة الإنجليز ، رفض محمد على وقال يكفــى الشــعب أن يدفع الضرائب ، ومعنى ذلك استبعاد الشعب وتجاهل دوره . [٥٨]

ويؤكد أحد المقررات المدرسية حتى قبل الثورة أن الشعب المصرى تحمـــل أعباء النهضة الحديثة ولم يجن ثمارها أو يستفد بها يقول المقرر " أن تحسين حالـــة الزراعة كان أعظم أعمال محمد على إلا أن المشكلة أن الفلاحين لم يستفيدوا من هذه النهضة الزراعية لأن الفلاح لسوء حظه كان يورد محصولاته إلى الحكومــة دون أن

يضمن بيعها بأسعار مناسبة . . إذ كانت الحكومة تشترى المحاصيل من الفلاحين بأثمان بخسة وموازين مغشوشة ، وكانوا لا يأخذون أسعار سلعهم نقداً بل كانوا يجبرون على أخذها فى شكل صناعات من مصانع الحكومة (٥٩).

ويقرر عزت عبدالكريم فى مقرر الثانوية ١٩٦٨ " أننا إذا نظرنا إلى التقدم الاقتصادى من وجهة نظر سواد الشعب المصرى الذى عاش فى تلك الفترة من الفلاحين والعمال والتجار وجدنا أن الفائدة التى عادت على هؤلاء جميعاً أقل بكثير من الضرر الذى نزل بهم ، نتيجة ما اتبعه محمد على من نظام الاحتكار فى الزراعة والتجارة والصناعة، وذلك أن محمد على جعل من نفسه المالك الوحيد لأرض مصر ، والتاجر الوحيد لحاصلاتها ، والصانع الوحيد لصناعاتها . ولقد حرم هذا الوالى الفلاح والعامل والتاجر المصرى من ثمرة جهودهم ، وفرض عليهم التزامات معينة لم يكن بوسعهم التخلص منها . (٦٠)

ولم تهتم المقررات المدرسية فى عهد الاحتلال البريطانى بعرض الجوانب الاقتصادية بينما أولت مقررات ما بعد ١٩٥٢ هذه الجوانب اهتماماً معقولاً ، " فكتاب تاريخ الإقليم المصرى الحديث " لعام ١٩٥٩ يتحدث عن نظام الزراعة فى عهد محمد على فى ٢٦ صفحة، فعرض لمسح الأراضى ، وإلغاء نظام الالتزام ، وتوزيع الأرض على الفلاحين ، وإنشاء نظام زراعى احتكارى موحد " . (٦١)

ويعالج مقرر تاريخ الشهادة الإعدادية (نظام الثلاث سنوات) لسنة ١٩٥٩ النواحى الاقتصادية الموضوعية فيذكر لقد " نهضت مصر فى النواحى الاقتصادية نهضة كبيرة فى القرن التاسع عشر ، على أن أكثر ثمار هذه النهضة عاد على الحكومة وحدها بأعظم الفوائد نتيجة لنظام الاحتكار الذى سارت عليه حكومة محمد على ، فزادت ماليتها حتى تمكنت من الصرف على مختلف مرافق النهضة فى البلاد . . . " (٦٢)

ويستطرد كتاب المرحلة الإعدادية لسنة ١٩٥٩ فى تحليل علاقات الإنتاج الزراعى فيذكر " أنه بعد عصر محمد على بدأت تنمو الملكيات الكبيرة بينما اضطر كثير من الفلاحين البسطاء إلى رهن أراضيهم أو بيعها... " . [٦٣]

وبذلك يرصد الكتاب عملية تركز الملكيات الزراعية وانتقالها إلى الأعيان وكبار الموظفين ، وكبار ضباط الجيش وخدام الحاكم منذ نهايات عصر محمد على وحتى الاحتلال وأثنائه .

وفى إطار هذا الواقع ومن خلال تحليله يرى البعض أن نمط الإنتاج الزراعى فى عهد محمد على يعتبر نمطاً انتقالياً من الإقطاع إلى الرأسمالى ، ويرى محللون آخرون أن نمط الإنتاج فى عصر محمد على الذى أطلق عليه نظام الاحتكار هو فى الواقع نظام رأسمالية الدولة . [٦٤]

ولقد ناقشت المقررات الدراسية الصناعة المصرية فى عصر محمد على كما أشرنا ، وتقرر كثير من المؤلفات الأوربية أن سياسة محمد على فى الصناعة لم تكن نابعة من تخطيط سليم ، وأنه دخل مجال الصناعة فى وقت غير مناسب (منذ ١٨١٤) حيث أنه كان مشغولاً بمواصلة الحرب فى الجزيرة العربية بما تتطلبه من جيوش وأموال ، وأكد "دوهاميل" و "كامبل" أن مصانع مصر كانت تحقق خسائر... وأن محمد على يكسب كثيراً بتحطيمها (مصانعه) واستيراد جميع المصنوعات من أوربا " وقيل بأن الصناعة فشلت فى الاستمرار حتى أن مصانع بولاق قد توقف معظمها فى عام ١٨٢٢. [٦٥]

وغير منطقى أن دخول محمد على ميدان الصناعة وقتما كان مشغولاً بحروبه يعتبر خطأ بمعنى أنه كان يجب الانتظار حتى ينتهى محمد على من حروبه ثم يدخل ميدان الصناعة، لأن معظم الدول الحديثة قد تقدمت فى صناعاتها بسبب الحروب التى خاضتها ، ذلك لأن الحروب تدفع إلى خلق صناعات متعددة وتطور ما هو

موجود فى هذا المجال.

وبمقارنة ما جاء بأحد المقررات المدرسية لسنة ١٩٣٤ قبل الثورة بما أوردته هيلين ريفلين فى مؤلفها " الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر " تبدو أمامنا عدة ملاحظات هى : -

١- أن المقرر المدرسى ركز كل عباراته عل ترديد اسم محمد على .

٢- أن المقرر قد بالغ فى الحديث عن إيجابيات محمد علــى دون توجيــه أى نقــد موضوعى لنظام إدارته .

٣- أبرزت " هيلين " أن محمد على لم يعط الفرصة لمستشاريه لكى يدرسوا إمكانيــة التصنيع فى مصر وأن الصناعة لم تكن مشروعاً ناجحاً .

٤- أن الذى لم تبرزه " هيلين " فى كتابها أن فشل المشروع النهضوى يرجــع إلــى عوامل خارجية قبل أن تكون داخلية . (٦٦)

ولقد دبجت حول محمد على كثير من الروايات ، وأسندت إليه أعمال اتســم بعضها بالواقعية وبعضها الآخر اتصف بالخيالية أو المبالغة ، وخلال عهد الاحتــلال البريطانى لمصر حيث كان على رأس الحكم فى مصر خديوى أو ملك مــن أبنــاء محمد على اهتمت المقررات المدرسية بتمجيد تاريخ الأسرة العلوية ، ويظهر ذلــك بصورة واضحة فى مقرر عامى ١٩٠٧، ١٩١٣ اللــذان لا يختلفــان كثــيراً عــن بعضهما ، فقد صاغ جزء لا بأس به من المقرر المدرسى فى معالجة تاريخ مصــر فى العصرين الإسلامى والمملوكى . كما أن جزءاً كبيراً منه قد خصــص لتــاريخ مصر فى عهد حكم على بك الكبير ، ومراد بك وإبراهيم بك ، وفــى الكــلام عــن عصر محمد على جاء الحديث أكثر عمومية ، ونظر المقرر إلى حكم محمد على من زاوية محاولة استقلاله بمصر عن الدولة العثمانية ، ووقتما كان حاكم مصــر هــو السلطان حسين كامل قرب نهاية الحرب العالمية الأولى بــدت مقــررات التــاريخ

المدرسى حاملة إحساس سلطان مصر نحو جده - الذى لولاه ما كان سلطاناً على مصر - فمقرر عام ١٩١٦ للصف الثانى الثانوى تتصدره صورة محمد على ، ويشغل عرض تاريخه حوالى ٩٣ صفحة (من ص ١١٠- ص ٢٠٣) أى ٣٠% من محتوى الكتاب البالغ عدد صفحاته ٣٠٤ صفحة ، كذلك نجد مقرر عام ١٩٣٤ للصف الثالث الثانوى قد خصص حوالى ٧٠ صفحة من صفحات الكتاب البالغ عددها ٢٤٥ أى ما يعادل ٢٨% من حجم الكتاب لمعالجة تاريخ محمد على وحده ، وظل الاهتمام بمحمد على فى المقررات المدرسية حتى نهاية حكم أسرته ، حتى إذا جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قلت عدد الصفحات المعالجة لعصر محمد على ووضعته فى إطاره الطبيعى إلى حد كبير.

ولكى نستجلى أصول هذه التوجهات المنهجية المدرسية نحاول إرجاعها إلى منابعها ، فقد كانت الملكية المصرية فى عهدى فؤاد وفاروق بالذات قد حاولت أن تعزز مكانتها باحتضان بعض المؤرخين مصريين وأجانب وإغرائهم بوسيلة أو بأخرى بتضخيم الجوانب الإيجابية فى حكم محمد على وخلفائه وبخاصة فرع إبراهيم الذى انتمى إليه إسماعيل وتوفيق وعباس الثانى وحسين كامل وفؤاد وفاروق ، ولقد انعكست كتابات المؤرخين الأجانب [٦٧] وأفكارهم عن محمد على على ما كتبه رواد التأريخ المصريين، أو الذين اقتبسوا عنهم مقررات التاريخ المدرسى ، ولقد عظمت هذه الكتب دور محمد على وجسمته بغير حقيقته ، وجعلته مبدعاً لكل جديد فى أوانه ، متجاهلين التطور الطبيعى للأشياء والمجتمعات من خلال اتصال الأمم والشعوب ، وسيولة انتقال الأفكار عبر الزمان والمكان، ومرد ذلك اصطناع المؤرخين للنظرة الأحادية فى التقييم التاريخى ، واستبعاد أو عدم وضوح النظرة الشمولية الموضوعية.

فى هذا الإطار يتحدث كتاب المدارس الثانوية لعام ١٩١٦ عن نشأة محمد على يقول " ولد محمد على باشا ابن إبراهيم أغا من سلالة ألبانية ببلدة (قوله) أحد

الموانى الصغيرة التى على الحدود بين تراقيا ومقدونيا عام ١٧٦٩ وهو العام الـــذى ولد فيه (ولنجتون) القائد الإنجليزى العظيم ، و (نابليون) الفاتح الكبير ، وتوفى والده إبراهيم أغا وهو فى سن الطفولة ، فتولى أمره عمه (طوسون) ، غير أن هذا وافتــه المنية بعد مدة وجيزة ، فقام بأمر تربيته أحد أصدقاء والده (وعلمه) . . . ثم زوجــه إحدى قريباته ، وكانت من ذوى اليسار ، وخدم حاكم قوله واكتســب رضــاه " [٦٨]. ويذكر كتاب مدرسى آخر للتعليم الثانوى لعام ١٩٤٨ أن والد محمد على " . . . لــم يشأ القدر أن يحفظ له من أولاده السبعة عشر غير محمد على ، ومع ذلك فقد قســت الظروف على الولد . . . " [٦٩]. وتتضح فقرات الكتابان بالرغبة فى إظهار عصامية محمد على وخلق ذاته وأنه لم يكن منذ البداية مــن البيوتــات الثريــة ، ولا كــانت الظروف مهيأة لصعوده ، وأن القدر قد أبقى عليه لكى يكون حاكمـــاً عظيمـــاً بــل ومنقذاً للشرق ومقيماً لملك واسع مركزه مصر.

وفى مقابل هذه الفكرة التى رددتها الكتب المدرسية وغيرها نجد رأياً آخر عن نشأة محمد على أظهرته إحدى الدراسات الحديثة المعنونة بــ " مصر فى عهد محمد على " لعفاف لطفى السيد الصادرة عام ١٩٨٤ بالإنجليزية والتى استقت مادتها مـــن المصادر والمراجع الأجنبية والمصرية ، ولقد فندت الباحثة الأقوال المتضاربة عـــن مولد محمد على وظروفه ا لأولى وقطعت بأنه لم ينشأ يتيماً وهو ما أورده الكثـيرون خلال حياته وبعدها للتدليل على مقدرته فى التغلب على الصعاب.[٧٠]

وعند حديث المقررات المدرسية عن تاريخ مصر خلال القرن التاسع عشـــر وخاصة فى نصفه الأول نجد تجاهلاً لا حدود له لكل الأدوار إلا دور محمد علـــى ، ورأيه وحصافته ، وأعماله وحروبه ، فكتاب تاريخ التعليم الثانوى لعام ١٩٣٤ لمؤلفه محمد رفعت – الذى ظل مقرراً على المدارس لفترة طويلة – يجسد لنا ذلك بصـــورة فيها كثير من الإطراء . ففى كلامه عن تطوير الجيش المصرى يقول " رأى محمـــد على منذ أن كان يقاتل الفرنسيين فى الرحمانية فضل النظم الحربية الحديثة " ، وفـــى

حديثه عن نقل النمط الأوربى فى الجيش يذكر أن " محمد على قضى مدة فى إقناع قواده وجنوده بأفضلية الطرق الأوربية" وفى موضع آخر يقول " ولما عاد إبراهيم من حرب الوهابيين منتصراً فكر محمد على فى إنشاء النظام العسكرى الجديد " وعن استخدام السودانيين فى الجيش يرد بنفس المقرر " أن محمد على عمد إلى السودانيين .. واستعان بهم .. " وفى مكان آخر يوضح المنهج المدرسى أن فكرة تكوين جيش قوى حتمت تجنيد المصريين ، وكان هناك اعتراض على ذلك " غير أن محمد على لم يأبه لهذه الاعتراضات ونفذ مشروعه " ، وعن اهتمامه بالعسكر جاء " واستمر محمد على يعتنى بالجيش عناية خاصة"(٧١).

ولقد عالجت مقررات التاريخ المدرسى عصر محمد على ودوره فى بناء مصر الحديثة بشكل أكثر موضوعية بعيداً عن المبالغة ويمكن أن نلاحظ ذلك بالذات فى مقرر التاريخ للثانوية العامة خلال الستينات والسبعينات لمؤلفه أحمد عزت عبد الكريم وآخرين ، إلا أن مقررات التاريخ الحالية (خلال التسعينات من القرن العشرين) تتسم بالقصور، والخلل واللاموضوعية ، ففى القسم الثانى من كتاب التاريخ " للثانوية العامة والمعنون بـ " تاريخ مصر والعرب الحديث " نجد عرضاً فى فصل من حوالى ٣٣ صفحة (١١٨-١٥٠) عن تاريخ مصر فى عهد محمد على ، وعباس ، وسعيد ، وإسماعيل ، وجزء من عهد توفيق لكى ينتهى الفصل عند ١٨٨١ بلا سبب مقنع ، فالمفروض حسب التطور التاريخى أن يتوقف عند الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ ، ومع ذلك هل من المعقول أن يتم عرض إنجازات مصر فى عهد محمد على مع تخريب عباس فى نفس الفصل ؟ وهل يتم عرض إنجازات محمد على التى ملأت الدنيا نهضة وحروباً وثقافة وعلماً فى عدة صفحات (٧٢)، لا تستحق التوقف ولا تستدعى الانتباه لأهم عصور النهضة المصرية الحديثة بسبب اختصارها المخل ؟ ثم بعد ذلك نقول أن طلابنا وشبابنا غير واع ، وغير منتم ، فالواقع أن وعى الإنسان يتشكل بموجب البناء الثقافى والتاريخى الذى يقيمه المجتمع

بمؤسساته التعليمية له.

ولقد كان هناك تجاهل للدور الاجتماعى للشعب فى العمل والإنتاج ، فأين الكلام عن دور الفلاحين الذين زرعوا ؟ والحرفيين الذين صنعوا ؟ والجند الذين حاربوا ؟ بل وأين دور كثير من المستشارين الفرنسيين الذين تم تجاهل دورهم ؟

وفى حين تركز المقررات المدرسية فى عهد الأسرة العلوية على دور الجد الأكبر وتعتبره محور النهضة باعتباره الحاكم " المستبد المستنير " فإن مقررات ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد حملت مفهوماً مختلفاً ذات أبعاد اجتماعية . فكتاب الصف الرابع الإعدادى على سبيل المثال لسنة ١٩٥٩ أولى اهتماماً كبيراً بالدور الاجتماعى للجماهير المصرية عقب خروج الحملة الفرنسية وعند تولية محمد على[٧٣]. وبنفس أسلوب التفاؤل عالج كتاب الإعدادية ١٩٦٣ لمؤلفه أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرين دور الشعب المصرى بعد رحيل الفرنسيين وجاء عنوان هذا الدور " الوعى القومى فى مصر وأثره على تولية محمد على" [٧٤].

إن مما يدل على أن الدور الاجتماعى للشعب المصرى قد احتل موقعه الطبيعى فى صياغة الأحداث فى كتب التاريخ المدرسى أن تجربة مصر وتاريخها فى عهد محمد على جاء عنوانها فى كتاب آخر صادر عام ١٩٥٥ "نهضة مصر فى القرن التاسع عشر وبناء الدولة الحديثة ودور الشعب فيها"[٧٥] . وواضح فى هذا العنوان عدم ظهور اسم محمد على ليس بهدف محو دوره وإنما كمحاولة لوضع هذا الدور فى إطاره الحقيقى لأن محمد على بلا أرض مصر وواقعها وبلا شعب مصر ونشاطه ما كان له أن يكون.

ويهتم كتاب " تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث " للشهادة الإعدادية ١٩٥٩ بالنظام العسكرى ، فيحدد من هم الذين تحملوا مصاعب التجنيد وشكلوا جيش مصر فى عهد محمد على ، ذلك الجيش الذى غزا به الوالى دولاً متعددة وضم

بعضها إلى مصر ، وأشار الكتاب إلى عيوب النظام العسكرى فى هذا الوقت فيذكر " أن نظام التجنيد فى عهد محمد على كانت تشوبه مفاسد كثيرة فلم يكن هناك نظام موحد لتجنيد الصالحين للجندية ، ولم تكن مدة التجنيد العسكرى محددة تحديداً واضحاً ... وكثيراً ما قضى الجندى أزهى سنى شبابه ورجولته فى الجيش.."[٧٦].

ولقد بلغ نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية مداه حتى أن " الأمهات كن يشوهن أطفالهن . . وكثيراً ما كان الرجال البالغون يقطعون سبابة أيديهم " وفى مواجهة ذلك صدر منشور محمد على للأقاليم فى ١٢ مارس ١٨٣٣ جاء فيه " . . عرفوا كلاً منهم أنه يجب ألا يشوه نفسه ، لأنى سآخذ من عائلة كل من يرتكب هذه الفعلة رجلاً بدلاً منه " ، وكتب " جالينا " أحد أطباء محمد على المرسل لاختيار المجندين يقول : " كانت الأحوال فى البلاد من السوء بحيث أن جرجا التى كانت تضم ٤٦ قرية لم تستطع توفير سبعة رجال لائقين للخدمة . . [٧٧].

وأمام هذا السيل المنهمر من تشويه الأجسام هرباً من الجندية ، أصدر محمد على أوامره بتجنيد المشوهين فقد كان بأسيوط " ألاى كامل يتألف من مجندين مشوهين فقد كل منهم عينه أو إصبعه أو أسنانه الأمامية " [٧٨].

ومن الثابت تاريخياً أن المصريين شعب ذو كرامة وغيرة يعشق الحرية ويهبون للدفاع عن بلادهم بكل ما أوتو من قوة . . إلا أن نظام التجنيد بالطريقة التى اتبعها محمد على قد نفر الناس من التجنيد [٧٩]، أو الاشتراك فى جيش يحمى مصالح البلاد ، خاصة أن محمد على كان يعتبر نفسه صاحب كل شئ ، لذلك فلم يكن بوسع أحد من الفلاحين المجندين أن يدرك أن هذا جيش مصر الذى يدافع عن كيانها . ولقد أشارت بعض المقررات المدرسية لقسوة نظام الجندية فى عهد محمد على [٨٠] ، إلا أن معظم الكتب المدرسية خاصة الحالية منها ، لم تعط قضية الجندية هذا ما تستحقه من الاهتمام .

ويبرر محمد على سياسته القاسية فى معاملته للمصريين فى حديثه لمسيو " بوالكمت " بقوله " إن علىَّ أن أحكم شعباً أظهر صفاته الكسل والجهل وسوء النية فإذا لم أحمله على العمل بقى عاطلاً . . . " واستطرد قائلاً : " يجب أن نقود هذا الشعب كما يقاد الأطفال لأننا لو تركناه وشأنه فسيعود إلى حالة الفوضى . . . " [٨١].

وموضوعياً وأنثربولوجياً نرفض فكرة أن شعباً معيناً يعامل كالأطفال وشعباً آخر يعامل كالرجال كما يقول محمد على فالجنس البشرى جذوره واحدة تشكلها فى النهاية الأبعاد الطبيعية والأيكولوجية ، والتطورات التاريخية والثقافية مما يجعلنا نؤكد على أن الشعب المصرى شكلته ظروف السيطرة والقهر والاستغلال طيلة عصور تمتد من الفرعونية . . وحتى مصر العثمانية وما تلاها ، ونتيجة لتوالى فترات الحكم الأجنبى أصبح الشعب المصرى هو شعب رد الفعل العفوى خاصة فى فئاته غير المثقفة ، شعب عاطفى سرعان ما يثور وسرعان ما يخمد ، يميل إلى الدفاع لا إلى الهجوم ، وإلى القبول لا إلى الرفض ، وإلى التسامح لا إلى الصد ، وإلى القديم لا إلى الجديد ، والسبب هو عزل شعبنا تاريخياً واستبعاده من سياق الأحداث المؤثرة ومن ثم فإن المشاركة الشعبية فى تقرير مصيرنا اقتصادياً كان أو سياسياً أو عسكرياً هى الشرط الأساسى لإظهار جوهر شعبنا الأصيل.

ولقد نظرت بعض المقررات المدرسية بعد الثورة إلى تجربة محمد على من زاوية قومية ، فيعلق المقرر المدرسى للإعدادية عام ١٩٦٣ على تحالف الدول الأوربية ضد نهضة مصر فى القرن التاسع عشر بقوله : " وهكذا وقفت أكبر دول أوربا فى وجه هذه النهضة التى انبعثت فى مصر"[٨٢]، واعتبر مقرر الثانوية العامة (١٩٦٩) محاولة محمد على تدخل فى إطار مشروع الوحدة العربية ، فعدد أسباب إخفاق هذا المشروع ،ومنها أن أصحاب فكرة الدولة العربية – محمد على وإبراهيم ابنه – لم يكونا عرباً، ومنها فقدان التضامن القومى فى العالم العربى فى هذا الوقت

المبكر من القرن التاسع عشر.

ومع ذلك قامت الحرب بين محمد على والسلطان العثمانى فى الشام بسبب " رفض محمد على إرسال قوة عسكرية لمساعدة الدولة فى حروبها مع روسيا ، ولقلة المكافئة التى حددها السلطان (لمحمد على) بعد حرب المورة ، خاصة عندما رفض منحه ولاية عكا " (٨٣).

وعن تدخل الدول الأوربية لتأييد السلطان العثمانى يذكر مقرر الصف الثالث الإعدادى ١٩٥٩ أن الأمور أدت إلى " الحرب بين الحلفاء وقوات إبراهيم باشا فى سوريا وتحملت إنجلترا النصيب الأوفر منها . . وجاء أسطول الحلفاء بقيادة أمير البحر الإنجليزى ، وأنزلت قوات تركية وإنجليزية ونمساوية وتم تحريض الأهالى بالثورة ضد حكومة محمد على ، ولم يمض وقت بسيط حتى كان النصر للحلفاء فاحتلوا بيروت ، وسقطت صيدا كما سقط حصن عكا المنيع فى نوفمبر ١٨٤٠ " وقدمت الدول الأوربية مذكرة للقوى المتحاربة بألا يتم صلح نهائى إلا إذا أقرته هذه الدول.

ولم يكن تدخل الدول الأوربية خدمة للسلطان أو منعاً لتداعى الدولة العثمانية وسقوطها وإنما لخدمة مصالحها المباشرة فروسيا كانت تخشى قيام دولة فتية تسيطر على معظم أملاك الدولة العثمانية مما يحول دون تحقيق أطماعها فى المضايق ، وكانت النمسا وعلى رأسها "مترنيخ" – متزعمة الحركات الرجعية – تعارض كل اتجاه قومى ، فلم يكن يرضيها أن يتحقق هذا الاتجاه فى قيادة دولة عربية يمكنها تهديد مصالحها فى شرق أوربا ، أما إنجلترا فقد كانت أهدافها تتحدد فى أولاً : أن يكون لها شأن فى أى تقسيم يجرى للدولة العثمانية لكى تخرج بنصيب الأسد فى أية تسوية أو تقسيم ، ثانياً: فتح السوق المغلق أمام المنتجات البريطانية فى نطاق دولة محمد على المنتهجة لسياسة الاحتكار ، ثالثاً : تأمين طرق مرور التجارة البريطانية مع الهند والخليج ، وشط العرب فى جنوب العراق وإيران ، ولذلك تبنت إنجلترا فى

معاهدة لندن قص أجنحة محمد على وتحديد نطاق دولته فى مصر ، وهذا ما جاء به فرمان السلطان العثمانى ١٨٤١. (٨٤)

وتطرح أسئلة هامة نفسها وهى هل كان محمد على محقاً فى إبعاد الشعب وزعامته الشعبية عن إدارة الدولة أم أنه كان من الواجب عليه إشراكه فى القرارات المصيرية ، كما أشركه فى العمل والإنتاج والحروب ؟ ومن المؤكد أن أى نهضة لا تتم إلا إذا كانت وليدة أفكار وجهود أبناء الوطن جميعهم بدلاً من أن تكون قرار فرد حاكم مهما كان فطناً .

ثمة سؤال آخر يجب طرحه وهو : هل كانت تجربة محمد على مشروعاً وطنياً وقومياً عربياً فى مواجهة الغرب أم أنها كانت سبيلاً لإقامة دولة استبدادية لحاكم مستبد ؟ ومن وجهة نظرنا فإن تجربة محمد على تعد مشروعاً فردياً حقق قدراً من النهضة لكن القوى الأوربية لم تعطه الفرصة للتطور المنشود.

على أننا يجب أن نؤكد هنا أن التركيز على دور الفرد فى الحكم والتفكير له خطره لأن التلاميذ الذين تنقش الأفكار فى عقولهم فى سنى حياتهم المبكرة يتربون على تعلم أن للدولة حاكم لا يناقش ، يأمر ولا راد لأمره يقيم مشاريع ، ويدخل حروب ويستغل طاقة الناس لأهداف لا يعرفها سواه ، يجند الشباب من الفلاحين والعمال لكى تضيع سنوات عمرهم فى حروب وعناء دون أن يكون لهم حتى مجرد إدراك الغاية من هذه الحروب.

إن تغافل ذكر حركات الفلاحين والعمال – فى المقررات المدرسية – وتعبيرهم عن أنفسهم ولو بشكل سلبى فى صورة الامتناع عن العمل أو الهروب من القرى أو قطع عضو من أعضاء الجسم بسبب قسوة العمل أو التجنيد فى الجيش يعتبر بمثابة مؤامرة صمت كبرى حاكها الحكام ومثقفوهم وحتى مؤرخوهم بهدف تضبيب العيون عن تحسس مواطن الخطأ فى تاريخ مصر قديمه (٨٥) ووسيطه وحديثه ، ومنع الشعب وتحييده عن اتخاذ مواقف إيجابية تفيد فى صياغة مستقبل

يواكب تطور العالم.

أخيراً نحن لا يمكننا أن نتفق مع من تحيزوا لأسطورة محمد على ، ولا يمكننا تجاهل تجربته أو نقلل من أهميتها ، ومن ثم فإن تاريخ حكمه وقيام دولته يحتاج إلى معالجة موضوعية فى مقررات مدارسنا لكى تشب أجيالنا واعية بالحقائق، مستوعبة للتجارب ، مدركة للقوى والعوامل البشرية والمادية المؤثرة فى حركة التاريخ ونضال الشعوب.

المصادر والمراجع

(١) وزارة التربية والتعليم ، جمهورية مصر العربية ، كتاب المعلم في تدريس المواد الاجتماعية للصف الأول الإعدادى ، أعداد عبد الفتاح على عرفة وآخرون ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٨١، ص ٧-٨.
(٢) قاسم عبده قاسم ، حطين ، الذكرى الثمانمائة . . . والزمن الردئ ، المواجهة ، لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، الكتاب السابع ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٦-١٠.
(٣) السيد عزمى ، كتاب البهجة العباسية فى تاريخ مصر والأمة العربية ، نظارة المعارف العمومية ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٦٣.
(٤) يونان لبيب ، رؤوف عباس حامد ، عبد العظيم رمضان ، أوربا في عصر الرأسمالية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٨٩ - ١٩٦.
(٥) أحمد عزت عبد الكريم ، أبو الفتوح رضوان ، تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث ، الصف الثالث الإعدادى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٩.
(٦) هند اسكندر عمون ، تاريخ مصر ، وزارة المعارف العمومية ، مطبعة المعارف بالفجالة، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ٢٠١-٢٠٢.
(٧) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، مراجعة الكبتن أ.ج. سفونج ، وزارة المعارف العمومية، المستوى الثانوى ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى (إلى قبيل الوقت الحاضر)، مطبعة المعارف بالفجالة ، مصر ١٩١٦ ، ص ١١٣-١٢١.
(٨) أحمد عزت عبد الكريم ، عبد الحميد البطريق ، أبوالفتوح رضوان ، محمد أحمد الغنام ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الصف الثالث الثانوى ، مطابع مؤسسة الأهرام ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨-٤٩.

(٩) صبحى وحيدة ، فى أصول المسألة المصرية ، طبعة ثانيــة ، بــدون تــاريخ، القاهرة ، ص ١٧٩-١٨٠.

(١٠) أميل بباوى غالى ، أحمد حمزة سليمان ، رشدى مجلع الحكيم ، مراجعة السيد رجب حراز ، تاريخ مصر الحديــث والمعــاصر ، وزارة التربيــة والتعليــم جمهورية مصر العربية، الصف الثالث الإعدادى ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٤٩.

(١١) لوتسكى ، تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧١.

- رأفت غنيمى الشيخ ، العرب ، دراسات فى التاريخ الحديث ، والمعــاصر ، دار الثــقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٣.

- عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديــث ، الجمهوريــة العربيــة المتحدة ، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٨.

(١٢) عاصم الدسوقى ، كبار ملاك الأراضى ودورهم فـــى المجتمــع المصــرى ١٩١٤-١٩٥٢، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٥.

(١٣) محمد رفعت ، تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثــة ، طبعــة خاصــة للمدارس العالية، الجزء الأول ، المطبعــة الأميريــة ، القــاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٠٤.

(١٤) نفس المصدر ، ص ٧٣.

(١٥) محمد العزب موسى ، وحدة تاريخ مصر ، المؤسســة العربيــة للدراســات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٢٢.

(١٦) أنور عبدالملك ، نهضة مصر ، تكوين الفكر والأيديولوجية فى نهضة مصــر الوطنية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٨.

(١٧) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(١٨) نفس المصدر ، ص ١٤٦-١٤٧.

(١٩) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، محمد رشدى الجندى ، محمد إبراهيم الصيحــى ،

فوزى بخيت حسين ، تاريخ العرب الحديث للصف الثالث الإعدادى ، وزارة التربية والتعليم ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٦٣، ص ٥٣-٥٤.

(٢٠) صبحى وحيدة ، المرجع السابق ، ص ١٩٨.

(٢١) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢١.

(٢٢) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٨-١٥٠.

(٢٣) نوال قاسم ، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد عبدالناصر ، ط١، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٠-٢٥.

(٢٤) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٥٤.

(٢٥) أحمد عزت عبدالكريم وآخرون ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الصف الثالث الثانوى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٥.

(٢٦) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٢٧) نوال قاسم ، المرجع السابق ، ص ٦٩-٧٥.

(٢٨) عبدالرؤوف نصر ، محمد إبراهيم الصيحى ، التاريخ الحديث للجمهورية العربية المتحدة والوطن العربى ، للصف الثالث الإعدادى ، وزارة التربية والتعليم ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٠.

(٢٩) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٠-١٥١.

(٣٠) عبدالرؤوف نصر ، المصدر السابق ، ص ٣٦.

(٣١) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٣٢) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٧٠-٧١.

(٣٣) - نفس المصدر ، ص ٧١-٧٢.

- عبدالعزيز سليمان نوار ، وبرنس رضوان ، تاريخ مصر الحديث ، الصف السادس الابتدائى، وزارة التربية والتعليم ، المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٨٨،

ص ٥٨-٥٩.

(٣٤) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٣٥) أحمد عزت عبد الكريم ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، الصف الثالث الثانوى ، ١٩٦٨ ، ص ٦٣.

(٣٦) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٦٥.

(٣٧) عبدالرؤوف نصر ، المصدر السابق ، ص ٤٢.

(٣٨) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٥٢-٦٢.

(٣٩) أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص ٦٩-٧٠.

(٤٠) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ، ص ١٣٥-١٣٧.

(٤١) نفس المصدر ، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤٢) أحمد عزت عبد الكريم ، عبدالحميد البطريق ، أبو الفتوح رضوان ، عبدالعزيز الشناوى، تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المستوى الثانوى، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤/١٩٥٥ ، ص ٩٢.

(٤٣) نفس المصدر ، ، ص ٩٤.

(٤٤) أميل بباوى ، المصدر السابق ، ص ٤٤-٤٥.

(٤٥) عبدالرؤوف نصر ، المصدر السابق ، ص ٤٦.

(٤٦) أحمد عزت عبد الكريم ، وآخرون ، تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المستوى الثانوى، ٥٤-١٩٥٥، ص ٩٨.

(٤٧) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٨٢.

(٤٨) أحمد عزت عبد الكريم ، وآخرون، تاريخ مصر فى العصر الحديث... ٥٤-١٩٥٥، ص ٩٥.

(٤٩) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، موجز تاريخ مصر الحديث ، الشهادة الإعدادية ، القاهرة ٥٣-١٩٥٤ ، ص ٥٩.

(٥٠) أحمد عزت عبد الكريم ، وآخرون، تاريخ مصر فى العصر الحديث... ٥٤-١٩٥٥ ، ص ٩٧.

(٥١) نفس المصدر ، ص ٩٥-٩٧.

(٥٢) أحمد حسين اللقانى وآخرون ، جغرافية العالم ودراسات فى تاريخ مصر الحديث ، مركز تطوير المناهج والمواد التعليمية ، القاهرة ١٩٩٨/٩٧، ص ١١٦.

(٥٣) عبدالعزيز نوار ، وعاصم الدسوقى ، برنس رضوان ، وآخرون ، التاريخ للثانوية العامة، المرحلة الثانية (نظام جديد) وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٩٦ ، ١٩٩٨ ، ص

(٥٤) أحمد عزت عبدالكريم ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، للصف الثالث الثانوى ١٩٦٨ ، ص ٧٠-٧١.

(٥٥) عبدالعزيز سليمان نوار ، وبرنس رضوان ، تاريخ مصر الحديث ، السادس الابتدائى ١٩٨٨ ، ص ٦٥.

(٥٦) أحمد عزت عبدالكريم ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، للصف الثالث الثانوى ١٩٦٨ ، ص ٧١-٧٣.

- أميل بباوى وآخرون ، المصدر السابق ، ص ٥٣.

(٥٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث منذ الغزو العثمانى حتى الوقت الحاضر ، الصف الثالث الإعدادى ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤١.

- إبراهيم نمير سيف الدين ، ومصطفى أحمد الشهابى ، التاريخ الحديث للوطن العربى الكبير ، الصف الثالث الإعدادى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٧-٣٨.

(٥٨) أحمد عزت عبدالكريم ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الصف

الثالث الثانوى ، ١٩٦٨ ، ص ٥٢.

(٥٩) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٧-١٤٨.

(٦٠) أحمد عزت عبدالكريم . . . تاريخ العرب الحديث والمعاصر، الثالث الثانوى ١٩٦٨ ، ص ٦٦-٦٧.

(٦١) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، موجز تاريخ مصر الحديث . . . الشهادة الإعدادية . . . ١٩٥٤/٥٣ ، ص ١٠٠-١٢٦.

(٦٢) أحمد عزت عبدالكريم ، وآخرون ، تاريخ الإقليم المصرى فى العصر الحديث ، الرابعة الإعدادية ، وزارة التربية والتعليم ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥٣-٥٤.

(٦٣) نفس المصدر ، ص ٥٩ .

(٦٤) أنور عبدالملك ، المرجع السابق ، ص ١٦.

(٦٥) هيلين ريفلن ، الاقتصاد والإدارة فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى ، ومصطفى الحسينى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٧٩-٢٨٦.

(٦٦) نفس المكان

- محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص

(٦٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، مقدمة كتاب محمد على الكبير لمؤلفه محمد شفيق غربال دار الهلال ، أكتوبر ١٩٨٦ ، ص ١١ .

(٦٨) عمر الاسكندرى ، المصدر السابق ، ص ١١٠.

(٦٩) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، تاريخ مصر الحديث ، السنة الرابعة الثانوية ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٠٩.

(٧٠) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، مقدمة كتاب محمد على الكبير ، المرجع السابق،

ص ١٨.

(٧١) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ١٠٠-١٢٦.

(٧٢) عبدالعزيز نوار وآخرون ، التاريخ ، الثانوية العامة ١٩٩٦ ، ١٩٩٨، المصدر السابق، ص ١١٨-١٥٠.

(٧٣) محمد عبدالعزيز مصطفى ، موجز تاريخ مصر الحديث، الشهادة الإعدادية.. ١٩٥٤/٥٣ ، ص ٣٩-٤٧.

(٧٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، وآخرون ، تاريخ العرب الحديث ، الصف الثالث الإعدادى، وزارة التربية والتعليم ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١-٣٩.

(٧٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، موجز تاريخ مصر الحديث ، الإعدادية ١٩٥٤/٥٣ ، ص ٣٩-٤٧.

(٧٦) أحمد عزت عبدالكريم ، وأبوالفتوح رضوان ، تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث، الثالث الإعدادى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٤-٤٥.

(٧٧) هيلين ريفلن ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨.

(٧٨) على شلبى ، المصريون والجندية ، مطبعة الجبلاوى ، دار الكتاب الجامعى، ط١، القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٤.

(٧٩) نفس المرجع ، ص ٤٩.

(٨٠) أحمد عزت عبدالكريم . . تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث ، الثالث الإعدادى ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤-٤٥.

(٨١) نوال قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٥-٢٦.

(٨٢) أحمد عبدالرحيم وآخرون ، تاريخ العرب الحديث ، الثالث الإعدادى ١٩٦٣، ص ٥٦.

(٨٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، تاريخ مصر الحديث ، الرابعة الثانوية ، وزارة

المعارف ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٥٧.

(٨٤) عبدالعزيز نوار ، المصالح البريطانية فى أنهار العـــراق ، ١٦٠٠-١٩١٤ ، الأنجلو المصرية ١٩٦٨ ، ص ٣٧-١٠١.

(٨٥) عبدالحميد زايد ، مصر الخالدة ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦.

المحور السادس

الآثـــــــار والفـنــــــون



آثار مدينتى فوة ورشيد فى عصر محمد على

خـالـد عـزب

يضم إقليم شمال غرب دلتا النيل العديد من المدن التراثية الهامة كرشيد وفوة والمحمودية، وهذه المدن الثلاث تأثرت بالنهضة العمرانية التى شهدتها مصر فى عصر محمد على، وتمثل العلاقة بين مدينتى فوة ورشيد صورة من صور الازدهار والانحسار العمرانى فى الإقليم، وكلتا المدينتين تأثرتا بالأوضاع السياسية فى مصر ومنطقة شرق حوض البحر المتوسط، فقد كان لإهتمام المماليك بدءًا من عصر الناصر محمد بن قلاوون بحفر خليج الإسكندرية من أمام شاطئ فوة إلى الإسكندرية، وذلك لإمداد الإسكندرية بالمياه، ونقل حركة التجارة إلى فوة التى تعد ميناءاً داخلياً، بدلاً من مينائى الساحل الإسكندرية ورشيد اللذين تعرضا للعديد من الهجمات الصليبية وهجمات القراصنة، أثره فى ازدهار مدينة فوة وانحسار حركة العمران برشيد، ولكن أدى إهمال خليج الإسكندرية فى العصر العثمانى إلى نمو وإزدهار رشيد على حساب مدينة فوة.[١] (شكل رقم ١)

وشهد هذا الإقليم فى عصر محمد على مشروعاً عمرانياً ضخماً هو إعادة حفر خليج الإسكندرية، وذلك لنقل البضائع عبره إلى الإسكندرية، والسبب الذى دفع محمد على لهذا هو وجود مشاكل فى بوغاز رشيد تعيق حركة السفن. بدأ العمل فى الخليج عام ١٨١٨م وانتهى ١٨٢٠م. ونتج عنه كذلك إستصلاح أراض على جانبى الترعة، وهذه الأهداف تتشابه مع نفس ما كان يهدف إليه الناصر محمد بن قلاوون، وسميت الترعة بالمحمودية على اسم السلطان العثمانى محمود، ونشأت على جانبيها عند مدخلها من النيل مدينة المحمودية إلى جوار قرية العطف[٢].

كان لهذا المشروع أثر سلبى على مدينة رشيد، إذ نمت الإسكندرية على حسابها، وهاجر العديد من سكانها إلى حيث الإزدهار العمرانى والتجارى، أما فوة فقد كان تأثير الترعة عليها محدوداً من الناحية الإيجابية، إذ لم تعد ميناءاً تجارياً كبيراً

كما كانت فى العصر المملوكى.

وكان لإهتمام محمد على بإنشاء عدد من الصناعات الحديثة أثره الإيجابى فى إزدهار فوة ورشيد، وتبع ذلك العديد من المنشآت السكنية والتجارية، وقد تبقت بهما آثار معمارية تعود لعصره منها:

أولاً : آثار فوة

-مصنع الطرابيش

يقع هذا المصنع على شاطئ النيل بفوة.

- التأسيس

فى ٢٦ شوال سنة ١٢٤٠ هـ/ ١٨٢٤م [٤] صدر الأمر من محمد على باشا إلى ناظر فوة أحمد أغا بإعلامه بما إستقر عليه الرأى من تأسيس معمل الطرابيش فى حديقة الأمير محمود بالجانب الغربى من فوة وأنه قد ارسل ما يلزم لذلك من نجاريين وأخشاب ومكابس وغيرها من الأدوات اللازمة للإنشاء، وقد أمر محمد على بسرعة إتمام ذلك المصنع. واستحضر أخصائى تونسى إسمه محمد المغربى للإشراف على المصنع[٥].

- التوصيف

ما زالت بعض بقايا هذا المصنع قائمة إلى الآن على شاطئ النيل وهى المدخل الرئيسى وهو مبنى من الحجر الجيرى، ومحلى بكرانيش عريضة ذات طيات تنتهى من أسفل بعقدين مسننين ويكتنفه من جانبيه صفتين معقودتين (عقدين مصمتين) يربطهما بالباب كرنيش واحد يحيط بالجميع، وعرض هذه الواجهة الجنوبية والمطلة على كورنيش ١٤م، والداخل من المدخل الرئيسى يلاحظ أن العتب الخشبى العلوى لباب المدخل ما زال باقيا، إلى جانب أن الحجر الجيرى الموجود بالواجهة الخارجية

للمصنع ما هو إلا تكسية فقط للزخرفة، أما المبانى من الداخل فهى من الطوب، وبإجتياز المدخل الرئيسى نرى وجود بقايا أساسات ممر يربط بين المدخل الرئيسى ومدخل آخر داخلى واجهته من الحجر الجيرى، وهو ذا عقدين مستديرين يعلوان بعضهما الأسفل منهما مسنن ، ثم يعلو ذلك شباك مستطيل، ويحيط بالمدخل إفريز زخرفى، وقد تهدم حالياً الجزء العلوى من الباب الداخلى، والواجهة الداخلية أيضا لهذا المدخل مبنية بالطوب، ويلاحظ الزائر لهذا الجزء وجود بقايا من أساساته المبنية بالطوب خلف المدخل الداخلى وعلى جانبى الممر.

ولقد ظل هذا المصنع يحتفظ بمساحته الأصلية التى أقيم عليها حتى السبعينات من هذا القرن، حيث زحفت المساكن على أرض المصنع، ونتيجة لحفائر منطقة آثار وسط الدلتا سنة ١٩٧٦ بمنطقة المصنع تم وضع تصور كامل للتخطيط المعمارى للمصنع وهو كما يلى :

البوابة الرئيسية على النيل كانت مدخلاً لكبار العاملين، ويقع بين البوابتين الرئيسية والداخلية، وهذا الممر يكتنفه حجرتان اليمنى كانت تستعمل فى الأعمال الإدارية، واليسرى كانت بمثابة غرفة كبيرة للإستقبال، ثم بعد الغرفتين صالة كبيرة تستخدم كعنابر لكبس وصناعة المواد الخام اللازمة للطرابيش، وكانت هذه العملية تتم بطريقة آلية ويدوية حسب نوع العمل، وإلى جانب هذه العنابر توجد حجرات مولدات القوى الخاصة بتشغيل ماكينات الصناعة، ومنها ماكينة بخارية وكانت تزن ثمانية أطنان وجميع أجزائها من الحديد الصلب والنحاس، وهذه الماكينة كانت مثبتة فوق قاعدة خرسانية بوساطة مسامير ضخمة، وأمام هذا الجزء توجد حجرة أخرى كانت تستخدم لحفظ الزيوت اللازمة لتشغيل الماكينة، وبجوارها بئر مبنى من الطوب الأحمر ومكون من غرفتين مقبيتين ومدخلهما عبارة عن عقدين مستديرين، كما توجد قناة صغيرة مغطاة بألواح من الخشب تصل بين الخزان والبئر، أما عنابر الصناعة فهى عبارة عن غرف بها أساسات الأحواض التى تستعمل كمغاطس للصباغة، وهى

التى كانت تصبغ فيها الطرابيش، ثم بعد هذه المنطقة توجد المنطقة الأخيرة، وهى تمثل أماكن راحة العمال. كما تم العثور على قناة أخرى كبيرة بمحاذاة البوابة الرئيسية للمصنع وهى تمر أسفل شارع كورنيش النيل إلى شاطئ النيل حيث توجد قبوات القناة، ومن المرجح أن هذه القناة تنقل الماء إلى داخل المصنع.

وفى أثناء أعمال الحفر بموقع المصنع عثر على مجموعة من الشوبك الفخارية ذات الزخارف والرسوم الهندسية، وعثر على مجموعة منها خالية من الزخارف، وعثر على قالب فخارى على شكل طربوش مفرغ وبه ثقب من أعلى، يرجح أنه استخدم كقالب يوضع ويشد فوقه الطربوش عند صناعته، وكذلك وجد قالب فخارى قصير عن الأول ربما يكون قالبا لعمامة(٦).

ويرجع سبب إختيار محمد على (فوة) لإقامة هذا المصنع إلى أن موقعها ملائم من ناحية المواصلات فى ذلك الوقت (٧). ويذكر كلوت بك أن هذا المصنع، وقد صنعت تحت مباشرة تاجر من المغاربة وإستدعى صناعها من حاضرة تونس المشهورة بصناعة الطرابيش على إختلاف صناعها"(٨).

•**طريقة الصناعة**

يستورد الصوف الذى يصنع منه الطرابيش من اسبانيا، ولا يغسل هذا الصوف قبل صنعه لأنه نظيف جدا، حتى لم يكن ينقص من وزنه بعد صنعه الا القليل أو لا ينقص شئ على الإطلاق، ولابد من دهنه فلكل رطل من الصوف نصف رطل من الزيت، ولا يمكن صنعه إلا بعد إجراء هذه العملية، ويصنع كل طربوش من خيط واحد لا من خيوط متعددة، وعندما توضع فى المكبس تترك فيه ثلاثة أيام مع الإستمرار فى صب الماء المغلى ثم يصب عليها مخلوط الصابون وتمد فى الماء البارد لتنظيفها وتصبغ بالقرمز والعفص والطرطير والشبه، ويخرج مصنع فوة فى اليوم سبعمائة وعشرين طربوشاً، والصوف المخلوط تصنع منه الطرابيش التى من

الصنف الواطئ [٩].

وكلما تعلم العمال المصريين وإزدادوا خبرة كلما نما المصنع، ويرى بورنج (١٨٣٧م) أن هذا المصنع قد يلحق بمصانع تونس أضراراً فى نهاية الأمر لأن الطرابيش التونسية لا تستطيع الصمود أمام الطرابيش المصرية، كما أن قربها من البلاد التى تقبل على شرائها يحول دون دفع الرسوم الجمركية ونفقات النقل[١٠]. وكان إنتاج هذا المصنع مخصص للجيش المصرى والإنتاج الذى يزيد يباع إلى تجار مصر [١١].

أهمل هذا المصنع بعد وفاة محمد على، ويبدو أنه ظل مستخدماً استخداماً بسيطاً بعد عهده حيث دخل ضمن دائرة ورثته، وقد عثر أحد أهالى فوة داخل هذا المصنع قبل تهدمه نهائيا على عملة نحاسية ترجع إلى عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م. مضروبة فى القسطنطنية، وكان النشاط قد عاد إلى هذا المصنع فى عهد الخديو إسماعيل وكذلك عاد أيضاً إلى مصانع النسيج بها[١٢].

• محلج القطن

سجل محلج القطن التى يقع إلى جوار مصنع الطرابيش مؤخراً فى عداد الآثار الإسلامية بالمجلس الأعلى للآثار، وهو يرجع إلى عصر محمد على وهو عبارة عن مبنى مستطيل مسقف بسقف جمالونى من الخشب وبه مستويين من النوافذ السفلية مستطيلة والعلوية معقودة، وهذا المبنى ترتبط مدامكية مع السور الشرقى لمصنع الطرابيش. وكان يستخدم كمحلج للقطن امتلكته عائلة المصرى بفوة قبل تأميمه.

والمحلج من الداخل كان عبارة عن صالة كبيرة مستطيلة يقع على جانبيها دواليب الحلج، هذه الصالة تؤدى إلى حجرات واسعة عالية الإرتفاع يستخدم بعضها فى إعداد القطن قبل حلجه، وبعضها فى تعبئة وكبس القطن المحلوج. ومدخل هذا المحلج يطل على شاطئ النيل، وهو بسيط فى تكوينه (صورة رقم ١).

•مصنع غزل القطن

أنشئ محمد على بفوة مصنعان لغزل القطن، كان بهما خمسة وسبعون دولابا وأربعون مشطا، ويدير آلاتهما ستة عشر ثوراً وفيهما تغزل الخيوط الدقيقة(١٣).

لم يتبق من هذين المصنعين سوى بوابة أحدهما، وهى عبارة عن واجهة من الحجر الجيرى بها عقد نصف دائرى يتكون من أربع طيات، يمثل عقد المدخل الرئيسى، وكان يكتنف هذا العقد صفتين على غرار ما شاهدناه من قبل فى المدخل الرئيسى لمصنع الطرابيش، ويبلغ إتساع فتحته عقد المدخل ٥ أمتار.

وتعرف البوابة المتبقية من هذا المصنع لدى أهالى فوة ببوابة مالطة، وترجع هذه التسمية غالباً إلى غلبة الصناع الذين قدموا من مالطة للعمل فى هذا المصنع.

•قاعة الرميلى

يطلق أهالى فوة على أى مكان يتم فيه أى نشاط صناعى مصطلح القاعة، ونرى هذا المصطلح قد استخدم منذ العصر المملوكى بالمدينة فأطلق على مصانع السكر، قاعات السكر، فى مرسوم السلطان المؤيد شيخ، المحفوظ فى مدرسة حسن نصر الله بفوة، وأطلق هذا المصطلح على قاعات نسج الكليم والسجاد بفوة، والتى لازال بعضها يعمل إلى اليوم، ومنها قاعة ورثة أحمد محمد الرميلى، وهى وقف على زاوية البرهامية. والتى تعود لعصر محمد على.

التوصيف : هذه القاعة مستطيلة تمتد من الشرق للغرب وواجهتها شرقية حيث يوجد بها المدخل، وهو يبرز عن الواجهة ويتوجه عقد نصف مستدير، عن يمينه يوجد شباك يليه باب آخر تعلوه نافذة يؤدى هذا الباب إلى غرفة مغلقة يلى هذا الباب نافذتان مستطيلتان تفتحان على الغرفة المغلقة، وعلى يسار المدخل يوجد نافذة مستطيلة، ويغلق على المدخل باب من فردتين بكل واحدة عوارض زخرفية ويتوج

هذه الواجهة كورنيش من الطوب البارز.

أما القاعة من الداخل فهى مستطيلة يسقفها سقف من عروق خشـــبية بوســـطة ملقفان للضوء والهواء، وهذا السقف محمول على عروق خشبية، وتتراص الأنــــوال على جانبى القاعة.

•وكالة ماجور

جددت هذه الوكالة فى عصر محمد على، ولم يتبقى من هـــذه الوكالــــة ســـوى واجهتها، وهى الواجهة الشرقية، وبها بابان أحدهما وهو الأمين، وهو يبرز عن هـــذه الواجهة، ويزخرف جوانبه زخارف الطوب المنجور، ويتوج حجر هذا المدخل عقـــد بيضاوى (إهليجى) وعلى جانبيه مكسلتان بينهما الباب، الذى تتوسطه خوخه، ويعلـــو هذا الباب نص تأسيس الوكالة، وهو من سطرين كل سطر يتكون من بحرين ومــــن المعتاد فى مثل هذه النصوص ان يكمل كل بحر فىالمعنى البحر الذى يليه، غــير أن هنا الوضع يختلف قليلاً حيث يكمل كل بحر فى المعنى البحر الذى يوجد أسفله نـص تأسيس هذه الوكالة كما يلى:

١- بسم الله الرحمن الرحيم - أنشأ هذا المكان المبارك

٢- نصر من الله وفتح قريب - الفقير حسين أحمد ماجور سنة ١٢٦٥هـ.

ويمتد هذا النص على جانبى حجر المدخل بزخارف هندسية محفورة. أما علــى يسار الواجهة فيوجد باب كبير من فردتين زخرفا بالحفر المشطوف بأشكال المعقلـــى العدل يحيط بها إطار من المعينات متتالية. ويعلو الباب عتب مستقيم. (صورة رقم ٢)

•مسجد سيدى موسى

جدد هذا المسجد فى عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م. وهو مستطيل المســاحة مدخلـــه الرئيسى على يمين الضلع الشمالى الغربى، وهو عبارة عن عقـــد مدائنـــى مجـــرد

يتوسطه الباب الذى ينزل منه بدرج إلى المسجد، الذى يتكون من الداخل من ٣ اروقة مقسمة بواسطة بائكتان ترتكز عقودهما على دعامات. وبجدار القبلة ثلاثة محـــاريب أوسعهما الأوسط، وألحق بالمسجد قبة ضريحية، وتقع المئذنة على يميـــن المدخـــل، وهى ذات قمة مدببة على غرار قمم المآذن العثمانية. وتحمل كتابات المنبر اسم مجدد المسجد وهو الحاج إبراهيم نسيم ، واسم صانع المنبر وهو المعلم أحمد الشيخ والمعلـم عبد الكريم الشار.

ثانياً: آثار رشيد

تعرضت مدينة رشيد لنكسة اقتصادية تجارية فى عصر محمد علـــى نتيجـــة، لإنتقال التجارة منها إلى الإسكندرية شيئاً فشيئاً، نتيجة لحفر ترعة المحموديــــة إلا أن تشييد عدد من المنشآت الصناعية بالمدينة بث فيها درجة لا بأس بها مـــن الحيويـــة، وكان أبرز هذه المنشآت.

- **دوائر ضرب الأرز**

اشتهر الظهير الزراعى لرشيد بزراعة الأرز فى فصل الصيف، ويتطلب الأرز بعد درسه عملية لفصل الحب عن قشرة الحب الخارجية ، إذ يدق بعد خلطه بـــالملح فى آنية كبيرة لإتمام هذه العملية. وكان يدير آلة الدق أربعة أثـــوار، غـــير أن أحـــد المصريين فى عهد محمد على ويدعى حسين جلبى عجوة، ابتكـــر آلـــة لـــدق الأرز تستخدم ثوران فقط، وتقوم بإنجاز هذه العملية بطريقة أسرع وأفضل، ووفر له محمـد على الإمكانيات لتشييد نموذجين منها فى دمياط ورشيد[١٤] غير ان ارتفـــاع تكـــاليف تبيض الأرز أو ضربه أدت بمحمد على إلى الاتفاق مع المهندس الإنجليزي تومـــاس جالوى لتشييد مصنعا يدار بالبخار لضرب الأرز، وتكلف هذا المصنع عشرة ملاييـــن قرش، ولكن هذا المصنع توقف بعد فترة، وأرجع محمد على ذلك لتوريد المتعـــهدين آلات رديئة، غير أن المتعهدين ارجعوا توقف المصنع إلـــى عـــدم كفايـــة العمـــال

المصريين والنظار،وعدم ملائمة المناخ إذ يقولون إن الغبار والرمال الدقيقـــة وكــذا الشمس والرطوبة عقبات كأداء فى سبيل استخدام الآلات فى مصر [١٥].

وكان لانتشار وباء فتك بالماشية فى دلتا النيل ورشيد، وبخاصة ما كان منـــها يستخدم فى مصانع ضرب الأرز برشيد. وتم استقدام أخصائيين فى الطب البيطـــرى بفرنسا هما هاهون وبريتو وأسسا مدرسة للطب البيطرى برشيد، سرعان مـــا نقلـت للقاهرة[١٦].

كان لإنشاء محمد على دوائر الأرز شمال وجنوب المدينة على شـــاطئ النيــل أثره على الإمتداد العمرانى لها، وكانت هذه الدوائر تشـــيد مــن الطــوب الرشــيدى بارتفاعات شاهقة حتى تستوعب الغبار الناتج عن عملية الضرب، وكان يعلوها غالبــاً فتحات للتهوية، وقد ظل بعضها باقيا برشيد إلى وقت قريب، وان ظلت بقايا منها إلــى اليوم، ويلاحظ فى أحدهما إلى الشمال من المدينة، ان مدخله عبارة عن عقد مدائنـــى مجرد على جانبيه مكسلتان، وهو ما يعنى أنـــها تـــأثرت بالعمـــارة المحليـــة، أو أن مشييدها كانوا بنائين من المدينة نفسها، وما زالت هذه الصناعة لها تأثيرها فى المدينة إلى اليوم، حيث هذه الدوائر إلى عدد من الأسر الرشيدية، إلا أنها أممت عام ١٩٦٢م ، وصارت تعرف بشركة مضارب رشيد[١٧].

وكان لدوائر الأرز تأثيراً آخر، هو إنشأ وتجديد زوايا ومساجد خصصت لكـــى يصلى فيها عمالها :

وكان من أبرز هذه الأعمال :

تجديد مسجد العباسى على يد محمد بك طبوزادره ســـنة ١٢٢٤هـــــ/١٨٠٩م وسجل ذلك على عتب المسجد المدخل الرئيسى للمسجد، (صورة رقـــم ٣) والتجديــد الذى أجرى بالمسجد كان شاملاً لكل عناصره المعمارية، وهو ما أعاد للمسجد رونقه، ويعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد رشيد، ولعل ذلك يرجع إلى التناسب المعمـــارى

الرائع فى مكونات واجهته، والتى تتكون من قبة ذات ضلوع علــى اليميـن، يليـها المدخل ذا العقد المدائنى الذى يوجد بين ريشتيه دلايتين تشكلان ثلاثة عقود مدببة ثــم شباك صغير على اليسار، وخلف القبة تطل علينا المئذنة بطرازها الرشيدى الممـيز، كل ذلك جعل من المسجد ذو طابع معمارى يلفت انتباه زائر المدينة، والمســجد مــن الداخل يتكون من ثلاثة اروقة يفصل بينها بائلتين من عقود مدببة، ومن أروع ما تبقى به من تحف سقف دكة المبلغ ذا الزخارف النباتية الرائعة، وبــاب قبـة الضريــح ذا الأطباق النجمية المطعمة بالعاج والصدف[١٨]. وإذا كان تجديد مسجد العباسى جنــوب المدينة كمصلى للعمال تم فى عهد محمد على ، فقد إنشأ زاوية الباشا، بين مضـــارب الأرز إلى الشمال من المدينة لنفس الغرض، وسمى أحـــد البــاحثين هــذه الزاويــة مسجدا[١٩]، ويبدو أنه لم يدرك أن فى شمال غرب دلتا النيل ينسحب مسمى الزاويـــة على المسجد الصغير، والزاوية ذات واجهة يبرز فى وسطها المدخل ذا العقد المدائنى المخوص، على جانبيها مكسلتان، وهى تتكون فى الداخل من ثلاثة اروقة يفصل بينها بائكتين، ويتوسط المحراب الضلع الجنوبى الشرقى، وقد زخرفت كوشــتاه بــالطوب المنجور، والزاوية بلا مئذنة كأغلب زوايا فوة ورشيد ومطوبس.

ومن الطريف أن مسجد دومقسيس، وهو المشهور بالمسجد المعلـــق برشــيد، لوجود مجموعة من الحوانيت أسفله، كانت وقفا عليه، كانت ترابيعه الرخاميـــة فـــى عصر محمد على مسرحًا لتنافس الخطاطين، فنجد على رخام حائط القبلـــة الخطـــاط حاجى عبدالله يوقع سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦م) أسفل شهادة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" التى كتبها بالخط الكوفى المربع. كما كتب بالخط الثلث أيضاً "الله محمــد أبو بكر عثمان على" و"الحمد الله على كل نعمائه" ومن الخطاطين الذين نافسوه أيضـاً على جدران المسجد الحاج على كريدى ١٢٢٩هـ/١٨١٤م والحاج عبدالله بوســنوى ١٢٣٣هـ/١٨١٨م.

- **المنازل**

لم يحدث تغيير يذكر فى عمارة منازل رشيد فى عصر محمد على، على عكس ما بدأ يحدث فى القاهرة والإسكندرية، من إنتشار الطراز الرومى المستمد من عمارة منازل استانبول وشرق أوروبا، وبداية إنتشار العمارة الغربية. ونستدل على ذلك من خلال ثلاثة وثائق تعود لهذه الفترة، خاصة، بمنازل وقف أحمد أغا العسال، ودور وقف صالحة خاتون، ومنزل ملكة خاتون البيضا[٢٠]. ومن المؤسف أن هرتس بك مهندس لجنة حفظ الآثار العربية الذى كلف بتسجيل آثار رشيد، رفض تسجيل منزل على بك السلانكلى والى رشيد الذى قاد مقاومة الإنجليز أثناء محاولتهم غزو المدينة العام ١٨٠٧م، وكذلك قصر الشيخ حسن كريت زعيم المقاومة الشعبية آنذاك، بالرغم من احتواء الأخير على حديقة ورواش لم يكن لها مثيل فى رشيد[٢١].

وقد تبقى لنا برشيد منزل يعود لفترة الدراسة، وهى منزل الأمصيلى، الذى يتكون من ثلاثة طوابق ، الأرضى به مدخل ذا عقد موتور فى واجهته الشمالية، على جانبيه مكسلتان، ويقفل عليه باب ذا خوخة،ويعلوه نص كتابى يقرأ "أنا فتحنا لك فتحا مبينا ". يوم ٢٥ من شوال سنة ١١٢٣هـ" ١٨٠٨م.

ويوجد باب آخر صغير فى طرف الواجهة الغربية للمنزل يؤدى إلى الاصطبل الملحق به. وقد اثرت وظيفة مشيد المنزل، وهو عثمان أغا الطوبجى باشى[٢٢] الذى كان يعمل فى حامية المدينة، حيث لم يستغل الطابق الارضى كحواصل أو وكالة تجارية على عادة أهل رشيد، بل إستغل ، جزء منه كقاعة إستقبال، يتوصل إليها عن طريق الدركاة التى تلى باب المنزل، والتى يوجد على يسارها السلم الصاعد للأدوار العليا، ويواجه باب الدخول باب يؤدى إلى مساحة مستطيلة تتقدم قاعة الإستقبال التى يزين واجهتها حاجب من الخشب الخرط، يتوسطها ضلفتى باب يؤديان إلى القاعة، ذات السقف المزخرف فى وسطه صره بارزة ذات زخارف نباتية مفرغة، وحولها

أطباق نجمية مشكلة بسدايب من الخشب، وبالأطباق زخارف نباتية ملونة.

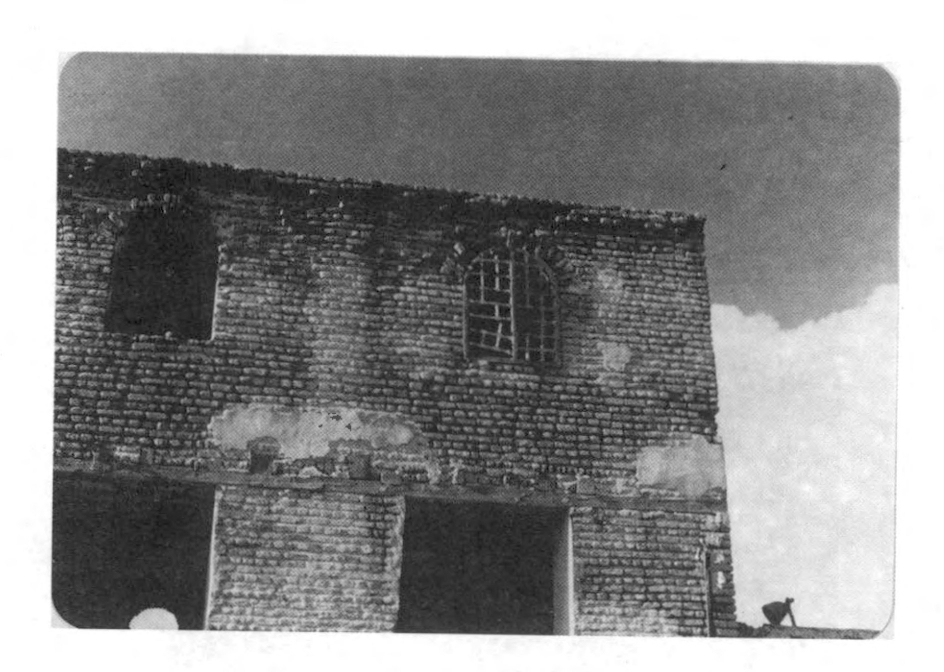
والطابق الأول خصص لإستقبال الضيوف ، وفى غرفتيه الشمالية الغربية والجنوبية الغربية دولابى أغانى من أروع أمثلة هذه الدواليب برشيد. وأما الطابق الثانى علوى فقد خصص لإقامة صاحب المنزل وأهله. وتعكس عمارة المنزل طرز عمارة منازل رشيد، ومدى تأثرها بالبيئة وبأحكام فتحة العمارة سواء فى تشكيل الواجهات، وتوزيع النوافذ بها، أو فى توزيع وحدات المنزل، (صور أرقام ٤،٥،٦،٧) (أشكال ارقام ٢،٣،٤،٥) وكان محمد على أمر ببناء سور حول مدينة رشيد فى عام ١٨٠٧م عقب محاولة الإنجليز الفاشلة الإستيلاء عليها، وكان قد اتخذ هذا القرار أثناء زيارته للمدينة فى أكتوبر من العام نفسه[٢٣] وكذلك أمر ببناء قشلاق[٢٤] لعسكره إلى الشمال من المدينة، نمت حولها بمرور الوقت قرية صغيرة بلغ تعدادها ٥٨ نسمة. فى عام ١٨٩٩م[٢٥].

وكان محمد على وابنه إبراهيم لهما اهتمام خاص بتحصين ساحل البحر المتوسط الممتد من رشيد إلى الإسكندرية، بعدد من الطوابى ذات المدافع [٢٦]. ما زال بعضها باقيا إلى اليوم وأشهرها طوابى العبد والجزاير والعلايم وهلالية الكلخ. كما أن منطقة القشلاق برشيد، كان بقايا بها إلى سنوات قريبة مبنيين للقشلاق، كل واحد عبارة عن مساحة مستطيلة يسقفها سقف جمالونى الشكل، وبها عدد من النوافذ المستطيلة، وباب يؤدى إليها مباشرة.

المراجع

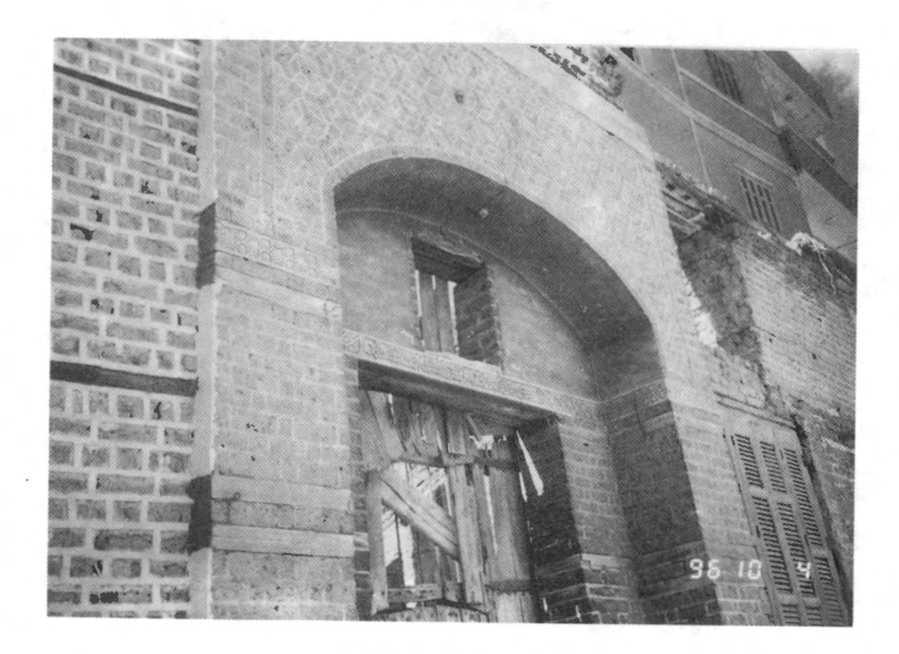
(١) خالد عزب، فوة مدينة المساجد، ص١١ ، ص١٦. مؤسسة الأهرام. ١٩٨٩م.
(٢) عمر طوسون، تاريخ خليج الإسكندرية وترعة المحمودية، ص١٠. ١٩٤٢م.
(٣) على شافعى، أعمال المنافع العامة الكبرى فى عصر محمد على، ص ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ . دار المعارف ١٩٥٠م.
(٤) حسن عبد الوهاب، المصانع، مقال فى مجلة العمارة العدد ٣،٤. المجلد الثـالث، ص٤٥، ١٩٤١.
(٥) المرجع السابق.
(٦) تقارير منطقة آثار وسط الدلتا عن حفائر مصنع الطرابيشى العام ١٩٧٦م.
د. جابرالمصرى، مدينة فوه وأهميتـــها فـــى العصـــر الإســـلامى، ص١٠٦،١٠٩. الإسكندرية ١٩٨٥م.
(٧) د. محمد فؤاد شكرى، عبد المقصود العنانى، سيد محمد خليل، بناء دولة مصــر محمد على، ص ٤٤٢.
(٨) كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر، جــ٢، ص٨٣١، تعريب محمد مسعود.
(٩) الأمير عمر طوسون، الصنائع والمدارس الحربيــة فــى عــهد محمــد علــى ص١٤،١٥، طــ٣ ، ١٩٣٥م.
(١٠) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص٥٠٤. دار المعارف ، طـــــ٤، ١٩٨٢م.
(١١) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون، بناء دولة مصر، ص٤٤٢.
(١٢) عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل، ص١٩، دار المعارف، طــ٤.
(١٣) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص٥٨٨.
عمر طوسون، مرجع سابق، ص١٥.

(١٤) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ص٤، ص٢٥٥.
(١٥) د. محمد فؤاد شكرى، مرجع سابق، تقرير باتريك كامبل، ص٧٨٠.
(١٦) المرجع السابق، ص١٦٧.
(١٧) عباس السيسى ، رشيد ، ص١٣٨، ١٣٩. دار الدعوة ، الإسكندرية، ١٩٧٩م.
(١٨) د. محمود أحمد درويش، عمائر مدينة رشيد وما بها من التحف الخشبية، ص ١٦٣،١٦٢ رسالة ماجستير، كلية الآثار ، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م. آثار رشيد، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٥.
(١٩) د. محمود درويش، مرجع سابق، ص١٦٤.
(٢٠) د. محمد حسام الدين اسماعيل، وآخرون، معمار رشيد، جـ٢، ص٥٦: ص٦١.المعهد الفرنسى لابحاث التنمية. ١٩٩٤م.
(٢١) روى لى هذه الواقعة ، أسعد عثمان ملاحظ آثار رشيد، الذى عمل منذ صغره مع والده مع لجنة حفظ الآثار، وحضر هذه الواقعة التى رفض فيها المهندس الإنجليزى تسجيل المنزلين بعصبية شديدة.
(٢٢) كراسات لجنة حفظ الآثار ، كراسة رقم ١٠. ١٩٣٨م، ص٧٦.
(٢٣) إدوار جوان، مصر فى القرن التاسع عشر، ص ٣٩. تعريب محمد مسعود. القاهرة ١٩٢١م.
(٢٤) القشلة : كلمة تركية بمعنى الشتاء، والقشلة هى المعسكر الشتوى، وقد أمر محمد على ببناء عدد من هذه المبانى لمعسكرات لجنده فى ريف وأقاليم مصر. لأنها أكثر ثباتا من الخيام ولا تحتاج لصيانة دورية.
الجبرتى ، عجائب الآثار، جـ٣، ص٢٥٢، جـ٤، ص٢٧١.
د. أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، ص١٦٩. دار المعارف ١٩٧٩م.
(٢٥) القاموس الجغرافى للقطر المصرى، ص٥٧٢. طبع القاهرة ١٨٩٩م.
(٢٦) انظر : د. محمود درويش .



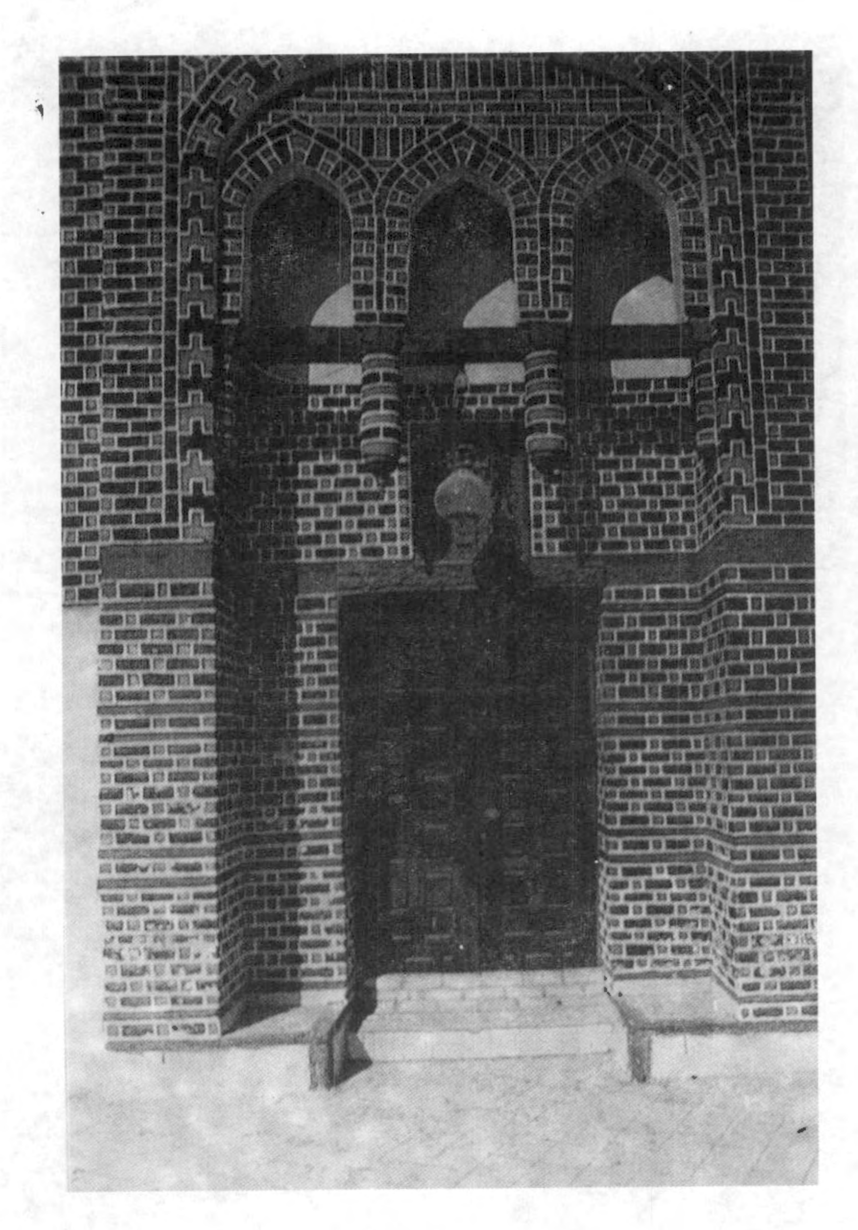
صورة رقم (١)

محلج القطن بفوة



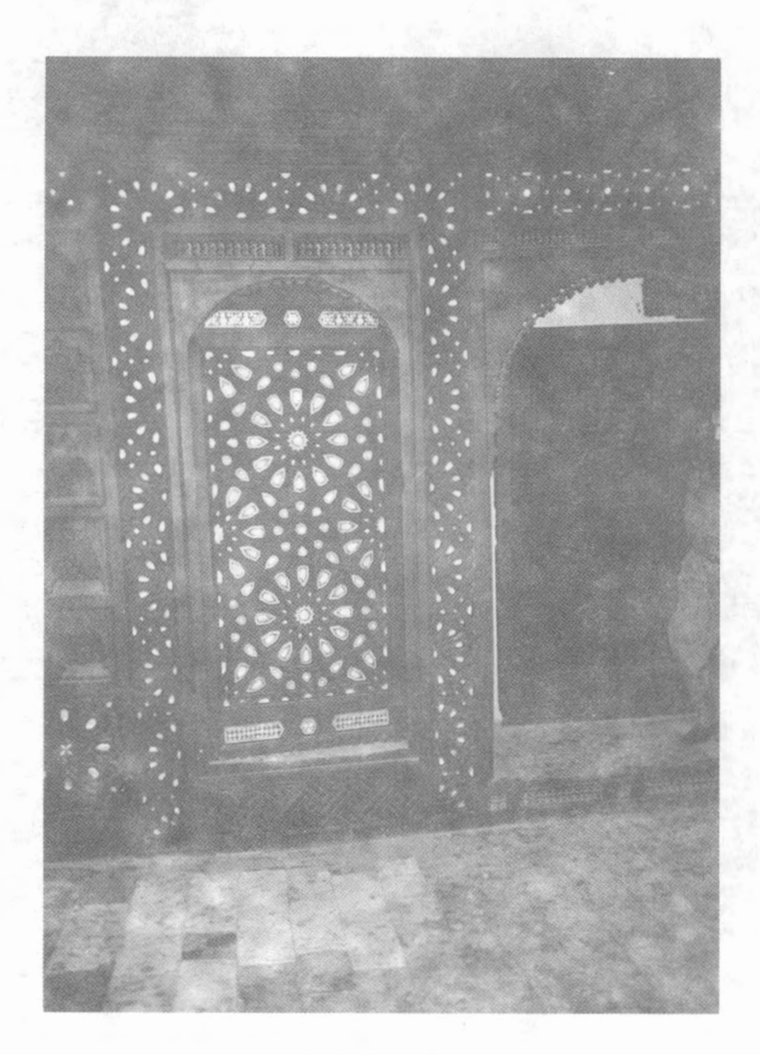
صورة رقم (٢)

وكالة ماجور بفوة



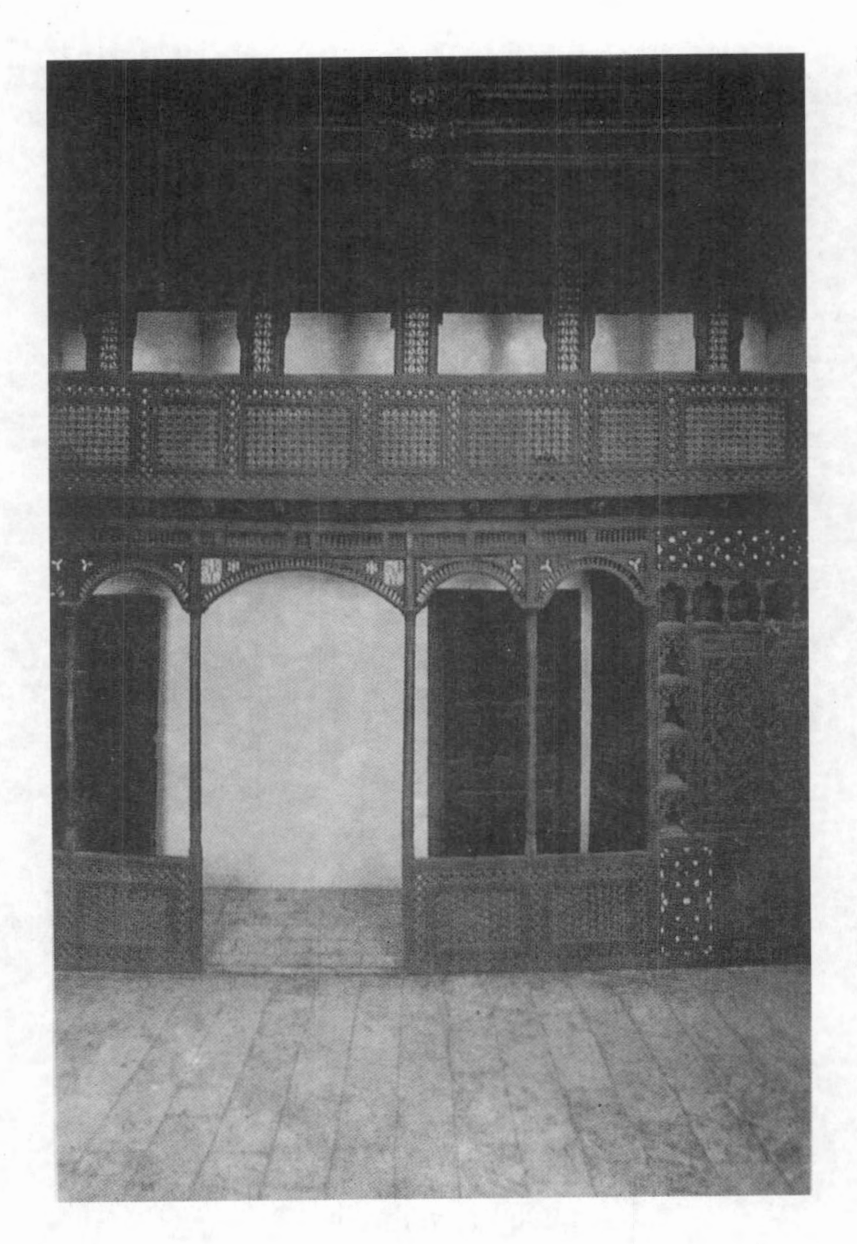
صورة رقم (٣)

مدخل مسجد العباسى (رشيد)



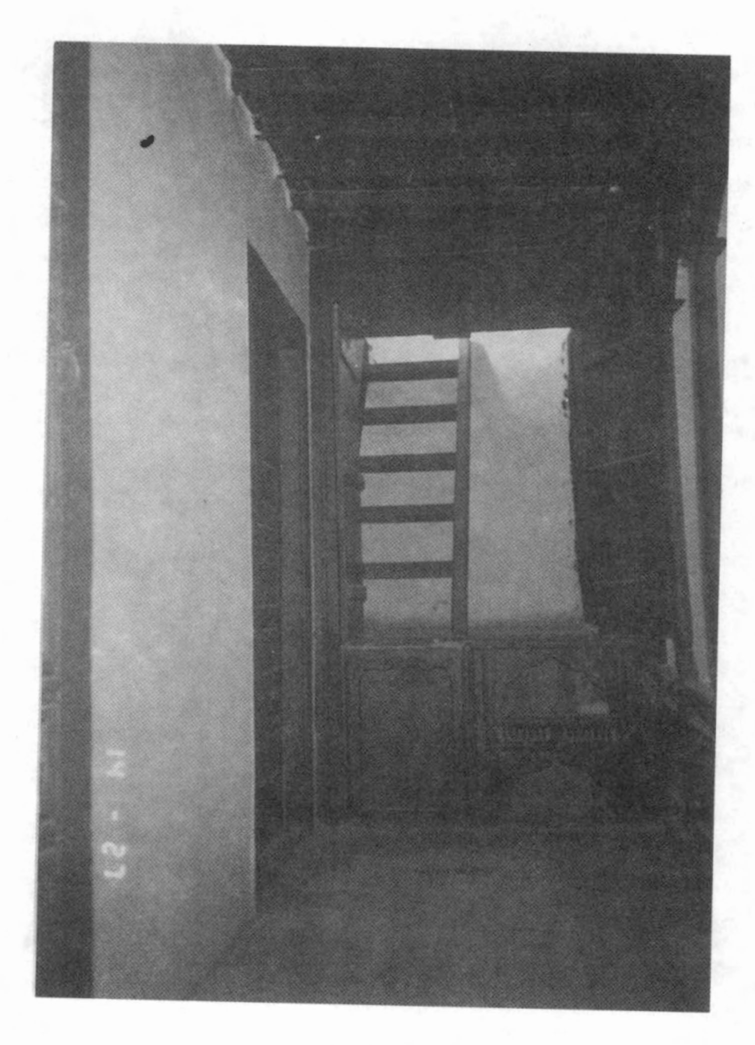
صورة رقم (٤)

منزل الأمصيلى (حجرة الأغانى بالطابق الأول)



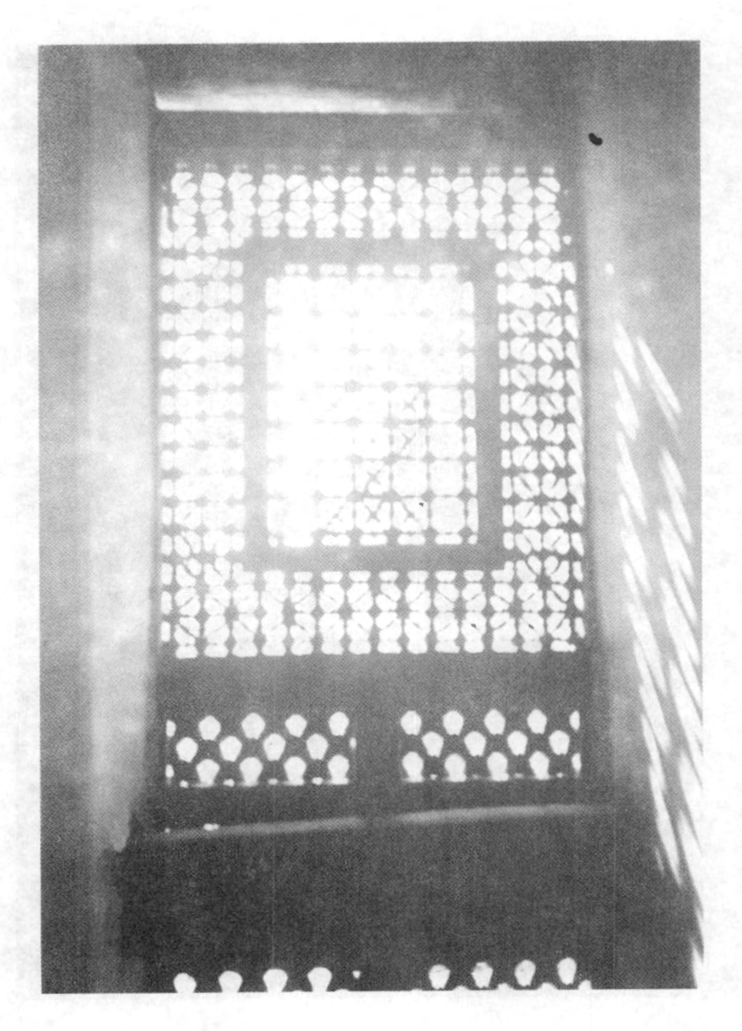
صورة رقم (٥)

منزل الأمصيلى برشيد (حجرة الأغانى الجنوبية)



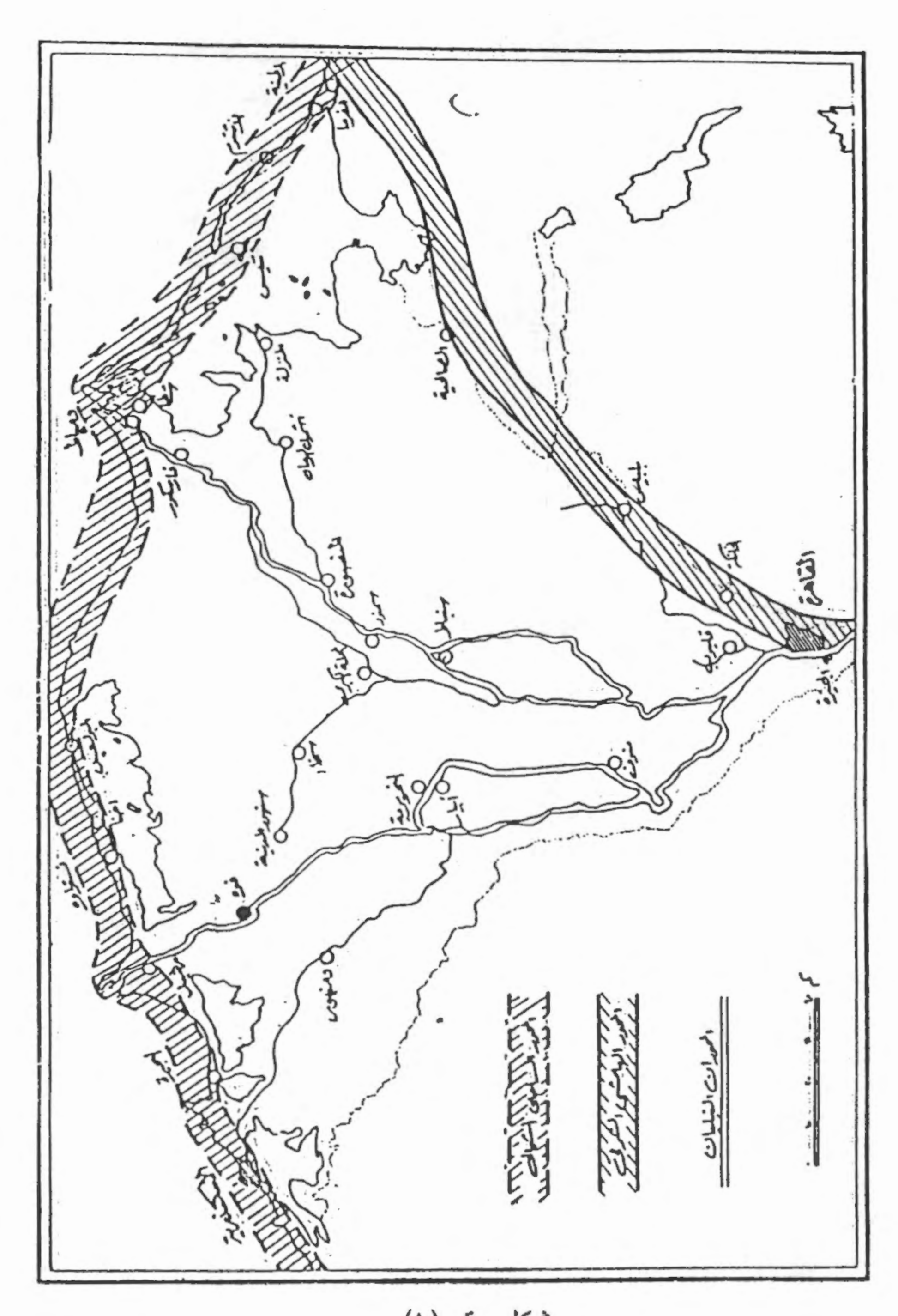
صورة رقم (٦)

سلم صاعد للأغانى بالقاعة الجنوبية



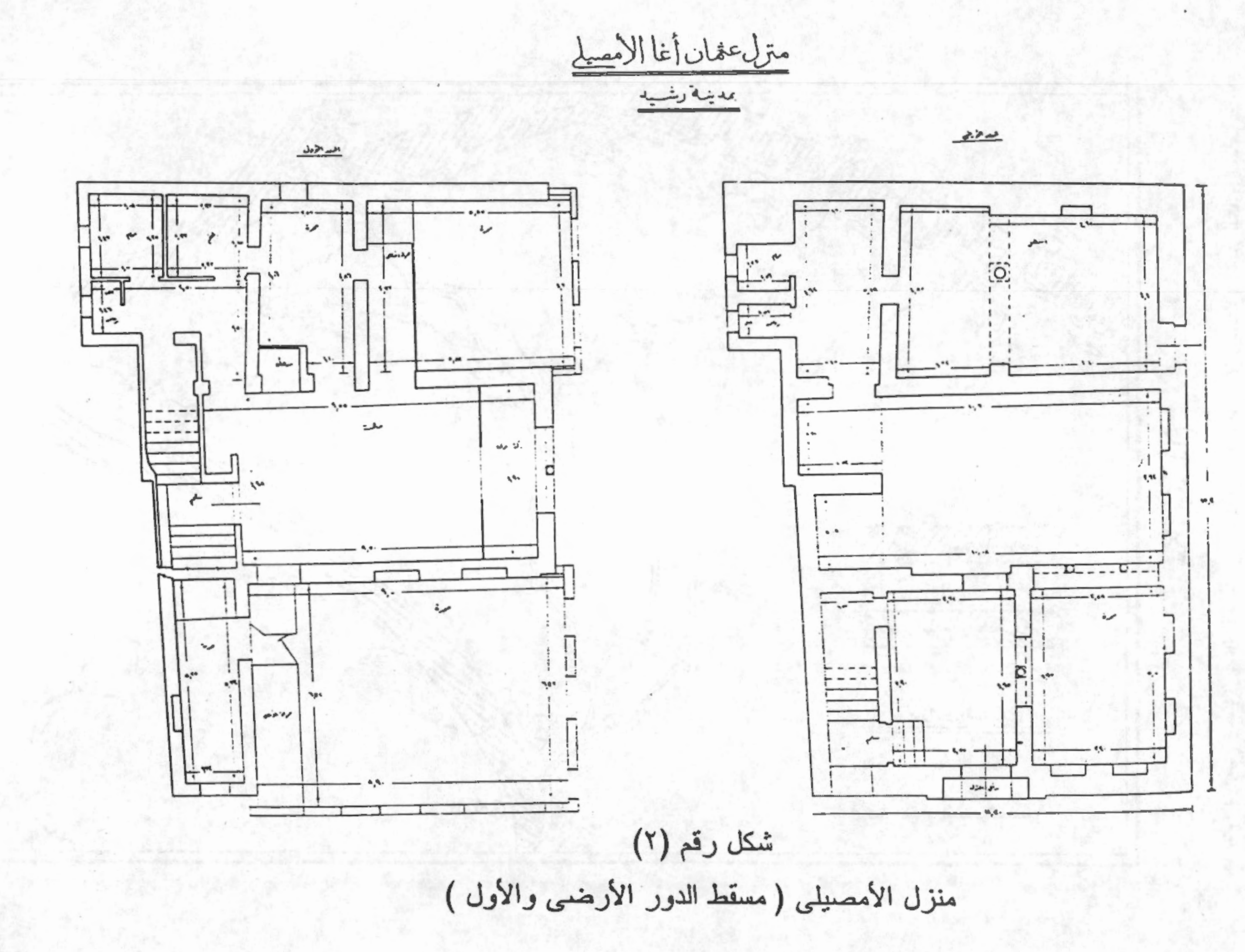
صورة رقم (٧)

منزل الأمصيلى برشيد (شباك بالقاعة الجنوبية)



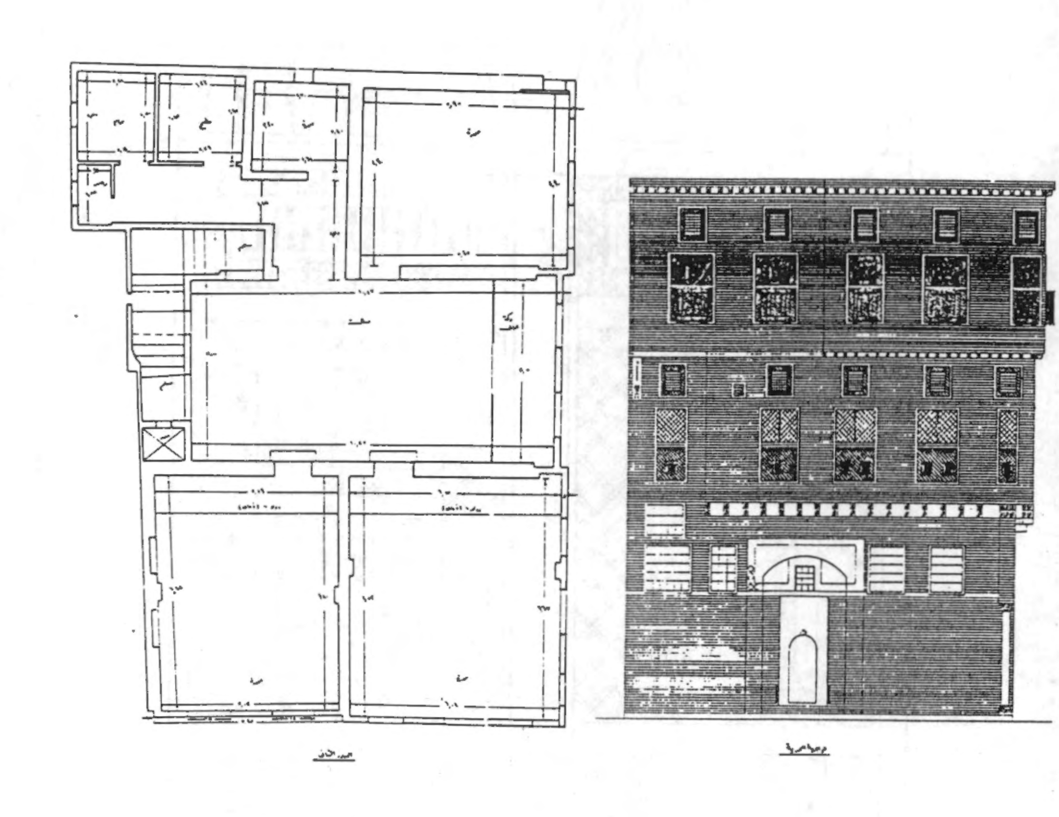
شكل رقم (١)

خريطة توضح محاور مدن الدلتا فى العصر الإسلامى عن الدكتور عبد العال الشامى



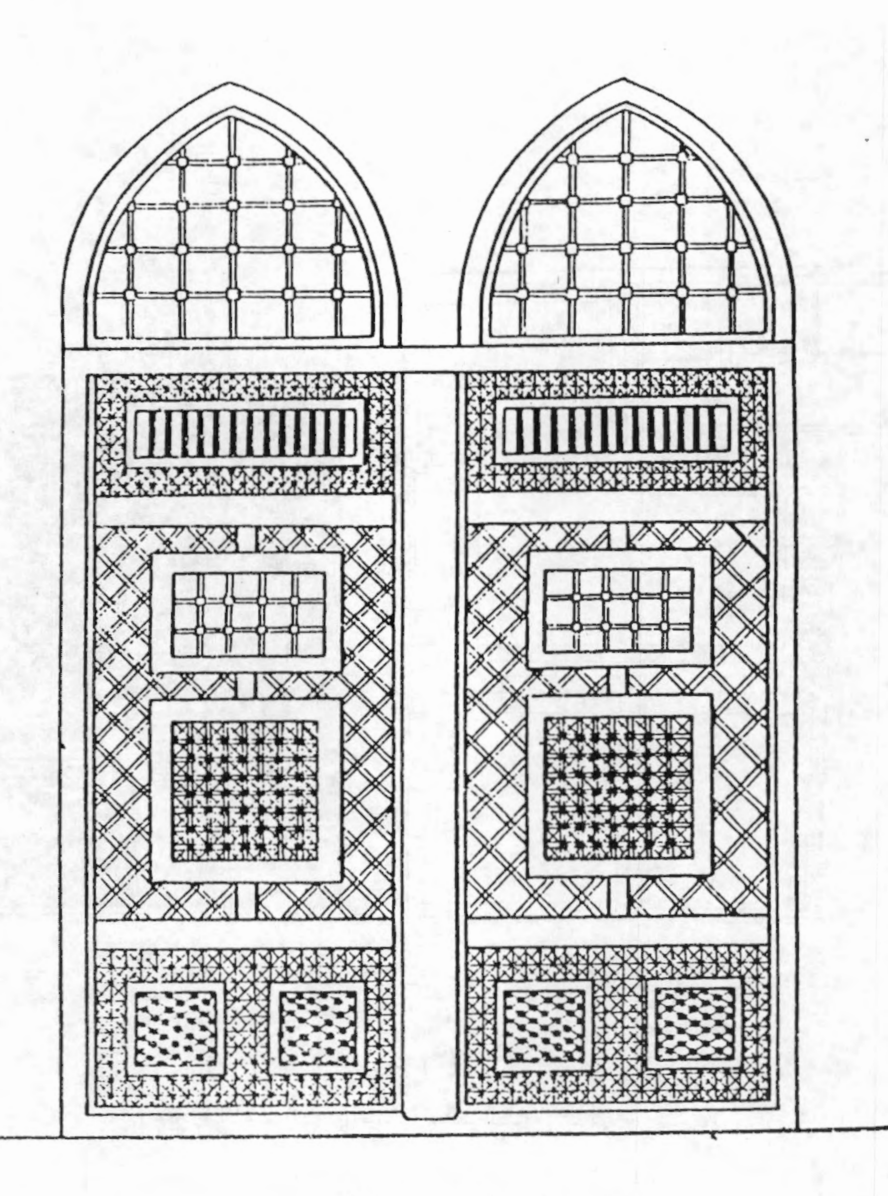
شكل رقم (٢)

منزل الأمصيلى (مسقط الدور الأرضى والأول)



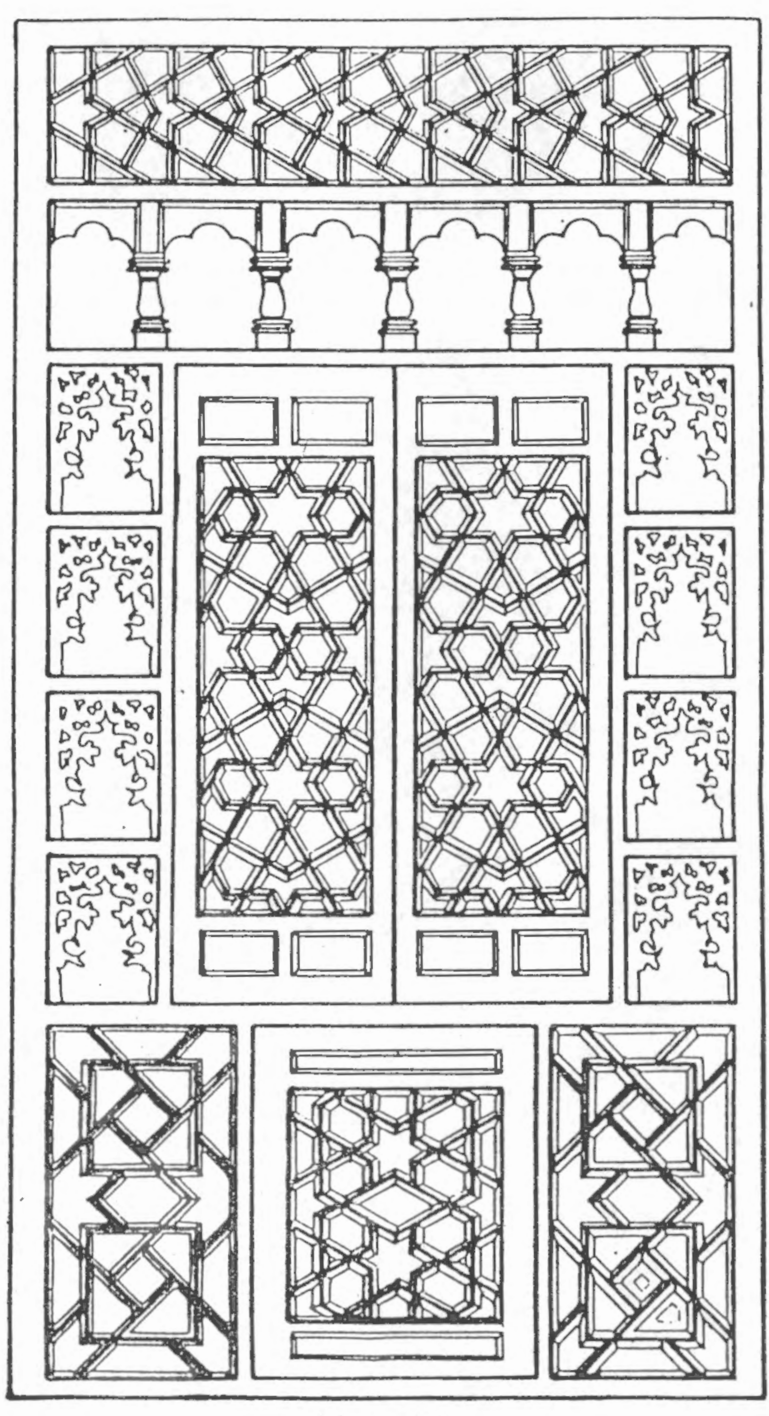
شكل رقم (٣)

منزل الأمصيلى برشيد ومسقط الطابق الثانى



شكل رقم (٤)

منزل الأمصيلى برشيد شباك بقاعة الاستقبال بالدور الأرضى



شكل رقم (٥)

منزل الأمصيلى برشيد (تفاصيل بأغانى الدور الأول بالغرفة الجنوبية)

آثار سليمان باشا الفرنساوى المعمارية والفنية
كبداية الحداثة فى عصر محمد على

د. منى محمد بدر محمد بهجت

مقدمـــــة:

ان دراسة الآثار المادية لعصر من العصور يعنى الكشف عن أحد الأوعيـــة الهامة التى تساعد فى رسم صورة الإطار الحضاري[١]الذى خلف هذه الآثار ومـــدى تطوره على طريق التقدم الإنسانى، كما يكشف عن مدى الصلة بين تلك الحضــــارة وغيرها من الحضارات خصوصاً المعاصرة لها. فهل يمكن ان تكـــون المخلفـــات المادية والفنية لشخصية بعينها دليلا مادياً كافياً على التحليل الحضارى لعصر مــــن العصور؟ .. هذا التساؤل هو ما سنحاول بمشيئة الله الإجابة عنه من خلال هذا البحث الذى يتناول الآثار المعمارية والفنية لشخصية هامه، نعتقد أن دراستنا لها هـــى الدراسة الأولى للكشف عنها وبيان مدى دلالتها على التحليل الحضارى الذى ســـوف نقدمه كبداية الحداثة فى عصر محمد على.

* * * * * * * * * * *

حتى يمكننا أن نحلل الحضارة المصرية بدون تقييم لها فى عصر محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨م) لا بد أن نشير فى عجالة الى نشأته وفكره السياسى وأسـلوبه العملى فى تحديث وتطوير مصر، والتى أراد أن يجعلها كما قال روسان[٢] ســــنة ١٨٣٣م "مركزا لإمبراطورية جديدة ومستودعا تجارياً" .

ولد محمد على (١١٨٢هـــ ١٧٦٩م) فى مدينـــة قولـــه بـــإقليم مقدونيـــا اليونانى[٣]، حيث تعيش أقلية البانية مسلمة عرفت فى مصر باسم "الارناوؤط" وعمـل فترة فى التجارة ثم انخرط فى سلك الجندية، وارسله الباب العالى ضابطا صغيرا فى الحملة العثمانية التى خرجت من تركيا لطرد الفرنسيين من مصر، وشهد انتهاء عـهد الحملة الفرنسية على مصر. وعندما تقلد ولاية الحكم على مصـــر ســـنة ١٨٠٥م[٤]

لمس مدى تقدم جيوش فرنسا الحربية، كما لمس مدى سخط الشعب المصرى على نظام الحكم القديم وما أدى اليه من تخلف وتردى فى شئون البلاد بصفة عامة.

لذلك .. رأى بذكائه الفطرى أنه لا بد من التغلب على دسائس الاتراك والانجليز واصلاح اداة الحكم، وأن تأسيس الجيش المصرى بعد الاصلاح الاقتصادى[٥] هو الدعامة الأولى التى يمكن من خلالها تحقيق أطماعه.

ومن أجل تحديث وتطوير الجيش المصرى وتكوين القوة العسكرية التى تضارع العسكرية الفرنسية لجأ الى التجنيد العام[٦]. واهتدى الى اقتباس الحل الذى يتفق مع مقتضيات العصر الجديد بأن استعان بأعلى الرتب العسكرية الاوربيه لتدريب الجنود المصرية[٧]، وأنشأ معاهد الدراسات العسكرية[٨] وبذلك تكون الجيش المصرى على أسس راسخة. ويرجع اختياره للضباط الاوربيين وخاصة الفرنسيين للتدريب أنهم كانوا على بصر بأساليب النظام الأوربى الحربى الذى كان مجهولا فى الشرق فى ذلك الحين. وكان من أهم هؤلاء الضباط الفرنسيين الذين عهد اليهم تدريب الجيش المصرى هو الكولونيل "سيف" الفرنساوى[٩] الذى وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها، واليه يرجع الفضل فى تأسيس الجيش المصرى على نمط الجيوش الفرنسية من حيث الأساليب والأنماط فى أداء الحركات والسير والموسيقات العسكرية، وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التى يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقا محكما، كما طبقت نفس نظم الرتب العسكرية تطبيقا دقيقاً. وقد نجح الجيش المصرى بعد هذا التطوير نجاحا عظيما وبرهن على ذلك فى انتصاراته العظيمة المتتالية فى ميادين القتال فى أوربا وتركيا[١٠].

ولا شك أن محمد على لم تقتصر استعانته فى تطوير الجيش المصرى بسليمان باشا الفرنساوى فحسب، بل استعان بغيره من الفرنسيين سواء فى الجيش[١١] او مختلف المجالات الاخرى[١٢].

ومن أمثلتها فى مجال الفنون والعمارة استدعائه العمال والفنيين من فلورانسا بايطاليا لاقامة مصانع الغزل والنسج بمصر حتى ان فابريقة النسيج فى بولاق سميت "بفابريقة مالطة" نسبة الى العدد الهائل من العمال القادمين من مالطة، وكان رؤساء العمال فى مصنع الجوخ ببولاق هم خمسة من الفرنسيين الذين استجلبهم من مرسيليا[١٣] .

وعهد للمهندس الفرنسى موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية.

وهكذا كان الحال فى أغلب المجالات الحضارية اى الاستعانة بالاوربيين لتحديث مصر وتطويرها من خلال الاخذ بالتيار الاوربى المتحضر.

الا ان محمد على كان معجبا بالامبراطورية العثمانية والحضارة التركية، فقد دخل مصر باسمها، وكان طموحه الأساسى – فى أغلب الظن هو محاولة فتح الاستانه لجعلها مركزا لامبراطورية جديدة هناك بدلاً من القاهرة، وهو هدف هام كان من ضمن أهدافه التى وضعها نصب أعينه عندما أخذ فى تطوير الجيش المصرى، ليساعده فى انجاز هذه المهمة. ولذلك قال عنه الماريشال الفرنسى مارمون دون دى راجوز[١٤] :"تغلب عليه النشأة التركية الصبغة" ، لذلك حاول محمد على أن يحاكى بعض جوانب الحضارة العثمانية التركية فى مصر، فكانت أشهر فرق الجيش فى عصر محمد على هى الفرقة العثمانية او طائفة العثمانليه، بخلاف الفرق العثمانية الأسيوية، وفرق الأتراك الأحرار الأوربيون، كفرقة الاسلامبولية او الاستانبوليه نسبة الى استانبول او الاستانه عاصمة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت وأصلهم منها[١٥]، وكانت أغلب جنوده منهم فى اولى حملاته على السودان[١٦] حتى لقد اعتبرت طبقة الاتراك فى قمة الهرم الاجتماعى[١٧] وظل النداء بالاوامر التى يصدرها الضباط الى الجنود باللغة التركية[١٨] .

وكان أول اميرال للاسطول المصرى تركى الاصل هو "اسماعيل جبل

طارق" وكان ناظر اعمال الترسانه تركى الاصل من قوله هو الاميرال "محرم بـــك" (ت ١٨٤٧م) وقد ترجم للنظم المصرية باللغة التركية، واطلق اسمه على أحد احيـــاء الاسكندرية "حى محرم بك" [١٩].

كما ظهرت التأيرات التركية ومنها العثمانية بوجه خاص فى مجالات العمارة والفنون والازياء وبعض العادات والتقاليد، والدليل على ذلك أنه عندما شرع محمـــد على فى بناء مسجده بالقلعة استدعى مهندسا من تركيا هو "يوسف بوشناق" الذى بنـــله على نمط مسجد السلطان احمد بالاستانه، وعهد بزخارف الخط فيه للخطاط الـــتركى المشهور "امين ازميرى"[٢٠] ، وقد أقتبس مهندس المسجد قبته وزخارفه من العنـــاصر الزخرفية التى شاعت فى تركيا فى القرن الثامـــــن عشـــــر الميـــــــلادى، مثـــل الزهور الملونة والمركبة وعناقيد العنب فى وحدات زخرفية مكررة[٢١].

لقد قال الرحالة الفرنسى شاتوبريان[٢٢] عندما زار مصر فى مطلـــع القـــرن التاسع عشر الميلادى ان "مصر اليوم تبدلت أنها بملابس وهيئة تركيه ولكنها تنظـــر الينا بعطف وحب طالبة من فرنسا العون لاعادة ترتيب البيت" .

ومع ذلك .. يظل التيار المحلى دائما هو أقوى التيارات الحضاريـــة، لذلـــك ظلت كثير من الأمور الحضارية والفنية كما هى، وان اصابها التطور والتحديث، فقد رأى محمد على بثاقب بصره ان الانسان المصرى ذكى بفطرته وأنه مبـــدع مثـــابر على العمل ومبتكر وخلاق اذا توفر له المناخ الملائم .. فعمل على توفير هذا المنـــاخ الملائم عن طريق تأسيس المدارس والمعاهد العلمية فى مختلف التخصصـــــات فـــى مصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التى تنهض بالمجتمع المصرى، ونقل معـــــارف اوربا وخبرة علمائها سواء عن طريق استقدام هؤلاء العلماء كى يقوموا بالتدريس فى المدارس والمعاهد المصرية، او عن طريق ارسال البعثات العلمية الى مختلـــف دول أوربا المتقدمة .. ولا شك أن هذا الأسلوب أثمر فى ان هؤلاء بعد عودتهم أنجــــزوا

أعمالا حضارية جليلة لمصر، مثل نقولا مسابكى افندى (ت ١٨٣١) الذى تعلم فى روما وميلانو سنة ١٨١٦م فن الطباعة، وعاد وتولى إدارة مطبعة بولاق الشهيرة ١٨٢٠م[٢٣].

وفى مجال العمارة شارك المهندس مصطفى بهجت فى بناء القناطر الخيرية[٢٤]، وشيد محمد مظهر فنار الاسكندرية فى رأس التين[٢٥] ، واشتهر المهندس على باشا مبارك صاحب كتاب الخط التوفيقية[٢٦]، كما ذاع صيت رفاعة رافع الطهطاوى فى الأدب والتاريخ والترجمة صاحب مدرسة الألسن (١٨٠١ ١٨٧٣م)[٢٧] وغيرهم كثيرين[٢٨].

وبعد هذه الالمامه السريعة للمظاهر الحضارية السابقة، يمكننا تحليل حضارة مصرى فى عصر محمد على وخلفائه الى ثلاث عناصر رئيسية هى:

أ) العناصر الاوربية وخاصة الفرنسية.

ب) العناصر العثمانية والتركية.

ج) العناصر المحلية المصرية.

فلقد تفاعلت هذه العناصر الحضارية الثلاث فى تكوين شخصية مصر فى عصر محمد على وخلفائه، ومن الأمثلة الطيبة التى يمكن ان نقدمها للتدليل على صحة التحليل السابق، هو التراث المعمارى والفنى لسليمان باشا الفرنساوى الذى يعد واحداً من أهم واشهر رجال عصر محمد على.

<u>فمن هو سليمان باشا الفرنساوى؟</u>

هو "اوكتاف جوزيف انتلم سيف" [٢٩] ولد فى مدينة ليون بفرنسا فى ١٧ مايو سنة ١٧٨٧م ، وكان والده ملاحاً،[٣٠] وقد أحب العمل بالملاحة سنة ١٧٩٩م وهو فى سن الثانية عشرة وشهد موقعة الطرف الاغر فلفت استعداده الحربى الانظار. وفى

سنة ١٨٠٧م التحق بجيش نابليون بفرنسا، وبفضل اجتهاده حصل على رتبة ملازم ثان سنة ١٨١٣م. ولمس فيه نابليون الشجاعة والاقدام ولكن مع الحدة والغطرسة. ومع ذلك رقى الى ملازم حامل لعلم الالاى الرابع عشر من رماة الفرسان [٣١]. وأشترك فى جيش نابليون فى الحرب ضد الروسيا، ونال نصيب من أهوالها، فرقى بعدها الى رتبة كولونيل.

وبعد هزيمة نابليون ، خرج سيف من الجندية فى عهد لويس الثامن عشر، وعكف على التجارة [٣٢] -التى لم تروقه فسمع ان العجم فى حاجة الى ضباط حاذقين فى تدريب الجند، فذهب الى صديقه الكونت دى سيجورا، الذى نصحه ان يتوجه الى محمد على باشا والى مصر[٣٣]. فأكرمه محمد على وبعثه للسودان للبحث عن الفحم الحجرى فأخفق فى مهمته، فعهد اليه بتدريب الجيش المصرى على أسس النظام العسكرى الفرنسى، فأرسله الى اسوان وبعث اليه بمماليكه ومماليك كبار رجال حكومته ليعلمهم، وخلال ثلاث سنوات من التدريب الشاق، تخرج هؤلاء على يديه ضباطا، وقام هؤلاء الضباط بتدريب ثلاثين الفا من السودانيين[٣٤]، وهيأ الكولونيل سيف لهؤلاء الجند السودان خدمة صحية تحت إشراف (دوساب Dussap) أحد الاطباء الفرنسيين ، كما أعد مستشفى للعناية بمرضاهم[٣٥] .

أعتنق سيف الاسلام فى مصر فى ديسمبر ١٨٢٢م وتسمى باسم عربى هو "سليمان عبده" ونعت ايضا "بسليمان بك الفرنساوى" وشارك سليمان باشا فى كل الحروب تقريبا التى دخلها مع ابراهيم باشا باسم محمد على خارج مصر، وكان من أهم هذه الحروب هى حرب الموره سنة ١٨٢٧م وفيها تولى سليمان باشا قيادة القوات المصرية [٣٦] - وحصل على رتبة اميرالاى [٣٧] - حيث تم الاستيلاء على جزيرة نافارين سنة ١٨٢٥ م وبانتصارهم فى هذه الحرب أصبحت مصر دولة مستقلة فعلا عن تركيا ونالت بذلك مركزاً دوليا ممتازاً[٣٨] . كما شارك فى احتلال

غزا ويافا وحيفا، وفى واقعة احتلال قونيه ١٨٣٢م والتـــى انتصـــر فيـــها الجيـــش المصرى انتصاراً مبينا، وأصبح الطريق مفتوحا امام مصر الى الاستانه[٣٩]. كمـــا كان له دوراً ملحوظاً فى الحكم المصرى فى سوريا. وعلى الرغم من ان ســـليمان باشا كان يخوض غمار هذه المعارك والمواقف تحت قيادة ابراهيم باشا، الا انه كـــان الرأس المفكر والمحرك للاحداث[٤٠].

وعقب الحرب السورية أنعم عليه محمد على بالباشويه سنة[٤١] ١٨٣٤م ، ثـم عينه رئيساً عاماً لرجال الجهاديه (امير ميران) اى رئيسا للجيش المصرى[٤٢]. وقـــد استمر فى هذا المنصب خلال عهود كل من محمد على باشا وابنـــه ابراهيـم باشـــا وعباس الى سعيد حتى توفى فى ١١ مارس سنة ١٨٦٠[٤٣] .

كما كان لسليمان باشا الفضل فى اختيار تلاميذ البعثة الخامسة التى أرســـلها محمد على سنة ١٨٤٤م ، كى تتلقى العلم فى فرنسا، فاختار نوابغ الطلبة المصرييـــن من المدارس المصرية العالية بمصر، وكان منهم بعض انجال واحفاد محمد علـــــى، وهى أكبر البعثات وأعظمها شأنا، وكان من بين اعضائها على باشا مبارك[٤٤] .

صفاته وأخلاقه:

امتاز الكولونيل سيف بسلامة الطبع ودماثة الخلق وسعة الصدر[٤٥]، وأتســـم فى المجال العسكرى بالصرامة والشدة والقسوة وخشونة الطبع وعنـــــف الخلـــق[٤٦] وخاصة فى التدريبات العسكرية الشاقة، والتى لم يعد يألفـــها الجنـــود فـــى مصـــر، فاستاءوا من هذه المعاملة وحاولوا اغتياله ، ولكنهم أخطأوا التصويب، فلم يـــتزعزع ولم يعاقبهم على اخفاقهم فى هذه المحاولة، بل عاقبهم على فشـــلهم فـــى الرمايـــة، وأمرهم بمحاولة الكرة مرة أخرى.

وبمثل هذه المواقف المتكررة تمكن الكولونيل سيف ان يمتص غضب الجنود المصريين وتمردهم عليه، بشجاعه وبطولة وسعة صدر مما كان له تأثير سحرى فى

نفوس هؤلاء الجنود، حتى صاروا من خاصة اوليائه المعجبين بشجاعته والمحبين لسعة صدره، وبذلك تمكن من اتمام تعليمهم.[٤٧]

كان سليمان باشا محبا للدعابة والسخرية اللاذعة التى الفها من حياته العسكرية. وكان يخص بالترحيب الرحالة وأعضاء الجاليات الاوربية وخاصة الفرنسيه منها، ويكرم وفادتهم فى قصره بمصر القديمة حتى يتيح لهم فرصة واسعة كى يتعرفوا على مصر ويكتبوا عنها، أو يتركوا بصماتهم الفنية فيها. ومن أمثلة هؤلاء الكونت دى مارسيلوس De Marcellus الذى زار مصر سنة ١٨٢٠م وكان يعمل فى السلك الدبلوماسى وكتب عن مصر ذكريات عن الشرق، وجذبته شخصية الكولونيل سيف فزار بصحبته ضواحى القاهرة[٤٨] .

ومثل المارشال مارمون دوق دى راجوز Marechel Marmont الذى زار مصر للمرة الثانية فى أكتوبر ١٨٣٤م فقد زارها للمرة الأولى أثناء الحملة الفرنسية على مصر – وقد سمح له محمد على بالاقامة فى منزل الكولونيل سيف بمصر القديمة[٤٩] ، الذى وصل اليه عن طريق مركب فى النيل، وقام بوصف القصر ومجموعة الرسوم القيمة[٥٠] التى جمعها سليمان باشا لنابليون والاميرة اوجينى والقواد الذين عمل معهم وهم المارشال "نى" Ney والجنرال Marmont[٥١] او (مارمونت) والمارشال جروشى.

وقد وصف الدوق دى راجوز[٥٢] سليمان باشا : "بأنه نافذ البصيرة ، طويل الرؤية فى عمله وكلما ارتفع درجات سلم الترقى ازداد استشعاراً بثقل مسئوليته تبعاً لانفساح أفق سلطته، وكان من أصحاب النظر فى الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت الفرص له مراراً لتطبيق العلم على العمل فاغتنمهما ، فقد أصبح بحق فى طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية".

كما أستقبل فى قصره شارل ادمون Charles Edmond الصحفى البولندى

الاصل الذى فر الى باريس وزار مصر سنة ١٨٥٠م – خلال حكم عباس باشا وقد أنفرد عن غيره من الرحالة بتأليف كتاب يتناول فيه شخصية الكولونيل سيف معدداً فيه فضله فى تدريب الجيش المصرى، وبفضله احرزت مصر العديد من الانتصارات .. الا ان شارل ادمون نقد الكولونيل سيف فى مصنفه نقداً لاذعاً وحاول تشويه صورته لانه اعتنق الاسلام، رغم ان سليمان باشا لم يستقبله فى قصره الذى وصفه– [٥٣] فحسب ، بل رافقه فى جولاته وتنقلاته غير الرسمية وباح له بتعلقه بأرض مصر وسماحة الاسلام [٥٤].

وكان محباً للفن والفنانين، ولعل سليمان باشا قد اكتسب هذه الصفة من مسقط رأسه فى فرنسا، فمنذ ظهور عصر النهضة الاوربية ولع الفرنسيون بالفنون. لذلك استضاف كثيراً من الفنانين الاوربيين والفرنسيين بصفة خاصة فى قصره بمصر القديمة واحسن استقبالهم واقامتهم. ومن أمثال هؤلاء الفنانين مكسيم دى كان Maxime Du Camps [٥٥]، وجوستاف فلوبير الاديب Gustave Floubert ، اللذان زارا القاهرة ٤٩ ١٨٥٠م ، وجيلاردوبى M.Gaillardot Bey وقال عنه فلوبير: أنه رجل قوى فى مصر ووصفه بقوة الشخصية الى حد القسوة فى بعض الأحيان، وذكر عنه خفة الظل وحبه للفكاهة اللاذة، وكان لا ينتقى الفاظه، بل ينطق مباشرة بكل ما يدخل عقله.

حياته الاجتماعية:

تزوج سليمان باشا من أسيره يونانيه جلبها معه بعد انتهاء حرب المورة، عرفت بأسم "مريم"[٥٦] ونعتتها الوثيقة[٥٧] باسم "مريم البيضا" (شكل ١) وتزوجها بعد أن اسلمت فىمصر، وانجبت له ثلاث بنات وولد هم : "نازلى وزهرة وأسماء ، واسكندر أو محمد المهدى" .

وتعتبر ابنته نازلى من الشخصيات الهامة فى اسرته فقد تزوجت من شريف

صبرى باشا، أو المشير شريف باشا الفرنساوى، وانجبت منه ثلاث بنات ، من بينهن توفيقه هانم التى تزوجت من عبدالرحيم باشا صبرى مدير مديرية المنوفية، وانجبت منه الملكة نازلى ١٨٩٤م، زوجة الملك فؤاد، ووالدة الملك فاروق [٥٨].

* **ما هى آثار سليمان باشا الفرنساوى التى يمكن ان نخضعها للتحليل الحضارى السابق الأشارة اليه؟**

وصلتنا عن سليمان باشا الفرنساوى آثار معمارية وتحف منقولة، اندثر بعضها وما زال البعض الآخر باقيا، فمن الآثار المندثرة القصر والجامع المنسوب اليه، ومن الآثار الباقية كتلة المدخل الحجرى لسلاملك القصر، والمئذنة، وضريحان، ضريح له والآخر لزوجته.. وعدد من اللوحات الشخصية والجماعية من الصور الضوئية والمرسومة بالألوان، والتمثال المعدنى. وسوف نخضع كل هذه الآثار للدراسة التالية.

أ) الآثار المعمارية:

١- أثر شخصيته وعمائره وممتلكاته على أخطاط القاهرة:

بدأ محمد على فى تطوير طبوبوغرافية مدينة القاهرة عن طريق تنظيم الحارات والشوارع القديمة، وفتح شوارع وحارات جديدة وجعلها مستقيمة ومفتوحة وليس بها حارات أو دروب مسدودة طبقا لتخطيط هندسى على النمط الغربى[٥٩]، وانشئت ايضا الميادين الواسعة بحيث صار فى القاهرة وخارجها ستة عشر ميدانا[٦٠]. ومما لا شك فيه أن اهمية شخصية سليمان باشا فى ذلك الوقت - جعلت أسمه يطلق على أشهر شوارع وميادين القاهرة وهو شارع سليمان باشا الفرنساوى (طلعت حرب حاليا).

وفيما بعد أطلق اسمه على إحدى المناطق السكنية الصغيرة الكائنة بحى

مصر القديمة جنوب القاهرة فعرف هذا الحى باسم "الفرنساوى" وهو الحى الذى كان يحتوى على نسبة كبيرة من أملاكه والتى احتلت مساحة كبيرة من هذه المنطقة، وكان من بينها القصر الكبير الذى يقع فى اتجاه ساحل الغلال(٦١)، وحديقتين أحدهما كبيرة والأخرى صغيرة، وأجزاء أخرى من الأراضى، والسواقى الست والضريحين(٦٢) . حيث كان يعرف الميدان الصغير الكائن فيه الضريحين باسم "ميدان سليمان باشا" (٦٣)وكان يتفرع منه شارع سليمان باشا (سابقا)(٦٤)، وظاهرة إطلاق أسماء الأشخاص على اخطاط القاهرة انما هى ظاهرة حضارية معمارية محلية قديمة عرفتها القاهرة الفاطمية (٦٥).

٢- القصر:

الموقع:

من أهم الآثار المعمارية المندثرة التى شيدها سنة ١٨٢٨م سليمان باشا الفرنساوى القصر(٦٦) العظيم فى منطقة مصر القديمة (شياخة ساعى البحر) على يسار السالك طالبا ساحل الغلال.

التخطيط والوصف:

كان هذا القصر يتكون من كتلتين معماريتين ، تطل الاولى وهى السلاملك على النيل مباشرة، ويفصل شارع ساحل الغلال - كورنيش النيل حاليا هذه الكتلة المعمارية عن الكتلة الثانية وهى الحرملك ، والذى عرف فى الوثيقة(٦٧) باسم سراى الحريم (لوحة ٢).

ومن المرجح ان سليمان باشا اختار هذا المكان بالذات من مصر القديمة(٦٨) ليكون سكنا له، ليكون على مقربة من البعثة الفرنسية العسكرية التى أرسلها القنصل الفرنسى بناءاً على طلب محمد على كى تنظم الجيش المصرى، وكان على رأس هذه

البعثة البارون بوييه احد جنرالات بونابرت الذى وصل مصر سنة ١٨٢٤م، وسكن قصراً فخماً بمصر القديمة خصصه ليكون قصراً للرئاسة العامة للبعثة(٦٩) ، كما كان يوجد بمصر القديمة – ايضا – قصر صغير لمحمد على يعر باسم قصر اثر النبى على شاطئ النيل بجوار مسجد اثر النبى.

وكان يحيط بالسلاملك حديقة كبيرة، كما كان يحيط أيضا بالحرملك حديقة غيرة مزروعة بأشجار متنوعة، وكان يتبعها مكان صغير يعرف باسم "سكن العربجى" ملاصق للعربخانة وست سواقى، وقد شيد ضريح سليمان باشا وزوجته فى حديقة الحرملك(٧٠).

وظاهرة احاطة القصور بالحدائق الواسعة، هى ظاهرة حضارية تأثر بها عصر محمد على من العثمانيين.

وقد اندثر كل من الحرملك والسلاملك خلال الثلث الاول من هذا القرن، ولكن وصلتنا صور لواجهة السلاملك والتى كانت تطل على النيل (لوحة ١)(٧١) ، وأخرى للسلاملك من الداخل (لوحة ٢) . اما ما تبقى حاليا من السلاملك فهو الدرج(٧٢) المؤدى الى شاطئ النيل، حيث كانت ترسى العوامة الذهبية التى كان يمتلكها سليمان باشا.(٧٣) كما تبقى منه ايضا البوابة الرئيسية التى كانت تفتح بالواجهة الداخلية المطلة على الحديقة(٧٤) (لوحات ٣،٤،٥).

وقد قام الفنان دافيد روبرتس برسم نفس واجهة قصر سليمان باشا بطريقة فنية(٧٥) تكاد تطابق نفس الواجهة التى وردت فى (لوحة ١) ، وقد استطاعت هاتان الصورتان ان تعطينا فكرة طيبة عن الواجهة الخارجية لقصر سليمان باشا، وقد تبين أنها اخذت شكلا أوربيا حديثا وغريبا. فقد فقدت الواجهة الاهتمام بالمظهر الخارجى حتى لا يكون البيت مطمعاً للسلب او النهب وخاصة عند الاغنياء(٧٦) . وابتعد عن الاشكال الخارجية لمنازل القاهرة الاسلامية ذات المشربيات.

فقد أصبح للقصر نوافذ عليها زجاج، وهو اسلوب معمارى اصبح متبعا فى بناء العمائر السكنية منذ أن اصدر محمد على باشا أوامره بمنع إقامة المشربيات، وان يستعمل الناس الواح الزجاج على الشبابيك كما هو متبع فى بلاد الغرب، فبطلت المشربيات فى البيوت والبروز والكوابيل التى بواجهاتها[٧٧] . وكان منع المشوبيات لأسباب امنية ولغرض التحديث. ان استخدام النوافذ الزجاجية اسلوب جديد نصف اوربى ونصف تركى، بالاضافة الى التحديث الذى اتبع ايضا فى التقسيم الداخلى للقصر[٧٨] - رغم الاحتفاظ بالطابع الشرقى بصفة عامة.

والسلاملك بناء أحمر اللون من الخارج، كان يتكون من بدروم وطابقين، وكان المدخل الرئيسى له يقع فى الواجهة الخلفية المطلة على الحديقة، من خلال بوابة حجرية غير مرتفعة وضيقة مزخرفة على الطريقة المغربية (لوحات ٣، ٤، ٥) ، وقد سبق الاشارة اليها[٧٩] . ويبلغ أرتفاعها ٥ م وعرضها عند القاعدة ٤٥ر٤م وسمكها ٥٨سم يتوسطها فتحة عقد مدبب تبلغ سعته ٦ر٢ م وارتفاع العقد حتى قمته يبلغ ٥٢ر٢ م ولها شرافات غير مألوفة لا فى عمائر القاهرة المملوكية ولا فى عمائر بداية العصر العثمانى فى مصر. ويفصل هذه الشرافات عن باقى زخارف واجهة البوابة جفت لاعب (زخرفة قالبيه بارزة) تحصر ميمات تدور حول دخلة المدخل وهو أسلوب زخرفى معروف منذ عصر المماليك البحرية فى زخرفة الواجهات والمداخل. ويمتاز عقد دخلة المدخل بزخرفته بزخرفة قالبيه بارزة لعقود نصف مستديرة متقاطعة[٨٠] وزخرفت كوشتى العقد بزخارف نباتية مورقة، وفوق عقد فتحة المدخل زخرفة نباتية مورقة (ارابيسك) يتوسطها جامة (دائرة) محفور فيها حفرا بارزاً زخارف نباتية ومجردة ويتوسطها أسم "سليمان عبده" وتاريخ "١٢٧٥" هجرى (١٨٥٩م) . وهذا التاريخ يجعلنا نعتقد أن هذه البوابة قد لا تكون هى البوابة الأصلية للقصر، لان القصر شيد سنة ١٨٢٨م ، والراجح ان هذه البوابة المؤرخة

الباقية ، قد اضيفت للقصر بعد انشائه.

وتبين لنا من خلال (اللوحة ٢) التى تصور القصر من الداخل، مع وصف كل من جومارد وجاستون فييت [٨١]: ان اهم قاعات السلاملك كانت هى صالة الاستقبال ومساحتها ١٠م طولا فى ١٠م عرضا ، واخذت من الطراز الاسلامى المحلى ارتفاع الايوانات عن سطح الارض، وكانت جوانب قاعة الاستقبال يحيطها المقاعد المنخفضة ذات الوسائد مع المناضد، وزخرف سقف وجدران هذه القاعة برسوم مائية على الجص. وهذه الرسوم تمتاز بتوزيع وتصميم فنى اوربى، وان كان يدخل فى زخرفة الاسقف استخدام عناصر زخرفية عربية اسلامية ايضا كالزخارف النباتية المورقة (الارابيسك) والتصميمات الهندسية المركبة، مع رسوم اوربيه الطراز لمناظر طبيعية ومعارك ومناظر للآثار المصرية القديمة، وعموما تمتاز رسوم القاعة بذوق فنى رفيع، وقد انجزها عدد من الفنانين على فترات زمنية مختلفة منهم الفنان الفرنسى جوزيف ماشيرو والذى تسمى بأسم محمد افندى بعد ان اسلم وقد زار مصر سنة ١٨٣٥م[٨٢] ، وشوتز البولندى[٨٣].

كما كان السلاملك يحتوى على مكتبة وحجرة صغيرة كانت فيما يبدو مخصصة للعب البلياردو او الطعام، كانت حوائطها مزخرفة برسوم من الالوان المائية على الجص كان من بين هذه الرسوم خرطوش به رسوم رمزية، تشير الى اهم مراحل حياة سليمان باشا، نعتتها المراجع باسم "الاسلحة ذات الدلالة"[٨٤] (شكل ٣)، ويبدأ هذا الخرطوش من أعلى برسم الخوذة الحربية المملوكية التى يتقدمها واقى الانف المتحرك، وفى نهاية الخرطوش يتدلى وسام جوقه الشرف او وسام الليخون دنبور (Legion d'Honneur) من الطبقة العليا والذى منح لسليمان باشا للمرة الثانية عندما زار فرنسا سنة ١٨٤٦م مع ابراهيم باشا وشاهد الحفاوة العظيمة التى اعدها له لويس فيليب ملك فرنسا، ثم منحه هذا الوسام[٨٥] .

أما بداخل الخرطوش. فيوجد ست عناصر زخرفية رمزية هى كالآتى:

فى الصف الأول على اليمين من أعلى : (١) "طاحونة الهواء" ترمز لمسـقط رأس ابيه (الريفيه)، ثم على اليسار (٢) "هلب المركب" وفوقه مدفعان متقاطعان كتذكـار للبحرية الحربية كأول أعمال سليمان باشا. وفى الصف الثانى فى الوسط يوجد رسم واحد (٣) "النسر الامبراطورى" رمز لفرقة الفرسان الخفيفة حيث عمل سليمان باشـا فيها. ثم الصف الثالث من اليسار (٤) "الهلال وبداخله" ثلاث نجوم وهى العلامة التى تشير الى رتبته العسكرية[٨٦] (اى الفريق) او امير ميران، ثم فى الوسط (٥) وسام من الفضه والمينا الملونة الليخون دينور الضـابط الكبـير، أو وسـام الشـرف العسكرى الفرنسى الذى منحه له نابليون عندما كان يخدم فى جيشه، ثـم (٦) فـى اليسار "البرجل والمثلث" رمز لاركان الحرب (القيادة العليا) (رئيس رجال الجهادية)، ومعهم "سيفان مقوسان" رمز للانتصار فى سورية.

وكان يحيط بالسلاملك وحديقته سور من الحديد (لوحـة ١) يحيـط حاليـا بالضريح فقط (شكل ٤) (لوحة ٦).

اما الحرملك والذى كان يقع فى اتجاه الشرق، ويفصله الشارع عن السلاملك، فقد كان بناء كبير طلى باللون الأبيض، وشيد فى حديقته ضريحـى سـليمان باشـا وزوجته، وكان يقع الى الجنوب منه المسجد ذو المئذنة المتوسطة[٨٧] الارتفاع (شكل ٥) (لوحة ٧).

<u>٣- المئـذنـة (اثر رقم ٦٣٣) :</u>

<u>الموقـع:</u>

من المرجح ان سليمان باشا قد شيد جامعا صغيرا بجوار القصر اندثر حاليـا ولكن ما زالت مئذنته باقية حتى الآن تطل على شارع كورنيش النيل وبجوارها يوجد

مسجد صغير جديد شيد فى موضعه يعرف بمسجد سليمان باشا.

الوصف المعمارى : (لوحة ٧) (شكل ٥)

هى مئذنة قلميه تمثل الطراز العثمانى المحلى فى مصر، وقد شيدت من الاحجار، ومتوسطة الارتفاع، وتتكون المئذنة من ثلاث طوابق، الطابق الاول: يتكون من مربع خالى من الزخارف ولكن يوجد فى كل ضلع من اضلاعه الاربعة نصف قطاع عمود دائر مدمج ينتهى من أعلى بصفين من المقرنصات ويبلغ ارتفاع هذا الطابق حتى بداية الشطف الموجود فى الطابق الثانى (٥٠ر١٠م). وتوجد فتحة واحدة للمدخل فى الضلع الجنوبى تؤدى الى سلم داخل المئذنة.

اما الطابق الثانى فيبدأ بشطف ليحول هذا الطابق الى مثمن وهذا المثمن يوجد به فتحة مدخل واحدة، وفى الضلع المقابل توجد فتحة نافذة على هيئة نجمة سداسية الرؤوس وينتهى هذا الطابق من أعلى بأربع صفوف من المقرنصات كاكابولى يحمل شرفه بارزه لها درابزين ومن الخشب، ويبلغ ارتفاع هذا الطابق حتى بداية ارضية الشرفة ٢٠ر٧م .

والطابق الثالث مثمن التخطيط ايضا ويتخلله فتحة مدخل واحدة وقد زخرف كل ضلع من اضلاعه الثمانية بزخرفة قالبيه بارزة (جفت لاعب) وينتهى بالقمة المخروطية (المدببة) وارتفاع هذا الطابق حتى بداية القمة المدببة يبلغ نحو ر٧م.

٤- الضريحان (أ ضريح سليمان باشا)

الموقع

يقع الضريح حاليا فى قسم مصر القديمة ، فى شارع صغير متفرع من شارك كورنيش النيل يعرف باسم "شارع محمد فؤاد جلال" وينتهى هذا الشارع

بميدان صغير يعرف ايضا باسم "ميدان محمد فؤاد جلال" وعلى نفس هـذه اللوحـة مكتوب (ميدان سليمان باشا سابقا) وفى وسط هذا الميدان نجد فناء يتوسطه ضريحان ومحاط بسور من الحديد (شكل ٤) (لوحة ٦) ، الضريح الذى يتوسط الفناء تماما هو ضريح سليمان باشا، وفى الركن الشمالى الغربى منه نجد ضريح ثان هـو ضريـح زوجة سليمان باشا.

<u>التخطيط</u>

(شكلى ٧،٦) يمتاز ضريح سليمان باشا بتخطيطه المثمن كطراز الاضرحـة التركية[٨٨]. ويمكن الدخول اليه من خلال فتحة باب واحدة تتخلل السور المحيـط بالفناء الذى يتوسطه الضريح وهذا المدخل بمستوى أرضية الشارع يؤدى الـى درج مكون من خمس درجات يهبط الى الفناء ويؤدى للضريح، والضريح نفسه مرتفع عن ارضية الفناء ويصعد اليه بعدد سبع درجات سلم (لوحتى ٨، ٩) عرض كـل درج منهم ١٢ر٢م ويحيط بالدرج درابزين من الرخام الابيض ارتفاعه ٥ر١م وعرضـه ٥ر٨٥سم يؤدى هذا الدرج الى رواق او ممر مكشوف مثمن الشكل يحيط بجـدران الضريح، يبلغ عمقه ٢٦ر٢م وطول ضلعه ٤٠ر٢م وتغطيه سقف خشـبى مسـطح مزخرف بزخارف نباتية منفذة بأسلوب اوربى (لوحة ١٠) يرتكز على اعمدة حديدية (لوحتى ١١،١٢) وللرواق سور من الحديد يبلغ ارتفاعه ٥ر٦٦سم ، ويفتح الـرواق على الخارج فى كل ضلع من اضلاعه الثمانية بعقد مفصص من ثلاث فصوص مـن الحديد وكوشتى كل عقد من عقود المثمن يتخللها زخرفة نباتية (ارابيسـك) مفرغـة (لوحة ١٣) من النـوع الذى شاع فى الزخرفة النباتية التركية ولكن يتخللها نجمـة خماسية تتخلل ايضا السـور المعدنى المحيط بالفضاء. ويسـتند سـقف الـرواق بالاضافة الى الاعمدة المعدنية التى تتخلل السور، على أعمـدة معدنيـة تسـتند على جدران الضريح وعددها ثمانية، ويعلو العقود المفصصة ثـلاث اطـارات

معدنية، يظهر من زخارف الاطار الثانى عناصر هندسية اوربية ثـــم ينتـــهى هـــذا السقف بشــــرافات معدنية مفرغة، ولكنها قريبة من شكل الشرافات الحجرية فـــى كتلة المدخل (لوحة٣).

وخلف الشرافات المعدنية السابقة، يرتد البناء الى الداخل بمســــافة تسـاوى عرض الممر، ثم تبدأ منطقة الانتقال المثمنة ويفتح فى كل ضلع من اضلاعها نــافذة معقودة، ويعلو النوافذ صفين من المقرنصات ، يليها رقبة القبة الخشبية المســـتديرة، وقد سقطت اجزاء كثيرة من هذه الرقبة، ويتبين من الاجزاء الباقية انه كان محفــوراً عليها حفراً بارزاً بالخط العربى آيات قرآنية من سورة الكرسى وزخرفة رقـــاب القباب بآيات قرآنية بالخط العربى هو أسلوب محلى زخرفت به كثير من رقاب قباب القاهرة [٨٩] – ثم نجد خوذة القبة الخارجية الخشـــبية[٩٠/أ] وهـــى نصـــف دائريـــة زخرفت من الخارج بتقسيمها الى مناطق زخرفية تشع من قطب القبة، وقـــوام هـــذه الزخرفة عناصر هندسية منسقة بطريقة غير مألوفة فى زخرفة قباب القاهرة، ويعلـــو قطب القبه قمة بصليه ودوائر معدنية.

ويحيط الرواق المكشوف بجدران الضريح المبنى بكتل حجرية مشذبه، وهـــو مثمن التخطيط ، طول ضلعه من الخارج ١٠ر٢م ، يفتح فى أربعة من اضلاعه باب معقود بعقد مدبب يغلق عليه بضلفتى باب من الحديد المزخرف والمفرغ والمعقــــود من أعلى، سعته ٣٠ر١م، ويوجد فى الاضلاع الاربع الاخرى دخله معقودة، ضحلـــة العمق عمقها ٥ر١٢ســـم كمضاهيـــة واتســـاعها ٢٧٥ر١م . وتعتقـــد بعـــض الآراء[٩٠/ب] أن وجود الرواق المغطى الذى يتقدم ويحيط بالبناء كلـــه مـــن الخـــارج مأخوذ عن الحدائق الأوربية ذات الإيحاءات الشرقية .

<u>وصف الضريح من الداخل:</u>

يبلغ طول ضلع مثمن الضريح من الداخل ٧٠ر١م ، تتوسطه تركيبه

رخامية موضوعة فوق غرفة دفن جثمان سليمان باشا، وهذه التركيبـــة تكـــاد تمـــلأ الضريح من الداخل الا من ممر يتراوح عرضه ما بيـــن ٩٧ : ٣٩ر١م، ولا يوجـــد بداخل هذا الضريح حنية محراب او ما يشير الى اتجاه القبله، ربما بســـبب ضيـــق المكان الذى لا يتيح لاحد ان يصلى فيه، وهو بذلك يختلف عن الاضرحة العثمانيـــة مثمنة التخطيط والتى لا بد ان تحتوى على حنيه محراب تشير الى اتجاه القبلة بداخل الضريح .. ربما لأن مهندس الضريح اوربى لم يدرك اهمية وجود المحـــراب فـــى الاضرحة الاسلامية، او يحتمل ان المهندس قد أكتفى باداء الصـــلاة فـــى المســـجد القريب من الضريح والمنسوب بنائه لسليمان باشا. فـــالذى قـــام بوضـــع التصميـــم الهندسى للضريح وبنائه هو المعمارى المهندس كارل فـــون دايبتـــش Carl Von Diebitsch وهو بروسى الأصل المانى الجنسية درس العمارة الإسلامية ، وتـــأثر بالزخرفة الاندلسية التى اتضحت فى التعبيرات الزخرفية فى تيجان الأعمدة الحديديـــة وفى زخرفة الضريح من الداخل [٩١/أ].

<u>زخرفة جدران الضريح من الداخل:</u>

أمتازت الزخرفة المستخدمة سواء فى سقف الرواق الخشبى من الخـــارج او زخرفة القبة الخارجية او زخرفة جدران الضريح من الداخل باستخدام الفنان عناصر زخرفية اسلامية بنائية وهندسية ومجردة .

فقد قسمت زخرفة جدران الضريح من الداخل الى اربعة اقســـام زخرفيـــة: القسم الأول من اسفل (لوحة ١٤) كسى بالرخام الخردة الملون بارتفـــاع ٦٧ ســـم ، وقوام زخرفته اشكال سداسية متداخلة تحصر بينها نجمة سداسية الرؤوس ، ويعلوهـــا اطار من الرخام الخردة الملون مكون من نجوم سداسية الرؤوس.. ثم يليـــها القســـم الثانى وقوام زخرفته زخارف جصيه محفورة حفراً بارزاً من اللون الأبيض لاشـــكال معينات بداخلها نجوم صغيرة ثم يليها القسم الثـــالث (لوحـــة ١٥) وقـــوام زخرفتـــه

زخارف جصيه محفورة حفرا بارزا لاشكال بيضاوية تشبه البخارية المكررة وتضم بداخلها زخرفة نباتية (ارابيسك) يتخللها دوائر بارزة مذهبة. ويلى ذلك القسم الرابع وقوام زخرفته - ايضا - زخارف جصية بيضاء محفورة حفرا بارزا لاشكال هندسية متعددة الاضلاع يتوسطها اجزاء مذهبة. ثم يلى ذلك زخرفة رقبة القبة المثمنه، ويزخرفها زخارف جصية بيضاء محفورة حفرا بارزا لرسوم عقود نصف دائرية ترتكز على اعمدة صغيرة مخلقة، وقد زخرف باطن العقد بشكل نجمة ثمانية الرؤوس مرسوم بطريقة هندسية بأسلوب اوربى شاع فى زخرفة كنائس عصر النهضة الاوربية، وبين كل عقدين مصمتين عقدا آخر ملأ تجويفه بالزجاج المعشق للاضاءة، اما المنطقة المحصورة بين الاعمدة الحاملة لهذه العقود فقد زخرفت بزخارف هندسية بارزة ، ويتخللها اجزاء مذهبة. ثم يلى ذلك صفين من المقرنصات ثم زخرفة باطن القبة من الداخل ويزين قطب القبة (لوحة ١٦) زخرفة جصية بارزة مذهبة لشكل زهرة يخرج من حولها فصوص اشعاعية، بداخل كل فص وحدة زخرفية مكررة، وقوام زخرفة هذه الوحدة أشكال هندسية ومجراة منسقة بطريقة اوربية ويتخللها اجزاء مذهبة.

ولا شك ان زخرفة ضريح سليمان باشا تأثرت بصفة خاصة بفن الباروك فى المشغولات الحديدية فى الاعمدة والأبواب والعقود وكوشات العقود والاسوار فقد انتشر فى فن الباروك مشغولات الحديد فى القرن السابع عشر الميلادى فى عهد لويس الرابع بفرنسا، وانتقل من فرنسا الى البلدان الاوربية. والمشغولات المعمارية فى هذا الضريح صممها كارل فون دايبتش ونفذها كقطع معدنية سابقة التجهيز حيث صبت من الحديد فى مسبك ilsenburg فى ألمانيا ثم قام بتركيبها فى موضعها من البناء بمصر القديمة [٩١/أ] .

التركيبة الرخامية

يتوسط الضريح تركيبه رخامية مألوف شكلها على القبور الاسلامية فى البيئة المحلية.(٩٢) والتركيبة مصنوعة من الرخام الابيض وتتكون من جزئين اطوالهما كالاتى: الجزء الأول من اسفل ٣٠ر١م × ١٤ر٢م وارتفاعها ٨٠سم ، ويزخرف جوانبها زخارف نباتية محفورة فى الرخام، ثم يعلوها مباشرة الجزء الثانى ويرتد الى الداخل بمقدار ٢٧سم وأطواله ٧٥سم × ٥٩ر١م وأرتفاعها ٧٧ سم ويزخرف جوانبها كتابات عربية بالخط النسخى محفورة حفراً بارزاً فى الرخام، وهذه الكتابات تتضمن البسم لله وآية الكرسى .. ثم يعلو هذه التركيبة الثانية شاهدين، الشاهد الأول فى مواجهة الداخل من الباب المفتوح حاليا من الجهة الغربية، محفور عليه فى الرخام كتابات بالخط العربى النسخى فى سبعة اسطر نصها كالاتى: (لوحة ١٧):

١) ها هنا قد توى امير جليل ٢) بعد أن شاد منصبا منذ عاش

٣) فى سبيل الاسلام لم يبال جهدا ٤) بجهاد قد زاد مصر انتعاشا

٥) فلذا قالت العنايه أرخ ٦) فى جل رحمة سليمان باشا

٧) ١٢٧٦ (هجريا (١٨٥٩م))

ويعلو قمة هذا الشاهد طربوش محفور فى الرخام وحفر اسفله هلال مرصع بداخله ثلاث نجوم رمزا الى اعلى رتبة عسكرية وصل اليها سليمان باشا وهى "امير ميران".

ب) ضريح زوجة سليمان باشا

على مقربة من ضريح سليمان باشا السابق ، فى الركن الشمالى الغربى، يوجد ضريح ثان هو ضريح زوجته ومعتوقته "مريم البيضا" ، وجاء التخطيط العام لهذا الضريح يشبه عدد كبير من الاضرحة الاسلامية التى عرفتها مصر منذ العصور

الاسلامية الاولى، فهو مربع الشكل تغطيه قبة (لوحة ٦) (شكل ٦،٧) والضريح مرتفع يصعد اليه بعدد خمس درجات سلم، عرض كل درج منهم ١٠ر١م، يؤدى الى ممر مكشوف يتقدم الواجهة الرئيسية للضريح فقط، اتساعه ١٠ر١م وله درابزين مبنى من الكتل الحجرية المغطاة بعدة طبقات من الجص، ويرتفع الدرابزين بمحاذاة الدرج بمقدار ٨٦ سم ، ثم يزداد ارتفاعه بمحاذاة الواجهة بالكامل بارتفاع ٤٧ر١م وعرض الدرابزين ٥٨ سم ، يبلغ طول ضلع الضريح من الخارج ١٦ر٥م ، ويتوسط الواجهة الرئيسية فتحة باب معقودة بعقد مدبب يبلغ أتساع فتحته ٢٥ر١م، يغلق عليه ضلفتى باب خشبى حديث خال من الزخرفة.

والضريح بنى من الحجارة المغطاة من الداخل والخارج بطبقات متعددة من الجص وجدرانه الخارجية خالية تماما من أية زخرفة.

<u>وصف الضريح من الداخل</u>

الضريح من الداخل مربع التخطيط طول ضلعه ٨٢ر٣م بخلاف الضلع الشمالى الغربى الذى يوجد به المدخل الرئيسي، فالاضلاع الثلاث الاخرى يتوسط كل منها فتحة نافذة معقودة بعقد مدبب أتساعها ١٢ر١ م وارتفاعها ٧٥سم عن سطح الارض ويبلغ ارتفاع فتحة النافذة ٢٦ر٢م .. والضريح مطلى من الداخل بطلاء جص ابيض خالى من الزخرفة، وتوجد باركان الضريح حنايا ركنية كمنطقة انتقال لتحول المربع الى دائرة لاقامة القبة (لوحة ١٨) ويوجد أعلى الحنايا الركنيه زخرفة جصيه بسيطة، وتغطيه قبه خالية من الزخرفة، وفى بداية دائرة القبة توجد أربع نوافذ صغيرة معقودة ، كل نافذة توجد فوق النافذة الكبيرة اسفلها او الباب.

<u>التركيبة الرخامية (لوحة ١٩)</u>

يتوسط الضريح من الداخل تركيبة رخامية مكونة من جزئين ، الجزء الأول من اسفل اطواله ١٤ر٢م × ٣٢ر١م وارتفاعه ٨٧ سم ، ثم يدخل القسم الثانى الى

الداخل قليلا بمقدار ١٣سم سم وارتفاع هذا الجزء ١ م حتى نهاية الشرافات الجميلة التى ينتهى بها هذا الجزء من التركيبة وقد زخرفت جوانب التركيبة بجزئيها بزخارف كتابات قرآنية ونباتية مذهبة، ويتقدم هذه التركيبة من الجهة الغربية شاهد قبر يعلوه طاقيه مزخرفة بتاج من أوراق الشجر النباتية المذهبة وطول الشاهد ٢٠ر١م وعرضه ١٨سم ، عليه كتابات عربية بالخط النسخى فى ٨ أسطر نصها كالاتى:

١) يا زايرا قبرى مشتاقا
٢) لا تتسنى من دعوة صالحه
٣) أبسط يديك الى السما
٤) واقرأ لروحى الفاتحة
٥) ها هنا قبر المرحومة حرم المرحوم
٦) سليمان باشا رئيس رجال
٧) جهادية الحكومة المصرية
٨) سابقا توفيت فى ٢٣ رمضان سنة ١٣١٢ (هجريا/ ١٨٩٤م)

<u>ب) التحف المنقولة:</u>

<u>١- الصور الجماعية والشخصية لسليمان باشا</u>

وصلنا عن هذه الشخصية المؤثرة فى حضارة مصر فى عصر محمد على عدد من الصور الجماعية والشخصية يمكن تصنيفها الى ثلاث نماذج هى:

١- الصور الضوئية الجماعية والفردية.
٢- الصور الجماعية المرسومة.
٣- الصور الفردية المرسومة.

<u>١- الصور الضوئية الجماعية والفردية</u>

نشأ التصوير الضوئى (الفوتوغرافى) فى عام ١٨٣٩م فى فرنسا على أيدى

ينسيفورينيس وجاك مانديه داجير مرهصا بظهور امكانات لا حدود لها فى مختلف المجالات الحضارية . ووفد عدد من المصورين الضوئيين أو الفوتوغرافيين على مصر وهم من الرسامين او الكتاب الذين فطنوا مبكرا الى ما تحمله آلة التصوير الجديدة من امكانيات امثال المصور هوراس فرنيه وجيرارده نرفال ومسكيم دى كان.[٩٣]

وقد وصلتنا بعض الصور الضوئية لسليمان باشا[٩٤] (لوحتى ٢٠، ٢١).. وفى اللوحة (٢) نجد سليمان يجلس على مقعد تحت احد الاشجار فى حديقة منزله وتستند اليه ابنته (نازلى)، وخلفه يقف احد الخدم ويمسك بمذبه ، ومن الملاحظ ان سليمان باشا يبدو وهو قصير القامة وذو اكتاف عريضة ومكتنزا قد ارتدى البدلة الاوربية، وعلى رأسه الطربوش التركى أبو زر ، وعلى صدره وساميه ، وعلى كتفه عباءة عربية، ورغم كبر سنه فى هذه الصورة الا اننا يمكننا ان نستشف منها بعض مميزات اخلاقه التى سبق وتحدثنا عنها مثل الهدوء والصرامة، كما يلاحظ قسمات وجه ابنته نازلى فهى ذو جمال اوربى آخاذ وترتدى ثيابا غير واضح تماما طرازها، ولكنها محتشمة كالزى العربى تمتد حتى نهاية اقدامها وعلى كتفيها ايضا عباءة عربية، فى حين ان الخادم يرتدى السروال العربى المنتفخ والصديرى والحزام العريض والطربوش التركى.

اما الصورة الضوئية ، (لوحة ٢١) فهى صورة شخصية فردية لسليمان باشا وهو متكئ على اريكة تحمل زخارف من الرقش العربى، ويرتدى ثيابا اوربية ويحمل على صدره ثلاثة اوسمه، هى الهلال والثلاث نجوم شارة الميرميران، ووسام الليخون دينور، ووسام الليخون دينور الذى منح له للمرة الثانية. ويحمل فى يده لفافة ورقية عليها كلمة "نزيب" ربما تشير الى خريطة معركة نزيب وفى اليد الأخرى يمسك سيفه، ويرتدى الطربوش التركى. وتظهر قسمات وجهه العريضة وعليها ابتسامة

خفيفة، وله عيون من اللون الفاتح – زرقاء ـ كسحنة أغلب الاوربين وشارب.

لقد ساعدتنا الصور الفوتوغرافية السابقة ان نتحقق من مدى تطابق الصــــور الشخصية التى رسمها الفنانون الاوربيـــون وخاصـــة الفرنســيون لســليمان باشـــا الفرنساوى.

٢- الصور الجماعية المرسومة:

نظرا للمنصب الهام والخطير الذى كان يتبوء سليمان باشا فى مصــــر، فــهو يعتبر الرجل الثالث المهم فى القيادة المصرية فى ذلك الوقت بعد محمد على وابراهيم باشا لذلك كثيرا ما اجتمع سليمان باشا مع محمد على او مع ابراهيم باشا او يجتمــــع الثلاثة معا فى مواقف متعددة سرعان ما كان يسجلها الفنانين الاوربيون فى لوحاتهم.. ومن أمثلتها (لوحة ٢٢)[٩٥] من عمـــل الفنـــان سيجســـموند هميلـــى (Sigismond Himely) ، الذى ولد فى سويسرا، وعمل فى باريس (١٨٠١ ١٨٧٢) فقد جمــــع محمد على وابراهيم باشا وسليمان باشا فى لوحة واحدة وهم على ظــــهور خيولـــهم يتجولوا امام القوات المصرية، ووسط اهل مصر فى مهابة ووقار وفيها يظهر محمــد على وابراهيم ملتحيان فى حين ان سليمان باشا له شارب فحسب، والثلاثة يرتـــدون الطرابيش ويمسكون فى ايديهم بزمام الخيل، وفى مقدمة التصويره على اليسار نجـــد فتاة عارية حتى خصرها الذى يستره جونله شفافة ربما تمثل مصر القديمة ويظـــــهر فى خلفية التصويره مسجد السلطان حسن بقبته ومئذنتيه والاهرامات الثلاثة.

ولا شك ان التأثير الاوربى الواقعى المحاكى للطبيعة ظهر تأثيره الكامل فـــى طريقة تصوير هذا المنظر المعبر عن مشهد تاريخى فى البيئة المصرية.

٣- الصور الفردية المرسومة:

بلغ من تأثير شخصية سليمان باشا الفرنساوى حدا أن انفعل بها كثــــير مـــن

الفنانين الاوربيين فأرادوا – فيما يبدو – ان تخلد اسمائهم فى التاريخ من خلال خلود هذه الشخصية فرسموا لها العديد من الصور الشخصية [٩٦] النصفية.

فقد رسمه الفنان لويس دوبريه Louis Dupre المتوفى سنة ١٨٣٧م على فازة من الزجاج البوهيمى محفوظة فى مجموعة لاسيرى (Lasseray) [٩٧].

كما رسمه الفنان اشيل ديفيريا (Achille Deveria) المولود ١٨٠٠م[٩٨] ، فقد ترك هذا الفنان مؤلفا يحتوى على اربعين صورة لمصر، منها صورة بالالوان لسليمان باشا، وهى من الصور القليلة التى اهتمت بتصوير سليمان باشا فى صباه[٩٩] ، على هيئة صورة نصفية لشاب جميل له سحنة أوربية وعيون ماكرة، يرتدى ملابس شرقية الطراز، وهى صورة تكاد تكون طبق الاصل من الصور الفوتوغرافية السابق الاشارة اليها مع فارق التعبير عن تأثير الزمن على ملامح السحنة البشرية، وفيها يظهر الشارب، والطربوش التركى والقميص الذى يحيط بالرقبة، ويحتوى على سبعة عشر زرارا صغيرا مستدير الشكل (كالقفطان) ، ويرتدى فوقه جاكيت او صديرى، وعلى صدره ثلاثة أوسمة هى وسامي الليخون دونيور ، والثالث وسام رتبة امير ميران.

كما رسم له الفنان (١٨٤٧م) مكسيم دافيد (Maxime David) (١٧٩٨-١٨٧٠) صورة نصفية بالالوان وصفها جوستاف بلانش (Gustane Planche) بانه استطاع ان يمزج فيها السعادة والدقة[١٠٠] .

وفى وضع شبيه بالصورة السابقة، رسمه ايضا الفنان هوراس فيرنيه (سنة ١٨٤٠م) Horace Vernet (لوحة ٢٣) وهى محفوظة حاليا فى مجموعة شريف صبرى. وقد جاء هذا الفنان مصر سنة ١٨٣٩م[١٠١] . وفى هذه الصورة يبدو سليمان باشا وقد تقدمت به السن ولكن يرتدى نفس الملابس السابق الاشارة اليها فى الصور السابقة وان كانت التفاصيل غير واضحة ، وظهور وسامين فقط على صدره،

ونجح الفنان فى هذه الصورة ان يبرز المكر والدهاء الشديد فى نظرات عينيه مع السخرية والثقة بالنفس وقوة البأس[١٠٢] . وقريبا من هذه الصورة الاخيرة رسمت الصورة المرفقة فى احد الكتب التى كتبت فى ليون عن سليمان باشا (لوحة ٢٤) وهى صورة مرسومة باللون الاسود فقط.

لا شك ان كل هذه الصور الشخصية نفذت بايدى اوربيه ومن ثم ظهر فيها التأثير الاوربى واضحاً من حيث طريقة التناول والواقعية الشديدة المحاكية للطبيعة بكل تفاصيلها مع الاخذ فى الاعتبار الدراسة الدقيقة لتأثير الضوء والظل.

٢- تمثال سليمان باشا الفرنساوى: (لوحتى ٢٥ ، ٢٦)

ظهر التأثير الاوربى[١٠٣] بشكل واضح على التمثال الذى صنع لسليمان باشا الفرنساوى إذ يرجع الفضل لاسماعيل باشا فى وضع تماثيل لاشهر الشخصيات التاريخية فى الميادين[١٠٤] ، أسوة ببلاد أوربا. فوضع لسليمان باشا تمثالا فى نفس الميدان الذى كان يطلق عليه اسمه فى وسط القاهرة حاليا .. ميدان طلعت حرب.. والتمثال محفوظ فى المتحف الحربى بالقلعة، وقد صنعه (١٨٧٤م) الفنان الفرنسى هنرى الفريد جاكمار[١٠٥] Henri Alfred Jacquemart (١٨٢٤ ١٨٩٦م).

والتمثال مصنوع من معدن النحاس ، وهو يصور سليمان باشا صورة حقيقية كاملة بالحجم الطبيعى وواقعية تماما لجسمه وقامته وشكله وطباعه وملامحه، وهو يقف مرتديا ملابسه العسكرية ، ويلوى جسده للخلف التواء بسيط، بحيث تتقدم احد اقدامه للامام عن الاخرى. ومثل هذه الوقفة فى صناعة التماثيل المعدنية تعد من أصعب وأشق الأوضاع فى تصوير جسم الانسان بالنحت . لقد استطاع الفنان ان يعبر تعبير محاكيا للطبيعة عن قسمات وجهه، بل نجح فى ان ينقل الينا انطباعا عن مميزات اخلاقه وخشونته العسكرية مع ذكائه ودهائه من خلال نظرات عينيه.

والملابس العسكرية التى يرتديها سليمان باشا فى هذا التمثال، كملابس الجيش

المصرى فى ذلك الوقت، والتى كانت تتألف من طربـــوش احمـــر وســـترة ضيقـــة (صدرية) محشورة فى السروال، وبنطلون (سروال واسع) ، ومنطقـــة (تكـــه) مـــن القماش تشد على الخصر ورباط للساق (طوزلق) القلشين وحذاء وكانت تصنع هذه الملابس فى الصيف من قماش قطن سميك، وفى الشتاء من الجـــوخ. وكـــان نظـــام الالبسه يتبعه الضباط ويختلف نوعه باختلاف رتبة الضباط من حيث نـــوع الخـــوج وانواع الشارات العسكرية(١٠٦) وما يزينه من ضروب التطريز، ويزيد عـــن كســـوة الجنود بصدريه ذات ازرار يلبسونها تحت السترة، وهذه الملابس كانت تتناسب مـــع الزى الوطنى للملابس المصرية وقريبة الشبه بالشكشير التركى(١٠٧) .

والوصف السابق ينطبق على الزى الذى يرتديه سليمان باشـــا فـــى التمثـــال (لوحة ٢٥) ولكنه يرتدى فوق الصديريه جاكت مبطن بالداخل من الفرو ويظهر لنـــا ذلك من التواء طرف الجاكيت للخارج، ولنفس الجاكيت غطاء مدبب للرأس ينســـدل خلف ظهر سليمان (لوحة ٢٦) كما يرتدى فى اقدامه حذاء برقبة طويلة ويمسك فـــى يده اليمنى السيف المقوس ، وتلتف يده اليسرى خلف الظهر وتقبض علـــى المنظـــار الحربى (لوحة ٢٦)، ويظهر الشارب فى وجه سليمان وقســـمات وجهـــه ومكـــره ودهائه وثقته بنفسه تظهر من خلال هذه الوقفة الجسورة الثابتة كما يظـــهر جســـمه البدين واكتافه العريضة مع قصر قامته ويبدو مدى تفوق المثال فى التعبير حتى عـــن طيات السروال والتواء جلد رقبة الحذاء، حتى ذر الطربوش يظـــهر وقـــد تطـــايرت اجزاء منه بدقة متناهية(١٠٨) .

لا شك ان التأثير الأوربى لعصر النهضة واضح فى صناعة هذا التمثال حيث كان يستلهم عصر النهضة الفنون اليونانية لانه حتى الفن الاسلامى وهو فن زخرفـــى ابتعد بسبب قضية كراهية التصوير فى الاسلام عن التماثيل المستقلة فلم يصلنا منـــها الا النادر.

خـــــاتمـــــة:

وهكذا يمكننا ان نقرر بأن الحضارة التى بدأت فى عصر محمد على امكـــن تحليلها الى ثلاث عناصر رئيسية هامة هى: العنصر الاوربى، والعنصــر الـتركى، والعنصر المحلى المصرى.

ولكى ندلل على صحة هذا التحليل الحضارى طبقناه على مجموعة متنوعــة من الآثار المادية المعمارية والفنية المتخلفة عن شخص واحد، هـــو سـليمان باشـا (١٧٨٧ ١٨٦٠م) الفرنسى الاصل الذى اسلم فى مصر ، فهو شخصية لا يسـتهان بها، إذ يعد من أهم واشهر رجال عصر محمد على ، ويكفى انه اثــر فــى الاطــار الحضارى الحربى لمصر فى ذلك الوقت عندما وضع الاسس والقواعد الهامــة فى تأسيس العسكرية المصرية الحديثة.

ولقد تبين لنا من خلال تطبيق التحليل الحضارى السابق على آثــار سـليمان باشا المعمارية، انه احيانا كانت تتفاعل العناصر الثلاثة فى اخراج نماذج فنية ، تؤكـد لنا صحة هذا التحليل مثل ضريح سليمان باشا الفرنساوى ، فهو ذو تخطيط معمــارى مثمن ماخوذ عن طرز الاضرحة التركية - وان كان هذا التخطيط لـــم يكتــب لــه الاستمرار فى البيئة المحلية - وجاءت الزخارف بأنواعها سواء المحفورة او المفرغة فى الاجزاء المصنوعة فى الضريح من المعدن كالأســـوار والاعمــدة والدرابزيــن والعقود، بالاضافة الى الزخارف الخشبية فـــى القبــة الخارجيــة وســطح الــرواق المكشوف، والمناظر التصويرية المرسومة على الجدران الداخلية للقصر، كل ذلك نفذ بأسلوب فنى أوربى.

وظهر التأثير المصرى المحلى فى استخدام الزخارف النباتية الجصية، وفـــى اقامة التركيبة الرخامية داخل الضريح فوق غرفة الدفن مزينة بالخط العربى.

واحيانا كانت العناصر الثلاث السابقة تظهر منفردة تماما وبخاصة الاوربيــة،

ففى موضوع هذه الاطروحة جاءت الصور الجماعية والشخصية والتمثال لسليمان باشا منفذة إما بآلة اوربية (كآلة التصوير الضوئى) او مرسومة أو منحوتة بأيدى أوربية وبأسلوب فنى اوربى كالصور الجماعية والشخصية المرسومة والتمثال المعدنى.

وظهر التأثير المصرى المحلى منفردا تماما فى المئذنة المنسوبة لسليمان باشا بمصر القديمة، وفى تخطيط وبناء ضريح زوجته مريم.

وظهر التأثير التركى فى احاطة القصور من الخارج بالحدائق الكبيرة كحديقتى قصر سليمان باشا .

ان الدراسة المتأنية خلف صياغة هذا البحث قد اثبتت انه يمكن تطبيق هذا المعيار على كل ما وصلنا من آثار حضارية من عصر محمد على وخلفائه وأن آثار سليمان باشا الفرنساوى المعمارية والفنية حملت فى طياتها الملامح الأولى للتحديث الذى بدأه محمد على وظل يتصاعد فى عصور خلفائه .

لقد اعتادت مناهج البحث الاثرى دراسة الاثار المعمارية والفنية لشخصية بعينها،بطريقة تقليدية تعرض لتاريخ حياة الشخصية ثم دراسة آثارها، لكنى حاولت ان اضيف اليها جديدا من خلال رؤية منهجية غير تقليدية تتمثل فى ايجاد نظرية حضارية لها مقدمات ثم تحليل يعتمد على الدليل الاثرى ثم الانتهاء باستخلاص النتائج المؤكدة لصحة المقدمات، فأرجو ان اكون قد وفقت فى هذا .

وقد تم الاستعانة بتوضيح متن هذا البحث بعدد سبعة أشكال، منهم ست اشكال تنشر لأول مرة علميا، وعدد ستة وعشرين لوحة منها عدد واحد وعشرين لوحة تنشر لأول مرة.

المراجـــع

(١) تعريف الحضارة: هى ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياتـــه، سواء أكان المجهود المبذول للوصول الى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصـــود، وسواء اكانت الثمرة مادية أو معنوية.
حسين مؤنس: الحضارة دراسة فى أصولها وعوامل قيامها وتطورها. سلســـلة عالم المعرفة – الكويت . الطبعة الثانية ١٩٩٨ ، ص ١٥ .
(٢) الهام محمد ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشـر. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥ ، ص ٢٥ .
(٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العليـــه العثمانيه، مكتبـــة الاداب ١٨٩٦ ، ص ١٩٢ المســتر جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك الـــى نهايـــة حكـم اسماعيل، دار الفرجانى (القاهرة – طرابلس – لندن) بدون تاريخ ، ص ٦١.
(٤) عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على – مكتبـــة النهضـــة المصريـــة سـنة ١٩٥١، الطبعة الثالثة ص ١٦ ، جورج يانج : المرجع نفسه ، ص ٦٧ .
(٥) جورج يانج: المرجع نفسه ، ص ٦٧
(٦) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص ٣٨٢: ٣٨٦ .
(٧) عبد الرحمن الرافعى: المرجع نفسه، ص ٣٧٨
عبد الرحمن زكى: الجيش الذى قاده ابراهيم "فى ذكرى البطل الفـــاتح ابراهيـم باشا" الجمعية المصرية للدراسات التاريخيه "بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته" دار الكتب المصرية ١٩٤٨ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .
(٨) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ، تعريف : محمد مسعود ، (جزءان) مطبعـة أبى الهول، بدون تاريخ ، ح ١ ص ٣٨٠ – ٣٨١ .
(٩) الرافعى: المرجع نفسه، ٣٧٩ : ٣٨٠ / عبد الرحمن زكى، المرجع نفسه ، ص ١٣٤ .

(١٠) مثل نجاح الحملة المصرية على كريت واليونان فى موقعتى المورة ونفارين
راجع : الرافعى: المرجع السابق ص ٢٠٩ : ٢٤٤
ومثل أحتلال كوتاهيه ومغنيسيا وازمير. راجع: الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٩١

(١١) فقد استدعى محمد على من فرنسا القائد بوابيه Boyer والكولونيل جودان ونخبة من الضباط الاجانب وكان لهم أثر واضح فى تدريب الجيش الحديث.
عبدا لرحمن زكى: التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير.
دار المعارف بمصر ١٩٥٠ ، ص ١٦٦ .

(١٢) من امثلتها أنه عهد بتأسيس دار الصناعة بالاسكندرية لبناء السفن الحربية الى المهندس الفرنسى سريزى (Serisy) وأنشئت مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م بناءاً على اقتراح الضابط والطبيب (كلوت بك) عضو الاكاديمية الطبية فى باريس.
وأسند نظارة المهندسخانة ببولاق الى المسيو لامبير بك ١٨٤٩، راجع:
جورج يانج: المرجع السابق، ص ١٢٨ ، هامش ١ ص ٩٢ : ٩٣
الرافعى : المرجع نفسه ص ٤٦٧ : ٤٦٩

(١٣) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٥٩١

(١٤) الهام محمود ذهنى: المرجع السابق، ص ٩٢ .

(١٥) سمير عمر ابراهيم: الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ص ٣٨ : ٤٧ .

(١٦) عبد الرحمن زكى: التاريخ الحربى، ص ٩٨ ، ٩٩

(١٧) الهام ذهنى: المرجع نفسه ، ص ٢٣٦ .

(١٨) كلوت بك : المرجع السابق، ح ص ، ص ٣٣٠.

(١٩) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٣١ ، ٤٥١
عمر طوسون: الجيش المصرى البرى والبحرى، مكتبة مدبولى سنة ١٩٩٠، ١٧ ، هامش ١ ص ٦٧ ،

(٢٠) حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الاثرية، القاهرة ١٩٤٦ ، ١٩ ، ص ٣٧٨

(٢١) صلاح عاشور: القبة كعنصر مميز لفن العمارة الاسلامية مجلة "المجلة" العدد ٢٥ يناير سنة ١٩٥٩ ، ص ٦٣ .

(٢٢) راجع: الرافعى: المرجع السابق ، ص ٤٧٦ : ٤٩٧ .

(٢٣) الرافعى: المرجع نفسه ، ص ٤٧٧ .

(٢٤) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٥٤٤ – ٥٤٥ .

(٢٥) جورج يانج: المرجع السابق ، ص ٤٦١ / الرافعى: المرجع نفســه، ٥٤٦ – ٥٤٧ .

(٢٦) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٥٤٤ .

(٢٧) الرافعى: المرجع نفسه ، ص ٤٩٨ .

(٢٨) جورج يانج: المرجع نفسه، ص ٤٦٥ ، الرافعى ، المرجع الســـابق، ٥٤٥ : ٥٦٩ .

عبد الرحمن زكى: الجيش الذى قاده ابراهيم ، ص ١٧٧ .

(٢٩) كتب اسم سيف بعدة طرق فى المراجع الاجنبية كـــالاتى: Sève, Sèves, Selves, وبعدة صيغ هكذا : Soliman Pacha, Colonel Seve.

راجع: Carré (Jean – Marie): Voyageurs et Écrivains Francais En Égypté, le Caire 1932. (II Parts) . 1956

وهناك طبعة اخرى طبع الجزء الاول سنة ١٩٥٦ وهى التى رجعت إلى متنـــها (أما الصور فقد رجعت للطبعة الأولى) هامش ٣ Part 1, P. 208

(٣٠) جـــورج يانج: المرجع نفسه هامش ص ٩٠/ الرافعى: المرجع نفســه، ص ٣٧٩ يذكـــــــــر عمر طوسون انه ولد سنة ١٧٨٨م وان والده كان ملاحـــا . الجيش المصرى، ص ١٠ لكن الرافعى وجورج يانج ذكرا ان والده كان صانعا. راجع عصر محمد على ، ص ٣٧٩ ، تاريخ مصر ، هامش ص ٩٠ .

(٣١) Vingtrinier (A.) : Soliman Pacha, Layon, 1887, P. 31

(٣٢) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١١

(٣٣) جورج يانج: المرجع نفسه، هامش ص ٩٠ / الرافعى، المرجـــع نفســـه، ص ٣٧٩

عمر طوسون: المرجع نفسه، ص ١٢

(٣٤) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٢/ الرافعى: المرجع السابق، ص ٣٨٠

(٣٥) عبد الرحمن زكى: التاريخ الحربى ، ص ١٦١

(٣٦) عبد الرحمن زكى: التاريخ الحربى ، ص ٢٠١

(٣٧) عمر طوسون: المرجع نفسه ص ١٢، كلوت بك : المرجع السابق، ص ٣١٧

(٣٨) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣

(٣٩) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٢١ : ٢٤٣

(٤٠) راجع الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٥٢ ، ٢٧٨: ٢٨١ ، ص ٢٩٥ ، ٣١٦ : ٣٢٠ ، ٣٤٣

(٤١) الرافعى: المرجع نفسه ص ٣٨٠

(٤٢) هذا المنصب يعادل حاليا منصب وزير الحربية

(٤٣) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٣٨٠

(٤٤) الرافعى: المرجع نفسه، ص ٤٨٩ – ٤٩٠

(٤٥) كلوت بك: المرجع نفسه، ح ٢ ص ٣١٦

(٤٦) جورج يانج: المرجع السابق، هامش ص ٩٠

(٤٧) عبد الرحمن الرافعى: المرجع نفسه، ص ٢٨١

(٤٨) الهام ذهنى: المرجع السابق، ص ٧٥

(٤٩) الهام ذهنى: المرجع نفسه، ص ٩١

(٥٠) وسوف نعود للحديث عن باقية هذه الرسوم عند الوصف الداخلى للقصر

(٥١) سجل دوق دى راجوز هذه الرحلة فى مصنف بعنوان :
Voyage du Marrchal Marmont Duc du Raguse en Hongre en Transylvanie et en Egypte 1834 – 1835 , Paris 1837

(٥٢) كلوت بك : المرجع نفسه، ح٢ ص ٣١٧ – ٣١٨

(٥٣) راجع: Gaston wiet: Mahmmed Ali et les Beaux arts, Société Roy al D'études historiques, le Caire P. 244 بدون تاريخ

(٥٤) الهام ذهنى: المرجع السابق، ص ١٠٥ – ١٠٦

(٥٥) Carré: De la fin de la Domination turque à l'inauguration canal de suez (1840 – 1869), le Ceire 1959, part II , P. 25, 90
الهام ذهنى: المرجع نفسه ، ص ١٠٣ – ١٠٤

(٥٦) Vingtrinier: Op. Cit , P. 193

(٥٧) اطلعت وصورت هذه الوثيقة عند محمود طلعت الفرنساوى حفيد سليمان باشا من ابنته (زهرة هانم) وهى وصية من الزوجه لاولادها مؤرخة بـ ١٥ صفر سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) صادرة عن ديوان محافظة مصر المحروسة، والوثيقة مكونة من (١٤ صفحة) لم يتسع المجال لنشر هذه الوثيقة لكبر حجم البحث وسوف اقوم بنشرها مع وثائق أخرى له فى بحث مستقل.

(٥٨) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٣

(٥٩) نيللى حنا: مصر أم الدنيا . دار الفتى العربى (بدون تاريخ) ، ص ٨٠
كما أخذ محمد على بالنظام الاوربى فى وضع أرقام البيوت واسماء الشوارع على لافتات منذ سنة ١٨٤٧ . سمير عمر ابراهيم : المرجع السابق، ص ٩٧

(٦٠) على مبارك (باشا) : الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة عن طبعة بولاق ١٣٠٥م (الهيئة المصرية العامة للكتاب) صدر منه حاليا (١٣ جزء) ح١ ص ٢٠٩ .

(٦١) شارع كورنيش النيل حاليا ــ وهو المتجه الى المعادى.

(٦٢) الوثيقة (ص ١ : ٥) .

(٦٣) يعرف حاليا هذا الميدان باسم ميدان "محمد جلال" .

(٦٤) شارع محمد جلال حاليا، وهو الشارع الذى يبدأ من شارع كورنيش النيل وما زال يوجد لوحة على ضريح الزوجة مكتوب عليها "شارع سليمان باشا" .

(٦٥) راجع المقريزى: "تقى الدين ابى العباس احمد بن على" (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – طبعة بولاق ١٢٧٥ هـ (جزءان) ح٢ ص ١٤،٣،٢ .

(٦٦) راجع:Wiet: op. Cit, P. 248

Gabriel Guémard (M.) : Tombeau et les "Armes Parlants" De Soliman Pacha. B.I.E, Tom IX, 1926 – 27 le Caire 1927, P. 74

(٦٧) الوثيقة (ص ٥)

(٦٨) راجع عن مصر القديمة: حسن الباشا وآخرين : القاهرة تاريخها فنونها آثارها. الاهرام ١٩٧١، ص ٤٦ : ٥١

عبد الرحمن زكى: حواضر العالم الاسلامى. مكتبة الانجلو ١٩٧٩، ص ١٢٠

ايمن فؤاد سيد: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل. الجانجى بالقاهرة ١٩٨٨م ص ٣٢٦:٣٣٣.

(٦٩) عبد الرحمن زكى : الجيش الذى قاده ابراهيم ، ص ١٥٠ .

(٧٠) الوثيقة ص ٥ (شكل ٢) .

(٧١) راجع: Carre: op. Cit, pl p. 95 – 100

(٧٢) يقع هذا الدرج حاليا بالقرب من الكوبرى الخشبى الحديث عند بر مصر القديمة (هذا الكوبرى يصل بين بر مصر القديمة وجزيرة الروضة).

(٧٣) عن: محمود طلعت الفرنساوى (حفيد سليمان باشا) .

(٧٤) هذه البوابة الحجرية محفوظة حاليا فى فناء مدرسة ليسيه الحرية بالمعادى.

(٧٥) ثروت عكاشة: مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والادباء (القرن التاسع عشر) (جزءان) – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ح ٢ (لوحة دافيد روبرتس عن النيل وجزيرة الروضة).

(٧٦) سمير عمر ابراهيم: المرجع السابق، ص ٩٦ .

(٧٧) نيللى حنا: المرجع السابق، ص ٨٠ / سمير عمر ابراهيم: المرجع نفسه، ص ٩٧

(٧٨) راجع: اندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضره ــ ترجمة: لطيف فرج. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٤ ، ص ٢٦٤ .

(٧٩) Wiet: op. Cit, P. 243 L Guemard, op, cit , p. 741

(٨٠) اقدم أمثلة استخدام للعقود المتقاطعة فى زخرفة اطارات العقود فى مصر كان فى المدخل الرئيسى فى جامع الظاهر بيبرس ٦٦٥ – ٦٦٧ هـ / ٦٦ – ١٢٩٩م . راجع:

Creswell (K.A.C): The Muslim Architecture of Egypt. 2 Vols. Oxford 1959, vol 2, P. 162: 165, Figs 92:97

(٨١) Guémard: op. Ci, p 75 – wiet : op. Cit, p . 244

(٨٢) جوزيف ماشيرو: عمل فى فرنسا سكرتير للبارون فيفان دينون، وهو رسام بالخبرة والوظيفة، وقد عمل مدرسا فى مدرسة الجيزة، وعندما ألغيت هذه المدرسة أشفق عليه سليمان باشا وأحس بحزنه، فأصطحبه معه ووهبه مرتب شهرى مقابل العمل فى زخرفة قصره بمصر القديمة، بالاضافة الى انه عمل فى زخرفة بعض جدران قصور القاهرة. وبذلك اصبح فنانا مشهورا فى الجالية الفرنسية فى القاهرة. كان يتصف بالبشاشة والمرح وسعة الصدر واخيرا عمل مديرا للمسرح الخاص للخديو سعيد باشا. راجع: Wiet: op. Cit , p . 247

(٨٣) Guémard: op. Cit, p. 75/ Carre: op. Cit, p . 95

(٨٤) Guémard: op. Cit, pl p. 75, p. 76 – 77

(٨٥) وخلال زيارة سليمان باشا لفرنسا سنة ١٨٤٦ م زار مدينة ليون مسقط رأسه وزار فيها شقيقته وأقاربه وأصدقاءه الاقدمين، وعند عودته الى مصر قدم تقريرا لمحمد على تضمن مشاهداته فى فرنسا وما استجد فى نظام الجندية بها.
عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٥ .

(٨٦) علامات الرتب العسكرية فى الجيش المصرى اخذت فى أيام محمد على عن الجيش الفرنسى وهى كالاتى:
الاشرطة للجنود، والنجوم والاهلة للضباط. الامباشى شريط أحمر على الصدر، الجاويش شريطين، والباشجاويش ثلاثة أشرطة.
الملازم يحمل على صدره من جهة اليمين نجما من الفضة، واليوزباشى نجما وهلالا من الفضة أيضا، والصاغقول اغاسى هلالا من ذهب ونجما من فضة، والبمباشى هلالا ونجما من الذهب، والقائمقام هلالا ونجما من الذهب والنجم مرصع بالماس، والاميرالاى هلالا ونجما من الذهب مرصعين بالماس، وامير اللواء له نجمان داخل الهلال. والميرميران ثلاثة نجوم داخل الهلال والنجوم والاهلة من الذهب المرصع. عمر طوسون: المرجع السابق ، ص ٤٠ . عبد الرحمن زكى: التاريخ الحربى: ص ٣٦٣ كلوت بك: المرجع السابق ح٢ ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٨٧) اخذت الرسومات للضريح والمئذنة عن المجلس الاعلى للأثار بمقياس رسم ١ : ٥٠ ثم اعيد تصغيرها وقدمت للطباعة بمقياس رسم ١ : ١٠٠ .

(٨٨) راجع: منى محمد بدر: المدارس العثمانية ذات التخطيط المثمن بالتطبيق على مدرستى قابى اغاس بأماسيه ورستم باشا بأستانبول. ابحاث ندوة: "عمارة وفنون شرق العالم الاسلامى" كلية الآثار ــ جامعة القاهرة سنة ١٩٩٩.

(٨٩) من أمثلة رقاب القباب فى مصر المزخرفة بكتابات عربية لآيات قرآنية محفورة حفرا بارزا الآتى:
رقبة قبة ضريح مجموعة قلاوون ٦٨٣ ـ ٦٨٤ هـ /٨٤ ـ ١٢٨٥م / رقبة قبة ضريح الشيخ زين الدين يوسف ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م / رقبتى قبتى سلاروسنجر الجاولى ٧٠٣ هـ /١٣٠٣م رقبة قبه احمد المهمندار ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م . وغيرها كثيرا راجع:
سعاد ماهر: مساجد مصر واولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية (٥ أجزاء) القاهرة ٧١ – ١٩٨٣م ، ح١ لوحة ١٠١ ، ح٢ لوحة ١٧٦ ، ح ٣ لوحة ٣٩ ، ٩٤ ، ١٥٧، ٢٠٣، ٢٤٠.

(٩٠/أ) لعل اقدم قبة خشبية فى مصر هى قبة ضريح الامام الشافعى ٦٠٨هـ / ١٢١١م ثم قبة المدرسة الناصرية بالنحاسين ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م (سقطت) وقبة محراب خانقاه شيحو ٧٥٦هـ /١٣٥٥م ، وقبة السلطان حسن قبل سقوطها، وبعض قباب اضرحة العصر العثمانى بالقرافة راجع:
سعاد ماهر : مساجد مصر ، ح ٣ ص ٢٦٦ شكل ٢٧ ، ص ١٣٠ .
حسن عبد الوهاب: المرجع السابق ، ص ١١٠.
زهير الشايب : وصف مصر (لوحات الدولة الحديثة) مدبولى ١٩٨٦ لوحة ٦٦

(٩٠/ب) Pflugradt (E) - Aziz (A.) The Mausoleum for Soliman Pasha " El Faransawi" in Cairo - Milteilungen Des Deutschen Archadogischen Institute Bteilung . Cairo , Band 44, 1988, p.210.

(٩١/أ) Pflugradt : ibid, 212 .

(٩١/ب) عبد المنصف سالم: حسن قصر السكاكينى (دراسة معمارية فنية) رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآثار ـ جامعة القاهرة لسنة ١٩٩٦ ، ص ٢٤٨
Pflugradt : ibid, 207 .

(٩٢) راجع: سعاد ماهر: المرجع السابق، ح ٢ لوحات ١٩، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠، ح ٣ لوحات: ٦٢، ١٢٨، ٢٠٤ .

زهير الشايب: المرجع السابق ، لوحة ٦٤/ ٢:٩ ، لوحة ٦٥/ ٢:٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ .

(٩٣) ثروت عكاشة: المرجع السابق، ح ٢ ص ٥٣٤ .

(٩٤) حصلت على هذه الصور الضوئية من الاستاذ/ محمد ثابت الفرنساوى، حفيد سليمان باشا الفرنساوى ، من ابنته نازلى .

(٩٥) Wiet: op. Cit, pl (X)

(٩٦) راجع عن نشأة الصور الشخصية فى التصوير الاسلامى:

ابو الحمد فرغلى: التصوير الاسلامى ، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩١، ص ٣٤٣.

(٩٧) Wiet: op. Cit, p. 359

(٩٨) عبد الرحمن زكى: الجيش الذى قاده ابراهيم، لوحة ١٤٤ Wiet: Ibid, p. 418 التاريخ الحربى لعصر محمد على لوحة ٣٨٤.

(٩٩) يحتفظ المتحف الحربى بالقاهرة بصورة نصفية لسليمان باشا بالالوان الزيتية على القماش رسمها أحد الفنانين المصريين نقلاً عن صورة اشيل ديفيريا.

(١٠٠) Wiet: op. Cit, p. 417

(١٠١) Wiet: Ibid, p. 326/ Carre: op. Cit, part II, p. 94 (1932(

(١٠٢) المقدمة فى : Vingtrinier: op. Cit,

(١٠٣) إذا كان فن النحت فى عصر النهضة الاوربية بدأ فى ايطاليا فـــــى القــرن الرابع عشر الميلادى على يد بعض الفنانين الموهوبين امثال جيبرتى ودونــــاتللو ١٣٨٦ ــ ١٤٦٦ م ، الا ان فن نحت التماثيل الشخصية ازدهر فى فرنسا، وكان من أعظم المثالين الفرنسيين بوجيه ١٦٢٢ – ١٩٩٤م ، ومنذ القرن الثامن عشر بدأ فن النحت يتجه الى النعومة والعناية المسرفة بالصبغة كما فى اعمال بيجـــال الفرنسى.

راجع: ابـــــو صالح الالفى: الموجز فى تاريخ الفن العام. دار نهضــــة مصـــر ١٩٨٠، ص ١٧٩ ــ ١٨٠.

(١٠٤) ومن أمثلة هذه الميادين ايضا فى القاهرة ، ميدان لاظوغلــــى وبـــه تمثـــال لاظوغلى، وتمثال ابراهيم باشا فى ميدان الاوبرا من عمـــل المثـــال الفرنســـى كورديه وكان موجودا اصلا فى ميدان العتبة الخضرا. راجع:

عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى الف عام. الطبعة الثامنــــة ســنة ١٩٨٧، الانجلو، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٠٥) المثال جاكمار: من أعماله ايضا تمثال لاظوغلى سنة ١٨٧٢، وتمثال محمد على فى ميدان المنشية بالاسكندرية وكان من المفروض ان يوضع اسفله اربـــع أسود، ولكن وجدوا من الافضل وضعها عند مدخلى كوبرى قصر النيل بالقاهرة، ومن أعماله خارج مصر، ابو الهول الحجرى فى نافورة دوشـــاتليت ببـــاريس ، وتنانين نافورة سانت مايكل فى باريس.

Wiet ; op. Cit, p . 403 – 406

عبد الرحمن زكى: الموسوعة ، ص ٥٤

(١٠٦) سبق الاشارة اليها.

(١٠٧) كلوت بك: المرجع السابق، ح٢ ص ٣٣٢

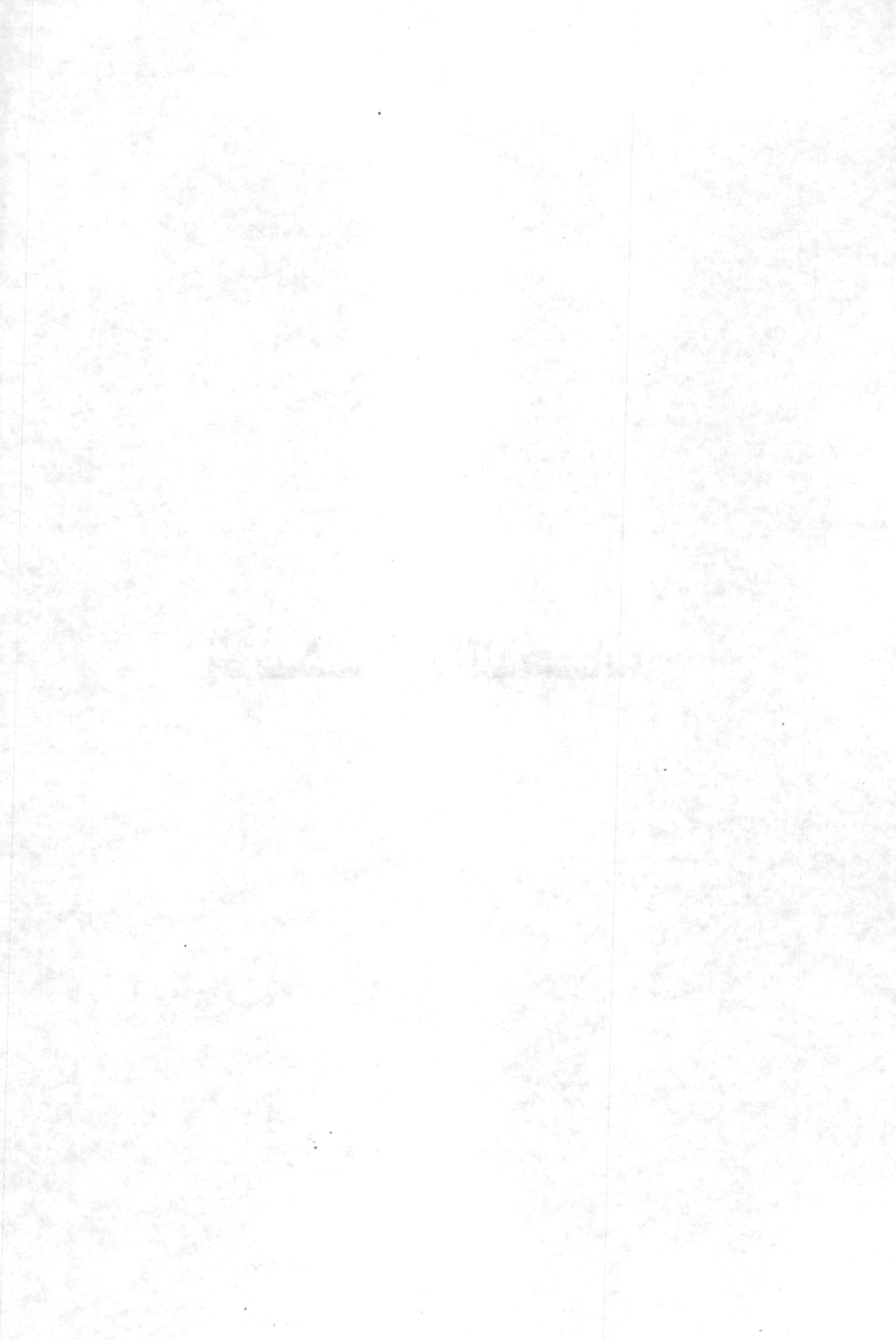
عبد الرحمن زكى: التاريخ الحربى ، ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣

(١٠٨) لماذا انتزع التمثال من ميدان سليمان باشا، ولماذا تم تغيير اسم الميدان بوسط البلد الذى كان به التمثال (لميدان طلعت حرب) ، ولماذا تغير ايضا اسم الشارع والميدان بمصر القديمة والذى يوجد به الضريحان حتى الآن، ورغم هذا التغيير فما زالت هذه المنطقة تعرف باسم (محطة الفرنساوى) حسب ما هو مكتوب على مترو الانفاق.

كما أن تمثال سليمان الفرنساوى المحفوظ فى المتحف الحربى فى منطقة غير مباحة للزوار.. لقد أسلم سليمان باشا وعاش وتزوج وأنجب وتوفى ودفن بمصر وقدم لها خدمات عسكرية جليلة وعمر فيها، وما زال احفاده يعيشون ويعملون فى مصر ويحملون الجنسية المصرية ومن معتنقى الديانة الاسلامية .

نتمنى تصحيح هذا الوضع حتى نتذكر دائما العلامات المضيئة فى تاريخنا.

الأشكال واللوحات



... سيدنا ومولانا ... الى الدام

[illegible]

لدى قضاة الاسلام ليعقد بمحط المحميه الموقع منه الكريم علاه دام علاه ونائب الحكم

الشريف دام مجده امين بمحضر كل من حضرة فخر العلماء الاعلام عمدة البلغاء المحققين

ذوى الافهام وارث علوم سيد الانام الاستاذ الاعظم الشيخ محمد العباسى المهدى

مفتى الحنفى مفتى السادة الحنفيه بمصر حالا وحضرة فخر العلماء العاملين عمدة اهل الفضل

واليقين كنز النحاة والمعربين وارث علوم سيد المرسلين العلامه الشيخ ابرهيم الشهير نسبه

[illegible] بالسقا الشافعى وحضرة العلامه الامام اوحد الافاضل العظام مفيد الطالبين

الامام السيد على البقلى وحضرة العلامه الامام اوحد الافاضل العظام ومفيد الطالبين

الامام الشيخ محمد الانبابى المحقق كلا هماً من اعيان اهل العلم والافاده والتدريس بالجامع

الازهر كل منهم دفخر الامراء الكرام صاحب القدر والمجد والاحتشام الجناب العالى حايز

رتب المفاخر والمعالى الامير مصطفى باشا الكبيدلى محافظ مصر حالا دام مجدهم امين

حضر الجناب المكرم على نورى افندى مامور تشغيل الاحجار الميريه بجبل طره سابقا

ابن المرحوم مصطفى ازنقلمه وبصحبته كل من الجناب المكرم اسكندر بك ابن المرحوم سليمان

باشا الشهير بالفرنساوى رئيس رجالة الجهاديه سابقا والمكرم احمد الشماع ابن المرحوم اسماعيل

وهو الوكيل الشرعى عن الست مريم البيضا معتوقة وزوجة المرحوم سليمان باشا المشار اليه

الوكالة الشرعيه الثابت مضمونها [illegible] ذلك ومصدقها بين يدى مولانا افندى بالديوان

[illegible] اليه بشهادة كل من المكرم عبد المتعال جارحى ابن جارحى والمكرم طلبه نصار ابن

المرحوم نصار جاد الحق البقا بمعرفة اسكندر بك المذكور كلاهما ثبوتا شرعيا وادعى على نورى

افندى المذكور على اسكندر بك المذكور بان من الجارى في ملك الست مريم المذكوره

واولادها الاربعه هم اسكندر بك المذكور والست زهره هانم والست نظلى هانم واسما هانم

[illegible] المشمول [illegible] والمرزه الست مريم المذكوره اولاد المرحوم سليمان باشا المومى اليه

على الحكم الاتى بيانه فيه جميع المكان الكبير المعروف بسراى الحريم المستجد الانشا والعماره

[illegible] بمصر القديمه بالشارع على يسرة السالك طالبا ساحل الغلال الذى هناك

[illegible] وما يتبع المكان المذكور من الجنينه الصغيره المغروس بها انواع الاشجار متنوعه المتصله

بالمكان المذكور والمكان الصغير المعروف بسكن العربجيه الملاصق للمرتبان الاتى ذكرها

(شكل ١) الصفحة الاولى من الوثيقة المؤرخة بـ ١٥ صفر ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م)، صادرة عن ديوان محافظة مصر المحروسة، وهى عبارة عن وصية صادرة من "مريم البيضا" زوجة سليمان باشا الفرنساوى (محفوظة لدى الورثة)

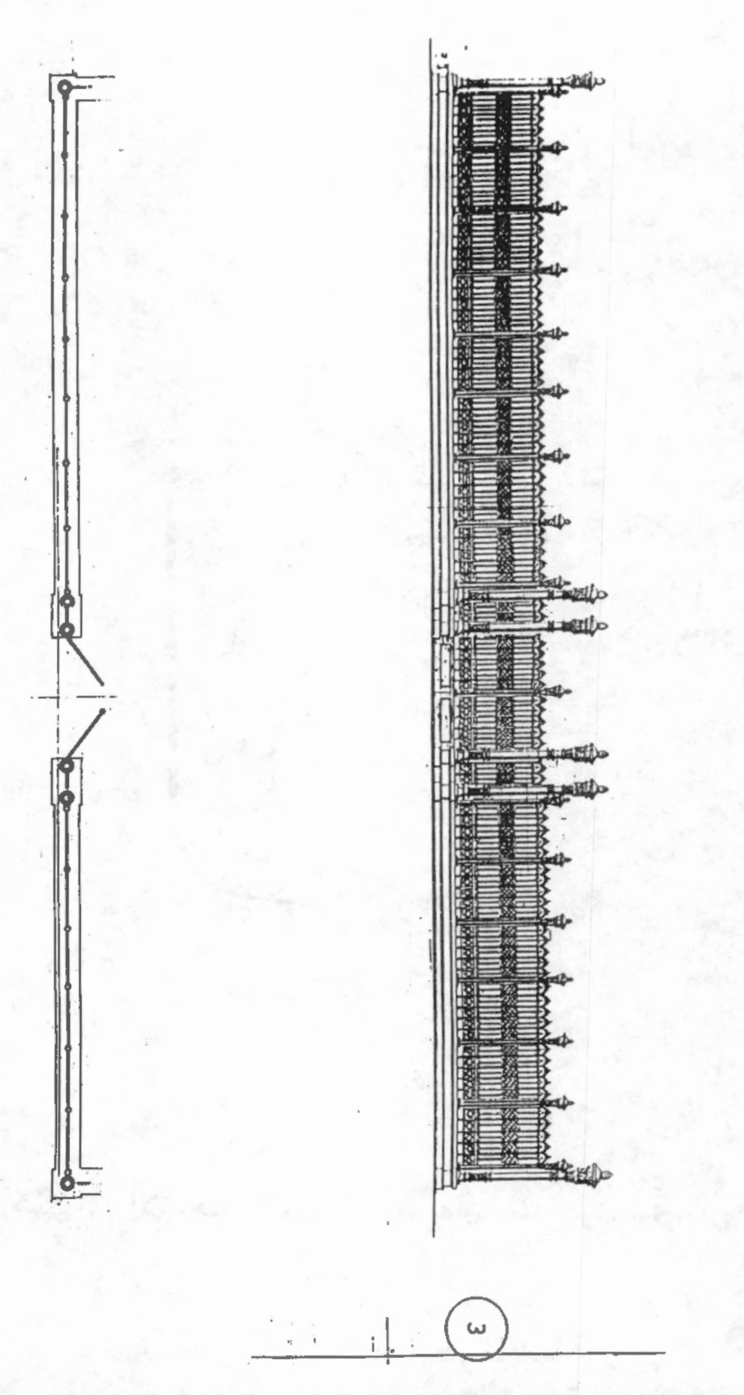
من ذلك جميع المبينة اعلاه جميع كامل المكان الكبير المعروف بسراي الحريم وما يتبعه من الجنينة
الصغيرة والمكان الصغير الملاصق للعرنجانه والمكان سكنه الحكيم والمكان سكنه محمد اغا بيمباشي
والمكان سكنه محمد افندي المهندس المذكورين اولا وثانيا وثالثا ورابعا بجميع اشتمالات ذلك ومنافعه
ما هو للبيت مسلم الزوج المذكورة عما قابل حصصهم المذكورة سبعة عشر قيراطا وخمسا قيراط
واربعة وخمسون جزءا من ثمانية وسبعين جزءا من خمس قيراط من المكان الكبير المعروف بسراي
الحريم وما يتبعه من الجنينة الصغيرة المذكورين اعلاه والحصة التي قدرها عشرة قراريط من كل من
المكان الصغير الملاصق للعرنجانه والمكان سكنه الحكيم والمكان سكنه محمد اغا بيمباشي والمكان سكنه
محمد افندي المهندس المرقومين اعلاه وما حوله بنظر الست اسما هانم المذكورة عما قابل
حصصها المرقوم ستة قراريط وخمسا قيراط واربعة وعشرون جزءا من ثمانية وسبعين جزءا
من خمس قيراط باقي المكان الكبير المعروف بسراي الحريم وما يتبعه من الجنينة الصغيرة المذكورين
اعلاه والحصة التي قدرها اربعة عشر قيراطا باقي المكان الصغير الملاصق للعرنجانه والمكان
سكنه الحكيم والمكان سكنه محمد اغا بيمباشي والمكان سكنه محمد افندي المهندس المرقومين اعلاه
والذي اختص به اسكندر بك المذكور نظير حصته المذكورة جميع الجنينة الكبيرة والعرنجانه
التابعة لها والمكان سكن حسن اغا صاغقول اغاسي والحاصل الذي سفل مكان احمد افندي الشماع
والمكانية الكائنة بدرب البابات المذكورين رابعا وخامسا وسادسا وتاسعا وعاشرا اعلاه بجميع
اشتمالات ذلك ومنافعه ما عدا القطعة الارض التي بقبر المرحوم سليمان باشا المرقوم واربعة
امتار زيادة على ذلك من كل جانب من جوانب اساسات الكائنة ذلك بوسط الجنينة
الكبيرة المذكورة مع مقادرة المرور للقبر المذكور من الجنينة الكبيرة المذكورة والذي اختص به
عارف بك افندي المدعى المذكور لموكلته الست زهرة هانم واخته الست نظلي هانم المذكورتين
سوية بينهما بطريق وكالته عنهما في ذلك نظير حصصهما المذكورة اعلاه جميع السلاملك والجنينة
التابعة له والسكن الملاصق ذلك لبعضه بعضا والحصة التي قدرها النصف اثنا عشر قيراطا من الدكان
والحاصل سفل المذكورين سابعا وثامنا اعلاه بجميع اشتمالات ذلك ومنافعه وحقوقه
ما عدا السواقي الطاولي الستة المذكورة اعلاه فانها على الاشتراك بين الورثة المذكورين كل بقدر
نصيبه شائعا مثلا وان لكل منهم ان يجري الماء من السواقي المذكورة الى محل زراعته كاملة
ورضي اسكندر بك المذكور بذلك ورضي المدعى المذكور بذلك بطريق وكالته عن كل من الست

(شكل ٢) صفحة رقم (٥) من الوثيقة شكل (١)



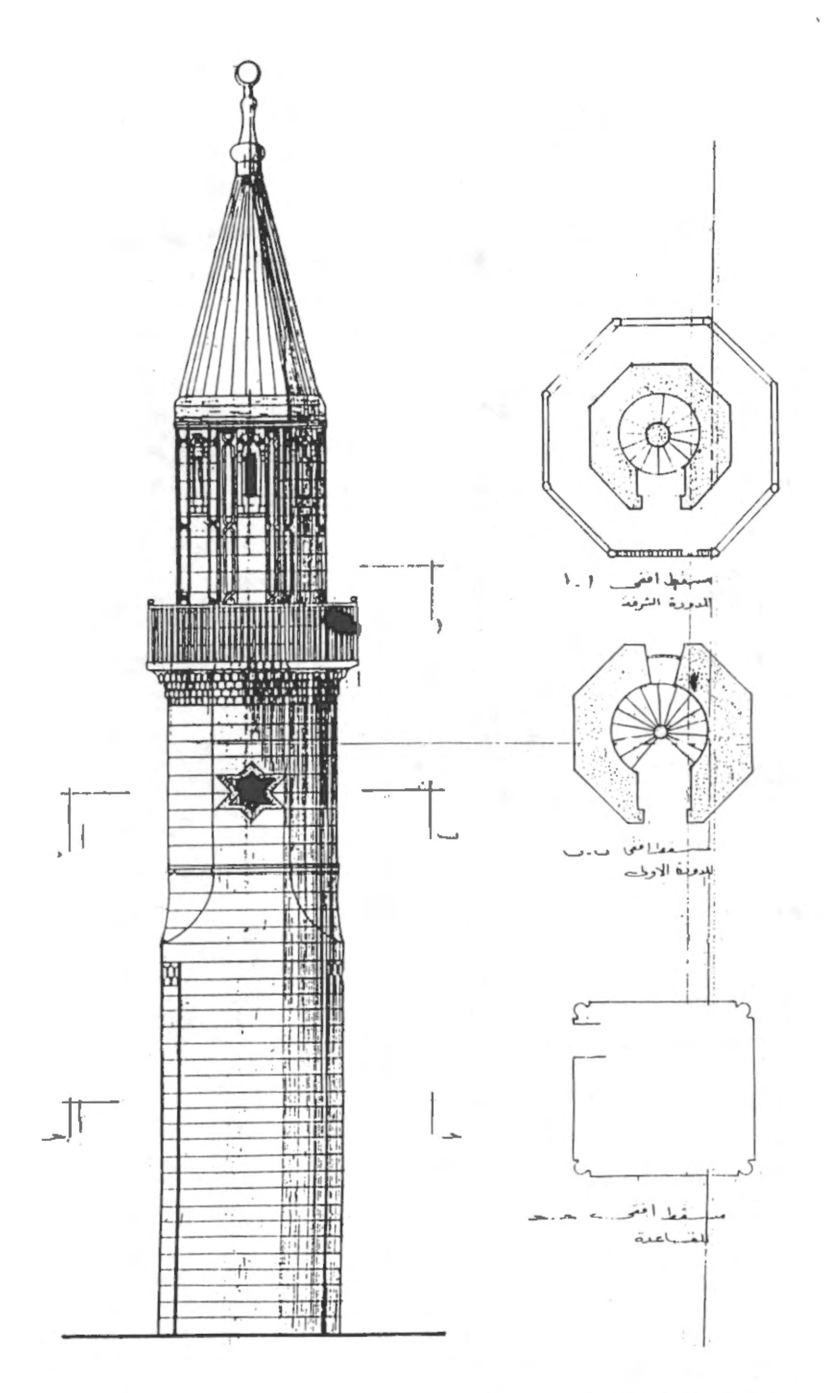
(شكل ٣) الاسلحة ذات الدلالة لسليمان باشا الفرنساوى

(عن : Guemard, p. 75)



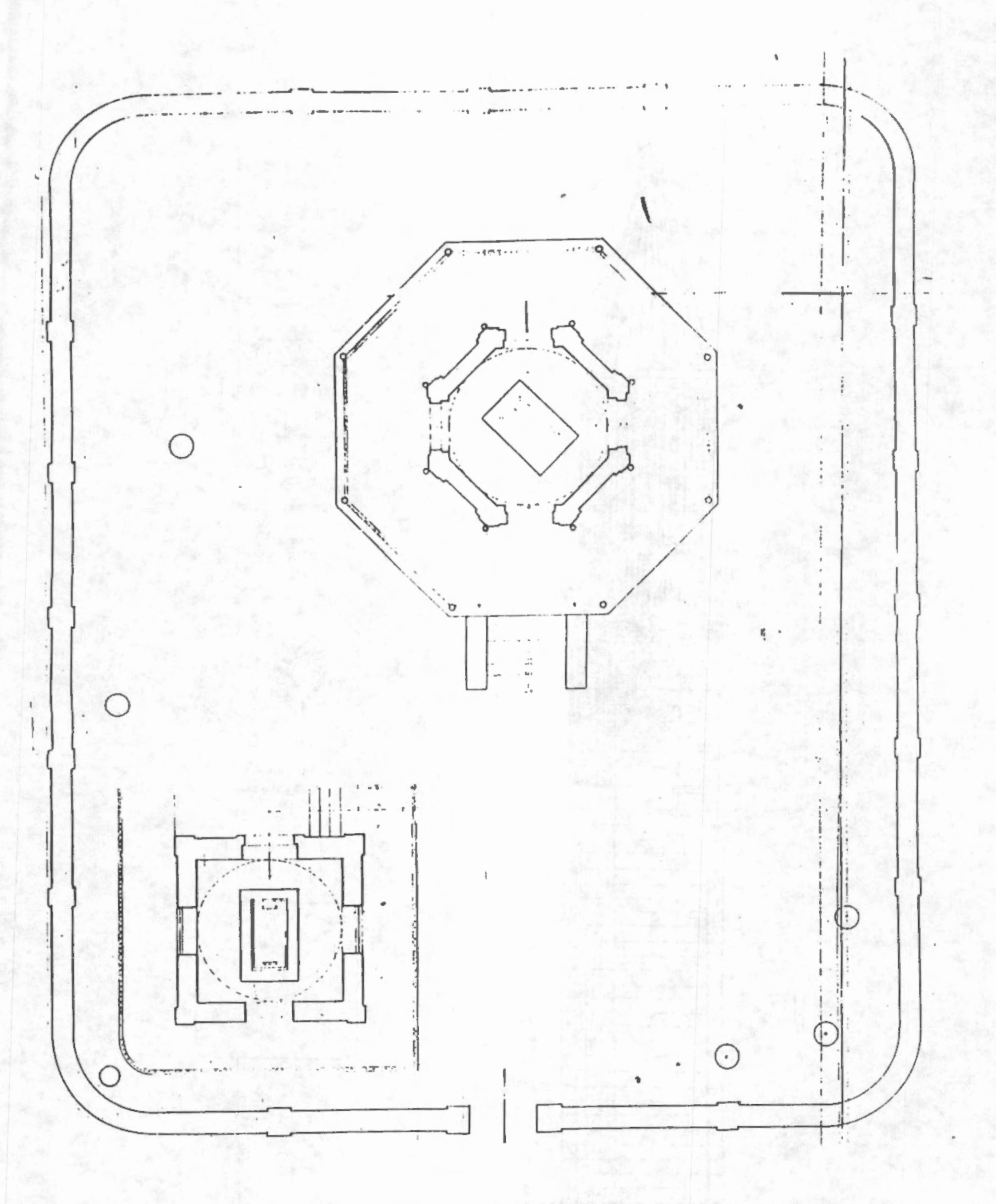
(شكل ٤) السور المعدنى المحيط بضريح سليمان باشا فى مصر القديمة وكان يحيط ايضا بالقصر

(عن: المجلس الاعلى للآثار)



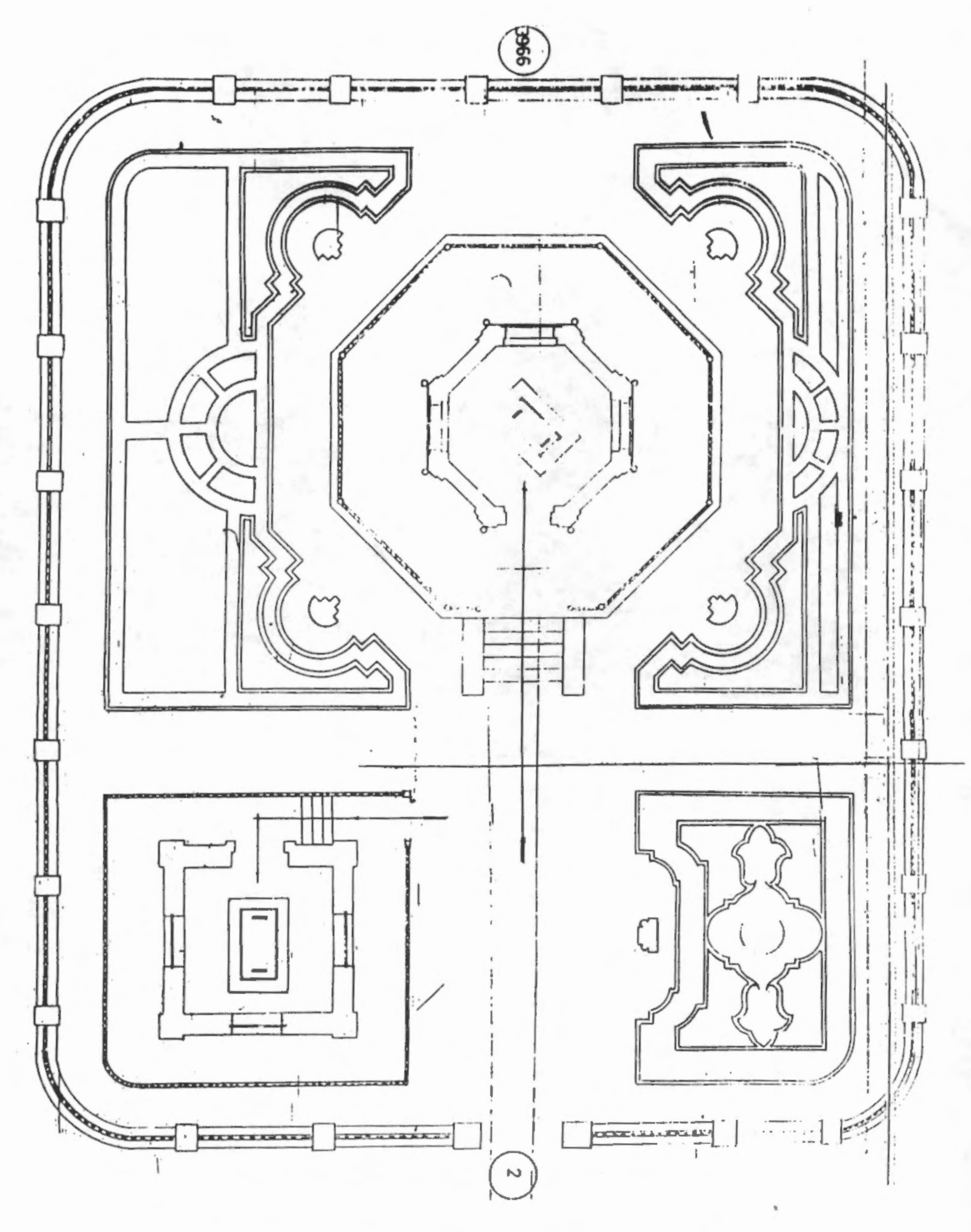
(شكل ٥) المئذنة الكائنة بمصر القديمة تنسب لسليمان باشا الفرنساوى

(عن: المجلس الاعلى للآثار)



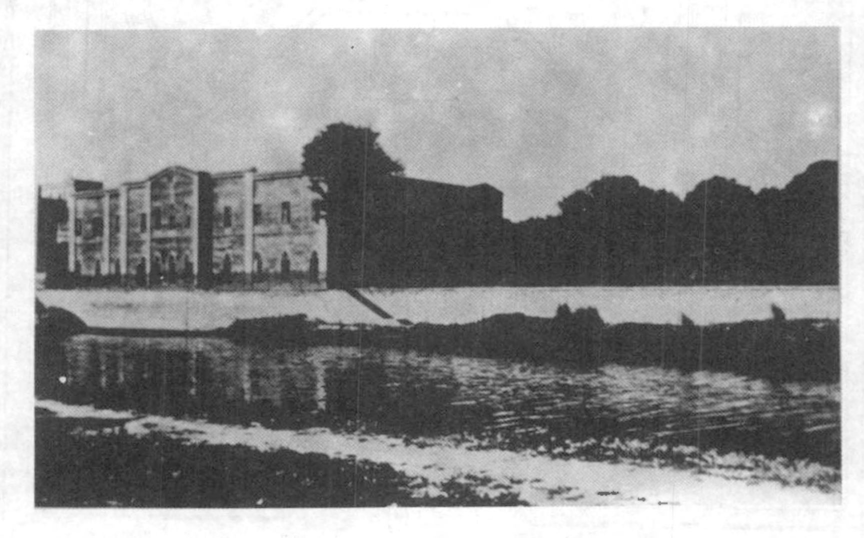
(شكل ٦) تخطيط افقى لضريحى سليمان باشا وزوجته بمصر القديمة (اثر رقم/٦٣٣)

(عن: المجلس الاعلى للآثار)



(شكل ٧) تخطيط افقى لضريحى سليمان باشا وزوجته بمصر القديمة

(عن : المجلس الأعلى للآثار)



(لوحة ١) الواجهة الخارجية للسلاملك من قصر سليمان باشا

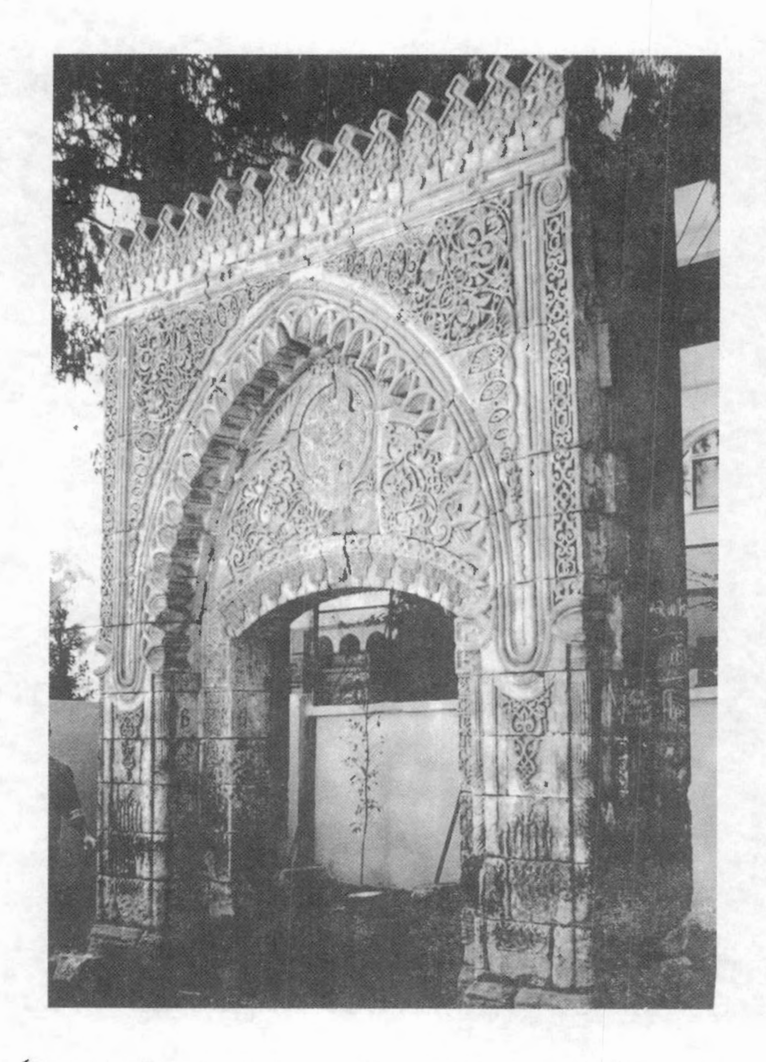
المطل على النيل بمصر القديمة

(اندثر حاليًا)   (عن : Carre , Part II)



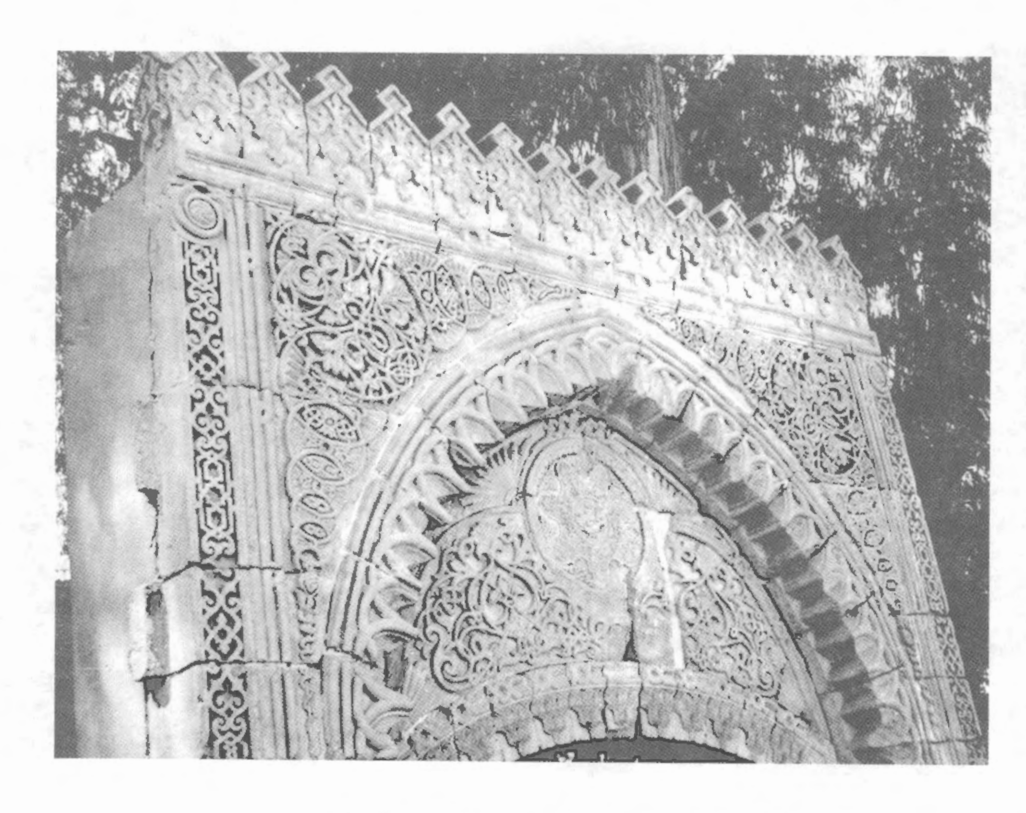
(لوحة ٢) منظر داخلى لأحد قاعات السلاملك فى قصر سليمان باشا

(عن : Carre , Part II)



(لوحة ٣) كتلة المدخل الحجرية لقصر سليمان باشا محفوظة حالياً

فى الفناء الداخلى لمدرسة ليسيه الحرية بالمعادى



(لوحة ٤) جزء توضيحى من المدخل السابق

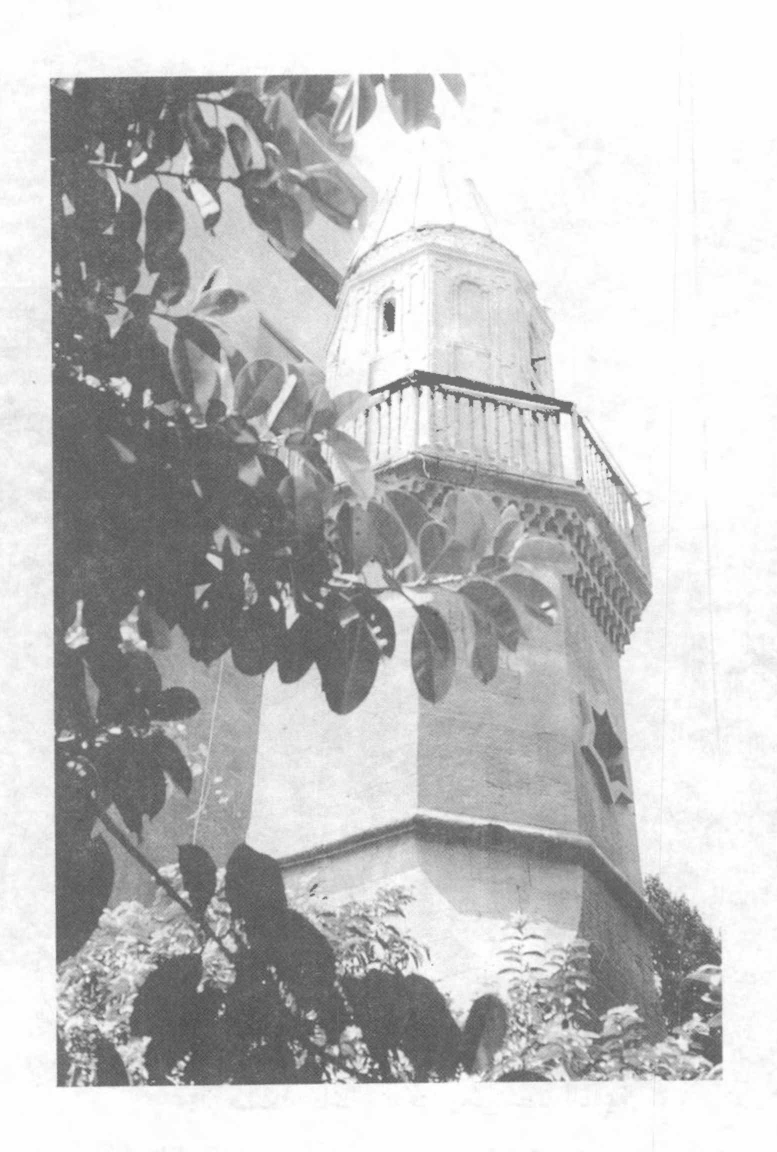


(لوحة ٥) جزء توضيحي من المدخل السابق



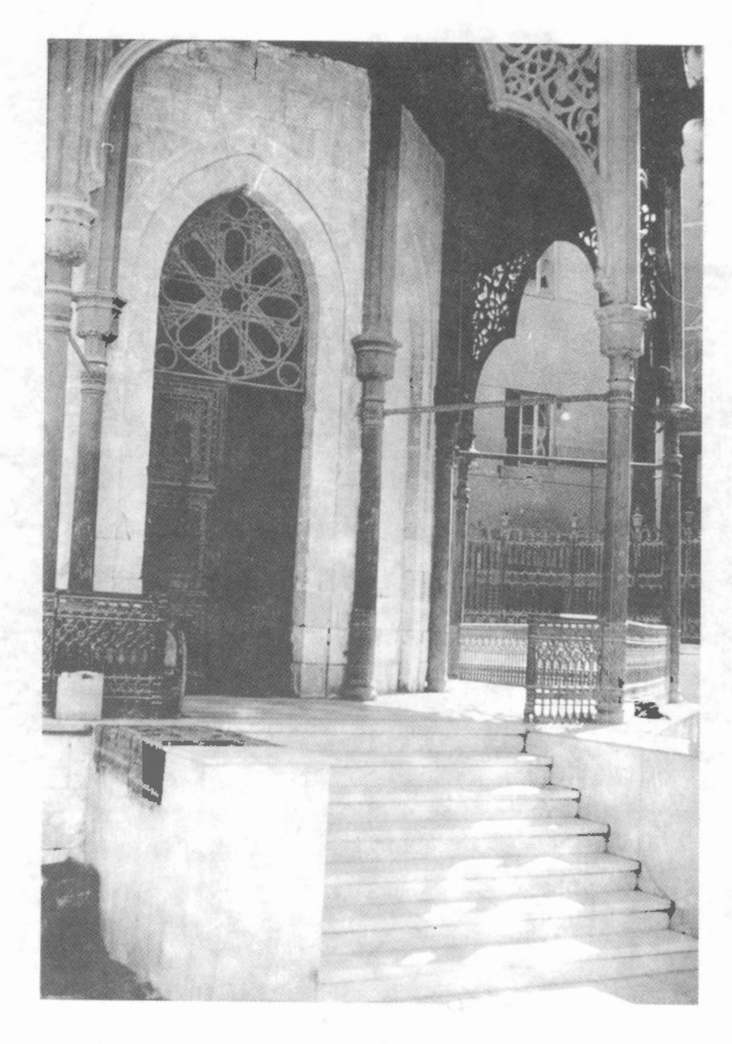
(لوحة ٦) الفناء والسور الحديدى الذى يحيط بضريحى

سليمان باشا وزوجته بحى مصر القديمة



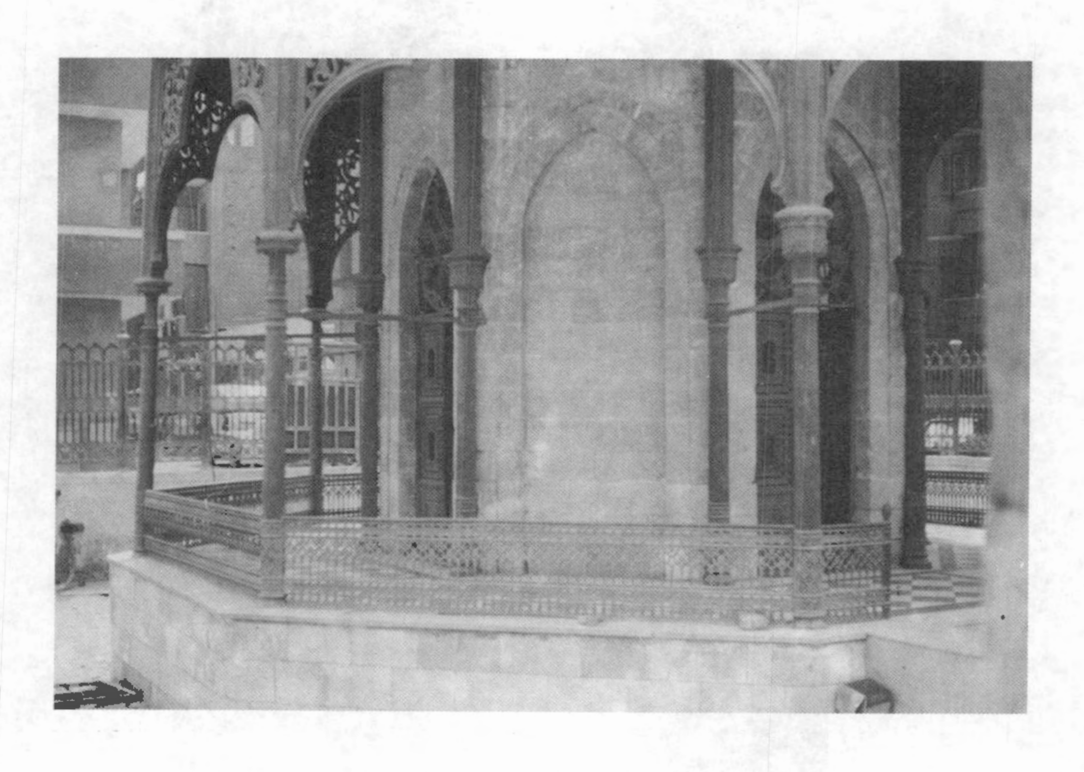
(لوحة ٧) المئذنة الفاطمية المنسوبة لسليمان باشا بمصر القديمة

(أثر رقم ٦٣٣)



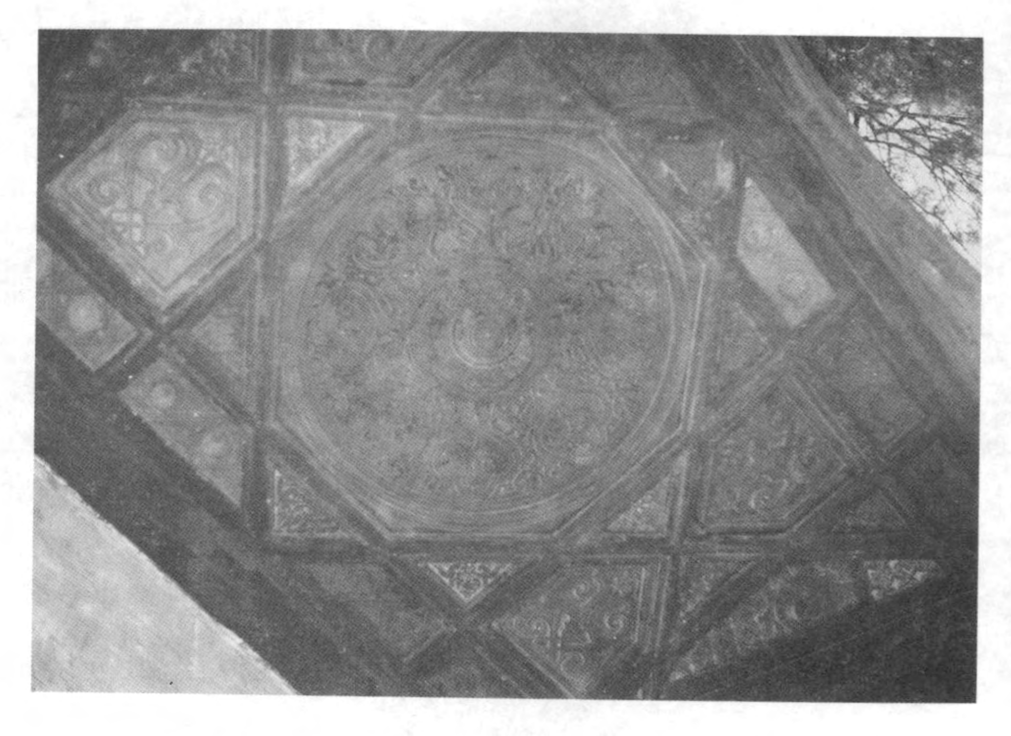
(لوحة ٨) الدرج الرخامى المؤدى إلى الرواق المكشوف المحيط

بضريح سليمان باشا الفرنساوى ، والمدخل الوحيد المفتوح حاليًا



(لوحة ٩) الرواق المكشوف المحيط بضريح سليمان باشا

والدرابزين والأعمدة والأبواب الحديدية



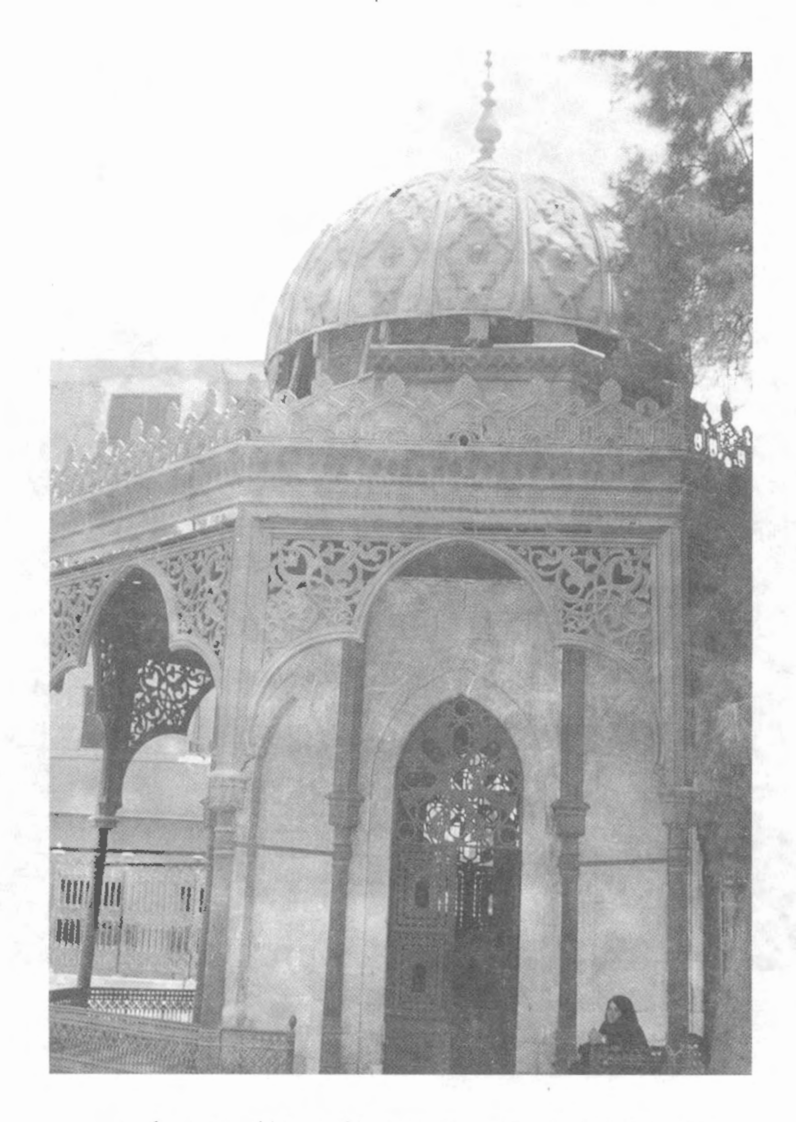
(لوحة ١٠) سقف الرواق الخشبى ذو الزخارف الخشبية المحفورة

حفراً بارزاً والملونة فى ضريح سليمان باشا

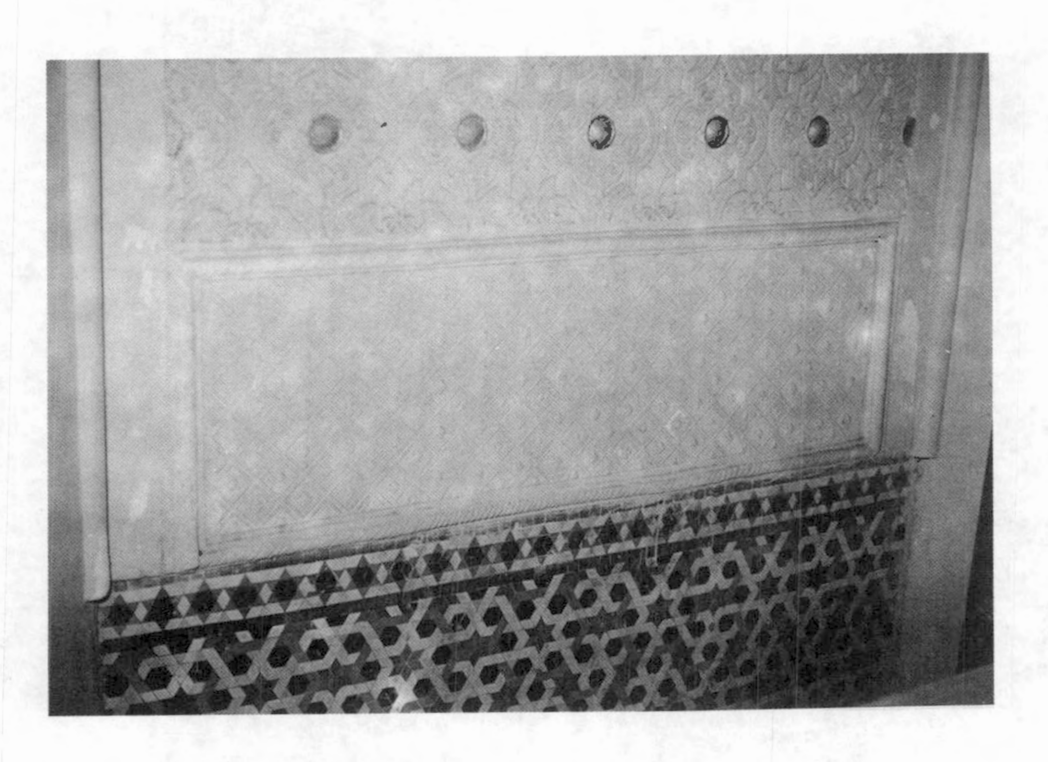


(لوحتى ١١ ، ١٢) الأعمدة الحديدية الحاملة لسقف الرواق المكشوف

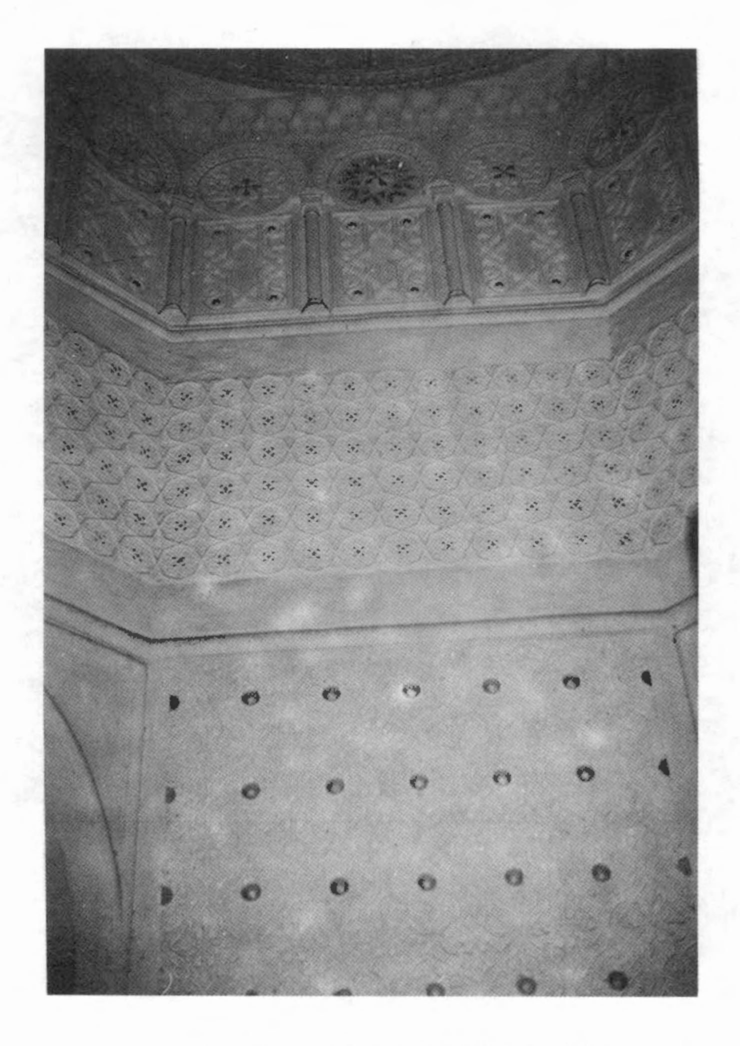
فى ضريح سليمان باشا



(لوحة ١٣) الشرفات والزخارف المعدنية المفرغة فى كوشتى العقد الثلاثى الفصوص للرواق المكشوف فى ضريح سليمان باشا ، والقبة الخشبية الخارجية



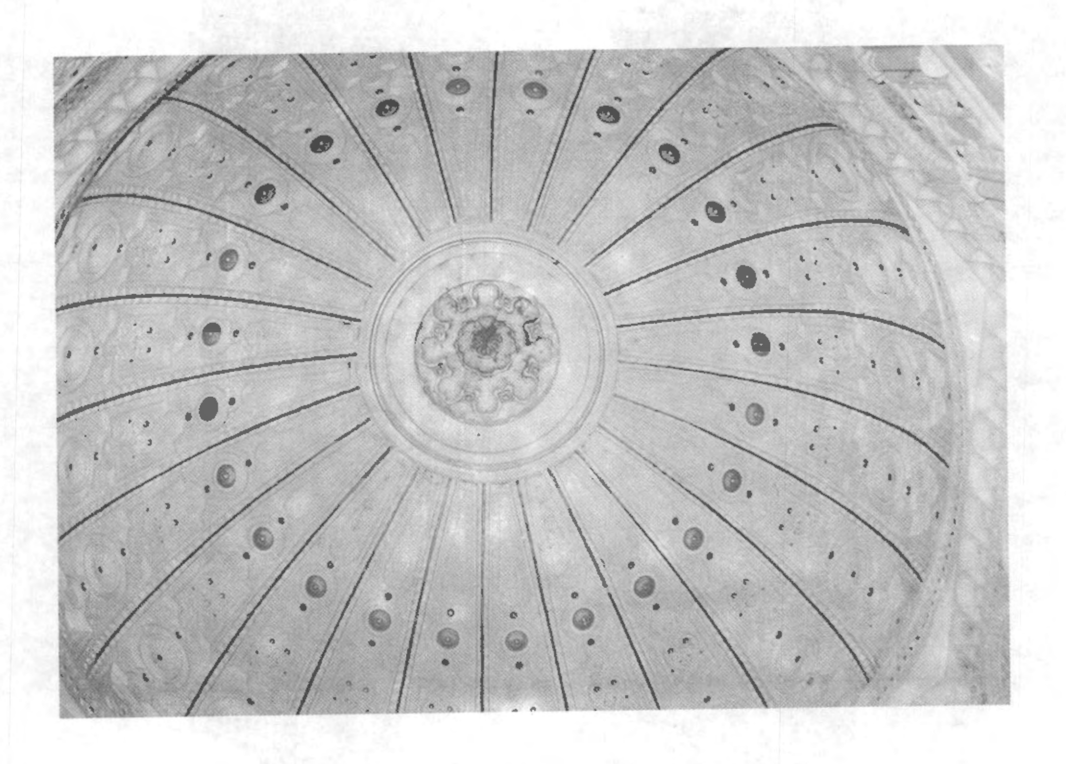
(لوحة ١٤) زخرفة جدران ضريح سليمان باشا من الداخل (من أسفل)



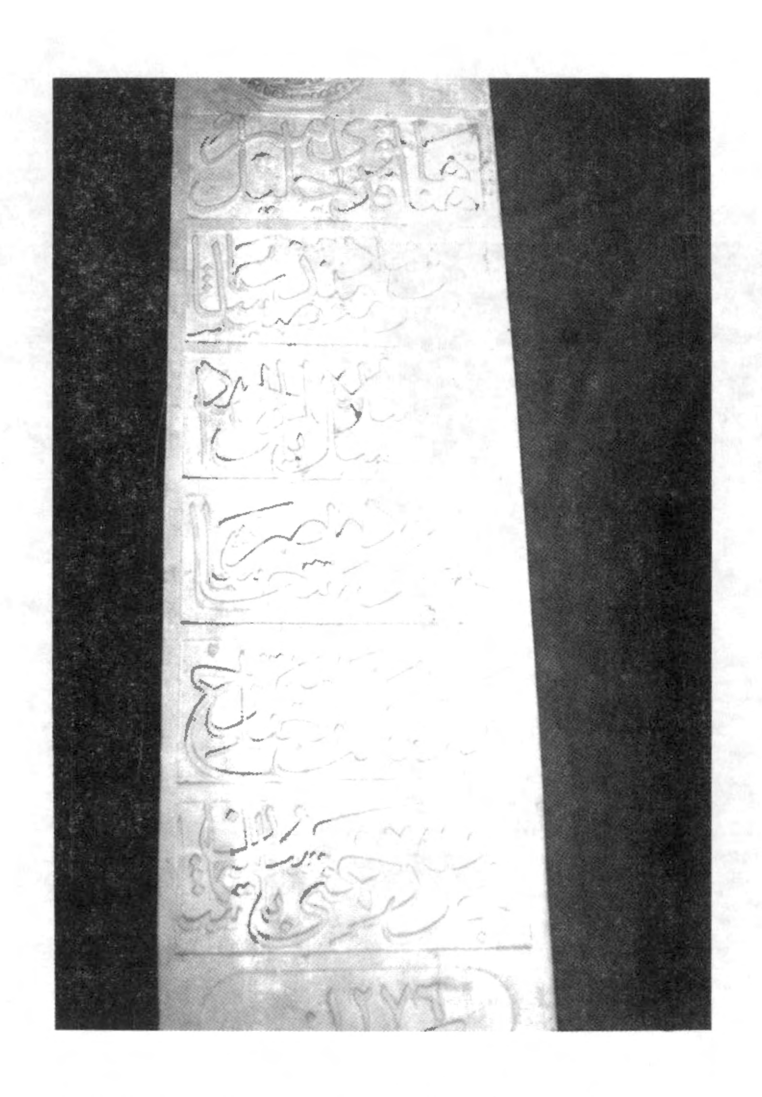
(لوحة ١٥) الزخارف الجصية التى تزين

النصف العلوى من الجدران الداخلية

لضريح سليمان باشا



(لوحة ١٦) زخارف باطن قبة ضريح سليمان باشا



(لوحة ١٧) شاهد القبر الرخامى الذى يعلو التركيبة الرخامية

فى داخل ضريح سليمان باشا



(لوحة ١٨) الحنايا الركنية فى ضريح زوجة سليمان باشا



(لوحة ١٩) التركيبة الرخامية على قبر زوجة سليمان باشا



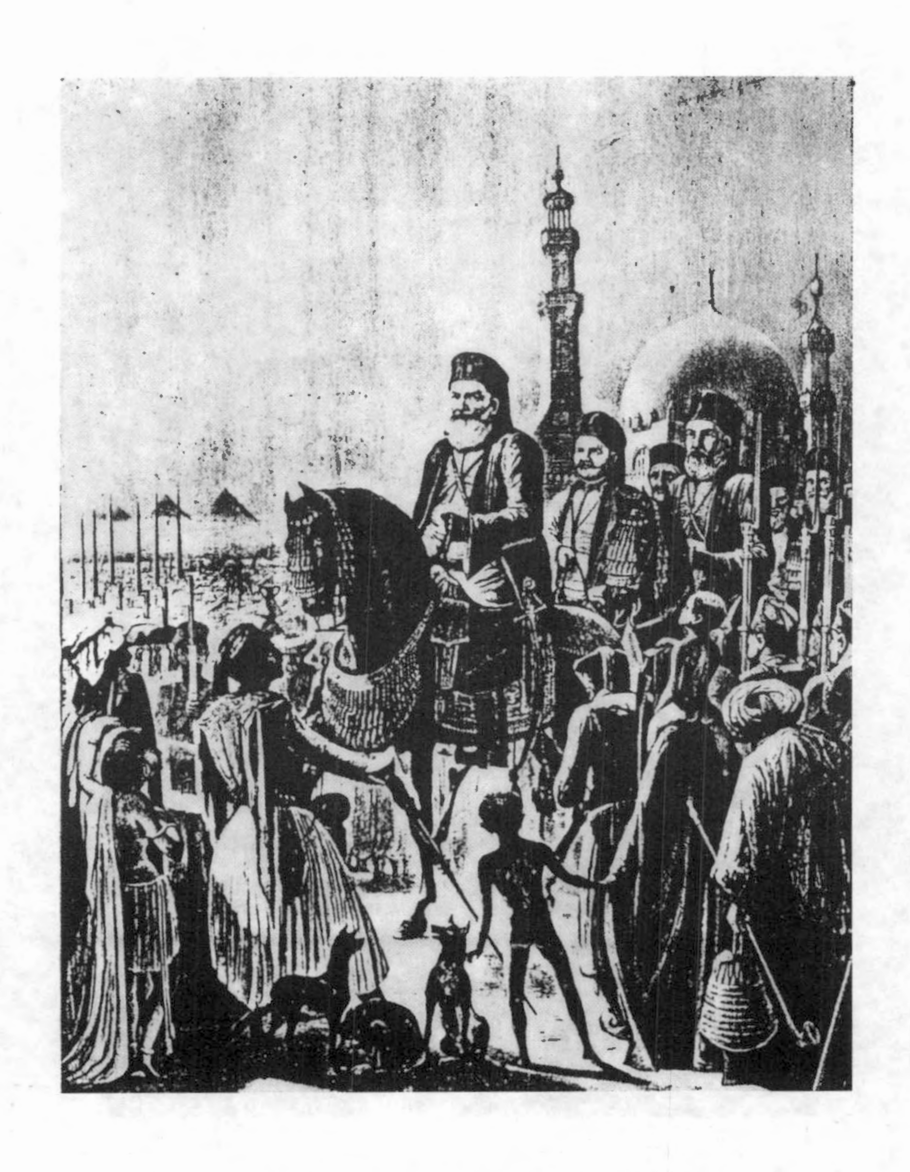
(لوحة ٢٠) صورة ضوئية لسليمان باشا وابنته نازلى وخادمه

تنشر لأول مرة (عن الورثة)



(لوحة ٢١) صورة ضوئية لسليمان باشا

تنشر لأول مرة (عن الورثة)



(لوحة ٢٢) صورة لمحمد على وإبراهيم باشا وسليمان باشا

الفرنساوى من رسم الفنان سيجسموند هميلى (عن : Wiet)



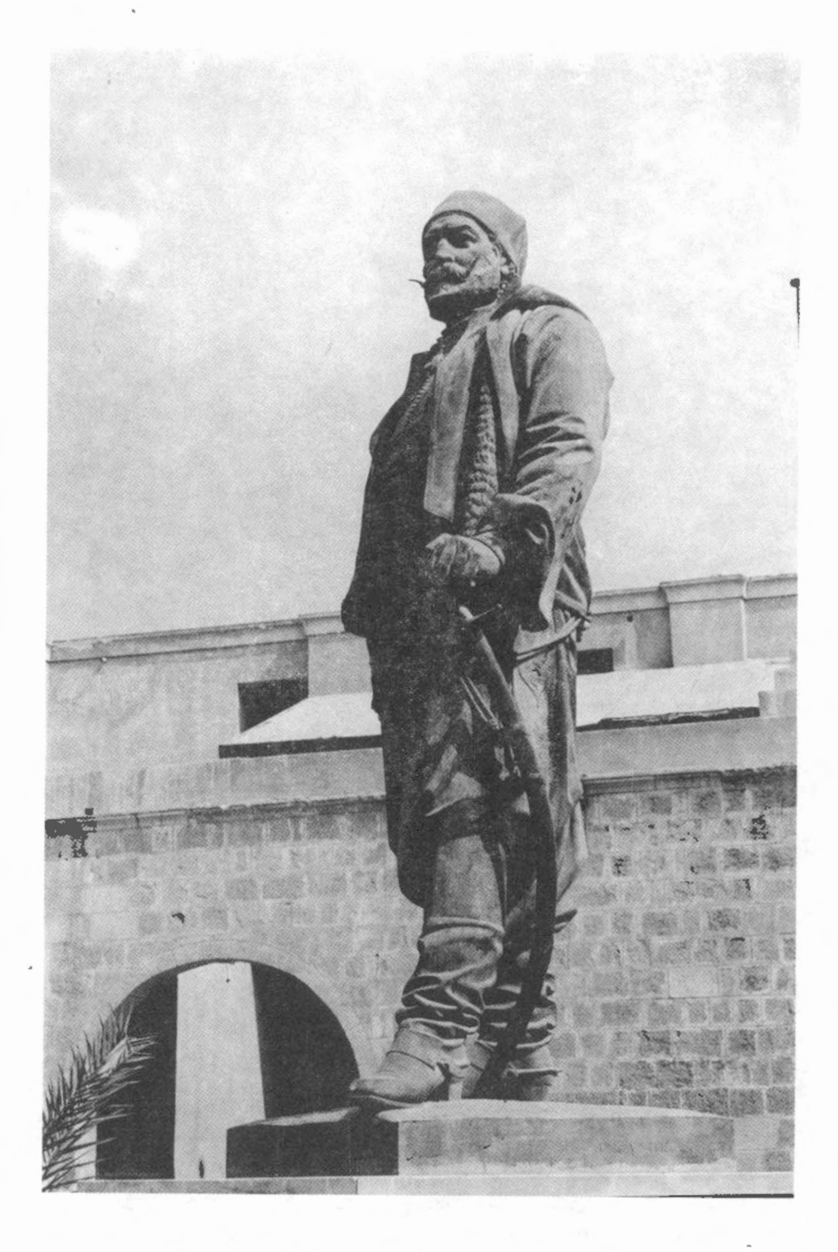
(لوحة ٢٣) صورة نصفية لسليمان باشا من رسم الفنان هوراس فرنيه

(عن : Carre Part II)



(لوحة ٢٤) صورة نصفية مرسومة فى فرنسا لسليمان باشا

(عن : Vingtrinier)



(لوحة ٢٥) تمثال معدنى لسليمان باشا محفوظ فى

المتحف الحربى بالقلعة من عمل الفنان جاكمار



(لوحة ٢٦) الوجه الخلفى من التمثال السابق

الفن التشكيلى المصرى وبداية الحداثة فى عصر محمد على

فاطمة إسماعيل

التحولات الفنية الفجائية :

الفن وجود استثنائي بمعني أنه منفصل عن الحياة ؟ ومتى نـدرك انفصالـه عـن الحياة؟ هل الفن الخالص أو الجميل fine art يعني بالضرورة وجودا منفصلا؟ وهل الفن حين يتنازل عن استثنائه في الحياة ويلتحم بها يصبـح فنـا تطبيقيـا applied art أي إستخداميا وهل يعني ذلك انه يفقد خاصية الجميل؟

تلك أسئلة قد تبدو منتهية الصلاحية إلا أننا نجدها تتكرر عبر تاريخ الفـن كلمـا ارتبكنا في فهم التحولات الفنية الفجائية ،وقد حدث هذا لنـا فـي مصـر مرتيـن:مـع الارتباكة الأولي حين عجزنا عن فهم الفن الذي يحدث خارج حدودنا مع قـدوم الحملـة الفرنسية فكانت أول صدمة فنية تتعرض لها العين المصرية ،فهي لأول مـرة تصطـدم باللوحة التي تعلق علي الحائط ، ولأول مرة تري المنظور أو البعد الثالث الذي غير مـن طبيعة الصورة التي تعودنا رؤيتها و لم تتجاوز البعدين ،فاختلط المشهد بيـن الوهـم و الواقع وخاصة حين اقتربت الصورة من الواقعية بالتجسيد والحجم نتيجة استعمال الظـل والنور، وحين أصبح الناس أنفسهم هم الصورة ، أو عناصر المشهد .

أما الصدمة الثانية فقد تلت الاولي مباشرة بتولي محمد علي الحكم في أعقـاب جلاء الحملة الفرنسية وإعلانه مشروع تحديث الدولة بإتباع النموذج الغربي ،الذي أحـل متغيرات هزت الفن المصري في استقراره من حيث منطق نموه الـذي يعتمـد علـي التطور من داخل التجربة المصرية .

تختلف الصدمتين عن بعضهما علي الرغم من تتابعهما تاريخيا وقد تكون إحداهما

مهدت للأخرى أما الأولي فقد صدمت العين بالصورة المدهشة وغير المعتادة والتي تقترب من الحقيقة ، وهنا تبقي الهزة في حدود الدهشة والاستغراب والفضول ، مع إدراك المسافة التي تفصل بين ثقافتين وتحفظ حق التواجد لكليهما ولاتهدد إحداهما وجود الأخرى علي الأقل في تلك اللحظة، أما ما أصاب الفن المصري من تحديث محمد علي فهو تعرضه لجوهر التجربة ذاتها بتفكيكها وإعادة تركيبها مرة أخري بتوليف عناصرها مع عناصر الفن الغربي الذي أصابها مسبقا بمشاعر الغربة والاختلاف مما كان له أكبر الأثر في القبح المعماري الذي ساد تلك الفترة نتيجة افتقاره لشخصية أو خصوصية ترسخ قيمة معينة ،كما أدي

ذلك إلي تهميش الفن المجاور للعمارة كوجود حياتي .،فالتجربة المصرية منذ الحضارة الفرعونية القديمة تعاملت مع الفن كوجود ملتحم باليومي ارتبط فيها بالسياسة والدين والمجتمع وكذلك بالموت في أعلي درجات التحامه حين حوله إلى احتفالية فنية ،واستمر الفن جزء لا يتجزأ من المجتمع عبر التاريخ حتى كانت تلك الهزة التي أدت إلي خروجه عن سياق تطوره ونقله إلى أرضية ثقافية مختلفة!فهل ما جاء به محمد علي تحت دعوي التحديث قد أفاد الفن كما أفاد المجالات الأخرى ؟

أيضا لا نستطيع أن نتجاهل هذا السؤال الذي لا نملك الإجابة عنه عن تلك الفترة السابقة علي وجود محمد علي فترة حكم المماليك والتي تركت لنا تراثا معماريا رائعا يفوق ما خلفته لنا عمارة محمد علي مما يغرينا بتصور وجود فني مجاور علي نفس المستوي ، ومن هنا يكون سؤالنا: هل محي محمد علي بتحولاته نحو الدولة الحديثة ملامح بعض الفنون التي تركها المماليك ولم نستدل عليها لوأد مصدرها ؟

معوقات الجهود النظرية :

إن الإجابة علي هذا السؤال تستدعي إعادة تأمل تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر بما لها وما عليها ، وعلينا أن نعترف ونحن نعيد النظر في قراءة علاقة الأحداث بصفة عامة بالفن التشكيلي أن ذلك ليس بالأمر السهل لسببين:

الأول :ندرة المادة اللازمة لأي جهد نظري في هذا المجال ، فالمعلومات المتوفرة إما مبتورة أو مغلوطة،وقد وصل الحال أن أستقر في الأذهان أنه لم يكن يوجد فن في فترة محمد علي ، إذ أن الفن كمصنف كان أقل أهمية من تلك المصنفات التي تم تحقيقها وتمحيصها طبقا لأثرها في تغيير ملامح وجه مصر بما يفيد سياسة التحديث التي سعي إليها محمد علي . فمثلا تعبيد طرق جديدة تربط بين مدينة القاهرة القديمة بالحديثة كنظلم جديد علي مصر يغير من ملامحها أخذ من الانتباه والأهمية عند محمد علي درجة تفوق مجرد الالتفات إلي الفن التشكيلي الذي كان لفترات تاريخية طويلة الدعامة الأساسية للحضارة المصرية ، و هو بحق أمر باعث علي الدهشة والعجب ،إذ أن تهميش الفن باستثناء العمارة في مشروع محمد علي لم يكن من الذكاء ولا الفطنة التي تميز بهما، وقد يكون ذلك باعث علي استفزاز الباحثين والمؤرخين لفتح باب البحث في هذا الأمر .

السبب الثاني :أن تلك الغفلة وعدم الاهتمام أو الانتباه أعاقت الفن التشكيلي عن أي إسهام أو تميز يجعلنا نضع أيدينا علي ملامح بعينها يمكن رصدها والتعامل معها كحقائق تبني عليها وجهات النظر ، مضافا إلي أن كل ما لدينا من مصادر مدونة بادية النقص ومليئة بالعيوب تسلمنا في كثير من الأحيان إلي اعتبارها قراءات حدسية تسقط عنها المصداقية سواء كانت صائبة ام خاطئة .

نعيد السؤال بصورة أخري هل أغفل محمد علي حقا في مشروعه الفن التشكيلي

كعنصر قادر علي الإسهام في عملية التطور بصورة قصدية ؟

ألا يجوز لنا أن نعيد تأمل تلك المادة التي يقدمها لنا التاريخ ؟نحن نـــدرك جميعـــا لعبته الخطيرة فكما يمتلك القدرة علي إضافة أبعاد جديدة إلي مادته الخام وهي أبعاد الفهم التي قد تأخذ شكل التفسير فتسمح بالإضافة ، فإنه قادر أيضا علي الحذف والاختزال مـن خلال الانحياز ، مضافا إلي هذا ضعف وتدهور حال مؤرخي القرن التاسع عشر فقد كان معظمهم من الهواة وليس المحترفين .

الفن وجود ملتحم في الحياة :

لا نريد أن نلقي بالتبعة كلها علي الآخر سواء كان مؤرخو الفن أو المادة التـــي تصلنا ، لماذا لا نكون نحن أيضا مخطئين في شكل توجهنا ؟ فقد يكون تصورنا للبحـــث عن حالة الفن يعني تصورا غير هذا الذي عرفته الفترة نفسها ، فغالبا حين نتحدث عـــن الفن نعني به الفن الرفيع ، أو الفن الخالص fine art وهو دالة مشكوك في قدرتها علـــي إفادتنا عن تلك الفترة ،إذ أن الفن بهذا المفهوم تداولناه حديثا بعد المحاضرة التي ألقاهـــا الفيلسوف الفرنسي توماس دي كوينس Tomas De Quincy بعنـــوان On Murder Considered as One Of Fine Art عام ١٩٢٧ وبالتالي لا يمكن أن يكون إطارا لما نريد أن نتحدث عنه في بلدنا إذ لا يعني أن هذا التزامن بين فترة حكم محمد علـــي وبين ظهور مفهوم جديد للفن أن الفن في مصر استطاع تجاوز تراكم زمني كبير فـــي تتبع حلقات تطور الفن في ثقافة الغرب وتعامل مع الفن بمفهومه الجديد ، وظل يمـــارس وجوده المادي في المجتمع غير منفصـــل عـــن الوظيفـــة والغـــرض ، فـــي العمـــارة والمخطوطات ،والمنمنمات الفرعونية وكان في الرسم علي الجدران والمصاغ والثيـــاب ، وكذلك الأواني والفخار وفي التماثيل .

هل يعني ذلك أن الفن الملتحم بالحياة والمرتبط بوظيفة أو غرض كان اجتماعيا أو سياسيا أو أخلاقيا لايعد جميلا ؟ وهل نستطيع أن ننزه الفن الآن عن أي غرض حتى نضمن نقاءه ؟ إن قصر فكرة الجميل علي الفن المتخلص من الغرض أو الوظيفة أمر مشكوك فيه من الأساس ، فمن يستطيع أن يدعي أن الفن النسائي يفتقر لقيمة الفن الجميل أو الفن السياسي أو الاجتماعي وماذا عن الفن الإنساني Human Art والذي ظهر أواخر الثمانينات والذي يتعرض للقضايا الإنسانية مثل الإيدز والمشردين والمضطهدين من يستطيع أن ينفي القيمة الجمالية لتلك الأعمال الفنية التي تندمج في الوجود المادي للشعوب ؟!

ماذا لو تطرفنا أكثر واستسلمنا لفكرة نزع القيمة عن الفن غير المستقل عن الوظيفة ، ألا يجوز لنا في تلك الحالة أن نسقط القيمة الفنية عن الحضارة الفرعونية كلها بل والقبطية والإسلامية والواقعية الاشتراكية ، والاحتجاجي فجميعها ارتبطت بالعقيدة كمنهج تفكير ثم امتدت في جوانب الحياة .؟

الفن وصدمة التحديث في مشروع محمد علي :

لم يكن غريبا إذا أن يكون الحال كذلك أيام محمد علي فالفن تكوين عضوي في نسيج الحياة الاجتماعية ، فنحن لا نتحدث عن عدم وجود فن وإنما عن تأثير مشروع محمد علي علي هذا الفن الموجود ، فلماذا وصفناه بأنه كان صادم له ؟

إن إستراتيجية محمد علي في حكم مصر وتوجيه التحديث في جوانبها المختلفة إنما كان محددا طوال الوقت بمدي خدمته للمشروع العسكري وطموح تطبيقاته ، فأختصر الثقافة في الاهتمام بالتعليم علي أن يوجه بصفة أساسية لخدمة الاحتياجات العسكرية ،أما اهتمامه بالتاريخ فيأتي من زاوية مختلفة تماما وفي نفس الوقت ليست بالبعيدة ، إذ كان

محمد علي يعتقد في نفسه امتدادا لقادة عظام في تاريخ العالم أمثـــال الإسـكندر الأكـبر ويوليوس قيصر وغيرهما من أباطرة التاريخ ، فأراد دراسة تاريخــهم للاسـتفادة مـن خبراتهم في الحكم ، ولما كان لا يجيد إلا اللغة التركية ، فقرر الاهتمام بالترجمة وأنعـش حركتها فأمر بترجمة كتب التاريخ والفلسفة من الفرنسية والإنجليزية إلي التركية ، بـــل ومن العربية التي كان لا يجيدها أيضا إلي التركية .

تحولات فن العمارة :

في الفن ،أعتبر محمد علي أن العمارة هي الشاهد الوحيد علي تطور عصره كمـــا حدث طوال تاريخ الفن فاهتم بالطرق ، والجوامع والأديرة ، وقد كلـــف مهندســين مــن الفرنسيين والأرمن وكذلك الجريح لتنفيذ المشروعات التي وضعها

في خطة التطوير فاختلطت الأساليب المعمارية ،وجاءت هجينا قبيحا من عمـــارة الباروك واستنبول علي الأساليب المعمارية التي كانت سابقة علي محمد علي .

أدي هذا الهجين إلي إحداث تغيرا في العلامات المعمارية المصرية ، فاســتحدثت السلالم المزدوجة والأبنية الخشبية المغطاة بالبلاط الخزفي وكذلك الجبس ، كمـــا حلــت الصالات الكبيرة التي تتفرع منها حجرات مماثلة محل القاعات التي ميزت البيوت مـــن العصر المملوكي والعثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر .،وظهرت زخارف الكرانيــش البارز عند نهاية الواجهات الحجرية والرخامية ، أيضا حل الشكل البيضاوي في الشبابيك والأبواب محل الشبابيك الهندسية من مربع ومستطيل ودائري ،كما اختفــت المشــربيات وحلت محلها النوافذ المفتوحة المغطاة بأزرار من الخشب والذي تطور بعد ذلك في عصر إسماعيل إلي الشيش ، ولاول مرة تغطي الواجهات بالرخام المجزع، وفي الزخرفة أيضـا أنتشر رسم أرضيات الحدائق بخامات الزلط الملون علي هيئة رســوم نباتيــة وكذلــك

زخارف هندسية ،في نفس الوقت اختفت زخارف السقوف بالعروق الخشبية وحلت محلها السقوف المسطحة بخامة الجبس المزخرف بالرسومات المذهبة البارزة بتـــأثيرات مـــن العمارة باستنبول .

لاشك أنه في تاريخ العمارة بمصر قبل محمد علي بعض التأثيرات نتيجة توافـــد ثقافات عديدة عليها مثل الرومانية واليونانية وغيرهما إلا أننا لا نستطيع أن نقول أن تلـك التأثيرات كانت في إطار مشروع تطوير رسمي منظم تتولاه الدولة تتجاوز فيه التـــأثير إلي الإحلال بثقافة بديلة تحت دعوى النموذج الحديث كما فعل محمد علي .

إن خطورة هذا الإحلال أن تبناه الأهالي أنفسهم باعتباره النموذج الأفضل وهو مـــا نجده في وصف علي باشا مبارك لمزايا البنايات الحديثة والذي يعكس انحيازه شـــخصيا لها :

"..واتبع الناس في بنائهم الأشكال الرومية وهجروا الأسلوب القديم لمـــا رأوا فـــي الأسلوب الجديد من بهجة المناظر وحسن الوضع وقلة المصاريف عن الأسلوب القديـــم . فإن المحلات في الأسلوب الجديد إما مربع أو مستطيل ولا تختلف إلا بالكبر أو الصغـــر، بخلاف القديم فإن القاعة الواحدة تشغل أكثر أرض الدار ، ولوازمها يعسر معها الانتظام ، وكانت الطرقات والفسحات تأخذ مبلغا عظيما ، ومراحيضها قريبة من محلات النـــوم والجلوس ، وأكثر محلات الدار قليل النور والهواء اللذين هما من أساس الصحة ، وقـــل أن تخلو من الرطوبات التي تتولد عنها الأمراض ، وفي الأسلوب الجديـــد اســـتعوضت المشربيات التي كانت تصنع من الخرط بشبابيك مستطيلة وعليها ضعف الزجاج واستعمل في الدور الأرضي عوضا عن الخرط شبابيك من الحديد بأشكال مختلفة ، واســـتعوضت خردة الرخام التي كانت تستعمل في الحمامات واسفل الحيطان بترا بيع الرخام الأبيـــض

والأسود ، وهي أبهج منظرا وأقل مصروفا ، وتركت خردة الرخام ، وكانت عبارة عـــن قطع صغيرة مختلفة الألوان توضع بهيئات مختلفة في بعض منافذ القيعان بالجبس ، وهي مع كثرة مصاريفها لافائدة فيها . وتركـــت الســـقوف البلديـــة المليســـة ذوات الكـــرادى والمقرنصات التي كانت تجعل تخت الإزار فى دائر بعض المحالات وفى الزوايا الأربـــع ، وكانت الصناع تقيم فىصناعة ذلك الأشهر العديدة بل السنين ، حتى كان السقف يتكلف مثل ما يتكلفه باقى المنزل ، فعمل بدل ذلك السقوف الروميـــة المســـتوية أو المفرغـــة ، ويكون السقف فى الغالب منتهيا بإزار مزين ببعض الأعمال ، وفى وسطه صرة مفرغـــة تفاريغ متنوعة ، فإذا تم طلى بطلاء الزيت الملون بالأصباغ ونقش بنقـــوش متنوعـــة ، وكثيرا ما ينتهى السقف ببراويز وكرانيش يتفنن الصناع فى إتقانها بقدر استعداده ورغبـــة صاحب الشغل وثروته ، وتارة تعمل السقوف بالبغدادى وتكسى جبس وتدهـــــن بـــأنواع الأصباغ وتنقش هى والحيطان باللون الذي يرغبه صاحب المـــنزل، أو تكـــس بـــالورق المنقوش ، وقد تكون النقوش في الورق أو غيره محلاه بماء الذهب . وتغيرت وجـــهات البيوت التي كانت تصل في الأزمان القديمة بحسب ما يتفق علي غـــير قـــانون هندســـي بحيث تكون لافرق بينها وبين وجهات،حيشان الموت ، فجعلت علي قانون هندسي منتظم وهيئات مألوفة حسنة، وقسمت الواجهة في اتساعها وارتفاعها بكرانيش بارزة ، يحـــدث عنها بعض الظلال في عرضها وارتفاعها وتزيد في رونق البناء وبهائه . وفي الســـابق كانوا يجعلون أرض محلات المنازل غير مستوية ، بل بعضها مرتفع وبعضها منخفـــض فتري أهل المنزل في تقلبهم في المحلات يصعدون ويهبطون ،وذلك فضلا عن مضراتـــه مذهب للرونق ،فجعلت في الجديد محلات كل دور من المنزل في مستوي واحـــد بهيئـــة ينشرح لها الصدر . وكذلك السلالم جعلت مناسبة لتوزيع المحلات باتساع مناسب للمـــنزل كبرا وصغرا وارتفاعا وجعلت درجاتها بهيئة لا تتعب الصاعد . وأعطيت النور الكـــافي

علي خلاف ما كانت عليه قديما. وتركت الأبواب المفرغة الدقيقة والتي كانت تعمل من قطع الخشب المعشقة في بعضها علي أشكال مختلفة ، وتارة كانت تلبس بالصدف وغيره ، ويجعل لها ضب من الخشب ، ويتفنن في جنس خشبها وهيئتها وربما لقمت بالعاج والأبنوس ومواد معدنية علي هيئات كثيرة . فأستعوضت بالأبواب الحشو ، واستعوضت الضبب بالكوالين ، وبطلت الرفوف والدواليب التي كانت تعمل في سمك الحائط ويتفنن في عملها ، وربما عملت بالخردة ونحوها ، ويضعون عليها أنواع الصيني للزينة والمباهاة "

إفقار الفنون في الدولة الحديثة لمحمد علي :

السؤال الآن هو هل كان تحول الأساليب المعمارية في البنايات سواء أكانت أهلية أم رسمية ودخول علامات فنية جديدة علي شخصيتها الأصلية نتيجة التهجين مع الثقافة الغربية قد أفاد الفن المصري ؟

إذا تحدثنا عن المدخلات الجديدة في العمارة من أساليب ومواد مستحدثة في البناء مثل الخشب والجبس كخامات أساسية في العمارة باستنبول مثلا نجدها غير عملية بالنسبة لظروفنا البيئية كبلد صحراوي لا تنمو به الغابات الوفيرة بما يمكن معه الاعتماد علي خامة الخشب كمادة أساسية في البناء ، كما أن تلك الأكشاك الخشبية التي استحدثت في العمارة لا تتجانس مع طبيعة ولا طرق معيشة الشعب المصري.النموذج الآخر هو اختفاء المشربيات بما يدل علي عدم فهم محمد علي لفكرة إثراء الموجود بعناصر الجديد من التحديث ،فالمشربية أحد أشكال الحلول الجمالية يتحايل بها الفنان أو المعماري المصري علي فقر بعض الخامات الموجودة في بلادنا الصحراوية حيث لا تتوافر الأخشاب فكيف يمكن خلق مساحات خشبية كبيرة ؟ إن التفكير في استخدام

بلوكات كاملة من الخشب غير عملي ومكلف في هذه الحالة ، وبالتالي فتقسيمه إلي وحدات صغيرة يمكن معه الاستفادة من نفايات الأخشاب أو أفرع الأشجار الرفيعة ببردها وتشكيلها بوحدات زخرفية علي شكل برامق صغيرة أو وحدات هندسية ،وإعادة تركيبها مرة أخري في مجموعات تكرارية تمكن الفنان من أن يتغلب فيها علي مشكلة المساحات الكبيرة من ناحية ومن ناحية أخري يضيف هذا الحل الجمالي للمشربية إمكانية الإخفاء والظهور وهو ما يناسب طبيعة الناس الدينية ، والاجتماعية، بل إن خصوصية هذا النوع من الفن وتطوره من داخل التجربة العربية والإسلامية في العمارة وفي الفن جعله أحد الملامح الأساسية لها.إن إحلال نموذج بديل لفن المشربيات في العمارة المصرية لا ينمو من داخل تطورها بتفريغها من الداخل وإحلالها بأزرار خشبية والتي طورت فيما بعد إلي الشيش في عهد إسماعيل ، ندرك منه كيف أن محمد علي لم يكن مشغولا كثيرا بما يناسب ثقافة أو ذوق أو إمكانيات هذا البلد ولم يستوعب فروق الاختلاف ،ومن الواضح أن فكرة اقتفاء أثر النموذج الغربي كانت هي المسيطرة بصرف النظر عما تحدثه من متغيرات ملائمة أو غير ملائمة داخل النسيج المستقر ، مما يجعلنا نتصور أن مشروع التحديث الذي جاء به محمد علي لم يكن كله خيرا فقد أفقر في بعض جوانبه الثقافة والفن .وعلينا إعادة تأمل تلك الفترة من زاوية العلاقات مع الواقع المصري وليس من وقائعها وأحداثها منفصلة .

الفنون المجاورة للعمارة :

من الواضح لنا أن فن العمارة كان أعلي صورة لتجسد مادي للفن حتى عصر محمد علي وكل ما جاوره فهو ثانوي لذلك لم يتم الاستدلال علي تفاصيله بدقة لضعف الرصد ، وغيابه في التوثيق ، ومع ذلك فمن المهم أن نعرف هل اقتصر عهد محمد علي

علي فن العمارة أم أن هناك فنونا أخري لم نتمكن من قبل من أن نضع أيدينا عليها ؟ وما هو المستجد منها وما هو الأصيل ؟وهل صاحب تغيير ملامح العمارة تغييرا في ملامح الفنون الموجودة؟

رغم الارتباكة الكبرى للثقافة المصرية بمجيء الحملة الفرنسية ،إلا أننا لا نجد متغيرات في الإنتاج الفني تعكس استفادة ما بالتجربة الفرنسية وقد يرجع ذلك لسببين : أولهما أن منطق دخول المتغير كان انقلابيا ، لا يتبع منهجا تراكميا قادرا علي بث الإحلال والتبديل في إيقاع زمني يسمح باستيعاب هذا المدخل الجديد علي الأطر المستقرة وبذلك أكتفي المصريون طوال الوقت بموقف المتفرج علي الأحداث كمشهد منفصل عن واقعهم وحتى دون التعليق عليه .

أما الثاني فهو أن دخول الحملة الفرنسية كان بالنسبة للمصريين اعتداء عسكري علي البلاد وبالتالي تم رفض كل المدخلات التي حاول الفرنسيون في حملتهم أن يضفوا عليها مسحة حضارية أو ثقافية وإن كانت فيما بعد ذلك قد أعطت نتائجها ، إلا أنها في حينها ظلت مرفوضة الي حد الخيانة الوطنية .

إذا حين جاء محمد علي كان الفن مستقرا علي تراكمه الحضاري الخطي حتى الإسلامي ، بتأثيراته العربية ، والعثمانية والمملوكية ، وتحول العمارة بمؤثرات فرنسية أو أوروبية بشكل عام لم يتم إلا مع الدولة الحديثة لمحمد علي رغم الوجود الفرنسي ذاته و السابق عليه .

لذلك فمن الؤكد عدم وجود شكل منتج آخر للفن المصري غير ما عرفناه في العمارة إلا الفنون الشعبية مثل الحلي والخزف والزي والزخرفة ، وهذه الفنون كان ينظر لمبدعيها علي أنهم صناع أو حرفيون ،وقد حدث أن أفاد هؤلاء المنتجون للفنون الشعبية

والزخرفة من مشروع محمد علي نحو التحديث بإنشائه مدرسة العمليات عـــام ١٨٣٦م، بمنطقة الإزبكية وكانت للفنون وصناعة السفن والميكانيكا الخراطة والـــبرادة والحــدادة والنجارة وآلات الجراحة والحفر ،ثم نقلت إلي بولاق ١٨٣٩ ثم تحولت فيما بعـــد إلـــي ورش فنية وحرفية ، وكان الدارس يحصل علي دبلوم "معاون مهندس ".ورغم أن هـــذه المدرسة لاتعد مدرسة مستقلة لدراسة الفنون إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل أنه لابد لنـا أن نعيد النظر ونحن نؤرخ الفن المصري الحديث بإنشاء مدرســة الفنــون الجميلــة بحــي الخرنفش عام ١٩٠٨.

لم تنفصل الثقافة الشعبية في وحداتها الزخرفية عما كان موجود في العمارة ففـــي الحلي مثلا نجد هذا الثراء في توليد الأشكال من وحدات هندسية تشـــتق مفرداتـــها مــن المفروكة الإسلامية في العمارة والتي تعطي حلولا جمالية لانهائية فمثلا تركيب مجموعـة مربعات بتباديل في تداخلاتها يحدث فراغات هندسية متنوعة من المثلثات وتسمي حســب أعدادها الثمانية أو الخماسية..الخ.وكذلك الوحدات الزخرفية للمشربيات والتي كـــان لـــها ظهور في الكردان الشعبي المنفذ من الذهب أوالفضة ، بل وفي الأواني الفخارية حيث كانت المشربية لها وظيفة أساسية في تنظيم الماء المنسكب من فم الآنيـــة إلـــي جـانب وجودها الجمالي ، ومن الطبيعي أن تتأثر تلك الفنون بـــالوضع الجديــد فنجـد الحلــي وقدإستجدت فيها عناصر من الطبيعة مثل دخول الحيوانات إما كلها أو في بعض أجزائـها مثل رأس أسد أو ثعبان ، والنباتات من أوراق الشجر والورود ومن الغريــب أن هــذه العناصر كانت قد اختفت من التداول في الثقافة الشعبية بعد دخــول الإســلام وتحريمــه للتشخيص إلا أنها عادت مع حداثة محمد علي في الوقت نفسه تختفي أو تضعف الملامــح الأساسية للثقافة الموجودة .

الصورة المنفصلة "المعلقة"وبداية التحول ناحية الغرب :

السؤال الذي بدأنا به المقال عن موقف الفن من الحياة وموقف الحياة من الفن "هل الفن وجود استثنائي بمعني أنه منفصل عن الحياة ؟ " نعود إليه ونحن نبحث عن ظهور الصورة المنفصلة في عصر محمد علي ، ولم نكن لنهتم كثيرا بتتبع تاريخها في هذا المقال لو لم يرتبط ظهورها بإحداث أهم تحول للفن منذ نشأته وحتى القرن التاسع عشر بانفصاله عن الدنيا وتحوله إلي منتج استهلاكي .منذ تلك اللحظة أصبح هناك تقدير ما لفكرة انفصال الصورة عن الواقع كجزء منه ، والتعليق عليه ،و تحوله إلي لحظة استثنائية ،يرجع هذا التقدير غالبا من فكرة أن الفن تخلص من ارتباطه بوظيفة أو غرض سواء كان دينيا أوإجتماعيا أو سياسيا ، لحظة انفصال الصورة عن العمارة ، وتحولها إلي "مشهد مستقل"، وعندها يصبح نقيا ، وإبداعا خالصا، علي الرغم من أن تلك المقولة تدحض نفسها في تاريخ الفن فظهور اللوحة المنفصلة عن العمارة أساسا كوجود مادي ،والمستقلة عن الدين كمحتوي أرتبط في الغرب بظهور الطبقة البرجوازية التجارية في القرن الرابع عشر ، والتي كانت تحاول فصل عناصر الوجود المادي لتسهيل عمليات التبادل والتسليع ، وبالتالي فإن نشأة الإطار ولوحة الحامل هي جزء عضوي من تغيير كبير يشمل بنية المجتمع ككل ، يترتب عليه فك ما هو متماسك لإدخاله في لعبة التبادل والسوق . لا نستطيع هنا أن نقول أن الطبقة البرجوازية التجارية في مصر قد لعبت نفس الدور الذي لعبته مثيلتها في الغرب ، فلم تقم بتفكيك بنية المجتمع المادية وتحريك عناصرها ، وبالتالي كان دخول اللوحة المنفصلة قرارا نابعا من فكوت محمد علي عن التطور وعن الحداثة التي لا تخص نمو التجربة الداخلية للفن في مصر، كما لم تفرضها أشكال الحياة الجديدة ، شكل البيت ، المعرض، سوق الفن ، الجمهور وخلافه. نعود إلي مقولة الفن المنفصل عن الغرض أو الوظيفة ونتساءل ألم تنفصل

اللوحة لترسيخ وظيفة جديدة لها كسلعة يتم تداولها وسرعان ما تخضع لآليـــات جديـدة يفرضها السوق؟.

عرف المصريون الصورة من فن المخطوطات و المنمنمات (الصورة المرتبطـة بالنص الأدبي) والإفرسك ، أما الصورة المنفصلة والمعلقة علي الحائط ، أي الصـورة كما عرفتها أوروبا فلم يشاهدها المصريين إلا مع الحملة الفرنسية حيث كـان الفنـانون الفرنسيون يرسمون في الأماكن المفتوحة فيراها الناس في الشوارع ، ثم بمجيء محمـد علي بصورة أوسع ليستكمل جانب الفن في دولته الحديثة فاستعان بالفنانين الفرنسـيين الذين تخلفوا عن الحملة الفرنسية وأقاموا في مصر لتسجيل الإنجازات الحديثة التي تمـت في عهده وكذلك لتصويره وتصوير أسرته ورجال الدولة ، وكان في ذلك يقلـد البـاب العالي بالأستانة. وجاءت الرسومات إما تصويرا زيتيا أو حفرا على الحجر أو رسما على الورق أو نحتا بارزا على سطح "ريليف" أو ثلاثى الأبعاد .

الصورة الزيتية :

قدمت اللوحة التى أدخلتها الحملة الفرنسية أولا ثم بشكل أوسع فى دولة محمد علـى الحديثة نموذجا جديدا للفن عند المصريين له تجليات تختلف عن الفن فى الشرق عموما ، ولا مجال هنا لمقارنة الصورة الشرقية بالصورة الغربية ، ولكن ما يهمنا هو أثر اللوحـة كمدخل جديد على العين المصرية ، فقد رأى المصريون من خلالها العالم بصورة جديـدة من خلال المنظور يقول الجبرتى فى ذلك " .. يصورون صور الآدميين مجســمة فـى الفراغ تكاد أن تنطق .." ، ومن خلال الصورة تعرفوا على خامات للداء غـير الزجـاج المعشق والإفرسك والحائط ، فالصور الزيتية تنفذ على القماش أو الورق بخامات الزيـت واللوان المائية ، وأصبح الحامل الذى تثبت عليه اللوحة إمكانية تساعد على تحريك العمل

الفنى فى فراغ مكانى أوسع فهو ورشة العمل وكذلك مكان العرض وكان الحامل يؤدى وظيفة الكاميرا الفوتوغرافية فيما بعد فالقماشة المربعة أو المستطيلة المشدودة عليه مقسمة إلى مربعات صغيرة تنقل بحسابات المنظور المنظر الذى فى الخلف والذى يريد الفنان تصويره طبقا لمسافات القرب والبعد ، كما ساعد استقلال اللوحة الفنية عن المحتوي الأدبي أو الديني أو السياسي إلي أتساع الموضوع حتى أصبح كونيا .

الفنان الخاص :

أيضا أنتقل العمل الفني من عمل جماعي إلي فردي فاللوحة المنفصلة يقوم بعملها شخص محدد يحادثه الناس ، ويعرفونه بصفة شخصية ، ينظرون إليه ككائن خاص ، ويفاضلون بينه وبين فنان آخر . هذه العلاقة هي البداية الأولي الإيجابية في عملية التلقي الذي أنتقل إلي أرضية المقارنة ، والمفاضلة والحوار مع الفنان وتجاوزت بذلك الموقف السلبي أو الخارجي ، وكان من الطبيعي أن تنشأ فكرة "التقييم " بالنسبة للعمل الفني وأيضابالنسبة للفنان .

لوحة الحفر :

أما لوحة الحفر سواء علي الحجر أو المعدن فقد أربكت المصريين وأصابتهم بالدهشة نتيجة أنها تجمع بين إمكانيات الصورة كجنين فوتوغرافي في دقتها وواقعيتها ، وفي نفس الوقت قدرتها علي الاستنساخ ، وقد التحق كثير من المصريين بورش الحفر التي يرسم فيها الأجانب للتعرف علي تلك التقنية .وقد ساعدت تقنية الحفر الفنانون علي رسم خرائط المناطق والإحياء التي تطلب منهم وإعدادها في نسخ لاستخدامها في أغراض الحرب وكذلك بعض الأغراض المدنية للتسجيل والتوثيق .

ملامح المنتج الفني في تلك الفترة

ورغم أن الأسلوب ، وشكل اللوحة والعلاقة بين الفنان والمستهلك كانت داخل إطار غربي بالكامل ، وبالتالي الحديث عنها لا يخص الفن المصري ، ولكن ما يهمنا في هـذا الأداء الغربي عندما يتعلق بشخصية ومكان وواقع مصري ، فمثلا في البور تريه نجـد تقاليد أوروبية" فرنسية إيطالية "أساسا نري ذلك في البور تريه الذي رسمه بلليني للسلطان الفاتح محمد في تركيا وقد حاكاه محمد علي في ذلك ، وكذلك الصورة الجانبية "البر وفيل " بتأثير مدرسة فينسيا كما في أعمال ديللافرانشسكا ، وفي المنظر الطبيعـي الفرنسـي كما في أعمال بوسان وبوشيه وكلود جولي والإنجليزي في أعمال فراجو نار .

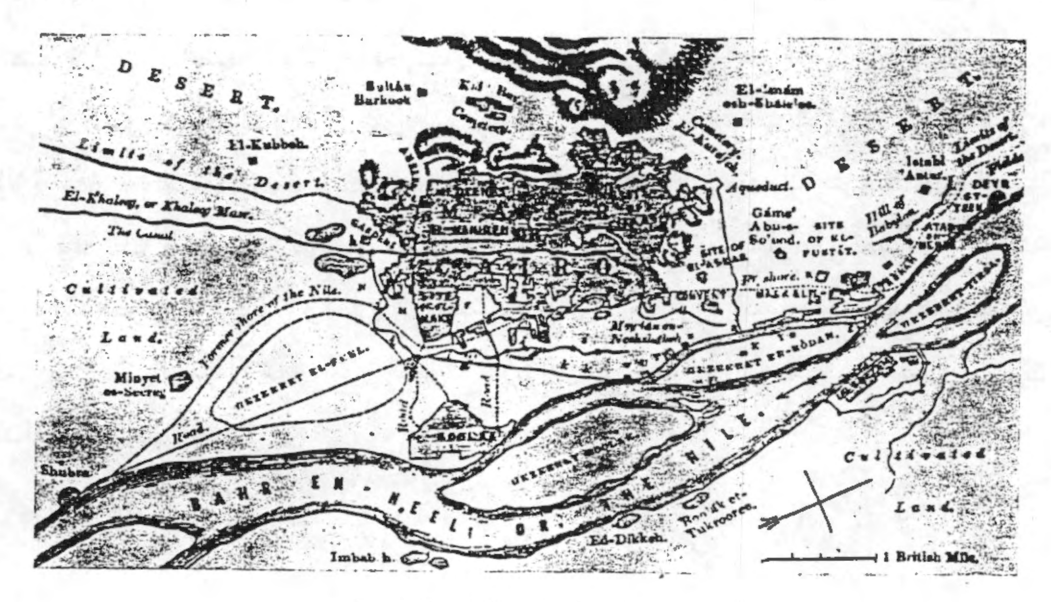
كان المشهد في اللوحة الغربية في جوهرs استشراقي أي في التركيز علي جوانـب الاختلاف ، ومناطق التميز.

العرض و الجمهور

خلق انفصال الصورة واستقلالها علي الحامل تكوين سلوك جديد علي المصريـين، فالناس يذهبون خصيصا لمشاهدة العمل الفني الذي يعرضه صاحبه في المكان يختاره هو والقابل للتغير بين يوم وآخر ، وقد أدي هذا السلوك إلي آلية مختلفة في منطق "الفرجـة" يتعلق بحركة الجمهور ، وكذلك فكرة العرض . فالعمل الفني قد يعرضه صاحبـه علـي الحامل ، في الشارع قرب النيل أو في المقاهي والأحياء الشعبية بالسيدة زينب ، وشـبرا ، والخرنفش ، والقلعة وحي الأزبكية و الحسين ، ويتوجه إليه الناس بقصد الفرجـة ، وأحيانا يتابعون خلق اللوحة منذ بدايتها وحتى الانتهاء منها .

هنا ينشأ سؤال عن علاقة المنتج الفني بالجمهور، هل كان جمهور الفن من الصفوة فقط ؟ ومتي إنتقل من الصفوة إلي الجمهور العام؟

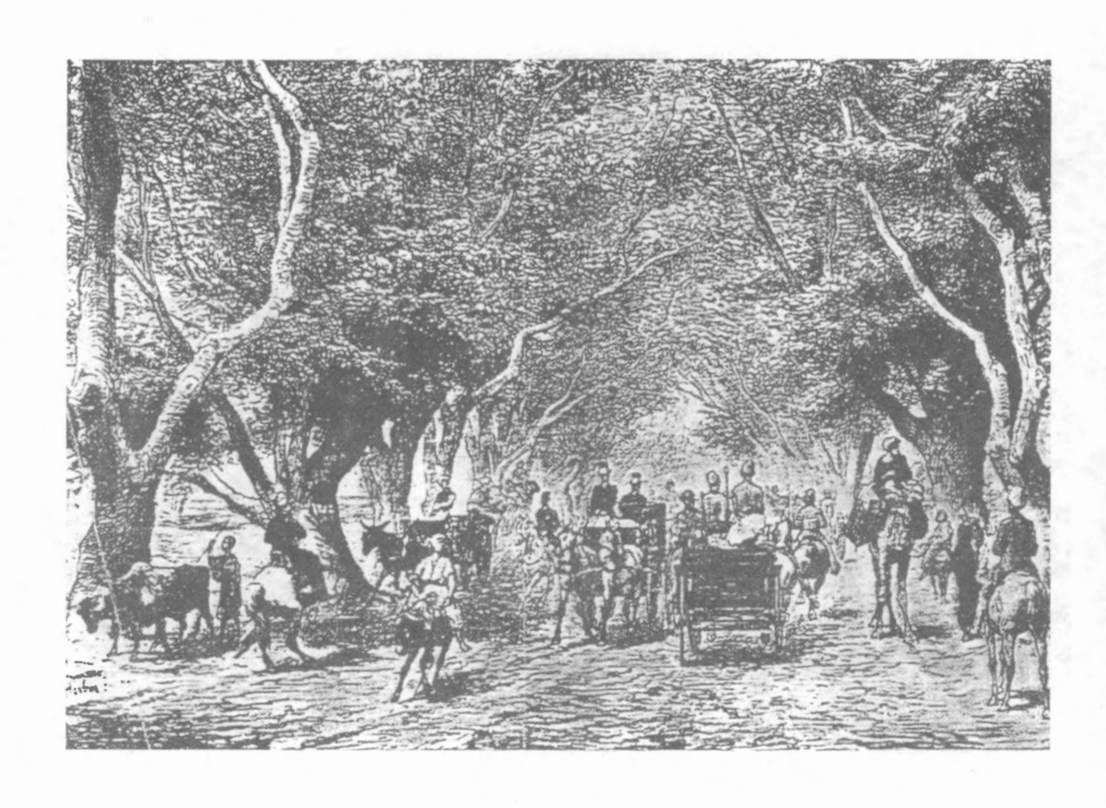
رغم تلك العلاقة التي كانت تنشأ من الناس العابرين والفنان وحتى مع تزايد المشاهدين إلا أنهم لم يخلقوا جمهورا حقيقيا للفن من الشعب وظل جمهور الفن من الصفوة أي من الطبقة الحاكمة فهم الذين يشترون العمل الفني وهم الذين يزينون به جدران قصورهم ، ولم يتحول الفن إلي الجمهور العادي من الشعب إلي جانب الصفوة إلا في فترة إسماعيل ، ولذلك فقراءة الفن في فترة محمد علي منفصلة عن الفترة التي تليها وهي فترة إسماعيل قد يبدو تعسفا إذ أن كل جديد لا يأتي بثماره في حينه ، وأعتقد أن مقالة أخري أو بحث عن الفن في النصف الثاني من القرن التسع عشر لهو أمر جدير بالأهمية حتى نستكمل معه دائرة المعرفة عن الفن في هذا القرن المحورى فى تحول ثقافة مصر نحو الحداثة .



Plan du Caire, d'après la sœur de Lane.

شكل رقم (١)

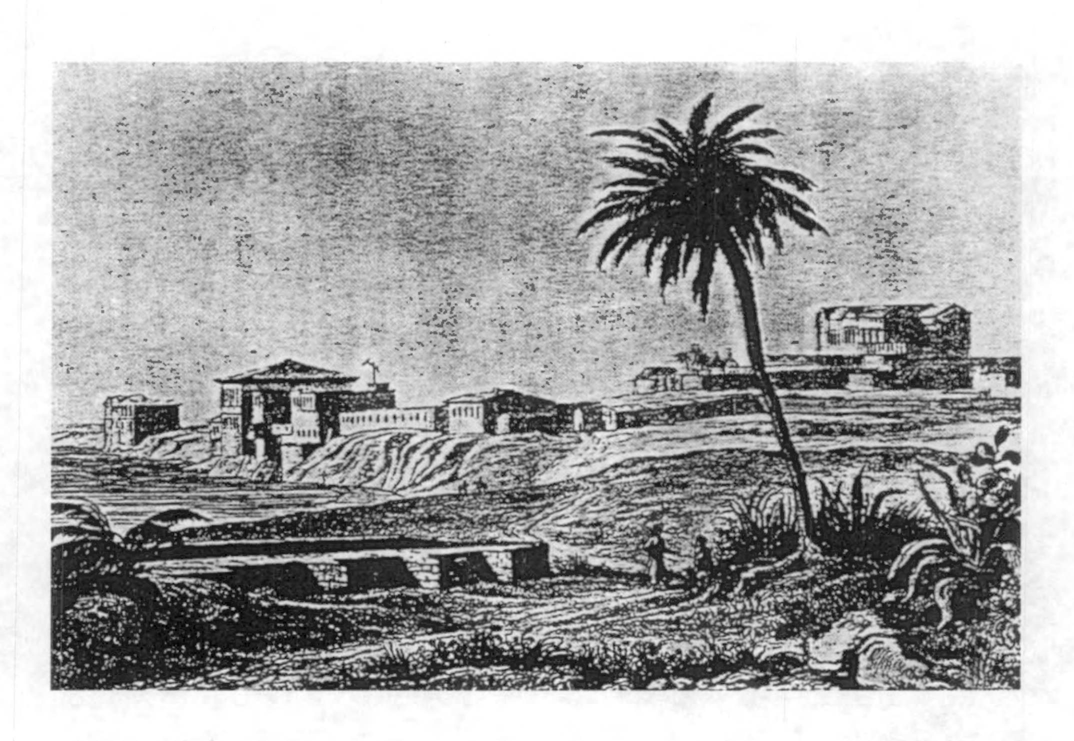
، لوحة حفر خريطة للقاهرة للفنان باسكال كوست



Avenue de Choubra, d'aprés Ebers (1₈ 79) .

شكل رقم (٢)

لوحة تصوير زيتى - ميدان شبرا للفنان ايبرس

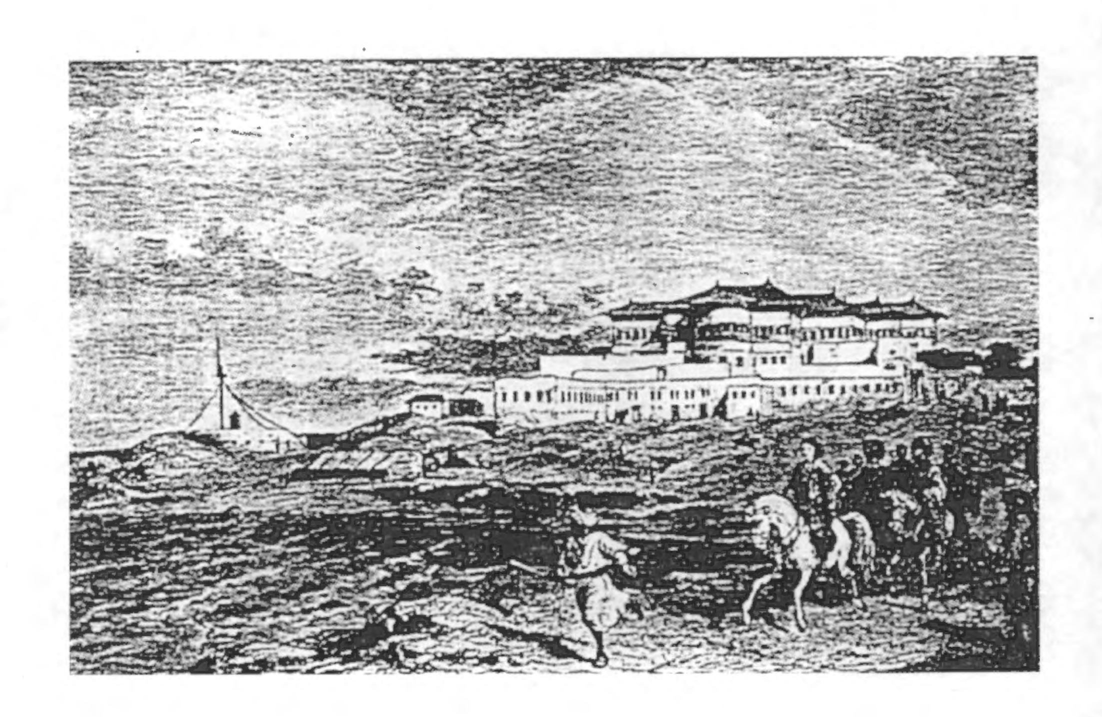


Palais de Ras el - Tin

(D'après un dessin de Buttra, reproduit par Weygand)

شكل رقم (٣)

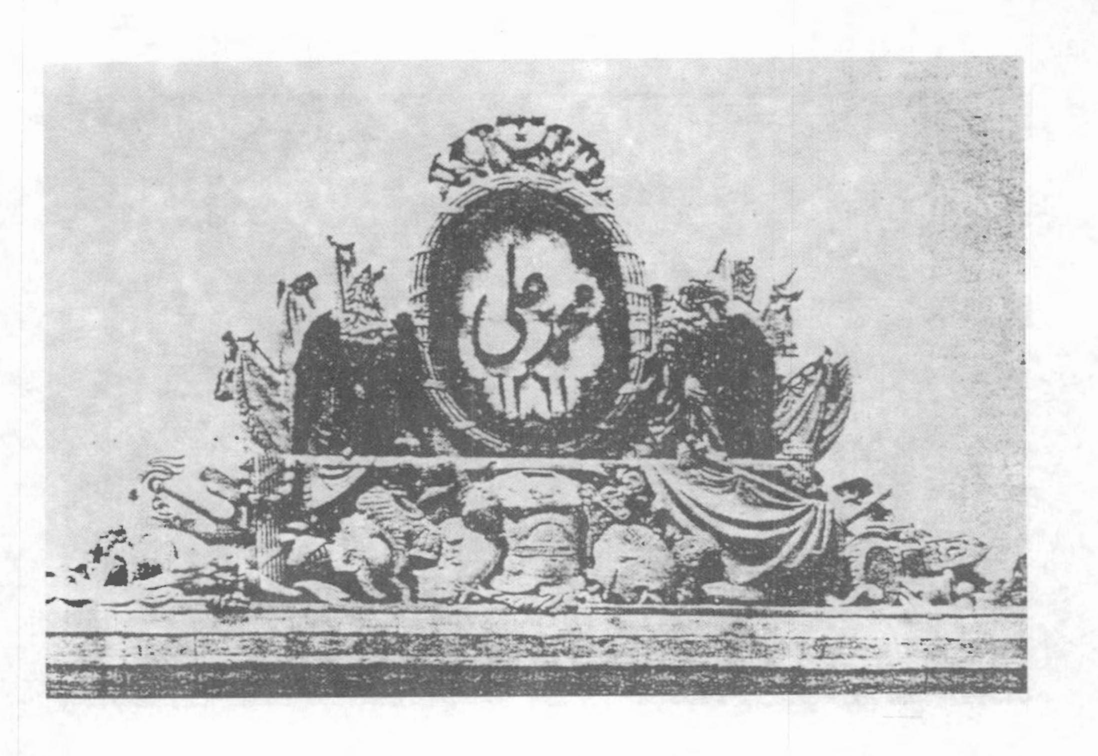
لوحة تصوير زيتى - قصر رأس التين



Palais de Ras el - Tin, d'aprés Poitou .

شكل رقم (٤)

لوحة تصوير زيتى - قصر رأس التين للفنان بواتو.

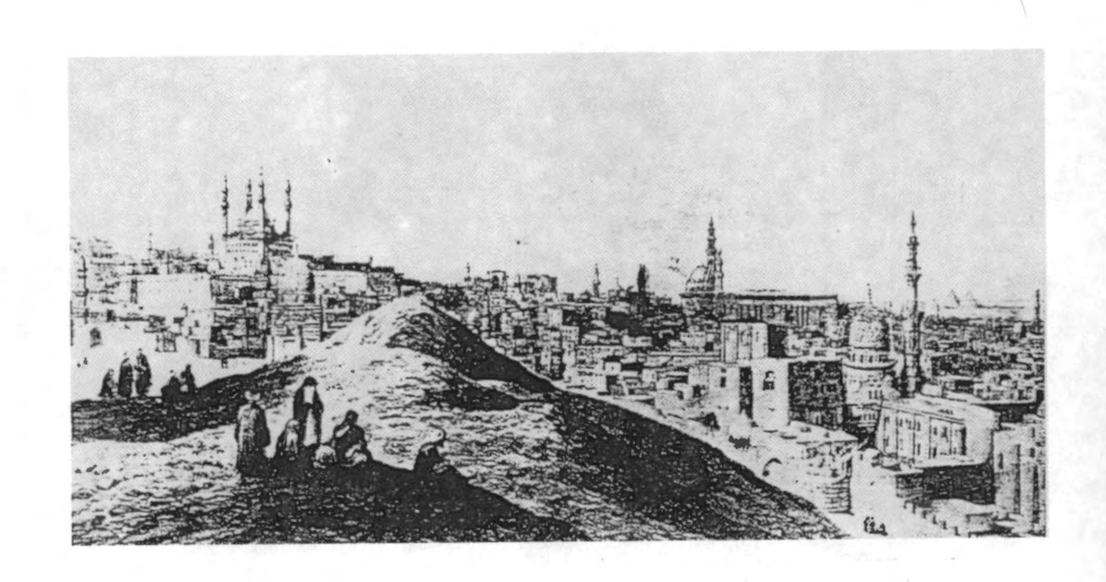


Morif en marbre surmontant la porte d’entrée .

(Palais de Ras el - Tin)

شكل رقم (٥)

ريليف حسن قصر رأس التين



Vue générale de la Citadelle et de la mosquée de Mohammed Ali.

Gravure de Schranz.

شكل رقم (٦)

لوحة حفر - منظر عام للقلعة وقصر محمد على

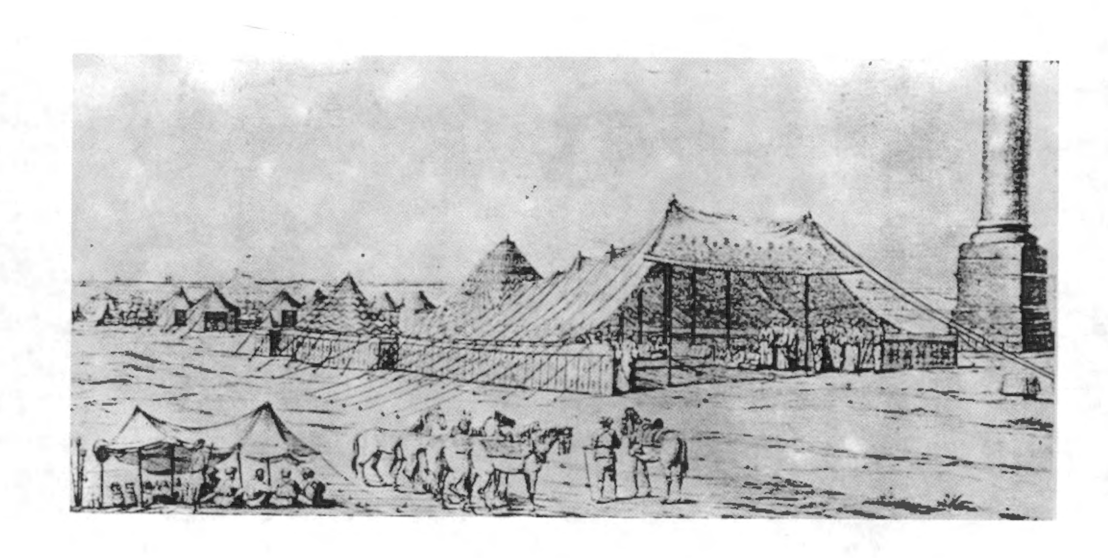


Enfanee de Mohammed Ali.

Camposition de Horeau.

شكل رقم (٧)

لوحة حفر - ابن محمد على للفنان هورو



- Camp du Pacha à Alexandrie.

Gravure de Pascal Coste.

شكل رقم (٨)

لوحة حفر - مغسكر الباشا بالإسكندرية - باسكال كوست



Aquarelle de Leander Russ, 1₈ 33 .

شكل رقم (٩)

لوحة ألوان مائية - ليندر روس



41 . Lithographúc d'Alexander Colin.

شكل رقم (١٠)

بورترية لألكسندر كولين - حفر على الحجر



3_5 . Buste par le sculpteur Dantan .

شكل رقم (١١)

تمثال نصفى للمثال الفرنسى دانتان

المنشآت المائية في عصر محمد علي

د. محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح

وصف كلوت بك محمد علي بأنه *أول عثماني استطاع أدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة*"[١]. فإذا كنا نتحدث عن مصر في عصر محمد علي إصلاح أم تحديث؟ فإننا سنجد أعماله في المنشآت المائية إصلاح وتحديث معاً.

كان لحالة الخراب العام -سواء في المدن أو الريف- التي شهدتها مصر منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى تولي محمد علي الولاية من انسداد الترع الرئيسية وبوار الأراضي الزراعية وتوقف الزراعة تقريباً نتيجة لهجر الفلاحين لأراضيهم نظراً لتضررهم من المعارك الداخلية وكثرة النهب والسلب لهم، ناهيك عن الضرائب والسلف، أكبر الأثر في بذل جهود محمد علي وأسرته ورجال دولته لتعمير مصر وإصلاحها، وكانت المشكلة الأساسية أمام محمد علي في الفترة الأولى من حكمه خلو الخزينة العامة، في حين أنه كان يريد موارد مالية ثابتة لمواجهة مطالب الجنود -الألبان والدلاة- بالإضافة إلى مطالب الدولة العثمانية، أو بمعنى أصح شراء رضاها عنه لبقائه في منصبه وإنجاز مطالبه، كما كان عليه القضاء على أمراء المماليك وصد أي هجوم أجنبي على مصر بعمل تحصينات للعاصمة والسواحل وإنشاء جيش جديد فضلاً عن تسليحه، بالإضافة إلى فكرة تأسيس دولة له ولأسرته التي كانت مسيطرة عليه[٢].

بدأ محمد علي في الالتفات إلى مظاهر العمران وبناء مصر الحديثة بعد جلاء الحملة الإنجليزية سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م وبعد اطمئنانه من السيطرة على المماليك، وبعد ازدياد النشاط التجاري وتطبيق سياسته الاحتكارية.التي سار عليها حتى آخر عهده لتوفير المال اللازم لتغطية نفقاته واحتياجات الدولة العثمانية منه في إرسال حملة للحجاز للإنهاء على الوهابيين وغيرها من الثورات التي قامت ضدها، وللبدء

في بناء دولة مستقرة [٣].

وقد أخذت المنشآت المائية نصيبا كبيرا من أعمال محمد علي في إعادة تعمير البلاد وتحديثها، فبلغت مباني القناطر في عهده ٤٨٨٠٠٠ متر مكعب بالوجه البحري و٤٧٥١٤٠ متر مكعب بمصر الوسطى والوجه القبلي[٤]، كما حفر وأعاد حفر ١٢٦,٥٣٦,٦٤٧ متر مكعب من الترع [٥].

من أمثلة أعمال الإصلاح إصلاحه لترعة الفرعونية بإقليم المنوفية التي اهتم بها لأنها كانت بين فرعي دمياط ورشيد، وكان بها خلال منذ نهاية القرن ١٢هـ/١٨م، بحيث لا تصل المياه الكافية إلى فرع دمياط وبذلت عدة محاولات لإصلاحه وخاصة في وقت الحملة الفرنسية، حتى جاء محمد علي وأصلحه على مراحل بداية من سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م –وكان يذهب بنفسه ويقيم أثناء العمل– حتى انتظمت المياه في فرع دمياط وأصبح صالحا للملاحة والري "*بعد أن كان مخاضة وملحت عذوبة النيل بما انعكس فيه وخالطه من ماء البحر الملح إلى قبلي فارس كور*" سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م على يد المهندس دي لاتور موبورج de Latour Moubourg بل وعين عليه من يقوم بإصلاحه عند أي خلال [٦].

والمثال الآخر هو **ترعة المحمودية** (نسبة إلى السلطان محمود)، وكان موقعها هو نفسه الخليج الناصري (نسبة للناصر محمد بن قلاوون) والخليج الأشرفي (نسبة للأشرف برسباي)، وقد أزال الفرنسيين جزء من الرواسب وأصبح الخليج صالح للملاحة سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م بل وأعدوا مشروع شامل لإصلاحها ولكن لم يسمح الوقت لهم بذلك، ثم أعاد محمد علي حفره مرة أخرى ابتداء من سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م ليختصر وقت الوصول بالبضائع من داخل البلاد إلى الإسكندرية مباشرة والعكس لخدمة حركة التجارة في المحاصيل الزراعي وغيرها، كما كانت هذه الترعة من الأهمية بمكان لإمداد سكان مدينة الإسكندرية بالماء العذب، بالإضافة إلى

استعمالها في ري الأراضي الزراعية للمحاصيل الصيفية، وكان محمد علي يسافر لتفقد الأعمال بنفسه من وقت لآخر، وانتهى حفرها سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م تحت إشراف المهندس الفرنسي باسكال كوست Pascal Coste، كما أنشأ ميناء في نهايتها عند عمود السواري بالإسكندرية، وعين كثيراً من المهندسين لمباشرة أعمال الري وحفر الترع وعمل الجسور، وكان هذا الحدث من أهم أسباب ازدهار الإسكندرية وأفول نجم مدينة رشيد، وظهور مدينة جديدة هى مدينة المحمودية(٧).

أما الترع التي حفرها محمد علي فمنها الترعة البولاقية القبلية التي تمت في سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م، حفرها محمود أفندي الميارجي مدير القليوبية والمهندس ثاقب باشا، وكانت تمتد من منطقة قصر النيل الحالية إلى شبرا بطول ١٨٣٠٠ متر، لري أراضي ضواحي القاهرة وبولاق كجزيرة بدران ومنية السيرج وشبرا في وقت الفيضان، ومكانها الآن شارع الجلاء وشارع الترعة البولاقية (٨).

ومن أمثلة الإصلاح الأحرى التي شهد له بها مؤيدوه ومعارضوه إصلاحه لجسر الإسكندرية بطول ١٢٤٣ متر، والذي كان يرمم من وقت لآخر عبر العصور لاعتباره من الجسور الهامة التي تحمي مياه النيل والأراضي الزراعية من طغيان مياه البحر المالحة، بالإضافة إلى أنه كان الطريق الرابط الأساسي بين الإسكندرية ورشيد(*)، وفي فترة الاضطرابات حدث به شرخ فتسربت مياه البحر المالحة

(*) **طريق إسكندرية/ رشيد** استعمل هذا الطريق منذ أواخر العصر المملوكي لانسداد خليج الإسكندرية منذ عصر الغوري، وعلى سبيل المثال في العصر العثماني كان الباشا العثماني عندما يصل إلى مصر عن طريق البحر ينزل في ميناء بالإسكندرية، ثم كان يمر بعدة محطات فيذهب إلى رشيد ويأخذ مركب في النيل إلى ميناء القاهرة في بولاق، ثم إلى العادلية في شمال القاهرة قبل أن يستقر أخيرا في قلعة القاهرة. وهذا الإجراء كان يستغرق أسابيع عدة، إذ يحتفي به في كل من تلك المحطات، حيث يتقابل مع أمراء المماليك وكبار موظفي الدولة العثمانية في القاهرة، ويتم تبادل الهدايا مع الباشا. والفترة التي تستغرقها الاستقبالات المذكورة تعطي سلطات القاهرة الفرصة

للأراضي الزراعية بين الإسكندرية ورشيد حوالي سنة ١٢٠٢هـ/ ٨٧-١٧٨٨م، وعندما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لطرد الفرنسيين كسر الجسر الجنرال هتشنسون من الناحية الشمالية لقطع الطرق ومحاصرة الفرنسيين بالإسكندرية، فاندفعت المياه المالحة إلى قرب دمنهور واختلطت بخليج الإسكندرية (ترعة المحمودية فيما بعد) وخربت الأراضي وتلف الزرع، ولم يصل الماء العذب إلى الإسكندرية، وبعد استيلاء العثمانيين على مصر أرسلت الدولة صالح أفندي مع المهندس السويدي رودن Rhoden لترميم هذا السد ومعه المعدات اللازمة من أخشاب وخلافه واستغرق العمل سنة ونصف حتى قرب من الانتهاء فحدثت الاضطرابات بين علي باشا الجزايرلي وأمراء المماليك فكسر علي باشا الجسر مرة أخرى في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م ليتحصن بالإسكندرية، ووصل بعد ذلك فرمان سلطاني سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م بتعيين محمد صالح من رجال الدولة ومعه مهندسون لسد قطع هذا الجسر على أن تكون نفقات ذلك من خزينة مصر. ثم قطعه الإنجليز مرة أخرى عند انسحابهم سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م من رشيد إلى الإسكندرية عند أبي قير بين بحيرتي المعدية ومريوط -كان عمق القطع خمسة أمتار- حتى يغمر المنطقة ماء البحر ولا يتمكن جيش محمد علي من الوصول إليهم، وإصلاحه محمد علي سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م لإنعاش حركة التجارة إلى الخارج ومنع ماء البحر عن أراضي مديرية البحيرة -كانت مياه البحر تصل حتى منطقة حوش عيسى- للمساعدة على استصلاحها وزراعتها [٩].

أما **القناطر**، فقد أولاها محمد علي اهتماما كبيرا سواء كانت لنقل المياه أو

= لمحاسبة الباشا المعزول وإعداد قائمة بحساباته لتقديمها للباشا الجديد. أنظر: أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الوهاب بكر ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩١م، ص٤.

لتنظيم الري، وكان أولها أصلحه لقناطر فم الخليج (أثر رقم ٧٨) لضمان مصدر الماء العذب لقلعة الجبل، فأمر في سنة ١٢٢٣هـ/٨-١٨٠٩م ببناء العقود المتهدمة منها، وكانت متخربة منذ عشرين سنة ومهجورة لا ينقل عليها الماء إلى القلعة، فحشد لها الصناع والعمال حتى تمت على يد محمد أفندي الودنلي ناظر المهمات في أواخر ذي القعدة من العام نفسه (١٠).

جدد كذلك قناطر اللاهون التي كانت في الأصل من عمل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري في القرن ٧هـ/١٣م لتنظيم الري بمنطقة الفيوم وجددت بعده عدة مرات في العصرين المملوكي والعثماني، ثم جددها محمد علي سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وبنى قنطرة أخرى إلى الشرق منها سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م (١١).

بدأ محمد علي أيضا في إنشاء عدة قناطر كان أهمها مشروع القناطر المجيدة الخيرية -نسبة إلى السلطان عبد المجيد- في سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م للاستفادة منها في تنظيم مياه فيضان النيل والتحكم في توزيعها على أراضي الدلتا، والاستفادة بالمياه في الصعيد بعد الفيضان، وأمر بإرسال طلاب المهندسخانة إلى موقع العمل للتدريب العملي أثناء المشروع، ولكن توقف العمل سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م لانتشار الطاعون، ثم استأنف العمل مرة أخرى ووضع حجر الأساس فى ٢٢ ربيع ثان سنة ١٢٦٣ هـ / ٩ إبريل ١٨٤٧م، ولكنه لم يستطع إنهاء هذا المشروع فى حياته ولكن انتهى بنائها فى عصر حفيده إسماعيل (١٢) .

قناطر التسعة

كان أيضا من مشاريع القناطر الهامة التي نفذها محمد علي في النصف الأول من فترة حكمه قناطر التسعة بالزقازيق، وترجع أهميتها أنها كانت في إطار مشـروع زراعي صناعي نشأ عنه ظهور مدينة جديدة هى مدينة الزقازيق التي أصبحت فيمـا بعد عاصمة محافظة الشرقية. وكان المقصود من المشروع زراعة أشجار الزيتـون لاستخدام محصولها في صناعة الصابون، وزراعة أشجار التوت لتربيـة دودة القـز تمهيدا لصناعة الحرير، وترتب على ذلك استيطان الفلاحين المعدمين بجهات الشرقية في الأراضي الجديدة التي استصلحت، أي انه كان إصلاح وتحديث معا. وقـد قـال الجبرتي عن هذا المشروع "*وأنتشأ دنيا جديدة متسعة لم يكن لها وجود قبل ذلك بـل كانت برية خرابا وفضاء واسعا*" [١٣].

بعد أن انتهى محمد علي من قياس (تربيع) الأراضي الزراعية وإنهاء نظـام الالتزام ومعرفة ما يصلح منها للزراعة سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م، بدأ في اسـتطلاع الأراضي التي يجب استصلاحها والمحاصيل التي ستزرع بها [١٤]، فذهب في أواخـر سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م إلى المنطقة المعروفة برأس الوادي "وادي الطميلات" عنـد مدينة بلبيس، حيث كانت مياه الفيضان تغمرها لفترة طويلة يستحيل معها زراعتـها، وعهد إلى ابنه إبراهيم باشا والمهندس الفرنسي بسكال كوست بتوفير المياه المنتظمـة لزراعة هذا الوادي بأشجار التوت والزيتون، فحفروا ترعة "الوادي" في خمسة أيـام باستخدام ٨٠،٠٠٠ عامل جمعوهم من نواحي الشرقية، وكانت بدايتها من بحر مويس غربا وحتى بلدة نفيشة عند الإسماعيلية الحالية شرقا بطول ٢٠٥٩٠ متر، كما طـهر ١٤٠٧٦ مترا من الترع القديمة وأدخلها في الترعة الجديدة ليصبح طولها ٤٥ كيلـو متر، وبني عدد من الجسور للحفاظ على مياه الترعة، وعمل أكثر من ألف ساقية مـن الخشب صنعت في بيت الجبجي بالتبانة (هو بيت الرزاز، أثر رقم ٢٣٥) ونقلت على

ظهور الجمال إلى هناك. واكتملت السواقي في ربيع ثان سنة ١٢٣٢هـ/فبراير ١٨١٧م. وأمر بإحضار الفلاحين المعدمين بإقليم الشرقية للاستيطان بهذا الوادي وزراعته وتعلم تربية دودة القز وصناعة الحرير، وأحضر متخصصين في ذلك من تركيا وبلاد الشام وجبل لبنان لتعليمهم ، واكتمل استصلاح أراضيها وزرعها أشجار التوت لاستخراج الحرير على طريقة أهل الشام وجبل الدروز، وذكر بورنج Bowring أنه زرع ثلاثة آلاف فدان من أشجار التوت بكل فدان ٣٠٠ شجرة، وكان كل ذلك تحت إشراف محمد علي المباشر [١٥].

كان محمد على بعيد النظر فى حفر هذه الترعة وجعلها صالحة للملاحة ، إذ أنه عند حفر قناة السويس مدت هذه الترعة لينتفع بها فى الشرب ، ثم اندمجت فى عهد الخديوى إسماعيل فى ترعة الإسماعلية التى تمد منطقة القناة بطولها بالمياه العذبة[١٦].

أصدر بعد ذلك أمرا فى ٧ شعبان ١٢٣٣هـ / ١٢ يونيو ١٨١٨م بتأسيس وتنظيم مصلحة الأنوال والعزل فى سائر القاليم ، وأصدر أمرا فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٣٦هـ / ديسمبر ١٨٢٠م بتأسيس أماكن لتربية دودة القز بالقطر المصرى ، وإحضار ما يلزم لصناعة الحرير [١٧] .

كان على محمد على بعد ذلك الحفاظ على تنظيم إمداد الترعة الجديدة بالمياه، فأصدر أمرا بعمل قناطر على بحر مويس إلى الشمال من فتحة ترعة الوادي في ١٠ شوال سنة ١٢٤٣هـ/٨ مايو ١٨٢٧م *إلى محمود بك يقضي بفتح ترعة مويس وتجهيز المعدات اللازمة لذلك*" [١٨]، وتم العمل بها تحت إشراف أحمد أفندي البارودي "باشمهندس مديرية الشرقية" سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م [١٩].

بنيت هذه القناطر في مكان سد قديم كان على بحر مويس [٢٠]، من ثلاثة أجزاء (أنظر الخريطة المرفقة)، بني الجزء الرئيسي على بحر مويس ويتكون من

ستة عيون معقودة بالحجر وفي نهاية هذا الجزء من جهة الشرق هويس، والجزء الشرقي يخرج منه بحر مشتول الذي قام بحفره محمد علي أيضا سنة ١٢٤٣هـ/٢٦-١٨٢٧م وهو ذو ثلاثة عيون [٢١]، أما الجزء الغربي فيخرج منه ترعة المسلمية التي حفرها محمد علي سنة ١٢٤٣هـ/٢٦-١٨٢٧م أيضا وتتكون من ثلاث عيون [٢٢] كما هو مبين بالرسم المرفق [٢٣]. وقد بنيت هذه القناطر بأجزائها الثلاث من الحجر الجيري والطوب الأحمر الذي جلب من المباني القديمة بمنطقة تل بسطا [٢٤].

ترتب على بناء تلك القناطر نشئت مدينة جديدة هى مدينة الزقازيق التي نسبة إلى الشيخ إبراهيم زقزوق الذي كان رئيس العمال كما انه كان أحد رؤساء العمال القادمين من كفر الزقازيق -لازال هذا الكفر بنفس الاسم إلى الشمال الشرقي من القناطر- وبنى العمال مساكن لهم -عشش وأخصاص بجوار موقع العمل الذي سمي "نزلة الزقازيق"، فسميت القناطر "قناطر الزقازيق"، وبنى محمد علي جامعا بنزلة الزقازيق لازال موجودا بالقرب من القناطر، وهكذا تكونت النوة الأولى لمدينة الزقازيق [٢٥]. وقد صدر الأمر إلى مدير الشرقية في ١٩ شوال سنة ١٢٤٩هـ/١ مارس ١٨٣٤م "ببناء وإنشاء مكاتب بالزقازيق والعزيزية وكفر نجم والوادي، وبصرف المهمات اللازمة وتعيين المهندسين المباشرين[٢٦].

الهوامش

١- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، ٤ أجزاء، دار الموقف العربي، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤، ج٣، ص١٨١.

٢- محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة من ولاية محمد علي إلى إسماعيل، ١٨٠٥-١٨٧٩م، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٧م، ص٥٧، ٨٣-٨٥، ٨٧-٨٨.

٣- محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة، ص٨٧-٨٨.

٤- علي شافعي: أعمال المنافع العامة الكبرى في عهد محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص٤٥-٤٦.

٥- علي شافعي: أعمال المنافع العامة، ص٢٧.

٦- الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق حسن محمد جوهر، عبد الفتاح السرنجاوي، السيد إبراهيم سالم، عمر الدسوقي، ٧ أجزاء، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٧م، ج٣، ص٣٢٠، ج٧، ٤٥، ٥٣-٥٤، ٥٩-٦٠، ٧٢، ١١٧، ١٣٨ ؛ علي شافعي: أعمال المنافع العامة، ص٢٣-٢٤ ؛ محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، مصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٤٨م، ص٤٠ ؛ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، القاهرة ١٩٦٨م، ص٣٢٤-٣٢٧.

٧- الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٣٧١، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٥١-٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٦-٤٥٧، ٤٦٢، ٤٧٠ ؛ الرجبي، الخليل بن أحمد، الشافعي الشاذلي: تاريخ في شأن الوزير محمد علي، تحقيق دانيال كريسيليوس وحمزة عبد العزيز بدر

وحسام الدين إسماعيل، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٠١-٢٠٦ ؛ كلوت بيك: لمحة عامة، ج٢، ص١٢، ٣٢، ٣٨-٣٩، ٤٠-٤١، ج٣، ص١٦٥ ؛ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، ٢٠ جزء، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة سنة ١٣٠٦هـ، ج٧، ص٤٥، ٥٠-٥١، ج١٩، ص٧٥، ٨٦، ٨٧-٩٣ ؛ عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية، الإسكندرية سنة ١٩٤٢م، ص٥٩-٧٢، ٧٧-٩١، ٩٥-١٥٢ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، الجزء الثاني، الجزء الثالث (٣ مجلدات) وملحق، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٦م، ج٢، ص٢٥٩، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤.؛ علي شافعي: أعمال المنافع العامة، ص٢٨-٣١، ٧٧ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٠-٤٣، ٦٩، ١٣٩، ٢٢١، ٢٩٩، ٤٩٣، ٥٠٣-٥٠٤،٥١٧ ؛ ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر، ص٣١٣-٣٢١؛ محمد محمود السروجي وآخرون: الإسكندرية منذ أقدم العصور، الإسكندرية ١٩٦٣م، ص٣٥٨-٣٦١ ؛ محمد حسام: مدينة القاهرة، ص٨٤-٨٥.

٨- علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص٤٣، ٤٤.

٩- أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٨٧، ٢٦٢-٢٦٣، (تاريخ الجسر وكسره في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م)، ج٤، ص٥٦، ٢٥٨ الرجبي: تاريخ الوزير محمد علي، ص١٩٩-٢٠١ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص١٧٣ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤١ ؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، ثلاث أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة سنة ١٩٥٨م، ج١، ص٣٥، ٢٠٠، ٢٠٩، ج٢، ص٧٣٠ ؛ علي شافعي: أعمال المنافع العامة، ص٢٣؛ ريفلين: الاقتصاد والإدارة، ص٣١١-٣١٣. ونلاحظ هنا أن رأي الجبرتي في همة محمد علي لم يختلف كثيرا عن رأي الشيخ

الرجبي المحابي دائما لمحمد علي، غير أن الجبرتي تمنى بعد ذلك أن يوفق الله محمد علي لشيء من العدالة حتى يصبح أعجوبة زمانه.

١٠- الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٤٩، ٥٠، ٧٢، ٢٠١ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص٦٨، ج١٣، ص٥٧ ؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علـــي، مجلـــة العمارة مج٣، سنة ١٩٤١، ع٣-٤، ص٨٧ ؛ سعاد ماهر محمد: مجرى ميـــاه فم الخليج، المجلة التاريخية المصرية، مج٧، ســـنة ١٩٥٨م، ص١٤٠-١٤١، ١٤٩.

١١- علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص١٣٥ ؛ علي شافعي: أعمال المنـــافع العامـــة، ص٦١ ؛ سعاد ماهر: محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فـــي العصر الإسلامي، القاهرة سنة ١٩٦٦م، ص٧٢-٧٣.

١٢- أنظر : علـــى مبـــارك : الخطـــط، ج١١ ، ص ٩٣-٩٤، ج١٩ ، ص ٢-٣ ؛ الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا ، من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩ ، القاهرة سنة ١٩٢٣، ج١، ص ٨٩؛ أمين سامى : تقويم النيل ، ج٢، ص ٣٣٥، ٤١٨، ج٣، مج٢، ص ٧٨٨، مج ٣ ، ص ١٢٣٢؛ جـــورج جندى وجاك تاجر : إسماعيل كما تصوره الوثائق الرســـمية ، القـــاهرة ســـنة ١٩٢٣، ص ١٥٢، ١٦٥؛ حسن عبد الوهاب : قناطر محمد علـــى، ص ٨٧-٨٨؛ على شافعى : أعمال المنافع العامة، ص ٤٧-٦٠؛ شكرى : بناء الدولة ، ص ٤٣-٤٧؛ ريفلين: الاقتصاد والإدارة ، ص ٣٣٥-٣٤٢.

١٣- الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٤٠١.

١٤- الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٢٦٩، ٢٧٩-٢٨٢ ؛ شكري: بنـــاء دولـــة، ص٣٦-٣٨.

١٥- الجبرتي: عجائب الآثـــار، ج٧، ص٣٦٧-٣٦٨، ٤٠٠-٤٠١، ٤١٥، ٤٦٥ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٦١ ؛ شكري: بناء دولة، ص٣٩، ٤١٦، ؛

ريفلين: الاقتصاد والإدارة، ص٢٤٢، ٣٣٣.

١٦- على مبارك : الخطط ، ج١٩ ، ص ٥٥.

١٧- أمين سامى : تقويم النيل ، ج٢ ، ص ٢٦٤، ٢٨٩؛ عمر طوسون : الصنـــائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا ، الطبعة الثالثة ، الإسكندرية سنة ١٩٣٥م ، ص ١٠.

Rivlin , The Agricultural Policy of Muhammad ' Ali in Egypt, 165-166; Bowring, Report on Egypt and Candia, 21,30,145-146.

١٨- أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٣٣٥.

١٩- علي مبارك: الخطط، ج١١، ص٩٣، ج١٩، ص٥٣، ٥٥، ٥٦.

٢٠- علي مبارك: الخطط، ج١١، ص٩٣.

٢١- علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص ٥٦.

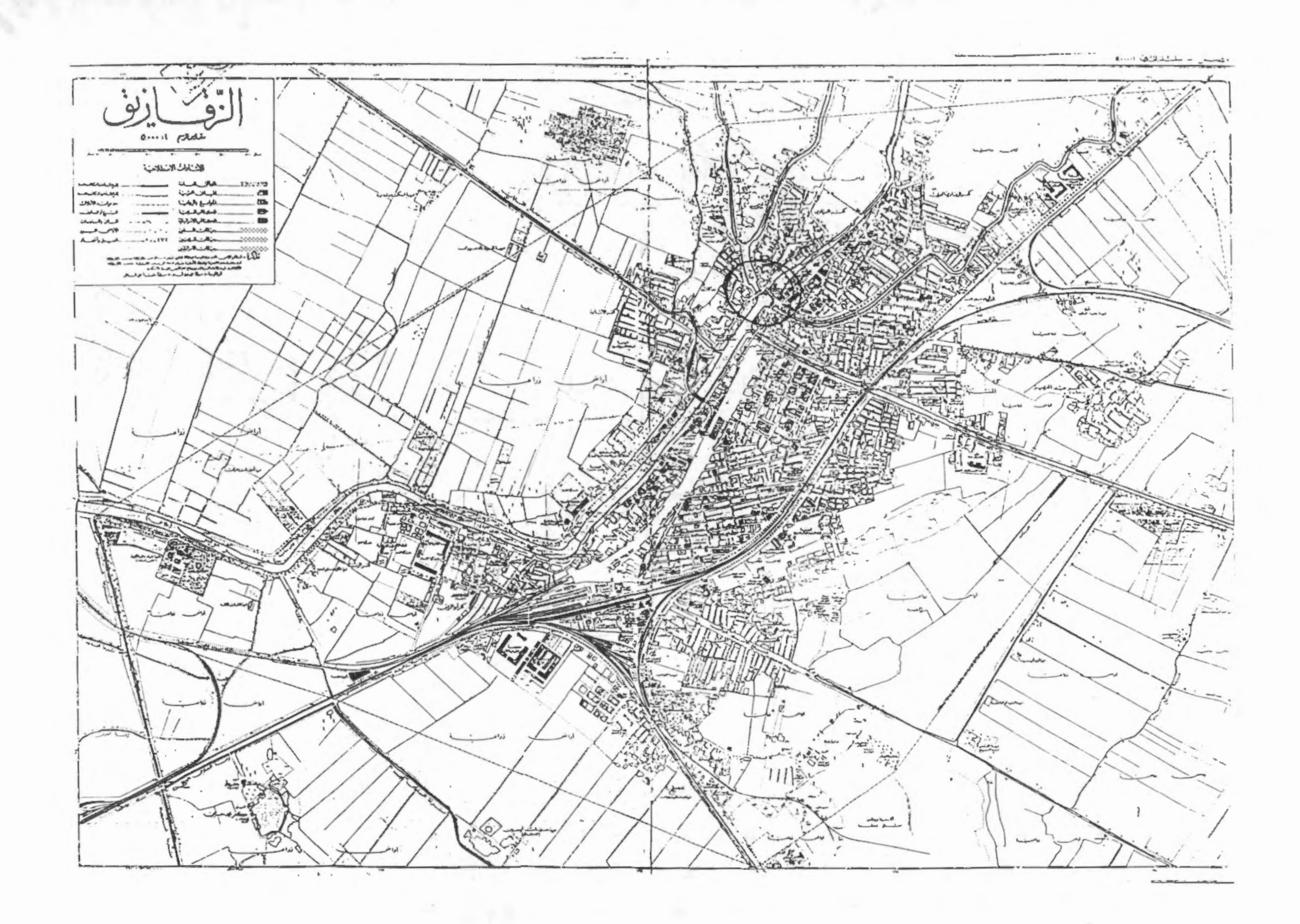
٢٢- علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص٥٥-٥٦.

٢٣- المسقط الأفقي والقطاع الرأسي مأخوذ من علي شافعي: أعمال المنافع العامة.

٢٤- علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص٥٣.

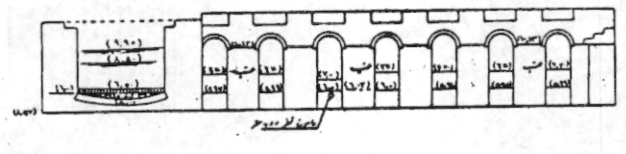
٢٥- علي مبارك: الخطط، ج١١، ص٩٣-٩٤ ؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلـــى ســنة ١٩٤٥م، قســمان، ٥ أجزاء، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤م، ق٢، ج١، ص٢٤، ٨٩-٩٢.

٢٦- أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٤١٨.


الزقازيق
مقياس الرسم ١ : ٥٠٠٠
الإشارات الاصطلاحية

قنطرة النسعة على بحر مويس

مقياس الرسم ١ : ١٠٠

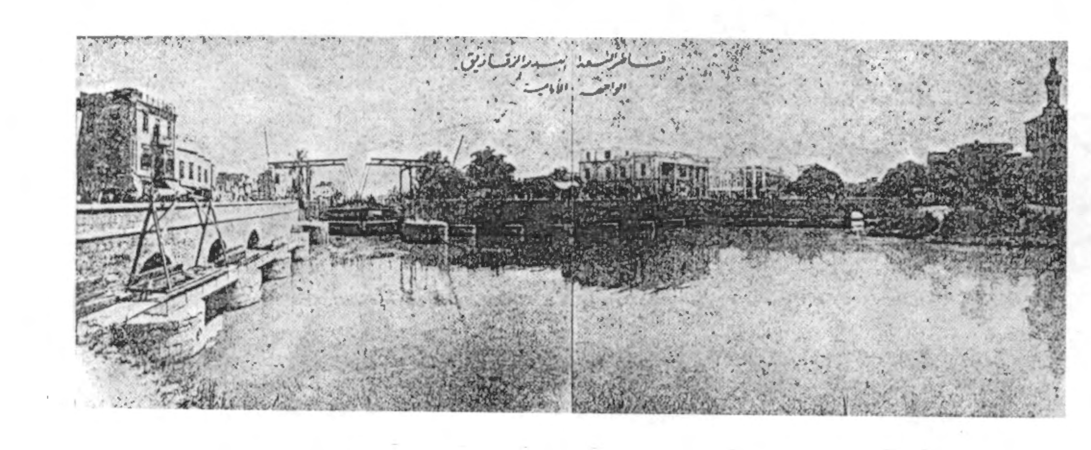


قطاع رأسى

مسقط أفقى

فم بحر شنوان

فم ترعة المساعيد



قناطر التسعة الواجهة الخلفية

دراسات بلغات أجنبية

Reform or Modernization ?

EGYPT UNDER MUHAMMED ALI

Symposium organized by

The Egyptian Society of Historical Studies

9 - 11 March 1999

Editor

Raouf Abbas

Contents

Persistent Myths about the Muhammad 'Ali Period

Fred H. Lawson
Department of Government

Twenty years ago, scholars based in Cairo, Aix-en-Provence and Los Angeles launched a co-ordinated assault against the conventional wisdom concerning early nineteenth-century Egypt. The campaign succeeded in revising virtually every aspect of the history of the Muhammad 'Ali period: Egypt's economy proved to be dynamic rather than stagnant; private agricultural holdings took shape long before the famous 1858 land law; government efforts to promote mechanized industry and commercial monopolies fared a good deal better than contemporaneous European observers hoped; senior religious notables turned out to be just as likely to mobilize popular opposition as they were to rally support for the authorities; artisans rather than peasants stood at the heart of the rebellions that swept the provinces; and Muhammad 'Ali himself comes out a level-headed reformer, not a rapacious tyrant. Post-revisionist scholarship can go in one of three directions: it might uncover additional topics and subject them to similar revision; it might propose some way to reconcile or synthesize conventional and revisionist accounts; or it might mount a last-ditch defense of the older interpretation using new evidence, a project John Lewis Gaddis aptly calls "orthodoxy plus archives."

Sadly, recent studies of this crucial period of modern Egyptian history present a picture that looks a lot like orthodoxy plus archives. Instead of carrying on the revisionist research program of the late 1970s, current work tends to reiterate earlier views regarding several key aspects of the Muhammad 'Ali era, in effect reviving longstanding myths about early nineteenth-century Egypt--myths that the revisionists had explicitly set out to debunk. Four such myths appear to be particularly persistent: 1) that the best way to explain events during the four decades after 1805 is to say what the country's ruler might have intended to accomplish by them; 2) that the mass of the population suffered intolerable hardship as a direct result of the regime's economic and military programs; 3) that the government's commercial and industrial initiatives were at best misguided and at worst detrimental to the future development of the local economy; and 4) that the most important trends in local society were ones most closely associated with European interests. Each of these four myths merits brief elaboration.

Muhammad 'Ali al-Kabir and the Great Man theory of history

Perhaps the hoariest of the myths that pervade the history of early nineteenth-century Egypt is the presumption that virtually everything that took place in years after 1809 can best be explained in terms of the will of the ruler.

Ehud Toledano's writings offer numerous examples of this line of

reasoning. Around 1810, for instance, Toledano asserts that "Muhammad 'Ali began to introduce a centralised economic system and to tighten his control over the land. However, he worked cautiously and gradually, with the intention not to upset the delicate balance of power too drastically too fast."[1] "Between 1812 and 1815," Toledano continues, "Muhammad 'Ali revoked all tax-farms (iltizams), with modest compensation to their holders, and taxed wakf lands. He also tightened the tax-collection network, relying on village headmen and Coptic assessors." After this, "Muhammad 'Ali instituted an effective system of monopolies;" "Muhammad 'Ali Pasha [then] launched his industrial experiment, which mostly aimed at import substitution and at supplying the armed forces."[2] "In 1824, the wali introduced a new administrative structure for the provincial government with a clear chain of command;" this important innovation "stemmed from Muhammad 'Ali's preference for direct taxation over the concessionary system which prevailed through much of the Ottoman period."[3] During the mid-1830s, "Muhammad 'Ali still insisted on a highly centralised mode of government. His attempts to rationalise the system produced an organic law in 1837, which abolished all councils and reorganised existing departments. It also created new departments in a move towards government via ministries, though this was not fully accomplished. At the root of the problem," Toledano claims, "lay the wali's reluctance to forego the personal advantage that direct disposal of

power afforded him."[4] As the decade drew to a close, though, "the Pasha began to reverse his initial policy of direct administration;" "about the same time, he established the 'uhda system, distributing to the members of the Ottoman-Egyptian elite middle-size estates comprising villages whose taxes had no been paid."[5]

Khaled Fahmy's study of Egypt's armed forces during the Muhammad 'Ali period similarly reinstates the wali as the prime mover of the country's domestic and foreign affairs. Fahmy alerts the reader that he intends to begin his story "precisely in the year AH 1236/AD 1820-1[, because] this is the year that Mehmed Ali started to found a modern army in Egypt, an army which was based on conscription and which relied on the institution of the modern state that he founded mainly to serve that army."[6] By the same token, the shape of the reforms undertaken in this period reflected earlier "attempts at borrowing from the French [which], crude as they were, must have struck Mehmed Ali when he first came to Egypt in 1801 and ...influenced him when he tried to introduce new tactics and training drills to the Albanian troops that formed the backbone of his military force in the 1810s."[7] French military techniques, combined with Ottoman experimentation with the nizam-i cedid, made up the primary "influences on the Pasha's mind when he decided to form a disciplined army" of his own.[8] With regard to the campaigns of the 1820s, Fahmy rejects explanations rooted in class analysis, on the grounds that even if

the members of some social coalition "stood to benefit from the resumption of the trade with the Aegean[, this fact] does not necessarily mean that this particular coalition was behind the dispatch of Egyptian troops to Morea, [since a class-based argument] does not clearly show how the Pasha might have been pressured by them or how their interests were foremost in his mind."[9] In fact, "no full analysis of the nature of this army and of the wars it was fighting in could be complete if we do not study the views and sentiments of one key player in this whole equation, the Pasha himself."[10]

Fahmy assigns the wali an equally pivotal role in explanations for the country's non-military affairs: "by insisting on doing everything himself and on overseeing all the details of the government," Fahmy claims, "Mehmed Ali managed to convey the impression that his residence was the real center of power in his realm." He then uses a lengthy quotation from the British traveler C. Rochfort Scott to substantiate his position: "So completely have [Egypt's] interests been identified with those of its ruler that to speak of the government, commerce, policy, etc. of Egypt is to speak of the character of Mohammed Ali, who may justly apply to himself the noted words of an equally despotic potentate: 'L'Egypte, c'est moi.'"[11] This view is evident in Fahmy's subsequent work as well. When British troops in Malta found themselves short of wheat in 1810-11, "the Pasha stepped in swiftly and supplied them with food collected in the Delta. [Then,] having established control over Alexandria, Muhammad 'Ali

imposed a monopoly over the export of grain and reaped considerable profit."[12] With the introduction of long-staple cotton into Egypt in 1821, "sale of this most lucrative crop was monopolized by the Pasha, who used his considerable profits, which in good years contributed between one-fifth and one-quarter of all revenue, to finance his military and industrial enterprises."[13] The wali is also credited with carrying out a number of infrastructural projects that extended the country's network of irrigation canals: "Chief among these grand schemes was the re-digging of theancient canal that linked Alexandria to the Nile, a project the Pasha started in April 1817."[14] In the same vein, "the Pasha decided [in 1833] to inaugurate yet another massive public works project, huge barrages at the apex of the Nile Delta to regulate the level of the water in the two branches of the Nile, which it was hoped would increase agricultural productivity in the Delta."[15]

Hassan Ahmed Ibrahim falls back on a parallel line of argument in sketching the origins of Egypt's empire in Arabia and Africa. After the Ottoman sultan Mahmud II invited the wali to organize an expedition to suppress the Muwahhidin of al-Najd, "Muhammad 'Ali's favorable response to the sultan's command was essentially dictated by political expediency, not by loyalty or submission to his suzerain. ...He temporarily concealed his ulterior motives and plans, and professed loyalty and obedience to his sovereign. He also calculated that quelling the Wahhabi

Ottoman economic agreement of 1838 and not after it."[46] Yet even in the years when they were operating most successfully, government factories tended to be "constantly late in supplying" the armed forces with clothing, blankets and shoes and "very often produced defective uniforms."[47] Fahmy is therefore adamant that "British hostility and Palmerston's personal animosity [toward Muhammad 'Ali] could not have been caused only by any perceived threat posed by the nascent Egyptian industry to the mighty British manufactures. For at the peak of the Pasha's 'industrialization' schemes the country had no more than seven or eight steam engines, most of the power of the thirty-odd 'industrial' establishments being supplied by the workers themselves."[48] On the other hand, after quoting J. A. St. John to the effect that "the mills are in ruins, and immense heaps of machinery, no longer employed, are covered with rust, and mouldering to decay," Fahmy warns that "one should be careful in reading St. John, though, since in this particular respect he was, as a matter of principle, against introducing the 'manufacturing system' in Egypt."[49]

Again, this is a view that is widely held by nonspecialists. Landes concludes that the possibility of an industrial revolution in early nineteenth-century Egypt represents nothing more than "wishful thinking," "fantasy history."[50] "The primary problem," he asserts, "lay in Egypt's social and cultural incapability. ...Local manufacturing was done in shops

following decades."[41] Later on, he pulls back from such a harsh indictment of Egyptian industrial policy, claiming that it was only during "the second half of the 1830s [that] Muhammad 'Ali's industrial experiment ...met with great operational difficulties that ultimately brought much of it to collapse."[42] More precisely, Toledano argues that a "lack of natural, technical, and managerial resources combined with the overly centralised [administrative] system to defeat the network of factories. These gradually fell into disrepair, so that by the late 1830s, little was left working of the few dozen plants established during the second period of Muhammad 'Ali's reign."[43] By the mid-1840s, a substantial "cut in the size of the army further reduced the volume and buying power of the home market. This contributed to a decline in the demand for the products of the Pasha's factories. In the face of a dwindling market, there was little sense, as Muhammad 'Ali realised, in undertaking the enormous cost of renewing the equipment of his factories."[44]

Fahmy joins Toledano in claiming that "the lack of efficient motive power, the unskilled, coerced labor, and the inexperienced, often greedy managers hindered the Pasha's 'industrial experiment.' As a result, many institutions were brought to a standstill, leaving machines and equipment to rust and clog with dust and sand."[45] He goes on to assert that "the Pasha's 'industrial' experiment had fallen to ruins before the Anglo-

Exploring the complex mix of inducements and punishments that confronted Egyptian farmers and factory workers during these years may enable us to begin to figure out when and where the local population fell in with government dictates, when and where it instead resisted and what shape that resistance took.

Failures of state commercial and industrial policy

A third influential myth holds that the institutional innovations implemented during the Muhammad 'Ali period, particularly the establishment of new state-run factories and government ministries, not only failed to accomplish their immediate objectives but also hindered the overall development of the local economy.

In his early writing, Toledano is unequivocal on this score: "Mehmet Ali's industries could hardly reach the much more limited goal of import substitution, and that it [sic] only marginally consumed foreign raw materials (mainly Syrian timber). At its peak," he continues, "Egypt's textile industry used only one fifth or one sixth of the country's cotton harvest; the rest was being exported, thus forming a sizeable portion of government revenues. Other industries had even more modest accomplishments."[40] What others might see as "an Industrial Revolution in the making" Toledano calls "an interesting and daring--if enormously costly in both human and economic terms--experiment in development, which ended in failure and had severe consequences for Egypt in the

and public works than they had been under Muhammad 'Ali."[35] Ibrahim concludes that "Egyptian rule [in Sudan], though not so disastrous as some critics have suggested, was oppressive, corrupt, and incompetent."[36] Ralston asserts that the state agencies set up during the 1820s "were more systematic and efficient than what had existed in the past. From the point of view of the Egyptian people," he continues, "those characteristics also made them more oppressive than anything experienced before."[37] Landes agrees: "In the best Egyptian tradition, [the wali] started using slaves [to work in the factories]. But these slaves died in large numbers, which says something about working conditions. He then had recourse to forced labor torn from family and household, scantily fed and housed, much abused by tyrannical superiors."[38]

No one would argue that injustice and oppression did not occur in early nineteenth-century Egypt. But is this the key to understanding the period, the peg on which to hang a sophisticated analysis of social and economic change? Roger Owen suggests a more nuanced way to deal with such matters: "Most foreign observers agreed that the agricultural population could not have been persuaded to undertake all [the] extra labour [involved in cotton production] without coercion, and this must have been generally true. ...Nevertheless, there is some evidence that, during the first few years of Jumel's cultivation, the prices paid to peasants were sufficient to persuade them that the extra effort was worth their while."[39]

projects. Traditional family production came under severe pressure and many women had to accept employment under the increasingly harsh conditions of the Pasha's factories. A sign of the pressures put on women to provide for their families after the departure of the prime breadwinner was the number of women forced into prostitution, which spread alarmingly in the urban centers in the early 1830s."[33] Fahmy's assessment of Muhammad 'Ali's historical legacy culminates as follows: "The effect of the Pasha's policies, therefore, whether or not beneficial in the long term, were not always appreciated by average Egyptians, those masses of peasants and poor town dwellers along the Nile. The policies of conscription, corvee, increased taxation, monopolies, as well as the numerous 'factories' and workshops into which they were pressed, made their lives miserable. They came to detest the authority of the Pasha and resist his regime as oppressive, intolerant, and inhumane. They realized that they had no place in the Pasha's dreams and aspirations except as a source of cheap and docile labor. In this manner Muhammad 'Ali was truly the founder of modern Egypt, an Egypt in which the Egyptians found themselves silenced, exiled, punished, and robbed of the fruits of their labor."[34]

This assessment appears to be widely shared. Robert Hunter remarks in passing that even though ordinary "Egyptians remained subject to an oppressive government and its agents" during the rule of 'Abbas, "Egyptian cultivators were less liable for conscription for the army

cholera in the early 1830s and severe plague in 1835 took a heavy toll on the fallahin, adding to their misery and the troubles of the fisc."[29] He concludes that "not before the collapse of the Pasha's schemes in 1841, was there rest for the weary soldiery of Egypt. But the army was not the only beleaguered sector of the population, since large segments of Egyptian society and economy were harnessed to the war machine of the Pasha. The fallahin viewed conscription as a major evil. ...When absconding, self-maiming, bribery and trickery failed, their ablest youths were carried off in chains to serve in faraway lands and to realise the grand design of their ambitious ruler. These men were then wanting on the family plot or when the village had to supply its quota for the corvee."[30]

Fahmy presents an encyclopedic account of the ways in which Egypt's poor were mistreated by the authorities, and of the horrible measures to which they resorted to avoid conscription into the armed forces.[31] "In addition, and in order to undertake his numerous and ambitious public works, the Pasha had wider recourse to corvee than had the multazims before him. Peasants were not only forced to work without pay on various public works for longer and longer periods every year, but they were also forced to do so on projects outside theivillages and even outside their provinces."[32] "Furthermore," he observes, "the combination of conscription and corvee contributed significantly to the breakdown of families; women, like men, paid a high price for the Pasha's ambitious

aspects of Egyptian affairs in terms of broader political-economic and social dynamics.

Oppressing the population

Recent scholarship goes to considerable lengths to describe the oppression and injustices inflicted upon the local population by government officials throughout the Muhammad 'Ali period.

Toledano castigates Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot for offering an account in which Muhammad 'Ali "is forgiven for the excesses and abuses which he committed against the local population; the hardships endured by the inhabitants of Egyp[t are minimized and then favourably compared with acts of exploitation by other tyrants elsewhere, presumably for 'balance'."[27] For his own part, Toledano declares that "the preparation of the imperial base heaped many hardships on the population. Higher taxation and a more efficient system of collection, tighter controls and regulation of urban manufacturing, changes of crop-production patterns, increased corvees on irrigation projects and agricultural development, and the conscription, all weighed heavily on both fallah and townsman." He then makes the astonishing claim that by the 1820s "women were finding diminishing opportunities for gainful employment in addition to their work within the family, thereby losing the position that outside income secured at home."[28] Things only got worse as time went by: "Droughts and

More important, such explanations suffer from at least three serious conceptual shortcomings. First, they say nothing about why Muhammad 'Ali harbored one set of intentions rather than another. Consequently, one can easily assert that anything that happened to take place was in accordance with the will of the ruler. As Toledano himself remarks, "a considerably greater acquaintance with psychological literature is needed, if we are to transcend the trivial and unsophisticated interpretation" proposed by the great majority of current writers.[25] Second, such arguments fail to explicate the linkages between the wali's purported intentions and government policy. In other words, there is no reason to believe that things happen simply because the individuals who occupy high state office want them to; it is the task of historical analysis to spell out the circumstances that make it possible for leaders like Muhammad 'Ali to get what they want. Third, in Toledano's words, leader-centered explanations most often grow out of "ideological differences formed by personal experience, cultural outlook and political pre-commitment. Since few writers dispute the importance of the Pasa's personal impact on the course of events during his tenure of office, a great deal of the discussion centres on the evaluation of his character and the ever-failing attempt to reconstruct the motives for his actions."[26] For all these reasons, the revisionists of the 1970s rejected the Great Man theory of history and set out to construct explanations for important

mechanized industry as well: "Early in his reign, Muhammad Ali became convinced that Egypt possessed not merely the capability to meet its own military needs, but also the potential to become an industrial nation on a significant scale."[21] Although the program faced "a number of obstacles here, chief among them being the almost total lack of sources of energy," Ralston asserts that "Muhammad Ali was an obstinate person, and having decided to launch an industrial revolution on the Nile, he would not be swayed."[22]

David Landes takes a virtually identical tack: "Mehemet Ali (now Muhammad Ali in Arabic as against Turkish style) was clearly a man of force and ambition. But he differed from conventional warlords in having a larger vision and the imagination to go with it. ...What is more, Muhammad Ali envisioned [Egypt's political-economic] development as a total process, encompassing advances in agriculture and industry, new technologies, innovations in schooling (what the economist would call improvements in human capital); also, and unfortunately, an arms program and the inculcation of martial virtues."[23] Ian Lustick concurs: "The most significant effort by a nineteenth century Middle Eastern ruler to transform his territorial base into the military, political, and economic core of a great power was that of Muhammad Ali."[24] In short, it requires little historical imagination to construct a Great Man theory of events in Egypt during the Muhammad 'Ali period.

revolt and winning control of the holy cities would give him immense prestige among his coreligionists, and hence enhance his chances for independence, and perhaps for the caliphate itself."[16] Likewise, the invasion of Nubia, Sinnar and Kordofan "was closely related to Muhammad 'Ali's grand design of autonomy and regional hegemony. This in turn required a strong army and the wealth that the Pasha obviously looked for in the Sudan."[17] On the other hand, the Egyptian army is said to have stopped short of occupying the region south of al-Hijaz during the 1820s because "Muhammad 'Ali was too preoccupied with other campaigns to pursue expansion in Yemen. He had to wait until a suitable opportunity arose."[18]

One does not have to be a specialist in the history of early nineteenth-century Egypt to put forward a Great Man explanation for trends in the country's internal and external affairs. David Ralston notes that as soon as the wali had "rendered innocuous those forces most capable of opposing him, Muhammad Ali then set about gaining mastery of the potential resource of the country, represented above all by its cultivable land."[19] Concerning the armed forces, Ralston claims that "Muhammad Ali had had the opportunity to observe how efficient and effective were the British and French forces facing the Ottomans. He was certainly aware of the efforts of Selim III to create a new-style military force, the Nizam-i Cedid."[20] The wali's will accounts for the expansion of

and cottages, by owners lacking knowledge, money, and desire to shift to machine technologies."[51] Furthermore, "arson was an abiding threat, and maintenance was systematically neglected, the more so as bureaucratic complications within the mills (antipilferage measures) made even lubrication a monumental task. In a sandy, dusty climate, bad maintenance spelled disaster. More and more ofthe machines fell idle. ... Thus output fell, as it should have."[52]

On the other hand, Landes observes in passing that Egypt's state-run factories boasted some 400,000 machine spindles by 1834, a number that placed it "ninth in the world, ahead of Belgium, and fifth or sixth in spindlage per head of population." Locally-manufactured cloth had even begun to find markets in "India, ancestral home of cotton manufacture."[53] Such remarks might well tempt us to situate the Egyptian experiment in its proper historical context, by means of systematic comparisons with other contemporaneous industrialization programs.

Even on its own terms, the industrialization program of the 1820s can hardly be dismissed as a simple or inevitable failure. Owen points out that the initial half-dozen factories proved successful enough to convince the authorities to "order the construction of another 14 factories in Lower Egypt (1821-6) and 9 in Upper Egypt (1827-8)."[54] With regard to the diverse collection of state-run wool, linen, indigo, sugar and rice mills, he makes the prudent observation: "Unfortunately too little is known about

this activity to allow any general statements about either the volume or the quality of output."[55] When the government ran into serious financial difficulties in the late 1830s, private entrepreneurs turned out to be willing to invest in at least some of these enterprises, and the wali is reported to have "continued to talk about building new plants and reorganizing the old until well into the 1840s." Owen goes on to note that "as late as 1856 there were still at least four weaving mills, one worked by steam, making cloth for military uniforms."[56] Moreover, in the area of artisanal manufacturing, "the situation does not seem to have been quite as bad as some contemporary European reports would suggest. For one thing there were a number of workers who used the training they had received in the government factories to set up on their own once those establishments had been closed down. For another, in Egypt as elsewhere, local craftsmen showed themselves to be reasonably adept at standing up to the great tide of foreign textile imports ...by finding new markets for their own goods or by producing new types of product which the Europeans found difficult to imitate."[57]

Centrality of connections with Europe

Which brings us to the last of the four myths that permeate current writing on early nineteenth-century Egypt: this literature focuses almost exclusively on those aspects of the local economy that were most closely

connected to Europe, while ignoring key sectors that lay outside the purview of European consuls and merchants.

Toledano, for instance, lists several important cash crops produced in Egypt at the beginning of the century, including "wheat, barley, beans, rice, sugar, sesame, indigo, short-staple cotton and hemp." He also notes that besides the "textile factories of various kinds [that] were established in and around Cairo, spreading into Lower and Upper Egypt during the 1820s," state officials set up a number of large-scale "sugar refineries, indigo factories, rice mills and tanneries." But the only product that receives sustained attention is long-staple cotton, whose "sweeping success ...accounted for a sizeable share of state revenues from the 1820s onwards."[58] He therefore finds it unproblematic to claim that the government was forced to shift its land-tax policies when "a crisis in the international monetary system in 1836-7 brought cotton prices down and dried up the Pasha's credit sources in Alexandria."[59] On the other hand, Toledano makes the tantalizing observation that the 1838 Ottoman-British commercial treaty did not damage Egypt's economy as severely as one might have expected, since "local crafts developed various methods of minimising the damage, though [he goes on] the Pasha's earlier creation of his factory system weakened their ability to cope with the open market at home."[60]

Fahmy reminds us that the first agricultural monopolies created by the government were concerned with the collection and exportation of

grain.[61] He then remarks that "urban merchants were affected by the Pasha's new arrangements, chief among which was expansion of monopolies to include more and more commodities."[62] Nevertheless, he states that the "most significant" of the government's economic policies was the introduction of long-staple cotton, which enjoyed a high degree of "competitiveness in European, and especially British, markets owing to its suitability for textile manufacturing." Proceeds from the sale of long-staple cotton, he reports, "in good years contributed between one-fifth and one-quarter of all [state] revenue."[63] The activities that accounted for the remaining four-fifths are left unspecified. Instead, Fahmy concludes that "the cultivation of cotton on a large scale effectively turned the Delta into a huge plantation that produced a crop predominantly destined for European markets. In this manner the Egyptian cultivator became well entrenched in the world market and found himself susceptible as never before to forces of the international economy. The monopolies that the Pasha instituted, furthermore, undermined the traditional urban merchants whose trade in coffee and spices had been primarily conducted within the Ottoman empire or with lands farther to the east. At the end of the Pasha's reign Europe, mainly Britain and France, were Egypt's main trading partners."[64]

It would be useful to investigate whether or not each of these crucial assertions can be substantiated. Were no other cash crops

cultivated in the delta provinces after the mid-1830s? Was long-staple cotton "predominantly" exported to Europe? Did the trade in other goods, with other parts of the Middle East collapse during the course of the Muhammad 'Ali period? And in what sense did Britain and France become Egypt's "main" trading partners by 1840? Only by grappling with questions such as these can we transcend the limitations inherent in the view that, in Sarah Shields's words, "presents the Middle East as devoid of significant economic activity until the advent of European trade."[65]

Current scholarship on other parts of the Ottoman Empire during the early nineteenth century, most notably that of Shields, Dina Khoury and Hala Fattah, offers a promising guide to reorienting the economic history of Egypt during the Muhammad 'Ali period.[66] Instead of concentrating on the activities of European merchants and consuls, one could explore the ways in which Egyptian agriculture and manufacturing adapted to growing competition from imported goods, as well as the political-economic institutions that allowed some farmers, merchants and manufacturers to survive the influx of imports by monopolizing the production and distribution of goods and services.[67] More important, one might uncover the trading networks that linked Egypt to surrounding areas in order to figure out what kinds of economic activities suffered as a result of increasing contact with Europe and what kinds continued to flourish. As Shields points out, "changes in tax collection and land-holding patterns, improved communications and transportation, and European

imports, may all have responded to European needs or demands. Nonetheless, they were all adapted by local merchants and officials, who fitted them into the networks and trade patterns they knew, networks which emphasized regional commerce."[68] Terry Walz, Jean-Claude Garcin and Nancy Um have already proposed fruitful reconceptualizations of the structure of Egyptian commerce, which can be of considerable assistance in the ongoing struggle to overcome the myths that hinder our understanding of the Muhammad 'Ali era.[69]

[1] Ehud R. Toledano, "Muhammad 'Ali Pasha," The Encyclopedia of Islam, new edition, volume 7 (Leiden: Brill, 1991), p. 424.

[2] Ibid., p. 425.

[3] Ibid., p. 426.

[4] Ibid., p. 427.

[5] Ibid., p. 428.

[6] Khaled Fahmy, All the Pasha's Men (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p. 9.

[7] Ibid., p. 80.

[8] Ibid., p. 82.

[9] Ibid., p. 45.

[10] Ibid., p. 242.

[11] Ibid., pp. 131-132.

[12] Fahmy, "The Era of Muhammad 'Ali Pasha, 1805-1848," in M. W. Daly, ed. The Cambridge History of Egypt, volume 2 (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p. 147.

[13] Ibid., p. 162.

[14] Ibid., p. 152.

[15] Ibid., pp. 170-171.

[16] Hassan Ahmed Ibrahim, "The Egyptian Empire, 1805-1885," in ibid., p. 200.

[17] Ibid., p. 205.

[18] Ibid., p. 202.

[19] David B. Ralston, Importing the European Army (Chicago: University of Chicago Press, 1990), pp. 83-84.

[20] Ibid., p. 85.

[21] Ibid., p. 94.

[22] Ibid., p. 95.

[23] David S. Landes, The Wealth and Poverty of Nations (New York: Norton, 1998), p. 403.

[24] Ian S. Lustick, "The Absence of Middle Eastern Great Powers: Political 'Backwardness' in Hitorical Perspective," International Organization 51(Autumn 1997), pp. 663-664.

[25] Toledano, "Mehmet Ali Pasa or Muhammad Ali Basha?" Middle Eastern Studies 21(October 1985), p. 153.

[26] Ibid., p. 141.

[27] Ibid., p. 154.

[28] Toledano, "Muhammad 'Ali Pasha," p. 426.

[29] Ibid., p. 427.

[30] Ibid., p. 430.

[31] Fahmy, All the Pasha's Men, passim.

[32] Fahmy, "Era of Muhammad 'Ali," p. 155.

[33] Ibid., pp. 163-164.

[34] Ibid., p. 179.

[35] F. Robert Hunter, "Egypt under the Successors of Muhammad 'Ali," in Daly, ed. Cambridge History of Egypt, volume 2, pp. 183-184.

[36] Ibrahim, "Egyptian Empire," p. 214.

[37] Ralston, Importing the European Army, p. 96.

[38] Landes, Wealth and Poverty of Nations, p. 406.

[39] Roger Owen, The Middle East in the World Economy (London: Methuen, 1981), pp. 68-69.

[40] Toledano, "Mehmet Ali Pasa," p. 154.

[41] Ibid., pp. 152-153.

[42] Toledano, "Muhammad 'Ali Pasha," p. 425.

[43] Ibid., p. 428.

[44] Ibid., p. 429.

[45] Fahmy, "Era of Muhammad 'Ali," p. 162.

[46] Ibid., p. 176.

[47] Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 186-187.

[48] Ibid., pp. 292-293.

[49] Ibid., p. 294 n. 53.

[50] Landes, Wealth and Poverty of Nations, p. 407.

[51] Ibid., p. 405.

[52] Ibid., pp. 406-407.

[53] Ibid., p. 405.

[54] Owen, Middle East in the World Economy, p. 70.

[55] Ibid., p. 71.

[56] Ibid., p. 75.

[57] Ibid., p. 76.

[58] Toledano, "Muhammad 'Ali Pasha," p. 425.

[59] Ibid., p. 427.

[60] Ibid., p. 429.

[61] Fahmy, "Era of Muhammad 'Ali," p. 147.

[62] Ibid., p. 150.

[63] Ibid., p. 162.

[64] Ibid., p. 178.

[65] Sarah D. Shields, "Take-off into Self-sustained Peripheralization: Foreign Trade, Regional Trade and Middle East Historians," Turkish Studies Association Bulletin 17(April 1993), p. 4.

[66] Sarah D. Shields, "Regional Trade and 19th-Century Mosul," International Journal of Middle East Studies 23(1991); Dina Rizk Khoury, State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul, 1540-1834 (Cambridge: Cambridge University Press, 1997); Hala Fattah, The Politics of Regional Trade in Iraq, Arabia, and the Gulf, 1745-1900 (Albany: State University of New York Press, 1997).

[67] Shields, "Take-off into Self-sustained Peripheralization," pp. 7-11.

[68] Ibid., p. 17.

[63] Terence Walz, "Asyut in the 1260s (1844-1853)," Journal of the American Research Center in Egypt 15(1978); Jean-Claude Garcin, Un Centre Musulman de la Haute-Egypte Medievale: Qus (Cairo: Institut Francais d'Archeologie Orientale, 1976); Nancy Ajung Um, "Pilgrims and Spice and Everything Nice: Re-mapping Medieval Upper Egypt," JUSUR 11(1995).

Analyse critique du portrait de "Méhémet-Ali" par Clot bey

par Ali Kurhan,
maître de conférence
à l'université d'Helwan

Antoine Barthélemy Clot est arrivé en Egypte avec 20 autres médecins en 1825. Ayant guéri le pacha d'une gastro-entérite, il devient rapidement le médecin personnel de celui-ci et bénéficie de toute sa confiance. Une épidémie de choléra combattu avec efficacité lui vaut se recevoir en 1832, le titre de bey. En 1849, à la mort de Méhémet-Ali, il rentre en France.

Or en 1840, ce médecin fait paraître un ouvrage sous le titre d'*Aperçu général de l'Egypte* [1]. C'est visiblement une œuvre de propagande écrite en quelques mois pour répondre aux besoins de l'actualité :

Aujourd'hui en effet, l'existence, l'avenir de l'Egypte sont débattus par la presse, par la diplomatie, par l'Europe entière [2].

En effet, jusqu'à la guerre d'indépendance de la Grèce, le gouvernement du pacha d'Egypte est largement apprécié par tous les voyageurs et son image est bonne en Occident et particulièrement en

---

[1] Fortin, Masson et C^ie^ Libraires-Editeurs, Paris 1840

[2] *Ibid.* p. IV

France. L'envoi de cadeaux au roi de France comme la girafe offerte à Charles X en 1826 contribue beaucoup à la popularité du Pacha, donnant même lieu à une mode girafe.

Mais de 1830 à 1840, l'Egypte subira comme le diraient de nos jours les publicitaires, un *déficit d'image*.

La guerre d'Indépendance de la Grèce commencée en 1821 rallie les passions de l'intelligentsia européenne. Pour elle, le combat entre Grecs et Turcs est ceux *des protagonistes symboliques du bien et du mal, des forces occidentales de la raison et de la civilisation contre celle d'un ennemi non occidental* [3], symbole de la barbarie inculte.

Delacroix avec deux tableaux *Scènes de massacres à Scio,* et *La Grèce sur les ruines de Missolonghi* accrédite la thèse de tueurs sanguinaires commandée par Ibrahim pacha fils de Méhémet-Ali. Le fils du souverain éclairé d'Egypte devient soudainement aux yeux de l'opinion publique française, un barbare assoiffé de sang. En 1830, le discrédit est total.

Il sera à partir de cette date presque de bon ton de planter quelques banderilles acerbes après un discours positif sur l'Egypte. Champollion quittant l'Egypte en 1830 écrit :

Je quitterai l'Egypte comblé de faveurs de ses anciens et modernes habitants.

---

[3] Catalogue de l'exposition de David à Delacroix, Paris, 1975 p. 240

Mais il ne peut de s'empêcher d'ajouter:

Sachant que les anciens représentaient cette contrée par une vache, Méhémet-Ali la trait et l'épuise du soir au matin [4].

Chateaubriand dans son *Itinéraire de Paris à Jérusalem* dénonce selon lui, les méfaits du despotisme turc en Grèce. L'exercice de cette domination est un attentat pour lui contre la civilisation. En 1826, quand le philhellénisme bat son plein, il en devient le chantre. C'est à ce moment qu'il écrit dans ses *Mémoires d'Outre tombe,* publiés en 1848, des doutes qui ne l'avaient pas effleuré après son voyage en Egypte :

Je ne me laisse pas eblouir par des bateaux à vapeur et des chemins de fer, par la vente des produits de manufactures et pas la fortune de quelques soldats français, anglais, allemands, italiens enrôlés au service d'un pacha : tout cela n'est pas la civilisation [5].

Planat, chef de l'Etat major du Pacha d'Egypte, avait bien jugé la situation quand en 1830 il écrivait :

La question de la guerre de Morée était agitée dans les cabinets d'Europe. Le pacha, en persistant ou en étant obligé de persister, s'abîmait l'opinion du monde entier ; les journaux et tous les organes des philhellènes tournaient contre lui leurs imprécations souvent exagérées

---

[4] Carré, Jean-Marie, *Voyageurs et écrivains français en Egypte*, Le Caire, 1956 tome I p. 242

[5] *Ibid.* p. 299

par un zèle aveugle ou trop ardent [6]

Le Pacha n'aura de cesse d'assurer sa renommée de régénérateur. Cela le conduira à envoyer entre autres, des missions scolaires en Europe pour prouver son désir de modernisation.

L'ouvrage de Clot bey prépare et accompagne le voyage d'Ibrahim pacha en Europe au lendemain de la bataille décisive de Nézib. C'est un *plan média* qui réussit car il est accueilli triomphalement en France et en Angleterre.

Antoine Barthélemy Clot bey a dressé dans son *Aperçu général de l'Egypte*, l'un des portraits les plus complets du pacha d'Egypte. Au chapitre XIII de son introduction historique, intitulé *Méhémet Ali et sa famille* (p. LXXVII à LXXXIII), il nous donne un portrait physique, moral et politique du vice-roi d'Egypte.

Aucun étranger n'a en effet approché le pacha quotidiennement et aussi longtemps peut-être à l'exception de Soliman pacha[7] . Les témoignages sur Méhémet Ali sont nombreux car il recevait pratiquement tous les voyageurs de marque et les diplomates, souvent à Alexandrie dans son palais de Ras el Tin. Je limiterai mon analyse à l'utilisation des sources françaises.

Néanmoins, je me dois tout de même de citer, le premier portrait en date qui est, semble t-il, celui de l'explorateur Lord Valentia, qui eut l'occasion de voir le vice-roi en 1806:

---

[6] Planat (J.), *Histoire de la régénération de l'Egypte,* Genève, 1830 p. 183

[7] C^el Sève

C'est, -dit-il-, *un petit homme à l'air intelligent, pourvu d'une barbe roussâtre, modeste de proportion, mais dont-il semblait fier puisqu'il la caressait continuellement. Son Altesse est vêtue simplement et ne porte aucun bijou* [8].

1 Portrait physique de Méhémet-Ali par Clot bey ;

Méhémet Ali, (...)est né en 1769, à la Cavalle ; il a, par conséquent, aujourd'hui 71 ans.

Sa taille est peu élevée; elle ne dépasse pas cinq pieds deux pouces; il est fortement constitué ; son tempérament est éminemment sanguin - nerveux. Dans son jeune âge, ses cheveux et sa barbe étaient blonds ; il a le front saillant et découvert, les arcades sourcilières très prononcées, les yeux châtain-clair enfoncés dans leur orbite, le nez moyen un peu renflé vers le bas, une petite bouche, de petites moustaches retroussées, la barbe blanche et un peu fournie, le teint châtain clair. L'ensemble de ces traits forme une physionomie agréable au plus haut point ; vive et mobile, animée d'un regard scrutateur, elle présente un mélange heureux de finesse, de noblesse et d'amabilité.

Méhémet-Ali a une très -jolie main, petite et potelé, un petit pied. Il est bienfait. Sa démarche, très assurée, a quelque chose de la précision et de la régularité militaires. Il porte, en marchant, la pointe de pieds en dehors, et balance un peu son corps. Il se tient très-droit il a souvent les mains croisées derrière le dos.

---

[8] Valentia, *Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea, Abyssinia and Egypt,* Londres, 1809, p. 358

Ce portrait est conforme à celui que dresse Champollion en février 1828 :

C'est un homme de petite taille, son visage serait morne et inexpressif si son regard n'était pas aiguë et éveillé, il a le front haut, le nez plutôt court et large et sa barbe est blonde. Il est assez corpulent[9]

Le maréchal Marmont en 1834 nous donne une description conforme à celle de Clot

Il est de petite taille et bien que ses traits soient beaux et que leur expression soit relevée par une superbe barbe blanche, la dignité n'en est pas le principal caractère c'est la finesse et l'énergie qui frappent d'abord en lui. Son regard est perçant, spirituel et scrutateur, sa figure est très mobile

Concernant ses mains, il ajoute :

Mains aristocratiques aux doigts fins et pointus[10]

Xavier Marmier en 1844 ajoute :

J'emportais dans ma mémoire l'empreinte ineffaçable de cette figure si vivace et si intelligente, l'éclair de cet œil scrutateur et les modulations de ce langage en même temps si adroit et si animé [11]

---

[9] Bibliothèque égyptologique, XXXI, p. 35

[10] Marmont, Voyage du Maréchal Marmont, duc de Raguse en Syrie, en Palestine et en Egypte, Paris 1867 - 1838 t. III, p. 127-128

[11] Marmier (X) *Du Rhin au Nil,* Paris 1847, tome II p. 438

L'expression de ses yeux est ce qui a le plus retenu l'attention de tous ceux qui l'ont approché. Il ressort de toutes les descriptions qu'ils exerçaient un pouvoir quasiment magnétique. D'ailleurs il est curieux de noter, que quand Horace Vernet en 1839 photographia le Pacha à sa demande (Daguerre vient juste de mettre au point l'instrument), le portrait sur plaque iodée montre des yeux scrutateurs[12].

Goupil Fesquet ayant assisté à l'opération poursuit,

Malgré l'aspect de l'épreuve parfaitement réussie, l'impatience qui commençait à animer son Altesse fait place au plus vif sentiment d'étonnement et d'admiration ; c'est l'œuvre du diable dit-il [13]

II Portrait moral par Clot bey

Le vice-roi est très-vif, il est très-impressionnable et cache difficilement les sensations qu'il éprouve ; aussi a-t-il beaucoup de franchise, beaucde loyauté : la dissimulation doit lui être chose pénible. Chatouilleux sur le point d'honneur, religieusement fidèle à la parole donnée, il est incapable de trahison. Sa générosité est peu commune, il l'a poussée quelquefois jusqu'à la prodigalité. On dit qu'il a été très-galant. Excellent père de famille, il chérit ses enfants et vit dans son intérieur avec la simplicité de mœurs d'un bon bourgeois. Sa sensibilité est extrême ;je m'en serais fait difficilement une idée, ainsi que la bonté de son cœur, si je n'avais été témoin de leurs effets. On l'a vu inconsolable de la perte de ses enfants, et verser des larmes à la mort de ses compagnons d'arme.

---

[12] Goupil Fresquet, *Voyages d'Horace Vernet en Orient*, Paris, p. 33-34

[13]. *Ibid* p 34

Il porte la sollicitude jusqu'à la tendresse pour ceux de ses employés auxquels il est attaché. Difficilement il se décide à punir, et, en général, il pardonne et oublie les fautes même les plus graves

On va retenir de ce portrait moral plusieurs aspects :

a - *Le vice-roi cache difficilement les sensations qu'il éprouve, la dissimulation doit lui être une chose pénible.* On peut prendre de la véracité de cette observation l'épisode du massacre des mamelouks le 11 mars 1810. Le tableau d'Horace Vernet représente le pacha impassible comme s'il assistait à une représentation théâtrale, Or, nous savons par différentes sources que cette vision est fausse. Prisse d'Avennes[14] nous dit qu'au moment du massacre, Méhémet Ali était oppressé et haletant. Piqué au vif par ce tableau, Gouin rapporte que le pacha aurait dit :

Le peintre pourra trouver un pendant à son tableau : qu'il retrace l'extermination des mamelouks de Bonaparte à Marseille [15].

Si l'on prend un autre exemple de la spontanéité du pacha, on peut se reporter à l'anecdote suivante. Venant d'apprendre l'agression de l'armée turque en 1839 qui rendait sa défense légitime, le vice-roi montra son contentement par de longs éclats de rire [16].

b- Clot bey souligne avec insistance le fait que Méhémet Ali soit incapable de trahison et qu'il observe sa religion sans fanatisme ni

---

[14] Prisse d'Avennes *Egypte moderne, Paris, 1848,* tome 1 p. *7*

[15] Gouin, *L'Egypte au XII* siècle, Paris, *1847 p. 217*

[16] Driault *L'Egypte et L'Europe* Le Caire 1930-1934 tome I *p. 64*

bigoterie pour conforter l'opinion de Clot bey, on peut faire référence à l'attitude du pacha concernant l'expédition d'Alger. La France avait proposé au pacha d'Egypte de conquérir pour son compte les états barbaresques (Tunisie-Maroc-Algérie). Cette conquête en retour devait procurer à Méhémet-Ali une nouvelle flotte armée par la France. Il devenait en quelque sorte le mercenaire du roi de France [17]. Après de longues négociations, Méhémet Ali refusa. Il répondit :

M'allier ouvertement (avec un souverain chrétien) *contre des peuples de ma religion, c'était me perdre, m'anéantir (...) par une alliance comme celle que vous me proposez, je perdrais le fruit de tous mes travaux. Je serais déshonoré auprès de ceux de ma nation et de ma religion* [18].

Le souhait de la France de faire du Pacha le lieutenant du roi de France se heurte à la volonté de Méhémet Ali de rester un souverain musulman indépendant..

c- Clot bey insiste également dans la confiance affichée du pacha envers les étrangers :

- Il est le premier souverain musulman qui ait couvert les chrétiens d'une large protection, qui les ait fait sévèrement respecter.

Là, il convient de pondérer l'enthousiasme de Clot bey. On trouve avant Méhémet-Ali d'autres souverains musulmans qui ont largement

---

[17] Douin (G.) *Méhémet Ali et l'expédition d'Alger (1829-1830)* Le Caire, *1930*

[18] *Ibid* p.LXIX

admis de manière large dans les services du gouvernement de leur pays des Chrétiens. Que ce soit les Safavides en Perse au XVII siècle avec la très forte communauté arménienne d'Ispahan ou les souverains ottomans avec des soldats européens comme au XVIII^e siècle le baron de Tott.

Méhémet-Ali il est vrai recrute beaucoup d'Européens et parmi eux nombre de Français : outre Clot bey, Linant de Bellefonds (respondable des Travaux Publics), Hamont (directeur de l'Ecole vétérinaire), Lefebure de Cerisy (responsable des arsenaux d'Alexandrie), Coste (architecte)...

d- Clot bey montre les qualités familiales de Méhémet Ali : excellent père de famille, il chérit ses enfants et vit dans son intérieur avec la simplicité de mœurs d'un bon bourgeois. Hamont, fondateur de l'école vétérinaire, reprend en écho cette appréciation :

Dans ses affections de famille, Méhémet-Ali est tendre, il aime beaucoup ses enfants [19]

Le Pacha est inconsolable de la perte de ses enfants.

En effet, Mouriez raconte que personne n'osa annoncer la mort de Tossoun pacha :

Ce fut au kiaya bey [20]*que revint cette tâche cruelle. Il entra brusquement dans l'appartement où se trouvait le vice-roi, il se précipita à ses pieds en prononçant quelques paroles entrecoupées s'en fut assez pour faire tout comprendre à ce malheureux père. Sa douleur fut haute et*

---

[19] Hamont (P.N.) *L'Egypte sous Méhémet-Ali,* Paris, 1843, tome I, p. 441

[20] ministre de l'intérieur

violent comme le coup qui le frappait; il se jeta la face contre terre en sanglotant, demandant son fils à grand cri. [21].

Nous savons par ailleurs qu'il suivra avec beaucoup d'intérêt les études de ses enfants et petits enfants qu'il enverra étudier à Paris dans le cadre des missions scolaires. Gaston Wiet dans son étude du palais de Choubra [22] montre au hasard des descriptions empruntées aux voyageurs, un pacha attentif à sa famille, à son entourage à ses jardins, bref un *pater familias*. Il observe la même bonhomie avec son entourage. Par exemple, lors d'une visite de l'hôpital militaire d'Abou Zaabel, il se retire avec des élèves :

Il avait mis ses bésicles, et il avait fait retirer tous les officiers de sa maison, il ressemblait à un père de famille entouré de ses enfans (sic). *Il lut avec gaîté des traductions en turc de quelques fables de La Fontaine qui présente toujours des allusions à un souverain qui veut s'y chercher, comme la Poule aux œufs d'or, le Cheval et l'âne etc* [23].

N'oublions pas, qu'à l'époque où Clot bey écrit, règne en France Louis-Philippe, le roi bourgeois par excellence dont on se plait à vanter les vertus familiales et domestiques. Le parallèle est évident d'autant que le livre de Clot bey est avant tout destiné à la lecture des Français.

---

[21] Mouriez (P-) *Histoire de Méhémet Ali,* Paris, 1855, t. II p. 212-213

[22] *Op. cit.* p. 219 et suivantes

[23] *Op. cit.*, p. 180

III Le portrait politique

Méhémet-Ali est épris de gloire. Il pense beaucoup, non-seulement à la réputation qui entoure son nom pendant sa vie, mais à celle qu'il laissera après sa mort. Il se fait traduire et lit tous les journaux; il n'est pas insensible aux calomnies qu'ils ont souvent lancées contre lui. Son activité est au-dessus de tout ce qu'on peut dire. Non-seulement il s'occupe toute la journée, mais il ne dort que quelques heures pendant la nuit, et encore son sommeil est-il très-agité. A quatre heures du matin, il est sur pied. Il reçoit tous les jours les rapports de ses différents ministres, et dicte toutes les réponses : puis il passe des revues, visite les chantiers, les grands travaux etc. Doué d'un tact précieux pour les affaires, d'un jugement droit, d'un coup-d'œil sûr et rapide, généralement, dans les discussions les plus difficiles, et même sur des matières qui lui sont étrangères, c'est lui qui a la meilleure manière de voir les choses, et qui se forme sur elles les opinions les plus justes. L'histoire de sa longue carrière politique le prouve à chaque instant. (...) Je n'ai pas parlé des qualités guerrières du vice-roi. Il me semble que, sur ce point, son histoire, qui nous l'a montré sortant des rangs de l'armée et parvenant par sa bravoure et son mérite à la première position.

Tout le portrait politique de Méhémet-Ali est dû à un homme imbu de la philosophie du siècle des Lumières et de son idée politique majeure : le despotisme éclairé. Pour Clot bey, l'essentiel était que la raison régnât, qu'elle gouvernât les hommes à la place de la tradition ou

de la providence. La forme du pouvoir, à ses yeux, importe peu, du moment que le prince est éclairé, acquis aux réformes nécessaires. Un souverain autoritaire, fortement armé est apte à rénover un pays. Pour lui, un prince est éclairé dans la mesure où son attitude vis-à-vis de la religion, bastion des préjugés et bête noire des Lumières, oppose les bienfaits de la tolérance. Ainsi s'explique l'hommage appuyé à l'esprit de tolérance de Méhémet-Ali.

L'omnipotence de tout souverain des Lumières se traduit dans tous les domaines: il est le premier juge, le premier financier, le premier général, le premier diplomate, auquel aucune affaire importante n'échappe.

Méhémet-Ali s'affilie sans conteste à Frédéric II de Prusse souverain des Lumières par excellence. Ce roi est né en 1712. La vie de Frédéric II s'est écoulée dans un tournant de l'histoire où les Etats d'Occident commençaient à se gouverner sans le secours de la divinité. Ils résumaient de la manière suivante sa façon de gouverner:

Penser vivre et mourir en roi.

Dans ses mémoires Frédéric II décrit ses activités : levé habituellement à quatre heures, il se tue à la tâche. Il voit tout lui-même estimant qu'un ministre risque toujours de songer à ses propres intérêts. Il aimait dire :

Je laisse tout dire à mes sujets, à condition qu'ils me laissent tout faire [24]

---

[24] *Mémoires de Frédéric II*, Boutaric et Campardon, Paris, 1866

Clot bey a rendu compte de l'activité du Pacha de manière identique:

A quatre heures du matin, il est sur pied. Il reçoit tous les jours les rapports de ses différents ministres et dicte toutes les réponses [25]

L'*Anti-Machiavel* écrit en 1739 avant l'accession au trône du roi de Prusse expose sa vision de l'absolutisme éclairé :

Idéologie de prince longtemps brimé et heureux de s'afficher disciple de Vòltaire (...) fierté de prince satisfait d'éreinter le manuel des usurpateurs et de vanter en l'égoïste la puissance de sa dynastie, qui découvre les mouvements essentiels de la politique internationale (...)tels sont les éléments un peu contradictoires qui se sont fondus dans l'Anti-Machiavel et qui ont fait de cet essai un moment inquiétant et séduisant de la carrière du despote éclaire [26]

L'idée majeure de son ouvrage :

C'est du souverain qu'émane la force vitale de l'état ; s'il disparaît du centre, les membres dépérissent [27].

La véritable royauté est basée sur la perfection personnelle du souverain. Celui-ci prend son Etat à cœur, il en fait sous sa responsabilité une création bien à lui, un Etat vivant, qu'anime et dirige quelque chose de vraiment supérieur. Mais le Prince selon Frédéric *ne remplit la moitié*

---

[25] *Op. cit.* p. LXXXIX

[26] Frédéric II de Prusse, l'*Anti-Machiavel,* Cercle du Bibliophile, Genève 1970 p. XLI

[27] Frédéric II, roi de Prusse, *Œuvres philosophiques, l'Anti-Machiavel,* Paris, 1985 p.90

de sa vocation, s'il ne s'applique qu'au métier de la guerre[28].

Frédéric II n'aurait pas renié Méhémet-Ali car il correspondait au type de souverain qu'il admirait :

L'Europe en est pleine et n'en est que plus heureuse car ces places sont données au mérite[29] *Machiavel a grand tord : Un homme élevé à l'empire par son courage, n'a plus de parents, on songe à son pouvoir et non à son extraction. Aurélien était fils d'un maréchal de village Probus d'un jardinier, Dioclétien d'un esclave ; Valentinien d'un cordier : ils furent tous respectés (...). Le grand Mahomet, fondateur de l'empire le plus florissant de l'univers avait été un garçon marchand*[30] (...) *Que de généraux d'armée, que de ministres et de chanceliers roturiers !*

Frédéric II éprouve une grande admiration pour ce que l'on appelle de nos jours un *self made man,* tout particulièrement pour les soldats de fortune qui ont construit à la pointe de leur glaive un empire. Méhémet-Ali, répond à ces critères car avant son accession au pachalik d'Egypte il avait été un prospère négociant de tabac.

Le pacha avait dit que la lecture du *Prince* de Machiavel ne lui avait rien appris[31], on rapporte l'anecdote suivante :

---

[28] Elze (W.), *Le grand Frédéric,* Paris, 1943 p. 114

[29] *Frédéric II rois de Prusse, œuvres philosophiques op. cit.* p. 91

[30] *Dictionnaire de la pensée de Voltaire par lui-même, in Frédéric II*, Paris, 1994 p.470

[31] Général Weygand, *Histoire militaire de Mohamed-Ali et de ses fils,* Le Caire, 1936, t. I p. 8

Quelqu'un lui ayant parlé et lui ayant fait éloge du livre du Prince de Machiavel, il se le fit traduire puis lire. Après l'avoir entendu, il répondit : "ce n'est pas autre chose ? je croyais mieux que cela [32].

La référence à Machiavel est explicite dans le fameux portrait politique que Gouin, contemporain de Méhémet-Ali dresse du pacha :

Il s'est fait renard souvent, lion toujours. Il a renversé les osmanli par les Mamelouks, les Mamelouks par les Albanais, les Albanais par les Egyptiens [33].

Gouin tire les éléments de son portrait dans Machiavel qui avait souligné que :

Les animaux dont le prince doit revêtir les formes sont le renard et le lion. Le premier se défend mal contre le loup, et l'autre donne facilement dans les pièges qu'on lui tend. Le prince apprendra du premier à être adroit, et de l'autre à être fort [34]

Frédéric II réfute le raisonnement de Machiavel. Pour le roi de Prusse :

Le monde est comme une partie de jeu (...) pour qu'un prince, donc, qui doit jouer à cette partie, n'y soit pas trompé, il faut qu'il sache de quelle manière l'on triche au jeu, non pas pour qu'il pratique jamais de

---

[32] *Ibid*

[33] Gouin *L'Egypte au XIX^e^ siècle,* Paris 1847 p. 60

[34] Machiavel. *Le Prince,* Cercle du bibliophile, Genêve, 1970 p. 62

pareilles leçons, mais pour qu'il ne soit pas la dupe des autres [35].

A cela, Clot bey, en harmonie avec Frédéric II, écrit sur le même ton pour démontrer les qualités du pacha :

Il est placé par son habileté pratique et par sa prudente et généreuse modération, plus encore qu'il ne l'aurait fait, par des coups d'éclat, au niveau des hommes d'état (sic)*les plus consommé de l'Occident. Sage et retenu, comme doit l'être tout bon politique* (...), *il a prouvé que sa prudence n'était pas pusillanimité, et déployant avec vigueur des ressources innattendues* [36]

Clot bey, nous l'avons vu, obéit tout au long de son portrait politique à la description type du despote éclairé.

Mais le mot clé qui n'apparaît pas dans son texte et qui fera de Méhémet-Ali, le modèle du monarque oriental « éclairé » est celui de « régénérateur ». Ainsi la notion politique européenne du XVIII^{e} est revisitée au XIX^{e} siècle.

Au moment de l'Expédition d'Egypte, Monge [37] avant de quitter la France avait proclamé :

Porter le flambeau de la Raison là où depuis longtemps, sa lumière ne parvenait pas.

---

[35] *Frédéric II roi de Prusse, op. cit.* p. 83

[36] *Op. cit.* p. LXXXII

[37] Monge (J.) Géomètre (1746-1818) il créa la géométrie descriptive et présida l'institut du Caire pendant l'Expédition d'Egypte. Il fut l'un des principaux rédacteurs de la *Description d'Egypte*.

Le siècle des Lumières, qui avait produit la *Grande Encyclopédie* et promu les idées généreuses de 1789 connaît son aboutissement avec l'inventaire très minutieux d'un pays riche de potentialité agricole et économique qu'il convenait de mettre en valeur. L'Encyclopédie à l'article *Egypte* dit :

C'était jadis un pays d'admiration, c'en est un aujourd'hui à étudier

Sous ce rapport, *l'Expédition d'Egypte, est moins un évènement unique incomparable et irréductible qu'elle n'est, d'abord un geste exemplaire, une illustration accomplie du projet savant des Lumières* [38].

Méhémet-Ali se présente comme le continuateur de l'œuvre de Bonaparte. *Le héros de l'Egypte aimait lui-même à rattacher sa destinée à celle de Napoléon, et c'était une de ses grandes joies de penser qu'il était né la même année que lui* [39] Il considère que l'Expédition avait *déposé sur le sol de l'Egypte des germes d'amélioration* [40]. Il s'adjoint les services de Jomard, ancien commissaire impérial pour la publication de la *Description de l'Egypte* car il considère que ces réformes doivent se faire *avec l'approbation d'un grand nombre de personnes amies des Lumières et de l'humanité* [41].

En 1815, Méhémet-Ali, définitivement libéré de la menace d'un

---

[38] Catalogue de l'exposition *Les savants en Egypte* Paris 1988 p. 40

[39] Mouriez t. I *op. cit.* p. 7

[40] *Ibid*

[41] *Ibid* p. 111

Napoléon qui considérait que :

L'Egypte devait demeurer à la France [42]

... peut se placer sous son ombre tutélaire en accueillant ses anciens soldats licenciés sous Louis XVIII. Ces derniers nostalgiques de l'Empire se mettent au service d'un souverain qui aime à rappeler son admiration pour l'Empereur. Clot bey, dont le père avait été un soldat de Bonaparte, ne pouvait être que sensible à l'œuvre du Pacha d'Egypte.

Jules Planat, le premier utilisera le terme de régénération dans son ouvrage publié en *1830 : Histoire de la régénération de l'Egypte.*

Planat, ancien artilleur de la garde impériale s'est mis à la chute de l'Empire comme beaucoup d'autres soldats [43] au service du Pacha d'Egypte dont il devient le chef d'Etat major. Pour lui, la régénération de l'Egypte trouve son origine dans les tentatives de réformes du sultan Sélim III [44], dans la note introductive de son ouvrage, on trouve la réflexion suivante :

Il avait remarqué que ce besoin de civilisation s'était fait sentir chez les Turcs dès le commencement de ce siècle ; que les plus éclairés d'entre-eux prévoyaient que l'étude des sciences et des lettres et surtout

---

[42] *Mémorial de Sainte-Hélène,* Paris, 1969, tome I, p. 112

[43] Jules Planat dans son ouvrage pré-cité, donne quelques noms de ces vétérans de l'Empire, dans certains cas, seulement il précise les fonctions de ses personnages : Daumergue, Cadot (instructeur), Caisson, Gonon (reponsable de l'arsenal, Dussap (médecin militaire etc..)

[44] Règne de 1789 à 1808, il tente d'introduire des réformes dans ses Etats, mécontente les janissaires qui le détrônent.

une organisation plus régulière de leurs troupes, était le seul moyen de préserver l'Empire ottoman d'une ruine totale, et il en avait conclu que, dans un pays de despotisme militaire, c'était par l'armée que la régénération politique de l'Egypte devait commencer [45].

En 1840, Ibrahim pacha en visite officielle en France visite l'hôtel de la Monnaie, une médaille est frappée. Elle portait au dessous de la tête du vice-roi cette exergue : *Méhémet-Ali, régénérateur de l'Egypte.* Cette médaille commémorait également la victoire de Nézib. Nézib symbolisait auyeux des Français la victoire d'un Etat moderne, l'Egypte sur un Etat archaïque : l'Empire ottoman. En quelque sorte, les Lumières avaient remplis leur mission. Ibrahim pacha couronne en quelque sorte, la *régénération* par cette victoire. Les Français considèrent le fils de Méhémet-Ali comme un chevalier des *droits nouveaux* [46]. D'ailleurs l'arc de triomphe qui avait été construit pour le passage d'Ibrahim pacha à Vernet résumait le contexte politique de ce voyage :

Au digne fils de Méhémet-Ali

Au civillisateur de l'Orient

A l'ami des Français

Au héros égyptien [47]

---

[45] *Op. Cit* p. ij, iij

[46] Sabry (M.) *L'Empire égyptien sous Mohamed Ali,* Paris 1930 p. 553

[47] Enkiri (G.), *Ibrahim pacha,* Le Caire, 1948 p. 451

IV L'anti-Clot-bey : Hamont

Hamont créa l'Ecole vétérinaire au Caire au moment où Clot bey mettait en place l'hôpital d'Abou Zaabel. Il publie de retour en France en 1843 : *l'Egypte sous Méhémet-Ali.* Il semble qu'Hamont ait voulu réfuter point par point l'ouvrage de Clot bey. Nous avons donc avec ces deux ouvrages publiés à trois ans de distance la même photographie de l'Egypte : le tout positif et le tout négatif.

On perçoit beaucoup de rancœur et de fiel dans le livre de Hamont et il veut résolument prendre le contrepied de l'ouvrage de son ancien collègue en faisant souvent référence à son livre de la manière suivante :

*L'auteur de l'*Aperçu général sur l'Egypte, *M. Clot a dit, à répété...*

Dès le premier chapitre, Hamont dresse un véritable réquisitoire:

J'ai cru Méhémet-Ali l'homme de la Providence...

Je me suis trompé...On a enseigné les sciences et les arts; des usines, des fabriques, des filatures ont été mis en mouvement. Et cependant le mal est devenu plus grand la métamorphose ne s'est pas opéré, la nation n'existe pas, et l'Egypte n'offre partout que désolation et misère

(...)

L'Egypte moderne n'est qu'une façade prétentieuse, dressée par un despote, derrière laquelle un peuple avili croupi dans la misère.

La France a rendu de grands services à l'Egypte, elle a été son institutrice et son influence augmente chaque jour.

Bon nombre d'années se sont écoulées, les uns ont blâmé à outrance, d'autres ont loué sans retenue ; le vrai jusqu'alors reste voilé [48]

A partir de ce constat introductif, il va décliner des jugements négatifs peu amènes pour tous les habitants de l'Egypte : Egyptiens, Turcs, Arméniens, Juifs... Prenons par exemple ce qu'il dit des Arméniens :

Race hypocrite, fourbe, dissimulée (...) *ils cachent sous l'apparence d'une grande soumission la finesse et l'égoïsme* [49]

Les Juifs :

Ils paraissent au milieu du monde comme autant d'exploiteurs de l'expèce humaine[50]

Les Turcs :

Le Turc ne sait rien faire, il cultive ni les sciences ni les arts et n'a point de profession. Son rôle est de commander. Le monde doit travailler pour le nourrir et entretenir le luxe dont il s'entoure [51]

Pour les Egyptiens en général, il est sans illusion :

Leur intelligence est abrutie par le long asservissement qui pèse sur eux depuis des siècle et pour leur rendre cette intelligence, il faut des

---

[48] *Op; cit.*, tome I, p. 13 à 22.

[49] *Op. cit.* tome I p. 426

[50] *Ibid* tome I p. 365

[51] *Ibid* tome I, p. 393

générations[52]

Mais pour le fellah et le copte il est d'une surprenante sévérité :

Le fellah est capricieux, insousciant, versatile, malpropre et supertitieux ; humble, dissimulé devant ses chefs ; despote, venal, tracassier, méchant, impérieux avec ses subalternes ; ingrat à l'extrême, prenant pour de la faiblesse les égards dont vous le rendez l'objet ; vil, rempant s'il vous craint, arrogant, insolent dès qu'il est élevé[53].

Le Copte des villes est efféminé, servile, adulateur, paresseux, vénal; il a les défauts du fellah sans en posséder les qualités ; il est ennemi du Turc et de l'Européen, malgré la similitude du culte religieux qu'il a avec ce dernier. Le Copte est égoïste, sale et cupide[54] .

Pour donner davantage crédit à ses assertions, il a souvent recours au style direct. Donnant ainsi l'illusion de reproduire mot à mot des scènes véridiques qui mettent en lumière la misère du paysan essayant de se démener contre ses spoliateurs.

Cependant, malgré toutes les critiques faites à MéhémetAli, on perçoit toujours dans les écrits de Hamont, de l'admiration :

Méhémet Ali s'est crée, mais il ne s'est pas conservé. Dans le principe on lit sur ses fondations: ouvrage d'un homme de génie. Puis Méhémet Ali livre ses fondations aux hommes de son pays, les fondations

---

[52] *Ibid* tome II p. 640

[53] *Ibid* tome II p. 259

[54] *Ibid* tome I, p. 343

s'écroulent et on lit : travail des Turcs [55]

Les critiques les plus acerbes seront destinés à Clot bey. Il ira même jusqu'à dire qu'il a monté une école de médecine en trompe l'œil : examens truqués (il donne les sujets d'examen), inspections de forme...

D'après Hamont, ses élèves sont de mauvais médecins :

Le ministre de la guerre et celui de la marine, reçoivent journellement des plaintes contre les médecins sortis de l'école d'Abou Zaabel : ceux-ci estropient des soldats des officiers ; l'un empoisonne un homme l'autre ouvre une artère [56].

Tant de ressentiments, d'allégations rapides voire carricaturales sont peut-être dues aux conditions dans lesquelles Hamont regagna la France. On trouve dans l'ouvrage de Charles Didier, *Les Nuits du Caire* [57], une allusion aux causes de son renvoi. Dans une discussion qu'a l'auteur avec un certain docteur Ibrahim, ce dernier lui apprend :

Un médecin vétérinaire de l'armée ou de la maison de Méhémet-Ali, lequel par parenthèse m'a dupé moi-même à Paris sur l'achat d'une paire de chevaux, attirait chez lui des femmes indigènes et les y dépouillait de leurs bijoux, sans que les victimes de ces honteux guet-apens osassent seulement s'en plaindre, vu qu'elles ne pouvaient l'accuser sans s'accuser elles-mêmes. L'Esculape de la gent (sic) chevaline ne s'en tenait pas

---

[55] *Ibid p. 441*

[56] *Ibid* tome II p. 105

[57] Didier (Charles) *Les nuits du Caire,* Paris, 1860. pp. 380-381

d'ailleurs à ses vols latents qu'on pourrait appeler vols au rendez-vous ; il en commit de si patents dans l'exercice de ses fonctions, qu'on lui fit son procès, et il serait mort au bagne, tout Français qu'il est, si le vice-roi, dans un accès de clémence ou de bonne humeur ne lui eut permit d'aller se faire pendre ailleurs [58].

Néanmoins même dans l'ouvrage de Charles Didier on voit que de manière récurrente, les critiques subsistent. Dans les *Nuits du Caire,* il dira également du grand homme :

La vanité était un des grands mobiles de Méhémet-Ali, s'il voulait être, il voulait aussi paraître et désirait passionnément que l'Europe et surtout la France s'occupassent de lui. Aussi faisait-il le plus aimable accueil aux Européens en général, et aux Français en particulier, sachant que ces derniers étaient d'excellentes trompettes, et que grâce à la presse parisienne, les grandes réputations se font à Paris. Jamais loup ravisseur ne revêtit plus habilement la peau de l'agneau.

On voit par ce qui précède que le déficit de popularité ne sera jamais totalement rattrapé malgré tous les efforts déployés. La guerre d'Indépendance puis les guerres contre la Turquie avec comme toîle de fond la Question d'Orient mettent à mal la renommée de Méhémet-Ali. Il apparaît comme un perturbateur aux yeux des grandes puissances Occidentales qui ne savent, devant le danger russe, comment traiter le vassal du Sultan.

L'ouvrage de Clot bey n'avait pas tout fait oublier…

---

[58] *Op. cit.*p. 52

V Conclusion

Il convient donc de nuancer les propos de Hamont tout en pondérant ceux de Clot bey.

Pour le premier :

Puissent les nations civilisées se pénétrer de ces vérités et mettre un terme aux maux affreux (...)indignes des grandes nations détinées à éclairer l'univers [59]

Pour le second, les Lumières ont pénétré durablement en Egypte!

[59] *Op. cit.* tome II p. 642

Bibliographie sommaire

Calvadene *Egypte et Turquie 2 vol. Paris 1836*

Charmes *Cinq mois au Caire*,Paris 1880

Clot (A.B.) *Aperçu général de l'Egypte,* Fortin, Masson,Paris 1840

Colet (L.) *Voyage en Orient*, Paris 1879

Edmond (Ch.) *Zephirin Cazanova en Egypte*, Paris 1880

Gasparin (M; de) *Journal d'un voyage au Levant 3 vol. Paris 1848*

Gisquet *L'Egypte, les turcs et les arabes*, 2 vol. Paris 1845

Gouin L'Egypte au XIX^{e} siècle, Paris 1847

Goupil Fesquet *Voyage d'Horace Vernet en Orient,* Paris

Hugonnet *En Egypte*, Paris 1883

Jomard *Coup d'œil impartial sur l'état présent de l'Egypte*, Paris 1836

Labat *L'Egypte ancienne et moderne,* Paris 1840

Latour *Voyage de S.A.R. le duc de Montpensier à Tunis, en Egypte...* Paris 1847

Marcellus *Souvenirs de l'Orient,* 2 vol., Paris 1839

Marmont *Voyage du Maréchal Marmont*

Mengin *Histoire de l'Egypte sole règne de Méhémet-Ali,* , Paris1839

Mermau *L'Egypte contemporaine de Mehemet Ali à Saïd pacha,* Paris 1838

Minutoli *Mes souvenirs d'Egypte,* 2 vol., Paris 1826

Pascal (L.) *La cange,* Paris 1861

Planat (J.) *Histoire de la régénération de l'Egypte,* Genève, 1830

Poitou *Mon livre en Egypte*, Paris 1839

Saulnier *Notice sur le voyage de M. Lelorrain en Egypte*, Paris 1822

Voilquin *Souvenirs d'une fille du peuple,* Paris 1866

Xavier Marmier *Du Rhin au Nil*, Paris 1847

" Quest for a Historical Interpretation of the Life of Shaykh al-Azhar, Ibrahim Al-Bajuri* , ca. (1784-1860)-An Agenda Article"

Peter Gran
Temple University

Shaykh Ibrahim al-Bajuri was an important Egyptian religious intellectual of the nineteenth century. Some of his works are still read today by theologians. He awaits a historical study.(1) This paper attempts a beginning. It presents the known information about him. In so doing it encounters not only the problems of sources but the relative underdevelopment of the study of modern Egyptian cultural history, the specialty that would supply the framework for such a study. This raises the question why is there so little cultural history written about Egypt in the nineteenth century? The nineteenth century is the period when large number of writers become known to modern scholarship in most countries; why is this not the case for the study of Egypt? Nineteenth century religious traditionists form an important part of the cultural history of many of them, why for Egypt has the scholarly emphasis only been on the liberals? Is there a need for some kind of paradigm shift to

make more room for cultural history? This becomes the main hypothesis and raison d'etre of the paper. The problem in the way of the development of Egyptian cultural history is the historian's preference for the Oriental Despotism paradigm for Egyptian studies, a paradigm or model long noted for its emphasis on the importance of rule by coercion as opposed to persuasion. Given such a model, cultural history diminishes in importance. But isn't the Oriental Despotism model the best and perhaps only way to study Muhammad 'Ali? A reconsideration of this period suggests otherwise. By studying the culture of the Muhammad 'Ali period, and doing so emphasizing figures, such as Al-Bajuri, as opposed to the Egyptian students in France, one clarifies both some features of his life and of the Azhar, features of the period often lost sight of, and one acquires in this process, a perspective on what the historian gains and loses by retaining the Oriental Despotism model as a framework for the study of modern Egypt.

Let us begin this enterprise by introducing Shaykh Ibrahim Al-Bajuri; he is scarcely a familiar figure. What is known about Al-Bajuri like so many other figures-as a result of the prevailing scholarly state of affairs- is the sum of references to him found in the chronicles in particular those of al-Jabarti and Mubarak. According to these, Al-Bajuri was born in the village of Al-Bajur in Minufiya. This in effect meant he was from the Delta at a time when farmers and merchants there were

making money in the spreading world market. He was a Shafi'ite, a member therefore of the dominant Madhhab. Mubarak stated that Al-Bajuri read the Qur'an with his father in al-Bajur to the point of memorization and recitation of it. As these are different steps, one might infer that his father was educated and had some status. He went to the Azhar at 14 years of age in ca. 1212/1797. When the French came in 1798, he like many of the 'Ulama' left for Giza, then returned in ca. 1216/1801 to the Azhar ,i.e. after their departure along with other Azharites. He was a close student of Muhammad Al-Amir al-Kabir and 'Abd Allah Al-Sharqawi(1737-1812) but also studied with Shaykh Muhammad Al-Fadali (d. 1821) and others. In effect, this means he studied with the Azhar elite of his period and with at least one representative of the Delta and with one of Upper Egypt. This becomes a point when one finds that in his best-known book, there is a fusion of regional cultural orientations(2)At least so I would interpret it.

Al-Bajuri soon commenced teaching at Al-Azhar and quickly became a popular teacher. Like most of the Shaykhs of his period, he opposed the reform program of Muhammad 'Ali. In this, he was always in the majority even during the rectorship of Shaykh Hasan al-'Attar, 1830-1835, the only years of Azhar support for the government. What was going on inside the Azhar in those years is not very well known. It sounds fairly conflictual. Al-'Attar complained about his numerous

enemies when he became Shaykh Al-Azhar. It would not be surprising if Al-Bajuri was among those who made Al-'Attar's tenure difficult. Be that as it may after Al-'Attar's death in 1835 the weight of the majority prevailed in the matter of leadership. First there was Shaykh Hasan Al-Quwaysni (d. ca. 1254/1838), a Shafi'ite theologian from the Delta, as Shaykh Al-Azhar then came Shaykh Ahmad b. 'Abd al-Jawwad, (d. ca. 1263/1847), another such figure. At that point, Al-Bajuri became Shaykh Al-Azhar, the nineteenth to hold that office. What one might draw from this is the hypothesis that the reversion away from reformism in 1835 was an important turning point in the cultural struggle of the Muhammad 'Ali period, although this would need to be studied from archival evidence. In the literary sources, Shaykh Al-Quwaysni was praised for his piety in comparison to Al-'Attar. A number of later figures, who play central roles, are tied to al-Quwaysni, among them Shaykh Ibrahim al-Bajuri and Ahmad al-Marsafi,.(3)

According to the chronicles, it would seem that Al-Bajuri had a very ordinary life, one which was little affected by the changes suggested here. He taught all day long all his life even after he became Shaykh al-Azhar. But as with other historical sources, one needs to read in the meaning in the chronicles. Throughout Muhammad 'Ali's period, the Azhar was much deprived of staff and revenues; it however carried on even in adversity. The enormous teaching load can therefore be construed

as a political statement. Years later, during the reign of Khidiwi 'Abbas, the ruler attended his lessons and one senses the Azhar was recovering.

Unlike others in the nineteenth century, Al-Bajuri remained Shaykh al-Azhar for a long period until crises arising in his old age dictated that a four man system of deputies administer the Azhar for a period. Why this was so or what the crises were remains unresolved. 'Ali Mubarak alludes to these crises in passing giving one a general sense of what they might have been about but they need a more thorough investigation. The first crisis came slightly before ca. 1270/1853. A group of students from the Riwaq of the Maghariba attacked al-Bajuri over Murattab al-Jiraya(daily rations). Al-Bajuri retaliated bringing soldiers. The soldiers searched the Riwaq of the Maghariba, closing it, arresting several prominent members, who subsequently testified that no harm was ever intended to Shaykh Al-Bajuri. This episode coincides with changes in Egyptian society in which traditional designations such as Maghariba were giving away to be the more general idea of Egyptian. A detailed study might reveal that what is encoded in this episode and why it is remembered this way might shed light on such changes.

Other altercations followed, especially when Khedive Sa'id extended conscription leading many to join the Azhar as a means of escaping the draft. Apparently, this approach to escaping the draft was perceived by some as fraud. Village headmen entered the Azhar looking

for individuals trying to elude conscription. Clashes ensued. In one there was a death.

In yet another type of altercation, the Riwaq of the Syrians and Sa'idis clashed. This brought in the police and then the army as the Sa'idis threatened the Syrians and the Syrians turned to their political connections. This led to the arrest of thirty odd Sa'idis. Al-Bajuri's advanced age is advanced as an explanation. This point while perhaps true leave us little the wiser how the Azhar was functioning.(4)The fact that Al-Bajuri was not pushed into retirement on the grounds that he was becoming incompetent, that he should devote himself to teaching and should leave administration to younger men suggests that the crises were recognized at the time to be structural crises. No potential rival could exploit them and put forth his claims for the position of Shaykh Al-Azhar. I return to thispoint below in trying to interpret how the structure may have been functioning.

An obviously important issue to clarify is just what was Muhammad 'Ali's relationship with the Azharites? The quick and obviously unsatisfying answer appears to be that it may not have been that close. Shaykh Hasan al-'Attar was known indirectly to Muhammad 'Ali through two of the Pasha's associates, Sami Bey and Khayret Afandi. It was these two who promoted his nomination in 1830. How and why they came to know him and support him is not known and why their

support was decisive is not known either. Later in 1831, Al-'Attar and Muhammad Ali appear to collide around the case of a Maghribi merchant. For all we write about Muhammad 'Ali crushing the merchants and taking over the trade through the government here was a figure who had enough power to get his way making deals and forced Al-'Attar to threaten a scandal by resigning his position in order that the latter should prevail. By way of contrast, Muhammad 'Ali appeared to know Al-Quwaysni; he gave him presents in recognition of his services. Thus, years later, Al-Quwaysni was buried in the Mosque of 'Ali al-Bayyumi in Al-Husayniya. Finally, Al-Quwaysni, as was noted before, produced several insiders in the later Azhar system; for example, his grandson was a teacher in the Azhar. Perhaps by way of implied contrast, Mubarak refers only hazily to a son of Hasan Al-'Attar. Clearly the reformers like Al-'Attar were not the real insiders in the Azhar system in this period. One might infer this as well from the fact that Al-'Attar's students did not become prominent shaykhs although they gained recognition in serving the government press and educational system.

A second and related issue, one already alluded to, is that of Muhammad 'Ali's preferences in the area of religion. If he did not get along well with most of the prominent 'ulama' nor they with him, what was it that he turned to. Was Sufism his religious priority? This is not clear either at this point. The Dutch scholar F. De Jong presents evidence

one might interpret in this manner. The state he found had a growing interest in control and jurisdiction over Sufi orders. As the state grew in power, it became interested in Sufi affairs even when no Azhar shaykh was involved.. As early as 1816, Muhammad 'Ali had appointed Muhammad Al-Bakri as the Naqib Al-Ashraf, fearing if he didn't appoint an Egyptian to that position, a Turkish appointment would come, something he did not want to happen. As many of the Sufi orders then in Egypt were headed by foreign shaykhs and included foreign members, Al-Bakri's jurisdiction was limited in relation to Sufi affairs. Of course, it was also dependent on the state. In 1847, Al-Bakri concluded an agreement with al-Bajuri, then Shaykh Al-Azhar, the latter promising to refrain from intervening in Sufi affairs in return for a clearer delineation of jurisdictional issues. Through this agreement the state gained further rights to adjudicate, a power augmented by the state's obvious capacity to appoint or remove the Naqib Al-Ashraf. (5) All this seems to point toward a relationship between a Sufi world which is being gradually disconnected from the Azhar world and reconnected more directly to the state. Was Muhammad 'Ali trying to bypass the Azhar?

A third and related issue is what was Muhammad 'Ali's political philosophy? What was his model? It is commonly assumed that Muhammad 'Ali's model for statecraft was based on the Ottoman model. Ottoman political philosophy books from previous centuries

appear among the first books published by the Bulaq Press. As the reader may deduce from the foregoing, this is a misleading impression. Muhammad 'Ali -as we shall suggest below-did not care for the system he found in Egypt but-and this is the important point- he did not try to recreate an Ottoman type (meaning Istanbul-type) system.

The claim that Muhammad 'Ali was an Ottoman-and that this was the kind of system he tried to impose- rests on several inferences about him, all of which are correct, but which neither singly nor in sum, fully explain the political philosophy which animated him in Egypt after he gained power. These inferences are drawn from the fact that he rose up in Ottoman military circles, that he did so at a time when there was a good deal of reform sentiment in those circles, that when he came to Egypt he did not bother to learn Arabic and that when he opened the Bulaq Press- as just noted- he published Ottoman political philosophy books. These points could lead to the conclusion that he was an Ottoman reformer. But if so, this certainly does not explain his Azhar policy. The Tanzimat approach to the religious hierarchy was one of solidifying a relation with the Orthodox Sufis and driving out the more heterodox and often poorer ones. Scholastic learning thus remained intact; the Waqf basis was not under attack.

Muhammad 'Ali, on the other hand, clearly attacked the Azhar and its learning. . Without doubt the Azhar suffered in the Muhammad 'Ali

period. It lost its revenues, losing many of its students and faculty as well. Its cultural productivity went down. Fewer books were written in the first half of the nineteenth century than in the second half of the eighteenth century, a point which as we have noted, has been ignored because of the Oriental Despotism way of looking at Egypt. Despite these setbacks, however, the Azhar quietly resisted the secular state, making life difficult for those of its students who tried to jump on the secular bandwagon. In due course it prevailed. Under Khidiwi Sa'id, e.g., Tahtawi was in effect exiled to Khartum, being in disfavor among the Shaykhs. 'Ali Mubarak, a more peripheral figure was on the rise; Clot Bey, a central figure of the reform era, resigned.

If one adopts the view that Muhammad 'Ali was Ottomanizing Egypt then no doubt the highpoint of this "Ottomanizing" was the 1837 Qanun al-Siyasatname, a constitution giving great power to the central authority. This constitution was not an enduring document. After a few years came modifications of it and attempts to confront its limitations. By 1849, the period of interest to us because of Al-Bajuri's career as Shaykh Al-Azhar, provincial issues led to an important reform of it. A decentralization of authority in that year resulted in minor problems being assigned to the provincial and district governors under the umbrella of a newly formed or transformed Majlis Al-Ahkam.(an eleven member body composed of nine notables and two 'ulama', one Hanafi, one Shafi'i)

where previously such problems were handled in Cairo. In 1851 came another straw in the wind as regards the Ottoman option. In·that year, a Penal Code was promulgated for the Empire but it was not applied in Egypt and this, one finds, to have been the case for the second time. In 1852, Egypt established regional courts or Majalis al-Aqalim. Only in 1855 was the adaptation of the Humayun Code finally complete and accepted in Egypt. During the next decade these courts -the Ahkam and the Aqalim-were abolished and reestablished several times as the modern national judicial system came into place. What was happening?(6)It would seem that if Muhammad ‘Ali was following the Ottoman approach, he would have built the justice system around the Millet system but he did not. He developed regional courts. In Egypt, foreigners certainly gained rights but the basic subdivision in legal practice was that of geography or territory not community. Foreigners who gained rights gained most of them as individuals; one's community of birth was somewhat less influential than was the case in Turkey..

A revisionist hypothesis to explain the nature of the Muhammad ‘Ali Period

Obviously, the subject of the Muhammad ‘Ali is a complicated one. Much is not known about it until now. As knowledge accumulates, it may be necessary to revise our view of the period a number of times. All writers agree on the fact that Muhammad ‘Ali was ambitious. So far little

clarity about his background and its influence have emerged in the scholarship on him. There is alambiguity as to what his strategy for ruling Egypt was as noted above. There are in fact multiple explanations for everything.

In general, historians have tended to assume that Egyptian rulers employ a great deal of force in rule and that Muhammad 'Ali was a prototype of this sort of ruler. This, however, does not square very well with what we know about how states are ruled in the modern world. Force plays a role but persuasion and culture play an even greater role. This is the case even in regimes which we call dictatorships. In recent years, countries long-studied as dictatorships, such as Russia and China, have been restudied by social and cultural historians with the outcome that our views even about them are in flux.. So far Egyptian studies have resisted these trends. Students of the Muhammad 'Ali period dwell on the subject of the army and of the bureaucracy, little attention is paid to everyday thought. Here and there it appears and then it is treated as folklore. In so far as culture is considered, attention is almost entirely focused on the students who went to Europe on the Missions. Yet realistically, these students could only be peripheral to the maintenance of the hegemony in Egypt and beyond Egypt in the Egyptian empire. They were a handful in the national population. It would be more logical to postulate that the Azhar played a central role in the history of the period

whether it supported the reform program of Muhammad 'Ali or not and whether or not Muhammad 'Ali was disposed to support it or not. The Azhar was the arbiter of culture which rationalized the daily routine of life.

What do we know about the Azhar in the nineteenth century? One might suggest not that much that would serve us here. There are of course studies of the Azhar in nineteenth century Egypt. For the most part however, whatever the disciplinary perspective of the author, these studies are self-enclosed. The genre which takes up the Azhar and turns outward toward the society comes only later and is still underdeveloped, as a result, what we know we know in a very compartmentalized way. It is still thus very much of an inference what the larger dynamics are as regards rule, persuasion and the role of the religion in the hegemony . The same extends to the study of religious literature, even that is studied by scholars in a self-contained way. Professors of literature and of literary criticism dominate this terrain as professors of religious studies dominate the study of the Azhar, historians are nowhere to be found.

What is one to assume is going on among historians? I assume that for some time historians have been taking the idea of a pharaoh-type ruler and of the centralism of the capital city as a given for Egypt. Such ideas fit the story of Moses and Exodus, and equally they fit the Qur'an. Last but not least, they fit the main story line of professional history, one

which postulates the rise of the West out of the ancient Near East. According to the Oriental Despotism approach to Egypt, the intellectuals are basically a mystery priest class and the bulk of the population slaves or peasants. Scholarly disinterest in cultural studies or peasant studies therefore makes sense. So does scholarly attraction to the idea of an Ottoman Egypt or of an Ottomanizer. Ottoman Egypt as a model fits with the Oriental Despotism model or "Russian-type society" model and it allows for Muhammad 'Ali to be seen as a Mamluk or Ottomanizer without any major paradigm disruption taking place. My concern here, of course, is not whether such an approach works. Of course it works but at what cost?

If for example, we adopt the Russian Road (or Oriental Despotism) approach don't we tend to ignore the trends in Egypt which fail to fit it, trends, for example, toward civil society and private property? When Muhammad 'Ali tried to seize property and to centralize power he met with considerable resistance. Does then the Azhar conform to the Oriental Despotism model of explanation? One would think not. While there were Sufis in al-Azhar one can not imagine the Azhar as a center of mysticism nor mysticism involving a worship of the ruler. Quite the contrary, the 'Ulama', Sufis or otherwise, never worshiped the ruler; rather, they produced scholastic knowledge. They were not a mystery priest caste any more than the peasants were slaves of the hydraulic

system.

The Russian model includes cults and shrine towns. These play an important role in terms of the integration of the society through their propagation of love mysticism. Egypt, too, has such cult and shrine towns but at most they are subordinate to the Azhar. Integration of society in Egypt does not take place through love mysticism. Consider for example Sayyid Ahmad Al-Badawi's shrine in Tanta, the largest provincial shrine in Egypt. In the middle of the nineteenth century, one finds Azhari reformers criticizing various practices in towns such as Tanta. The Azhar had the strength and prestige which allowed it to do so. Another difference between the Russian model and Egyptian experience concerns caste. The Russian model is a caste model. According to this model, people are born into closed social groups and that fact defines their destiny. In Russia, in Ottoman Anatolia, and in Pharaonic Egypt as noted before, this was often the case. For modern Egypt, it was not like that. Wealth and culture allow for intergroup movement. In addition, there was a north-south regional parameter in Egypt not found in Turkey or Russia. There may be groups such as the Nubians or the Bedouins which have caste-like features in modern Egypt but one finds members of these groups spread around in the dominant society in various degrees of assimilation as well.

. If Oriental Despotism is too inaccurate to serve as a model for the interpretation of modern Egypt, what would be a more accurate one? What we know is that Muhammad 'Ali came to Egypt from Albania or Macedonia with his political ideas and tried to impose some form of hegemony on Egypt and in this he succeeded for a while but ultimately failed.* Everyone would agree there was failure, defeat and even collapse, the common view of the matter being one emphasizing simply the role played by the Great Powers Thus, many historians, especially those following the Oriental Despotism model, explain Muhammad 'Ali's rise and fall in terms of the machinations of the Great Powers, 1838-1840. While one may acknowledge his defeats and give the Great Powers some credit, one might note that states frequently suffer defeats without collapsing, thus it would be logical to see if there was internal opposition in Egypt and if there was if it sheds light on the real form of hegemony in Egypt

This turned out to be a fruitful approach. Previous scholarship shows us not only a conflict between Muhammad 'Ali and the Azhar but a desire on the Pasha's part to bypass the Azhar even as an educational institution. One might ask what system of hegemony in the modern world can dispense with religious rationalism, that is the kind of thought which in the Egyptian case is produced in Al-Azhar? The answer would appear to be one and only one and that one is what is called in social science the

tribal-ethnic state, the form of hegemony in which class conflict is played off by gender and blood line solidarities, a form requiring a mysticism of religious patriarchs and saints rather than clerical rationalism. Examples of this form of hegemony are found around the world, among examples of it in Europe are Yugoslavia and Albania. In short, Muhammad 'Ali and his successors tried to bring Albania to Egypt and over the long run failed. By 1860, the attempt was all over.

By 1860 the Azhar had emerged triumphant in this struggle upholding in the process Egyptian tradition of the preceding century, laying the foundation for the modern Egyptian state which emerged in the Age of Isma'il. Egypt it appears was to a certain extent all along but now clearly a modern hegemony in which class would be played off against region, the North would exploit the South.* This type of system hadbeen evolving since the late eighteenth century. Muhammad 'Ali tried to ignore this fact and eventually failed. If these hypotheses prove to be useful, what then emerges, is that the nature of the conflict between Muhammad 'Ali and the Azhar was not one between tradition and modernity as has often been claimed but it was one between two forms of hegemony each of which has to be understood in terms of its own logic, on the one hand a "tribal-ethnic" type state, on the other an "Italian-Road" type of state.

When we look at the details of Muhammad 'Ali's rule in Egypt, one finds further evidence to support the hypothesis of his intentions to construct a tribal-ethnic state. One can infer this from a range of acts- from his treatment of women, from his construction of ethnic enclaves in the ruling class, from his attitude toward the nation and national development, from his style of diplomacy, from the royal household form of government, and from his attempts to undermine the Azhar and civil society. To begin with, one might recall from Al-Jabarti in the 18th century, there are women in public life. By way of contrast, in the Muhammad 'Ali period, women totally disappear from public life following an attack on women protestors by Muhammad 'Ali's soldiers. Thereafter, they appear in sex-role stereotyped jobs such as midwifery. They only really reappear in the Age ofr Isma'il. In no other form of hegemony than tribal-ethnic states would women be absent from public life. A second point is that of the social organization of society. Muhammad 'Ali fostered ethnic groupings over others types of groupings, e.g., Turks, Moreates, Maghariba, Armenians, Europeans, Upper Egyptian tribal chiefs, etc. Turks in Egypt were not a caste as in Anatolia, rather they were an ethnicity; part of them were an ethnic component of the ruling class. Third, there is Muhammad 'Ali's conception of the nation and of development. One can deduce from his atttitude toward Egyptians that the Pasha had no interest in national

development for its own sake. Rather, like the rulers of many tribal ethnic states today who have the money, he set out to purchase a modern army and with it to participate in power games. This is different than the rulers of other hegemonies where national development is a clear part of the agenda, e.g., Turkey or Japan. Fourth, like many tribal-ethnic state rulers, Muhammad 'Ali tended to judge countries by the personalities he met and dealt with. This resulted in a very close relation with France because of certain French. Since, however, personalized linkages don't override interests of state in countries such as France, things fell apart surprising Muhammad 'Ali in 1840 and his system collapsed. Fifth, in the Siyasatname, one can note that the system was a royal household government more than it was a government upholding the Ottoman way or the empire's law. Sixth, there is the issue of the Azhar and Sufism.. What one finds in 1812 is a Firman, which, as Prof. De Jong notes, had the effect of making Sufism less taught and of changing the Azhar into an island apart from Sufism. Before this Firman, Sufism was widely taught, the Azhar was a Sufi stronghold. Until 1812, this meant that the Azhar was the main arbiter of Sufism; in 1812, this changed. At that point, control of Sufism became the prerogative of Muhammad 'Ali's appointment, the Naqib Al-Ashraf. As Azharite Sufism was an "integrative" institution in Egypt, one possible outcome of this Firman could have been an isolated Azhar and the emergence of semi-

autonomous shrines around the country run by Sufis. The Naqib al-Ashraf could have become the main cultural figure of the regime.. The Azhar struggled with this and it did not happen.(7)

By 1860, the form of hegemony was clarified; the Azhar had won out.. The war of the riwaqs and other ethnic assertions was in the past. Segments of the Azhar began once again to cooperate with the state and to reap some benefits from so doing. From the state's point of view, peasant uprisings in the 1850's and 1860's in Upper Egypt may have helped clarify matters. For the hegemony to be stable the Sa'idi elite had to have their share of power. In the preceding generation, one might recall by way of contrast, it was more of free-for-all and the Sa'idi students were the victims. By 1860, the hegemony was more mature.

Al-Bajuri was followed by Shaykh Mustafa Al-'Arusi , ca. (1213-1293/1798-1876) as the Shaykh Al-Azhar(1864-1870). From Al-'Arusi's point of view, reform now had a positive role to play; corruption had become a problem in Al-Azhar. Individuals could advance their teaching careers through their charisma or their connections better than through their learning. The state wanted reform and so what was needed was to blend what the state wanted with what the Azhar needed. Al-'Arusi could do this because he was an insider; he was the third member of his family to hold the position of Shaykh Al-Azhar. Thus one explains his attempt to introduce exams and to establish a credential base for being a

teacher in al-Azhar. Thus one explains as well how he cooperated with the government in opposing street preachers. Why he approached reform in this manner and not in some other is unknown.

Whatever the reason, not surprisingly, his reforms were opposed by the majority of the Azharites and they failed. A majority now constructed in a new way over that of the previous generation or two was now centered among the Malikites. The Malikites were a large madhhab in al-Azhar; many of its members were Sa'idis. Given the structure of the hegemony now clearly in place, the North may have dominated and therefore been able to define the reform program but the Sa'idi elite had a voice and could protect its interests. From 1853, the Sa'idi voice was the Mufti of the Malikites, Shaykh Muhammad al-'Ilish.(1802-1882). Al-'Ilish opposed the reforms of Al-'Arusi; in 1870, he forced Al-'Arusi's resignation. The reasons are apparent. As a reformer, Al-'Arusi had tried to promote credentialism; but, credentialism was a regional issue, something which always divided Egypt North and South because it worked against the interests of the South, the region with the fewer educational opportunities. Reformism could not proceed on this basis if the state was to rely on a southern wing of its ruling class. Why Al-'Arusi approached reform from the point of view a region and not from the point of a view of the state is unclear..

Who then was Shaykh al-'Ilish, his undoer? Shaykh al-'Ilish, the Mufti of the Malikites, was a Moroccan Egyptian from an intellectual and religious family. He had grown up in Cairo, memorizing the Qu'ran by the time he was 15 (1817) at which point he entered Al-Azhar. He studied there until 1829. In 1853, he was appointed Mufti of the Malikites, a position at that time second to that of Shaykh al-Azhar. The position of the Naqib Al-Ashraf was now less important, another sign of the times. Al-'Ilish was a jurist and a Sufi. A very strict observer of the Sunna.. He was close to the power structure, receiving presents from Khedive Isma'il. This would have been unlikely in the preceding generation for a Mufti of the Malikites.(8)

Another sign of the consolidation of an Italian Road hegemony in the 1860's came from the rise of Hanafism. The Hanafis were not a major part of Egyptian jurisprudence in the past. As the state grew stronger, it sought to come out from under the shadow of the stronger wing of the ruling alliance, the Shafi'ites of the Egyptian Delta. Thus one finds in the 1860's shortly after Al-Bajuri's death a shift of the judicial appointments to the Hanafis away from the Shafi'is. This caught the traditional Azharite elite off-balance. In the years which followed, the Shafi'is, the main Madhhab of the Delta, the Madhhab, which had dominated the position of Shaykh al-Azhar from 1725-1870 did not immediately regroup, giving an advantage to the other Madhahib

including the Malikites, an advantage which persisted into the Colonial period.

The 1860's saw yet another development unknown in the years of the Alperiod, notably political and cultural splits in the Delta in the face of the spread of market capitalism. If Husayn Al-Marsafi and the rise of Dar al-'Ulum and 'Abd Allah Al-Nadim and his School in Alexandria represent a kind of moderate reformism; Jamal Ad-din Al-Afghani who drew his support from the Delta was more radical. On the secular side, the same dynamic was in place dividing a host of reformers from more radical patriots, such as Ahmad 'Urabi.

A fourth development, one which began shortly before the 1860's in the period of Khidiwi 'Abbas was that of Coptic reformism. In this period, a reform party arose in the Coptic Church spear-headed by a monk named Da'ud from Girga. Thanks to Khidiwi 'Abbas, Da'ud became the Patriarch Cyril in 1854, having first become archbishop in 1853. Thereafter, Patriarch Cyril opened schools and stressed cultural modernization for Copts and is justly famous for his reform work. The question here is one of interpretation. Was this an attempt on the Khedive's part to deflect cultural modernization into communalism or did it represent some new acceptance of civil society on his part? In other words was this one of the last acts of the tribalist type of hegemony or was it a capitulation of the dynasty as regards the form of the

hegemony in favor of greater civil society a la the Italian Road?(9) Likewise what was Da'ud doing?

Cultural praxis in al-Bajuri's thought and writing

One would assume that the Azharites who resisted the imposition of the Tribal-Ethnic form of hegemony by Muhammad 'Ali were attempting to build a wider political community, one which would have some domain of civil society. It would seem logical to suppose they would resent the attempt to breakdown the civil society. Could Al-Bajuri's writings be read in this optic?

Al-Bajuri was an Ash'arite and he wrote in Tawhid. Of course, as the reader would know, most Sunni theologians were Asha'rites ; furthermore, in various periods, works in Tawhid were written. The question is how should historians try to work with these writings? This is not established.

Let us look once again at the categories used by theologians. Theologians finds three generic positions on knowing about God and the world and they classify writers accordingly. One such position is based on the postulate of the inherent rationality of God and the world, the second is a middle ground, the universe, God and the world require faith and reason to be comprehended, the third position is one of faith alone.. According to the first, man can know everything by virtue of reason; even he can know God. In Islamic discourse, this view is attributed to the

Mu'tazilites. Scholars have often associated the presence of this trend with the development of science and progress. Shaykh Muhammad 'Abduh has often been termed a Neo-Mu'tazilite., the first example of a Mu'tazilite in Egypt in a long time. The second trend in Islamic discourse is called Maturidi. Shaykh Hasan Al-'Attar was a Maturidi; this made him distinctive. Most of the other Azharites were not then or now Maturidis. The third position, the commonest one, sometimes called atomism in classical Greek philosophy is called in the Islamic discourse Ash'arism.(10)

This typology sheds much light on theological thought, it has, however, its limitations for historians. Direct inferences about outlook toward culture based on it seem risky. There is certainly no reliable way to correlate attitudes toward science starting in this way. One does not need Mu'tazilites to have science; science is progressing very well today and there is a world-wide wave of Asha'rism or fundamentalism. There is thus no immediate way to know how a writer like Al-Bajuri would evaluate Muhammad 'Ali's reforms from our knowledge that he was an Ash'arite. A more probable approach to an explanation of his views on the Pasha's reforms would be one taking into consideration the needs of the Azhar in the face of the demands of the secular state during that period. If Muhammad 'Ali would not favor power-sharing then the Maturidite theology of a Shaykh Hasan Al-'Attar was a failure. Too much

openness to reason might allow the Azhar to be controlled by the state while gaining nothing in return. Such a consideration as this, here to make an aside, might well have wider applicability. If some such turf battle was on-going in long periods of history, this may well explain the long-term preference for Asha'rism on the part of many theologians. (11).

But why then did Al-Bajuri choose the genre of Tawhid or of profession of faith or statement about the unity of God and why was his book so influential?. These are difficult questions to answer without more detailed work. I am hypothesizing that the decision to write Tawhid should be seen, as a form of cultural praxis, i.e., it should be seen in terms of its contribution to building consensus and community. The Azhar needed to engage in this in its struggle with Muhammad 'Ali.

Scholarship has not clarified when works in Tawhid appear in Egypt. An impression is that Tawhid played a role in the 17th century and then again in the 19th century but was less apparent in the late 18th century. What is more certain is that Al-Bajuri's nineteenth century gloss on a seventeenth century text in Tawhid has been reprinted innumerable times and finds its way even into our contemporary culture. It must therefore have some importance. In this work, the Al-Jawharah , Al-Bajuri limits the discussion of what tawhid might mean to what can be believed by all after putting aside issues such as the names and attributes of God where there is disagreement with the Sufis and Mu'tazilites in

favor of where there is none, e.g., in issues of prayer, explaining that the title of his book Jawharah meant valuable pearl and was generalized to mean things of lasting value.(12)

Al-Bajuri appears in this way to be placing the Azhar in the center of the orthodox culture as he is defining it. In so doing, he is placing the European-educated students,(Mu'tazilites ?), and the Sufis on the margins of Orthodox culture. Al-Bajuri's procedure was to introduce two main elements: first, he discusses the nature-or necessary attributes- of God doing so in a way minimizing human reason putting his claims in terms of faith, second, he imposes on the believer that he or she know the names of the Family of the Prophet and of the other prophets. Why this material and this juxtaposition? Would all books in Tawhid cover this material? One way to explain the juxtaposition of these particular points is to recall the context of a country divided north and south. Reading Al-Bajuri in that way what one finds is a search for a common denominator among elements, some of which are important in the generally more rationalist North, some in the more genealogically-oriented South of Egypt.(13)

Works in Tawhid, one might also note, if they are to serve as a form of cultural praxis need to command wide audiences. Was Al-Bajuri concerned with the wide audience? The answer seems to be that he was at least at one point in his career as evidenced by his work on the text of his

teacher Shaykh Muhammad Al-Fadali, a text entitled Kifayat al-'awamm, a work intended as popularization.

Conclusion

This essay was written as an agenda piece. It attempted to offer through a series of hypotheses an alternative vision of modern Egyptian history and of the Muhammad 'Ali period within it , one more comprehensive than that which exists. What was proposed was dropping the idea of Oriental Despotism and putting the idea of an Italian Road type of historical trajectory in its place. What was further suggested was that Muhammad 'Ali can best be understood as an Albanian as opposed to a latter-day Pharaoh, Mamluk or Ottoman although each of these formulations offers some insight. Muhammad 'Ali attempted to impose a tribal-ethnic type of state on Egypt. The Azhar resisted this and in the end successfully so. Al-Bajuri's life makes sense as understood as a part of this resistance. His work in Tawhid appears in this ligto constitute a form of political praxis, one attempting to build a wider community than that encouraged by the existing hegemony. If future research were to validate these lines of thought there might be several consequences. The one I would like to dwell on here in conclusion is that the cultural history of modern Egypt would become a more integral part of the study of modern Egypt than it has been up to now. One of the odd features of

modern Egyptian studies to the eye of the outsider is that so much culture is left to be a part of literature or folklore or religion as opposed to history.

As writers in the dominant paradigm have well-established, Muhammad 'Ali was the modernizer of the army and in so doing, he no doubt collided with the ambitions of stronger countries in 1838-1840. That said, it still seems interesting to know how his options were modified by the unfolding of the internal struggles against his hegemony inside Egypt. This paper hypothesizes that in addition to a new army, Muhammad 'A
li sought to impose a new political system. Was it to be like that of the Turks, Japanese, Russians and others following their path of modernization? This has been studied and what one finds is that while Japan forged ahead, Egypt did not. There were limits to Muhammad 'Ali's willingness to share power , limits to his real interest in development per se.(14)His system was not their's.

Had the Siyasatname of 1837 resolved the political and legal crises of the country, modern Egypt might have emerged as a tribal state, like the Sudan or like Libya. The Naqib Al-Ashraf would have emerged as the regime intellectual. But it didn't work. The Azharites resisted it. What emerged then was what was already there in any case under the surface, the Sa'id, a Southern Question, the term here used in the Italian sense.

On the level of political culture this resulted in the rise in the importance of the Mufti of the Malikites, for a certain period of time, later of course comes Taha Husayn.

ENDNOTES

I would like to thank Professor Nelly Hanna of AUC for reading this draft.

*Scholars spell his name Al-Bajuri, perhaps from his village name Al-Bajur, while his texts all make his name Al-Bijuri.; This article takes up in some detail the issue of hegemony in Egypt as a way of explaining Al-Bajuri's life. A detailed discussion of different kinds of hegemonies appears in Beyond Eurocentrism-A New View of Modern World History (Syracuse: Syracuse University Press, 1996). Four basic forms of hegemony are discerned: (1) those playing race off against class, (2) those playing region and regional culture off against class. This type is called Italian Road and is believed to be the most accurate description of modern Egypt (3) those playing caste off against class. This model in modern parlance is often called the Russian Road. In Middle East Studies, it is the Oriental Despotism model believed by many to still be in force, especially in countries such as Egypt, and (4) those playing gender off against class, the so-called tribal ethnic states. In this paper, I argue that Muhammad Ali brought this approach to Egypt out of his Albanian/Macedonian background tried to apply it and failed. The roots of these strategies of rule developed in the Middle East and elsewhere over a number of centuries coming to fruition with the capitalist nation state phase of history sometime after the middle of the nineteenth century.

1-Al-Bajuri is known to students of theology through the work of Louis Gardet and M.M.Anawati, Introduction a la Theologie Musulmane(Paris: Vrin, 1948)passim and from a pioneering work in history by Gilbert Delanoue, Moralistes et Politiques Musulmans dans l'Egypte du XIXeme Siecle(1798-1882)(Dissertation from the University of Paris IV, January 1977)pp. 737 ff. See also a nineteenth century translation by J.D. Luciani of a work on inheritance law, which was useful in North Africa, and a translation by R. Basset of a devotional work praising the Prophet(Alger, 1910).

2-'Ali Mubarak, Al-Khitat al-tawfiqiyah(Cairo, 1888)v. 9, p. 2.

3-Ibid., v. 14, p. 142.

4-Ibid., v.4, p. 40.

5-F. De Jong, Turuq and Turuq-Linked Institutions in Nineteenth Century Egypt (Leiden: Brill, 1978)32-34.

6-A. Chris Eccel, Egypt, Islam and Social Change: Al-Azhar in Conflict and Accommodation (Berlin: Klaus Schwarz, 1984)pp. 97-99. Eccel's book is typical of the inward-turning work to be found on Al-Azhar in English and other languages. A rare example of an attempt to put Awqaf and to a degree Al-Azhar in modern social history is Ibrahim al-Bayumi Ghanim, Al-Awqaf wa al-siyasah fi Misr (Cairo: Dar Al-Shuruq, 1998).196ff.

7-F De Jong, op. cit., p.23; the extraordinary rise of the Armenian community in Muhammad 'Ali's Egypt is suggestive of a tribal-ethnic state, as is the ruler's ethos of personalism, as is the community's partial eclipse thereafter, as is the importance of the Izmir clan and of Boghos Bey Yusufian(1775-1844), the de facto prime minister of Egypt, cf B. Adalian,

"The Armenian Colony in Egypt During the Reign of Muhammad 'Ali(1805-1848,"Armenian Review v.33(June 1980)115-145.

8-Delanoue, op. cit., p. 137.

9-J. Heyworth-Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt(London: Frank Cass, 1968)p. 310.

10-Gardet and Anawati, op. cit., pp. 58-9.

11-As the modern state rises, the religious hierarchy becomes a junior partner in the hegemony and is sometimes referred to as the "Traditional Intellectual". Antonio Gramsci has many scattered comments on the concept of the "traditional intellectual". On Gramsci's writings, a voluminous literature now exists. A good deal of rather uneven material that deals with the Vatican appears under this heading, which is the basis for much of this theorizing; for a standard if dated account of the modernity of scholasticism, Maurice de Wulf, An Introduction to Scholastic Philosophy-Medieval and Modern (New York: Dover, (1903)1956); for a lengthier discussion of the problems of Egyptian scholastic culture as modern culture, Islamic Roots of Capitalism (Syracuse: Syracuse University Press, 1998).

12-Sharh Al-Bajuri 'ala al-jawahrah al-musammi tuhfah al-murid 'ala jawaharah al-tawhid (Cairo: Muhammad 'Ali Subayh and Sons, 1964) 2 V., esp. v. 1, 12, 24. The original text was written by Ibrahim al-Laqqani, d. 1631. Many writers wrote commentaries on this work beginning with the author's own son, 'Abd Al-Salam, d. 1688. Al-Tahtawi and al-Bajuri studied this last work with Shaykh Muhammad al-Fadali(d. 1821), cf. Delanoue, op. cit., pp. 108-9, 114. Another work which al-Bajuri wrote still in use in modern times (at least indirectly) is the textbook in logic called the Sullam, a

commentary on the text by Al-Akhdari, see the commentary on Al-Bajuri's gloss by Muhammad 'Abd Sattar al-Nusayr, Al-Sullam fi 'ilm al-mantiq(Cairo:Dar al-'Tiba'ah al-Muhammadiyah., 1974).The latter was an Azhar teacher of the 1970's; he was assisted by an Azhar dean . The work has a modern style bibliography, it makes some references to modern sciences, but in many ways it is a faithful continuation of al-Bajuri's original text. I think any author who wrote books around 1234/1818 which are still in use today deserves some kind of analysis by historians.

13-Sharh 'ala jawaharah, v. 1, pp. 47ff.

14-An original work in this area is Raouf Abbas Hamed, The Japanese and Egyptian Enlightenment. (Tokyo, 1990). For a unique study of the internal struggle imposing some constraints on Muhammad 'Ali, cf. Fred H. Lawson, The Social Origins of Egyptian Expansionism During the Muhammad 'Ali Period(New York: Columbia University Press, 1992).

Muhammad Ali and the Decline and Revival Thesis in Modern Egyptian History

by Kenneth M. Cuno

Taking up the theme of this seminar, "reform, modernization, or continuity," this paper will discuss the issue of periodization. Its point of departure is the question of why the prevailing interpretation holds that there is a fundamental discontinuity between the eighteenth and nineteenth centuries. In other words, why does "Ottoman" history end, and the "modern" history of Egypt begin, with the reign of Muhammad Ali? Merely to ask these questions is to suggest that the prevailing view of the Muhammad Ali period and the historical narrative of which that view is an integral part are not the only possible interpretation that one can arrive at when studying Egyptian history. The idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" is not something that sprang spontaneously from the sources onto the pages of history books. Historical knowledge is a cultural artifact, in the sense that it is produced in particular circumstances and at specific moments. I think it is useful for us as historians to keep that in mind and, occasionally, to set aside our documents and raise questions about interpretative frameworks, such as this one, that we often tend to take for granted.

Periodization – the division of history into distinct periods – is an expression of a particular interpretative framework. When I began studying the Muhammad Ali period I was impressed by the sharp dichotomy that exists in the historical literature between the "Ottoman" and "modern" eras. This dichotomy was not fully established as the prevailing historical interpretation until the

monarchy period (1922-1952), even though its roots reach back much farther. In its modern form, the present conventional interpretation holds not only that the beginning of modern Egypt was an accomplishment of Muhammad Ali (and/or of Napoleon), but also that the modern revival occurred after a long period of decline under Ottoman rule. Hence, in the conventional interpretation, the thesis of Egypt's modern revival is closely related to another thesis, that of "Ottoman decline." According to the latter thesis, in Egypt and the rest of the Ottoman Empire the period from the mid-sixteenth century through the end of the eighteenth century was one of political anarchy, intellectual and cultural sterility, and economic and demographic decline.

The idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" is usually juxtaposed against the dark image of Ottoman-era decline, and as such it goes far beyond an accounting of the Pasha's many real accomplishments and their impact. Rather, the Muhammad Ali period is portrayed as the antithesis of the "Ottoman" period: in place of political anarchy, Muhammad Ali established order; in place of intellectual and cultural sterility, Muhammad Ali initiated an age of enlightenment; and, in place of economic and demographic decline, Muhammad Ali put Egypt on the road to progress and growth.

During the past twenty-five years, however, this dichotomy between the "Ottoman" and "modern" periods in the conventional interpretation has been undermined. There has been a renaissance in studies of the "Ottoman period" – the sixteenth through eighteenth centuries – in Egypt, Bilad al-Sham and other parts of the Ottoman Empire that has made the Ottoman decline thesis untenable. Instead of seeing the sixteenth through eighteenth century period as an era of political anarchy, scholars such as Rifaat Ali Abou-El-Haj, Daniel

Crecelius, Leslie Peirce, and Jane Hathaway[1] have re-framed the political history of that period in terms of a structural transformation. The centralized rule of the "classical" era (mid-fifteenth through mid-sixteenth centuries) gave way to a much more decentralized "politics of households," in which elite households in the imperial center as well as in the provinces competed for resources and power. This work on political households is complementary to other studies, mainly of Bilad al-Sham, which highlight the role of the urban notables during the Ottoman period.[2] The politics of the "Ottoman" period now appears not to have been anarchic, but merely structurally different from the preceding period (mid-fifteenth through mid-sixteenth centuries) and the succeeding one (nineteenth and twentieth centuries).

The thesis of intellectual and cultural sterility is perhaps exemplified by David Ayalon's article, "The Historian al-Jabarti" (1962), in which he described al-Jabarti as a unique genius in an intellectual wasteland.[3] Gamal al-Din al-Shayyal made advanced an early challenge to that viewpoint with his review of eighteenth-century intellectual activity. His argument that in the Islamic Middle East the eighteenth century was a period of intellectual revival anticipated the viewpoint propounded later by Peter Gran.[4] In addition to falsifying the thesis of Ottoman-era intellectual and cultural stagnation, the trajectory of Shayyal's and Gran's studies has been toward connecting eighteenth-century intellectual and cultural activity with that of the nineteenth century. Their work, along with a growing number of studies in and editions of the manuscripts of Ottoman Egypt, has discredited the thesis of intellectual and cultural sterility. Although the main trends in nineteenth-century intellectual and cultural life were different from those of the Ottoman period,

difference is not the same thing as sterility.

The idea of a demographic decline in the Ottoman era has also been corrected, at least for Egypt, by Andre Raymond and Nelly Hanna. Egypt's population appears to have grown in the sixteenth century and to have fluctuated thereafter.[5] There was a parallel expansion of population in sixteenth-century Anatolia, and we can at least pose the question of whether there were similar trends in the other provinces of the Empire – that is, whether the Ottoman side of the Mediterranean experienced the same or similar demographic rhythms as the European side. In Egypt, again, and working backward from late nineteenth-century data, Justin McCarthy and Daniel Panzac have argued convincingly that the Egyptian population circa 1800 was probably around 4 million, or in other words about twice the previously accepted figure, which was based on an estimate made during the French expedition.[6]

As for the question of economic decline, it is now accepted that the international trade of Egypt did not collapse after the Portuguese rounded the

Cape of Good Hope. Rather, there were a series of structural changes in this trade from the sixteenth century to the early nineteenth century.[7] The local Egyptian economy seems to have expanded during the first century of Ottoman rule, and to have fluctuated thereafter, suffering a sharp setback only in the late eighteenth century. In *The Pasha's Peasants* I argue that during the first three centuries of Ottoman rule there were economic ups and downs, but no retrogression in economic structures. I disprove the accusation that the Mamluks and/or the Ottomans allowed the irrigation system to deteriorate through neglect, showing that the system was not neglected until the crisis of the late eighteenth century. I also emphasize the existence of sophisticated commercial structures and practices in the economy before 1800, which facilitated the rise of a more commercialized economy in the nineteenth century.[8]

As a consequence of this new scholarship it is much more difficult to draw a line circa 1800 asmarking the beginning of "modern" history in Egypt, or a few decades later for the other Arab countries. From the perspective of "the politics of households," Muhammad Ali looks like a very successful head of a political household, and from the perspective of "the politics the notables," there appears to be much continuity in the local political leadership of Bilad al-Sham between the "Ottoman" and "modern" periods.[9] The new work on Ottoman-era intellectual and cultural history also suggests a degree of continuity with the nineteenth century, and the new studies in Ottoman-era economic history indicate that the nineteenth century developments were based upon pre-existing structures. Thus, although certainly there were important qualitative changes in the nineteenth century,

it is no longer possible to regard the "modern" period, beginning with Muhammad Ali, as the antithesis of the "Ottoman" period.

The question that needs to be asked at this point is why, in spite of this new scholarship, does the old framework persist? What accounts for the durability of the thesis of Ottoman decline and revival, and the related idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt"?

Thanks to the work of Edward Said[10] and others we are well aware of the ways in which the discourses of Orientalism, colonialism, and modernization have contributed to the decline-and-modernization thesis. However, these discourses are not the only source of the thesis, and, ironically, an exclusive emphasis on its "foreign" origins tends to reproduce the trope of an aggressively active West imposing its norms on a passive or static East. That trope, which denies any agency to actors in the East, is one of the hallmarks of the discourses of Orientalism, colonialism, and modernization. While not discounting the importance of those discourses, in this paper I want to sketch the outlines of the indigenous or "Eastern" contribution to the decline and revival thesis, specifically in the Egyptian context. My purpose is to demonstrate that this thesis was not imposed unilaterally by foreigners, but that, instead, the construction of the decline and revival thesis was a "joint venture" in which the Ottoman and Egyptian contribution was a vital element. Or, in other words, the decline and revival thesis and the idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" were formed through a dialectic between Western and Eastern discourses.

In order to show this I will focus on three Ottoman and Egyptian contributions to these theses. First, the roots of the decline thesis can be found in Ottoman political writings of the sixteenth through the eighteenth centuries, which were the earliest in either the East or the West to assert that the Empire was experiencing a decline. Second, in the Ottoman Empire, including Egypt, the rhetoric of the *Nizam-i Jadid* and *Tanzimat* reformers emphasized the idea of a previous decline as a way of legitimating the reform agenda. Third, in the first half of the twentieth century, the view of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" became the conventional one as a result of scholarship patronized and/or encouraged by King Fuad and his son Faruq, the great-grandson and great-great-grandson of Muhammad Ali, respectively.

Origin of the decline thesis.

Long before European intellectuals seized upon the idea of the decline and decadence of the Ottoman Empire, a group of Ottoman writers was insisting that the Empire had declined since its "golden age" in the fifteenth and early sixteenth centuries. These writers produced a genre of political works known in Ottoman studies as the *nasihatname* literature. The *nasihatname* literature belonged to a well established tradition of writing on statecraft in Islamic history, including, for example, the famous *Siyasatname* written by the Saljuk vezir Nizam al-Mulk (d. 1092). However, in addition to addressing the practicalities of ruling, many of the Ottoman authors compared their own time unfavorably with the strength and prosperity of the the "classical" age. The old order had broken down, they alleged, causing the empire to decline.

Several generations of scholars accepted these writings as nothing more than objective descriptions of Ottoman decline, a tendency exemplified by Bernard Lewis in his article "Ottoman Observers of Ottoman Decline" (1962),[11] which also gives a good synopsis of the views expressed in the *nasihatname* literature. Nowadays, a younger generation of Ottoman historians understands the *nasihatname* literature as polemic rather than objective description. These works created a *discourse* of decline, as a way of criticizing changes in the way the Empire functioned – changes such as the rise of "the politics of households," beginning in the mid-sixteenth century. Abou-El-Haj has argued that these writings need to be viewed as "political tracts that represent a struggle within the ruling elite,"[12] that is, between those who opposed change and those who accepted it. Although the "decline" of the Ottoman Empire was announced in these writings as early as the mid-sixteenth century, very little actually occurred that could be described as "decline" until the beginning of the eighteenth century, when the Empire began to suffer permanent territorial losses.[13] Moreover, what "declined" in the eighteenth century was the military effectiveness of the Empire vis-à-vis its European adversaries, and the political center's hold on the provinces.[14] As Douglas Howard has written,

> [The] theory of the decline of the Ottoman Empire in the sixteenth to eighteenth centuries rests primarily on the interpretations of contemporary Ottoman political writers; the idea was, in other words, first an Ottoman creation. It found ready acceptance among subsequent generations of Ottoman intellectuals and was repeated in Ottoman political literature of the next two centuries. Through

> translation of this literature into western languages, the Ottoman intellectual analysis of the Ottoman decline became its accepted modern scholarly interpretation.[15]

Howard's main point is that the thesis of Ottoman decline was originally "an Ottoman creation." But here I want to suggest another important link between the decline thesis and the rhetoric of the nineteenth century *Nizam-i Jadid* and *Tanzimat* reforms.

The rhetoric of nineteenth century reform.

By the late eighteenth century the decline thesis was widely accepted in Ottoman intellectual circles. According to Lewis,

> Ottoman statesmanship was still looking backward to the golden age in the past, and earnest reformers saw the only hope of salvation in a restoration of Islam and of the pure and ancient traditions of the house of Osman. In 1792, when Selim III asked a score of eminent Ottomans for their advice on how to run the Empire, there were many who still gave the same answer. There were some, however, who had found another way.[16]

Here, Lewis was drawing a distinction between traditionalists, who were "still looking backward to the golden age," and others, who would support the *Nizam-i Jadid*, a European-inspired reform. However, both camps agreed that a decline had occurred and that reform was needed. The decline thesis provided the proponents of the *Nizam* and later of the *Tanzimat* reforms with a justification for their agenda, and – just as important – with a means of discrediting their conservative opponents.

In the conventional modern interpretation these reforms are presented as innovative, but initially the reformers presented them as a restoration of the old order. For example, in the Imperial Rescript of the Rose Chamber, issued by Sultan Abdulmajid in 1839, the opening paragraphs invoke the decline thesis: they assert that "in the first days of the Ottoman monarchy, the glorious precepts of the Koran and the laws of the empire were always honored," and that this led to strength and prosperity. However, "in the last one hundred and fifty years ... [these precepts and laws were disregarded], and the former strength and prosperity have changed into weakness and poverty ...."[17] The timing of the onset of decline in this version of events may be a reference to the Empire's first permanent telosses, which occurred approximately one hundred and fifty *hijri* years earlier. In any event, one can see that at this stage the reform program was being presented as necessitated by decline, and as a restoration of that which had once made the empire great. In Egypt, Muhammad Ali employed a similar rhetorical strategy, for example, in the law of 1829 regulating agriculture, known as *La'ihat Zira`at al-Fallah*. This law was necessary, according to its own preamble, because of an alleged decline – in industrial skills, commodity production, and cultivation – that had occurred previously.[18]

By the middle decades of the nineteenth century there was a shift in the rhetoric of reform, with greater emphasis being placed on the idea of progress. The Imperial Rescript of 1856 spoke of "renew[ing] and enlarg [ing] still more the new institutions," and it linked those new institutions to the position the Ottoman Empire held "among civilized nations."[19] In Egypt,

in a similar vein, the Pasha's decrees in the 1840s concerning the census invoked "progress and civilization" and "the attainment of the general good" as reasons for enumerating the population.[20] The timing of this shift in the rhetoric of reform, from an emphasis on decline and recovery to the attainment of progress and civilization, and the reasons for that, are beyond the bounds of this paper, though they deserve to be studied in detail. For now, suffice it to note that the rhetoric of nineteenth century reform carried a thesis of pre-nineteenth century decline, which apparently derived from the *nasihatname* literature.

In Egypt, although there was a shift in emphasis in the reform discourse from "decline and recovery" to "progress and civilization," the memory of decline was preserved because it served to legitimate the Muhammad Ali dynasty. In his speech from the throne opening Majlis Shura al-Nawwab in 1866, Khedive Ismail stated that when his grandfather Muhammad Ali became the governor of Egypt, "he found it without any traces of civilization, and he found its people deprived of security and comfort," and so he devoted himself "to making the people secure and to civilizing the country."[21] Loyalist bureaucrat-intellectuals like Rifa`a Tahtawi and Ali Mubarak also supported the claim of the Muhammad Ali dynasty to have begun a new era of progressive change.[22] This theme was carried over into the British occupation period, with the bureaucrat-intellectual Yacoub Artin inventing a history of progressive change in land tenure, initiated by Muhammad Ali and carried forward by his successors, the aim of which (or so Artin claimed) was to establish private landownership.[23]

As for books on the history of modern Egypt published in Arabic in the late nineteenth century, if the writer were pro-khedevial there was a similar tendency was to highlight the role of the dynasty as a whole, and not just Muhammad Ali. In surveying bibliographies of Arabic books published in Egypt before 1900 I found only one in which the subject was Muhammad Ali himself: Muhammad Farid Bey, *Bahjat al-tawfiqiyya fi tarikh mu'assis al-'a'ila al-khidiwiyya* (Bulaq, 1893). The title describes Muhammad Ali only as the founder of the khedivial dynasty, not "the founder of modern Egypt," although the clear implication is that modern Egyptian history began with the advent of that dynasty.[24]

Royal patronage in the writing of history.

While the roots of the decline and revival thesis can be located in the Ottoman *nasihatname* literature and the rhetoric of nineteenth century reform, and it was nurtured by Muhammad Ali's successors, the idea that the modern history of Egypt began with an awakening initiated by the Pasha did not become widely accepted in modern historiography until the twentieth century. This was largely due to the efforts of the monarchy, and especially King Fuad, to foster a national history befitting the newly independent state as well as legitimating their dynasty. In the nineteenth century, on the other hand, this idea was not universally accepted, and it had to compete with alternative narratives which either described the Pasha as a destroyer instead of a founder, or advanced other candidates as the real "founders" of modern Egypt.

At the beginning of the nineteenth century, for example, the historian al-Jabarti failed to perceive Napoleon and Muhammad Ali as initiators of a new and better era. Instead, he tended to look back with nostalgia to the days of Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab.[25] Al-Jabarti's unfavorable view of Muhammad Ali was due at least in part to the Pasha's confiscation of *iltizam*s and *waqf*s, from which al-Jabarti and others of his class had derived a comfortable income. In 1815, Muhammad Ali's Albanian troops revolted against his attempt to implement the *Nizam-i Jadid* by drilling them in the "French" manner. The Pasha barely escaped to the Citadel, whence he dispensed concessions to the troops, the ulama, and merchants in order to strengthen his position. Al-Jabarti grumbled that had the Pasha not been so politically skilled, "all" would have turned against him due to his confiscation of *iltizam*s and *waqf*s.[26] And in yet another well-known passage in his history, al-Jabarti's description of the building of the Mahmudiyya canal emphasizes the burden placed on the peasants who were corvéed for this project, and alleges that they suffered high mortality.[27] In al-Jabarti's view, then, things had gone downhill since the time of Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab.

During his rule Muhammad Ali and Egypt were the subject of numerous French and English books, which is evidence of a lively interest in his reforms and conquests. The Pasha himself was concerned with his image in Europe and sought to present himself to Europeans as an enlightened reformer.[28] Yet although some writers admired him and praised his projects, others sought to portray him as a tyrant who was ruining the

country.[29] Moreover, European interest in Muhammad Ali seems to have been mainly due to the strategic and economic importance of Egypt and the growing importance of the "Eastern Question" in international diplomacy during the nineteenth century. Once the Pasha had passed from the scene, European writers quickly turned their attention to his successors.

For example, during his short rule Said Pasha (1854-63) was extravagantly praised by a few writers who saw his reforms in the land law as a major turning point in Egypt's history. One described Said's reforms as having "the importance of a social revolution," and another described them as transforming the Egyptian people from "slaves ... into free citizens."[30] It is conceivable that had he ruled longer, or had one of his direct descendants become the king in 1922, Said might have become "the founder of modern Egypt" instead of his father.

Yet another narrative of the history of modern Egypt was put forward by British writers during the occupation period. These writers – for obvious reasons – portrayed the British occupation as rescuing the country from disorder and bankruptcy.[31] They downplayed the importance of Muhammad Ali's reforms and portrayed Khedive Ismail as an incompetent tyrant, in order to highlight the "enlilghtened" administration that they, the British, had brought to Egypt as the most important turning point in its history. Still other narratives of modern Egyptian history began to be advanced by nationalist writers during the occupation period. As Dr. Sayyid Asmawi points out in his contribution to this volume, the nationalists had differing views of Egypt's history and of the role of the khedivial dynasty in it, and not all of them were favorable toward the dynasty.

Perhaps the most famous criticism of the role of Muhammad Ali by an Egyptian was published by Muhammad Abduh in *al-Manar* in 1905. Abduh described Egypt before the rule of Muhammad Ali as having had a stable social and political order in which the religious elites played a leading and moderating role. The picture of pre-nineteenth century Egypt that Abduh sketched was not that of a society in decline and in need of revival, and, consistent with that picture, he describeMuhammad Ali as a destroyer rather than a founder.[32]

What spurred Abduh to pen his criticism of the Pasha was the avalanche of speeches and articles in praise of Muhammad Ali on the occasion of the centenary of his appointment as governor of Egypt in 1805. A thorough survey of the periodical press in this period is beyond the bounds of this paper, and Dr. Asmawi's contribution to this volume discusses in detail the debate in the press on Muhammad Ali during these centennial celebrations. Suffice it here to note that there were two celebrations, in 1902 and again in 1905, due to the divergence of the Islamic and Gregorian calendars. The idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" – including the nickname itself – seems to have crystallized in the interval between them. For example, in a speech delivered in Alexandria on the evening of May 21, 1902, the nationalist leader Mustafa Kamil spoke of "the work of Muhammad Ali that revivified the nation and advanced it," though he was only warming up the crowd before calling for a British evacuation.[33] On the same day *The Egyptian Gazette*, a mouthpiece for the British community in Egypt, opined that Muhammad Ali "rescued [Egypt] from anarchy" and that "he is as worthy of the title of father of his

country as any monarch in history." However, the writer also insisted that the Pasha's reforms died with him, and no trace of them remained by the time of the British occupation.[34] Hence the role of Britain as Egypt's rescuer was maintained. Yet in contrast to that, during the 1905 celebrations the *Gazette*'s editors employed the now familiar nickname "the founder of modern Egypt" as if it were already a familiar one. Similarly, the Vice President of the Alexandria Municipality described the Pasha in a speech as "l'auteur de l'Egypte moderne."[35]

It is significant that the nickname "the founder of modern Egypt" was coined in the context of the official celebration of the centenary, which was organized by the Palace. On one hand, the assignment of the role of "the founder of modern Egypt" to Muhammad Ali was consistent with the dynasty's rhetoric of reform and modernization. In this respect it may be regarded as a restatement of the historical narrative advanced, for example, in Khedive Ismail's speech of 1866. On the other hand, the Palace now had to contend with the alternative historical theses put forth recently by the British and especially the anti-khedivial nationalists. The struggle to define Egypt's past was part of the larger struggle between the Palace, the British, and the anti-khedivial nationalists over Egypt's political future.[36] In this context the Palace appears to have exploited the opportunity of the 1902-1905 centennial to assign to the founder of the khedivial dynasty – and hence to the dynasty itself – a central place in the narrative of national history.

The struggle for Egypt and the contest over its past intensified after the First World War, and Muhammad Ali began to be named "the founder of modern Egypt" in book titles. Abd al-Halim Hilmi al-Misri's *Muhammad 'ali al-kabir munshi' misr al-hadith* appeared in 1919, and Ilyas Ayyubi's *Tarikh muhammad 'ali mu'assis misr al-haditha wa ra's al-'a'ila al-karima* appeared in 1922.[37] In the following year Ayyubi published a two-volume history of the era of Khedive Ismail[38] (the grandson of Muhammad Ali and father of Fuad), which extended the narrative of progress under the auspices of the khedivial dynasty into the late nineteenth century and maintained a continuity between "the founder of modern Egypt" and the current monarch.

Indeed it was largely due to the efforts of his great-grandson, King Fuad, that Muhammad Ali's role as "the founder of modern Egypt" became firmly established in historiography. Fuad's role as a patron of intellectual activity resembles that of his father, though it has not received adequate attention from historians. While a prince he was the royal patron of the Egyptian University (now Cairo University), founded in 1908, and once on the throne he saw to the organization of a national archive in Abdin Palace. National archives had been organized for the purpose of historical research several decades earlier in western Europe and the U.S.A. Like a national library or

museum, a research archive had become one of the appurtenances of a modern state. Such an archive would facilitate as well as influence the writing of the history of the state – especially in Egypt, where the Abdin archive was the personal property of the King, who controlled its organization and access to it.[39]

Additionally, King Fuad and (to a lesser extent) and his son Faruq patronized historical research and writing on a grand scale, the aim of which was to further develop a narrative of modern national history that was inseparable from that of their dynasty. Largely as a result of their efforts, some fifty scholarly books in French, English, and Italian dealing with Muhammad Ali and/or Egypt during his era were published between 1900 and 1950.[40] Many, though not all, were published in Egypt. Nearly three-quarters of those titles appeared in the 1930s, and the second-largest number appeared in the 1920s, clearly indicating the role of Fuad (r. 1917-1936) as a patron of historical scholarship. Many of these works are substantial collections of selected diplomatic documents from European archives, hundreds of pages in length, published by the Royal Geographical Society under the personal auspices of the King. One of the monographs of this period was by the British historian Henry Dodwell, entitled *The Founder of Modern Egypt: a Study of Muhammad Ali* (Cambridge, 1931). It was Dodwell

who popularized this nickname for Muhammad Ali in the Anglophone world.

During the same half-century, more than forty works were published in Arabic in Egypt on Muhammad Ali and/or Egypt during his era.[41] Several of these titles were pamphlets or printed speeches of less than forty pages in length, including the text of Mustafa Kamil's 1902 speech, printed by the press of his newspaper, *al-Liwa'*. However, most were works of more than a hundred pages, and several were substantial scholarly studies like Ahmad `Izzat `Abd al-Karim's history of education under Muhammad Ali, and Ahmad Ahmad al-Hitta's history of agriculture. The numerical disparity in favor of European-language books seems to reflect three factors. First, history was established as a professional discipline in Egypt comparatively late, with the re-founding of the Egyptian University in 1925, and archival studies in Arabic began to appear only in the 1930s. Second, although there was a steady output of historical writing in Arabic throughout this period, the Palace was unable to control or influence all of it. A significant proportion of it was produced by men and women who were not Palace supporters, and hence on subjects other than the exploits of Muhammad Ali and his successors.[42] Third, the large corpus of European-language works seems to have been aimed, at least in part, at influencing the construction of Egypt's historical narrative in the West.

In addition to books on Muhammad Ali and his era, numerous other books (not included in the above account) appeared in this period that dealt with various aspects of the modern history of Egypt. Nearly all of them begin the narrative of modern history with the French expedition and/or the rise of Muhammad Ali, and all emphasize the pivotal role of the Pasha. An illustrative example is *Coup d'Oeil sur la Chronologie de la nation Egyptienne*, by Joseph Cattaui Pasha, published in Cairo in 1931. The Cattaui (Qattawi) family were one of the most prominent Sephardic Jewish-Egypian families of the early twentieth century, tracing their roots in Egypt to the eighth century. Among his many business and political activities, Joseph Cattaui was a founding director of Bank Misr in 1920.[22] Cattaui divided the nation's history into several epochs, and, in keeping with the contemporary liberal nationalist construction of it, he began with the pre-dynastic period. He identified the period extending from the Persian conquest in late antiquity through Ottoman rule up to 1805 aan era of foreign conquest and rule, and in contrast to that, he labeled the era of Muhammad Ali and his dynasty as the period of "national renaissance" and "the national epoch."[23]

The liberal nationalist perspective was quite similar to, but not exactly the same as the viewpoint found in contemporary studies by sympathetic Europeans. An

example of the latter is A.E. Crouchley's study of foreign investment and the public debt, commissioned by the Ministry of Finance and published by it in 1936. "Modern Egypt," Crouchley wrote in his introduction, "begins with Mohamad Ali." Yet whereas the liberal nationalists tended to attribute the pre-nineteenth century decline to foreign (especially Turkish) rule, in Crouchley's view the cause of Egypt's decline was its isolation from progressive developments in Europe, an isolation that Muhammad Ali ended.[45]

During the monarchy period, also, a smaller though still significant number of books appeared on Muhammad Ali's son and grandson, Ibrahim and Ismail, the aim of which was to secure their place in history as well. The reigns of Abbas I and Said (1849-1863) were almost completely neglected. From any perspective, those years are a crucial period in Egypt's history, but Fuad and Faruq were direct descendants of Muhammad Ali, Ibrahim, and Ismail. The historical narrative promoted by the kings had no place for Abbas and Said, and partly as a consequence there is gap in our knowledge of their period that persists to this day.

Conclusion.

This paper highlights the Ottoman and Egyptian contribution to the decline and revival thesis and the related idea of Muhammad Ali as "the founder of modern Egypt" as a way of explaining why those theses are so persistent in narratives of Egyptian history. One may object to the forgoing on the ground that Muhammad Ali's reforms did indeed lay the foundations of a modern nation-state. Or, alternatively, one might argue that regardless of whether the Pasha's nickname is justified, the many qualitative changes that occurred in the nineteenth century do justify a sharp distinction between the "modern" and "Ottoman" periods. However, such objections would not address the main point of this paper, which is not proposing simply to construct a new narrative of history in opposition to the conventional one. Rather, the aim is to suggest that we as historians have no obligation to stay within the boundaries and categories of the conventional narrative, since important aspects of it were constructed originally in support of political agendas. The purpose, as I have tried to show, was to close the debate on Egyptian history rather to open it to further inquiry. Hence, to the extent that we accept those boundaries and categories uncritically, as if they were revealed scripture, our work will be inhibited.

Notes.

---

[1] Rifaat Ali Abou-El-Haj, *Formation of the Modern State: The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries* (Albany, 1991); Daniel Crecelius, *The Roots of Modern Egypt* (Minneapolis and Chicago, 1981); Leslie Peirce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire,* (Oxford, 1993); Jane Hathaway, *The Politics of Households in Ottoman Egypt: The Rise of the Qazdaglis* (Cambridge, 1997).

[2] Albert Hourani called attention to the role of the notables in his landmark article, "Ottoman Reform and the Politics of the Notables," in *Beginnings of Modernization in the Middle East*, ed. William R. Polk and Richard L. Chambers (Chicago, 1968), 41-68. See also Abdel Karim Rafeq, *The Province of Damascus 1723-1783* (Beirut, 1966); Karl Barbir, *Ottoman Rule in Damascus, 1708-1755* (Princeton, 1980); and Philip Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920* (Cambridge, 1983).

[3] David Ayalon, "The Historian al-Jabarti," in *Historians of the Middle East*, ed. B. Lewis and P.M. Holt (London, 1962), 391-402.

[4] See the review of eighteenth-century antecedants in Gamal al-Din al-Shayyal, *A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century*, (Alexandria, 1962), and also the same author's *Muhadarat `an al-haraka al-islahiyya wa marakiz al-thaqafa fi al-sharq al-islami al-hadith* (2 vols.; Cairo, 1958); and Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760-1840* (Austin: University of Texas Press, 1979).

[5] See Andre Raymond, *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries* (New York, 1984); and Nelly Hanna, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods* (Cairo, 1983).

[6] Justin McCarthy, "Nineteenth-Century Egyptian Population," *Middle Eastern Studies*, 12, 3 (October 1976), 1-39; Daniel Panzac, "The Population of Egypt in the Nineteenth Century," *Asian and African Studies*, 21 (1987), 11-32.

[7] On this see, e.g., Andre Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle* (Damascus, 1974); and Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: the Life and Times of Isma`il Abu Taqiyya, Egyptian Merchant* (Syracuse, 1998).

[8] Kenneth M. Cuno, *The Pasha's Peasants: Land, Society and Economy in Lower Egypt, 1740-1858* (Cambridge, 1992), 30-32, 48-63. Dina Khoury and Beshara Doumani have made similar observations with regard to Ottoman Iraq and Palestine. See Dina Rizk Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul, 1540-1834* (Cambridge, 1997); and Beshara Doumani, *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1758* (Berkeley and Los Angles, 1995).

[9] In *The Pasha's Peasants* I have also emphasized the persistence of rural notable families in Egypt, from the eighteenth to the early twentieth century.

[10] Edward Said, *Orientalism* (New York, 1978).

[11] *Islamic Studies*, 1 (1962), 71-87. See also Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (Oxford, 1968), and Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (2 vols.; Cambridge, 1976-1977), in which the "observations" of the *nasihatname* writers are rehashed as description and explanation of Ottoman decline. It should be noted that Lewis and Shaw were in conformity with the prevailing interpretation in Turkish-language historiography at the time that they wrote.

[12] Abou-El-Haj, *Formation of the Modern State*, 23-24.

[13] This new perspective informs Suraiya Faroqhi's section, "Crisis and Change, 1590-1699," in *An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300-1914*, ed. Halil Inalcik and Donald Quataert (Cambridge, 1994), 411-636. See especially pp. 413-414.

[14] The latter is often put in terms of the rise of the *a'yan* (Turkish, *ayan*).

[15] Douglas A. Howard, "Ottoman Historiography and the Literature of 'Decline' of the Sixteenth and Seventeenth Centuries," *Journal of Asian History*, 22, 1 (1988), p. 53.

[16] Lewis, "Ottoman Observers," 83.

[17] J.C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East* (2 vols.; New York: Van Nostrand, 1956), 1:113-114.

[18] *La'ihat zira`at al-fallah wa tadbir ahkam al-siyasa bi-qasd al-najah* (Cairo, 1829), 2.

[19] Hurewitz, *Diplomacy*, 1:150.

[20]Kenneth M. Cuno and Michael J. Reimer, "The Census Registers of Nineteenth-century Egypt: a New Source for Social Historians," *British Journal of Middle Eastern Studies*, 24, 2 (1997), 213.

[21] Text in Abd al-Rahman al-Rafi` *`Asr Ismail* (2d. edn.; 2 vols.; Cairo, 1948), 2:85.

[22] Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1789-1939* (Cambridge: Cambridge university Press, 1983), 73.

[23] Cuno, *The Pasha's Peasants*, 205-206.

[24] Ida A. Pratt, *Modern Egypt: A List of References to Material in the New York Public Library* (New York, 1929), 95. I also surveyed Ayda Ibrahim Nusayr (Aida Nosseir), *Al-Kutub al-`arabiyya allati nushirat fi misr fi al-qarn al-tasi` `ashar* (Cairo, 1990).

[25] Abd al-Rahman al-Jabarti, *Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar* (Bulaq, 1880), 2:191-92, 203, 381, 418-19.

[26] Ibid., 4:225, 228.

[27] Cuno, *The Pasha's Peasants*, 122.

[28] See the contribution in this volume by Dr. Ali Kurkhan. Khaled Fahmy describes the Pasha's presentation of himself to European visitors in *All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His army and the Making of Modern Egypt* (Cambridge, 1997), 1-9.

[29] For an overview of this literature see Jacques Tagher, *Mohamed Ali jugé par les Européens de son temps* (Cairo, 1942).

[30] Paul Merruau, *L'Egypte contemporaine de Mehemet-Ali a Said Pasha. 1840-1857* (Paris, 1858), 45-55; Domenico Gatteschi, *Real Property. Mortgage and Wakf according to Ottoman Law* (London, 1884), 31-32.

[31] Lord Cromer's book *Modern Egypt* (London, 1908) says it all.

[32] Muhammad Rashid Rida, *Tarikh al-ustadh al-imam* (3 vols.; Cairo, 1925), 2:382-89; also Hourani, *Arabic Thought*, 159.

[33] Summary in *Al-Ahram*, 22 May 1902.

[34] "Mohamed Aly Centenary," *The Egyptian Gazette*, 21 May 1902. This essay was reprinted verbatim during the subsequent centennial celebration, on 13 May 1905. Some of the comments in it were plagiarized from Baron de Malortie, *Egypt: Native Rulers and Foreign Interference* (2d. ed.; London, 1883), 27-30, 65.

[35] "Mohamed Aly. Some personal Reminiscences by Sir Charles Murray K.C.B.," *The Egyptian Gazette*, 12 May 1905. Murray was one of the British consuls in Egypt during Muhammad Ali's rule. The nickmane was used in the editorial introduction. Speech: "Mohamed Aly Centenary. Celebrations at Alexandira," *The Egyptian Gazette*, 14 May 1905.

[36] This is to simplify to some extent the picture of the contending forces.

[37] See Ayda Ibrahim Nusayr (Aida Nosseir), *Al-Kutub al-`arabiyya allati nushirat fi misr bayn `amay 1900-1925* (Cairo, 1983), 331, 333.

[38] *Tarikh misr fi `ahd al-khidiwi ismail basha min sanat 1863 ila sanat 1879* (Cairo, 1923); see Nusayr, *Al-Kutub al-`arabiyya allati nushirat fi misr bayn `amay 1900-1925*, 331.

[39] More than a few traces of the original Abdin archive are present in the present-day national archives (Dar al-Watha'iq). Two examples will suffice here. First, the translations into Arabic of Ottoman Turkish documents that were done in the monarchy period are but summaries which tend to leave out information unflattering to the dynasty (personal communication from Khaled Fahmy). Second, the file of copies of articles from the official journal, *al-Waqa'i` al-Misriyya*, only contains articles from the reigns of Muhammad Ali and Ismail, the great-grandfather and father of Fuad. None of the other nineteenth-century khedives were his direct ancestors.